# كفاح الشعب الجزائري

# ضد الاحتلال الفرنسي

# وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس

## الجزء الثاني

موسوعة كفاح الشعوب 2

# كفاح الشعب الجزائري

# ضد الاحتلال الفرنسي

## وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس


تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي



دار ابن كثير

دمشق . بيروت

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

## الإهداء

إلى الشعب الجزائري الذي رفض الدنيَّة في دينه وعرضه وكرامته وحقوقه وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل، وتصدى لكل ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

إلى الشعب الذي قدم قوافل الشهداء ودفع الثمن غالياً وابتلي بالجوع والخوف، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، وما ضعُفَ وما استكان للوصول إلى حريته وكرامته وحقوقه واستقلاله.

إلى الشعب الذي سطَّر ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير وعلَّم الشعوب المتعطشة للحرية أن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة، لأن ذلك من سنن الله: {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً *} [فاطر: 43].

قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *} [الكهف: 110].

* * *

موسوعة كفاح الشعوب 2

# كفاح الشعب الجزائري

# ضد الاحتلال الفرنسي

## وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس


تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي

# المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

ـ قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *} [آل عمران: 102].

. وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا * } [النساء : 1].

. وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *} [الأحزاب : 70 . 71].

**أمَّا بعد:**

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

**أما بعد:**

هذا الكتاب الجزء الثاني من كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، وهو امتداد لموسوعة كفاح الشعوب التي بدأت في كتابتها، والتي سبقتها عدة موسوعات بحمد الله ومنه وتوفيقه منها:

. موسوعة السيرة والخلفاء الراشدين والدولة الأموية.

. موسوعة الحروب الصليبيَّة.

. موسوعة تاريخ شمال أفريقيا.

. موسوعة أركان الإيمان.

. موسوعة التفسير الموضوعي في القرآن الكريم: الوسطية في القرآن، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، المعجزة الخالدة.

وأخذت هذه الدراسات عقوداً من الزمن في البحث والدراسة، حتى رأت النور بفضل الله ومنه وتسديده وتوفيقه، واليوم نتحدث عن الجزء الثاني من موسوعة كفاح الشعوب الذي سميته:

**«كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي**

**وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس»**

فكان على الشكل التالي:

**المبحث الأول**: الحركات الوطنية ما بعد الحرب العالمية الأولى ويتضمن الحديث عن الحرب العالمية الأولى، والأمير خالد وعن نسبه ومؤهلاته وشجاعته ونشاطه السياسي، وتوحيد صفوف المناضلين، وعن الروح الجديدة، وعن مضايقة فرنسا للأمير ورحيله للمنفى، وعن حياته في باريس ونفيه لسوريا، وعن وفاة الأمير خالد وما قيل فيه من رثاء، وكان الحديث عن أحمد مصالي الحاج، وعن نشأته العائلية والاجتماعية، وعن هجرته واستقراره في فرنسا، وعن تأسيس حزب نجم شمال أفريقيا، وحزب الشعب، وعن تأسيس حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وعن المنظمة الخاصة، وعن الحركة الوطنية الجزائرية، وعن أهم الصحف التي أنشأها الحاج أحمد مصالي، وعن اهتمام أحمد مصالي بحركات التحرر العربي، وعن موقفه من صورة الجزائر، وعن وفاته.

لقد شهد العديد من الشخصيات المهمة، في الدور النضالي للحاج أحمد مصالي من مختلف الاتجاهات

الوطنية، ومنها التي عارضته ووافقته في بداية الخمسينيات، ومن هذه الشهادات التاريخية الهامة ما قاله:

. شكيب أرسلان في مصالي الحاج: ولو كانت الشبيبة الإسلامية كلها على نمطه، لتحرر الإسلام من زمن طويل.

ـ وقال الجنرال ديغول في شخص الزعيم الحاج أحمد مصالي: سخرت من تشرشل، ورزفلت، وستالين وجميع عظماء العالم، ولكني أخفقت مع مصالي.

. وقال أحمد بن بلا أحد القياديين التاريخيين للثورة الجزائرية ورئيس أول جمهورية جزائرية بعد الاستقلال: إن مصالي الحاج رجل عظيم في وطنيته، قد ارتكب بعض الأخطاء، ولكن أخطاء رجل عظيم، كانت في حجمه. ثم يقول:.. أستطيع أن أرسم لك صورة أكثر تفصيلاً عن عبقرية هذا الرجل العظيم، وما فعله والحزب الذي أسسه والجهاز العسكري الذي بناه وظل يشرف عليه بنفسه حتى فجر ثورة أول نوفمبر.. إنني أتكلم وقد خاصمته في بداية الثورة، وحاربناه ولكنني كخصم أقول يجب إعادة الاعتبار إليه، لقد حان الوقت لنقول الحقيقة وحان الوقت بعد عشرين سنة من الاستقلال لأن يأخذ كل واحد حقه[1].

وفي **المبحث الأول**: تكلمت عن شخصية الزعيم فرحات عباس إحدى الشخصيات الوطنية البارزة التي تركت بصماتها في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، إذ كان يطالب بالمساواة في إطار الاندماج والتجنس، إلا أنه غير من مواقفه السياسية فيما بعد.

وتحدثت عن نشأته العائلية والاجتماعية، والتعليمية والدينية، والوطنية والأخلاقية، وعن الاتحاد الشعبي الجزائري، وعن نزول جيوش الحلفاء في الجزائر، وعن تأسيسه لحركة البيان، وعن أحباب البيان والحرية، وتكلمت عن الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وعن الجبهة الجزائرية للدفاع ، وعن انضمام فرحات عباس لجبهة التحرير الوطنية ووفاته.

(1) بن بلا يتكلم، السعيد الصافي حلقة 4 جريدة السفير.

ـ وأثنى عليه معاصروه، فقال فيه حسين ايت أحمد في شهادة عن فرحات عباس: فرحات عباس كان نزيهاً ومخلصاً.

ـ وقال الباحث محمد حربي: إن فرحات عباس لعب دوراً كبيراً أثناء الثورة التحريرية، فلم يعد يطالب بالاندماج، بل طالب بالاستقلال.

ـ وقال عنه حساني عبد الكريم: كافح فرنسا بمنطق السياسة، وسلاحهم، وكان يضرب الفرنسيين في الصميم، محاولاً الكشف عن النفاق في سياستهم(1).

وفي **المبحث الثاني**: تكلمت عن الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس، واحتوى هذا المبحث الحديث عن أسرة ابن باديس ومولده ونشأته وطلبه للعلم، وذهابه لجامع الزيتونة لطلب المعرفة والثقافة والعلم بتونس، وأشرت إلى تأثير مشايخ الزيتونة عليه، وخصوصاً كل من:

ـ الشيخ محمد النخلي الذي أثر في تفكيره عندما شكا لأستاذه النخلي من أساليب القدامى في تفسير القرآن الكريم، فقال له الشيخ النخلي ناصحاً ومرشداً وموجهاً:

اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة وهذه الاراء المضطربة، يسقط الساقط، ويبقى الصحيح وتستريح.

فيقول ابن باديس عن هذه النصيحة: فالله فتح بهذه الكلمات القليلة عن ذهني افاقاً واسعة، لا عهد لي بها، ومن الشيوخ الذين تأثر بهم في تونس:

ـ محمد الطاهر بن عاشور الذي اهتم بجانب القرآن الكريم بعلوم أخرى، له عدة مؤلفات في الأدب والتراث، وكان من الذين نادوا بإصلاح الزيتونة. يقول عنه ابن باديس: عرفت هذا الأستاذ في جامع الزيتونة، وهو ثاني رجلين الذين يشار إليهما بالعلم.. وإن أنسى لا أنسى دروساً قرأتها من عليه، فقد حببني في الأدب

---

(1) منابع الثقافة والسياسة في الخطاب الوطني ص450.

والفقه في كلام العرب، وبثت فيَّ روحاً جديدة في فهم المنظوم والمنثور وأحيت فيَّ الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام، وتأثر في علم التاريخ بالشيخ:

. محمد البشير صفر حيث يقول ابن باديس: أن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر.

وغيرهم من المشايخ والعلماء والفقهاء والساسة، وتعرَّضت في هذا الكتاب لرحلاته إلى المشرق، مصر والحجاز وأداء فريضة الحج، ثم الذهاب إلى المدينة واستقراره بها، وإعطاء درساً في مسجد رسول الله (ص)، وأعجب به العلماء إعجاباً شديداً ممَّا لفت الأنظار إليه، وفي هذه الأثناء أشار عليه شيخه حمدان الونيسي بالبقاء في المدينة، إلا أن العلاَّمة حسين أحمد الهندي لم يوافقه على ذلك، بل نصحه بضرورة العودة إلى وطنه لخدمة بلاده ومحاولة إنقاذها ممَّا هي فيه وبما توسم فيه من حزم وعزم وصلاح، قائلاً له: ارجع إلى وطنك يا بني فهو بحاجة إليك وإلى أمثالك. فالعلماء هنا كثيرون، يغنون عنك، ولكنهم في وطنك وفي مستوى وطنيتك وعلمك قليلون، وخدمة الإسلام في بلادك أجدر لك وأنفع لها من بقائك هنا. واقتنع الشاب عبد الحميد ابن باديس بوجهة نظر هذا الشيخ، وقبل نصيحته وقرَّر الرجوع إلى الوطن، ومكث ابن باديس بالمدينة المنورة ثلاثة أشهر قضاها متعرفاً على العلماء ومجالساً لهم، والتقى بأخيه في الجهاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بالمدينة.

وهذا اللقاء بين الشيخين كان له ما بعده، وذكرت ما حدث بينهم من حديث ووضع خطط وبرامج مستقبلية لنهضة الجزائر وتحريرها من الاحتلال، ووضحت عناصر الخطة والأهداف المرسومة، وكيفية تنفيذ الرؤية المبنية على خطة شاملة، وتحديد مكمن الداء والمراحل التي ستمر بها تلك الرؤية البعيدة المدى لتربية جيل يحمل روح الجهاد والنضال، وإعداده لمعركة فاصلة، لتحقيق الحرية والاستقلال.

وتحدثت عن مسيرة عودة ابن باديس من المدينة إلى الجزائر ومروره بكل من سوريا ولبنان وفلسطين ومصر ولقاءاته مع رجال الفكر والعلم، وبينت أهم عوامل تكوين شخصيته، كتربية والده وأسرته وشيوخه وأساتذته، والبيئة الثقافية، ومؤازرة زملائه في جمعية العلماء له، كالشيخ البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، والعربي بلقاسم التبسي، ومبارك الميلي، وتأثره بالشعب الجزائري وثقافته وأخلاقه وقيمه، وعلاقته الخاصة بالقرآن الكريم حفظاً وفهماً ودعوة وتعليماً، فقد كان يؤمن بأن نهضة الجزائر الحقيقية، وتقدمها وتطورها المنشودين ؛ لا يمكن أن يقوما إلا على أساس الرجوع إلى تعاليم القرآن الكريم وهدايته، أي إحداث نهضة إسلامية شاملة تبعث روح العزة والكرامة في المواطنين وتجعلهم يستعذبون الموت في سبيل الحياة.

وقد صور لنا ابن باديس تأثير القرآن الكريم في نفسه وتكوين شخصيته كالاتي: ثم الفضل أولاً وأخيراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب بادابه، وإن القرآن الذي كوّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوِّن رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره، وحملت الأنفس على مناهجه، ثم يقول إذا لم يكن في حياتي العلمية من لافت للقران إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي للدرجة التي تحمدونها اليوم، فإننا . والحمد لله . نربي تلاميذنا على القرآن من أول يوم، ونوجّه نفوسهم إلى القرآن الكريم في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرانيين تعلق هذه الأمَّة امالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها[1].

وأشرت في هذا الكتاب إلى أهم صفات وأخلاق ابن باديس، كحيويته العالية، وثباته على المبدأ، وشجاعته وصرامته في الحق، والحلم والتسامح ، والتواضع، والزهد ، والجدية وحسن استغلال الوقت ، والتطوير

(1) عبد الحميد بن باديس (الشهاب) عدد خاص (ج4 . 5م 14 ص291.

والتجديد، وروح الفريق، وكونه مؤثراً، وغيرها من الصفات والأخلاق.

وتحدثت عن تفرغ الشيخ ابن باديس للتدريس والتربية واستقراره بقسنطينة والتعلم بالجامع الأخضر، وبناؤه لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية، وعن التعليم المسجدي، وعن دعم الشعب الجزائري للحركة العلمية التي قادها ابن باديس، وعن تجواله في القطر الجزائري، وعن اهتمامه الكبير وتضحيته العظيمة لبناء جيل من الشباب على أسس عقائدية ومبادئ وقيم وأخلاق راسخة، وبينت اهتمامه بالصحافة وتأسيسه جريدة المنتقد، وجريدة الشهاب، ومجلة الشهاب وغيرها من المجلات.

وفي **المبحث الثالث**: كان الحديث عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والعوامل التي ساعدت على ظهورها والظروف التي نشأت فيها، وحاجة الشعب إليها والثورة التعليمية التي فجرتها، والتغيير الفكري الذي أحدثته، وتكلمت عن أول اجتماع لرواد الإصلاح، وعن الخطة البارعة والقانون الأساسي للجمعية، وعن غايتها وموقفها من الطرقية والتعليم والبدع والمنكرات العامة، والإلحاد والتبشير، وبينت أهم رجال الجمعية، ووضحت الأصول الفكرية لجمعية العلماء وخصوصيتها، وتحدثت عن المحاولات المنتمية للاحتلال الفرنسي للقضاء على الجمعية، وكيف أن الله رعاها وحماها وأيد أنصارها وعلماءها.

وفي **المبحث الرابع**: أشرت إلى منهج ابن باديس في التعامل مع القرآن والسنة النبوية والعقائد والسنن الإلهية.

لقد اعتمد ابن باديس على القرآن الكريم في حركته الإصلاحية، واعتبره الأساس المتين، وحث الناس على حفظه وفهمه والعمل به والدعوة إليه والاعتصام به، وتفرغ لتعليمه وتدريسه وتفسيره وتربية الناس على مقاصده وأحكامه وأخلاقه وأصوله وقيمه، واهتم ابن باديس في التفسير بالمأثور وتتبع تفسير القرآن الكريم وما روي عن النبي (ص) من تفسير للقرآن، وما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين مما هو تفسير لآيات الكتاب الكريم ، واهتم بالتفسير العقلاني المقيد بالنقل، والعلمي المدعوم بالدليل، والمنطقي القائم على

الحجة والبرهان، وترك نماذج متميزة من ذلك في مجالس التذكير.

ـ وتحدثت عن عناية ابن باديس بالسنة النبوية الشريفة واعتمادها في حركته الإصلاحية التي أقام دعائمها ووطد بنيانها، واعتبرها من مصادر الدعوة والتشريع واستنباط المسائل الفقهية والفوائد والدروس والعبر ووضع الضوابط لفهم سليم للحديث النبوي، كربط السنة بالقرآن الكريم في الفهم، وبين أن السنة بيان وشرح للكتاب العزيز، ومن الضوابط التي وضعها في فهم السنة: التناول الموضوعي للأحاديث، والابتعاد عن القراءة الجزئية للنص، ومراعاة الملابسات الزمانية والمكانية.

ـ وتكلمت عن اهتمامه بالعقيدة ومنهجه القرآني في تعليمها وبيان الشارح وهو السنة النبوية، ويرى أن هذه الطريقة أيسر على عموم الناس كي يفهموا عقائدهم، خلافاً لمنهج المتكلمين الذي يتَّسِم بالصعوبة والتعقيد، بل الغموض والتكلف إذ يزج بهم في عالم من المصطلحات، كالجوهر والعرض والجنس والنوع وعالم من الجداليات التي تتعب عقول العلماء إزاءها، ناهيك عن عقول العوام، بل يعتبر السير في طريق المتكلمين، والحرص عليها مع الإعراض عن طريق القرآن في عرض العقائد وبسطها نوعاً من الهجر لكتاب الله عز وجل، فقال عند تفسير قوله تعالى: {يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورًا *} [الفرقان : 30].

فقال:.. ونحن ـ معشر المسلمين ـ قد كان منّا للقران العظيم هجر كثير في الزمن الطويل ـ وإن كنا به مؤمنين ـ بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها، وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، فأخذنا في الطرق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة، فضلاً عن العامة[1].

واهتمَّ بالدعوة إلى التوحيد وأركان الإيمان.

(1) مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير ص 250.

ـ ووضحت اهتمامه بالسنن الإلهية وتركيزه عليها، كسنة الأخذ بالأسباب، وتغيير النفوس، والمرحلية والتدرج، والابتلاء وقوانين النهوض، ونظرته للفن والجمال، وعن جهده العظيم في التعليم والدعوة والتربية من خلال المدارس الحُرَّة، والصحافة والمجلات والجرائد، والنوادي والرحلات، في القرى والمدن في شرق البلاد وغربها وجنوبها وشمالها.

. وتحدثت عن اهتمامه بالفقه المالكي، وابتعاده عن التعصب وميله للأخذ بالدليل، وتدريسه الموطأ للإمام مالك بن أنس، ومختصر خليل، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومتن ابن عاشور، وكان يرى وجوب التفقه في الكتاب والسنة.

وفي **المبحث الخامس** كان الحديث عن منهجه التعليمي والتربوي والأخلاقي والاجتماعي.

فقد اهتم في منهجه التعليمي، بإصلاح التعليم وتطويره وتجديده، ووضع خطط تناسب عصره وتحرِّر من الوسائل القديمة، ومال إلى بناء مؤسسات تعليمية سواء في المساجد أو المدارس والمعاهد، وكان لجمعية العلماء نشاط عظيم على مستوى القطر الجزائري في قيادة المشروع الحضاري التعليمي المعبر عن هوية وثقافة وحضارة وتاريخ الشعب الجزائري.

واهتم ابن باديس وعلماء الجمعية بالأُطر التنظيمية للتعليم سواء على المستوى العلمي والمناهج، أو إعداد المدرسين، أو الهياكل الإدارية، أو المنظومة التربوية الخاضعة للجان متخصصة وفق الأهداف العليا لحركة العلماء، فعمل نظام للعرفاء، ونظام للدراسة، والأساتذة المساعدين، ونظام لمجلس الأساتذة، ونظام لانتقال الطلبة من طبقة إلى أخرى. واهتم بالجانب القانوني في تأسيس المدارس والمعاهد واعتنى باللغات وخصوصاً العربية.

واستطاع ابن باديس أن يتجاوز الطرق العقيمة في تدريس العلوم التي لا تعدو أن تكوّن عند طالبها ثقافة

لفظية جدلية لا تهذب سلوكاً ولا تغيِّر واقعاً، بل تغرق طالبها في معارك وهمية لا يخرج منها إلا وهو خائر القوة منهك الجسد دون أن يستفيد من ذلك شيئاً، ولذلك يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم وإنما نربيه على فكرة صحيحة مع قليل من العلم، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلاميذنا[1].

. وأما المنهج التربوي الذي سار عليه فقد استطاع من خلاله أن يربي جيلاً من عظماء الجزائر، وساهموا في نهضة الجزائر الحديثة، فقد اهتم بأهداف التربية العقلية والروحية والأخلاقية والاجتماعية وحرص على صياغة القيم والفضائل الأخلاقية في صورة منهجية، وفق قواعد عامة معروفة، ثم في صورة نداءات ووصايا يمكن أن تتحول إلى قالب تعليمي وإرشادي يسهل التعريف والدعوة إليه، وكان يردد تلك النداءات في محاضراته ومقالاته وتفسيراته ورحلاته أيضاً، واستطاع بذلك أن يحول قيم الرحمة والعدل والمساواة والحق والصدق والحب والتسامح وغيرها إلى برنامج عمل إصلاحي أو نظرية متكاملة في كيفية إصلاح الإنسان وبنائه وتقويمه، وقدمها كنموذج للأخلاق العملية التي تقوم على أساس ديني وإجتماعي[2].

ووضع ابن باديس مجموعة من القواعد الواجبة الالتزام والتنفيذ، كإطار عام لمنهجه في التربية الأخلاقية:

**القاعدة الأولى**: الالتزام بالمنهج القرآني.

**القاعدة الثانية**: الجمع بين النظر والعمل.

**القاعدة الثالثة**: صدق العمل.

**القاعدة الرابعة**: المطابقة بين الظاهر والباطن.

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 209.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 178 . 179).

**القاعدة الخامسة:** المطابقة بين العلم والدين.

واهتم ابن باديس في تفسيره لايات القرآن وأحاديث الرسول (ص) ببيان أهم الفضائل الأخلاقية، المستمدة من المصادر النقلية وفي مقدمتها الرحمة، والعدل، والمساواة والأمانة والصدق، والإحسان والبر إلى اليتامى والمساكين والبر إلى الوالدين، والجهاد في سبيل الله، والحب والتسامح والصبر والثبات والإيثار والوفاء بالعهد، وغير ذلك. وذلك عند تفسيره للعديد من الآيات القرآنية[1].

واهتم في تربيته وتعليمه بالمرأة والشباب اهتماماً كبيراً وعظيماً.

وخاطب شباب الجزائر في قصيدته المشهور فقال:

شعـــب الجزائر مسلم ... وإلى العـــــروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب

أو رام إدمـــاجـــــاً له ... رام المحـــال من الطلـب

يا نشء يا ذخر الجزائر ... في الشــتدائد والكـرب

يا نشء أنت «رجاؤنا» ... وبك «الصباح» قد اقترب

خذ للحياة ســـلاحها ... وخض الخطوب ولا تَهَبْ

إلى أن قال:

من كان يبغي وُدَّنا ... فعلى الكرامة والرحب

أو كـان يبغي ذلّنا ... فله المـــهانة والحَرب

هذا نظـــامُ حياتِنا ... بالنور خُطَّ وباللَّهب

حتى يعـــود لشعبنا ... من مجده ما قدْ ذهب

هذا لكم عهدي به ... حتى أُوَسَّـــد بالتُّرب

فإذا هلكتُ فصَيْحتي ... تحيا الجزائر والعرب[2]

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 42).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس ، د. تركي رابح ص 225، 226.

كان ابن باديس حريصاً على المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري وهي من أهم الأهداف التربوية عنده، بل كان هدفه الاستراتيجي المحوري الذي تتفرع عنه كل الأهداف الأخرى التي يأتي التعليم في مقدمتها، وتحرير البلاد في نهايتها، فهو لا يتصور مستقبلاً آخر للجزائر إلا في ظل عروبتها وإسلامها، وهما ركنان أساسيان من أركان الشخصية الجزائرية. وأما الركن الثالث: فهو الجزائر. فالإسلام بتراثه الروحي العظيم، والعروبة بقيمها العريقة، والجزائر بماضيها المجيد ومستقبلها الزاهر ؛ هي المكونات الثلاثة للشخصية الجزائرية في رأي ابن باديس[1].

والتي صاغ على أساسها شعاره المعروف «الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا»[2].

ـ وبينت في هذا المبحث مكانة الأمَّة العربية والإسلامية ومفهوم الأمَّة عند ابن باديس ومتابعته لقضايا العالم الإسلامي، ودعمه لحركات التحرر في تونس، وثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، بالمغرب الأقصى، وجهاد الشعب الليبي ضد إيطاليا، وحديثه عن استشهاد عمر المختار، وعن موقفه من وحدة الشمال الإفريقي، ومناصرته للقضية الفلسطينية وللشعب السوري ضد الاحتلال الفرنسي، وكان يتابع الأحداث الفكرية والأدبية والثقافية في العالم الإسلامي، ويترجم لرموزه كما حدث في تأبين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وكتابته عن سيرة الشيخ محمد رشيد رضا بعد وفاته، وكذلك الشيخ محمد بخيت المطيعي من علماء الأزهر الشريف.

ـ وتكلمت عن مقاله في أسس قيام الدولة العربية الموحَّدة، كالإطار الخلقي، والجغرافي والسكاني والإجتماعي، والديني والسياسي، وما قاله عن خصائص الدولة العربية الموحدة، لكونها فاضلة، ودولة تعاون ومشاركة وعلم ومدنية، وعن وظائف هذه الدولة ،كامتلاك وسائل القوة، لتحقيق العدل، والسعي لتحقيق الأمن والسلام الاجتماعي ، وحفظ الأموال باحترام الملكية ، والمحافظة على التراث ومكوناته، والسعي لتحقيق

---

(1) المصدر نفسه ص 255.

(2) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 67.

الحرية والاستقلال، وكان الحديث عن عوامل قيام الدولة وبناء الحضارة وعوامل ضعفها وانهيارها، وعن أصول الولاية في الإسلام، ومسألة الخلافة العثمانية، ونظرته لمصطفى كمال أتاتورك، والخلافة القائمة، وما هو البديل عنها بعد سقوطها، وعن المؤتمر الإسلامي بالجزائر، وأهم قرراته وأهدافه ومطالبه، وأثر مشاركة جمعية العلماء فيه، وعن الوفد الذي ذهب لفرنسا بمطالب الشعب الجزائري، ورفض الحكومة الفرنسية لمطالبهم.

وبعد رجوعه وجه خطاباً للشعب الجزائري جاء فيه:..

حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمَّة ترى أو أكثريتُها ذلك كثيراً عليها.. ويُسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا.. ثم قال: تناسوا الحزازات، امحقوا الشخصيات، برهنوا للعالم إنكم أمَّة تستحق الحياة، برهنوا لفرنسا أنكم كما وقفتم معها في الحرب صفاً واحداً تدافعون عنها، تقفون في السلم صفاً واحداً تدفعون الأنانيين منها الذين هم مثل أعدائها[1].

. وتحدثت عن الفكر التحرري عند ابن باديس وإيمانه بالتعددية، وحرية التعليم، والحرية السياسية، وحرية الرأي والتعبير، وعن الثورة في شعر ابن باديس ونثره ودعوته إليها قبل وفاته، وتربية تلاميذه على مبادئ التحرر والاستقلال والحرية والثورة.

. وفي نهاية الكتاب كان الحديث عن وفاته ومرضه الذي أصيب به وهو داء السرطان في الأمعاء، وأضاف البعض سل العظام، ومع شدة مرضه: كانت إقامته قبل وفاته محددة من طرف الإدارة الاستعمارية في مدينة قسنطينة، ليس له أن يبرحها إلى غيرها من نواحي البلاد[2]، مما جعل وفاته غير طبيعية[3].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 371).

(2) نوابغ العرب ص 101 ، مجموعة أساتذة.

(3) جهاد ابن باديس ص 103.

ـ وافى الأجلُ الإمامَ عبدَ الحميد بن باديس مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول 1395هـ الموافق 16 نيسان 1940م، وشيعت جنازته في موكب جنائزي مهيب ويوم مشهود. وقد رثاه الشاعر محمد العيد ال خليفة بقصيدة ارتجلها عندما وقف لأول مرة على قبره، جاء فيها:

يا قبر طبت وطاب منك عبير    هل أنت بالضيف العزيز خبير

هذا ابن باديس الإمام المرتضى    عبد الحميد إلى حماك يصير

العــالم الفــذ الذي لعـلومــه    صيت بأطراف البلاد كبير

بعث الجزائر بعد طول سباتها    فالشعب فيها بالحياة بصير

إلى أن قال:

نفحتك من نفحات ربك نفحة    وسقاك غيث من رضاه غزير(1)

لقد غادر ابن باديس الحياة بعد أن نجح في ترسيخ القيم والمبادئ ومقاصد القرآن الكريم في الشعب الجزائري بقلمه ولسانه وتلاميذه وجهاده ودعواته، ولقد أحدث إصلاحاً شاملاً، واحتفظت الجزائر بشخصيتها الإسلامية وقاومت التفرنس والاندماج والاستعمار بفضل الله، ثم ابن باديس ومن كان على منواله في النضال والكفاح والجهاد وأبناء الشعب الجزائري الذين استجابوا لخطاب الهوية والعقيدة والحضارة والتاريخ والقيم والأشواق الروحية، فقد مهد ابن باديس بفكره المستنير وعبقريته الفذة، وتعاليمه العظيمة، وتضحياته الكبيرة، لولادة الثورة الجزائرية سنة 1954م.

ومع بداية الحرب العالمية الثانية دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث وبدأت الحركات السياسية والشعب الجزائري المتشوق لحريته واستقلاله يستعد لملحمة الثورة الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي، وتُوِّجت جهود العلماء والمناضلين وأبناء الشعب بثورة قلَّ مثيلها في تاريخ الإنسانية، قضت على الوجود العسكري والسياسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري، وهذا ما سنعرف تفاصيله بإذن الله تعالى

(1) ابن باديس حياته وآثاره 95/1.

في الجزء الثالث من كتابي: «**كفاح الشعب الجزائري ضد الإحتلال الفرنسي**».

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة 3 جماد الأولى 1437هـ 12 فبراير 2016م الساعة الرابعة ونصف بتوقيت الدوحة بعد صلاة العصر، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [فاطر : 2].

ولا يسعني في نهاية الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلَّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلَّد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف، ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان.

اللهم بصِّرني بما يرضيك، واشرح صدري له، وجنِّبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تثيبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولا أنت ثم هم ما كان له وجود ولا إنتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطَّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

قال تعالى: {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *} [النمل : 19].

وأختم هذه المقدمة بقول الله تعالى:{ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [الحشر : 10].

**الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه**

**علي محمد محمد الصَّلاَّبي**

**غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين**

# المبحث الأول

# الحركات الوطنية ما بعد الحرب العالمية الأولى

## أولاً: الحرب العالمية الأولى:

أعلنت الحرب الكبرى سنة 1914م، فجند الفرنسيون أبناء المغرب العربي، وخصوصاً الجزائريين، فأخذ هؤلاء يفرون من الجندية ويلتجأئ الكثيرون منهم إلى شواهق الجبال، حتى بلغ عدد اللاجئين مائة وعشرين ألفاً، ونشأ عن ذلك اضطراب كبير أدى إلى مظاهرات عدائية قتل فيها عدد من الموظفين والمعمرين الفرنسيين من بينهم العامل كاسي لوني والمدبر الرئيسي مارساي، ووافق ذلك حركات منظمة في المدن تنادي بالتحرر وتطالب بالجلاء، وفرت فرق من المجندين الأهالي إلى صفوف الدولة العثمانية، من أهمها فرقة اليوطنا الحاج محمد بوكابويا، فأخذت حكومة باريس تشعر بالخطر يهددها من الجزائر، ولجأت إلى سياستها التقليدية التي هي الوعود الخلابة والتلويح الكذوب(1).

وكانت الدولة العثمانية في المعسكر المعادي، في حين كان بعض الزعماء الجزائريين قد تأثر قبل الحرب بدعوى الجامعة الإسلامية، وعلق الأمل على الباب العالي مثل بعض الوطنيين في مصر وتونس لتخليصه من الاستعمار الأوربي، ولم تفوت ألمانيا أو حكومة اسطنبول استغلال المنابر الإسلامية فضربت بارجتان ألمانيتان مينائي سككدة وعنابة في أكتوبر 1914م، ولعل من بين أهدافها إيقاظ المقاومة على غرار ثورة المقراني سنة 1871م، ومن المؤكد أنها توقعت قيام ثورة عامة.

---

(1) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، علاَّل الفاسي ص11.

وأما العثمانيون فقد حاولوا التأثير على الجزائريين بوسائل شتى، منها إصدار فتوى بعدم جواز الحرب ضد المسلمين، منع الفرنسيون وصولها إلى البلاد، ومنها إرسال سليمان باشا الباروني إلى طرابلس لإثارة المسلمين في شمال إفريقيا ضد فرنسا، كما استخدمت الطريقة السنوسية ذات الصلات الطيبة بالعثمانيين للتأثير على أهالي الصحراء الكبرى الذين وصلتهم الدعوة السنوسية، ومن هذه الوسائل تعيين المثقفين الجزائريين في مناصب هامة، فالأمير علي الجزائري صار نائبا لرئيس «المبعوثان». وهو من نسل الأمير عبد القادر وكانت عائلة الأمير قد اتسعت وقدر أفرادها بثلاثة الاف. فتسابق المعسكران على كسب ودهم. وبينما استقدم الفرنسيون عمر باشا بالإضافة إلى خالد محيي الدين الكولونيل بالجيش الفرنسي، شجع الألمان عبد الملك على القيام بثورة في شرق مراكش، وقد تكونت لجان في برلين وجنيف واسطنبول وكلها تدعو إلى تحرير شمال إفريقيا، وقد ساعدت تلك اللجان على فرار بعض المجندين الجزائريين، وسلحت الأسرى واستطاع بعضهم التسلل إلى الجزائر والاشتراك في الثورات التي وقعت احتجاجاً على التجنيد، وقد قللت المصادر الفرنسية من شأنها وتتحدث على العكس غالباً عن ولاء الجزائريين وخدماتهم بالجيش، وتبرع أغنيائهم بالأموال لفرنسا ؛ بيد أنه ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار عوامل أخرى دفعت الجزائريين إلى قبول الخدمة العسكرية، منها: انخفاض مستوى المعيشة، واحتراف الكثيرين من قبل العمل في فرقة القناصة الجزائريين التي اشتهرت بحروبها في إفريقيا، يضاف إلى ذلك تشجيع بعض رجال النخبة(1).

وابتداءً من سنة 1916م بدأت فرنسا تغير سياستها بعد أن أصبحت تعاني من أزمة اليد العاملة والجنود الذين يدافعون عن عملها وبقائها كدولة ذات سيادة.

وآنذاك صدر مرسوم بتاريخ 7 سبتمبر 1916م على تجنيد جميع الجزائريين الذين ولدوا بعد عام 1895م

(1) المغرب العربي ، د. صلاح العقاد ص 290.

وعدم السماح لأي شخص أن يحصل على أي إعفاء. وبعد أسبوع من ذلك صدر مرسوم آخر يقضي بتزويد فرنسا بـ 500،17 عامل جزائري، ثم ارتفع العدد إلى 000،78 عامل، إلا أن المشكل هنا هو أن معظم الجزائريين قد رفضوا أن يتجندوا وأن يخدموا دولة ترفض أن تنصفهم وتمنحهم حق التمثيل السياسي، ففي خريف 1916م وقعت مناوشات ومصادمات بين الجزائريين وبين المسؤولين الفرنسيين في نواحي خنشلة وبسكرة وباتنة، وقامت فرنسا بإرسال وحدات من جيشها إلى هذه المناطق لتأديب المتمردين وأخذهم بالقوة للانخراط في الجيش الفرنسي، وفي يوم 2 فيفري 1916م بلغت الأزمة أوجها حيث تمكن المقاومون الجزائريون الرافضون للعمل في الجيش الفرنسي من اغتيال حاكم باتنة ورئيس الدائرة، وكانت نتيجة لذلك محاكمة 825 معارضاً جزائرياً، وإصدار عقوبات قاسية ضد 805 أشخاص والحكم عليهم بالسجن لمدة 715 سنة في المجموع، كما قامت السلطات الفرنسية بتقديم 165 شخصاً إلى محكمة عسكرية في قسنطينة «مجلس حرب»، ومحاكمة 45 شخصاً في محكمة عسكرية «مجلس حرب» في باتنة، وانتقمت السلطات من 347،62 شخصاً حيث فرضت غرامات مالية لا تقل عن 656،706 فرنكاً.

وباختصار فقد تمكنت فرنسا من اجتياز محنة الحرب العالمية الأولى بعد أن جندت 751،82 جزائرياً في إطار الخدمة العسكرية، وانخراط 519،87 جزائرياً آخر في الجيش بصفة دائمة، كما جلبت 000،78 عامل جزائري إلى العمل في المصانع الفرنسية، لتعويض العمال الفرنسيين الذين التحقوا بالجيش، وحسب الإحصائيات الرسمية الفرنسية، فقد خسرت الجزائر في هذه الحرب ما لا يقل عن 711،25 قتيلاً «من المسلمين» و035،27 جريحاً، أي 5،14% من القوات الجزائرية التي جندت للدفاع عن فرنسا. وهذه النسبة قريبة جداً من نسبة الفرنسيين الذين ماتوا في الحرب العالمية والتي هي 5،19%[1].

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 215.

إن الحرب العالمية الأولى أفادت الحركة الوطنية الجزائرية من عدة وجوه، فهي أخرجتها عن العزلة، ووصل إلى الجزائر صدى ثورة 1917م البلشفية من جهة ومبادئ ولسن من جهة أخرى، وأتيح لعشرات الالاف من الجنود والعمال أن يروا طرق الحياة الجديدة، وأن يشهدوا مظاهر الحرية في فرنسا، وأضحى بوسع زعمائهم أن يطالبوا بالمكافأة على التضحيات الهائلة التي تتمثل في 25 ألف قتيل، 82 ألف جريح من الجزائريين سقطوا أثناء القتال.

علق الضباط الجزائريون بعد الحرب الأمل على مؤتمر فرساي، كي يُلزم فرنسا بتطبيق مبادئ المساواة. ولكن الحكومة أحالت الأمير خالد على التقاعد، فرجع إلى الجزائر ليكوِّن ما أسماه كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين، وهم أعضاء المجالس البلدية الذين استفادوا من التشريع الفرنسي الصادر سنة 1919م، والذي وسع دائرة تمثيل الجزائريين في هذه المجالس(1).

## ثانياً: الأمير خالد:

### 1 . نسبه ومؤهلاته:

ولد الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الحسني يوم 1875/2/20م في دمشق، واستقر والده بالجزائر سنة 1892م، انخرط في كلية سان سير العسكرية الفرنسية وتخرج منها سنة 1897م كملازم ثان، رفض التجنيس واستمر ضابطاً أهلياً، وفي سنة 1908م رقي إلى نقيب، عمل كضابط في الجيش الفرنسي بالمغرب، وكان دائماً محل شك من السلطات العسكرية والمدنية(2).

وبدأ نجم الأمير خالد يعلو نهاية الحرب لاعتبارات تعود إلى أنه كان من نسل الأمير عبد القادر، وأنه كان عارفاً بالحضارة الإسلامية والأوروبية وأنه كان محارباً قديماً قضى زمن الحرب على الجبهة الأوروبية.

كانت للأمير خالد عدة مؤهلات سهلت له تقلد الزعامة في تلك المرحلة الصعبة من تاريخ الجزائر، إن

(1) المغرب العربي ص 219.

(2) الجزائر في التاريخ ، عثمان سعدي ص 669.

ذكرى جده كانت ما تزال في ذاكرة الشعب تحيي في نفوسهم ذكرى الاباء والأجداد الرافضين للذل والهوان الباذلين جهودهم لصالح هذا الوطن وهذا الشعب، إن نسبه المرتبط بجدِّه رائد الكفاح المسلح سهّل عليه اكتساب شعبية معتبرة وأمده بطاقة خلافة يشق بها طريقه الصعب، لقد هيأت الأقدار الأمير خالد لأن يكون له شأن، إنه ولد حفيداً للأمير عبد القادر ونشأ في وسط عائلي يطغى عليه احترام القيم والمثل العليا، وتذكره المأثورات العائلية بذلك المجد الخالد الذي سطره جده مع الخالدين من قادة هذا الشعب الأبي.

في ظل هذه الصورة الأميرية السامية التي تجر وراءها ذكريات حية راسخة عن مقاومة مجيدة باسلة ؛ والسمعة التي زادتها أسطورة الشرق تضخماً ؛ وجد الفتى خالد وعيناه تتقدان ذكاء وتتحرقان شوقاً إلى المعرفة ومزيد من الإصلاح لدى جده الأمير عبد القادر صاحب شخصية القائد الذي لا يكل ولا يمل والفيلسوف الورع الجذاب والشاعر المتميز والفارس المغوار.

لقد استلهم الأمير خالد بطولته من جده رائد المقاومة الجزائرية في العصر الحديث[1].

### 2 . شجاعته:

كان عنيفاً في مواقفه عندما أهانه الهاشمي بن شنوف طالبه بالمبارزة، وعندما كان بالمغرب انقذ عمه من سجن سلطان المغرب مولاي حفيظ، متنكراً في هيئة حمّار، ومن القصص التي كانت تروى عن الأمير خالد أنه ركب القطار بزيّه العسكري وعليه إشارة نقيب وكان مغطى ببرنوس وعلى رأسه شاش، وكان في القمرة التي ركب فيها ملازم فرنسي مع زوجته التي معها كلب، وكانت كلما دخل عربي للقمرة تسخر منه وتصفه بالقذر، والأمير يستمع، وعندما وصلت سرعة القطار الثمانين انطلق الأمير نحو الكلب فرماه من نافذة القطار وهو يصيح: «بأي حق تصحبين معك هذا الحيوان القذر مع أناس نظاف؟! وسخط الزوج فوضع يده على

(1) المصادر فصلية تعنى بشؤون المقاومة الشعبية العدد الخامس عام 2001م ص 70 . 71.

مسدسه، ورفع الأمير جناح برنوسه فظهرت إشارة نقيب، فما كان من الملازم إلا أن أدى له التحية العسكرية وراح بعد ذلك الأمير يعطي للجميع درساً في أن الله خلق البشر سواسية لا فرق بين فرنسي وعربي، والعربي إنسان نظيف لأنه يغسل أطرافه في اليوم خمس مرات. وكان شجاعاً حصل على عدة أوسمة بطولة في الجيش. وارتبط بالعاصمة في الجزائر «بالشبان الجزائريين» الذي سعدوا به لمنزلته، فهو حفيد الأمير عبد القادر، وعبر عن سخطه على عدم تطبيق الإدارة لقرار البرلمان الذي يهدف إلى تعديل قانون الأهالي «الأنديجينا»(1).

### 3. نشاطه السياسي:

ظهرت وطنيته الفذة ونشاطه السياسي بعد الحرب العالمية الأولى وبقوة وبصفة ملموسة في بداية 1919م أي حين طالب زملاءه أن يقوموا بتشكيل وفد جزائري لحضور مؤتمر السلام الذي سينعقد بباريس وذلك مثل وفود الدول المستعمرة من قبل بريطانيا والتي ستحضر مؤتمر السلام بباريس. وبالفعل فقد تم تشكيل وفد جزائري يتكون من الأمير خالد وأربعة من زملائه وتوجه إلى باريس في شهر ماي من عام 1919م لتقديم مطالب الوفد الجزائري إلى المؤتمر. ونجح الأمير خالد في يوم 19 ماي 1919م في تسليم رسالة ممضاة من طرفه إلى الرئيس الأمريكي ويلسن بواسطة أحد المرافقين للرئيس الأمريكي وهو «جورج ب. نوبل» وتتضمن الرسالة مطالب الوفد الجزائري الذي كان متواجداً في باريس مع الأمير خالد.

وهذا الموقف هو الذي جعل المسؤولين الأوربيين في الجزائر يشعرون بالخوف من الأمير خالد، لأنه هو الذي حاول أن يبعث روح النضال والكفاح بأسلوب جديد ضد الاحتلال الفرنسي، وأن يقلد الوطنيين الهنود الذين جاؤوا إلى مؤتمر السلام للمطالبة باستقلال الهند ؛ بينما ذهب الأمير ليطالب هو الاخر باستقلال الجزائر(2).

(1) الجزائر في التاريخ ص 669.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 220.

### 4. توحيد صفوف المناضلين:

امتاز الأمير خالد بمحاولاته الرامية لتوحيد صفوف المناضلين الجزائريين، وتشجيعهم على خلق حزب جزائري موحد، وذلك قبل المشاركة في الانتخابات البلدية التي تجري في شهر نوفمبر 1919م. لكن والي الجزائر لوفيبور الذي كان متخوفاً من استراتيجية الأمير خالد المتمثلة في توحيد الوطنيين الجزائريين وحثهم على تكوين حزب إسلامي ؛ تدخل في الموضوع وتمكن من خلق التفرقة بين خالد وحركة «الشبان الجزائريين» من جهة وتشتيت بقية المثقفين من جهة أخرى.

فقد أثار والي الجزائر المسألة الواردة في قانون 6 فيفري 1919م والمتعلقة بارتباط الجنسية الفرنسية بالتخلي عن الهوية العربية الإسلامية، وهنا انقسم أعضاء حركة «الشبان الجزائريين» حول هذا الموضوع، فالدكتور بن شامي والمحامي بوضربة والأستاذ صوالح «وهم يحملون الجنسية الفرنسية» تبنوا موقف والي الجزائر وهو أن تعطى الجنسية الفرنسية للجزائريين بعد التخلي عن الهوية العربية الإسلامية، وذلك على أمل أن يكونوا متساوين مع الأوروبيين، ويصير عدد المسلمين المتجنسين كبيراً، وبالتالي تكون لهم الأغلبية في المجلس المالي الجزائري، في حين تجد الأمير خالد والحاج موسى والمهندس قايد حمود مدير جريدة «الإقدام» يطالبون بحق الحصول على الجنسية الفرنسية لكن بدون التخلي عن الهوية العربية الإسلامية، وبذلك يتحصلون على تأييد الجماهير التي ترفض التخلي عن الإسلام.

وبعد هذا الانقسام جاءت الانتخابات البلدية في شهر نوفمبر من عام 1919م، ونجحت قائمة الأمير خالد وزملائه الذين يرفضون التخلي عن الهوية العربية الإسلامية، فاغتاظ الدكتور بن شامي واعتبر حصوله على 332 صوتاً مقابل 925 صوتاً للأمير خالد بمثابة مؤامرة ضده، واتهم الأميرَ خالداً بأنه يتامر ضد السلطات الفرنسية وأنه يستعمل نفوذه الديني، وفي الحال ناداه رئيس مكتب والي الجزائر وطلب منه كتابة تقرير ضد الأمير خالد، واصطحبه معه إلى باريس لتقديم حججه إلى المسؤوليين الفرنسيين هناك.

وكانت النتيجة هي إلغاء الانتخابات البلدية التي فاز فيها الأمير خالد وزملاؤه في النضال وذلك من طرف مجلس ولاية الجزائر، وكان التبرير لهذا الإلغاء هو «التعصب الإسلامي».

وتكررت نفس الظاهرة في الانتخابات التي جرت في النصف الأول من عام 1920م «أفريل، جوان»، وتمكن الأمير خالد أن يلحق هزيمة ساحقة بمترشح مدعوم من طرف الإدارة الاستعمارية حيث نال الأمير خالد 7،000 صوت للحصول على مقعد في المجلس المالي الجزائري، بينما لم يحصل منافسه زروق محيي الدين سوى على 2500 صوت، واستطاع أيضاً أن يهزم الدكتور تامزالي بحصوله على 2500 مقابل 256 لخصمه ويحصل على مقعد في المجالس العامة.

واغتاظ الأوروبيون من النجاح الباهر الذي حققه خالد وزملاؤه وأتهموه بأنه زعيم ديني يقوم بتحريض المسلمين ضد الأوروبيين، وبدؤوا يبحثون عن الطريقة المثلى للتخلص من هذا المناضل الجزائري الذي أصبح يرفض الاندماج ويطالب بقيام اتحاد بين الجزائر وفرنسا، كما قامت الصحافة الأوروبية في الجزائر بشن حملة قوية على الأمير خالد، واعتبرته زعيماً للحركة المناهضة للسيادة الفرنسية في الجزائر(1).

### 5 . زيارته إلى تلمسان:

وفي سنة 1923م زار الأمير خالد تلمسان، وفي مدرسة الشبيبة التي كان مديرها الشيخ مرزوق استقبل استقبالاً رائعاً، حيث تقدمت فتاة اسمها أنيسة تيزاوي وألقت خطاباً ترحيبياً بالعربية الفصحى، فتأثر الأمير خالد لفصاحتها، ودمعت عيناه وأخذ من جيبه قطعة قيمتها 5 فرنك فرنسي .كان لها قيمة نقدية انذاك . وأكرم هذه الفتاة، فلما سئل: لماذا بكيت؟ قال: إن فرنسا زعمت أن اللغة العربية ماتت وقضي عليها، وأنا من هذا المكان بفضل الله وهذه الوجوه النيرة ؛ أتحدى فرنسا وأقول لها أن العربية موجودة وباقية إلى الأبد. ثم

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 222.

قام أطفال القسم وأنشدوا نشيداً من وضعه هو ولحّنه، فتأثر بذلك اللّحن وأطرب به، وهذه بعض أبياته:

| | |
|---|---|
| هيا بنا أهل الوطن | نحيي الفرائض والسنن |
| فالسعد في هذا الزمان | بالاجتهاد مع المـــنن |
| هيا بنا هيا بنا | نعلي ديار جدودنا |
| ونحامي عن أوطاننا | بالفعل والقول الحسن |
| هيا بنا زاد العنا | والجهل أصبح ديننا |
| والعلم ضاع فليتنا | متنا فقد ضاعت الفطن |
| سبل الهوى لا تسلكوا | ودينكم لا تتركوا |
| وعزكم فاستدركوا | ولا تبالوا بالمحن |
| رجاؤنا في عصركم | تكونوا مثل غيركم |
| بالمال تهدم الجبال | كذلك الجهل يهان |
| يا رب يا نعم اللطيف | أعد يقظة الشرع الحنيف |
| بالخير والفضل المنيف | أصلح لنا أهل الزمن(1) |

## 6. روح جديدة:

بث الأمير خالد روحاً جديدة في الشعب، فانطلقت الصحافة الأهلية تركز على نقاط الظلم المسلطة على الجزائري الذي يعاني منه الإنسان البسيط والفلاح والعامل، فأجر العامل المسلم فرنك واحد مقابل 12 ساعة عمل ثم زيد فصار 5 فرنكات وتوقف. بينما قنطار القمح يساوي 250 فرنك وحتى هذا العمل بهذا الأجر الزهيد غير مضمون فالبطالة منتشرة بين المسلمين، والعاملون الأهالي العاطلون ليس لهم الحق في أي مساعدة، وهذا هو الذي يفسر انفجار المجاعات بين الاونة والأخرى «صحيفة الإقدام» 1921/12/2م.

(1) مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان ، خالد مرزوق ص 42، 43.

كونت صحيفة الإقدام «اللجنة الجزائرية لنجدة الأهالي» فجمعت مبالغ هامة وزعتها على الفلاحين الذين عفتهم المجاعة في سنة 1921م، وأسس المعلم إبراهيم قندوز «لجنة الدفاع عن مسلمي الجزائر»، وفي سنة 1925م كلف الأمير خالد صديقه الفرنسي التقدمي سبيلمان بإحياء هذه اللجنة من جديد.

وفي يوم 1920/5/5م طرح خالد مع الحاج عمار في اجتماع المجلس العام اقتراحين، طالبا فيهما بتمثيل المسلمين في البرلمان الفرنسي بغرفتيه، وكما قال: مثل تمثيل زنوج غوادلوب والمارتينيك..

ونظراً لسيطرة الكولون على الإدارة في الجزائر فقد رأى الأمير خالد التوجه لفرنسا وتقديم المطالب إلى البرلمان الفرنسي، فسافر لباريس سنة 1920م، واتصل بشيوخ البرلمان دون أن يجد اذانا صاغية، شن عليه الموالون لفرنسا حملة وراحوا يهاجمونه وجماعته.

وفي 1922م ألقى الأمير خالد أمام رئيس الجمهورية الفرنسية خطاباً معتدلاً بعيداً عن الثورية، ذكّر فيه بوفاء المسلمين لدى مساهمتهم في حرب 1914م ـ 1918م ـ وبالعلاقات والروابط التي نسجت بين الجانبين الجزائري والفرنسي خلال قرن تقريباً من حياة مشتركة، وطالب بضرورة إعطاء المسلمين ممثلين لهم في البرلمان لكي يتمكنوا من عرض مشاكلهم والدفاع عن طموحاتهم، كان الخطاب معتدلاً ومتوازناً، وبالرغم من ذلك اعتبر معادياً لفرنسا، وراحت الصحافة الفرنسية تتحدث عن ظاهرة القومية العربية الخطيرة التي يقودها الأمير.

وقد سبق للأمير خالد أن حرر برنامجه الذي نشرته صحيفة الإقدام مختصراً كما يأتي:

ـ إلغاء كل القوانين الاستثنائية المسلطة على المسلمين وتطبيق القانون العام عليهم.

ـ تمثيلهم في غرفتي البرلمان.

ـ التعليم الإجباري للعربية والفرنسية.

. تأسيس جامعة عربية.

. إلغاء المناطق العسكرية والأحواز المختلطة.

. ربط مباشرة للولايات الجزائرية الثلاث بفرنسا.

. دخول المسلمين صفة المواطنة الفرنسية في إطار الأحوال الشخصية[1].

### 7. مضايقة فرنسا للأمير ورحيله للمنفى:

في شهر سبتمبر 1922م جاءت الموجة المضادة أو العاصفة الهوجاء التي ستغير مجرى الأمور وتقضي على طموحات الأمير خالد، فبعد العطلة الصيفية قررت الإدارة الفرنسية في الجزائر أن تتخلص بصفة نهائية من نشاط الأمير خالد، وذلك في إطار اتفاق مسبق بين والي الجزائر لوفيبور وبين الحاكم العام ستيق. وكانت الضربة القاسية التي وجهها والي الجزائر إلى الأمير خالد هي الغش في الانتخابات وتحريض المتجنسين بالجنسية الفرنسية ضد الأمير خالد ونتج عن ذلك تشويه سمعته وهزمه عن طريق الغش والتحايل في انتخابات 1922م المتعلقة بتجديد نصف أعضاء المجالس العامة حيث لم يفز بها أي أحد من أنصاره.

كما تعالت في نفس الوقت أصوات النواب الأوروبيين في البرلمان الفرنسي الذين طالبوا بعدم دفع المستحقات المالية للأمير خالد بالرغم من خدماته الطويلة في الجيش الفرنسي، لأنه يعتبر في نظرهم المحرض رقم واحد لثورة المسلمين ضد الوجود الفرنسي في الجزائر، وتزامنت هذه الحملة مع حملة إعلامية موجهة من طرف الأوروبيين عن طريق الصحافة حيث اتهمته وسائل الإعلام بأنه مهرج وانفصالي ومحرض على الحرب الأهلية وعميل للحزب الشيوعي[2].

لقد تحالفت القوى الحكومية والقوى الاستعمارية والقوى التابعة للاستعمار ضد الحركة التي قادها الأمير

(1) الجزائر في التاريخ ص 672.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 224.

خالد ومعه جماهير الشعب التي رفعته إلى مقام الزعامة الحقيقية واستعدت للسير معه حيث يسير، واكتسحت تحت قيادته من أراد التعرض له في ميادين الانتخابات، فالاندفاع الشعبي الذي حصل في القطر الجزائري كان كبيراً وضخماً وملفتاً للنظر ومهدداً لوضع الاستعمار بالجزائر.

ونتيجة للمجهودات المكثفة التي بذلها المسؤولون الأوروبيون بالجزائر وباريس لتضييق الخناق حول خالدوأنصاره، فقد انفض من كان حوله من أولئك الذين كان يعتمد عليهم، وعاداه من كان قد والاه، ووجد الأمير خالد نفسه وحيداً أمام أمة منقادة طائعة، قصارى ما تستطيع عمله هو أنها توصله إلى كرسي النيابة، وأكد السيد توفيق المدني أنه أصبح من الصعب على الأمير خالد أن يواجه بمفرده قوة استعمارية رهيبة الت على نفسها أن تمحو اسمه من الوجود في الجزائر.

كما تأثر الأمير خالد كثيراً عندما شعر أن هناك رجالاً كونهم من العدم السياسي وأخرجهم لعالم الظهور، فانقلبوا ضده وتعاونوا مع أعدائه. وفي الوقت الذي قررت فيه السلطات الحكومية بالجزائر وباريس أن تستعمل جميع وسائلها الخاصة، وبدأت تجهز قواتها للقضاء عليه بصفة زاجرة، وتهيأئ عدتها لتنفيذ ذلك بعد أن مسكت بين أيديها زمام سائر النواب المسلمين وجعلتهم كتلة مع زملائهم الفرنسيين ضد خالد وجموع الأمة التي تدين له بالولاء، عندئذ تدخل في الموضوع عمر بوضربة من أعيان الجزائر، ومن أضداد خالد سياسياً منذ الساعة الأولى، ومن أصدقائه الشخصيين رغم ذلك ؛ فخابره في أمر التوسط بينه وبين الحكومة على أن يترك القطر الجزائري مختاراً، فتنتهي تلك الأزمة التي وصلت إلى أقصى حدود التحرج، وله أن يعود بعد ذلك عندما تهدأ الأعصاب وتنتهي حالة الهيجان[1].

وبالفعل فقد اضطر الأمير خالد إلى الانسحاب من الميدان السياسي في سنة 1923م، حيث أنه كان

(1) المصدر نفسه ص 225.

من المقرر أن يشارك في انتخابات 23 مارس 1923م، ويتنافس مع خصمه المعهود عبد النور تامزالي الذي تدعمه الإدارة الفرنسية بالجزائر، ولكنه قرر الانسحاب من الانتخابات والتنازل لخصمه عندما شعر بوجود مضايقات رهيبة ضده واستحالة نجاحه في الانتخابات.

وحسب بعض المؤرخين فإن الأمير خالد قد شعر في هذا الوقت: أن بقاءه في الجزائر عديم الجدوى، وأنه ربما استطاع أن يخدم أمته بالابتعاد عن الوطن أكثر مما يخدمها بمواصلة النضال تجاه قوة متحالفة ضده ولا قبل للأمة بمقاومتها، فقبل المفاوضات مع الحاكم العام ستيق على قاعدة الارتحال، وقام السيد بوضربة بهذه الوساطة، فتم الأمر على أن تدفع الحكومة للأمير خالد سائر ديونه، وأن توصله للقطر السوري حيث يقيم أعمامه وبنو عمومته، وإن جريدة ليمانيتي أكدت أن قرار نفي الأمير خالد قد تم إتخاذه في باريس من طرف ريموند بوانكاري رئيس الحكومة الفرنسية انذاك وقام بتنفيذه الحاكم العام للجزائر «ستيق» [1].

ويروي صديق الأمير خالد «بلغول»: استدعى الحاكم العام الأمير خالد، وأمره بأن يتوقف عن التشويش، وأن يختار بين تقاعد ذهبي أو عقاب شديد، وأراه طلباً موقعاً من وجهاء مسلمين يطالبون بسجنه، وكان جواب الأمير بأن طالبه بترتيب مواجهة بينه وبين الشعب وإعلامه بما جرى، عند ذاك أمر الحاكم بإيقافه، وحضرت الشرطة فرافقوه إلى منزله، وفي الليلة التالية سلك طريق المنفى، وعلمت الجماهير في ذهول بنفيه إلى الإسكندرية، ولاحقته الدولة المستعمرة حتى في الإسكندرية حيث حاكمته محكمة القنصلية الفرنسية هناك بتهمة اتصاله بالأمير عبد الكريم الخطابي، وزعمت أنه طلب منه العودة للجزائر لشن الحرب على الاستعمار، وحكمت عليه بخمسة أشهر سجناً.

واستأنف الحكم فبرأته محكمة «إكس» بفرنسا، ومن كتابات الصحافة الفرنسية عنه: بطل وطني للشعب العربي، في مستوى واحد، مع زغلول باشا زعيم الحزب العربي المعادي لفرنسا، المطالب باستقلال

---

(1) المصدر نفسه ص 226.

المسلمين بالجزائر، زعيم اعترفت له الجماهير بأنه زعيم الوطنية[1].

وبعد أن طرد الأمير خالد وتراجعت جماعته عن النضال، تعلق الشعب الجزائري بثورة عبد الكريم الخطابي ورأى فيها أمل الخلاص من المستعمر، فمن تقرير محافظ شرطة قسنطينة سنة 1925م نقرأ: سائر روح الأهالي متجهة نحو الغرب حيث ثورة عبد الكريم الخطابي، وانتشرت رسالة الأمير الخطابي التي وجهها لشعوب المغرب العربي يحثهم على الثورة، ولاحقت السلطة المستعمرة البعض واعتقلتهم بتهمة بث الدعاية عن ثورة الريف بين الأهالي ونشر رسالة الخطابي. وتأسست لجان بالجزائر تجمع المال له[2].

وخلاصة القول حول الأمير خالد أنه مثلما قال المؤرخ الكبير توفيق المدني أنه كان: صريحاً إلى أقصى درجات الصراحة، صلباً في الحق، ولا يلين ولا يعترف بوجوب المرونة السياسية، يحسن قيادة الجموع ولا يحسن قيادة الأفراد وكان ذلك من أهم أسباب فشله، كانت صرامته وصلابته سبباً في نجاح المستعمرين في تأليب عصبة من بني جلدته ضده.

وبالرغم من الضغوط التي تعرض إليها لكي يتخلى عن النضال السياسي، فقد حاول عدة مرات أن يجدد نشاطه السياسي ويدافع عن أفكاره التحريرية وخاصة في فرنسا وفي سوريا[3].

### 8 . الأمير خالد في باريس ونفيه لسوريا:

ولما سقطت وزارة بوانكاريه سنة 1924م وانتصرت كتلة اليسار بزعامة يلوم وهيريو ؛ سمح للأمير خالد بالعودة لفرنسا حيث أسس لجنة من أبناء الشمال الأفريقي ضمت عدداً من العاملين، من بينهم السيد مصالي الحاج رئيس حزب الشعب الجزائري فيما بعد وعبد القادر بن الحاج علي وعبد العزيز المنور والسيد علي الحمامي من مراكش. ثم عاد إلى الإسكندرية ، وقد اشتد القتال بين الفرنسيين وبين بطل الريف الزعيم عبد

---

(1) الجزائر في التاريخ ص 673، 674.

(2) الجزائر في التاريخ ص 674.

(3) التاريخ السياسي للجزائر ص 227.

الكريم في مراكش، فاتهم الفرنسيون الأمير خالداً سنة 1925م بالتآمر على فرنسا، وهجم البوليس الإنجليزي على منزله، وقد اعتبر هذا العمل مهيناً له فطلب القنصل الفرنسي للبراز، وعدّ السفير جايار بدوره عمل الأمير إهانة لفرنسا، فطالب باسمها حكومة مصر بإخراجه من بلادها، فأخرج مكبلاً بالحديد إلى سوريا حيث بقي إلى أن مات سنة 1936م.

وأما الدعوة التي نشرها الأمير خالد أثناء إقامته بفرنسا بين الجالية المراكشية والجزائرية فلم تضع بذهابه، بل استمرت في نشاط لا يمكن لمؤرخ الحركة في الشمال الأفريقي أن يتناساها سواء فيما يرجع إلى الجزائر أو مراكش، ومن أهم مظاهر هذا النشاط المؤتمر المغربي الذي انعقد لمعالجة شؤون الشمال الأفريقي السياسية والاقتصادية والنقابية في أواخر سنة 1924م. وكان من جملة مطالبه حرية الصحافة والقول والتجوال للدعاية من أجل القضية المغربية وإلغاء قانون الأنديجينا..الخ

وقد ختم أعماله ببعث برقية للشعب المراكشي في شمال المغرب الأقصى وزعيمه عبد الكريم، وأخرى للشعب المصري والتونسي. ومن المفيد إثبات نص البرقية الأولى:

إن العمال المغاربة لمعامل الناحية الباريسية المجتمعين بمؤتمرهم الأول في هذا اليوم التاريخي 7 ديسمبر سنة 1924م يهنئون إخوانهم المراكشيين وزعيمهم البطل عبد الكريم بانتصارهم على الاستعمار الإسباني، ويصرخون بتضامنهم معهم في كل ما من شأنه أن يحرر بلادهم، ويشاركونهم في الهتاف باستقلال الشعوب المضطهدة وسقوط الاستعمار العالمي والاستعمار الفرنسي[1].

لقد انتقل ثقل حركة الأمير خالد الذي اعتبر بالفعل أبا الحركة الوطنية إلى العمال المغتربين في فرنسا.

(1) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، علاّل الفاسي ص 13.

وعندما جاء الأمير خالد إلى فرنسا استقبل بحفاوة من المغتربين من شمال أفريقيا، واتصل بمصالي الحاج وعبد القادر بن الحاج علي، وألقى محاضرة يوم 1924/7/12م في قاعة المهندسين تحت رئاسة الأستاذ بهلول أثارت حماساً كبيراً لدى الجمهور، ونتيجة لنجاح المحاضرة رتبت له محاضرة ثانية يوم 7/19 في قاعة أكبر بالدائرة 13 ترأسها الشيوعي الملغاشي ستيفاني، وعلقت صحيفة «لومانيتي» عليها بقولها: لقد قام فيها محاكمة للاستعمار لم يحدث أن قدمها غيره من قبل[1].

### 9. وفاة الأمير خالد وما قيل فيه من رثاء:

الأمير خالد لم يكن سحابة صيف زائلة بل لبنة من لبنات هذا الوطن العزيز، سجل اسمه في سجل الخالدين وترك بصماته في مختلف مظاهر حياة الشعب الجزائري. وقد عاش الأمير خالد بالمنفى في دمشق إلى أن وافته المنية يوم 9 جانفي 1936م ودفن هناك. وعندما بلغ خبر وفاته إلى الجزائر قامت جمعية العلماء بنعيه واعتباره شهيداً، وصلى عليه 6 ملايين مسلم جزائري صلاة الغائب يوم العيد الكبير[2].

ورثا الشاعر محمد العيد ال خليفة الأمير خالد غداة وفاته بقصيدة رائعة جاء فيها:

| | |
|---|---|
| ما أطول الموت باعاً | لم يخشَ حتى السباعا |
| سطا علينا بسوط | من القضاء فراعا |
| وأودع الترب نجما | منه اقتبسنا شعاعا |
| وصارماً هاشمياً | به هشمنا القلاعا |
| اليوم يا قلب فاهلك | تحسـراً والتيـــاعا |
| ابك الزعيم المفدى | ابك الأمير المطاعا |
| ابك الكريم المرجى | آبك الغيور الشجاعا |

(1) الجزائر في التاريخ ص 675.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 228.

إلى أن يقول:

| | |
|---|---|
| قل للجزائر أدي | حق الزعيم المضاعا |
| هلا اصطنعت جميلا | لدى الجميل اصطناعا |
| هلا ذكرت كفاحا | مضى له وصراعا |
| كم ذاد عنك وقاسى | فيك الأذى والنزاعا |
| وكيف ناب وثوقا | بصدقه واقتناعا |
| وكيف نادى فدانت | له الرؤوس اتباعا(1) |

### ثالثاً: أحمد مصالي الحاج:

يعد الزعيم الحاج أحمد مصالي من الشخصيات الجزائرية التي لعبت دوراً أساسياً في الحركة الوطنية الجزائرية، ومنذ بداية مساره السياسي والنضالي كان يتبنى مطالب الاستقلال والتحرر، هذين الاخرين كانا بمثابة انعكاس للوسط الاجتماعي والعائلي الذي نشأ فيه الزعيم الحاج أحمد مصالي من ناحية، وللوسط التعليمي الذي تلقاه من ناحية ثانية، ناهيك عن احتكاكه بالوسط العمالي والنقابي من ناحية ثالثة.

#### 1 . نشأته العائلية والاجتماعية:

ولد الحاج أحمد مصالي في 2 محرم 1317هـ / الموافق 16 ماي 1898م بمدينة تلمسان التابعة انذاك لعمالة وهران.

وينتمي الحاج أحمد مصالي إلى عائلة عريقة وأصيلة في تلمسان هي من أصل كرغلي، أي من أب تركي وأم جزائرية وقد كان والداه فخورين بانتمائهم إلى هذه الأرستقراطية العسكرية المتمركزة في المدن، وقد عانت عائلة مصالي كثيراً من سياسات الاستعمار الفرنسي الذي وضع أقدامه في الجزائر في عام 1830م، ورغم هذا فقد كانت تتسم بمستوى عال من الأخلاق والتنظيم فضلاً عن سمات أخرى كانت تتصف بها العائلة الجزائرية انذاك، كالتضامن العائلي واحترام الاباء والشيوخ والكبار وهيمنة وطاعة السلطة الأبوية.

(1) المصادر فصلية تعني بشؤون المقاومة الشعبية العدد الخامس صيف 1422هـ . 2001م ص 77.

لقد عاشت عائلة الحاج أحمد مصالي في ظروف تميزت بتجذر الاستيطان الفرنسي، وتدمير البنى التقليدية الجزائرية التحتية والفوقية وانتشار الفقر والأمية بسبب الضرائب المرتفعة المفروضة على السكان، وسيطرة المعمرين على الأراضي الخصبة فكان لكل هذا أثر على الحاج أحمد مصالي.

لقد كانت عائلته تقطن في بيت تمتلكه جدته بن كلفات في حي باب الجياد وهناك ترعرع الطفل الحاج أحمد مصالي مع أطفال الحي إلى غاية أن جُنّد في الجيش الفرنسي في عام 1918م في سن 20 سنة[1]، كان الطفل الحاج أحمد مصالي يحضر اللقاءات المسائية التي تجمع أفراد أسرته وأسرة ممشاوي وهما عائلتان متداخلتان، وكان ينصت ويسمع لكل ما يقوله العم عبد القادر ممشاوي مقدم الزاوية الدرقاوية عن الإسلام ومبادئه ومساوأئ الاستعمار، وما يحدث في المغرب الأقصى والإمبراطورية العثمانية، فكان يحظى بمكانة وسط أسرة مصالي الحاج، هذا الأخير وجد في «ممشاوي» النموذج والقدوة وكان الطفل الحاج أحمد مصالي يتذكر تردد عبد القادر ممشاوي ويكثر الكلمات عن الله وسيدنا محمد (ص) والإسلام ومكة والشام وكلمات المرابطين[2].

عاش الحاج أحمد مصالي فرض التجنيد العسكري الإجباري في عام 1908م، الذي أصبح حديث كل سكان تلمسان خاصة والجزائر ككل عامة، فرفضت العائلات تجنيد أولادها في الجيش الفرنسي، وذهب بعضهم إلى حد اعتبار ذلك مخالفاً للإسلام، وهناك من هاجر إلى المشرق العربي.

وقد كان لقرار التجنيد العسكري الإجباري نتائج وخيمة وكبيرة على الجزائريين فأدت إلى:

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني عند كل من مصالي الحاج وفرحات عباس ، د. يوسف حميطوش ص 47 . 53.

(2) المصدر نفسه ص 53.

ـ إقتلاع الجماهير من وسطهم الطبيعي ومن ثمّ خضوعهم التقليدي لمختلف أشكال الهيمنة.

ـ الاتصال المباشر بين النظام الاستعماري والسكان الجزائريين، وهو اتصال مؤسساتي اقتصادي ثقافي لساني ولغوي.

ـ إلى خلق ديناميكية اجتماعية جديدة لدى الجماهير وترقيتهم باكتسابهم لمعارف جديدة، معرفة واكتساب الخبرة العسكرية(1).

ونتيجة لهذا الإجراء الفرنسي جُند الحاج أحمد مصالي في الجيش الفرنسي على غرار الشباب الجزائري انذاك، فتوجه إلى مدينة بوردو بفرنسا، وبقى فيها مدة ثلاثة سنوات تمكن من خلالها من ملاحظة اللامساواة واللاعدل بين ما كان يعيشه الجزائري المسلم في ريف تلمسان من فقر وأمية واستغلال، وريف بوردو حيث يعيش المواطن الفرنسي في رخاء وسعادة، كما تمكن من ملاحظة المعاملة الحسنة والاحترام التي يحظون بهما في فرنسا مقارنة بالمعمرين في الجزائر، فكانوا يحظون بتقدير هام.

وتمكن الحاج أحمد مصالي أثناء الخدمة من استخدام السلاح من ناحية، والتعرف على جزائريين اخرين من مختلف مدن وأرياف الجزائر، فتبادل معهم الأفكار وخلق علاقات صداقة من ناحية ثانية، ومن مختلف المدن الفرنسية من ناحية ثالثة، وهذا ما ساعده فيما بعد على الانخراط في تأسيس وتنظيم حزب نجم شمال إفريقيا، واستطاع أن يوظف عامل الهجرة في النضال السياسي وفي توعية المهاجرين بالقضية الجزائرية(2).

### 2 ـ هجرته واستقراره في فرنسا:

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رجع الحاج أحمد مصالي إلى الجزائر، وكان يبحث عن إحداث التغيير ؛ فغالبية الشعب في فقر مدقع، وجهل مطبق، وأمام الوضع المزري الذي كانت تعيشه الجزائر والذي تجلى في

---

(1) المصدر نفسه ص 56.

(2) المصدر نفسه ص 57.

استلاب الأراضي من ملاكها الشرعيين ومنحها للأوربيين، وغياب الحريات، وتطبيق قانون الإنديجينا، واستغلال العمال، وتزايد النمو الديمغرافي، وبروز الأزمة الاقتصادية الناتجة عن الحرب العالمية الأولى، وضعف المحاصيل الزراعية بسبب الجفاف في فترتي 1920م ـ 1921م و1922م ـ 1923م، والتي أدت إلى ظهور المجاعة وانخفاض في انتاج القمح بـ 60% في ظرف سنتين، وارتفاع مستوى المعيشة والذي مس حتى الأجراء، فضلاً عن اقتصاد الجزائر الذي ظل طيلة فترة الاحتلال الفرنسي اقتصاداً استعمارياً يخدم مصالح الأقلية من المعمرين ؛ أمام هذا الوضع قرر الحاج أحمد مصالي الهجرة إلى فرنسا في أكتوبر 1923م، حيث كان سنه حينها لا يتجاوز 25 سنة، وهنا بدأت مرحلة جديدة وهامة في حياته النضالية[1].

إن هجرة الحاج أحمد مصالي بصفة خاصة والسكان الجزائريين عامة بفعل هذه العوامل الاقتصادية والاجتماعية ؛ قد أدى إلى اختلال في التوازن السكاني بين السكان الجزائريين والأوروبيين، وقد كانت المناطق الأشد فقراً هي الأكثر تقديراً للمهاجرين كمنطقة القبائل وتلمسان، وقد كانت هاتين المنطقتين بمثابة المراكز التقليدية للهجرة، فضلاً عن أن الهجرة والنزوح إلى المدن لم يعوضا بإنشاء وظائف جديدة، ولا بإعادة تولي الوظائف الشاغرة ؛ أدى إلى الاقتلاع[2].

كانت هجرة الحاج أحمد مصالي مناسبة هامة التقى فيها بالكثير من أبناء وطنه المغتربين، وأطّلع على أحوالهم وبالخصوص أحوال العمال المهاجرين، التي لم تكن أقلّ سوءاً من أوضاع إخوانهم في الجزائر، واشتغل في بعض المصانع الباريسية وفي التجارة. وعُرف بكثرة احتجاجه ومطالباته لأصحاب المعامل الفرنسيين بضرورة تحسين ظروف العمال ومنحهم الحقوق والأجور التي تناسب أعمالهم والتي يقرّها القانون الفرنسي، وهذا ما

---

(1) المصدر نفسه ص 58.

(2) المصدر نفسه ص 59.

جعله يشتهر في صفوف العمال كزعيم شبه نقابي، وكان أصحاب المعامل يسمونه بالمشوش لتأثيره على العمال المهاجرين من الجزائريين وغيرهم من أبناء الدول العربية والإفريقية، وهناك تأثـرَ بالحركات العمالية والنشاطات النقابية، وبدأت تراوده الأسئلة والأفكار: لماذا لا يقوم بتأسيس حركة أو حزب للمطالبة بحقوق الجزائريين وتحسين ظروفهم؟ ولماذا لا يتنظم الجزائريون في نقابات تعمل على افتكاك حقوقهم من السلطات الفرنسية ومن المستوطنين؟

وفي فرنسا أيقن مصالي الحاج بأنه من الواجب اغتنام فرصة تواجده بها ليتعلم ويحسن من مستواه العلمي، الذي كان لا يزال متواضعاً حين وصلها، وحرص على تكثيف حضور الدروس في مدرسة اللغات الشرقية، كما كان يواظب على حضور محاضرات كانت تُقام في جامعة السوربون، وخاصة في مجال العلوم الإنسانية التي كان ولعُه بها شديداً، والتي أسهمت في صقل أفكاره وتوجيه شخصيته إلى القيم الإنسانية العالية، وقد التقى في فرنسا ببعض الوجوه الأدبية والفكرية العربية كالأمير شكيب أرسلان والروائي الجزائري محمد ديب والزعيم الهندي نهرو.

وكان لهذه العلاقات الأثر الكبير في الاستفادة من تنوع توجهات هذه الشخصيات في الفكر والثقافة والاحتكاك بهم، ليصبح واحداً من المثقفين الجزائريين الذين يحملون الهمّ الجزائري في وجدانهم قبل تفكيرهم، واستفاد من خبرات الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يملك ثقافة عالية وقدرة على المرافعة، المطالبة بالحقوق وأسلوباً فريداً في إقناع الجماهير، وكانت أقدار الله قد وضعته في فترة تكوين وإعداد ليتهيأ للمرحلة القادمة التي سيباشر فيها العمل السياسي، وسيصبح واحداً من أشهر وأقوى رجال الحركة الوطنية بالجزائر، وأكثرهم نفوذاً وشعبية وشخصية فريدة، أثارت الخلاف وتباينت النظرة إليها.

تزوج مصالي واحدة من الفرنسيات المنضويات في الحزب الشيوعي الفرنسي، كما أنه استفاد منها كثيراً في مجال إدارة الحزب والتسيير واليات وطرق التواصل والقيادة والتنظيم، وكانت بالفعل رحلته إلى فرنسا مناسبة

هامة وخطوة أهم في حياته ؛ حددت له مصيره ووضعت رجليه على بداية الطريق في مجال النضال والسياسة ومقاومة الاحتلال.

كما أنه أثناء تواجده في فرنسا في هذه المرحلة من حياته بدأ الحس الوطني يتضاعف ويقوى في نفسه، فكان يرى أنه من الواجب أن ينشط ضمن حزب نجم شمال إفريقيا، هذا الحزب الثائر الذي كان يستجيب لمطامحه واماله وتوجهاته والذي الت رئاسته وقيادته في الأخير إليه(1).

وعلى الرغم من بقائه في ديار الغربة إلى غاية وفاته في فرنسا في 4 جوان 1974م ومواكبته للحضارة الغربية ؛ فإنه بقي متمسكاً بتعاليم الإسلام قولاً وعملاً.

وخلاصة القول أن حياته حافلة وغنية بالمواقف الشجاعة والاراء الجريئة التي ساهمت في تحقيق الاستقلال والمطالبة بالسيادة الوطنية(2).

### 3. حزب نجم شمال إفريقيا:

شارك الحاج أحمد مصالي مع سي الجيلاني وبقيادة الحاج علي عبد القادر في تأسيس نجم شمال إفريقيا في 20 جوان 1926م بمركز الجمعية في حر نهج مارشي دي باطرباك، وعين الأمير خالد الجزائري رئيساً شرفياً له والحاج علي عبد القادر كرئيس للحزب، والحاج أحمد مصالي أميناً عاماً، ثم أسندت له رئاسة الحزب فيما بعد في 1927م ليصبح في فترة وجيزة ناشطاً فعالاً، وانطلاقاً من سن الثامنة والعشرين أصبح قدوة لكل المغرب العربي لعبقريته السياسية وقدرته التنظيمية.

وللإشارة بحسب المناضل بانون أكلي ؛ فإن الحاج أحمد مصالي كان عضواً مشاركاً في إنشاء نجم شمال إفريقيا وحضر في اللجنة الفرعية لشمال إفريقيا التي ساهمت في خلق النجم.

---

(1) بناة المجد، أحمد مصالي الحاج ص 34.

(2) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني عند كل من مصالي الحاج وفرحات عباس ، د. يوسف حميطوش ص ...

وقد تأسس هذا الحزب على أنقاض جمعية الأخوة الإسلامية التي تعتبر بمثابة النواة الأولى لتأسيس النجم وهي جمعية دينية، لقد كان النجم وليد ظروف معينة في الجزائر، كنفي الأمير خالد، وثورة الأمير الخطابي في الخارج، فضلاً عن التطور الإيديولوجي العالمي كتقرير المصير وظهور الشيوعية، وقد عبر الحزب عن مواقفه في ظل السياق السياسي الفرنسي، خاصة وأن الحرب العالمية الأولى دفعت بفرنسا كقوة رأسمالية واستعمارية إلى الدخول في مجموعة من التناقضات، وكذا التعبير عن الوضع الاجتماعي الإنساني للمهاجرين. ولم يتبين النجم في البداية البعد الوطني ـ الإسلامي، ولكن الحاج أحمد مصالي والاخرين عدلوا من خط الحزب، فأضافوا إليه البعد الإسلامي[1].

لقد لعب النجم دوراً كبيراً وأساسياً في توعية العمال المهاجرين الجزائريين بحقوقهم والمطالبة بالاستقلال، ويعدّ النجم حركة وطنية ذات اتجاه ثوري، يضم العمال المهاجرين الجزائريين والمغاربة والتونسيين، الذين واجهوا حياة صعبة مزدوجة، فمن جهة أخرى يعانون من التهميش والإقصاء بفرنسا، ونشأته وتطوره هو نتيجة لمسار التنشئة السياسية التي تمت في وسط التنظيمات النقابية اليسارية.

لقد شارك الحاج أحمد مصالي في المؤتمر المناهض للإمبريالية في عام 1927م، وعبر خلالها صراحة عن مجموعة من المطالب كتلك المتعلقة بالاستقلال، والتي أصبحت تشكل فيما بعد قاعدة النضال من أجل التحرير الوطني، وبدأ الحاج أحمد مصالي يتبنى موقفاً بعيداً منفصلاً عن الحزب الشيوعي الفرنسي، إلا أن القطيعة لم تتجسد إلا في 1933م مع تشكيل نجم شمال إفريقيا المجيد، فتطرق في قانونه لمنع الانتماء المزدوج مع الحزب الشيوعي الفرنسي، كما رفض فكرة عقدة التفوق والاتجاهات المهيمنة والقيادية لزملائه الشيوعيين الفرنسيين[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 78.

(2) المصدر نفسه ص 79.

وبعد ثلاث سنوات من النشاط تعرض شمال إفريقيا للحل في أفريل 1929م، وهذا بالموازاة مع الاستعداد للاحتفال بمائة سنة من احتلال الجزائر، خاصة وأن نجم شمال إفريقيا أكد على المطلب الثوري الجذري المتعلق بالاستقلال التام للجزائريين، دون أن يجد مساندة من الحزب الشيوعي الفرنسي، وخاصة أن هذا قد تم في وقت لم يكن فيه نجم شمال إفريقيا قد تجذر في فرنسا، فانجرّ عن هذا دخول الحاج أحمد مصالي وزملائه في صراع حضاري مع الحزب الشيوعي الفرنسي. ورغم حل نجم شمال إفريقيا، فقد عمل الحاج أحمد مصالي وزملاؤه كراجف بلقاسم وعيماش عمار ويحياوي على الإبقاء عليه، وعمل على إعادة بعثه في عام 1933م بالمصادقة على البرنامج السياسي الجديد(1).

وكان البرنامج السياسي المعلن يشمل مجموعة من الأهداف والمطالب وهي:

. مطالبة فرنسا بالاعتراف بالحريات الأساسية.

. إلغاء نظام البلديات المختلفة والأراضي العسكرية.

. الاعتراف بحق الجزائريين في الحصول على جميع الوظائف.

. التعليم الإجباري باللغة.

. إلغاء القوانين الجائرة.

. إنشاء برلمان وطني عن طريق الاقتراع العام.

. إنشاء حكومة وطنية ثورية مستقلة بالجزائر تقوم بتشكيل برلمان انتقالي.

. إعادة البنوك والمناجم والسكك الحديدية والأملاك العامة إلى الدولة الجزائرية.

. مصادرة الأملاك الكبيرة الحجم.

---

(1) المصدر نفسه ص 80.

. مجانية وإجبارية التعليم في جميع المستويات واعتماد اللغة العربية كلغة للتدريس.

. اعتراف الدولة الجزائرية بحق الإعراب والعمل النقابي وسن القوانين الاجتماعية.

. مساعدة الفلاحين بتقديم قروض للفلاحين بدون فوائد(1).

وكان من العوامل التي زادت من شعبية الحزب وانتشاره تركيز مصالي الحاج على موضوع الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، وكذا المطالبة بردّ الاعتبار للإنسان الجزائري، الذي كان يُنظر إليه على أنه هو وغيره من العرب لا يرقون إلى مستوى الإنسان الفرنسي والأوروبي المتحضر، وكان الرجل شديداً في ردّ هذه المزاعم واستنكارها، لما تلحقه من مشاعر الغضب والحنق لدى الجزائريين، ولا يمكننا أن ننسى ردّه على الفرنسيين بخصوص الموضوع حين قال: لا يمكن مقارنتنا بالسينغاليين، إننا أناس نبلاء، خلقنا من جنس نبيل، وبفضل الإسلام استطاع شعب شمال إفريقيا أن يتخلص من مصائب المبشرين، وقضى على محاولاتهم الرامية للإدماج(2).

ورغم محاولات السلطات إيقاف الحزب ومنعه من النشاط ؛ إلا أن قرار المحكمة الصادر في 1934/7/4م القاضي بإبطال شرعية القرار القاضي بحل الحزب، وبالتالي صار أكثر شرعية وتمّ له الاعتراف. وأمام نشاط الحزب الذي استشعرت فرنسا أنه أضحى يشكل خطراً وتهديداً لمصالحها ؛ عمدت كعادتها إلى أسلوب القمع والتضييق والاضطهاد، فاعتقلت قائده مصالي الحاج وراجف بلقاسم وعيمش عمار يوم 1934/11/1م، الذين حكم عليهم بعد أربعة أيام بالسجن مدة ستة أشهر مع تسديد مبلغ كبير «6000 فرنك فرنسي عن الجماعة» بتهمة الإضرار والإساءة وتهديد الأمن.

وارتبط النشيد الوطني الجزائري الذي كانت تغنيه الجماهير ومناضلو حزب نجم شمال إفريقيا باسم شاعر

(1) بناة المجد، أحمد مصالي ص 36 ، جيلاني ضيف.

(2) المصدر نفسه ص 37.

الثورة الكبير مفدي زكريا الشاعر العظيم الذي كان من مناضلي هذا الحزب، وقد صدر هذا النشيد في 1936/11/16م ومما جاء فيه:

| | |
|---|---|
| فداء الجزائر روحي ومالي | ألا في سبيل الحرية |
| فليحيا حزب الاستقلال | نجم شمال إفريقية |
| وليحيا زعيم الشعب مصالي | مثال الفداء والوطنية |
| ولتحيا الجزائر مثل الهلال | ولتحيا فيها العربية |
| سلامًا أرض الجـــدود | سلاماً مهد معالـينا |
| فأنت في الكون دار الخلود | غرامك صار لنا دينا |
| فإنا حولك مثل الجنود | لسان هواك يناجينا |
| سنرعى حقك مثل الأسود | ولو قبضوا بتراقينا |
| سرى بالروح دم الفاتحين | فأذكى فيها معاني الفدا |
| نخوض مع الخائضين | ولا نرتد ولو بالردى |
| ونعلي الصرخة في الصارخين | ولا نرتد ولو بالردّى |
| ونعلي الصرخة في الصارخين | ننادي العزّ والسؤددا |
| فلسنا نرضى مع العالمين | حياة نبقى بها أعبدا |
| فلسنا نرضى الامتزاجا | ولسنا نرضى التجنيسا |
| ولسنا نرضى الاندماجا | ولا نرتد فرنسيـــسا |
| رضينا بالإسلام تاجا | كفى بالجهل تدنيسا |
| فكل من يبقى اعوجاجا | رجمناه كــإبليــسا |

وقد كرّس هذا النشيد الذي انتشر واشتهر وحفظه الصغار والكبار في كل مكان معبراً عن أهداف وبرنامج الحزب الذي كان يريد الاستقلال لهذا الشعب ويرفض أي محاولة من شأنها العبث بهويته وانتمائه العربي الإسلامي(1).

(1) المصدر نفسه ص 38.

وقد حلت السلطات الفرنسية في فيفري 1935م نجم شمال إفريقيا المجيد، وهذا في ظل مجموعة من الأحداث المتمثلة في منع الخطب الدينية الإصلاحية في 4 جويلية 1933م، وكذا أحداث قسنطينة في 1934م بين المسلمين واليهود. وخلال هذه الفترة أقام الحاج أحمد مصالي اتصالات وعلاقات مع الطلبة الجزائريين حيث بدأ التفاعل مع المثقفين.

ورغم هذا فقد استأنف قياديو النجم بقيادة الحاج أحمد مصالي نشاطهم السياسي بإنشاء الاتحاد الوطني لمسلمي شمال أفريقيا، وقد تعرض الحاج أحمد مصالي وزملاؤه للتوفيق إلا أن النجم استمر في ممارسة نشاطاته، ولم ينعكس هذا على التضامن القائم بين العمال الفرنسيين والجزائريين.

وبعد إطلاق سراح الحاج أحمد مصالي، عاد نجم شمال إفريقيا إلى النشاط وبصفة رسمية وقانونية في فيفري 1936م إلا أنه لم يدم طويلاً، حيث حل نهائياً في 25 جانفي 1937م من قبل الجبهة الشعبية، وبضغط من الحزب الشيوعي الفرنسي الذي فقد كل رقابة على نجم شمال إفريقيا، وكذا بسبب رفض نجم شمال إفريقيا إرسال متطوعين إلى اسبانيا ضد فرانكو في صراعه مع الجمهوريين أثناء الحرب الأهلية، وقد أدى هذا إلى تبني الحاج أحمد مصالي وزملاؤه لمواقف أكثر ثورية، هذا بالرغم من أن الحاج أحمد مصالي من خلال نجم شمال إفريقيا ساند الجبهة الشعبية. ورغم إطلاق سراح الحاج أحمد مصالي إلا أنه تعرض للعديد من المضايقات والمحاكمات القضائية مع زملائه، مما جعله يفر إلى سويسرا، حيث ألتقى بأمير البيان شكيب أرسلان للمرة الثانية، بعد أن ألتقى به في المؤتمر الأوروبي الإسلامي في 1934م فكان في النضال معه يومياً وشجعه على المقاومة.

وقد ساعد شكيب أرسلان الحاج أحمد مصالي على الخروج نهائياً من الفلك الشيوعي العمالي إلى الفلك العربي الإسلامي، وإن كان الزعيم الحاج أحمد مصالي قد تشبع بقيم الإسلام والعروبة منذ طفولته وشبابه في الجزائر من خلال الطريقة الصوفية الدرقاوية، فشكيب أرسلان كان يهدف أكثر لربط المغرب العربي بالمشرق العربي ، وفي هذا فقد تجاوز شكيب أرسلان اتصالاته مع الوطنيين على المستوى المغاربي ، واعتبر أن الجزائر

وتونس والمغرب الأقصى هي أجزاء من العالم الإسلامي، تربطهم وحدة الدين واللغة والثقافة، وقد تفطن شكيب أرسلان منذ زمن بعيد لأهمية أفريقيا في رقعة الشطرنج العالمي[1].

لهذا كثف شكيب أرسلان من اهتماماته بالمنطقة التي تحظى بأهمية كبرى لدى الدول الغربية فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والولايات المتحدة الأميركية، خاصة الجزائر باعتبارها دولة محورية لها تأثير على الدول الأوروبية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وعلى دول المشرق الغربي والدول الأفريقية، وقد كانت الدول المغاربية سابقاً وحالياً محل تنافس بين القوى الدولية العظمى، ومع انعقاد المؤتمر الإسلامي ؛ ألقى خطاباً أمام الجماهير الجزائرية جعله يكتسب المشروعية السياسية، ويخرج نجم شمال إفريقيا من السرية إلى العلانية، لهذا عمل مع زملائه على البحث على تغطية شرعية مناسبة لاستمرار نشاطهم الحزبي، فأسس جمعية أحباب الأمة واستمر نشاطها حتى تأسيس حزب الشعب الجزائري P.P.A.

وللإشارة، فقد عارض الحاج أحمد مصالي بقوة مشروع بلوم فيوليت الاندماجي، مما جعل نائب كاتب الدولة للشؤون الداخلية الفرنسية في عام 1936م يعتبره من أكبر المغامرين والمخاطرين[2].

تميز الحاج أحمد مصالي بخطاباته الثورية للشعب الجزائري، وكان يستشعر في هذه الفترة المسؤولية العظيمة التي تولاها في مجال الذود عن قضية شعبه ووطنه، وقد كشف في النداء الذي وجهه إلى الأمة الجزائرية في الثاني عشر من شهر نوفمبر سنة 1936م عن همومه وانشغالاته والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، كما لم يخف المكانة التي أولاها إياه هذا الشعب فقال:

أيها الشعب الجزائري:

سلام عليكم من ابن أقسم بالله أن يضحي في سبيل حريّتك وسعادتك حتى آخر قطرة من دمه وآخر

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 82.

(2) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 82.

رمق من حياته {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ *} [الواقعة : 76].

سلام عليك يا شعب يوم ولدت حرّاً عزيزاً ويوم نشأت حرّاً شريفاً، ويوم تصبح بإذن الله حرّاً طليقاً، ترفرف على هضاب المجد أعلامك، وتتناول نجوم السماء أحلامك، وينتصر لك في العالمين إيمانك وإسلامك.

بفضل تضحيات أبنائك البررة المفتولي السواعد المفعمين قوة وفتوة ووطنية وإيماناً، الواثقين بقول رب العالمين {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *} [العنكبوت : 69].

**أيها الشعب الجزائري الكريم:**

إنني أشكر لك عظيم احتفائك بي، وجليل تقديرك لهذا الابن الضعيف والتفافك حوله وحسن إقبالك عليه، وإن هذا الإقبال المدهش الذي لقيتني له الأمة أنىّ حللت وهذه الإحساسات الشريفة التي كانت تغمرني أنّى نزلت ما كانت إلا برهاناً صحيحاً على أن هذه الأمة المباركة أدركت واجبها في الحياة وأصبحت تميز بين من يريد لها الخير والحياة وبين من يريد لها الفناء والاضمحلال.

على أن هذا الإكبار وهذا التقدير ليس لشخصي الضعيف الفاني، وإنما هو لهذا المبدأ السامي الشريف، وتلك الأمانة الوطنية المقدسة، التي أخذنا عهداً أمام الله والملائكة والناس أجمعين ؛ أن نصونها من يد العابثين في تحقيقها ولو قطعوا منا الوتين، وبلغت الروح التراقي وانقطع آخر رمق من حياتنا والتي وهبناها راضين مطمئنين حبساً ووقفاً لهذا الوطن العزيز المفدّى، وإن وطناً يشعر هذا التعلق بالمخلصين من رجاله لهو شعب حيٌّ يجب أن يتبوأ مقامه فوق الشمس المشرقة رافع الرأس شامخ الأنف موفور الكرامة، فحيّاك الله أيها الشعب وبيّاك[1].

(1) بناة المجد، أحمد مصالي الحاج، الجيلاني ضيف ص 43.

### 4 . حزب الشعب:

في 11 مارس 1937م أسس الحاج أحمد مصالي حزب الشعب الجزائري في باريس، فأعطى للحزب صبغة الشرعية وجعل منه وسيلة لتحقيق هدف رفع الجزائر إلى مرتبة الأمم الأخرى التي تتمتع بكل الحقوق، ثم نقل الحزب من فرنسا إلى الجزائر في نوفمبر 1938م، إلا أنه حل في 26 سبتمبر 1939م بسبب مواقفه الوطنية الثابتة المطالبة بالاستقلال.

وما يميز حزب الشعب الجزائري هو طابعه الجزائري البحت، حيث ركز في مطالبه على استقلال الجزائر، وهذا بعد أن كان نجم شمال إفريقيا في برنامج 1927م يطالب باستقلال شمال إفريقيا، ويعود هذا أساساً لانتقال حزب الشعب الجزائري من باريس إلى الجزائر وإلى إعادة تشكيل الحزب الدستوري من جديد فضلاً عن بروز النشاط الحزبي المغربي في 1934م، مما جعل الحاج أحمد مصالي يعطي لحزب الشعب الجزائري طابعاً جزائرياً بحتاً.

للإشارة، فإنه لم يشر مباشرة لمطلب الاستقلال كما هو الحال مع نجم شمال إفريقيا بل تبنى شعار: لا اندماج، لا انفصال، ولكن تحرر. للعلم فقد حكم على الحاج أحمد مصالي في نهاية 1937م بسنتين سجن من قبل محكمة الجزائر، بسبب إعادة تشكيل حزب منحل، كما أنه أثناء الحرب العالمية الثانية رفض التعاون مع حكومة فيشي، وتعرض على إثر ذلك للمقاضاة وحكم عليه بستة عشر سنة أعمالاً شاقة ومنع من الإقامة في الجزائر، وإلى مصادرة أملاكه، وحرمانه من حقوقه المدنية بتهمة المظاهرة ضد سيادة الدولة الفرنسية والمس بأمنها، ولهذا نقل إلى سجن لامبيز لتنفيذ العقوبة عليه، وأبقي به لغاية أفريل 1943م بعد إنزال الحلفاء، حيث أطلق سراحه على غرار الشيوعيين والمقاومين الفرنسيين.

ولكن رغم هذا وضع من جديد تحت الإقامة الجبرية حتى ديسمبر 1943م، ثم نقل إلى عين صالح، ثم إلى الجزائر العاصمة، وأخيراً إلى إفريقيا الإستوائية، حيث عانى من صعوبة المناخ، ولما أطلق سراحه أعاد التأكيد

في 14 جانفي 1944م على مطالب برنامج حزب الشعب المنحل، وانتقد الاستعمار الفرنسي الذي استمر في استبعاد 8 ملايين من الحكم لصالح أقلية من المعمرين وفي التمييز[1].

لقد دافع الحاج أحمد مصالي في ندائه الذي وجهه عن حزبه عن ثبات الحزب واستمراره في الوفاء للمبادئ التي رفعها كشعار وهدف من تأسيسه، وأنه لم يضعف أو يستكين أمام الممارسات التعسفية والضغوط التي واجهته من قبل السلطات الفرنسية، لأنه مؤمن بعظم الرسالة التي يحملها قادته ومناضلوه، وغير مستعد للتفريط في الالتزامات والحقوق الملقاة على عاتقهم، فيقول: وقد برهن لك في تاريخ جهاده خمس عشرة سنة في سبيل إسعاد هذا الوطن، وما لقيه فيها من ضروب التنكيل والتعذيب والتشريد والاضطهاد في أعماق السجون وغياهب السيلونات ؛ أنه حزب يعمل لغاية شريفة ويجب أن ينالها، طوعاً أو كرهاً، قصُر المدى أو طال، وأنه هو هو بالأمس أيام العسف والجور الفاشيتي الغاشم، كما هو هو اليوم في عصر الواجهة الشعبية الباسم، وأن مطالبه هي هي لم تتغيّر ولم تتبدّل، وأن رجاله هم هم لم ينسلخوا ولم يتجنسّوا ولم يندمجوا ولم يتفرّقوا، وسيبقون كذلك مادامت الأرض أرضاً والسماء سماء، ومادام الشرفُ يسمى شرفاً والوطنية تُسمى وطنية والاية صارخة: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ *إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ *} [النمل : 127. 128].

{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *} [الحج : 40].

**أيها الشعب الجزائري:**

إن مبادئ حزبك الوطني الذي أسس على الملية من أول يوم هي السعي لتحريرك بالطرق المشروعة، في دائرة إسلامك وجنسيتك الغالية المتألقة في بطون الأجيال، والدفاع عن كرامتك والذود عن حماك في محيط ذاتيتك الشريفة المقدسة، تلك هي مبادئنا التي فطرنا عليها ونشأنا عليها وقدّمناها للحكومة في كرّاس يوم 23

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 84.

جوان 1936م بواسطة وفد من رجالنا، وعليها نبقى وعليها نحيا وعليها نموت إن وجبت الحياة.

نحن نريد أن تكون لغتك العربية لغة رسمية بالبلاد، نريد أن تكون مساجدك وأوقافك بيدك، تتصرف فيها بحسب القرآن العظيم، ونطلب لك برلماناً جزائرياً يضمن لك ذاتيتك وحقوقك أمام الأغلبية الساحقة من المستعمرين.

ولا نريد إذلالك على يد أقلية ضئيلة في البرلمان الفرنسي لا تنجرّ ضمائرهم من عبث العابثين.

ولا نطلب إلحاقك بفرنسا لتكون فرنسوياً عزيزاً كما يقولون {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} [الكهف : 5].

{إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ *} [المدثر : 35].

يا الله للجزائريين

الاندماج أو الإلحاق أو الارتباط أو الامتزاج أو الاقتران أو الموت والفناء أو الاضمحلال... مترادفات معناها واحد، يلُوكها قوم ولا يعرفون معناها ويفتخرون بطلبها في عهد الواجهة الشعبية، ولا يدركون مقدار ما تحويه من الخزي والعار ومن المضحكات المبكيات في زمن واحد

وكم بالجزائر من مضحكات ولكنّه ضحك كالبكاء[1]

يا للعار ويا للفضيحة، الاندماج الإلحاق ما أقطعها من كلمة {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ *} [الأنعام : 15]. {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [النور : 17].

إن شعباً يطلب الاندماج في شعب آخر لهو شعب قطع الصلة بينه وبين تاريخه وأجداده، وبينه وبين أبنائه من بعده. ونحن الجزائريين لنا تاريخ ماجد ولغة شريفة وذاتية مقدسة وضمير حيّ، وهذه كلها تأبى علينا أن نقطع الصلة بها ونطلب الإلحاق، تنذرنا إن فعلنا قبراً محفوراً وكفناً منشوراً، هناك ندعو ثبورا فلا نجد نصيراً،

(1) بناة المجد، أحمد مصالي الحاج ص 46.

ولا نلقى ظهيراً. ولئن طلب السينغال إلحاقهم فهل ذاتيتنا كذاتيتهم؟ وهل تاريخنا كتاريخهم؟ كلاّ وألف كلاّ فنحن أشراف من أشراف، يجب أن نبقى أشرافاً لأشراف، وإننا لنختار أن نبقى مضطهدين جزائريين من أن نصير أحراراً فرنسيين، تلك كلمة وإن أحرجت بعض الناس إلا أنها كلمة حق حتى نقولها ولا نبالي، ليحق الحق ويبطل الباطل {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ}[آل عمران: 118].

وأما خطابه للخصوم السياسيين فقد قال لهم:

**أيها الخصوم السياسيون:**

طالما قاومتمونا بطرق شريفة وغير شريفة، وطالما أقمتم الدعايات ضد حزبنا الوطني وضد برنامجنا المليّ، أما نحن فلا نجيبكم بالمثل لأننا قوم أشراف، ولأن مصلحة الجزائر فوق الجميع، بل نحن نشفق لحالتكم التي تستدعي الشفقة ونجيبكم بإخلاصنا وأعمالنا وثباتنا، فهوّلوا أو عرقلوا أو عوّلوا، فلن يزيدنا ذلك إلا ثباتا ورسوخاً وانتشاراً لدعوتنا.

أما نحن فقد ثبتنا مدة خمس عشرة سنة كاملة على برنامج واحد وعلى سيرة واحدة، ولن نتفرّق أو نتزحزح بإذن الله تعالى، مادام فينا قلب يخفق وعرق ينبض بحب هذا الوطن العزيز المفدّى، ولم يطعن أحد منا قطّ في لغة ابائه وتاريخ أجداده وليس بيننا متجنسون، أما أنتم فها هو أحد متجنسيكم يخطب باسمكم في تيزي وزو ويسبّ اللغة العربية، ويتهكم على من طلب أن تكون لغة رسمية للبلاد.

وها هو بوهران يطعن في التاريخ الجزائري في الصميم وأنتم ساكتون تصفقون، وها هو نفسه بعد ذلك بيومين يطعن سمعتكم وسمعة الإسلام والجزائر في أكبر هنيئاتها، يتناول الخمر نهاراً جهاراً أمام نخبة الشعب في مأدبة الشعب، وها هو اليوم ينصب الحبائل للوقيعة بكم وإسقاط جامعتكم مع عدوكم اللدود[1].

---

(1) المصدر نفسه ص 49.

## 5 . انتصار الحريات الديمقراطية:

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية وإصدار فرنسا للعفو الشامل، عاد الحاج أحمد مصالي إلى فرنسا ثم إلى الجزائر في أكتوبر 1946م، وأسس حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD للمشاركة في الانتخابات التشريعية المقررة في عام 1946م، وهذا بعد عزله لزميله في الدرب عيماش عمار، وبالتالي وضع حداً لمبدأ مقاطعة الانتخابات.

فظهرت في داخله انشقاقات، إذ من جهة الكثير من إطارات الحزب اصطدموا بنوع من التشدد الكارزماتي للحاج أحمد مصالي، ومن جهة أخرى فإن الشباب الذين تعبوا وسئموا من اللعبة السياسية غير الفعالة، كانوا مؤيدين أكثر للعمل المسلح.

في هذه الفترة، أي بعد الحرب العالمية الثانية أعاد مصالي اتصالاته وعلاقاته مع شكيب أرسلان، الذي ساعده على تنمية حسه الوطني، لذا يقول في هذا «الشاوي توفيق» للحاج أحمد مصالي: بفضل الأمير انتقلت من النقابة إلى الوطنية، فأدرك أن الاستعمار يشكل تهديداً لكل المستعمرين ولحقوقهم.

ولما اقترح القانون الجديد الخاص بالجزائر في عام 1947م رفضه الحاج أحمد مصالي، انطلاقاً من مبادئ الحزب، كما رفض كل مناقشة أو تحدث عن مستقبل الجزائر في الإطار الفرنسي، وهو قانون فرض على الجزائريين واعتبر كخديعة ؛ على أساس أن الإصلاحات السابقة لم تعرف التجسيد ؛ وأن الانتخابات ما هي إلا وسيلة لإخفاء تعيينات الإدارة الفرنسية للموالين لها في مختلف المجالس المنتخبة خاصة ما قام به الحاكم العام نيجلان، ونفس الأمر بالنسبة للجمعية الجزائرية القائمة على اللامساواة في التمثيل، وفي أنها محدودة الصلاحية، وهي في خدمة فرنسا والمعمرين، وقد تمّ التصويت في 20 سبتمبر 1947م على هذا القانون الذي تطرق لإقامة برلمان جزائري يتشكل من 120 عضواً، 50 للمسلمين، و60 للأوروبيين، وقد شاركت حركة انتصار الحريات الديمقراطيةMTLD في أول انتخابات للجمعية الجزائرية المزورة من قبل الحاكم العام نيجلان

في ربيع 1948م وتحصلت على 9 مقاعد[1].

### 6. المنظمة الخاصة:

وقد تقرر في المؤتمر الأول لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في 15 فيفري 1947م إنشاء المنظمة الخاصة O.S كهيئة عسكرية تتولى الإعداد للثورة، وعين على رأسها الشهيد «محمد بلوزداد». ثمّ ولأسباب صحية حل محله الحسين ايت أحمد ليخلفه أحمد بن بلة، حيث بعد اتهامه بانتمائه إلى حزب الشعب البربري P.P.K، وبكونه أحد مدبري ما يسمى بـ «الأزمة البربرية». ثمّ حلت هذه المنظمة 1950م بعد اكتشافها على إثر خيانة محمد خياري المدعو رحيم.

وقد تولت هذه المنظمة تكوين الرجال الذين فجروا الثورة التحريرية في نوفمبر 1954م كمجموعة، و22 وغيرهم علماً بأن جلهم تكونوا في مدرسة حزب الشعب الجزائري في أكتوبر 1951م.

بدأ الحاج أحمد مصالي يدعو للثورة فقام بجولة في منطقة قسنطينة في 24 أفريل 1952م، حيث استقبلته جماهير كثيرة، ونظراً للمشروعية السياسية التي كان يتمتع بها أمام الجزائريين ؛ منعه الحاكم العام في الجزائر من البقاء في قسنطينة، فأبعد منها، ولكنه واصل جولته في الغرب الجزائري واتصل مباشرة بالجماهير الجزائرية، مما زاد في تعزيز العلاقة بين القائد والأتباع.

وانتهت الجولة بتوقيفه في مدينة الأصنام، وبمنعه من الظهور في كل المناطق الجزائرية، ونقل إلى فرنسا حيث منعه أيضاً وزير الداخلية الفرنسية من الإقامة في كل التراب الفرنسي ماعدا في منطقة دور سيفر، وطلب من المناضلين القياديين الذين استقبلهم في مقر إقامته بشانتي بضرورة إرسال المناضلين للتدريب على السلاح في مصر، إلا أنه لم يلقَ أي رد على ذلك، خاصة وأن منطقة المغرب العربي كانت في ثورة، ونفس الأمر في مصر مع ثورة الضباط الأحرار بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر ضد التواجد البريطاني.

---

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 86.

كما بعث الحاج أحمد مصالي برسالة من فرنسا للمناضلين في الجزائر، تطرق فيها للكفاح المسلح ضد فرنسا، واعتبر أن سياسة التعايش مع فرنسا قد انتهى عهدها بلا رجعة، ولهذا قرر وزير الداخلية الفرنسي وضعه في إقامة جديدة في مدينة فاندي، ثم في مدينة صابل دولون، تحت رقابة دقيقة من طرف الشرطة مع مراقبة الزائرين بما فيها ابنته جنينة(1).

## 7. الحركة الوطنية الجزائرية:

في مارس 1952م بعد عودة مصالي من المشرق العربي والتقائه بالوطنيين العرب المشرقيين، تطرق في اجتماع باريس مع التونسيين والمغاربة لمسألة تحرير بلدانهم الجزائر تونس والمغرب من الاستعمار الفرنسي.

وفي مؤتمر هورنو الذي انعقد في بلجيكا في جويلية 1954م تمّ تبني برنامج نجم شمال إفريقيا الذي أكد على ضرورة انتزاع الشعب الجزائري للاستقلال في أقرب وقت عن طريق الكفاح المسلح، كما أسس الحاج أحمد مصالي الحركة الوطنية ةـش كرد فعل على إنشاء جبهة التحرير الوطني التي رفض إنشاءها، وعمل على فرض الحركة الوطنية الجزائرية كمنافس لجبهة التحرير الوطني، وعلى أنها القوة الوحيدة القادرة على خوض النضال من أجل التحرير الوطني.

ورغم التنافس بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية في بداية الثورة ؛ إلا أن الحركة الوطنية تمكنت من البروز ومن إعادة تشكيل خلايا الحزب والمجموعات العسكرية في كل من مدينة الجزائر ومنطقة القبائل ووهران «التي انضمت لاحقاً لجيش التحرير الوطني» وحتى فيفري 1955م، فإن العلاقات بين كل من كريم بلقاسم، وعمر أو عمران ورابح بيطاط من جهة وأتباع الحاج أحمد مصالي من جهة ثانية ؛ كانت ودية وكانت الحركة الوطنية الجزائرية تقدم مساعدة مالية ومادية، لكن مع بروز المجاهد عبان رمضان في مارس 1955م تمت القطيعة بينهما (2)، حيث طالب بفتح المجال لكل التيارات السياسية من ليبراليين وعلماء

---

(1) المصدر نفسه ص 87.

(2) المصدر نفسه ص 88.

مسلمين، وشيوعيين ومصاليين للدخول في الثورة ؛ إلا أنه إذا كانت التيارات الأولى قد قبلت الانصهار ضمن جبهة التحرير الوطني وبحل أحزابها ؛ فإن الحاج أحمد مصالي وأتباعه رفضوا الانضمام واعتبروا أنفسهم الأَولى بقيادة الثورة ؛ مما أدى إلى اشتداد الصراع الدموي بين الطرفين.

وبعد أن أطلق سراح الحاج أحمد مصالي من قبل الجنرال ديغول في 19 جانفي 1959م، أكد مصالي على مطلب الاستقلال، فطرح حل المشكلة الجزائرية في ست نقاط، تتمثل النقطة الأساسية بإقامة دولة جزائرية مستقلة، ورفض هيمنة جبهة التحرير الوطني على الثورة، كما عمل على إعادة بعث الحركة الوطنية الجزائرية، لكنه اتهم بالخيانة، ورغم ذلك لم يستسلم لجبهة التحرير الوطني.

لقد رفض الحاج أحمد مصالي من خلال الحركة الوطنية الجزائرية المشاركة في مفاوضات إيفيان، وبعد توقف المحادثات بين الطرف الفرنسي والجزائري حول مشكلة الصحراء الجزائرية، طلب منه لويس جوكس الحضور في المحادثات إلا أنه رفض[(1)].

## 8. أهم الصحف التي أنشأها الحاج أحمد مصالي:

بهدف نشر الوعي الفكري ومبادئ مختلف الأحزاب التي أسسها الحاج أحمد مصالي قام بإنشاء عدة صحف منها:

أ. **جريدة الإقدام** ما بين عامي 1926م و1927م ثم منعت من الصدور.

ب. **ثم عادت للظهور تحت اسم إقدام شمال إفريقيا** صدرت في أعداد ثم منعت من الصدور نهائياً.

ج. **ثم أخذت هذه الجريدة اسم: إقدام نجم شمال أفريقيا**، واستمرت ما بين 1927م إلى 1928م وقد عبرت هذه الأعداد عن مقاومة الاستعمار والمطالبة بالاستقلال ومهاجمة المنتخبين الفرنسيين وتأسيس جيش وطني.

(1) المصدر نفسه ص 89.

د ـ **جريدة الأمة**: تأسست في 1930م ومنعت في 29 سبتمبر 1939م بسبب طرحها الوطني.

و ـ **البرلمان الجزائري**: وهي جريدة تابعة لحزب الشعب الجزائري، ظهر أول عدد منها في شهر ماي 1939م، ثم توقفت عن الصدور في 27 أوت 1939م، وقد صدر 7 أعداد منها وكانت تصدر بالجزائر وباللغة الفرنسية.

ح ـ **الشعب**: صدرت بالجزائر باللغة العربية، تولى رئاستها الحاج أحمد مصالي صدر منها عددان، العدد الأول في 27 أوت 1937م، والعدد الثاني في 20 سبتمبر 1937م، وكانت مواقفها وطنية ولذلك منعتها السلطات الفرنسية.

ز ـ **الجزيرة الحرة**: بدأت نصف شهرية وأصبحت أسبوعية، صدرت باللغة الفرنسية، واستمرت في الصدور من أوت 1949م إلى نوفمبر 1954م، لكن مع انشقاق حركة انتصار الحريات الديمقراطية في أوت 1954م ؛ احتفظ المصاليون بهذه الجريدة، في حين أستأثر المركزيون بجريدة الأمة الجزائرية، علماً بأنها كانت تطالب بالحرية والاستقلال والسيادة الوطنية.

س ـ **صوت الشعب الجزائري**: هي جريدة كانت تصدر في الأشهر الأولى من الاستقلال، ويبدو من عنوانها أنها كانت تعبر عن المطالب الحقيقية للجزائريين عمّا كانوا يعانونه في الأيام الأولى من الاستقلال.

ش ـ الصحراء: وصدرت عن الحركة الوطنية الجزائرية في 1958م.

ك ـ **صوت العمال الجزائريين**: وهي جريدة صدرت عن الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين ما بين 1957م ـ 1962م.

ي ـ **أخبار الجزائر**: صدرت في 1959م عن الحركة الوطنية الجزائرية[1].

### 9 ـ مصالي الحاج وحركات التحرر العربي:

إن مواقف الحاج أحمد مصالي من قضايا التحرر ومن الهيمنة الاستعمارية؛ أمر بدأ مبكراً أثناء البدايات

(1) المصدر نفسه ص 89 ـ 91.

الأولى لنشاطه في حزب نجم شمال أفريقيا الذي لما تأسس لم تكن القضية الجزائرية قضيته وهمّه الأول، بل كان يهدف إلى تحرير الإنسان العربي والمسلم من الأقطار المغاربية الثلاث التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسي، فكان الهمّ والمعاناة واحداً، وكانت مصالح الاحتلال الفرنسي ومراميه في الجزائر هي ذاتها في المغرب وتونس، ولقد تأكد مصالي بأن المصير واحد، وهذه النظرة كانت موجودة لدى أغلب المثقفين والسياسيين الجزائريين ابتداءً من مفدي زكريا شاعر الثورة رحمه الله حين قال:

فتماسكت بالشرق جمهورية      عربية وجدت بمصر المرتعا

ولمصر دار للعروبة حرة تؤوي      الكرام وتسند المتطلعا

وتعلم «التاميز» عن أبنائها      «والسين» درساً في السياسة مقنعا

دنيا العروبة لا ترجّح جانبا      في الكتلتين ولا تفضل موضعا

للشرق في هذا الوجود رسالة      علياء صدق وحبها فتجمعا

يا مصر يا أخت الجزائر في الهوى      لك في الجزائر حرمة لن تقطعا

كما أن قضية فلسطين كانت لا تزال في أوج المحنة الجزائرية وهي الاحتلال الفرنسي ؛ تشكل الهاجس والهمّ العربي، وتتلاشى أمامه القضايا الأخرى، وهذا الموقف ذاته تبناه مصالي الحاج الذي تأثر كثيراً بالزعيم العربي الإسلامي الكبير شكيب أرسلان الذي تعرف عليه في بروكسل، وكان يومها رئيس اللجنة السورية الفلسطينية، واستمد منه شمولية مواجهة الاحتلال، لتترسخ الفكرة بتأسيس «حزب نجم شمال إفريقيا» و«حزب الشعب». وقد كان نشاطه في دعم قضايا التحرر العربي ما دفعه إلى الانضمام إلى منظمة المؤتمر الإسلامي التي عيّن عضوا فيها في مؤتمرها المنعقد في 12 إلى 15 سبتمبر 1935م. ولم تكن مساهماته في قضايا التحرر العربي نظرية أو اعتقادية فكرية صرفة، بل كانت تتعدى القول إلى الفعل، فها هو يشرف على تنظيم مظاهرات للجاليتين الشقيقتين العربية والسورية في باريس يوم 14 جويلية 1936م، للمطالبة بوحدة واستقلال سوريا.

ومن الموضوعية والإنصاف القول: إن مصالي الحاج واحد من أهم دعاة وداعمي التحرر في العالم العربي والإسلامي، فقد كان من أوائل المساهمين كعمر راسم وغيره من النخب الجزائرية ضمن حزب الشعب في فضح مساعي اليهود الرامية لتهويد فلسطين وتقسيمها، فأنشأ مع لفيف من الأحرار والوطنيين العرب لجنة شمال افريقيا للتضامن والتعاون مع الضحايا العرب بفلسطين سنة 1938م، والتي كانت لجنة إغاثية ساعدت الشعب الفلسطيني مادياً ومعنوياً، وأسهمت في عرض قضيته وتوسيع انتشارها على المستوى الدولي، كما أن موقفه وعلاقته بالحركة الوطنية في المغرب وعلى رأسها الزعيم عبد الكريم الخطابي، وعلاقته بالوطنيين التوانسة ؛ كانت من أهم العوامل التي شجعته وحفزته على العمل من أجل المصلحة العامة لشعوب المغرب العربي ككل.

وكذلك كان تأسيس «لجنة تحرير المغرب العربي» بالقاهرة في السادس من جانفي 1948م منفذاً وواجهة للمساهمة في مشروع تحرير بلدان المغرب العربي الكبير، كما أن علاقات مصالي الحاج الواسعة مع الوطنيين والزعماء العرب وغير العرب في العالم ؛ جعلته يُعرف بمواقفه الرائدة والصريحة في الحرية، وتمكين الإنسان مهما كان جنسه أو لونه ولغته من التمتع بهذه الحرية التي كفلتها الشرائع السماوية قبل القوانين الوضعية متمثلة في المواثيق الدولية.

هذه هي المواقف التي تبناها مصالي الحاج ودافع عنها، وكانت جميعها تقرّ بأحقية الإنسان في العيش، وفي أحقية الشعوب المضطهدة في تقرير مصيرها، ولعل هذه المواقف هي ما جعل فرنسا وحلفاءها في محور الشرّ تقرر سجنه وتعذيبه ومطاردته وتجريده مما يملك، دون أن يستطيعوا تجريده من إنسانيته ومواقفه الرائدة كزعيم وطني وداعم للتحرر في العالم[1].

### 10 . مصالي وثورة التحرير ووفاته:

لعل هذا العنوان وهذا الجانب من حياة الزعيم الوطني مصالي الحاج يعتبر الحلقة الأكثر سخونة وإثارة في

(1) المصدر نفسه ص 192.

أي حديث، والحقيقة التي خرجت بها: أن مصالي الحاج لم يكن أبداً ضد الثورة، بل كان من الدعاة إليها، ولعل الإشكال في أن المركزيين «من أعضاء حزبه الذين اختلف معهم»، وتسارع الأحداث بعد ذلك هو ما جعله يتأخر، وما جعل غيره ممن فجرّوا ثورة 1 نوفمبر 1954م يعتبرونه خان الثورة وانقلب على ما عليه الوطني ومساره النضالي. إن مسار الرجل في خدمة القضية الوطنية والتضحيات الجسام التي قدمها والمعاناة والمشاكل التي واجهته من أجل الجزائر ومن أجل قضيتها، فكتب المذكرات وقدم اللوائح وحضر المؤتمرات ودافع عن حق هذا الشعب الذي لحقه ضيم الاحتلال وتعسف الغزاة.

كيف لهذا الرجل الذي جاب البلاد العربية وغير العربية، وسافر إلى السعودية طلباً للمساعدة المالية لشراء السلاح أن يتحول يوماً إلى خائن لهذه القضية وعدو لشعبه؟ كيف لمصالي الذي اتفق مع الزعيم عبد الكريم الخطابي على اليات تدريب المتطوعين الجزائريين من الشباب من أجل أن يهبّوا لتحرير وطنهم وتطهير أرضهم من دنس الغازين ؛ أن ينقلب من صاحب قضية فجأة إلى عدو قضية؟ كيف يُعقل أن يتحول هذا الوطني إلى معارض خائن للثورة؟

كان يرى التعددية والتنوع سمة من سمات الديمقراطية، ولذلك قال: إذا كان الإنسان حراً، وإذا كان يتمتع بكل حرياته الديمقراطية في كل مجالات وجوده ؛ فلن يبحث عن ثورة من أجل الثورة نفسها، لكن الإنسان إذا أخضع لنظام الحزب الواحد والديكتاتورية تصبح الثورة حينها واجباً ووسيلة للتحرر من كل العقبات والديكتاتورية مهما كانت قوتها.

لقد انقسم حزبه إلى فريقين: أنصاره والموالون له، والمركزيون الذين اختلفوا معه ولم يقبلوا فكرة أن يعقد مؤتمراً بدونهم، ويقرر استبعادهم من الحزب، ليحدث الشرخ الذي اسقط البناء، ويقوموا بدورهم بعقد المؤتمر الخاص بهم حيث عزلوه ولفيفاً من مناصريه. ولعل السر يكمن في الاختلاف في وجهات النظر التي جاء بها الفريق الشاب الذي انضم إلى الحركة وأرادها أن تتجدد وتكون أكثر ديمقراطية . لكن مصالي الحاج توجس

خيفة من مطالبات هؤلاء له بعدم السيطرة على الحزب والتحكم فيه والتقرير بالنيابة عن الأعضاء وكأنهم قاصرون[1].

ومع كل الاختلافات التي حدثت، إلا أن الحاج أحمد مصالي راسل وكالة «فرنس بريس»، وبارك الثورة ودعا الشعب الجزائري إلى دعمها مادياً والمشاركة فيها بما يملك حتى لا تفشل، ولعل مصالي كان يؤمن بأن فشلها يعني فشل المسار الطويل للحركة الوطنية وعودة الأمور إلى أبعد من نقطة الصفر، ويقول بأنه أرسل أموالاً سُلمت إلى كريم بلقاسم لدعم الثورة وإمدادها بوسائل النجاح من السلاح والذخيرة والأدوية وغيرها من الأمور المادية، كما يذكر بأن كريم بلقاسم نشر مقالاً في جريدة «صوت الشعب» أشاد فيه بموقف مصالي الحاج وذكر فيه قضية الأموال التي دعم بها الثورة[2].

إن الحقائق التاريخية تؤكد أن الحكم على مصالي بخيانة الثورة في نظر الكثيرين هو مجرد تلفيق وكذب، وأن الرجل كان من أوائل الواقفين إلى جانبها إن لم يكن هو من بعثها وهيّأ لها الأرضية لتولد من رحم الحركة الوطنية. وأيا كان الذي فجرها فإن الثورة للجميع ولا يمكن أن يتبناها أحد وأن يزايد على الاخرين بالقول إنه صاحبها، ويحضرني هنا بيت من الشعر للشاعر الجزائري محمد العيد ال خليفة يرد على المختصمين حول الأهلية بهذه الثورة فيقول:

لا تَقُلْ لي أنا ولا أنت فيها          كُلُّنا قومها على كلّ حال

لقد رفض مصالي اتفاقيات إيفيان ولم يقبل بجميع بنودها، وكان أن رفض دعوة ديغول إلى الالتقاء بوفد من الحكومة الفرنسية ضمن وفد يختاره مصالي الحاج من حزبه، ليكون موازياً للقاء في إيفيان مع وفد حزب جبهة التحرير الوطني ؛ إلا أن مصالي رفض ذلك، لأن فرنسا تريد بذلك شق صفوف الشعب الجزائري وتمزيقه، وبالتالي إضعافه وإظهاره أمام الرأي العام العالمي أنه يفتقر وعاجز عن اختيار قيادة موحدة للتفاوض معها، كما أنه رأى أن الإقدام على فعل كهذا ؛ من شأنه إفشال ما بدأه إخوانه في جبهة التحرير ، وبالتالي

(1) المصدر نفسه ص 195.

(2) المصدر نفسه ص 199.

إضعاف مواقفهم أمام العدو. ففضل الرفض واثر الوطن على الأمجاد السياسية الشخصية، وأثبت أنه وطني من الطراز الأول، وأنه ليس من المتسلقين الذين لا يهمهم غير المكاسب الحزبية أو الشخصية. وهناك موقف آخر أذكره وهو لما تم وقف إطلاق النار وتقرر إجراء استفتاء تقرير المصير حول الاستقلال، لم يكن مصالي لينأى بنفسه وهو في منفاه عمّا يجري في وطنه وما يعيشه شعبه، باعتباره حُيّد عن الحركة الوطنية ولم يعد فاعلاً، ولم يقف كالمتفرج انتقاماً أو عجزاً، بل كان يؤمن أن النضال لا يزال مستمراً والشعب بحاجة إلى اراء رئيس حزب الشعب، إذ تدخل ودعا الجماهير إلى التصويت بكثافة وقوة على مشروع الاستقلال بـ «نعم»، في الوقت الذي التأم فيه شمل جميع الأخوة الجزائريين ليعيشوا فرحة النصر وانقشاع غيوم الاحتلال عن سماء الجزائر، وتشرق شمس الحرية الباسمة على شعبها، ليهنأ وينعم بها أحفاد المناضلين والمجاهدين من أبناء هذا الوطن العزيز.

لقد أثبت مصالي الحاج أنه طوى خلافاته وراء ظهره وعفا عمن أساءوا إليه في واحدة من شيمه، وهذا الرجل كان كبيراً دوماً في مواقفه ونضاله وجزائريته[1].

إن الحاج أحمد مصالي أثبت ولاشك بأنه ينتمي وبصفة نهائية إلى الفترة المضيئة من الذاكرة الجماعية الوطنية الجزائرية[2].

إن الخلاف في شخصية المناضل الحاج أحمد مصالي مرده طبيعة الاختلاف بين الشباب والشيوخ والكهول، فقد كان أول نوفمبر بداية لصفحة جديدة من تاريخ الجزائر، أشعل لهيب ثورتها وأنار طريقها شباب يتدفق حيوية ونشاطاً لنيل حريته بأي ثمن، فكانت تلك المرحلة والصفحة الجديدة في تاريخ الجزائر تتطلب رجالاً جدداً، وهذا من سنن الله في حركة المجتمعات ونضال الشعوب وكفاح الأمم، وتبقى الشعوب

---

(1) المصدر نفسه ص 201.

(2) المصدر نفسه ص 18.

الحية تحترم نضال وكفاح وجهاد كل أبنائها شيوخاً وكهولاً وشباباً ورجالاً ونساءً.

لقد واصل الزعيم الحاج أحمد مصالي حياته في المنفى بفرنسا، وبدأ في عام 1967م وعام 1968م بتحرير مذكراته، واتصل به مجموعة من الناشرين الفرنسيين والأجانب، ولكنه لم ينشرها فكتب 17 كراساً من حوالي 6000 صفحة تضمنت مذكراته حتى عام 1938م، فكان يحرر مذكراته التي نشر ما حرر منها في عام 1982م. وقد توفي في 3 جوان 1974م عن عمر 76 سنة، نتيجة لمرض عضال ألمّ به وكان السبب في وفاته، وقد دفن بمسقط رأسه تلمسان في أجواء مهيبة تليق بإنجازات الرجل[1].

لقد شهد العديد من الشخصيات المهمة بالدور النضالي للحاج أحمد مصالي، من مختلف الاتجاهات الوطنية، ومنها تلك التي عارضته في بداية الخمسينات. ومن هذه الشهادات التاريخية الهامة حول شخصيته نشير إلى ما يلي:

ـ يقول شكيب أرسلان في مصالي الحاج: ولو كانت الشبيبة الإسلامية كلها على نمطه لتحرر الإسلام منذ زمن طويل. إن هذه شهادة من رجل علم وجهاد يشهد له الجميع بذلك.

. وها هو عدوّه اللدود الجنرال الفرنسي شارل ديغول يقول في شخص الزعيم الحاج أحمد مصالي: سخرت من تشرشل، وروزفلت، وستالين وجميع عظماء العالم لكنني أخفقت مع مصالي[2]، فشارل ديغول الذي يعتبر أحد كبار الإستراتيجيين العسكريين في التاريخ العالمي في القرن العشرين يعترف بعبقرية الرجل.

. وحسب شهادة المناضل حسين الميلي الذي طرح السؤال التالي على المناضل محمد الأمين دباغين، في أي خانة يمكن أن نصنف حالة مصالي الحاج؟ فكان جوابه فوراً: لقد أخطأ التقدير في مرحلة ما، لكنه لم يكن خائناً أبداً... بل إن مصالي الحاج لم يكن سوى وطنياً مخلصاً لشعبه وأمته.

---

(1) المصدر نفسه ص 203.

(2) المصدر نفسه.

إن هذه شهادة مناضل كبير في الحركة الوطنية الجزائرية في شخصية الحاج مصالي.

ـ وأما عن المناضل والرئيس الأول للجمهورية الجزائرية المستقلة أحمد بن بلة، وأحد القياديين التاريخيين للثورة فيقول: إن مصالي الحاج رجل عظيم في وطنيته، قد ارتكب بعض الأخطاء ولكن أخطاء رجل عظيم كانت في حجمه[1].

ثم يقول:.. كان رجلاً عظيماً وعبقرياً بدون حدود.. ويا ليتني أستطيع أن أرسم لك صورة أكثر تفصيلاً عن عبقرية هذا الرجل العظيم وما فعله والحزب الذي أسسه والجهاز العسكري الذي بناه وظل يشرف عليه بنفسه حتى فجر ثورة أول نوفمبر.. إنني أتكلم وقد خاصمته في بداية الثورة وحاربناه ولكنني كخصم أقول يجب إعادة الاعتبار إليه، لقد حان الوقت لنقول الحقيقة وحان الوقت بعد عشرين سنة من الاستقلال لأن يأخذ كل واحد حقه[2].

ويقول المناضل حسين آيت أحمد أحد القياديين التسعة للثورة في مذكراته: إنه هو الرجل الوحيد الكفء ـ بحكم لطافته وهيبته ـ الذي بلور مفهوم الوحدة الوطنية وأعطى سمعة كبيرة للجزائر خارجياً[3].

ـ ويقول الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة «1909م ـ 2000م» في رسالة لمصالي الحاج في عام 1959م: سيشهد التاريخ أنك كنت رائد الحركة الوطنية، وأنه بالرغم من الاضطهادات والقمع، فقد كوّن نشاطك الاف المناضلين المحنكين، هؤلاء المناضلون الذين تكونوا تكويناً حازماً في مدرسة نجم شمال افريقيا، ثم في إطار حزب الشعب الجزائري، فحركة انتصار الحريات الديمقراطية، وهم الذين يشكلون ذراع جبهة التحرير الوطني..

---

(1) بن بلا يتكلم ، السعيد الصافي حلقة 4 جريدة السفير.

(2) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 442.

(3) المصدر نفسه ص 443.

وقد ختم رسالته بدعوة مصالي الحاج للالتحاق بجبهة التحرير الوطني[1].

. وهذه شهادة الزعيم فرحات عباس، حيث تأثر كثيراً لموت الزعيم الحاج أحمد مصالي، وبذل جهداً كبيراً لدى السلطات الجزائرية لمنحه جواز سفر يسمح له بالدخول إلى الجزائر، إلا أن هذا الطلب رفض. وقد اعتبر فرحات عباس الزعيم مصالي الحاج أنه إنسان شارط وفارض وشجاع، يعرف كيف يفرض شخصيته وكيف يستغل الظروف[2].

ـ وأما المناضل أحمد مهساس فاعتبر أن مصالي الحاج كان يجمع بين القول والفعل، وكان ينادي بالاستقلال ويقبل بمقابل هذا كل المصائب والصعوبات من أجل تحقيق هذا المطلب، واعتبر أن ما حدث بين مصالي الحاج وأعضاء جبهة التحرير الوطني هو خلاف سياسي وليس خيانة، ومصالي الحاج لم يكن خائناً أبداً. وحسبه دائماً أن يعد أكبر الثوار في العالم[3].

ـ وأما المناضل أحمد بو منجل في حوار مع أنري علاق: لقد عرفت مصالي الحاج لما كنت طالباً في باريس.. لقد كان رجل الشعب، وكانت له حرارة خاصة وديناميكية قوية، فقد عرض علينا المشكل الجزائري بطريقة لم نكن نعرفها كلية، فكنا أمام رجل تعرف وتحكم في المشكل الاستعماري، فليس هناك من سبب أن لا يطالب الجزائري المناضل بماضيه وحاضره[4].

## رابعاً: د. فرحات عباس:

يعتبر الزعيم فرحات عباس إحدى الشخصيات الوطنية البارزة التي تركت بصمتها في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، إذ كان يطالب بالمساواة في إطار الاندماج والتجنس، إلا أنه غيّر من مواقفه السياسية فيما بعد.

إن الوسط العائلي والاجتماعي والثقافي الذي ترعرع فيه الرجل من ناحية، وكذا التعليم المدني الذي تلقاه

(1) المصدر نفسه ص 443.

(2) المصدر نفسه ص 445.

(3) المصدر نفسه ص 444.

(4) المصدر نفسه ص 444.

كان له الاثر البالغ في تبني هذه المواقف من ناحية ثانية، فضلاً عن أن العصر الذي نشأ فيه تميز بمجموعة من الأحداث الدولية التي أثرت في د. فرحات عباس كالحروب العالمية وغيرها.

### 1 . نشأته العائلية والاجتماعية:

ولد فرحات عباس في 24 أكتوبر 1899م في دوار «شاملة» التابعة للبلدية المختلطة لمدينة الطاهير المطلة على البحر الأبيض المتوسط، والتابعة لعمالة قسنطينة وهي مرتكزة على الأصالة والتقاليد.

والتي استقر فيها بكثرة المعمرون الفرنسيون ذوو الأصل الألزاسي أو اللوريني.

وهو ابن سعيد بن أحمد عباس، أما أمه فتسمى ماجة بنت مالحة، وقد كان أبوه قايد ثم باشاغا، نشأ فرحات عباس ضمن عائلة بورجوازية ميسورة، لذا فهي لم تعاني الحرمان والفقر اللذين عانى منهما الغالبية العظمى من سكان الجزائر.

فجده ولد في أواخر القرن 18م، شهد حرب الاستعمار الأولى في منطقة الشرق الجزائري، حيث شارك في الحرب ضد الجيش الفرنسي الذي قاده الجنرال الفرنسي سانت أرنوا، والذي أحرق القرى والقبائل وصادر الماشية والقمح، ولم يبق للسكان الفلاحين البسطاء إلا البكاء. فسانت أرنوا على غرار الجنرالات بليسي وراندو تركوا الاماً وجروحاً في المجتمع الجزائري بفعل القتل والقمع الذي مارسوه على سكان القرى، وهو ما يحفظونه في مذكراتهم.

وقد عانت عائلته الاستلاب والنهب من قبل المستعمر الفرنسي، وبعد انتفاضة الشيخ الحاج محمد المقراني في عام 1871م، وإعلان شيخ الزاوية الرحمانية الشيخ الحداد الحرب على فرنسا بقصد مواجهة الفرنسيين ؛ امتدت هذه الانتفاضة إلى كل قبائل منطقة التل في الشرق الجزائري، وتمكنت من تعبئة 250 قبيلة وأعطت للحرب طابعاً وطنياً.

وكان دوار جد فرحات عباس معنياً بهذه الانتفاضة، فحمل جده السلاح ، ومع هزيمة مقاومة المقراني

والحداد قررت السلطات الفرنسية حجز ممتلكات القبائل الثائرة والمقدرة بـ 100 ألف هكتار، مع دفع غرامات مالية عالية، كما صادرت فرنسا الغابات والأراضي الصالحة للزراعة ووزعتها على المعمرين.

وقد كان جده واحداً من الذين انتُزعت منه أرضه وصودرت، وأصبح مجرد فلاح بسيط في الأرض كبقية الجزائريين الاخرين، ونفس الأمر بالنسبة لدواره، فأصبح فقيراً لدرجة أن والده كان يعمل 15 ساعة في اليوم مقابل 150 فرنك فرنسي قديم[1].

لقد تمت هذه الانتفاضة في ظروف دولية معقدة تميزت بأخذ المانيا لأجزاء من الأراضي الفرنسية، مما انعكس على العملية الاستيطانية على حساب الجزائريين، فضلاً عن بؤس الجزائريين بسبب المجاعات والكوارث الطبيعية والظروف المناخية والاقتلاع الثقافي للجزائريين، وكذا وضع التنظيم الإداري الفرنسي محل القبيلة في بنياتها التحتية والفوقية، فأصبح الجزائريون غرباء في وطنهم مشتتين على مستوى الأسرة والقبيلة والقرية[2].

وقد نشأ فرحات عباس في مرحلة الطفولة في مدينة الطاهير التي كان يعيش فيها الألزاسيون واللورانيون، ثم توجه إلى مدينة جيجل لمزاولة التعليم الابتدائي، ثم التعليم الإكمالي في مدينة سكيكدة، وبعدها التعليم الثانوي في مدينة قسنطينة، وأخيراً التعليم العالي في مدينة الجزائر في دراسة الطب «فرع الصيدلة»، وخلال كل هذه الفترة احتك بالأوروبيين وتعرف على الثقافة الفرنسية الغربية وتبناها خاصة في المرحلة الأولى من نضاله السياسي.

وبحصوله على شهادة البكالوريا في عام 1921م استدعي للتجنيد الإجباري لتأدية الخدمة العسكرية إلى غاية 1923م، وتولى وظيفة كاتب في مستشفيات عنابة ثم قسنطينة ثم جيجل ثم تولى وظيفة مساعد صيدلي وبعدها تقلد رتبة رقيب.

(1) المصدر نفسه ص 108.

(2) المصدر نفسه.

إن فترة الخدمة العسكرية هذه سمحت له بملاحظة التمييز القائم بين الفرنسيين والجزائريين المجندين، مما جعله يطالب بالمساواة بينهم داخل الجيش الفرنسي.

وأثناء الدراسة الجامعية في الجزائر، واجه مشكلة الإقامة، فأقام عند عدة عائلات فرنسية كعائلة لوران وحوران والسيدة شارل وغنزاليس، وتلقى من هذه العائلات معاملة حسنة واطلع من خلال هذا الاحتكاك الاجتماعي على القيم والثقافة الفرنسية، وفضلاً عن هذا فقد تعرف على عدد كبير من الزملاء المسلمين والفرنسيين، وكذا المسؤولين الفرنسيين في الجزائر.

ومع انتهاء الدراسة الجامعية توجه الزعيم فرحات عباس إلى الحياة المهنية، فبدأ حياة جديدة، إذ فتح في فيفري 1933م صيدلية في مدينة سطيف قرب مكان نشأته، وهذا بطلب من سكان سطيف، فتولى مهنة حرة على غرار الجزائريين المحامين والأطباء، حيث حُرّم عليهم الدخول للإدارة العامة الفرنسية ماعدا القليل جداً من الجزائريين.

لم يوفق د. فرحات عباس في زواجه الأول، وطلق زوجته بعد الحرب العالمية الثانية، وتزوج لاحقاً بالزوجة الثانية الفرنسية الأصل في منطقة الألزاس والتي ولدت بالجزائر وتسمى مارسيل، وكان عمره سبعة وأربعين سنة، وقضت حياتها الزوجية مع الزعيم فرحات عباس في الجزائر، ثم في مصر وتونس لما كان رئيساً للحكومة المؤقتة الأولى والثانية للجمهورية الجزائرية، وتبنت أفكاره ووقفت بجانبه لما كان تحت الإقامة الجبرية بعد الاستقلال. وللعلم فقد سجنت لمدة سنتين من قبل الاستعمار الفرنسي وتعرضت للتعذيب، وقد توفيت في مدينة نيس الفرنسية في 2001م، ولم يرزقا في حياتهما بولد، ولكنهما تبنيا ـ عبد الحميد ـ ابن أخ الزعيم فرحات عباس محمد الصالح.

وقد قضى حياته بعد الاستقلال في الكتابة عن الاستعمار الفرنسي والثورة الجزائرية والاستقلال، وقضى ما تبقى من حياته بين مكان إقامته في الجزائر والعاصمة ومدينة سطيف التي قضى فيها جزءاً كبيراً من حياته ومدينة نيس الفرنسية.

وقد توفي فرحات عباس في 24 ديسمبر 1985م[1].

### 2. نشأته التعليمية والدينية:

لقد تلقى فرحات عباس ـ كما إخوته الخمسة ـ تعليمه الأول ـ كما هو حال باقي الأطفال الاخرين ـ في المدرسة القرآنية لبني عفير، وقد كانت هذه المدرسة ـ كما هو الحال بالنسبة للمدارس الأخرى ـ تتولى تلقين التعليم الديني للأطفال وتحفيظهم القرآن الكريم وإكسابهم اللغة العربية قبل الدخول للمدرسة الفرنسية، وكذا تربية الأطفال تربية إسلامية قوية، وغرس قيم المجتمع فيهم كالتضامن الاجتماعي والقيم الأخلاقية والبطولية.

وقد عرفت هذه المدارس القرآنية الانتشار الواسع في كل المناطق الجزائرية، وخاصة في الريف وفي المناطق الجبلية، وهذا إما بفضل التعليم الوقفي والزوايا، وإما بفضل نشاطات الجمعيات والأحزاب الوطنية، وتوجد هذه المدارس أو ما يطلق عليها «الكتّاب» في أغلب الأحيان داخل المسجد، وبعدها زاول فرحات عباس التعليم في المدرسة الأولية ـ التحضيرية الفرنسية المفتوحة للفرنسيين والأهالي بالطاهير والتي فتحت أبوابها لأول مرة في عام 1890م[2].

إن السياسة التعليمية التي اتبعتها فرنسا تجاه السكان الجزائريين جاءت بعد القضاء على ثورة الشيخ محمد المقراني والشيخ الحداد رئيس الزاوية الرحمانية، فاعتبرت أن وضع حد لهذه الثورات في المستقبل لن يتم إلا من خلال التحكم بالتعليم، الذي يعد وسيلة فعالة في السيطرة على عقول وقلوب السكان الرافضين للأجنبي. فالتعليم حسب جول فيري سوف يخلق أناساً فرنسيين مسالمين ومعتدلين غير ثوريين ويتقبلون أفكارنا وثقافتنا ووجودنا[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 115.

(2) المصدر نفسه ص 116.

(3) المصدر نفسه ص 117.

لقد عمل الاستعمار الفرنسي من خلال التعليم على تكريس الهيمنة والتبعية، وعلى عرقلة نشاط الزوايا والمدارس العربية الحرة، وبدأ في تجسيد سياسة الاندماج، التي استهدفت خلق نمط حياة جديدة، مختلف عن ذلك القائم بشكل يفصل فيه عن حياتهم الثقافية والتعليمية والاجتماعية وحسب[1]، وقد سمحت المدرسة الفرنسية لفرحات عباس باكتشاف عالم الثقافة الفرنسي، فاعتبر الكتب المدرسية أنها تمثل فرنسا كرمز الحرية، كما اعتبر أن المدرسة تنسي الأطفال الظروف الاجتماعية الصعبة من فقر وبؤس، واللذين كانا يعاني منهما الجزائريون في الدواوير والمداشير، وربما أيقظهم على الوضع المزري.

وكانت الكتب المدرسية تشير للثوار الفرنسيين الذين قاموا بالثورة في عام 1789م مما أثر في نفسية فرحات عباس.

واعتبرت المدارس الفرنسية سواء في الجزائر أو في فرنسا أن الاستعمار يحمل رسالة حضارية، ففي كتاب إرنست لافيس الذي كان مرجع أساسي لفرحات في القراءة، كان يقرأ فيه: أن فرنسا تريد للأطفال العرب أن يصبحوا متعلمين كالأطفال الفرنسيين، وهذا ما يدل على أن فرنسا طيبة وتهتم بالشعوب الخاضعة لها.

وتوظف التاريخ في توجيه حاضرها ومستقبلها، ورغم هذه المبادئ الإنسانية إلا أنه كان يعاني على غرار الجزائريين الاخرين في المدارس الفرنسية من التمييز مقارنة بالتلاميذ الفرنسيين، مما انعكس على نفسيته وعلى نفسية الطلبة الآخرين.

كما تأثر فرحات عباس كثيراً بأساتذته الذين كانوا يلقنونه أفكار فرنسا الحضارية والحرية والمساواة والأخوة، وبالتالي صقل مواقفه السياسية على بصيرة في مراحله الأولى من النضال السياسي، كالمناداة بغياب الأمة الجزائرية، وأن فرنسا حاملة الرسالة الحضارية لمجتمع متخلف.

---

(1) المصدر نفسه ص 119.

وبعدها واصل فرحات عباس تعليمه الإكمالي بمدينة سكيكدة، حيث كان من ضمن 20 جزائرياً يطبق عليهم النظام الداخلي، فيتقاسمون ظروف الدراسة مع 50 إلى 60 أوروبي، وكانت تجمعهم علاقات تبدو حسنة[1].

ثم واصل فرحات عباس الدراسات الثانوية في مدينة قسنطينة إلى أن تحصل على شهادة البكالوريا، وخلالها تأثر بالكتاب والمفكرين الفرنسيين كبالزاك وشاتوبريون وديدرو وفولتير، كما كان يقرأ للجغرافي فيلكس قوتيي، وعليه فالتعليم المدرسي في جيجل والتعليم الإكمالي في سكيكدة والتعليم الثانوي في قسنطينة ؛ قد أثر في تكوين فرحات عباس من ناحية وفي حياته وتوجهه الحضاري والثقافي من ناحية ثانية.

وبعد إنهائه الخدمة العسكرية في عام 1923م ؛ واصل فرحات عباس دراسته الجامعية بجامعة الجزائر في تخصص الطب «فرع الصيدلة»، واختياره لها يعود أساساً لكونها مهنة حرة وإلى اعتبار أن المناصب الإدارية كانت ممنوعة أمام السكان «الأهالي».

وفضلاً عن الصيدلة فقد كان فرحات عباس مهتماً بدراسة الفلسفة والتاريخ والأدب، واطلع على الكثير من الكتب التي سمحت له بالتعرف على الحضارة والثقافة العربية الإسلامية، ومما جعله ـ إلى حد ما ـ يتأثر بمبادئ الإسلام وقيمه ويوازنها مع مبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة: الحرية والمساواة والأخوة. وبالموازنة مع مرحلة الدراسة الجامعية انصب اهتمامه حول معيشة الجزائريين العامة، وراح يناضل من أجل تحسين مستواهم المعيشي المتدني، مع الاهتمام بالأحداث الدولية[2].

### 3 ـ نشأته الوطنية والأخلاقية:

لقد بدأ الحس الوطني لفرحات عباس خلال فترة الطفولة، لما كانت جدته تروي له ولإخوته ما عاناه أجداده من قمع ومصادرة للأراضي أثناء التوسع الاستعماري في الشرق الجزائري، فمن خلال الصور تم نقل

(1) المصدر نفسه ص 125.

(2) المصدر نفسه ص 127.

صورة العالم السياسي القائم، فمنحت له أسرته فرصة التعلم السياسي والنضج السياسي.

وازداد حسه الوطني أثناء فترة جمع الضرائب من قبل الخزناجي، حيث أدرك قيمة الحرية وتحرير الفلاحين المضطهدين من قبل المستعمر الفرنسي حيث قال:.. مساري ونشاطي السياسي الأول بدأ بالتركيز على تحرير هذه الفئة الكبيرة، وكان طموحي الأساسي هو رؤية الفلاح الجزائري . قبل موتي . يتمتع بنفس الظروف المعيشية للأوروبي كأن يأكل جيداً ويقرأ الجريدة.

ومنذ 1915م تعلمت شيئاً آخر وهو أن فلاحي العالم كلهم إخوة في البؤس والشقاء، كلهم عرفوا ويعرفون الاستغلال، وحتى اليوم هناك فئة كبيرة من المستغلين وطائفة تُستغَل، فالفلاح الفرنسي والياباني والصيني يعيشون نفس ظروف الفلاح الجزائري.

وقد بدأ نشاطه السياسي في عام 1932م بعد بداية مزاولته مهنة الصيدلة في مدينة سطيف، وفي هذه الفترة كان الجو السياسي هناك هادئاً، لكن بمجرد وصوله إليها تغيرت الأوضاع، فوزع وعرف بكتابه «الشباب الجزائري» ووجه نقداً لاذعاً للإدارة الفرنسية، كما عبر في نفس السنة صراحة وعلانية عن أحاسيسه الفرنكفونية وعن تأثره بالنظام الفرنسي، وتأسفه لعدم تجسيده للمساواة الأمر الذي يعاني منه السكان الجزائريون.

كما أسس الزعيم فرحات عباس في هذه الفترة «جمعية خيرية» كان هدفها نشر الأخوة بين أعضائها، وهي تجمع الأهالي المسلمين. وتتوالى الوظيفة الإعلامية فيما يحدث من أحداث سياسية، فكانت بمثابة ملجأ للسكان المسلمين الذين كانوا يشعرون بالعدوان تجاه فرنسا.

هذا العمل الذي قام به جعله يوسع من شعبيته، حيث أصبحوا يلقبونه حسب أحد أتباعه السيد قماش عمار بـ «أسد سطيف». وتم هذا في وقت كان يترأس فيه جريدة الوفاق، وهي جريدة اتحادية المنتخبين من 1935م إلى 1939م، وفيها أعلن صراحة عن مطلبه الاندماجي وعن ربط مستقبل الجزائر بفرنسا.

بعد إنهاء الدراسة الجامعية والانطلاق في عالم مهنة الصيدلة، بدأ فرحات عباس يهتم بالنشاط السياسي، فشارك في انتخابات تجديد المجالس العامة، كما انتخب مستشاراً رئيسياً لعمالة قسنطينة في 14 أكتوبر 1934م.

ثم قام بالانضمام إلى اتحادية المنتخبين التي أسسها بن جلول في 1927م، وتجمع اتحادية المنتخبين النخبة الجزائرية على أساس مكانتها الاجتماعية في المجتمع الجزائري، فهم ينتمون إلى البورجوازية الجزائرية ومتحصلين على الشهادات الجامعية[1].

وقد تبنى خلالها فرحات عباس نفس أفكار ومبادئ المنتخبين والمتمثلة في الاندماج والتجنس وحينها قال: الجزائر كوطن هي أسطورة وخرافة لم اكتشفها، فسألت التاريخ وسألت الأموات والأحياء وزرت المقابر ؛ ولا واحد تكلم وتحدث عنها.

كما تأثر فرحات عباس ـ إلى حد ما ـ في البداية بالأمير خالد والشبان الجزائريين فيما يتعلق بالمطالب الاندماجية والأخذ بالجنسية الفرنسية، مع المحافظة على الأحوال الشخصية، علماً بأن أطروحة الأمير تختلف عن أطروحة الاندماجيين الليبراليين، للإشارة فقد تصدر الأمير خالد مسرح السياسة الجزائرية مدة أربع سنوات «1919م ـ 1923م» وركز جهوده مع زملائه في النضال على تحسين أوضاع الجزائريين والتخفيف من الامهم، ورغم أنه لم يحقق هدفه إلا أنه ساهم في بلورة الشعور الوطني في الجزائر.

إن تبني فرحات عباس لهذه الأفكار يعود أساسياً للتكوين الذي تلقاه في المدرسة الفرنسية من ناحية ولتأثره بالمفكرين الأوروبيين، ناهيك عن تأثره بالنخبة الجزائرية الموالية للاستعمار[2].

### 4 ـ د. فرحات عباس والمؤتمر الإسلامي الجزائري:

مع وصول الجبهة الشعبية للحكم في انتخابات 26 أفريل ـ 30 ماي 1939م بدأت بعض القوى

(1) المصدر نفسه ص 131.

(2) المصدر نفسه ص 132.

السياسية انذاك عن غرار العلماء المسلمين والشيوعيين والمنتخبيين في التحضير للمؤتمر الإسلامي الجزائري الأول، الذي انعقد في جوان 1936م في ظل ظروف وتحولات دولية ظهرت انطلاقاً من الأزمة الاقتصادية العالمية 1929م، واستمرت إلى غاية انتهاء الجبهة الشعبية وبداية الحرب العالمية الثانية.

لقد شارك فيها الزعيم فرحات عباس لينتهي هذا المؤتمر بجملة من المطالب منها ربط الجزائر بفرنسا والحفاظ على الأحوال الشخصية للجزائريين الأهالي، وتقديم مطالب اجتماعية كالتعليم الإجباري للجنسين، ومطالب اقتصادية كإنشاء تعاونيات فلاحية، ومطالب سياسية كإصدار العفو العام الشامل ووضع هيئة انتخابية واحدة، وإلغاء القوانين والمؤسسات الاستثنائية، وتمثيل المسلمين في البرلمان.

كانت هذه عبارة عن جملة من المطالب الإصلاحية تم بلورتها في هذا التجمع، بعد تأكدهم من عدم جدوى الصحافة والحوار وتقديم العرائض لدى مؤسسات الاستعمار الفرنسي.

وقد شارك فرحات عباس ضمن الوفد الذي توجه إلى فرنسا لتقديم هذه المطالب السياسية للسلطات الفرنسية، إلا أن بلوم فيوليت رفض تلبية هذه المطالب، وقد تأكد الرفض في العام الذي بعده بسبب رفض المعمرين ومواليهم في باريس من جهة، ورفض حزب الشعب الجزائري بقيادة الحاج أحمد مصالي له من جهة ثانية[1].

### 5. الاتحاد الشعبي الجزائري:

وفي عام 1938م حدثت القطيعة بين الدكتور بن جلول والزعيم فرحات عباس، وأسس هذا الأخير الاتحاد الشعبي الجزائري في جويلية 1938م، وهذا بعد فشل المؤتمر الإسلامي في تجسيد المطالب الإصلاحية، فأدرك الزعيم فرحات عباس أنه من الضروري إنشاء حزب سياسي جزائري؛ لمواجهة المعمرين ، وللدفاع عن

(1) المصدر نفسه ص 133.

المطالب الإصلاحية وتحقيقها. وهو يستند إلى الجماهير وتكون قاعدته ذات صلة بالمسلمين الجزائريين. فاعتقد أن الطرح النخبوي لوحده لا يكفي، بل لابد من الاعتماد على الجماهير وتبني مبدأ: من الشعب ولصالح الشعب، واعتبر أن الأسواق والمقاهي والأكواخ يجب أن تكون مجالات للنشاط السياسي، وعمل على تشكيل خلايا وفروع محلية لحزبه شارحاً للسكان مطالبه، كمطلب اللغة العربية، وحرية المعتقد، وانتقاد الاندماج، والأمبريالية.

وربما قد تأثر بالدستور الجديد في تونس: النجاح أو الانتصار يجب أن يركز على نشاط الجماهير . والأسواق والمقاهي ويجب أن تكون مراكز النشاط.

فهذه الأماكن التي تجمع الجماهير هي التي يجب الاعتماد عليها في نشر الأفكار، ولم يعد الأمر يقتصر فقط على النوادي والجمعيات والتجمعات النخبوية[1].

### 6 . نزول جيوش الحلفاء في الجزائر:

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تطوع فرحات عباس كصيدلي مساعد، ومكث في قسنطينة حتى نهاية مارس 1940م، ثم نقل إلى فرنسا، وكان يريد من هذا أن يعبر عن ولائه لفرنسا، وقد بعث في 15 أفريل 1941م تقريراً للمارشال بيتان وانتقد النظام الاستعماري، واعتبر أن تحرير الجزائريين المسلمين يتم من خلال المساواة في الحقوق مع الأوروبيين، ففي هذا التقرير طالب بـ:

. إنشاء صندوق للفلاحين يخضع لرقابة «اللجان الفلاحية» في كل منطقة بغرض حماية الفلاحين الصغار ولكي يحافظوا على أراضيهم.

. تأميم الشركات الكبيرة ومنح الأراضي للفلاحين.

. تطوير التعليم.

(1) المصدر نفسه ص 134.

فطالب فرحات عباس بإصلاح زراعي يسمح بالقضاء على الإقطاعيات العقارية من جهة، وبتشكيل طبقة الفلاحين من جهة ثانية، هذا في وقت انقسمت فيه اتحادية المنتخبين. فأدرك عباس ضرورة الاعتماد على الجماهير، ولكنه لم يعبر نهائياً عن القطيعة مع فرنسا.

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية ونزول الحلفاء بالجزائر أجرى فرحات عباس اتصالات مع السياسيين والدبلوماسيين الأمريكيين والبريطانيين، منهم الممثل الخاص للرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت «مورفي»، وقدم للحكومة العامة الفرنسية وللممثلين الأمريكي والبريطاني رسالة موقعة من قبل المنتخبين المسلمين للعمالات الثلاثة ؛ تمنوا خلالها تطبيق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها على الجزائر، وقد رفضت الحكومة العامة الفرنسية هذه الرسالة زيادة على أنه لم يكن هناك أي رد(1).

## 7. حركة البيان:

في 1942/12/20م وبتشجيع من حزب الشعب قدم فرحات عباس رسالة للسلطات أعقبت برسالة أخرى بعد يومين، فحدثت استجابة وطلب ممثل الولاية منه تقديم الإصلاحات، وعقد اجتماع في مكتب المحامي أحمد بو منجل حضره عباس وعسلة عن حزب الشعب والعربي التبسي، وخير الدين وتوفيق المدني عن العلماء، وممثلو المنتخبين: تامزالي، وغرسي، وقادري، وكلف عباس بتحرير البيان، حيث قام بتحريره في سطيف بصيدليته.

وجرى اجتماع ثان يوم 1943/2/7م درس فيه مشروع البيان الذي حرره عباس، كان البيان معتدلاً لكنه أكد على الجانب الوطني، استهله في ديباجته، باستعراض تاريخ الجزائر، وفشل سياسة الاندماج، واستعرض ثورات البلاد والمقاومة، ثم قدم المطالب التي تتلخص فيما يلي:

- إدانة الاستعمار وإلغاؤه أي إلغاء استغلال شعب من شعب الذي يعتبر نوعاً من العبودية في القرون الوسطى.

---

(1) المصدر نفسه ص 136.

. منح حق تقرير المصير لسائر الشعوب صغيرة وكبيرة.

. منح الجزائر دستوراً خاصاً بها يضمن:

. الحرية والمساواة لسائر السكان دون تمييز بين عرق ودين.

. إلغاء الملكية الإقطاعية بواسطة إصلاح زراعي وضمان حقوق عمال الفلاحة.

. الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في نفس مستوى الفرنسية.

. ضمان التعليم المجاني والإجباري لسائر الأطفال من الجنسين.

. حرية العبادة لسائر السكان وتطبيق فصل الدين عن الدولة على سائر الأديان على غرار فصل الكنيسة عن الدولة.

ـ المشاركة العملية الفورية للمسلمين الجزائريين في حكومتهم كما فعلت بريطانيا والجنرال كاترو بسوريا، وحكومة الجزائر هذه هي الكفيلة وحدها بتحقيق جو من الوحدة السليمة.

. إطلاق سراح سائر المحكوم عليهم سياسياً والسجناء السياسيين المنتمين لسائر الأحزاب.

وافق على البيان العلماء وحزب الشعب ووافق عليه المنتخبون، بالرغم من تحفظ بعضهم. وقدم البيان للحاكم العام بيروتون يوم 1943/3/31م، الذي قام بتأسيس لجنة لصياغة الإصلاحات ضمت 8 باشاغاوات، عملا صريحين للإدارة، وهي إشارة مخيبة للامال، ولم تضم اللجنة أي ممثل لا شيوعياً ولا من حزب الشعب. طلب الحاكم العام تقديم اقتراحات عملية، فحُرِّر محور تكميلي وقعه 21 شخصية قُدِّم له يوم 1943/5/26م تضمن نقاطاً أهمها:

. الاعتراف بوحدة التراب الجزائري الكامل.

. الاستقلال السياسي للجزائر كأمة كاملة السيادة.

ـ مشاركة المسلمين في حكومة وإدارة الجزائر.

ـ المساواة بين المسلمين والفرنسيين في ميدان التمثيل بالمجالس والجيش.

ـ إصلاحات اقتصادية.

وفجأة يصل الجنرال ديغول للجزائر ويعتقل الحاكم العام بيروتون، ويصرح يوم 1943/5/30م: أن قاعدة الوحدة الوطنية ترتكز على مبدأ السيادة الفرنسية الكاملة على سائر أجزاء الإمبراطورية الفرنسية، ولا يمكن التخلي عن هذا المبدأ.

واستقبل فرحات عباس وحوّله على الجنرال كاترو الحاكم العام الجديد دون أن يتحدث معه عن البيان، ورفض كاترو البيان قائلاً: المسألة الجزائرية تحل في الإطار الفرنسي.. استقلال الجزائر خرافة.. الجزائر وفرنسا كيان واحد. ورفض استقبال عباس بل واعتبره خارجاً عن القانون.

أجابه عباس برسالة شديدة اللهجة أرسل نسخة منها لديغول.

وفي 1943/9/30م أمر كاترو باعتقال فرحات عباس، والسايح عبد القادر، بتهمة إحداث اضطرابات في النظام العام في وقت الحرب. وأما الطرف الامريكي الموجود بالجزائر فقد بقي صامتاً بالرغم من استقبالهم الجيد للبيان[1].

وتمّ توجيه عباس فرحات وسايح عبد القادر حيث وضعا تحت الإقامة الجبرية من قبل الجنرال كاترو، ولم يطلق سراحه إلا في 2 ديسمبر 1943م، ليعود لممارسة النشاط السياسي 1944م[2].

## 8 ـ أحباب البيان والحرية:

في مارس 1944م أسس حركة أحباب البيان والحرية A.M.I بمدينة سطيف، وتمثلت أهم أهدافها في: استنكار الاستبداد وترويج فكرة دولة جزائرية، وتأسيس جمهورية مستقلة مترابطة بروابط اتحادية مع الجمهورية

(1) الجزائر في التاريخ ص 715.

(2) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 138.

الفرنسية الجديدة المناوئة للاستعمار، وقد زاد تأثير الزعيم فرحات عباس ولو لفترة مؤقتة، بسبب غياب حزب الشعب الجزائري، لاعتقال قادته وقمع ما تبقى(1).

وقد أيد الشيخ البشير الإبراهيمي حركة أحباب البيان والحرية، ولم يعترض الحاج أحمد مصالي وهو يقول لعباس: لكن تأكد أن فرنسا لن تعطيك أي شيء، فرنسا لن تستجيب إلا بالقوة ؛ تعطي لنا ما نفتكه منها بالقوة(2).

وبعدما أطلق مصالي من السجن يوم 26 أفريل 1943م بعد أن جاء الحلفاء إلى الجزائر، وصدر عفوعن جميع المساجين الذين تمت محاكمتهم في عهد حكومة «فيشي»، مر زعيم حزب الشعب بسطيف، والتقى بالسيد فرحات والبشير الإبراهيمي والسيد موريس لابور «من الحزب الشيوعي»، وتحاور الزعماء الأربعة في كيفية وضع إستراتيجية مشتركة واتخاذ موقف موحد بالنسبة للقضايا التي تهم مصير البلاد.

وفي هذا الاجتماع اتفق الزعماء الأربعة على إصدار وثيقة مشتركة تعبر عن إرادتهم القوية لتأسيس دولة جزائرية، ووضع دستور لجمهورية جزائرية مستقلة وذلك بقصد تكوين فدرالية مع الجمهورية الفرنسية. وقد أطلق على هذا البيان الذي صدر يوم 14 مارس 1944م اسم «أصدقاء البيان والحرية» وفيه وافق فرحات عباس على اقتراح من مصالي الحاج بأن يلغى منصب الحاكم العام في الجزائر ويتحول الحاكم العام إلى سفير.

وفي اجتماع سطيف بين عباس ومصالي والبشير الإبراهيمي وموريس لابور قال فرحات لمصالي الحاج ما يلي: لقد كنت ضدك أدافع بحرارة عن الاندماج ووقفت ضدك. لقد أثبتت الأحداث أنك كنت على صواب وكنت أنا على خطأ. اليوم أعترف لك بأنني سأتبع خطاك.

ونستخلص مما تقدم أن فرحات عباس قد فقد أي أمل في التفاهم مع الفرنسيين، وأن التعاون مع الأحزاب الجزائرية المعارضة للأوروبيين والداعية لاستقلال الجزائر ؛ هو السبيل الوحيد لتحقيق طموحات أبناء

(1) المصدر نفسه ص 138.

(2) الجزائر في التاريخ ص 176.

الشعب الجزائري. وهذه الحقيقة قد أكدها له مصالي الحاج عندما قال له ذات يوم: إنني أثق فيك، في العمل من أجل إقامة جمهورية جزائرية في نظام فدرالي مع فرنسا، لكنني بالمقابل لا أثق في فرنسا، إن فرنسا لن تعطيك شيئاً ولن تتنازل عن أي شيء إلا بالقوة، لأن ما أخذته بالقوة لا يمكن انتزاعه إلا بالقوة.

وباختصار: فإن تحالف عباس فرحات مع مصالي الحاج وجمعية العلماء والحزب الشيوعي الجزائري في أفريل 1943م، وتعيين الجنرال كاترو حاكماً عاماً على الجزائر ومحافظاً للدولة مكلفاً بالشؤون الجزائرية في شهر جوان من عام 1943م، غيرت مجرى الأمور بالنسبة للمستقبل السياسي لفرحات عباس. وبمجرد أن استلم الحاكم العام كاترو السلطة في بداية شهر جوان 1943م أعلن أنه يعتبر الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وأنه لا يقبل أن تكون النقاط المقترحة من طرف الجزائريين قواعد للعمل والتفاوض. وكان هذا الجواب بمثابة صدمة وتأكيداً للحوار الذي جرى بين فرحات عباس ومصالي الحاج.

وفي يوم 22 سبتمبر 1943م جاء الرد من فرحات عباس وزملائه في المجلس المالي، حيث قرروا أن يقاطعوا اجتماع المجلس المالي، وأصدروا بياناً أعلنوا فيه بأنهم متمسكون بالنقاط الواردة في الوثيقة التي سلمت إلى الجنرال «كاترو»، ولابد أن تكون الإصلاحات المقترحة هي القواعد الأساسية لأي عمل أو أي تفاوض.

وانذاك انزعج «كاترو» من هذا الموقف، وأصدر بدوره أمراً بإلقاء القبض على السيد فرحات عباس والسيد السائح عبد القادر «رئيس مجموعة النواب المسلمين في المجلس المالي»، ووضعهما تحت الإقامة الجبرية وذلك بحجة أنهما يحرضان النواب على العصيان في وقت الحرب.

كما أمضى قراراً بتنحية النواب الذين يمثلون العرب في المجلس المالي، إلا أن الحاكم العام تراجع عن قراره بطرد النواب العرب من المجلس المالي بعد أن تدخل النواب الأوروبيون في المجلس المالي.

لكن «كاترو» أصر على بقاء السيد فرحات عباس والسايح عبد القادر رهن الاعتقال، ولم يتم الإفراج عنهما إلا يوم 2 ديسمبر 1943م، بعد أن تحرك الرأي العام وتأزم الوضع في الجزائر بسبب حجزهما بطريقة تعسفية(1).

لقد استطاع قادة النضال في الجزائر تشكيل كتلة وطنية أطلق عليها اسم: (أصدقاء البيان والحرية) وهي حركة سياسية تضم حزب الشعب وجمعية العلماء والحزب الشيوعي الجزائري، وذلك بالإضافة إلى حزب فرحات عباس الذي أصبح يتزعم هذه الحركة، وهكذا استطاع فرحات عباس أن ينجح في خطته الرامية لتوحيد صفوف الأحزاب الجزائرية، وبدأ يعمل لتوسيع قاعدة حزبه في الأوساط الشعبية.

وفي يوم 13 سبتمبر 1944م أصدر جريدة «المساواة» وذلك للدفاع عن الموقف المشترك لـ «أصدقاء البيان والحرية». وأصبحت توزع 50،000 نسخة، وطالب فرحات عباس في العدد الأول من جريدته بإنشاء جمهورية جزائرية، وذلك بقصد تكوين إتحاد فدرالي مع الجمهورية الفرنسية ضد الإمبرالية وضد الاستعمار. وحسب بعض التقديرات ؛ فقد إنضم إلى حركة أصدقاء البيان والحرية 500،000 مناضل(2).

### 9. الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري:

حُلّتْ حركة أحباب البيان والحرية في 15 ماي 1945م، بعد مجزرة 8 ماي 1945م، وتمّ توقيف الزعيم فرحات عباس والدكتور سعدان في مكاتب الحكومة العامة، لقد شكلت أحداث 8 ماي 1945م منعرجاً ودفعاً في نضال الحركة الوطنية، وأصبحت القضية الوطنية يتطرق إليها بوسيلة العنف، وقد بينت هذه الأحداث أن العنف يتولد في الأوساط الريفية، مما جعل هؤلاء الريفيين يشكلون نواة جيش التحرير الوطني، فضلاً عن طرح الاتجاه النشيط في الحركة الوطنية للعنف كوسيلة لتحقيق هدف الاستقلال عملوا على إنشاء

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 239.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 239.

المنظمة الخاصة في إطار حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

وبصدور قرار العفو الشامل في مارس 1946م ؛ عاد فرحات عباس إلى الحياة السياسية، وأنشأ حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UDMA. وفي خطابه يوم أول ماي 1946م أعلن فرحات عباس عن سياسيته الجديدة المتمثلة في الشعارات الثلاثة:

. لا للاندماج

. لا للأسياد الجدد

. لا للانفصال

وكان برنامج الحزب يهدف إلى تحقيق ما يلي:

. الاعتراف باستقلال الجزائر وبحكومتها ورايتها.

ـ أن الجمهورية الجزائرية سوف تكون عضواً في الاتحاد الفرنسي كدولة مشتركة، وتكون فيه العلاقات الخارجية والدفاع الوطني للدولتين مشتركة تشرف عليها سلطات الاتحاد.

. فضلاً عن الجنسية المشتركة.إلخ من الأهداف.

وهي أهداف تتمحور حول الجزائر المستقلة بمؤسساتها وبقوانينها، وتكون في تبعية لفرنسا في إطار الاتحادية[1].

في جوان 1946م أجريت انتخابات الجمعية التأسيسية الثانية، وترشح فيها فرحات مع مناضلين اخرين من حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وتحصل على 11 مقعداً من 13 في الجمعية التأسيسية، واقترح قانون يهدف إلى وضع دستور جزائري ودولة جزائرية في شكل اتحادية مع فرنسا، يبقى فيها ميدان الدفاع الوطني والشؤون الخارجية مشتركين للجمهوريتين الجزائرية والفرنسية، أي طرح فكرة الاستقلال الداخلي. وإن كان هذا المشروع يندرج ضمن الاتحاد الفرنسي ككل الذي يجمع فرنسا ومستعمراتها مع الأخذ بعين الاعتبار

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 139.

لوضعية الجمهورية الجزائرية المستقلة ببرلمانها المنتخب وأحزابها على أن تكون مرتبطة بفرنسا.

وللحصول على المشروعية السياسية عند الفلاحين، قام فرحات بجولات في الأرياف الجزائرية، على اعتبار أن الفئات المتوسطة في المدن أصبحت تشكل زبائن الزعيم الحاج أحمد مصالي.

وقد تميزت هذه الفترة بالمعاناة من الام مجازر 8 ماي 1945م، ومن غلق المجال السياسي للجزائريين، وتزوير للانتخابات.

كما كثف من انتقاد المعمرين سواء قبل دخوله البرلمان الفرنسي أو في البرلمان الفرنسي، إذ في الجلسات البرلمانية دخل في مشادات كلامية وفي مناقشات مع النواب الفرنسيين الممثلين للمعمرين.

إن الزعيم فرحات عباس ذي اللباس الأوروبي، والذي يتكلم اللغة الفرنسية جيداً وبطلاقة، ويعرف التقاليد البرلمانية الفرنسية، تمكن من أن يحكم سلبياً على الاستعمار وعلى المعمرين، وقد اعتبر من قبل زملائه النواب في أواخر الأربعينات إنساناً خطيراً.

وفي هذا فقد قال في 1952م للسيد روني مير: حتى وإن كنت في عمق المقبرة فإني سأبقى أواجهكم بأفكاري، فاستعمل التعليم والثقافة الفرنسية لمواجهة المعمرين، وكان يريد أن يقول لهم سأواجهكم بثقافتكم ولغتكم، وسأبين لكم التناقض بين ما تنشرونه من أفكار وبين ما هو قائم في الواقع(1).

وقد انتخب في أول جمعية للاتحاد الفرنسي في نوفمبر 1946م، إلا أنه تأكد لاحقاً من أنها جمعية شكلية باعتبار أن غالبية أعضائها كانوا منتقين ويتم اختيارهم، ومع تبني قانون 1947م الخاص بالجزائر أنشئت جمعية جزائرية تضم 120 عضواً 60 للأوروبيين و60 للمسلمين، وانتخب الزعيم فرحات عباس نائباً في هذه الجمعية في ربيع 1948م وتحصل حزبه الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UDMA على 8 مقاعد

---

(1) المصدر نفسه ص 140.

وحركة انتصار الحريات الديمقراطية MTID على 9 مقاعد، وهذا بفعل التزوير الذي قام به الحاكم العام نيجلان، واستمر فرحات عباس في تبني مطلب الاتحادية مع فرنسا.

في مؤتمر حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UDMA من 25 . 27 سبتمبر 1948م تبنى فرحات عباس المبادئ التالية:

. حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

. استمرار الإمبراطورية الفرنسية.

. تحرير المسجونين الفرنسيين.

. إلغاء الانتخابات المزورة.

. التأكيد على التعليم.

وفي المؤتمر الجديد لحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري عيقش المنعقد من 16 . 19 سبتمبر 1948م وجه دعوة إلى هيئة الأمم المتحدة من أجل تحرير الشعوب[1].

### 10 . الجبهة الجزائرية للدفاع:

في 1951م شارك فرحات عباس مع حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTID والحزب الشيوعي الجزائري PCF؛ في تأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع FADL عن الحريات، كرد فعل على تزوير الانتخابات التشريعية 1951م وإلغائها مع احترام الحريات الأساسية. وقد ساهمت هذه الجبهة في تحديد مسار الاندماج الوطني التي بموجبها جمعت مختلف القوى الوطنية الجزائرية، ومُنحت لقيادة جبهة التحرير الوطني مبادئ السير والعمل التي تسمح لهم بتحقيق هدف الاستقلال، وإن كانت قبلها حركة أحباب البيان والحرية، كأول تجمع للقوى الوطنية الجزائرية[2].

(1) المصدر نفسه ص 141.

(2) المصدر نفسه ص 142.

### 11. انضمام فرحات عباس لجبهة التحرير الوطنية:

واستمر الوضع متأزماً بين فرحات عباس والفرنسيين إلى أن قامت ثورة أول نوفمبر 1954م وغيرت الموازين، وأدرك فرحات عباس أن الطريق مسدود أمامه ولا يستطيع أن يفعل أي شيء لتغيير مجرى الأمور ؛ فقرر في شهر جانفي 1955م أن يتصل بالمسؤولين في جبهة التحرير عن طريق السيد عمار القامة وجاءه الرد بالإيجاب يوم 26 ماي 1955م، حيث التقى بالسيد عبان رمضان والسيد أو عمران فاستفسرهما عن إمكانية نجاح الثورة وقوة جيش التحرير، فأجابه عبان رمضان: إن جيش التحرير يملك أسلحة كافية وقادر على دحر الجيش الفرنسي ودفعه إلى البحر. وطلب عباس من عبان رمضان إذا كان في إمكانه أن يتكلم مع المسؤولين الفرنسيين عن إمكانية المفاوضات وإيقاف القتال. فقال له عبان رمضان: نحن نوافق على ذلك لكن بشرط أن تكون المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني، ويبدو أن فرحات عباس كان متخوفاً من الانضمام المتأخر إلى ثورة الشعب، فسأل عبان رمضان ذات يوم: إننا نخشى أن يتهمنا بعض أعضاء الوفد الخارجي بأننا أخذنا قطار جبهة التحرير وهو يسير، فطمأنه عبان رمضان بقوله: إن جبهة التحرير ليست ملكاً لأحد. إنها ملك للشعب الذي يناضل.

وفي شهر أفريل من عام 1956م التحق بالقاهرة مع الدكتور فرنسيس وانضم إلى جبهة التحرير، وتحول من رجل حوار وتغيير عن طريق القانون إلى رجل ثوري يستعمل العنف والقوة لاسترداد حقوق شعبه المهضومة، ولعله كان يتذكر بإستمرار ما قاله له ذات يوم مصالي الحاج بأن ما أخذته فرنسا بالقوة لا يمكن استعادته وانتزاعه إلا بالقوة[1].

وفي ندوة صحفية بمصر، أعلن فرحات عباس عن الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني، على غرار التشكيلات السياسية الأخرى، وهذا ما يعبر عن اتحاد الوطنيين ضمن جبهة التحرير الوطني، وذلك بعدما

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 243.

فشل في إقناع الطبقة السياسية الفرنسية بإحداث إصلاحات جذرية وحقيقية لصالح الجزائريين، معتبراً إصلاحات العشرينات والثلاثينات قد تجاوزها الزمن، واستقال نواب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري من الجمعية الجزائرية في ديسمبر 1955م، كما قررت قيادة الحزب في اجتماع لها بسويسرا الالتحاق بجبهة التحرير الوطني، وبالتالي انتهت وللأبد فكرة الاندماج والاتحادية مع فرنسا، ومع انعقاد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956م عين عضواً في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ـ كسلطة تشريعية ـ ثم انضم إلى لجنة التنسيق والتنفيذ.

وقد قام بعدها بالتوجه إلى مختلف دول العالم كالبرازيل وتونس ومصر ليدافع عن القضية الجزائرية ولكسب التأييد الدولي، ليُصبح فيما بعد معروفاً دولياً بعد أن زار الدول الكبرى كالاتحاد السوفيتي والصين، ولما تشكلت أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958م، والتي تضمنت مختلف التيارات السياسية من الليبراليين والعلماء والعسكريين، عين الزعيم فرحات عباس كأول رئيس للحكومة الجزائرية بعد رفض ترشيح كريم بلقاسم.

لقد كان الزعيم فرحات يتمتع بقدرة على قيادة وإدارة المفاوضات بكل سهولة، كما كان يتمتع بمكانة وسمعة عالية لدى العديد من الدول، وقد احتفظ بهذا المنصب في الحكومة المؤقتة الثانية للجمهورية الجزائرية إلى غاية 20 جانفي 1960م، حيث استبدل بين يوسف بن خدة في اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي انعقد من 20 إلى 28 جويلية 1961م، وذلك في ظروف تميزت بتململ الولايات الداخلية من الحكومة المؤقتة الثانية للجمهورية الجزائرية، خاصة مع وضع خطي شال وموريس اللذين قللا من التموين بالسلاح، فضلاً عن رفض كريم بلقاسم لكل تعيين للزعيم فرحات عباس على رأس الحكومة المؤقتة الثالثة للجمهورية الجزائرية.

وبعد الاستقلال في 5 جويلية 1962م ؛ عين كأول رئيس للجمعية الوطنية الجزائرية 20 سبتمبر 1962م، ثم استقال من هذا المنصب في 13 جوان 1963م، واعتقل بعدها ثم أطلق سراحه ليعتزل الميدان السياسي بسبب القمع الذي مارسه النظام السياسي الجزائري انذاك، والذي لم يسمح للمعارضة السياسية

بالتعبير بحرية، وقد وصل به الأمر إلى وضعه، أي فرحات عباس تحت الإقامة الجبرية مع بن يوسف بن خدة واخرين بسبب انتقادهم للرئيس هواري بومدين وانتقادهم لدستور 1976م، ولم يطلق سراحهم إلا في 1977م حيث اعتزل الميدان السياسي من جديد.

## 12 . الزعيم فرحات عباس بعد الاستقلال ووفاته:

بعد انتخاب الجمعية التأسيسية في 20 سبتمبر 1962م ؛ تم تشكيل أول حكومة جزائرية مستقلة، وكان يترأسها الرئيس أحمد بن بلة في 26 سبتمبر 1962م، وتم فيها توزيع الحقائب الوزارية على أساس موازين القوة في التركيبة القيادية انذاك. وأسندت رئاسة الجمعية الوطنية الجزائرية الأولى للزعيم فرحات عباس، بحكم خبرته السياسية من ناحية ومواقفه المؤيدة لجماعة أحمد بن بلة من ناحية ثانية. أما بشأن تركيبة الجمعية الوطنية فكانت موزعة كما يلي: حيث نجد أن غالبية النواب هم ممثلون عسكريون، وأصحاب المهن الحرة، ثم يلي الممثلون للتجار، وبعدها المعلمون، وكذا الفلاحون والعمال، وأخيراً الموظفون والكوادر والطلاب.

كذلك أصبح الأمين لحزب جبهة التحرير الوطني يختار المترشحين للمجلس الوطني بما فيها المترشح لرئاسة الجمهورية الذي هو رئيس الحكومة، لذا أصبحت الدائرة مغلقة. واعتبر الزعيم فرحات عباس في كتابه (الاستقلال المصادَر) أننا أصبحنا أمام نظام حكم مطلق قائم على الحكم الشخصي . باعتباره رئيس الجمهورية . رئيس الحكومة . ورئيس الحزب . ويختار أعضاء الجمعية الوطنية بعد أن يختار هو بنفسه من قبل الحزب، لقد شعر الزعيم فرحات عباس بالقلق إزاء الانزلاقات التي عرفتها الجزائر انذاك، خاصة بعد اغتيال أول وزير للشؤون الخارجية محمد خميستي في ماي 1963م، واستقالة محمد خيفر من منصب أمين عام المكتب السياسي في 16 أفريل 1963م، فأصبح أحمد بن بلة رئيساً للجمهورية وأميناً عاماً للمكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني، بالإضافة إلى ذلك أعلن حسين ايت أحمد في 9 جوان 1963م عن معارضته لأحمد بن

بلة ولنظام الحكم القائم، ثم تم توقيف محمد بوضياف في 24 جوان 1963م، كما تم توقيف وإعدام قائد الولاية السادسة محمد شعبان[1].

ففي ظل تزايد سلطان الرئيس أحمد بن بلة حاول الزعيم فرحات عباس تقديم مشروعه حول الدستور، والقاضي بمنح سلطات واسعة للمجلس الوطني الممثل للإدارة، وتقليص سلطات رئيس الجمهورية. إلا أن إعداد الدستور بطريقة سريعة وغير مهيأ لها، وغير شرعية مخالفة للتقاليد السياسية ؛ دفع به إلى تقديم الاستقالة من الجمعية الوطنية التأسيسية، وذلك من خلال رسالة قدمها في 13 أوت 1963م لسادة النواب في الجمعية الوطنية، بررها بالاختلاف في الرؤى حول تنظيم السلطات العمومية في الجزائر، وحدد في الرسالة لماذا لم يكن موافقاً حول مشروع الدستور الذي تم إعداده من قبل الحكومة والمكتب السياسي، واعتبر أن مسألة دستور الجمهورية يجب أن يحظى بأولويات، وهي تقتضي منا جميعاً التأمل والدراسة، لأن بعد الكفاح الكبير الذي خضناه من أجل الاستقلال هناك نضال آخر مفروض علينا خوضه، وعلى كل الشعب والنواب أن يكونوا شجعاناً.

وقد اتخذ أيضاً الزعيم فرحات عباس موقفاً من المكتب السياسي الذي وضع البلاد أمام الأمر الواقع، وجعل الجزائر جمهورية الزملاء حيث استفاد منها بعض زملاء القادة الذين هم في السلطة.

إن الظروف السياسية الصعبة التي مرت بها جزائر الاستقلال والمتسمة بالفوضى السياسية، وغياب المهنية السياسية، وعدم احترام الرأي المخالف، دفعت بالزعيم فرحات عباس إلى إحداث القطيعة مع النظام القائم آنذاك.

إن موقف الزعيم فرحات عباس هذا جعله يتعرض للمضايقة من قبل السلطة، وتم وضعه تحت الإقامة الجبرية في الجنوب الجزائري، واتهامه بتوجهه البورجوازي والمعادي للاختيار الاشتراكي للجزائر، ثم أطلق سراحه في جوان 1965م.

---

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 433.

ومع ظهور الانقلاب العسكري في 19 جوان 1965م بقيادة العقيد هواري بومدين، انتقد الزعيم فرحات عباس ما قام به الجيش واعتبر أنه خرج عن المهمة الموكلة له والمتمثلة في الدفاع عن الدستور والشرعية والدخول في مرحلة اللاشرعية، وقاد البلد إلى الحكم الديكتاتوري، واعتبر الزعيم فرحات عباس أن العقيد الهواري بومدين استمر في نفس نهج رفيقه أحمد بن بلة، وأن مجلس الثورة بمثابة غطاء لممارسة السلطة الشخصية. ورأى أن الوعود المتعلقة بالتغيرات التي تمّ الإشارة إليها في 19 جوان 1965م، لم تعرف التطبيق والتجسيد، والكتاب الأبيض الذي أعلن عنه في الإذاعة بقي «رسالة ميتة»[1].

وعمل العقيد هواري بومدين على الانتقال من المشروعية التاريخية إلى المشروعية الدستورية، ومن مرحلة اللاشرعية إلى الشرعية القانونية، فبدأ النظام على حد تعبير الباحث جون كلود فاتان يدخل في إطار المأسسة والسير نحو الطريق الشرعي.

ففي ظل هذه الأحداث انتقد الزعيم فرحات عباس مع يوسف بن خدة ولحول الحسين والشيخ خير الدين توجهات النظام السياسي، وذلك من خلال البيان المشهور في مارس 1976م وحمّل المسؤولية للحكم فيما يلي:

. تدني التقاليد السياسية وعبادة شخصية الحاكم.

. غياب الديمقراطية التي ضحى من أجلها الشعب الجزائري.

. قمع الحريات الفردية بما فيها حرية التعبير.

. رفض الحكم الشخصي.

وفي نهاية البيان الجريء . انذاك . اقترحوا ما يلي:

. انتخاب جمعية تأسيسية.

. إنهاء النظام الاستبدادي الشمولي.

(1) المصدر نفسه ص 436.

ـ السماح بحرية التعبير.

وقد سلم هذا البيان ـ الذي هو نداء إلى الشعب الجزائري ـ رئيس الدولة الهواري بومدين، وقد كان الرد فوراً بوضع الزعيم فرحات عباس والاخرين تحت الإقامة الجبرية، ولم ترفع عنه الإقامة الجبرية إلا في 13 جوان 1977م، ومع ذلك بقي ساخطاً على النظام المتسلط إلى غاية وفاته في 24 ديسمبر 1985م لكن بعد العقيد الهواري بومدين.

ـ وقد أثنى عليه معاصروه فقال فيه حسين ايت أحمد في شهادة عن فرحات عباس: فرحات عباس كان نزيهاً ومخلصاً وقد خدع من قبل العسكريين لما اندمج في جامعة وجدة.

ـ وقال الباحث محمد حربي: إن فرحات عباس لعب دوراً كبيراً أثناء الثورة التحريرية، فلم يعد يطالب بالاندماج بل طالب بالاستقلال[1].

ـ وأما حساني عبد الكريم فيقول: لقد كان رجل المستقبل، وكانت له رؤية الجزائر المستقبل، والتي تهدف إلى ترقية الإنسان الجزائري. وكافح فرنسا بمنطق السياسة وسلاحهم، وكان يضرب الفرنسيين في الصميم محاولاً الكشف عن النفاق في سياستهم[2].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 437 ـ 450.

(2) المصدر نفسه ص 450.

## المبحث الثاني

## الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس

### أولاً: أسرة ابن باديس ومولده ونشأته وطلبه للعلم:

#### 1 . أسرة بن باديس:

ينحدر الشيخ الإمام رائد النهضة الحديثة في الجزائر من أسرة عريقة أصيلة في العلم والجاه والسلطة، ولها باع طويل في العلوم الشرعية بمدينة قسنطينة.

أ . منذ عصور تعود أصولها إلى الأمير المعز لدين الله بن باديس الزيري الصنهاجي (406 . 452هـ / 1515 . 1561) الذي ثار على الدولة الفاطمية في مصر، وقطع الصلة السياسية والمذهبية معها، وألغى المذهب الشيعي وأعاد الاعتبار إلى المذهب المالكي مذهب الأغلبية في ربوع افريقية والمغرب الأوسط «الجزائر»[1].

والفضل في ذلك لله عز وجل ثم لفقهاء المالكية الذين استطاعوا أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر، وأثروا في بعض الوزراء والأمراء الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة. واستطاع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الصنهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز أفريقية في ذي الحجة سنة 406هـ، وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة، وكان هذا

---

(1) البيت الباديسي ، د. عبد العزيز فيلالي وآخرون ص 115.

العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة، وكان مبغضاً للمذهب الشيعي الباطني. واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس، الذي تمّ على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الأفريقي.

وقد وصف الذهبيُّ المعزَّ بن باديس فقال: وكان ملكاً مهيباً وشجاعاً عالي الهمة محباً للعلم كثير البذل مدحه الشعراء، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بأفريقية، فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً للخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه[1]، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الفاطمي بمصر الذي هدده فيه وقال له: هل اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل؟ فأجابه المعز: إن اباءئي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو اخروهم لتقدموا بأسيافهم[2].

وبيّنت لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضة الباطنية ولحكام مصر، وظهر ذلك في عام 435هـ عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسب أصحاب رسول الله (ص)، فأوعز للعامة وللجنود بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهم، فسارعت العامة في كل الشمال الأفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الأفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه.

وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس، وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز.

واستمر ابن باديس في الانفتاح على العامة، والتقرب إلى العلماء والفقهاء من أهل السنة، وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن الدولة العبيدية في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته،

---

(1) سير أعلام النبلاء (18 / 140).

(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، للطاهر الزاوي ص 289.

وأعلن انضمامه للخلافة العباسية وغيّر الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم، وحرم أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم، وأمر بسبك الدراهم والدنانير . التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها 145 سنة . وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *} [آل عمران: 85] وانضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له، وكان أول من قاد حملة التطهير على الشيعة الإسماعيلية في طرابلس الغرب وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته: أبو الحسن المتوفى عام 432هـ[1].

ب . وتقلد بعض أفراد الأسرة الباديسية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين العديد من الوظائف السامية بمدينة قسنطينة بحيث تميز حسن بلقاسم بن باديس بالعلم وأصول الدين والخطابة والقضاء، ويعد أحد أعمدة الفقه المالكي في مدينة قسنطينة خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وعين الشيخ أبو علي حسن بن خلف بن باديس (784هـ / 1382م) قاضياً وخطيباً بمدينة قسنطينة إلى وفاته، كان مشهوراً بغزارة علمه وبراعته في الفقه المالكي والأصول.

وأما أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس (787هـ /1385م) فقد اشتهر هو الاخر بغزارة العلم وبكثرة تصانيفه ونظمه وشروحه، وشغل هو الاخر منصب الخطابة والقضاء بمسقط رأسه، ثم قاضي الجماعة بالحاضرة التونسية، وتقلد نفس الوظيفة بعد عودته إلى مدينة قسنطينة، كان متشبعاً بالتصوف، ونظم قصيدة شعرية مشهورة بالسينية والمسماة «بالنفحات القدسية» وتتحدث عن المشيخة، وتتضمن الثناء على الشيخ عبد القادر الكيلاني (560هـ / 1165م) ومناقبه وسلوكه وزهده وبركاته.

---

(1) صلاح الدين الأيوبي ، للصّلاّبي ص 158.

وبرز من هذا البيت كوكبة من العلماء والفقهاء والخطباء والقضاة في العهد العثماني نذكر منهم على سبيل المثال: أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس (969هـ / 1561م)، الذي كان يشغل منصب المشيخة والقضاء والإمامة بجامع قصبة مدينة قسنطينة، ومنهم يحي بن باديس ابن المدعو حميدة، كان كثير المداعبة والتواضع كثير القراءة ذا تلاوة حسنة للقران الكريم، شغل هو الاخر منصب نائب عن قضاة العجم، وخطيب جامع قصبتها يستخلف في كثير من الأحيان ابن لفقون الجد في الصلاة والخطابة[1]، وظهر منهم في القرآن 11هـ / 16م أبو عبد الله محمد بن باديس الذي تتلمذ على عبد الكريم لفقون صاحب منشور الهداية، وكان يكاتبه كثيراً في مسائل فقهية وقضايا نحوية. وعند سفرة إلى البقاع المقدسة التقى في مصر بأبي العباس أحمد المقري صاحب كتاب «نفح الطيب» حيث تباحث معه في قضايا فكرية ولغوية وأخذ عنه الكثي[2]، ومنهم أيضاً حميدة بن باديس الذي تبوأ منصب كاتب البلاط العثماني بمدينة قسنطينة وكذلك بالجزائر ؛ يعد من كبار الأدباء والكتاب يحبه الناس لأنه لا يدخر وسعاً في سبيل قضاء حوائجهم، تولى الخطابة في جامع قصبة المدينة ثم ترقى إلى خطة الإفتاء.

واشتهر منهم المفتي بركات بن باديس دفين مسجد سيدي قموش، يتميز بغزارة التأليف والتصنيف في الفقه والألغاز والتصوف، عاش في القرن 12هـ 18م[3].

واشتهر من هذا البيت أيضاً في القرنين 19، 20 الميلاديين في ميدان العلم والقضاء والنضال السياسي، والده محمد مصطفى بن المكي 1851م، الذي تبوأ مناصب عديدة منها عضو المجلس الجزائري الأعلى وعضو المجلس العمالي قسنطينة، كما تقلد عمه حميدة بن باديس منصب نائب عمالي عن عمالة قسنطينة أواخر

---

(1) البيت الباديسي ص 112.

(2) المصدر نفسه ص 112.

(3) المصدر نفسه ص 112.

القرن 19 الميلادي، واشترك مع بعض زملائه من النواب في تحرير عريضة سياسية طويلة، شرحوا فيها حالة المجتمع الجزائري المزرية وأوضاعه المتردية وقدموها إلى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1891م.

وشغل جده الشيخ مكي بن باديس 1899م المعروف بسعة اطلاعه على العلوم الشرعية، منصب القضاء أيضاً بمدينة قسنطينة، وتقلد العضوية في المجلس العام وفي اللجنة البلدية لمدينة قسنطينة وكان شخصية مرموقة استشارية للحكومة الفرنسية، قدم خدمات جليلة لأبناء وطنه ولا سيما منها تلك التي قدمها أثناء المجاعة الكبيرة التي حلت بالبلاد ما بين 1862م ـ 1968م[1].

وتنتمي أمه السيدة زهيرة بنت محمد بن عبد الجليل بن جلول إلى بيت من البيوتات العريقة المشهورة في مدينة قسنطينة، تمتد عراقتها وأصولها إلى أربعة قرون من الزمن، تنحدر من قبيلة بني معافي الأوراسية، انتقل أحد أفرادها إلى مدينة قسنطينة واستقر بها في العهد العثماني، وتزوج من أميرة تركية هي جدة ابن جلول، وتميزت هذه الأسرة أيضاً بالجاه والعلم والسياسة «المخزن»، فكان لها باع طويل في تمثيل المجتمع القسنطيني في النيابة والمجالس المحلية. فكان لهذا الرافد موروث أيضاً أثر في تكوين شخصية الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ومواهبه العلمية والفقهية والسياسية[2]، وتزوج محمد ابن مصطفى بن باديس زهيرة بنت جلول وأنجب منها خمسة ذكور وبنتين، فكان عبد الحميد أكبرهم وعبد الحق أصغرهم.

### 2 ـ نشأته:

ولد الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس 1889م وترعرع في أحضان أسرة عريقة في الجاه والمال والعلم والنضال، وليس غريباً أن يكون سليل أجداده العلماء، ولعل التقاليد العلمية التي تعودت عليها هذه الأسرة جعلت والده يختار له منذ البداية دراسة العلوم الدينية والتخصص فيها، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن الثالثة

(1) المصدر نفسه ص 113.

(2) المصدر نفسه ص 113.

عشرة من عمره، وتعلم اللغة العربية على علماء المدينة وشيوخها، ولم يقدمه إلى المدارس الفرنسية الكولونيالية كغيره من أبناء البيوتات الأرستقراطية انذاك وكبار الموظفين في المدينة، لأنه كان يريد له أن يسلك سلوك أجداده في دراسة العلوم الإسلامية[1].

وقد وجهه والده جهة صالحة في الحياة، فاختار له طريق العلم وانتقى له معلمين يتميزون بالكفاءة والعلم والتقوى وهو كبير وأعاشه وبراه كالسهم وحماه من كيد الكائدين، ووقاه من ظلم الاستعمار وبطشه ووفر له كل أسباب الحياة، حتى يتفرغ للعلم والمعارف والنضال من أجل الأمة. وفي ذلك يقول الشيخ الإمام عبد الحميد: إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشرباً أرده وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً وكفاني كلف الحياة[2].

لقد حفظ ابن باديس القرآن الكريم على الشيخ محمد المداسي، وأتم حفظه مبكراً وهو في السنة الثالثة عشرة من عمره، ومن شدة إعجاب المؤدب بذكائه وسيرته الطيبة، قدمه ليصلي بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير.

وفي سنة 1903م بدأ في طلب العلم الشرعي وأدواته المعروفة، فانتخب له أبوه أحد الشيوخ الصالحين من ذوي المعارف الإسلامية والعربية وهو الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسي، فأخذ يعلمه بجامع سيدي محمد النجار مبادئ العربية والمعارف الإسلامية ويوجهه وجهة علمية أخلاقية، وكان ابن باديس يعترف له بالفضل وبما كان له من تأثير على نفسه، ثم هاجر حمدان الونيسي إلى المدينة المنورة متبرماً من الاستعمار الفرنسي وسلطته ومجاوراً بها ومدرساً للحديث إلى أن توفاه الله ورغب ابن باديس أن يسافر مع شيخه إلى المدينة ولكن

(1) المصدر نفسه ص 113.

(2) المصدر نفسه ص 114.

أباه منعه وصرفه عن ذلك.

وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره 1904م زوّجه والده وأنجب ولداً اسماه عبده إسماعيل توفي وعمره سبعة عشر عاماً، وهذا الاسم له دلالة لأن الشيخ محمد عبده زار الجزائر العاصمة ومدينة قسنطينة سنة 1903م وعمر ابن باديس أربعة عشر عاماً، فمن الممكن أن يكون قد اتصل به أو سمع عنه، ولاسيما إذا أخذنا بالاعتبار تردد ابن باديس الشاب على الجامع الكبير وإمامته بالناس في صلاة التراويح، وهو المسجد الذي زاره محمد عبده في قسنطينة[1].

### 3. رحلته إلى تونس:

بعد أن استكمل ابن باديس تكوينه الأسري وتحصيله العلمي القاعدي بقسنطينة ؛ ارتأى السفر إلى تونس بجامعها الأعظم جامع الزيتونة، وذلك سنة 1908م ودافعه في ذلك الاستزاده علمياً وفكرياً وثقافياً في هذه المؤسسة العلمية العريقة . الشهيرة . وكذا لتحقيق مطلب أستاذه لونيسي وأمنية والديه اللذين حرضاه وشجعاه على السفر[2].

ويرى الدكتور عبد العزيز فيلالي: أن الإمام عبد الحميد بن باديس قد سافر إلى جامع الزيتونة بتونس وعمره 21 سنة وليس 19 سنة كما ذهب إليه الكثير من الدارسين، وكان ذلك . حسب دفتره . في أواسط محرم من سنة 1328هـ الموافق 27 من شهر جانفي سنة 1915م وليس سنة 1908م كما هو عند من كتبوا عن حياته، وهي السنة تقريباً التي هاجر فيها أستاذه محمد حمدان الونيسي إلى المدينة المنورة.

وقد أجري له اختبار لإثبات مستواه العلمي من قبل لجنة علمية مكونة من خيرة أساتذة الزيتونة، ويتضمن اختبار المواد والكتب التي درسها الإمام في مدينة قسنطينة وهي المواد التي صرّح بها أمام لجنة

(1) ابن باديس حياته وآثاره ، د. عمار الطالبي (1 / 74 . 75).

(2) جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي ، عبد الرشيد زروقة ص 86.

الامتحان وهو الاختبار الذي يحدد مستواه العلمي والفكري ويخول اللجنة العلمية أن توجهه إلى الصف الذي يتناسب مع تحصيله العلمي ويتلاءم معه[1].

### أ. نبوغ علمي مبكر والانفتاح على المدرسة الخلدونية:

أظهر الإمام عبد الحميد بن باديس أثناء المحاورة العلمية نبوغاً علمياً مبكراً ونضجاً فكرياً متميزاً، وثقافة إسلامية واسعة وعميقة ولغة عربية سليمة، تدل على أنه يملك زمامها، أبهر ممتحنيه وجذب انتباههم إليه وإلى مخزونه المعرفي، فخوّلوا له بالإجماع الالتحاق بجامع الزيتونة والدراسة بالصف ما قبل الاخير للحصول على شهادة التطويع، وحددوا له الكتب والمواد التي يزاولها بالزيتونة ودونوها له في دفتره[2].

وطلبت نظارة الزيتونة الشيوخ وهيئة التدريس بأن يصححوا له ما يزاوله عليهم من قراءة الكتب والمواد المقررة عليه جاء فيها: الحمد لله من المشايخ النظارة لسائر المشايخ والمدرسين والمتطوعين، بأن التلميذ المسمى أعلاه: عبد الحميد بن محمد المصطفى بن باديس الغربي من قسنطينة المتقلد لهذا الدفتر، لمن ادّعى القراءة ببلده وأجري عليه الاختبار من قبل لجنة علمية، فيما أدّعى القراءة فيه من الكتب العلمية، وتبين لدينا أنه أهل لقراءة «الوسطى في التوحيد» ولقراءة المختصر الفقهي «بالشرح من الربع الثاني من علم الفقه».

ولقراءة «الأشموني» على الخلاصة في النحو.

ولقراءة «السقيح» وشرح المحلى في أصول الفقه.

ولقراءة «لامية الأفعال» بالشرح مع «شرح الزنجاني» في الصرف.

ولقراءة «مختصر السعد» في الأول في البلاغة.

ولقراءة «التهذيب» في المنطق.

ولقراءة «علم مصطلح الحديث» ابتداء النووي في الحديث.

وعليه فلتصححوا له ما يزاوله عليكم من قراءة الكتب المذكورة ومحالها المبينة في دفتره، هذا مع تحرّيكم

---

(1) وثائق جديدة عن حياة خفية في حياة ابن باديس الدراسية ، د. عبد العزيز فيلالي ص 21.

(2) المصدر نفسه ص 22.

التام في ذلك والله ولي إعانة الجميع، كتب في أواسط المحرم الحرام فاتح شهور عام 1328هـ الموافق 27 جانفي سنة 1915م.

التحق الإمام عبد الحميد بالزيتونة في التاريخ المذكور وانتظم مع تلاميذها، وبدأ دراسة المواد العلمية المقررة عليه من قبل النظارة، وهي مواد متعلقة بشهادة «التطويع» بكل جدية وشغف ومواظبة على الدروس والمحاضرات محتكاً بمشايخه وملتفاً حول حلقاتهم[1].

مكث الإمام في تونس أربع سنوات كاملة قضاها دارساً ومدرساً وهي فترة يعتبرها الإمام منعطفاً هاماً في حياته العلمية والتكوينية حيث يقول عنها:

ما كنت لأنسى أربع سنوات قضيتها بالزيتونة، شطرها متعلماً وشطرها متعلماً ومعلماً، فكان لي منها اباء وإخوة وأبناء، فأكرم بهم من اباء وأكرم بهم من إخوة وأكرم بهم من أبناء[2].

كان جاداً نشيطاً في تحصيله للعلم والاتصال بالشيوخ والعلماء هناك، حتى أنه استطاع على غرار الطلبة المتفوقين، اختصار مراحل الدراسة التي تستلزم قضاء الطالب سبع سنوات حسب البرامج المقررة إلى ثلاث سنوات فقط[3].

وهذه القدرة الفذة وهذا النبوغ عند ابن باديس ؛ إنما يرجع سببهما أولاً إلى صفاته الذاتية التي فطره الله عليها وحباه بها من فطانة وذكاء وقوة استيعاب للمعرفة، وثانياً إلى ما حصله من تكوين علمي قاعدي بمسقط رأسه، إذ أهلته الدروس التي تلقاها على استاذه لونيسي بقسنطينة للحصول على مستوى السنة الرابعة من التعليم الزيتوني دفعة واحدة[4].

التقى ابن باديس بكثير من علماء الزيتونة انذاك، وتلقى عنهم علوماً مختلفة كل بحسب تخصصه العلمي،

(1) المصدر نفسه ص 23.

(2) مجلة الشهاب ج 10 م 12 ص 440.

(3) جهاد ابن باديس ص 87.

(4) المصدر نفسه ص 87.

فأخذ عن كل من الشيوخ محمد النخلي، الطاهر بن عاشور، الخضر بن الحسين، أبي محمد بلحسن بن الشيخ المفتي، محمد النجار، محمد الصادق النيفر، سعد الفياض السطايفي المصلح المجدد، محمد ابن القاضي، البشير صفر المؤرخ المجدد.. وغيرهم كثير.

ولم يترك الإمام فرصة للاتصال والتتلمذ على شيخ أو الذهاب والانتقال إلى مكان يسمع ويعلم عنه أن فيه خيراً له إلا قصده واتصل به وانتقل إليه وغرف منه ما وجد عنده، ولذلك نجده يتصل بالجمعية الخلدونية التي كانت تخصص دروسها لتلاميذ جامع الزيتونة لاستكمال معلوماتهم في المواد العلمية العصرية كدروس الحساب والمساحة والجغرافيا والتاريخ والكيمياء واللغة الفرنسية ومبادئ حفظ الصحة والطبيعيات[1].

ولم يكن مستواها العلمي زهيداً وإنما كان يتطوع بإلقاء هذه الدروس خيرة الأساتذة بمن فيهم حافظ الجمعية الخلدونية نفسه الشيخ البشير صفر.

وابن باديس كباقي أقرانه وزملائه من تلاميذ الزيتونة كان يتردد على الجمعية، سواء بصورة انتظامية أو غير انتظامية، إذ كانت التراتيب الإدارية لا تمنع الطلبة من الإقبال التلقائي، وحضور الدروس بصفة فردية حرة[2].

لقد تطورت الخلدونية بسرعة إلى معهد متكامل للتعليم العالي بكل ما تعنيه الكلمة، وكانت الموضوعات التي تدرسها هي العلمية أولاً، ثم سرعان ما يقدم علم التاريخ على الرياضيات والجبر والفيزياء أو الكيمياء، وكان من الواضح أن أساتذتها كانوا مطلعين على بقية العالم الإسلامي، ولكن معرفتهم بأوروبا جعلتهم يتميزون على مدرسي الزيتونة. وفي المبنى الذي ضم الخلدونية خلف القصبة وعلى بعد 200 ياردة من مسجد الزيتونة درسوا موضوع نهضة المسلمين وانحطاطهم، ومسألة علوم الأوروبيين، والتأثير الذي كان للفرنسيين والبريطانيين على ديار المسلمين.

---

(1) النشاط العلمي والفكري للمهاجرين، محمد صالح ص 87.

(2) المصدر نفسه ص 88.

لقد عرفت الخلدونية في تونس بميولها التجديدية، وقد وفرت مكتبتها مؤلفات حديثة حول مدارس الإصلاح في مصر وبلاد الشام، وكان أعضاؤها متأثرين بأفكار العروة الوثقى التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

وقد نقدت الخلدونية جامعة الزيتونة على انحطاط المجتمع التونسي.

لقد ترد الإمام عبد الحميد بن باديس على الخلدونية بانتظام، وأقبل بلهف على صحف ومجلات لم يكن يمكن للزيتونة أن تحث على قراءتها قطّ.

وقد أصبحت الأمثلة على مفاسد فرنسا من خلال الأراضي الإسلامية واضحة، وكان لابد من صدّ أوروبا بسبب تهديدها لبلاد المسلمين.

لقد وجد عبد الحميد بن باديس أن أعضاء الخلدونية كانوا أكثر معرفة بالأوضاع في الجزائر مما كان يعرف هو نفسه، لقد تأثر الإمام عبد الحميد بالأفكار الجديدة والجذابة والإصلاحية[1].

مكث ابن باديس بالزيتونة أربع سنوات قضاها في التحصيل الجاد لكل ما استطاع من علوم ومعارف وثقافة، والاتصال المستمر بكل شيخ أو استاذ يتوسم أو يسمع عنه خيراً في العلم والدين، وكان لا يشارك الطلاب عبثهم ولهوهم، بل كان يحب الخلوة في حجرته للمطالعة والتفكير[2].

وكان له إصرار عظيم على المطالعة والتحصيل، فقد روى أحد تلاميذه عنه: كنت أسهر الليالي للدراسة والمطالعة مستعيناً ببعض المنبهات، لكني حين أحس أن النوم يغالبني ولم تعد المنبهات تنفع في دفعه عمدت إلى مطرح أضعه على الأرض وأضع مرفقاي على الأرض أو أحدهما فيلامس الاجر بارداً فاستيقظ وأجدد مطالعتي أو مراجعتي حتى أفرغ منها[3]، وكمحصلة لجهده واجتهاده العلمي والدراسي بالزيتونة كان ترتيب

(1) عبد الحميد بن باديس، أندري ديرليك ص، 159.

(2) ابن باديس مفسراً ، عبد الرحمن حسن سلوداي ص 41.

(3) عبد الحميد باديس، مازن صلاح مطبقاني ص 33.

الإمام: الأول بين جميع الطلبة الناجحين، كما كان الطالب الجزائري الوحيد الذي تخرج من الزيتونة في تلك الدورة[1]، ونشرت ذلك الصحف التونسية.

وفي سنته الأخيرة التي قضاها أستاذاً ومعلماً بالجامع توثقت صلته العلمية بأستاذية الشيخين محمد النخلي، ومحمد الطاهر بن عاشور والتي كانت قد بدأت من قبل. هذه الصلة التي تركت بصماتها منطبعة في شخصية الإمام والتي يقول عنها: فاتصلت بهما عامين كاملين، كان لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر[2].

ورغم ما وجده ابن باديس في الزيتونة وحصّله منها من معارف وعلوم وعلاقات، سواء من المشايخ والأساتذة أو الطلبة، ورغم ما استفاده من الوسط العام الذي عاش فيه وتأثر به ؛ إلا أنه: يمكن القول بأن الدراسة في جامعة الزيتونة لم تكن في المستوى الذي تتطلبه نزعته العلمية والإصلاحية[3].

ولذلك نقد مناهجها التعلمية وبرامجها وموادها، فنجده بنفاذ بصيرته وعمق معرفته وخبرته وسعة ثقافته وعلمه ؛ ينصح القائمين على الزيتونة قائلاً: وإنني أقترح إخوتي القائمين بها، أن يضموا إلى قلم تحريرها رجالاً من الزيتونيين الذين يعرفون بعض اللغات الغربية ولهم خبرة العصر وراء البحر[4].

فابن باديس كان يريد ثورة تجديدية في برامج ومناهج الزيتونة، حتى تجمع بين العلوم النقلية والعلوم العقلية المتوارثة والموروثة، وبعبارة جامعة الجمع بين التاريخ والعصر، وبين التراث والمعاصرة[5].

### ب . حصاد الرحلة:

يمكن القول إن رحلة الإمام عبد الحميد الدراسية العلمية إلى الزيتونة ، كانت منعطفاً حاسماً وهاماً في

(1) جهاد ابن باديس، عبد الرشيد زروقة ص 89.

(2) المصدر نفسه ص 90.

(3) الإمام عبد الحميد بن باديس، محمود قاسم ص 16.

(4) جهاد ابن باديس، عبد الرشيد زروقة ص 91.

(5) المصدر نفسه 91.

حياته حيث تلقى تكويناً علمياً واسعاً وعميقاً وشاملاً، ألمّ فيه بالعلوم الشرعية النقلية والعلوم الإسلامية التراثية، وذلك على يد أساتذة وشيوخ عرفوا واشتهروا بالعلم الواسع، والخلق القويم، سواء في الزيتونة وتونس أو خارجهما.

حيث وجدناه يتلقى العلم عن الشيخين الجليلين محمد الطاهر بن عاشور ومحمد النخلي، اللذين يعتبران زعيمي النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية في الحاضرة التونسية[1]، ويلتقي بهما في علاقة علمية وفكرية دامت مع الأول ثلاث سنوات ومع الثاني سنتين.

كما أخذ وتعمق في دراسته التاريخ الإسلامي بمطالعته وقراءته لما كتبه الشيخ البشير صفر، الذي يعتبر من المصلحين المجددين في تونس، ومن بناة النهضة العلمية والفكرية الحديثة بها[2].

ويشير ابن باديس إلى تأثير شيخه النخلي عليه، وكيف أثر في تفكيره، وذلك عندما كان يتبرم من أساليب ومناهج القدامى في تفسير القرآن الكريم، ويقلقه ذلك حتى أنه شكا ذلك لأستاذه محمد النخلي، فقال له هذا الأخير ناصحاً وموجهاً ومرشداً: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الاراء المضطربة، يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح[3].

هذه الكلمة الوجيزة المركزة نبهت ابن باديس إلى منهج كامل في طريقة التعامل مع هذا النوع من التفاسير القديمة للقران الكريم، ويعبر عن ذلك فيقول: فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني افاقاً واسعة لا عهد لي بها[4].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 76) ، عمار الطالبي.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس ، د. تركي رابح ص 167.

(3) جهاد ابن باديس ص 92.

(4) المصدر نفسه ص 92.

وكل هذا وغيره مما استفاده من علمائه انعكس فيما بعد على جهوده العلمية وحركته الإصلاحية الكفاحية، فجاء مثلاً تفسيره للقران على خلاف منهج القدامى، مستفيداً بذلك من قاعدة أستاذه ومطبقاً لها، كما يجب أن نشير إلى التأثير الواسع للوسط الزيتوني في ابن باديس، حيث إن تنقلاته وحركاته ومخالطاته ومتابعاته للأحداث سواء المحلية أو الدولية ؛ كل ذلك ـ مما لا شك فيه ـ استفاد منه ابن باديس أيما استفادة، ظهرت نتائجه واثاره بعد رجوعه من تونس ومباشرته ـ ميدانياً ـ العمل الدعوي الإصلاحي الجهادي، فالوسط الاجتماعي الزيتوني هو الذي كان له الفضل في تكوينه السياسي بما طالع في الصحافة والمجلات من مقالات سياسية وإخبارية وتحليلية[1].

### ج ـ العودة من تونس:

بعد تكوين وتحصيل علمي ـ دراسة وتدريساً ـ بالزيتونة دام أربع سنوات، عاد ابن باديس إلى مسقط رأسه قسنطينة سنة 1913م، وذكر ابن باديس استقبال والده ووالدته له بعد رجوعه من تونس، فقال: حينما ولجت باب الدار أسرع أبي إليّ فعانقني، وقال لأمي في سرور وإبتهاج: ها هو قد جاءك عالماً، فانطلقت من فيها زغرودة مازلت أتذكرها ولن أنساها، وشعرت من أعماقي منذ ذلك اليوم بمدى عبء المسؤولية التي أحملها على عاتقي بصفتي عالماً، وبما أثرت به في نفسي تلك المناسبة الباقية في ذاكرتي ما دمت حيا[2].

وبدأ ابن باديس بعد رجوعه واستقبال أهله له في ممارسة العمل الإصلاحي الجهادي وذلك بالجامع الكبير، الذي أمّ الناس فيه في صلاة التراويح مدة ثلاث سنوات من قبل، فكان يلقي دروساً على جمهور المصلين يشرح فيها كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض، ولكن تدريسه لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما كِيد له من طرف خصوم الإصلاح والتجديد[3]، وبإيعاز من الإدارة الاستعمارية، حتى

---

(1) المصدر نفسه ص 92.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ، جمع د. محمد الدارجي ص 259.

(3) الإمام عبد الحميد بن باديس ، د. تركي رابح ص 170.

أنهم أقدموا على إقلاقه ومنعه، وأطفؤوا عليه الضوء وهو في الدرس[1]، وأمام هذا الوضع ونتيجة لهذا التصرف المغرض الذي حزَّ في نفس ابن باديس قرر السفر إلى بيت الله الحرام[2].

### 4. رحلته إلى المشرق:

المعروف منذ دخول بلاد المغرب تحت راية الإسلام ؛ أن رحلات المغاربة من بلادهم إلى المشرق العربي لم تنقطع، وكان لها عدة دوافع مهمة، من أبرزها:

. أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة سواء في مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو بيت المقدس.

. طلب العلم من المراكز العلمية المشهورة في المشرق الإسلامي، ومنها مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والقاهرة وبغداد وغيرها من المراكز العلمية، التي كانت منذ فترة طويلة محط أنظار طلاب العلم من مختلف الأمصار الإسلامية.

هذا الأمر لم يكن غريباً على طلاب العلم في بلاد المغرب الغربي، لأن طالب العلم كان ينتهز فرصة أدائه لفريضة الحج، لكي يلتقي بأكبر عدد من العلماء المجاورين في مكة المكرمة والمدينة، أو بمن يلتقي بهم في طريق ذهابه وعودته إلى بلاده.

ولعل ذلك ما قام به الشيخ عبد الحميد بن باديس مبكراً، وساعد على ذلك حالة عدم الاستقرار الموجودة في الجزائر، بسبب السياسة الاستعمارية التي كانت تتخذها سلطات الإدارة الفرنسية، ومحاولتها المستمرة فرض القوانين الدنيوية لطمس هوية الجزائر الإسلامية.

وبالتالي عندما عاد ابن باديس من تونس وبدأ في إلقاء دروسه وتعليم أبناء بلده قسنطينة وجد الكثير من المضايقات، فقرر وهو على أعتاب الخامسة والعشرين أن يذهب في رحلة إلى بلاد المشرق العربي، كان غرضها

(1) المصدر نفسه ص 93.

(2) المصدر نفسه ص 93.

الأول تأدية فريضة الحج، ثم طلب العلم واللقاء مع شيوخه الذين تتلمذ عليهم خاصة الشيخ حمدان الونيسي، والمرور على مصر بلد الأزهر الذي كان شيخه محمد عبده قد زار الجزائر في عام 1903م، وعرج خلال الزيارة إلى مدينة قسنطينة، ويبدو أن الشيخ ابن باديس قد تأثر به لدرجة أنه عندما تزوج عام 1904م رزقه الله بأول مولود سماه عبده تيمناً بالشيخ محمد عبده، ومن ناحية أخرى كان هدف الرحلة الاطلاع على أحوال بلاد الشرق العربي، التي كانت تحت الاحتلال البريطاني، ولذلك ومع نهاية شهر رمضان عام 1331هـ/ 1913م ارتحل الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى تونس، ومنها قصد مصر ثم الحجاز ليلحق بتأدية فريضة الحج، وبعد أن فرغ من تأدية فريضة الحج ذهب إلى المدينة المنورة[1].

**أ . الاستقرار بالمدينة:**

استقر المقام بابن باديس بالمدينة المنورة، والتي كانت انذاك مقصد جميع العلماء وطلبة العلم من جميع أصقاع العالم الإسلامي، وهناك التقى شيخه الجليل حمدان لونيسي، كما التقى بشيوخ وعلماء اخرين منهم على الخصوص الشيخ حسين الهندي والشيخ الوزير التونسي، وألقى بحضورهم درساً في الحرم النبوي الشريف، فأعجبوا به إعجاباً شديداً مما لفت الأنظار إليه.

وفي هذه الأثناء أشار عليه شيخه الونيسي بالبقاء في المدينة إلى جواره ورغبه فيها لما يعرف من أوضاع بلده، لكن الشيخ حسين أحمد الهندي لم يوافقه على ذلك، بل نصحه بضرورة العودة إلى وطنه لخدمة بلاده ومحاولة إنقاذها مما هي فيه بما توسم فيه من حزم وعزم وصلاح، قائلاً له: ارجع إلى وطنك يا بني فهو بحاجة إليك وإلى أمثالك، فالعلماء هنا كثيرون يغنون عنك، ولكنهم في وطنك وفي مستوى وطنيتك وعلمك قليلون، وخدمة الإسلام في بلادك أجدر لك وأنفع لها من بقائك هنا[2].

---

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 346، 347.

(2) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، عبد القادر فضل ومحمد الصالح رمضان ص 39.

فاقتنع الشاب عبد الحميد بوجهة نظر هذا الشيخ، وقبل نصيحته، وقرر الرجوع إلى الوطن، عند ذلك حذره استاذه الونيسي، من أن يكون عبداً للوظيفة، لأنه تأكد أن الحكومة ستعرض عليه الوظائف، وقال له: احذر أن تقبل الوظيفة الحكومية، فهي قيد لك يحدّ من نشاطك. وأخذ عليه عهداً أن لا يقبل الوظيفة، ولا يتخذ علمه سلماً للأغراض المادية والأطماع الدنيوية، فعاهده تلميذه على ذلك، ووفى بهذا العهد.

كان ابن باديس لا ينسى ذكرياته بالمدينة، فقد قص ذلك على إخوانه وأصحابه. يقول أحمد توفيق المدني: قصّ عليّ يوماً ونحن بين اكام من الكتب بمكتبة الخلد وفيه قصة زيارته للحرم المدني الشريف، وما رأى في مدينة الرسول (ص) من سمو ومن انحطاط، وما شاهده في بعض علمائها . وكان فيها علماء أجلة من ارتفاع في المدارك ومن سفالة في الأخلاق . قال: وقفت وقفة إجلال وخشوع أمام قبر محمد (ص) وصاحبيه، وأحسست أني قد تجردت يومئذ من كل شوائب البشرية، وأصبحت روحاً صافية طاهرة، وغابت عني كل ملابسات الزمان والمكان، وخاطبت روح محمد (ص)، وكأنني أراها فقلت: يا رسول الله هذا عهد بيني وبينك، لأعيش في سبيل دينك وأمتك مجاهداً، ولأموتن في سبيل دينك وأمتك شهيداً، والله على ما أقول وكيل[1].

وقد حرص ابن باديس في هذه الرحلة على الاتصال بالمفكرين والعلماء للتحاور معهم، والاطلاع على أحوال المسلمين، ومقارنتها بأحوال بلاده، ودفعه هذا الاتصال إلى التفاعل مع الحركة الإصلاحية التي انتشرت على يد الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، متأثرين بزعيم المصلحين جمال الدين الأفغاني وبالحركة السلفية التي انتشرت في الحجاز[2].

كان ابن باديس من الذكاء وصفاء النفس وحسن الصلة بالله على مستوى عالي وكبير، كما كان للعلماء وشيوخه مكان كبير في نفسه، خصوصاً حمدان الونيسي وحسين أحمد الهندي هذان العالمان اللذان حاول كل

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، جمع د. محمد الدراجي ص 145.

(2) المصدر نفسه ص 39.

واحد منهما أن يوجه ابن باديس وجهة معينة في مستقبل حياته، فشيخه حمدان الونيسي رغّبه وألحّ عليه في قبول المكث والإقامة الدائمة معه بالمدينة المنورة، وعدم العودة إلى الجزائر. والشيخ حسين أحمد الهندي أشار عليه بعكس وصية شيخه له، بأن يرجع إلى الجزائر ليباشر فيها عمل الدعوة والإصلاح والجهاد حتى لا يبقى فريسة سهلة ولقمة سائغة للاستعمار الفرنسي.

وهكذا وجد ابن باديس نفسه بين خيارين صعبين، إما أن يلبي ويحقق وصية شيخه الونيسي، ذي اليد الكبيرة عليه، وبالتالي يمكث مقيماً بالمدينة المنورة حيث الرغبة النفسية والعلم والعلماء، وإما أن يأخذ بنصيحة الشيخ حسين الهندي فيهجر تلك النعم، ويهاجر إلى حيث العمل الجهادي المضني بتحمل مسوؤلية إحياء الشعب وبعث الحياة فيه بالإسلام.

ويذكر ابن باديس وصيتَيْ هذين الشخصين له، وكيف أن الله ألهمه السداد في التفكير والاختيار، فيقول: أذكر أني لما زرت المدينة واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان الونيسي المهاجر الجزائري، وشيخي حسين الهندي أشار عليّ الأول بالهجرة إلى المدينة وقطع كل علاقة بالوطن، وأشار علي الثاني . وكان عالماً حكيماً . بالعودة إلى الوطن، وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد، فحقق الله رأي الشيخ الثاني ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته[1].

ويعقب الإمام على هذا الاختيار بأنه نابع من قناعة واطمئنان ورضا بالمسؤولية وتوابعها، مبيناً أن لا فرار من مواقع حراسة الذات والأمة، والذب عن حياضها كل معتد عليهما، فيقول: فنحن لا نهاجر، نحن حرّاس الإسلام والعربية والقومية بجميع مدعمّاتها في هذا الوطن[2].

ومكث ابن باديس بالمدينة المنورة ثلاثة أشهر قضاها متعرفاً إلى العلماء ومجالساً لهم[3].

---

(1) الشهاب ج 8 م 13 ص 355.

(2) المصدر نفسه ص 355.

(3) جهاد ابن باديس، عبد الرشيد زروقة ص 96.

**ب ـ اللقاء بين ابن باديس والإبراهيمي:**

وأهم عمل قام به في هذه الفترة التي أقامها بالمدينة التقاؤه بأخيه في الجهاد ـ فيما بعد ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي يحدثنا عن حكمة القدر الإلهي في جمعهما فيقول: كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، ومن مخبات الغيوب لها أن يرد عليّ بعد استقراري بالمدينة المنورة سنة وبضعة أشهر، أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك الشيخ عبد الحميد أعلم علماء الشمال الإفريقي ولا أغالي، وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر[1].

هذا اللقاء الذي قدّره الله بين الشيخين كان لقاء له ما بعده من آثار طيبة في الجزائر وعليها، إذ كانا يجتمعان كل ليلة ـ وعلى مدار الثلاثة أشهر كلها ـ من بعد صلاة العشاء إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الصبح، وهما يتناقشان ويتدارسان أوضاع الجزائر، وما يجب عمله من أجل إصلاحها، وإنقاذها من حالتها المزرية العامة، والتي دفعت بكثير من العلماء والطلبة إلى هجرها وتركها[2].

وعن تلك الأسمار وما دار فيها بينهما يقول الشيخ الإبراهيمي: كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منزلي، فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد، فندخل في أول صلاة الصبح ثم نفترق إلى الليلة الثانية، إلى نهاية الثلاثة أشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة، وكانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبير للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءئ في مُخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله، ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة[3].

ويؤكد الشيخ البشير الإبراهيمي على أهمية هذه اللقاءات في أنها كانت الأرضية التي أنبنت عليها جمعية

(1) جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي ص 96.

(2) المصدر نفسه ص 96.

(3) المصدر نفسه ص 97.

العلماء، وتحددت على ضوئها ماهيتها وطبيعتها، فيقول: وأشهد الله على تلك الليالي من سنة 1913م؛ هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز إلى الوجود إلا في سنة 1931م.

وهكذا وبعد هذه السلسلة من اللقاءات بينهما، عزم الإمام على الرجوع إلى الجزائر، لتنفيذ ما اتفقا عليه من خطة وبرنامج إصلاحي جهادي، وبالتالي يحقق وصية شيخه حسين الهندي[1].

وبعد هذه الإقامة لابن باديس بالمدينة، عاد إلى الجزائر عازماً على الإصلاح، وفق منهج إسلامي تكونت أبعاده في ذهنه من مجموعة من المؤشرات الهامة، وصدرت بعضها عن الواقع، وصدرت بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ، وصدرت بعضها عن الروح الإسلامية الجديدة التي أشاعتها حركات الإصلاح والتجديد ودعوات المصلحين في العالم الإسلامي، من أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والمصلح جمال الدين الأفغاني، والعلاّمة محمد عبده[2].

### ج ـ عناصر الخطة لنهضة الجزائر التي تمت بالمدينة:

وقد اتفق الإمامان عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي على الأمور التالية:

ـ دراسة الوضع القائم بالجزائر ووضع تصور شامل للحالة الراهنة في البلاد.

ـ وضع الأهداف الشاملة.

ـ وضع البرامج المفصلة التي تنهض بالبلاد.

ـ تحديد الوسائل الشاملة لهذه البرامج.

---

(1) المصدر نفسه ص 97.

(2) العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري ، د. عبد الحليم عويس ص 219.

**. الأهداف:**

وتمّ وضع خطة ترتكز على الأهداف التالية:

. نشر اللغة العربية، لعلمهم أن من أكبر أهداف الاستعمار وتبديل الهوية من جهة اللغة.

. تربية الناس على العقيدة الصافية.

. نشر العلم الشرعي في أوساط المجتمع.

. نقد الطرق الصوفية المنحرفة، وبيان ضلالهم وفضح عمالة بعض زعمائهم للفرنسيين وتخليص المجتمع من الاستعمار الروحي.

. زرع معاداة المستعمر في قلوب الناس.

. محاربة الجهل بالعلم، والجوع بالدعوة للعمل، والقيود بتحرير النفوس أولاً من الخرافات والشعوذة.

. الدعوة والمنادة للعبودية لله الواحد القهار، فلا يبقى عبودية لأحد سواه، لا لفرنسا أو لغيرها.

. توحيد الشعب الجزائري تحت راية الإسلام، وإبطال مخططات فرنسا في تفريق الأمة إلى أشلاء ممزقة[1].

**. مميزات الخطة:**

لقد امتازت هذه الخطة بالإحكام والدقة وبعد النظر واستشراف المستقبل، ووصف العلاج الناجح، وهو نشر العلم والعقيدة الصحيحة والعبادة السليمة والأخلاق الفاضلة والقيم السامية والمبادئ الحميدة، وتربية الناس على مقاصد القرآن الكريم وتعاليمه، والاسترشاد بهدي النبي (ص)، والمحطات المضيئة من التاريخ الإسلامي والبشري.

(1) الفكر السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس ص 111.

وتعتبر هذه الخطة التي نضجت ثمارها وبانت نتائجها حصيلة نضال وكفاح وجهاد استغرق نصف قرن من تاريخ الشعب الجزائري العظيم، ووضعت تلك الخطة في وقت لم يتعود العلماء والمصلحون على مراكز الأبحاث ولا وسائل الاتصال والتقنية الحديثة التي عرف بها المبشرون والمستشرقون والمستعمرون، ولكن بتوفيق الله ومنّه ثم ببصيرة العلم وصدق النية والهمة في العمل، أدّت إلى نسق ما أنتجته مراكز الأبحاث الاستعمارية وأجهزتها المتطورة، التي كانت تعمل على توطين الاستعمار الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري والأمني بالجزائر، وقد اهتمت الخطة ونصّت على الاهتمام الكبير والموسع بالنشء، وعلى أن لا يتوسعا له في العلم، وإنما يربونه على عقيدة صحيحة ولو مع علم قليل[1]، والأخذ بسنن الله في التدرج وتغيير النفوس، وأهمية الصبر على مشاق الطريق، والاستعانة بالتوكل على الله، والتسلح بتقواه لتحقيق الأهداف النبيلة والمقاصد السامية.

**. تحديد مكمن الداء:**

يقول الإبراهيمي: كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني وبين ابن باديس منذ اجتماعنا في المدينة ؛ أن البلاء المنصبّ على هذا الشعب المسكين ات من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح: من استعمارين مشتركين، يمتصان دمه، ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه.

. استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار.

. واستعمار روحاني يمثله مشائخ الطرق المؤثرون في الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه، والمتاجرون باسم الدين، المتعاونون مع الإستعمار عن رضى وطواعية، والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الاخر بكل قوته، ومظهرهما معاً تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرهما لئلا تستعين بالمال على الثورة[2].

---

(1) آثار الإبراهيمي (5 / 280).

(2) أثر العلماء في مشروع النهضة ، د. يحيى اليحيى ص 24 . 27.

**. تنفيذ الخطة في أرض الواقع:**

تميز تنفيذ الخطة بالتأني وجودة البناء، فلم يستفزه الفرنسيون فيغير خطته ويستعجل النتائج، ولم يحمله حماس الشباب والطلاب واندفاعهم على قفز المراحل والإسراع في التنفيذ.

فمنذ أن وطئت أقدام ابن باديس أرض الجزائر شرع في تنفيذ الخطة التي اتفق عليها مع الإبراهيمي، فشرع في التعليم في مسجده في قسنطينة[1].

**. مراحل تنفيذ الخطة:**

وقد مرّ تنفيذ الخطة بالمراحل التالية:

**. المرحلة الأولى من الخطة:**

وقد لقيت هذه المرحلة من الشيخ اهتماماً بالغاً بتعليم الصغار والكبار مع الاهتمام بالتربية الدينية والأخلاقية والسياسية للشعب الجزائري، فكانت دروسه في التفسير والحديث حية وعامرة تبعث الحياة في الجماد، وفتح دروساً نظامية في الصباح للطلاب الذين تقاطروا عليه من الجبال والوديان، ممن سبق أن اختارهم حين تجواله في قرى مدينة قسنطينة، فكان مشتغلاً بالتعليم من بعد صلاة الفجر حتى صلاة العشاء[2].

وكان له اهتمام عظيم بتعليم الأطفال وتربيتهم، فقد ركز على تعليم صغار الكتاتيب القرآنية.

في هذه المرحلة رجع الشيخ الإبراهيمي إلى الجزائر سنة 1920م، فواصل مع الشيخ ابن باديس مشروعه في التعليم والتدريس وإلقاء المحاضرات، فبدأ بتنفيذ الخطة المتفق عليها في بلدته «سطيف». فالتفّ عليه الناس وبدأ نشاطه التعليمي على منهج ابن باديس من بعد صلاة الفجر حتى صلاة العشاء، وبعد العشاء يذهب للنوادي فيلقي فيها المحاضرات عن التاريخ الإسلامي.

---

(1) المصدر نفسه ص 28.

(2) المصدر نفسه ص 28.

**. متابعة الخطة وتقويمها:**

وكانا يلتقيان ما بين سنتي 1920م . 1930م في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر، للمتابعة والنظر في النتائج ووضع البرامج المستقبلية، يقول الإبراهيمي عن هذه اللقاءات المتعددة طوال هذه السنوات: فكنا نتلاقى فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن اثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجات حسابها[1].

**. نتائج المرحلة الأولى:**

. تكوين جيش عظيم من الطلبة حتى ضاقت بهم المدينة.

. تخريج كوكبة من الطلاب البارزين في الثقافة والأدب والشعر والخطابة، وصفهم البشير بقوله: رأيت شباناً ممن تخرج على يدي هذا الرجل «يعني ابن باديس» وقد أصبحوا ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة ومعان بليغة وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمة، ورأيت جماعة أخرى منهم وقد أصبحوا يُحبّرون المقالات البديعة في الصحف والمجلات، واخرون يعتلون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القول المؤثر والوصف الجامع، ويصفون الدواء الشافي بالقول البليغ، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها، وأن هذه الخطوة المسددة التي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس في نهضة إسلامية عربية في الجزائر، وأن هذه المجموعة من التلاميذ التي تُناهز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر[2].

**. المرحلة الثانية من الخطة «من سنة 1925م . 1931م»:**

فحين استيقظ الوعي الشعبي وانتشر تلاميذ الشيخ في كل مكان من أرض وطنه يُعلمون الناس ويعظونهم

---

(1) آثار الإبراهيمي (5 / 280 . 283).

(2) آثار الإبراهيمي (5 / 279).

ويبنون المساجد والمدارس، ويؤسسون النوادي الثقافية ؛ حينئذ رأى ابن باديس مع زميله توسيع نطاق دعوته لتشمل الشعب الجزائري كلّه، فعمد إلى أكثر الوسائل انتشاراً وتأثيراً انذاك وهي الصحافة، فاستصدر تراخيص لعدد من الصحف تحسباً لإيقاف الحكومة لها، فأصدر جريدة المنتقد سنة 1925م، وكانت جريئة في انتقاد الطرق الصوفية الغالية التي ترفع شعار: اعتقد ولا تنتقد، وركزت أيضاً على انتقاد وتعرية الاستعمار، وقد ضاق الاستعمار بها ذرعاً فأوقفها بعد صدور 18 عدداً منها، فأصدر الشيخ جريدة الشهاب الأسبوعية في السنة التي أوقفت فيها المنتقد وكان شعارها: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[1].

**. نتائج المرحلة الثانية من الخطة:**

. تأسيس المدارس والمعاهد العلمية لتربية الأجيال.

. تكوين المطابع لإحياء الثقافة العربية والإسلامية.

. إصدار المجلات والجرايد للتكوين العقدي والفكري والسياسي.

. تأسيس المساجد والنوادي لتربية الشباب والرجال والنساء[2].

**. المرحلة الثالثة:**

يصف الإبراهيمي النتائج الباهرة للمرحلة السابقة وتهيئتها للمرحلة التالية فيقول: أصبح لنا جيش من التلاميذ يحمل فكرتنا وعقيدتنا مسلّح بالخطباء والكتاب والشعراء، يلتف به مئات الالاف من أنصار الفكرة وحمله العقيدة، يجمعهم كلهم إيمان واحد وفكرة واحدة وحماس متأجّج وغضب حاد على الاستعمار[3].

لقد أعدّ ابن باديس والإبراهيمي لقيام جمعية العلماء وهما في المدينة قبل ثمانية عشر عاماً، وكانت المراحل

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 75.

(2) أثر العلماء في مشروع النهضة ، د. يحيى ابراهيم اليحيى ص 31.

(3) آثار الإبراهيمي (5 / 280).

السابقة تمهيداً لقيام هذه الجمعية، وهذا يعني التخطيط الرشيد والرؤية السعيدة واستشراف المستقبل، والتأني في التنفيذ ودقة المتابعة، ورحابة الصدر، وسعة الأفق، التي تمتع بها الإمامان ابن باديس والإبراهيمي[1].

وكان من آثار حركة العلماء الذين قادهم ابن باديس رحمه الله إلى نشر العلم وتعليم الناس في جميع مدن وقرى وبوادي القطر الجزائري ما تجلى بالأمور التالية:

. بث الوعي واليقظة في الشعب حتى عرف ما له وما عليه.

. إحياء تاريخ الإسلام.

. تطهير عقائد الإسلام وعباداته من أوضاع الضلال والابتداع.

ـ إبراز فضائل الإسلام وأخلاقه كالاعتماد على النفس، وإيثار العزة والكرامة، والنفور من الذلة والاستكانة والاستسلام، ومنها أخذ كل شيء أُخذ بقوة، ونشر العلم في جميع طبقات الشعب، وبذل النفس في سبيل الدين، ونشر التاخي والمحبة بين أفراد المجتمع، والتمسك بالحقائق لا بالخيالات والأوهام.

. إحياء اللسان العربي والنخوة العربية.

فأحيَوا الشعب الجزائري بالعلم والإيمان، فعرف نفسه فاندفع إلى الثورة يحطم الأغلال، ويطلب بدمه الحياة السعيدة والعيشة الكريمة، ويسعى إلى وصل حاضره بماضيه التليد، حتى خرجت فرنسا من الجزائر تجرُّ ذيول الخيبة والهزيمة عام 1962م، بعد تسع وأربعين سنة من بداية التخطيط في المدينة بين ابن باديس والإبراهيمي[2]، وسيأتي تفصيلاً كفاح الشعب الجزائري بكل ألوان طيفه في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

---

(1) أثر العلماء في مشروع النهضة ص 32.

(2) المصدر نفسه ص 44.

## 5. مسيرة العودة من المدينة:

قفل ابن باديس راجعاً إلى الجزائر من المدينة المنورة وفي طريق عودته مر بكل من سوريا ولبنان وفلسطين، واجتمع وبرجال الفكر والعلم والأدب فيها[1]، وشاهد عن كثب ما كان حاصلاً وجارياً في هذه الأقطار الإسلامية.

كما مرّ ابن باديس بمصر والتي زار فيها الأزهر الشريف، ليطلع عليه وعلى نظام الدراسة والتعليم فيه، واغتنم فرصة وجوده بمصر ليزور الشيخ محمد بخيت المطيعي في منزله بحلوان، والذي كان زميلاً للشيخ محمد عبده في الطلب، وهو الوحيد من شيوخ الأزهر الذي كان يساميه وينال معه حظاً من الشهرة خارج مصر، ويشهد له ابن باديس بأنه كان عَلَمَاً في سائر العلوم الأزهرية[2].

فاتصل به ابن باديس وأخبره أن شيخه وأستاذه حمدان الونيسي، هو الذي أرسله إليه وأمره بالاتصال به، فأجابه الشيخ بخيت عن الشيخ الونيسي: ذاك رجل عظيم. ثم كان له إجازة في دفتر إجازاته بخط يده[3].

لقد كانت مسيرة عودة ابن باديس إلى الجزائر حافلة بالمشاهد والمواقف واللقاءات التي أجراها وأداها في الأماكن التي توقف بها، والتي تركت . مهما كان تأثيرها . تأثيرات معينة في شخصيته، ويمكن القول أن هذه الزيارات الخاطفة واللقاءات السريعة بالعلماء ؛ أطلعته على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، وفيها خبر أحوال الناس مما وسّع أفقه وبصّره بطريق الخلاص والثورة الفكرية التي تعتمد على التربية في تكوين القادة من النخبة أو الصفوة المبدعة[4].

---

(1) الشهاب: المرجع نفسه ص 607، جهاد ابن باديس ص 99.

(2) جهاد ابن باديس ص 99.

(3) المصدر نفسه ص 99.

(4) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 81).

## ثانياً: أهم عوامل تكوين شخصية ابن باديس:

إن ابن باديس ككل الرجال العظام تركوا بصماتهم الثابتة على تاريخ أمتهم، ولعبوا دوراً فعالاً في مجرى هذا التاريخ. تأثرت شخصيته بعدة عوامل تضافرت في صقلها، وجعلت منها شخصية فذة في تاريخ الجزائر الحديث، وقد بيّن ابن باديس نفسه هذه العوامل في خطاب له في قسنطينة أثناء الاحتفال بختم القرآن في شهر جوان 1938م.

**1 . تربية الأسرة والوالد له** تربية دينية وخُلقية فاضلة، وتوجيهه توجيهاً صالحاً، وقد قال في ذلك: إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة اتبعها، ومشرباً أَرِدُه، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم، وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً، وكفاني كلف الحياة[1].

لقد كان لوالده وأسرته العامل الأول . بعد الله عز وجل وتوفيقه له . في تكوين شخصيته واتجاهه العلمي وتوجيهه، لأن أفراد أسرته كانوا من حملة القران، كما كان جده من قضاة قسنطينة وعلمائها، وهكذا نشأ ابن باديس على خلق العلماء وحب العلم والأخلاق النبيلة. وإلى جانب اهتمام أسرته بتعليمه وتوجيهه وأثرها المباشر في تكوينه ؛ كان هناك أثر غير مباشر للأسرة من خلال الاتصال والتواصل المعرفي والوجداني بين ابن باديس وأجداده واقتدائه بهم.

ويصف الدكتور محمد البهيي عند تقديمه للتفسير الباديسي ذلك التأثر والاقتداء، وأثره المباشر على شخصيته وتكوينه فيقول: ولم يكن ابن باديس امتداداً للتأثير الخارجي وحده، أي الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم، فقط في مجال الدعوة والإصلاح، بل كان امتداداً لجده المعز بن باديس الذي توفي عام 984م وكان له دوره في مقاومة البدع والضلالات التي أدخلت على الإسلام، إذ كان جده يناضل الإسماعيلية الباطنية الشيعية في إفريقية[2].

(1) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 58.

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية، د. عبد الحميد درويش النساج ص 32.

لقد كان والد الشيخ عبد الحميد من ذوي الفضل والمروءة والحفاظ على شعائر الدين والغيرة عليه، وكان يحفظ القرآن ويتعبد بتلاوته وخاصة في شهر رمضان، وقد أمضى ليالي شهر الصيام كلها سنة 1351هـ يقيم صلاة التراويح في مسجد سيدي قموش الذي بناه على نفقته وحيث كلف من طرف الشيخ بإمامة المصلين في صلاة التراويح أثناء ذلك الشهر.

كما خصّص معلماً لتعليم القرآن الكريم في ذلك المسجد على نفقته، وليس صحيحاً ما قيل عنه أنه كان غير راض عن نشاط ابنه العلمي والديني، ودليل ذلك أنه هو الذي سعى لدى الحكومة من أجل الإذن له بالتدريس في الجامع الأخضر، بعد أن سعى المفتي ابن الموهوب لمنعه من التدريس في الجامع الكبير(1).

لقد وجّه والد الشيخ ابنه إلى قراءة كتاب الله منذ أول طفولته ونعومة أظفاره، ولم يوله شطر المدرسة الفرنسية التي لم يغب عنه ما كان يمكنها أن تؤهله من مناصب عالية مثل أقرانه من أبناء الأسر القسنطينية.

وقد أثنى الشيخ على أبيه عاطر الثناء في كلمته التي أجاب بها على الخطباء وقصائد الشعراء في حفل التكريم الذي أقيم له بمناسبة ختمه درس التفسير، حينما كان يذكر بالخير والفضل جميع الذين أثّروا في حياته وعملوا على تكوينه، والذين ازروه في جهاده من إخوانه العلماء، وقال بخصوص والده: فلأشكرنه بلساني ولسانكم ولأَكِلَ ما عجزت عنه لله الذي لا يضيع أجر العاملين(2)، والحقيقة التي يجب أن تقال هي: أن الله عز وجل أكرم والد ابن باديس بهذا الشيخ الجليل، فوهبه لهذه الأمة المسلمة، ليحيي تراثها المجيد وحضارتها الإسلامية العظيمة(3).

---

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 260.

(2) المصدر نفسه ص 260.

(3) المصدر نفسه ص 260.

### 2. شيوخه وأساتذته ومن تأثر بهم من علماء الأمَّة:

عاش في بيئة العلم التي ترعرع فيها وتأثير مربيه وأساتذته فيه، ومما قاله في ذلك: ثم لمشائخي الذين علموني العلم وخططوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه[1]، وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية وهما «من مشائخي» اللذين تجاوزا بي حد التعلم المعهود.. إلى التربية والتثقيف، والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة، أحد الرجلين: الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني، وثانيهما: الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور[2].

لقد تتلمذ ابن باديس على يدي الكثير من الشيوخ والعلماء ومن أهمهم ممن كان له أثر قوي على حياته العلمية والعملية.

#### أ. محمد حمدان الونيسي 1920م:

من أهل قسنطينة تلقى دراسته في مساجد ومدارس هذه المدينة على كبار علماء عصره، ولاسيما منهم الشيخ عبد القادر المجاوي 1914م، شيخ شيوخ المدينة ومؤسسة النهضة في الجزائر، تولى التدريس والإمامة بجامع سيدي محمد النجار، ثم التدريس بالجامع الكبير ببطحاء سيدي الشيخ منذ سنة 1881م، وكان أستاذاً بالمدرسة الرسمية في الكتانية أيضاً، كان له نشاط علمي ودعوي دؤوب في المدينة، اعتنى بالإمام عبد الحميد بن باديس عناية خاصة لما وجد فيه من نبوغ فكري مبكر، وشغف كبير للعلم والمعرفة، تعرض حمدان الونيسي لمضايقات الإدارة الفرنسية فأوقفوه عن التدريس في الجامع الكبير، بسبب نشاطه العلمي والديني والوطني، فهاجر إلى المدينة المنورة هرباً من هذه المضايقات، وكان الإمام عبد الحميد يرغب في الهجرة معه، ولكن أستاذه أشار على والد عبد الحميد بن باديس بإرساله إلى الزيتونة لاستكمال دراسته[3].

---

(1) جمعية العلماء ، د. أحمد الخطيب ص 123.

(2) إمام الجزائر ص 58.

(3) وثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، د. عبد العزيز فيلالي ص 49.

### ب ـ محمد النخلي القيرواني «1867م ـ 1924م»:

تولى التدريس بالزيتونة ـ وكان من كبار شيوخها ـ درس فلسفة الأخلاق بالمدرسة الخلدونية، يعد من أهم أساتذة الإمام عبد الحميد بن باديس بالزيتونة، وزعيم النهضة الفكرية في تونس، درّسه التفسير فأثر فيه تأثيراً علمياً كبيراً، ولهذا كان يفتخر به فيقول: إني متبرِّم بأساليب المفسرين وإدخالهم تأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله.. ضيِّق الصدر من اختلافاتهم فيما لا اختلاف فيه من القران، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام اراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله، فذاكرت الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق، فأجابني النخلي بما يجدد حقيقة الفكر الديني: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الاراء المضطربة ؛ يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح. فوالله لقد فتح بهذه الكلمات القليلة عن ذهني افاقاً واسعة لا عهد لي بها.

له عدة مؤلفات في التفسير وغيره لكن أغلبها لم ينشر، درّس الإمام عبد الحميد بن باديس في مرحلة ما بعد التطويع، وأجازه إجازات خاصة[1].

لقد وصف ابن باديس شيخه النخلي بأنه: العلاّمة، النظار، المستقبل، زعيم النهضة الفكرية لجامع الزيتونة. وهو وصف نفهم منه أن ما درسه التلميذ على شيخه إنما كان ذا طابع عقلي، غير منفك عن النقد والتأصيل والتنظير. ومعنى ذلك أنه درس على شيخه دون شك كتاباً في علم الكلام. وينبغي الإشارة إلى أن النخلي هو الذي لفت إنتباه ابن باديس وقتها إلى أهمية مخطوط لأبي بكر بن العربي في علم الكلام هو «العواصم من القواصم»، وقد احتفظ ابن باديس بتوجيه شيخه فنشر هذا الكتاب في جزأين سنتي 1926م، و1927م[2].

كان النخلي من دعاة الإصلاح والتجديد، فقد ثار على الأساليب البالية وأخلص للإصلاح في الفكر

(1) المصدر نفسه ص 50.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 93.

والمنهج والبيان، واعتبر الزيتونة مناطاً لمعركة فاصلة بين المجددين والمحافظين، لذلك شارك في التنظيم الذي أسس للدفاع عن مصالح الطلبة سنة 1907م باسم جمعية تلاميذ جامع الزيتونة أولاً، وباسم «الجمعية الزيتونية» ثانياً، وكان أحد أعضائه البارزين[1].

لقد هجّن النخلي مسلك الشيوخ المحافظين، ونقد الكتب المقررة التي قِشرُها أكبرُ من لبابها، ودعا إلى أن تكون الكتب على غرار «رسالة التوحيد» لمحمد عبده، في عرضها ومنهجها، لإشاعة العلم والتيسير على شُداته، إلا أن الحائل دون ذلك «تقليد كل قديم والشغف بالثناء على العظم الرميم»[2].

ومن يتتبع آثار النخلي يدرك أن منهجه قائم على التفريق بين ما هو دين وما هو فكر ديني، إذ الدين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الصحيحة مقدس ومطلق، والفكر الديني فكر زمني نسبي يتغير بتغير الزمان والمكان ودرجة تطور المجتمع، لأنه لا يعدو أن يكون فهماً بشرياً[3].

عمل النخلي على إصلاح التعليم الزيتوني، وإلى تجديد الفكر الديني، ومواجهة الإشكاليات المستحدثة، وإنتشال اللغة من الوهن والجمود، والإفادة من مكتسبات العصر. وإن إصراره على تجديد الفكر الديني آثار عليه ثائرة الجامدين، فنقموا عليه وعلى ابن عاشور إيثارهما اراء محمد عبده الإصلاحية، وبثهما هذه الاراء في دروسهما ،ءَ واعتمادهما منهج محمد عبده القائم على الاجتهاد واستقلال الفكر[4].

ولقد قام تجديد النخلي للفكر الديني على ترشيد الخطاب الديني من حيث الفروع والعقيدة ومنظومة القيم، وذلك بتأكيده على نسبية هذه الفروع وبتحليل القيم تحليلاً يجلّي سماحة الإسلام واعتداله، وبتوضيح

(1) المصدر نفسه ص 94.

(2) المصدر نفسه ص 95.

(3) المصدر نفسه ص 96.

(4) آثار ابن باديس (3 / 75).

مسائل العقيدة بما يتسق مع مواصفات اللغة وحقائق الدين ومقتضيات العقل، دون أن يصده عن ذلك رأي مألوف أو قول عالم قدم من الأزمان السابقة. يقول: الإصلاح الديني لا يقدر عليه إلا من عرف طبيعة الدين، وخبر سنة سيد المرسلين، وسير الصحابة والتابعين، لا من كان رأيه الجمود والتمسك بالمألوف لأنه المعروف[1].

وكان ابن باديس حلقة في سلسلة السند الزيتوني، فقد تأثر النخلي بشيخه سالم بو حاجب، وتأثر ابن عاشور بشيخه سالم بو جاجب ومحمد النخلي، وتأثر ابن باديس بشيخه النخلي وابن عاشور، وكأن ابن باديس بذلك قد تتلمذ على سالم بو حاجب «1827م . 1924م»، الذي رفع منذ منتصف القرن التاسع عشر راية الإصلاح الديني والتجديد الأدبي واللغوي والنضال الوطني، حتى لقد لقب بشيخ الشيوخ وطود الرسوخ وإمام العربية في الديار التونسية، وهو الذي زعزع أركان التقليد في جامع لزيتونة، ونشر ألوية الاجتهاد، وبصر بأقوم المسالك إلى التجديد والتحديث[2].

لذلك قام ابن باديس بنقد الموروث ودحض السلبي الذي لا يضيف إلى المعرفة ولا إلى الإيمان والعقل شيئاً، ودعا لاحقاً إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، لقد أينع عقله وزكا بيانه على أيدي شيخيه ؛ النخلي أفاده بمنهجه العقلي الذي يسلم به الفكر الديني، وتتهافت دونه الشبه والأساطير والتأويل الباطني، وابن عاشور أفاده في الجانبين الأدبي واللغوي، وفي إحكام الوصل بين الدراسة الأدبية والدينية[3].

### ج . محمد الطاهر بن عاشور (1879م . 1973م):

درس بجامع الزيتونة وتحصّل منه على شهادة التطويع سنة 1896م، وصار مدرساً به وبمدرسة الصادقية، تولى منصب قاضي القضاة المالكية بتونس سنة 1944م أو عمادة مجلس الشورى المالكي ومشيخة جامع

(1) المصدر نفسه ص 97.

(2) المصدر نفسه ص 98.

(3) المصدر نفسه ص 99.

الزيتونة اهتم بجانب القرآن الكريم إلى جانب علوم أخرى، له عدة مؤلفات في الأدب والتراث، من الذين نادوا بإصلاح التدريس بالزيتونة، درّس الإمام عبد الحميد بن باديس في مرحلة التطويع وما بعده. يقول عنه الإمام: عرفت هذا الاسناد في جامع الزيتونة وهو ثاني الرجلين الذين سيشار إليهما العلم.. وإن أنسَ فلا أنسَ دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه، فقد حبّبتني في الأدب والفقه في كلام العرب، وبثّت فيّ روحاً جديدة في فهم المنظوم والمنثور وأحيت فيّ الشعور بعز العروبة والاعتزاز بهما كما أعتز بالإسلام[1].

لقد أفاده ابن عاشور في الجانبين الأدبي واللغوي، وفي إحكام الوصل بين الدراسة الأدبية والدراسية الدينية، حيث كانت الدروس التي تلقاها منه من ديوان الحماسة فتحاً أدبياً ولغوياً فريداً، فقد حببت إليه الأدب والتفقه في كلام العرب، وبث فيه روحاً جديدة هيأت له المتعة بتذوق النثر والشعر على نحو جديد. لقد كان ابن عاشور المصلح لأحوال جامع الزيتونة حين كلف بمشيخة الجامع الأعظم في سنتي 1932م و1933م، وحين تولى المشيخة سنة 1945م كان حقيقاً بالتأثير في الزيتونيين، وهو يعتبر في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية من القلة التي تأتّى لها . بعميق ثقافتها ووثيق منهجها وزكيّ علمها وسنيّ أدبها . أن تجمع بين هذين الضربين: . الدراسة الدينية والدراسة الأدبية .، وليس في هذا آية مفارقة ؛ ذلك أن التكامل بين هذين الضربين من الدراسة يفضي إلى أسنى المقاصد وأبعدها شأناً.

فالذائقة الأدبية والكلف بالبيان ؛ هما السبيل إلى التعامل الرشيد مع النصوص مهما يكن مجالها، وهو تعامل يقوم على التحليل والتعليل والتوليد، واعتماد النسبية بالانطلاق من قاعدة أساسية، هي تعدد مستويات

(1) وثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية ص 51.

اللغة وتنوع أساليبها، وبذلك يكتسب المضمون ثراء يزكو بزكاء الزاد المعرفي والاليات المنهجية[1].

وحيث الشيخ، فإن «الدربة الشعرية» تكوّن نباهة مطردة للنفس، بحيث توصّل في الدارس قدرة فنية مطردة، تمكنه من إدراك أسرار اللغة وأساليبها في مستوياتها المختلفة، وتجنبه غائلة الوقوع في وهق التحجر والتعصب والانغلاق، وتجعل العملية الثقافية قائمة على الجانبين المكونين للإنسان: العقل والوجدان.

وكان الشيخ آية على هذا التضافر، فهو الكلف بالشعر، والمجدد للفكر الديني، والعامل من أجل الإصلاح. وفي هذا السياق يجب أن أشير إلى أن الشيخ استشهد في التحرير والتنوير بنحو 2682 من أبيات الشعر وأنصاف الأبيات عن ممارسته له الطويلة في أعماله وتحقيقاته الأدبية، وإلى ذلك فإن الشيخ قد صاغ الشعر منذ فترة طويلة ويناعة الشباب، فكان له إسهام معتبر في مجال القريض، حسب المناسبات ومقتضيات الظروف. وكل ذلك عناه ابن باديس فيما قاله عن تأثره بذائقة شيخه الأدبية ومنهجه الفكري. ومع إكبار التلميذ لشيخه واعترافه بفضله ؛ فقد خالفه في مسائل عرض لها في مجلة البصائر التابعة لابن باديس[2].

لقد لازم ابن باديس شيخه ابن عاشور ثلاث سنوات، وكان بعض أساتذته الجامدين يصرفه عن الاتصال بدعوى أنه من أتباع جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومن العاملين على نشر أفكارهما في أوساط طلبة جامع الزيتونة[3].

### د . محمد البشير صفر «1856م . 1917م»:

ولد بتونس سنة 1856م، تعلم بمدرسة الصادقية وحفظ نصيباً من القرآن الكريم، وأخذ بعض العلوم من الزيتونة، وأرسل في بعثة لفرنسا لدراسة الهندسة والرياضيات، تقلد مناصب في الدولة التونسية منها رئيساً

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 99.

(2) المصدر نفسه ص 100.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية ، تركي رابح ص 20.

لجمعية الأوقاف، ثم والياً على مدينة سوسة سنة 1908م، يقول ابن باديس: بأن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في إطلاعي على تاريخ أمتي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر[1].

إن تأثر ابن باديس بأستاذه في الخلدونية البشير صفر الموسوم بأبي النهضة التونسية الثاني بعد خير الدين، لم يكن بأقل من تأثره بشيخه النخلي وابن عاشور، اللذين هيا له من المناهج ما به أشتد أزره، وزكا علمه وأدبه، أعني المنهج العقلي البرهاني والمنهج البياني، وكذلك كان تأثير البشير صفر فيه عظيماً، فقد أذكى فيه بدروسه في التاريخ بالخلدونية إحساسه القومي وشعوره الوطني واعتزازه بالإسلام، وفخاره بالإنتماء، وذلك بالرغم من أن مدة تتلمذه عليه لم تطل، إذ لم تتواصل أكثر من خمسة أشهر من سنة 1908م، لأن البشير صفر نُقل بخطة عامل «والٍ» إلى سوسة في 29 جوان 1908م.

ومن البيّن أن التأثير لا يقاس بطول المدة أو قصرها، وإنما يقاس بمدى قدرة الأستاذ ونباهة الطالب، فإن فكرة خفيفة واحدة أو إشراقة بيانية يتلقاها طالب نابه من أستاذ عظيم في دقائق معدودات ؛ قد تحول مساره الفكري وتغني ذائقته الأدبية طيلة حياته، فما بالك بالمحاضرات التاريخية الثرية النافذة إلى الجوهر، الحافلة بالأسباب والنتائج التي يتلقاها ابن باديس من أستاذ اعتبره السبب في حياة أمة[2].

من يطّلع على كتاب (مفتاح التاريخ) للبشير صفر ـ وجزؤه الغالب في أصله محاضراته التي كان يلقيها في الخلدونية ـ يدرك إلى أي حد كان متأثراً بمنهج ابن خلدون التاريخي، من حيث احتفائه بالاسباب والنتائج، وبنائه على التحليل والنقد، يجلله وهج وطني وقومي لا يخمد، ومقارنات للوقائع والأحداث في التاريخين العربي

(1) وثائق جديدة عن جوانب خفية ص 52.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 101.

والأوروبي، بقصد استخلاص العبرة، وبعث الروح الوطنية في الشباب، والحضّ على النضال من أجل استعادة العزة، ومن ثمّ كانت محاضراته بحق نداءً إلى التنوير والوحدة والتحرير. ولقد سلك ابن باديس هذه الطريقة مهتدياً بمنهج أستاذه، فأنجز المبتغى في الجزائر بما حققه من نهضة علمية وتربوية، ومِن تحول تاريخي حاسم بدأ فيه النضال الوطني معتمداً ثوابت الشعب الجزائري وخصائصه القاطعة وأمجاده التاريخية[1].

**هـ . الأستاذ محمد رشيد رضا:**

خصّه ابن باديس بترجمة شاملة في أعداد مجلة الشهاب، وأوضح فيها جوانب عظمة الأستاذ رشيد رضا والجوانب التي تأثر بها، فيقول: لقد كان الأستاذ نسيج وحده في هذا العصر، فقهاً في الدين، وعلماً بأسرار التشريع، وإحاطة بعلوم الكتاب والسنة، ذا منزلة كاملة في معرفة أحوال الزمان وسر العمران والاجتماع، وكفى دليلاً على ذلك ما أصدره من أجزاء التفسير وما أودعه مجلة المنار في مجلداتها[2].

ويوضح ابن باديس ما للسيد رشيد من آثار على الحركة الإصلاحية الحديثة، فيقول: فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم إصلاحاً وهداية، بياناً ودفاعاً ؛ كلها من آثاره[3].

ومن خلال ما قدمنا يظهر أن ابن باديس قد تأثر بالأستاذ محمد رشيد رضا في جوانب من منهجه خاصة استقلاليته في التفكير، وأسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعده عن الوظائف[4].

**و . الشيخ محمد بخيت المطيعي:**

يعد من المدرسة الإصلاحية الحديثة، وكان . على معارضته للشيخ محمد عبده في نواح . يؤيده في إنكار

(1) المصدر نفسه ص 101.

(2) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ، مصطفى محمد ص 71.

(3) المصدر نفسه ص 71.

(4) المصدر نفسه ص 71.

البدع والمحدثات في الدين، وعن علاقته به يقول الشيخ ابن باديس: ولما رجعت من المدينة المنورة على ساكنها واله الصلاة والسلام سنة 1332هـ، جئت من عند شيخنا العلامة الشيخ حمدان الونيسي المهاجر إلى طيبة والمدفون بها ـ رحمه الله ـ جئت من عنده بكتاب إلى الشيخ بخيت، وكان قد عرفه بالإسكندرية لما مر بها مهاجراً، فعرجت على القاهرة وزرت الشيخ بخيت بداره بحلوان، فلما قدّمت له كتاب شيخنا حمدان قال لي: ذلك رجل عظيم، وكتب لي إجازة في دفتر إجازاتي بخط يده، رحمه الله وجازاه عنا وعن العلم والدين خير ما يجزي العاملين الناصحين[1].

### ز ـ حسين أحمد الفيض ابادي الهندي «1878م ـ 1957م»:

ولد بالهند وحفظ القرآن الكريم وتعلم العلوم الشرعية، تصدر التدريس بالمسجد النبوي الشريف، وكان من أشهر مدرسيه، حتى لقبه بخادم العلم بالمسجد النبوي. طلب منه أن يفتي بضرورة الخروج عن الدولة، لكنه رفض فنفي إلى مالطة، وأطلق سراحه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فعاد إلى الهند وتولى بها مشيخة تدريس الحديث الشريف بجامعة «ديوبند»، كما عمل نائب رئيس جمعية العلماء بدلهي عاصمة الهند، أجاز الإمام عبد الحميد بن باديس إجازة عامة بالمدينة المنورة وتوفي سنة 1957م[2]، وكان الشيخ حسين أحمد الهندي يتولى شرح صحيح الإمام مسلم في المسجد النبوي الشريف[3].

### ح ـ القاضي عياض وأبو بكر العربي المالكي:

وممن تأثر بهم الشيخ عبد الحميد بن باديس في حياته العلمية ودعوته الإصلاحية: أعلام المدرسة الأندلسية المغربية، الذين قرأ عليهم كتبهم قراءة تمحيص وتحقيق، وهي كثيرة في فنون مختلفة من الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب، وكانت جلّ هذه الكتب تشكل الزاد العلمي والثقافي لتلاميذ المدرسة الباديسية، ومن

---

(1) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 71.

(2) وثائق جديدة عن جوانب خفية ص 53.

(3) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 73.

هؤلاء الأئمة: القاضي عياض، والقاضي أبو بكر بن العربي، والإمام أبو عمر ابن عبد البر[1].

وأما العلامة القاضي عياض، فقد اختار الشيخ عبد الحميد بن باديس كتابه «الشفا» [2]، لتدريسه لطلبته في المسجد الكبير بقسنطينة سنة 1913م، يقول ابن باديس عن ذلك: ابتدأت القراءة بقسنطينة بدراسة الشفا للقاضي عياض بالجامع الكبير[3].

وأما الإمام أبو بكر بن العربي، فيقول عنه ابن باديس أنه: خزانة العلم وقطب المغرب، وقد حققت مخطوط كتاب العواصم من القواصم، وقدم له بمقدمة طويلة وطبعه سنة 1928م في جزأين بمطابع الشهاب بقسنطينة. وقد تأثر الإمام ابن باديس به وبالإمام أبي عمر ابن عبد البر القرطبي، فأخذ عنهما الكثير من فيض علمهم، وخاصة فيما انتهجاه في إصلاح طرق التدريس التي كانت سائدة في عصرهما بالأندلس، وهو نفس المنهج الذي اتبعه ابن باديس في مقاومة روح التقليد والجمود الفكري الذي واجه دعوته الإصلاحية في الجزائر[4].

أولئك هم أهم شيوخ ابن باديس وأساتذته الذين في أحضانهم نشأ وترعرع، ومن ينابيعهم الصافية استقى العلم والمعرفة وعلى منهاجهم أقام دعوته، وبمقاومة روح التقليد والجمود شق طريقه[5].

### 3. البيئة الثقافية:

وقد تمثلت هذه البيئة في الحركة الفكرية الناهضة في التأليف والنشر والاهتمام بالعلم والإصلاح والحرية، فكانت بيئته تموج بتيارات ومذاهب متباينة، أبرزها: تعدد الحركات الإصلاحية، والطرق الصوفية، وانقسام

(1) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 73.
(2) المصدر نفسه ص 74.
(3) المصدر نفسه ص 74.
(4) المصدر نفسه ص 74.
(5) المصدر نفسه ص 74.

أصحاب الرأي، إما إلى الوهبية والسلفية وإما إلى المادية الغربية، فكان على ابن باديس أن يختار الطريق والمنهج الصحيح الملائم لظروف مجتمعه، فجمع حوله العلماء، وأسس جمعية باسمهم في محاولة لمواجهة هذه المتناقضات الفكرية، واتفاقهم في الرأي حول ضرورة الرجوع إلى السلف الصالح، وتغيير ما بالنفس من آثار الانحطاط[1].

ويؤكد عمار الطالبي على أن الواقع الثقافي زمن ابن باديس وظهور بعض الشخصيات العلمية المتأثرة باراء محمد عبده التي نقلتها مجلة العروة الوثقى والمنار إلى المغرب العربي وخاصة الجزائر ؛كان من أبرز العوامل التي أدت إلى تكوين شخصيته الفكرية.

كما يصف الأثر الإيجابي لزيارة الإمام محمد عبده إلى الجزائر، وزيارته للجامع الكبير بقسنطينة، في إحداث الاتصال والتواصل الفكري، ثم ظهور مجموعة من العلماء يحملون أفكار محمد عبده ومدرسة المنار ويقومون بتدريسها ونشرها، منهم: عبد الحليم بن سماية، وعبد القادر المجاوي، ومحمد بن مصطفى بن الخوجة وغيرهم.. فهؤلاء كانوا على صلة برشيد رضا ومدرسة المنار، وكانوا يدرسون رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، إلى جانب دلائل الإعجاز للجرجاني، والاقتصاد في الإعتقاد للغزالي بالمدرسة الثعالبية بالجزائر.

ومن هنا كان تأثر ابن باديس بهذه البيئة، فظهرت منهجيته بوضوح في أسلوبه ودعوته إلى الاهتمام بالعقل والمنهج في رد الفروع إلى الأصول والأصول إلى مستنداتها، واهتمامه بأصول الفقه والبلاغة حيث اعتبر أن كتاب الموطأ للإمام مالك هو خير مناهج الاستدلال، ولذا قام بتدريسه بعد أن أتم حفظه، كما حرص على تدريس كتب الأمالي، وديوان الحماسة، وديوان المتنبي، ومقدمة ابن خلدون، والعواصم من القواصم،

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية ص 32.

ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة إلى جانب القرآن وعلومه[1].

وكانت الحركة الإصلاحية في مصر وتونس والجزائر بيئة ثقافية مؤثرة في تكوين شخصية ابن باديس، حيث الاتصال المباشر بينه وبين رجال الإصلاح خاصة رشيد رضا وأتباع المنار في مصر، ومع عبد العزيز الثعالبي في تونس، فكانت هذه الحركات تعبر عن أفكار العصر، وتسعى لتحليل الأوضاع الاجتماعية ووضع طرق مواجهتها. فكان ضرورياً تباحث واتفاق زعماء الإصلاح حول أسس الدعوة الإصلاحية وكيفية انتشارها وتطبيقها، فكان التشابه والاتفاق بين منهج وأسلوب جمعية العلماء في الجزائر، والحركة الإصلاحية في مصر والمشرق العربي وإتفاقهم حول:

. ضرورة أن يكون العلم وسيلة للبناء الفكري والحضاري وتنمية القوى الروحية للفرد.

. ضرورة مواجهة الواقع الاجتماعي والخلقي المتدهور الناتج عن انتشار الجهل والبدع والضلالات.

. ضرورة توحيد الكلمة في الخير والسعي إلى الكسب وعمران البلاد مع الاقتصاد في المعيشة.

. ضرورة نشر العلم والدين والجد في تحليل كافة العلوم الدينية والتربوية.

ـ ضرورة القضاء على عوامل الجمود والجهل وبعث الشعور بالحياة والثقة في الرجال ومن بيدهم الحل والعقد.

ولهذا كان حرص ابن باديس على إبراز هدف جمعية العلماء وخطتها، وكان يقول بأن التعليم العام لابد وأن يكون أول ما نهتم به من شؤون إصلاحنا، ولابد من انتشار العلم على مستوى العامة مع حرية الفكر واستقلاله، وأن خطة الجمعية علمية دينية هدفها نشر العلم والفضيلة ومحاربة الجهل والرذيلة، وأن القرآن الكريم

---

(1) آثار ابن باديس (1 / 91).

إمامُنا والسنة سبيلُنا والسلف الصالح قدوتنا[1].

ويصف لنا عمار الطالبي هذه البيئة الثقافية المتنوعة التي عاشها ابن باديس فيقول: إذا كانت الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية تمثل جانباً من العوامل الداخلية التي أثرت في ابن باديس ورفاقه ؛ فإن هناك عوامل خارجية أيضاً، كان لها أثرها المباشر في تفكيره، وهي ابتداء النهضة في المشرق، وعودة الاتصال الفكري والثقافي بينه وبين المغرب عن طريق الصحف والكتب والمجلات والحج، هذا بالإضافة إلى الرحلات العلمية إلى جامع القرويين بالمغرب والزيتونة بتونس والأزهر بمصر، ثم كان من رواد هذه النهضة الفكرية السيد قدور بن مراد التركي الذي أسس المكتبة الثعالبية، والشيخ صالح بن مهنا بمؤلفاته الوطنية، والشيخ عبد القادر المجاوي بمؤلفاته التربوية والمدرسية. فهذه المؤلفات كان لها أثرها في رجال الإصلاح والنهضة، وفي مقدمتهم أستاذ ابن باديس حمدان الونيسي، ومن غريب المصادفات أنه في السنة نفسها توفي فيها الشيخ عبد القادر المجاوي ابتدأ عبد الحميد بن باديس حركته العلمية بمدينة قسنطينة، فاتصلت حلقات الإصلاح متطورة إلى مرحلة القوة والنضج[2].

كما كان للحياة السياسية والإعلامية التي حفلت بها تونس أثناء دراسته بها أثر بارز في حياته، لقد شهدت الفترة التي عاشها ابن باديس في تونس «1908م ـ 1912م» حياة سياسية نشيطة قادتها الشبيبة التونسية بزعامة علي باش حانيه ومعه عبد العزيز الثعالبي في 19 أكتوبر 1911م وتأسيس جريدة «الاتحاد الإسلامي» للدفاع عن القضية الليبية والدعوة إلى وحدة النضال وتضافر جهود المسلمين لدحر المستعمر من بلاد الإسلام، فازداد الشباب التحاماً بالقادة وفي مقدمتهم علي باش حانية وعبد العزيز الثعالبي وفي 7 نوفمبر 1911م جدّت أحداث الزلاج التي تعتبر بحق انتفاضة شعبية كبيرة، وقد تمرس فيها التونسيون على أساليب النضال واعتمدوها لمزيد إحكام التنظيم ولنشر الوعي بين المواطنين ومن ثم أصبح العمل السياسي عملاً شعبياً

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية ص 34.

(2) آثار ابن باديس (1 / 18، 19، 24).

وليس عملاً نخبوياً كما كان في السنوات الماضية، وعطلت السلطات الاستعمارية الصحف التونسية عدا جريدة الزهرة دون أن تستطيع دفعاً لما حققته الحركة السياسية. ولم تفلّ أحداث الترامواي في 9 فيفري 1912م من ساعد الحركة، بل إن الحركة ازدادت في ظل هذه الأحداث صلابة ورسوخاً وانبرى الزعماء، وفي مقدمتهم علي باش حانية يحضون المواطنين على مقاطعة الترامواي، ومواصلة الكفاح. فعمدت السلطات الاستعمارية إلى نفي الزعماء السبعة.

في غمرة هذه الأحداث المتعاقبة عاش ابن باديس فشارك في الحركة الطلابية، وانحاز إلى التيار الإصلاحي في الزيتونة، وشهد التحول الحاسم للحركة الوطنية واستخلص العبرة من الأحداث التي عرفتها البلاد، ومما امن به الزعماء وفي مقدمتهم علي باش حانية وعبد العزيز الثعالبي من حتمية وحدة النضال في المغرب العربي، ومن أن الدفاع عن أي بلد مغاربي هو جزء لا يتجزأ من الدفاع عن تونس.

في مطلع جويلية 1937م قدم ابن باديس إليها ممثلاً لجمعية العلماء لتحية الزعيم، فزاره في بيته يوم 23 جويلية 1937م وأبلغه رسالة جمعية العلماء. وإن ما كتبه عن الثعالبي في مجلةالشهاب ليدل على عمق ارتباطه به واعترافه بزعامته وإكبار نضاله[1].

إن الفترة التي قضاها ابن باديس في تونس كانت فترة حافلة بالأحداث وضروب النضال، وتجربته فيها كانت ثرية في مجالات التعليم والإعلام والسياسة، وبعد أن انقضت السنة الدراسية «1911م ـ 1912م» التي تطوّع فيها للتعليم بجامع الزيتونة سافر إلى الجزائر حاملاً في قلبه هوى لتونس لم يبرحه، وفتح بنضاله وبمنهجه الإصلاحي افاقاً جديدة لم يعهدها وطنه من قبل. وحين كان يغذوه الشوق إلى الخضراء يفر إليها منشرح الصدر، مغتبط القلب مشبوب المشاعر لاستعادة ذكرى فترة حافلة من حياته، وللقاء النُخب التي بدت بها تونس حسب تعبيره «عروس الشمال الإفريقي وواسطة عقد وحدته».

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 102، 103.

ولما زار تونس في ديسمبر 1936م أقيمت له احتفالات عديدة أشارت إليها المجلة الزيتونية وأوردت له قوله: إن منبع السعادة والهداية في هذا الشمال الإفريقي هو جامع الزيتونة عمّره الله، وإنه المنبع الفيّاض الذي تصدر عنه كل حركة علمية أو إصلاحية.

لقد توطن في قلبه هوى لتونس لا يعادله إلا هوى تلمسان، ففي مقال نشره في «الشهاب» سنة 1937م بعنوان «في تونس العزيزة» ورد نصه: حقاً إن لتونس هوى روحياً بقلبي لا يضارعه إلا هوى تلمسان، أعرف ذلك من انشراح في الصدر، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب لا أجد مثلها إلا في ربوعها.

ففي رحاب الخضراء تشكل فكره وتألق وجدانه وتنوعت تجاربه، فظلت الخضراء بالنسبة إليه موئل حنين وواسطة عقد وملاذ هوى روحي لا ينقطع[1].

### 4 . مؤازرة زملائه في جمعية العلماء له:

والعامل الرابع يعود إلى مؤازرة زملائه وإخوانه في جمعية العلماء، الذين ساندوه في الأعمال التي قام بها من أجل النهضة الجزائرية، وتحملوا معه المشقات والأتعاب، واحتضنوا معه الحركة الإصلاحية التي بدأها قبل الحرب العالمية الأولى، حتى أينعت وازدهرت فعمت الجزائر من أدناها إلى أقصاها في الفترة ما بين الحربين العالميتين، وفي الأربعينات من هذا القرن والخمسينات.

ومن عادة ابن باديس أنه كالجندي المجهول ينسى نفسه وينسب الفضل فيما حققه من عمل - للأمة والوطن - إلى إخوانه وزملائه في جمعية العلماء الذين شاركوه في تحمل المسؤولية ووقفوا إلى جانبه في وقت المحنة والشدة.

وقد كانت عصبة ابن باديس التي برزت إلى الوجود في عام 1931م في منظمة «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» عصبة تتصف بغزارة العلم والوطنية الصحيحة وتعمل في انسجام وودّ قل أن يوجدا في الهيئات

(1) المصدر نفسه ص 105.

الأخرى ، يقول ابن باديس: إذا كنت أستمد القوة والحياة فإنما أستمدها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني ولأمتي، وأخص منهم الأسود الكبار وهم إخوتي الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفاً إلا وجدتهم معي كالأسود[1].

لذلك كان هؤلاء العلماء من زملائه ورفاقه في جمعية العلماء عاملاً قوياً من عوامل تكوين شخصيته وبروزها على الشكل الذي عرفها الناس به، صلبة في الحق ثابتة على المبدأ، قوية الإيمان بالله ونصره، لا تتغير ولا تتزعزع في وجه العواصف مهما اشتد هياجها وطمى سيلها.

ومن بين العلماء الذين أشار إليهم ابن باديس في كلمته الانفة الذكر نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر[2]:

### أ. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

وهو رفيق ابن باديس وزميله في قيادة الحركة الإصلاحية في الجزائر ونائبه في رئاسة جمعية العلماء، ثم قاد جمعية العلماء بعد وفاته. تعرف عليه ابن باديس في المدينة المنورة سنة 1913م عندما ذهب إلى أداء فريضة الحج كما سبق أن ذكرنا، وربطت بينهما صداقة قوية لم تنقطع إلا بوفاة ابن باديس في عام 1940م، حيث خلفه الإبراهيمي في رئاسة جمعية العلماء وقادها بمهارة حتى أدت رسالتها كاملة للأمة بعد وفاة ابن باديس كما أدتها كاملة في حياته[3].

وكان بعد رجوعه إلىالجزائر في كل بلد يحل فيه لابد أن يبني مدرسة أو يوسع مدرسة وكان يقول للناس: وسعوا المدارس فسيأتي يوم تضيق فيه بأبنائكم ويقول لهم: إن مدارسكم هي مراكز الإصلاح، لا تحسبوها للعلم وحده حتى إذا أغلقت فرنسا أبوابها أهملت أنها مركز للكفاح[4]، ومما يروى عنه في مجال دعوته لفتح المدارس أن أهل وهران جاؤوه بعد الحرب العالمية الثانية وقالوا له: لقد وجدنا أرضاً لبناء المدرسة الواسعة ولكن

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 33.

(2) المصدر نفسه ص 33.

(3) المصدر نفسه ص 34.

(4) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، د. أحمد الخطيب ص 151.

ثمنها مليون فرنك «فرنسي قديم»، وليس في صندوق جمعيتنا إلا 150 ألف فرنك، فقال لهم: أقدموا على الشراء وادفعوا الموجود وأنا أعطيكم المليون، وبما أنه لم يكن يملك مالاً، فقد قال لهم إثر اجتماعهم به بعد الشراء: أريد ألف مصلح في وهران والبلاد المجاورة كل واحد يدفع إلينا ألف فرنك وبذلك جمعوا أكثر من المبلغ المطلوب[1]. واشتهر الإبراهيمي بالكتابة والتعبير البديع، المعبر عن المعاني المصيب لها في أعماقها، المشحونة بالعاطفة الإنسانية والإسلامية، واستعمل العبارات الصريحة في مهاجمة الاستعمار وعملائه مثل قوله في الاستعمار الفرنسي: جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت وأسباب الموت[2].

وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله بعد توليه زعامة جمعية العلماء.

**ب ـ الشيخ الطيب العقبي**:

وقد كان من أبرز رجالات جمعية العلماء، وهو صحافي قدير وصاحب جريدة «الإصلاح». وقد كان شخصية علمية ممتازة كما كان خطيباً مصقعاً، يستطيع أن يحرك أوتار قلوب الجماهير وعواطفهم بقوة بيانه وفصاحة لسانه ويوجههم إلى حيث يريد. وقد تولى رئاسة تحرير جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء عند إصدارها فترة من الوقت، وكانت دائرة عمله هي العاصمة ومنطقتها، وأما مركز عمله فهو نادى «الترقي»[3].

ولد الشيخ الطيب العقبي 1890م ـ 1960م، وهو الطيب بن محمد بن إبراهيم، من عائلة محمد بن عبد الله، التي تنتسب إلى قبيلة أولاد عبد الرحمن الأوراسية. وفي سنة 1895م هاجر مع عائلته إلى المدينة المنورة في الحجاز وهناك بدأ دراسته الأولية ولم تمنعه وفاة والده وهو في سن الثالثة عشرة من الاستمرار في تلقي العلم في

(1) المصدر نفسه ص 152.

(2) المصدر نفسه ص 153.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 34.

الحرم النبوي، وما لبث أن أصبح معلماً في نفس الحرم، وأخذ يقرض الشعر ويكتب المقالات الثورية مما جعله يكتسب صداقة بعض المصلحين في ذلك الوقت أمثال شكيب أرسلان ومحب الدين بن الخطيب وغيرهما[1].

وعاد العقبي إلى الجزائر في 4 مارس «اذار» 1920م، وحل بعد عودته في مدينة بسكرة الصحراوية، وعند وصوله وكعادة علماء الإصلاح اتخذ العقبي من مساجد المدينة منبراً يبث منها افكاره عن النهضة العربية والجامعة الإسلامية والإصلاح الديني والاجتماعي، والتف حوله جماعة من الأدباء المصلحين يؤازرونه في مهمته وأشتهر من تلاميذه محمد العيد ال خليفة شاعر الجزائر. ودخل العقبي معترك الصحافة الوطنية باشتراكه أول الأمر في انشاء جريدة «صدى الصحراء» في ديسمبر 1925م في بسكرة، التي كان يشرف عليها رسمياً أحمد العابد العقبي، ولكنه اثر بعد ذلك تأسيس جريدة مستقلة به عرفت «بالإصلاح» وبدأت بالظهور عام 1927م.

كانت طريقة العقبي في الدعوة الإصلاحية هي نفس طريقة ابن باديس، يقوم تدريسه على العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية يهتدي بالقرآن والحديث، ولكن المجال الذي اشتهر به وذاع صيته فيه هو الخطابة.

يقول عنه أحمد توفيق المدني بأنه: كان خطيباً مصقعاً من خطباء الجماهير، عالي الصوت سريع الكلام، حاد العبارة، يطلق القول على عواهنه كجواد جامح دون ترتيب أو مقدمة أو تبويب أو خاتمة، وموضوعه المفضل هو الدين الصافي النقي، ومحاربة الطرق ونسف خرافتها والدعوة السافرة لمحاربتها ومحقها[2].

كانت فصاحته تجلب الألباب وصوته يؤثر في الجماهير، وسيرته الفاضلة وسلوكه الديني البحت تؤثران على الجماهير تأثيراً عظيماً[3].

---

(1) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 158.

(2) المصدر نفسه ص 160.

(3) المصدر نفسه ص 160.

وفي عام 1932م وقع الاختيار على العقبي عميداً لجمعية في عمالة الجزائر فانطلق نشاطه الإصلاحي، وظهرت نتيجة أعماله في فتح المدارس العربية الحرة في العاصمة وفي العمالة، وتعزز وضع جمعية العلماء مما أثار قلق المستعمرين، فاستغلوا حادث مقتل الشيخ محمود بن دالي المعروف بكحول أحد موظفي الإدارة الدينيين وإمام الجامع الكبير، وكان قد أرسل برقية إلى الحكومة الفرنسية يشهر فيها بجمعية العلماء التي شاركت في وفد المؤتمر الإسلامي إلى باريس عام 1936م، واتهم علماء الجمعية بأنهم لا يحملون مستندات ولا شهادات.. وتتبرأ منهم الأغلبية الساحقة ولا يمثلون سوى شرذمة من المشوشين الذين يحاولون بث الفوضى في البلاد(1).

ظهر استغلال الإدارة بتوقيفها رجلاً ذا سوابق عدلية ودور مشبوه فيه يدعى «عكاش» ؛ أكد أثناء التحقيق معه أنه تسلم من العقبي خنجراً من صنع «بوسعادة» ومبلغ 30000 فرنكاً، فاعتقل العقبي مع رفيق له يدعى عباس التركي، وزج بهما في السجن، ولوحق أعضاء جمعية العلماء المسلمين في العاصمة، وأغلق نادي الترقي، ولكن المكيدة سرعان ما انفضحت إذ تراجع عكاش عن اعترافه الأول وأنكر علاقة العقبي وجمعية العلماء ونادي الترقي بالجريمة، فأفرج عن العقبي بصورة مؤقتة، ولكنه وضع تحت المراقبة، وسلط عليه سيف المراقبة العدلية وامكانية التوقيف عند الضرورة(2).

توفي الطيب العقبي بتاريخ 21 ماي «أيار» 1960م ودفن بمدينة الجزائر(3).

**ج . الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي:**

هو العرْبي «بتسكين الراء» بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات من بلدة «أيسطح» النموشية التي تقع في الجنوب الغربي من مدينة «تبسة» في عمالة قسنطينة. ولد العربي عام 1895م في عائلة فلاحية فقيرة، وكان

---

(1) المصدر نفسه ص 161.

(2) المصدر نفسه ص 161.

(3) المصدر نفسه ص 163.

والده إلى جانب عمله في الزراعة يتولى تحفيظ أولاد القرية القرآن الكريم في كتّابه، وذلك بالطريقة التعليمية البدائية الشائعة في الوسط العربي. وقد تتلمذ العربي على والده الذي توفي تاركاً ابنه في السنة الثامنة من عمره، فاستمر العربي في حفظ القرآن حتى بلغ الثانية عشرة من عمره، وانتقل بعدها إلى زاوية خنقة سيدي ناجي الرحمانية في الجنوب الغربي لجبال النماشة، وهناك أمضى ثلاث سنوات حفظ خلالها القرآن الكريم.

**. في تونس:**

وبما أنه كان راغباً في متابعة تحصيله العلمي، فقد أوفده أهله إلى الزاوية التي سبق والده أن تلقى العلم فيها، وهي زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز في مدينة «نفطة» بجنوب غرب تونس، وكان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، وهناك شرع في دراسة العلوم الشرعية والعربية، وأكبّ على مكتبة الزاوية يطالع ما فيها من كتب. وكان كلما توسع في المعرفة ازداد رغبة في التحصيل. وبعد ثلاث سنوات من وجوده في «نفطة» التحق عام 1913م بجامع الزيتونة ليستكمل دراسته العالية.

الجدير بالذكر أن التعليم والإقامة والطعام في الزوايا هو مجاني يصرف من دخل الأملاك الموقوفة للزاوية ومن تبرع المحسنين، أما في جامع الزيتونة فقد كان فقراء الطلبة يجدون المأوى في الدور العديدة التي أوقفها المحسنون لسكن الطلبة الغرباء، وتسمى هذه الدور «مدارس» نظراً لمذاكرة الطلاب فيها، وقد أوى العربي إلى أحد غرف هذه «المدارس» بينما تكفل عمه بالإنفاق على طعامه ومصاريفه الأخرى المتقشفة.

نال العربي في تونس شهادة «الأهلية» واستعد لنيل شهادة «التحصيل»، ولكنه فضل الانتقال إلى القاهرة عام 1920م تدفعه رغبة جامحة في نفسه لتلقي العلم من منهله الأصيل في جامع الأزهر العريق.

**. في القاهرة:**

كان يعيش على ما يقتات به من أوقاف رواق المغاربة في الوقت الذي كان يتابع فيه دراسته العالية في الأزهر حتى وصل درجة العالية.

ويبدو أنه تأثر بالجو الفكري والسياسي الذي كان يسود مصر في العشرينات، حيث كانت ثمار النهضة تؤتي أكلها، وكانت الحركة الوطنية في عز انتفاضتها، فصمم على العودة إلى الجزائر لمشاركة رجال الإصلاح هناك جهادهم، وكان مطلعاً على نشاطاتهم، فغادر القاهرة بعد أن أمضى سبع سنوات ينهل فيها العلم من جامعها ومن مكتباتها الغنية[1].

**. نشاطه الإصلاحي:**

ابتدأ العربي نشاطه الإصلاحي فور عودته من مصر عام 1927م واتخذ مدينة «تبسة» التي أصبح ينسب إليها مركزاً له، وكانت هذه المدينة كالمدن الجزائرية الأخرى تئن من أمراضها الاجتماعية، فالبدع فيها منتشرة والناس يصدقون الخرافات، والجهل يضرب أطنابه، ولم يكن من اليسير على العربي محاربة هذه الافات، ولكنه بما عرف عنه من همة صلبة أبى إلا أن ينطلق في دعوته الإصلاحية، فاتخذ من مسجد صغير في قلب المدينة يدعى مسجد أبي سعيد مركزاً له، والتفت حوله حفنة من الرجال الواعين في المدينة أخذ عددها يزداد كل يوم مع ازدياد نشاط الشيخ حتى ضاق بهم المسجد الصغير، فانتقل بهم العربي إلى الجامع الكبير الذي تشرف عليه الإدارة الحكومية، ولكنه سرعان ما منع من تقديم الدروس فيه نتيجة لتدخل الطرقيين وأعوان الإدارة، فعاد إلى مسجد أبي سعيد يوالي فيه نشاطه على الرغم من ضيق المكان بتلاميذه، وبأنصار الإصلاح المتهافتين على دروسه[2].

وكان درس الشيخ للعامة بعد صلاة العشاء، فيسرع الناس من متاجرهم ومنازلهم ومن المقاهي لصلاة الجماعة وسماع الدرس فيمتلأئ بهم المسجد، وكانت دروس الشيخ في التفسير والحديث، يختار آية قرانية تناسب موضوعه، أو حديثاً نبوياً فيفسرها تفسيراً بارعاً يخلب ألباب السامعين.. ثم يتسرب إلى الأمراض

(1) المصدر نفسه ص 168.

(2) المصدر نفسه ص 169.

الاجتماعية فيشرحها ويبين أسبابها وعواقبها الوخيمة في الدنيا وفي الاخرة، وينقضّ في دروسه على بدع الطرقيين الضالين وإفسادها للعقيدة الإسلامية وسلبها لعقول الناس، فيُظهر بطلانها وفسادها ويُري للناس أولئك المدجلين على حقيقتهم.. ويشرح الشيخ في دروسه الموبقات التي يرتكبها المسلمون، ويغمسهم فيها الاستعمار، ويحدثهم على الواجبات كالصلاة والفروض الأخرى ويحدثهم عن الجهل والأنانية والعصبية، واحتقار اللغة العربية وعلومها، وهو ما يغرسه الاستعمار بكل وسائله في أبناء مدارسه على الخصوص. وبذلك كان العربي يثير العزة في نفوس مستمعيه فيتحسسون ثقل الاستعمار، ويعملون عن طريق إصلاح نفوسهم في إصلاح مجتمعهم. وكان العربي التبسي يعتبر أن إصلاح النفوس هو الشرط الأول للخلاص.

ولم يدع رجال الاستعمار وأعوانهم الشيخ العربي ينطلق في نشاطه على سجيته، فأخذوا يشددون عليه الخناق ويضيقون على أنصاره حتى أحاق به الخطر، فنصحه ابن باديس بالانتقال إلى مدينة «سيق» في عمالة وهران، فانتقل إليها وأمضى فيها عامين من أول عام 1930م حتى نهاية عام 1931م، تمكن من خلالها من نشر الدعوة الإصلاحية في كثير من مناطق الغرب الجزائري.

وفي أول عام 1932م عاد الشيخ العربي إلى تبسة بإلحاح من أنصاره فيها وكانوا قد جهزوا مدرسة عصرية أبوا إلا أن يتولى إدارتها بنفسه.

وساعد الشيخ العربي في تبسة على إنشاء جمعية تهذيب البنين وذلك في عام 1932م، وتمكنت هذه الجمعية من إقامة مدرسة كبيرة مجهزة تجهيزاً عصرياً، بلغ عدد تلاميذها عام 1934م خمسمائة تلميذ وتلميذة، كما أنشأت إلى جانب المدرسة مسجداً حراً لا يخضع لمراقبة الإدارة[1].

**. في قسنطينة:**

بعد افتتاح معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة عام 1947م تولى العربي التبسي إدارته، ولم يكن اختيارُه ليملأ الفراغ الذي تركته وفاة ابن باديس في قسنطينة بالأمر الهين، فقد كان عليه بالإضافة إلى مهامه

(1) المصدر نفسه ص 170.

في إدارة المعهد أن يقوم بإلقاء دروس التفسير في الجامع الأخضر، والاهتمام بحل مشاكل الناس، ولقد حاول ما استطاع وقاد الحركة الإصلاحية في عمالة قسنطينة بهمة ونشاط على الرغم من مشاغله في إدارة المعهد، وعرف أهل قسنطينة في الشيخ العربي رجلاً ثائراً على الاستعمار شديد الوطء على الإلحاد ومظاهره.

وكان الشيخ العربي قد سجن مع رجال الحركة الوطنية إثر مجزرة 8 ماي 1945م وأفرج عنه في نهاية ربيع 1946م، وزاده السجن تمسكاً بالدعوة الإصلاحية، وبقي الشيخ العربي في قسنطينة إلى ما بعد قيام الثورة الجزائرية أي إلى أن أغلق معهد بن باديس عام 1956م[1].

**. في العاصمة:**

بعد أن أغلقت السلطات الاستعمارية معهد ابن باديس انتقل إلى العاصمة لإدارة شؤون جمعية العلماء فيها بعد أن خرج أغلب رجالاتها إلى البلدان العربية، وقد رفض الإصغاء لنصائح زملائه بمغادرة الجزائر مؤقتاً خوفاً على حياته لأن رؤوس رجال الإصلاح أصبحت مطلباً استعمارياً، وأخذ بدلاً من ذلك يكثف نشاطه في العاصمة، فكان يشرف على شؤون الجمعية وعلى ما تبقى من مدارسها ونواديها ومساجدها، واستأنف أيضاً دروس التفسير للعامة في مسجد حي «بلكور» الذي كان يكتظ بالمستمعين، على الرغم من ظروف الحرب. وكانت دروس الشيخ قوية يمزجها بأسلوب حكيم بالدعوة إلى الجهاد وتأييد الثورة[2].

**. إستشهاده:**

قال الشيخ العربي في خطاب له أمام إدارة جمعية العلماء عام 1952م: إنه لا يمكن إرضاء الإسلام

(1) المصدر نفسه ص 171.

(2) المصدر نفسه ص 171.

والـوطن، وإرضـاء الـزوج والأبنـاء في وقـت واحـد، إنـه لا يمكـن لإنسـان أن يـؤدي واجبـه التـام إلا بالتضحية[1].

وبالفعل فقد اختار الشيخ العربي التضحية عندما اثر البقاء إلى جانب الشعب محاضراً خطيباً واعظاً حاضاً على الجهاد، وقد نقل عنه في هذه الظروف أحد جلسائه قوله: لو كنت في صحتي وشبابي مازدت يوماً واحداً في المدينة، أُسرع إلى الجبل فأحمل السلاح فأقاتل مع المجاهدين[2].

وعندما لاحظت الحكومة الفرنسية مدى الهيمنة المعنوية التي يتمتع بها الشيخ العربي في صفوف المواطنين، حاولت التأثير عليه بطرق شتى لتفصله وجماعته عن حركة الثورة التي كانت تقودها جبهة التحرير الوطني، فأرسلت إليه تباعاً مندوبين عنها محاولين دفعه إلى التفاوض السياسي لإنهاء الحرب، فكان رده عليهم حازماً: إذا أرادت فرنسا إيقاف الحرب فلتفاوض جبهة التحرير الوطني، أما العربي التبسي وغيره فليس لهم أن يتكلموا باسم الشعب وثورته، ولا يستطيعون إيقاف ثورة الأمة كلها. وكان موقفه الوطني هذا دافعاً لخطفه من منزله بتاريخ 17 أفريل 1957م على يد «الجيش السري» الذي شكله غلاة الكولون، وبذلك اختفى الشيخ العربي واعتبر من الشهداء[3].

### د . الشيخ مبارك الميلي:

هو مبارك بن محمد الميلي نسبة إلى مدينة الميلة التي نشأ في إحدى قرى دائرتها وبالتحديد في دوار أولاد مبارك من عمالة قسنطينة.

ولد في عام 1898م ونشأ يتيماً بعد وفاة والديه وهو في سن الرابعة من عمره، أدخله جده الكتّاب لتلقي مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وبعد تمضية أيام عصيبة في قريته، التحق بمعهد الشيخ محمد الميلي في مدينة ميلة وكان له من العمر خمسة عشر عاماً، وهناك تلقى طيلة ست سنوات العلوم العربية والشرعية قبل انتقاله إلى حلقات الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، حيث لم يطل به المقام أكثر من

(1) جريدة البصائر عدد 204 تاريخ 20 أكتوبر 1952م.

(2) أعلام الإصلاح (2 / 69) ، محمد علي دبوز.

(3) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 172.

سبعة أشهر، انتقل بعدها إلى تونس لاستكمال دراسته العالية، فحصل على شهادة التحصيل ثم عاد إلى الجزائر عام 1922م، فحلّ في قسنطينة مساعداً لابن باديس في عمله التربوي، وقد أعجب به ابن باديس فأوفده مربياً ومعلماً وداعياً للإصلاح إلى مدينة الأغواط فبدأ فيها نشاطه عام 1923م.

**. نشاطه وآثاره:**

أمضى مبارك الميلي ثمان سنوات معلماً ومبشراً بالإصلاح الديني والتربوي في منطقة الأغواط، تعرض فيها لمحاولة اغتيال فاشلة من قبل الطرقيين، في نفس الوقت الذي تعرض فيه ابن باديس لمحاولة الاغتيال، وتعرض الميلي أيضاً لضغوطات الإدارة الفرنسية وتهديداتها، مما أرغمه على الانتقال إلى «ميلة» ليتابع منها نشاطه الإصلاحي.

انتخب عام 1931م عضواً في المجلس الإداري لجمعية العلماء واستمر في هذه العضوية حتى وفاته، أهم ما اشتهر به الميلي هو كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» الذي يعتبر أول محاولة وطنية لكتابة تاريخ الجزائر في العصر الحديث، وذلك بعد انفراد المؤرخين الفرنسيين بكتابة تاريخ هذا القطر العربي. وقد انجز الميلي جزأين من هذا الكتاب طبعهما في حياته، وعندما شرع في تأليف الجزء الثالث أدركته المنية.

وإلى جانب «تاريخ الجزائر» ظهر للميلي كتاب يهتم بمحاربة الخرافات والبدع وهو كتاب «الشرك ومظاهره».

ويذكر أحمد توفيق المدني أن الباحثين الغربيين يعتبرون تاريخ الميلي وكتاب الجزائر للمدني وجمعية العلماء، قد ظهروا معاً في عام 1931م ولادة: الملية الإسلامية الوطنية بالقطر الجزائري[1].

ولم يعمّر الميلي طويلاً فتوفي بتاريخ 9 فيفري «شباط» 1945م عن عمر يناهز الثامنة والأربعين[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 164.

(2) المصدر نفسه ص 165.

هؤلاء العلماء الذين أشرنا إلى أبرزهم فقط ؛ كانوا ساعداً قوياً للشيخ ابن باديس، وعضداً له في كل الملمات، وسنداً قوياً له في جميع المواقف السياسية الحرجة التي وقفها دفاعاً عن عروبة الجزائر وإسلامها وقوميتها، وفيما قام به من أعمال جليلة في ميدان التربية والتعليم والإصلاح الديني والاجتماعي يشرح لنا ابن باديس تأثير هذا العامل في شخصيته على النحو التالي:.. ثم لإخواني العلماء الأفاضل الذين ازروني في العمل من فجر النهضة إلى الان، فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار، أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الإسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء، وافرة الحظ من العلم، مؤتلفة القصد والاتجاه، مخلصة النية متينة العزائم، متحابة في الحق، مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية، وقد ألف بينها العلم والعمل . مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار، فهؤلاء هم الذين وري بهم زنادي، وتأثل بطاردهم تلادي، أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم[1].

## 5 . الشعب الجزائري:

فالعامل الخامس في تكوين شخصيته يعود إلى الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من خصال الكرم والنجدة والشهامة، وأصول الكمال الإنساني، والاستعداد الكامل للبذل والعطاء والتضحية بكل غالٍ ونفيس من أجل المصلحة العامة، وقد عمل ابن باديس ما وسعه الجهد طيلة حياته على رعاية وتنمية هذه الخصال النبيلة في أبناء الجزائر ومحاولة تغليبها على عوامل السلبية والأنانية والفردية واللامبالاة حتى تستطيع الجزائر أن تتغلب على واقعها الفاسد الذي وصلت إليه بعد قرن من الاحتلال الغاشم للوطن.

ويصف ابن باديس الأمة الجزائرية بأنها:أمة معونة على الخير، منطوية على استعدادات، وأنها ذات نسب عريق في المحامد والفضائل[2].

---

(1) ابن باديس «الشهاب» (ج 4 / 288 . 291).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 36.

ويعتبر الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء إذا واتتها الظروف[1].

ويعلل في مقال مشهور له كتبه في الشهاب تحت عنوان «لمن أعيش؟».

لماذا يتوجه بخدماته أول ما يتوجه بها إلى الجزائر؟ لأنها وطنه الخاص الذي تربطه به روابط عديدة، تفرض عليه أن يقوم بواجبه نحوه، وأن كل مقوماته الشخصية مستمدة منه مباشرة، ثم أنه كلما أراد أن يعمل عملاً إلا ووجد نفسه في حاجة إلى رجال وطنه وإلى أموالهم ومؤازرتهم إلى اخره، لذلك يخص وطنه بأعظم حبه وبأكبر خدماته يقول: أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض عليّ تلك الروابط لأجله ـ كجزء منه ـ فروضاً خاصة، وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة، وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملاً وجدتني في حاجة إليه ـ إلى رجاله وإلى ماله وإلى حاله وإلى الامه وامااله، كذلك أجدني إذا عملت قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه[2]. وهكذا كان هذا العامل ذا أثر كبير في تكوين شخصية ابن باديس ونفسيته واتجاهه العام الذي التزم به طول حياته.

ويلاحظ أن الشيخ عبد الحميد بن باديس عندما يتكلم عن الشعب الجزائري أو الوطن الجزائري يكون كلامه مشوباً بمسحة من الإجلال والإحترام الكبيرين، ويرى أن خدماته وتضحياته في هذا الميدان مهما كانت ضخمة تعتبر ضئيلة متواضعة، ولذلك أذاب نفسه في عمل متواصل بالليل والنهار من أجل بعث النهضة في الشعب الجزائري وإيقاظه من نومه العميق كي يلاحق الأمم المتطورة ويسابق الشعوب الناهضة[3].

يقول ابن باديس مصوراً هذا العامل في شخصيته من الناحية العملية:.. ثم لهذه الأمة الكريمة المعوانة على

---

(1) المصدر نفسه ص 36.

(2) ابن باديس: الشهاب (ج10، م12 / 424 ـ 428).

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 36.

الخير المنطوية على أصول الكمال ذات النسب العريق في الفضائل، والحسب الطويل العريض في المحامد، هذه الأمة التي ما عملتُ يوماً ـ علم الله ـ لإرضائها لذاتها، وإنما عملتُ ومازال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها ولكن الله سددها في الفهم، وأرشدها إلى صواب الرأي فتبينت قصدي على وجهه، وأعمالي على حقيقتها، فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلذات أكبادها، فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العملي أضعاف ما كان لتلك العناصر في تكويني العلمي[1].

### 6 ـ تأثره بالقرآن الكريم:

والعامل السادس والأخير من عوامل تكوين شخصية ابن باديس هو «القران الكريم»، وهذا العامل يفوق غيره من العوامل السابقة، وقد وهب له الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزء الأكبر من حياته الخصبة، يتعلمه ويتدبره ثم يفسره للناس في الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة من أجل هدايتهم به، حتى أتمه تفسيراً ودراسة في خمسة وعشرين عاماً.

والمعروف أنه لم يختم القرآن تفسيراً في الجزائر أحد غيره ؛ منذ ختمه «أبو عبد الله التلمساني» في المائة الثامنة للهجرة، وذلك رغم مشاغله الكثيرة التربوية والصحافية والإجتماعية.

وكان ينشر البعض من تلك الدروس كافتتاحيات «الشهاب» تحت عنوان «مجالس التذكير» بعد صدورها ابتداء من عام 1925م ؛ غير أنه لم يتمكن ـ مع الأسف الشديد ـ من تسجيله كله كتابة لكثرة مشاغله، ولم يقيض الله له من يقوم بتسجيله نيابة عنه أثناء الدرس وينشره على الناس، كما فعل الشيخ محمد رشيد رضا بدروس الإمام محمد عبده في التفسير، حيث سجلها ونشرها في مجلة المنار، ثم بعد ذلك جمعها في كتاب خاص تحت عنوان «تفسير المنار»، بعد أن أضاف إليها دروساً أخرى من عنده مكملة لها على طريقة الإمام محمد عبده في التفسير، وقد ضاع على الجزائر والمسلمين كنز لا يقدر بمال بسبب عدم تسجيل تفسير

(1) الشهاب عدد خاص (ج 4 ـ 5، م 14 ص 288 ـ 231).

ابن باديس كله[1].

كان ابن باديس يؤمن بأن نهضة الجزائر الحقيقية وتقدمها وتطورها المنشودين ؛ لا يمكن أن يقوما إلا على أساس الرجوع إلى تعاليم القرآن وهدايته، أي إلا على أساس إحداث نهضة إسلامية شاملة تبعث روح العزة والكرامة في المواطنين، وتجعلهم يستعذبون الموت في سبيل الحياة، وقد صور لنا ابن باديس تأثير القرآن الكريم في نفسه وتكوين شخصيته كالاتي: ثم الفضل أولاً وأخيراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب لأدبه وإن القرآن الذي كوّن رجال السلف ؛ لا يكثر عليه أن يكوّن رجالاً في الخلف، لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه، ثم يقول: إذا لم يكن في حياتي العلمية من لافت للقران إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي للدرجة التي تحمدونها اليوم، فإننا ـ والحمد لله ـ نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرانيين تعلق هذه الأمة امالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها[2].

## ثالثاً: أهم صفات وأخلاق ابن باديس:

اتصف ابن باديس في سيرته العطرة بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق والإخلاص والدعوة إلى الله على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام والدقة، والزهد، والورع والاستقامة.. الخ ونحاول في هذا المبحث أن نركز على بعض الصفات التي تميزت بها شخصيته الإصلاحية العظيمة:

### 1 ـ حيوية عالية:

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس ضعيف الجسم نحيله ، ليس من أصحاب الطول الفارع ولا القصير

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 40.

(2) ابن باديس «الشهاب» عدد خاص (ج 4 ـ 5 م 14 ص 291).

المشين، ولو أنه إلى القصر أقرب، شبّه الدكتور مازن حامد مطبقاني بصورة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، الذي عرف عنه صغر حجمه ودقة ساقيه، حتى إذا استهزأ أو ضحك بعضهم من دقة ساقيه قال الرسول (ص): ما تضحكون لرجل عند الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد[1].

كان ابن باديس مجموعة من الإرادات العقلية والنفسية والروحية والقوة والعظمة والعمل. وما ذلك إلا لتفوق حيويته الروحية على حيويته المادية، فجانب الحيوية الروحية في ابن باديس متوفر وغزير. وقد ظهرت هذه الحيوية في حياته ومواقفه فهو:

- حيٌّ في إيمانه بربه وبمبادئه السامية.

- حي في خلقه العالي الملازم لشخصه ملازمة الشمس لنورها.

- حي في علمه الصحيح المبني على البحث الدقيق المؤسس على الطهارة النفسية واليقين القلبي.

- حي في قلبه المطمئن الثابت الذي لا تهزه العواصف ولا تنال منه الخطوب.

- حي في دينه الذي يخلص له ويعتز به أينما حل وحيثما ارتحل.

- حي في لسانه الفصيح الذي أوقفه على بناء الحق وهدم الباطل، وتأييد الهدى ومحو الظلام.

- حي في قلمه البليغ الذي التزم أن لا يخطّ إلا ما يمليه الضمير النزيه وتقتضيه مصلحة «الدين، واللغة، والوطن».

- حي في عمله المتزن المثمر الذي لم يعرقل تدفقه أي سدّ ولم تقف في وجهه أي محاولة.

(1) حديث صحيح أخرجه أحمد ، انظر المسند (1 / 114). عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي مازن صلاح مطبقاني ص 36.

فأي شيء يمنع الشمس أن تطلع أو يصدّ النور أن يسطع؟ ولنقتصر على إيراد مثالين اثنين يتجلى لنا فيهما طغيان هذا الجانب الحيوي الروحي على هذا «الرجل العظيم».

المثال الأول: هجره للسعادة الزوجية التي هي أجمل حلم للإنسان، وعدم احتفاله بالعاطفة الأبوية المحدودة التي هي من أعرف الغرائز في شخص الكائن الحي.

فقد رُزأئ في ولده الوحيد ولم يتخلف عن درسه يوم وفاته، ولما عُوتب في ذلك أجاب: أي مبرر لي أمام الله والواجب إذا ما تخلفت عن الدروس وأضعت على الطلبة وقتاً من أوقاتهم الثمينة[1]؟

وما هذا إلا ظاهرة لمبلغ ما يكمن في طبعه من الانقياد إلى غرضه السامي، والاستجابة لصوت الجانب الروحي المكين من جهة، ودرسٌ عملي في التضحية بالمصلحة الخاصة في سبيل المصلحة العامة من جهة ثانية، واية صادقة على أن «عبد الحميد» ما خلق ليكون أباً لفرد من الأسرة الباديسية، وإنما خلق ليكون أباً لأبناء الجزائر أجمعين من جهة أخرى.

والمثال الثاني: هو أنه لما بلغه أن تلميذه الأستاذ الميلي ألف كتاباً في التاريخ سماه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» بعث إليه برسالة تمنّى لو يغير المؤلف عنوان الكتاب فيسميه بدل التسمية الأولى «حياة الجزائر» فلتستمع إليه إذ يقول: أخي مبارك سلام ورحمة، حياك الله بتحية من علم وعمل وعلم: وقفت على الجزء الأول من كتابك «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» فقلت لو سميته «حياة الجزائر» لكان بذلك خليقاً إلى أن يقول: إذا كان من أحيا نفساً واحدة كأنما أحيا الناس جميعاً ؛ فكيف من أحيا أمة كاملة وأحيا ماضيها وحاضرها وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها[2].

---

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 128.

(2) مقدمة تاريخ الجزائر (1 / 10).

فهكذا نرى ابن باديس ينشد الحياة في كل شيء حتى في أسماء الكتب[1].

كان ابن باديس أبيض البشرة جميل الطلعة، تحفه هيبة الإيمان يدركها من عرفه ومن لم يعرفه. يحكي أحد تلاميذ الشيخ أنه كان يسير في أحد شوارع قسنطينة فلقيه أحد كبار الموظفين الفرنسيين ورئيس تحرير جريدة «لاديباش كونستنتين» فارتبك واضطرب، وحتى يزيل اضطرابه أسرع فتقدم من ابن باديس قائلاً: أنت رجل عظيم، أعرفك بنفسي أنا لوسياني.

وهناك قول للشيخ الإبراهيمي يؤكد هذه الهيبة، فقد كان ابن باديس يذهب إلى وهران لزيارة الإبراهيمي في مدينته وبين تلاميذه، والإبراهيمي يرى انقياد الناس لابن باديس، فلا يتمالك نفسه حتى يقول «ما أقوى نفوذ هذا الرجل». ويضيف تلميذه الذي عاش في غرفة ملاصقة لغرفة ابن باديس خمس سنوات وهو الشيخ محمد الصالح رمضان: إن للشيخ عبد الحميد بن باديس قوة روحية خارقة سببها الجانب الروحي في حياته[2].

### 2. ثباته على المبدأ:

يقول أحمد توفيق المدني:.. جاءنا عبد الحميد يوماً إلى النادي، وكنا جماعة ننتظر رجوعه من الولاية العامة، فقال: اليوم أدركت السر في أن محمداً (ص) نشأ وعاش يتيماً. فلقد وقفت اليوم أمام والدي محمد المصطفى بن باديس، وهو يجلس إلى جانب ميرانت مدير الأمور الأهلية، موقفاً أرجو أن يحتسبه الله لي يوم القيامة. فلقد ابتدرني ميرانت بحديث حلو العبارة مرّ المذاق، وقال لي: يا شيخ، اتركْ عنك هذا العار، اخرجْ من هذه الحشومة، ودع هذه الجماعة المسكينة التي جمعها عدو فرنسا بالنادي فليس هؤلاء الرجال رجالك، وليست هذه الحثالة من الطلبة ممن يفتخر العالم بالانتساب لهم، أو أن يكون رئيساً عليهم، قال: واستمر على هذا المنوال ودمي يفور، وشعوري الجريح يتأجج كأنه نار، وحاولت أن أرد الصاع صاعين، وإذا بوالدي وهو

---

(1) عبد الحميد بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 129.

(2) عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي ص 37.

كل شيء عندي بالنسبة للحياة الدنيا، يقف أمامي ويبكي ويقول: يا عبد الحميد يا ولدي، ربيتك صغيراً وعلمتك يافعاً وفتحت أمامك أبواب الحياة الهنيئة حتى غدوت عالماً تشد إليك الرحال، فلا تفضحني اليوم يا عبد الحميد في شيبتي، لا تشمت بي الأعداء، لا تتركني للمذلة والهوان، هذا حبيبنا مسيو ميرانت لا يريد لنا إلا الخير، وقد مهد لي سبل الوصول إلى المركز الذي أنا فيه، وإن الإعراض عنه هو إعراض عني أنا، والإساءة إليه هي إساءة لي، ورفضُ طلبه رفضٌ لطلبي، وقد أمر الله بطاعة الوالدين، فأنا امرك بالتخلي عن هذه الرئاسة وعن هذه الجمعية، قال: ثم انحنى أمامي وأنا أذوب، وأكبّ على رجلي يقبلها ويبكي، ويقول: لا تفضحني يا عبد الحميد.

قال: فانتصبت واقفاً، وأنا أرتعد تأثراً لا رفقاً، وتوجهت لوالدي وقلت: حاشا أن أعصي لك أمراً أو أن أخالف لك رأياً، وأنا ابنك المطيع إلا أن هذا الذي تدعوني إليه ليس في استطاعتي إطلاقاً، لأنني إن أطعتك فيه خالفت أمر الله، وأمر الله فوق أمر الوالد بنص القران، ولقد وقف محمد عليه الصلاة والسلام مثل هذا الموقف أمام أكابر قومه ووجوه عشيرته، فراودوه على أن يترك الدعوة لله وله ما يشاء مقابل ذلك من مال ومتاع، فأجابهم الجواب القاطع الصارم: والله لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته إلى أن ينصره الله أو أقضي دونه. هذه هي كلمتي الأخيرة يا والدي، ويا مسيو ميرانت، وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء، وخرجت لا ألوي على شيء.

قال له علاّمتنا العظيم البشير الإبراهيمي على الفور: طوبى لك يا عبد الحميد وحسن ماب، وقمنا إليه فهنأناه وذرفنا الدموع جميعاً، فلقد اعتبرنا انتصارنا في تلك المعركة مقدمة لانتصارات باهرة في معارك أخرى آتية[1].

### 3 . شجاعته وصرامته في الحق:

ومن صفاته البارزة رباطة الجأش والشجاعة، وليس أدل على الشجاعة من وقوفه في وجه الاستعمار منذ بدأ التدريس في الجامع الأخضر، وليست الشجاعة فيما يظن البعض النقد العنيف للمحتل أو إلقاء الخطب

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 156.

الرنانة، بل كانت شجاعته من النوع المثمر، حيث العمل الدؤوب المتواصل لنشر العقيدة الإسلامية الصحيحة، وظهرت شجاعته في مواقفه من أتباع الطرق الصوفية وانحرافاتهم العقدية والفكرية، مع علمه بأن السلطات الفرنسية كانت تقف خلفهم تؤيدهم بالمال والمناصب.

وأما القصص والأحداث التي ظهرت فيها رباطة جأشه وشجاعته ؛ فمنها أن الشيخ عبد الحميد كان يركب سيارة عامة، وراه طبيب فرنسي يعرفه فأحب أن يركب الشيخ معه في سيارته الخاصة، وفي الطريق اصطدمت سيارة الطبيب الفرنسي بسيارة أخرى، فأصيب الطبيب بالرعب وصرخ صرخة ظن منها الشيخ أن روح الطبيب قد خرجت، ولم يبدُ على وجه ابن باديس أي تأثر، وعلل الشيخ ذلك بفراغ قلبه ـ الفرنسي ـ من الإيمان لأن الإيمان يحفظ على المؤمن ثباته واطمئنانه عندما تحل به الملمات.

وإذا ذكرنا شجاعته فلابد من ذكر موقفه حين كان في وفد المؤتمر الإسلامي الذي قابل رئيس الوزراء دلادييه، فتحدث المسؤول الفرنسي إلى الوفد مهدداً بقوة فرنسا[1]، واشتد النقاش مرة بين رجال الوفد وبين رئيس الحكومة إلى درجة أنه احتد وجابه الوفد بقوله: لا تنسوا أيها السادة أن فرنسا معها المدافع، فوجم القوم إلا ابن باديس الذي ما كاد يسمع ذلك القول بواسطة الترجمان حتى جابه رئيس الحكومة أن الجزائر معها الله، وانتقل الوجوم من الوفد إلى الرئيس.

وبالفعل كان فرنسا معها المدافع، والجزائر معها الله، واستمر اغترار فرنسا بالمدافع واستمر اعتزاز الجزائر بعون الله، وتغيرت الأحوال وتقلبت السياسة إلى أن نفخ الجزائريون الأبطال في صُور الثورة العارمة، يوم فاتح نوفمبر المجيد اقتحموا الميادين باسم الله وقابلتهم فرنسا الاستعمارية بالمدافع فما أغنى ذلك شيئاً، ونصر الله، بفضل الشهداء والتضحية، الذين قاموا باسمه {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *} [محمد : 7].

(1) عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي ص 40.

كان آخر موقف علني وقفه ابن باديس العظيم، والأزمة العالمية خانقة تهدد العالم بشر وبيل، هو ردّه ضمن مجلس جمعية العلماء على من قال: يجب علينا أن نوجه برقية تأييد لحكومة فرنسا، إننا بذلك نأمل غائلة أعمالها ضدنا إذا ما اشتعلت نار الحرب، ونضمن كذلك مراعاتها لحقوقنا إذا ما خرجت من الحرب منتصرة، أجابه ابن باديس على الفور . وأيده كل الأعضاء . قائلاً: كلا لن نرسل لحكومة فرنسا أي تأييد، إنها حطمتنا وأذلتنا ساعة رخائها، فلا يجب أن نمد لها يداً أي يد، ساعة عسرها، طالبنا مراراً وتكراراً، فكانت تصم اذانها وتتجنى، ونحن اليوم نصمّ اذاننا عنها ونتجنّى. وانسحب صاحب الاقتراح من الجمعية[1].

كان ابن باديس كثيراً ما يردد هذا البيت:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وكذلك عندما يتحدث إلى تلاميذه حديثاً فأحيانا يستخدم فيه اللحن والإشارة:

ولقد لحنت لكم كيما تفهموا واللحن تفهمه ذوو الألباب[2]

### 4 . الحلم والتسامح:

وهو من أبرز صفات الأنبياء والرسل، وقد أوذي رسول الله (ص)، فكان يقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[3].

كذلك سار علماء السلف والخلف على هذا الهدي في الحلم والتسامح، فكانوا خير من حمل إلينا هذه الأخلاق العالية والصفات السامية، عن عطاء بن يسار قال: ما أوتي شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم[4].

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 159.

(2) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاتي ص 41.

(3) رواه مسلم، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 126.

(4) المصدر نفسه ص 126.

وللإمام ابن باديس رحمه الله سجل حافل، وتاريخ زاخر بهذه المعاني الإسلامية السامية، فقد توفرت في شخص الإمام صفات العالم الذي يخاطب عقول المسلمين وقلوبهم، صائغاً إليهم هذا الدين في أحسن صورة لذلك كان موضع سخط السلطات الاستعمارية وأعوانها.

يُروى أن إحدى الجماعات الصوفية المنحرفة التي ضاقت ذرعاً بمواقف ابن باديس، أوعزت . بتنسيق مع سلطات الاحتلال . إلى نفر من أتباعها باغتيال الشيخ عبد الحميد ظناً منها أن في إغتياله قضاء على دعوته، غير أن الغادر الذي هم بهذه الجريمة لم يفلح في تنفيذها ووقع في قبضة أعوان الشيخ، وكانوا قادرين على الفتك به إلا أن أخلاق الإمام العالية جعلته يعفّ ويعفو ويحلم ويسامح، وينهي أصحابه عن الفتك به متمثلاً قول النبي (ص): رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[1].

### 5 . التواضع:

من صفاته . رحمه الله . تواضعه، فقد كان أليفاً مألوفاً، وقد برزت صفة التواضع في حياته العلمية فيقول أحد زملائه: إنه كان في زيارة لوهران، وعرضت قضية من القضايا فقال فيها بغير القول المشهور، ولما عاد إلى قسنطينة واستشار مَراجعه ؛ تبين له أنه لم يكن على صواب، فكتب في الشهاب: إنني كنت مع فلان وفلان وتكلمنا في قضية ما، والحق ما قاله فلان وهو القول المشهور، ويقول الشيخ حمزة بو كوشة . راوي هذه القصة . سألته لماذا كتبت في الجريدة وقد كان يكفيك لو بعثت رسالة إلى الشخص الذي اختلفت معه؟ فقال رحمه الله: أردت أن يكون لكم درساً في الرجوع إلى الحق. وأضاف: تركت لكم مثلاً أنه إذا كان الإنسان عالماً يجب عليه أن يعيش للعلم[2].

ومثال آخر على تواضعه أن أحد معاصريه قال: لم أستطع طوال عمري أن أسبقه بالسلام[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 126.

(2) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 38.

(3) المصدر نفسه ص 38.

وابن باديس في هذه الوقفات الصادقة وهذا الوضوح في المنهج ؛ ينطلق من قناعته العميقة بأهمية القدوة الحسنة في حياة الدعاة وهو ما يجعل الناس يشعرون بصدق الداعي، ومن ثمة يتقبلون دعوة الله ويكونون من جنودها وأنصارها[1].

### 6 . الزهد:

كان ابن باديس عفيفاً زاهداً في الدنيا، تجلى هذا في مواقف كثيرة منها أنه كان يعمل رئيساً لجمعية التربية والتعليم في قسنطينة، ولكنه لم يكن يتقاضى أي مبلغ من صندوق الطلبة على عمله، بل كان يكتفي بما يحصل عليه من اشتراكات الجريدة[2].

أما زهده فقد تمثل في انتقاله من بيت والده إلى غرفة بجوار مسجد قموش، وكان طعامه قليلاً لا يزيد على الكسرة واللبن وفنجان أو فنجانين من القهوة يومياً، حيث لم يكن يكثر من شرب الشاي أو القهوة. وكان رحمه الله أذا دعي إلى طعام اشترط الاقتصار على صنف واحد من الطعام، وكان يسأل عن الكسكسي «الطعام أو النعمة» فإن وجد لم يأكل غيره. وجميل ما وصفه به باحث فرنسي بأنه: كان لديه فقر مبتغى مستلهم من القرآن الكريم الذي يحذّر الذين يكنزون الأموال[3].

ويُروى أنه خرج من مقصورته بجامع سيدي قموش بقسنطينة ذات يوم، فطلب من أحد أصدقائه أن يبحث له عمن يشتري له نصف لتر من اللبن، وأعطاه انية فراها ذلك الصديق فرصة لإكرام الشيخ، فيذهب بنفسه إلى الشوّاء واشترى له صحناً من اللحم الممتاز، وعاد إلى الشيخ وهو يكاد يطير من شدة الفرح، ولما قدمها إليه استشاط غضباً وقال له في لهجة شديدة صارمة: ألا تعلم أنني ابن مصطفى بن باديس. وأن أنواعاً مختلفة من الطعام اللذيذ تُعدّ كل يوم في بيته، لو أردت التمتع بالطعام ولكن ضميري لا يسمح بذلك وطلبتي

(1) عبد الحميد بن باديس ، مصطفى حميداتو ص 129.

(2) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 39.

(3) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 39، 40.

يسبغون الخبز بالزيت وقد يأكله بعضهم بالماء[1].

ويمكن أن نستنتج من هذا الموقف:

. أن الشيخ ابن باديس كان عالماً ربانياً، وعازفاً عن الدنيا وملذاتها متواضعاً لله تواضع العلماء العارفين.

. أن المهمة التي انتصب إليها وهي تربية الجيل وتعليمه قد غلبت على نفسه وهيمنت على قلبه، فتفرغ لها تفرغاً زهّده في الملذات التي يطلبها الناس، والمتع التي يفرط في السعي وراءها الكبار والصغار[2].

### 7 . الجدية وحسن استغلال الوقت:

تميز ابن باديس بالجدية وحسن استغلاله للوقت، فهو منظم في عمله، دقيق في توزيع وقته على المهام العديدة التي يقوم بها، فقد كان مدركاً لقيمة الوقت، وضرورة استغلاله والاستفادة من لحظاته وتظهر نظرته هذه واضحة في سياق تفسيره لقوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *} [الإسراء : 78].

فيقول: في ربط الصلاة بالأوقات، تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات ونجعل لكل عمل وقته وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته، وتطّرد أعماله، ويسهل عليه القيام بالكثير منها، أما إذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقت فإنه لابد أن يضطرب عليه أمره ويشوش باله ولايأتي إلابالعمل القليل، ويحرم لذة العمل، وإذا حُرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر، فقلّ سعيه وما كان يأتي به من عمل على قلته وتشوّشه بعيد عن أي إتقان[3].

وليس عجيباً أن يهتم مصلح مثل ابن باديس بالوقت هذا الاهتمام الكبير ؛ وهو الذي يقول عند تعليقه

(1) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى حميداتو ص 125.

(2) المصدر نفسه ص 126.

(3) مجالس التذكير «التفسير» ص 76.

على حديث رسول الله (ص): نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ[1].

عمر الإنسان أنفس كنز يملكه، ولحظاته محسوبة عليه، وكل لحظة تمر معمورة بعمل مفيد، فقد أخذ حظه منها وربحها، وكل لحظة تمر فارغة فقد غبن حظه منها وخسرها، فالرشيد هو من أحسن استعمال ذلك الكنز الثمين، فعمّر وقته بالأعمال، والسفيه من أساء التصرف فيه فأخلى وقته من العمل[2].

بهذه النظرة الصائبة للوقت، نجح ابن باديس في استغلاله أحسن استغلال، فكان يلقي من الدروس في اليوم الواحد ما يعجز عنه غيره، يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر ويظل طيلة نهاره يُعلّم طلبته الدين وعلوم العربية ولا يقطع دروسه إلا لصلاة الظهر ولتناول الغداء، ثم يستمر إلى ما بعد صلاة العشاء. وكان رحمه الله مع أخذه بكل ما يستطيع من الأسباب في تأدية رسالته، يلتجأئ إلى الله بثقة لا توهب إلا لأولي العزم من الرجال، ففي إحدى ساعات الشدة والعُسرة قال لأحد طلبته: يا بُنيّ إن جميع الأبواب يمكن أن تُغلق أمامنا ولكن باباً واحداً لن يُغلق أبداً وهو باب السماء[3].

فمن أهم صفات ابن باديس رحمه الله أنه يهتم بوقته، وقد علّمنا الإسلام المحافظة على الوقت حين جعلَ يوم المسلم منظماً، فالصلاة لها أوقات محدودة يجب أن تؤدى في وقتها عملاً بقوله تعالى: {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا *} [النساء : 103].

وإن المسلم يُسأل يوم القيامة عن عمره وعن شبابه كما حدّث بذلك الصادق المصدوق في قوله: لا تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن ثلاث.. وكان أحدها عن عمره فيما أفناه.

لقد تميز ابن باديس في حياته كلها بإحترام الوقت والنظام، فكان رحمه الله رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته، فكان برنامجه اليومي مما يصعب على الكثير أن يقوم به، وسيأتي تفصيله بإذن الله تعالى وبالإضافة إلى

(1) رواه البخاري عن ابن عباس ، انظر فتح الباري (11 / 229).

(2) مجالس التذكير (2 / 138).

(3) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 130.

اشتغاله بالتعليم فقد ساهم مساهمة كبيرة في إنشاء المدارس والمؤسسات الخيرية وجمعيات التجار وجمعيات الكشافة والجمعيات الرياضية والفنية وكثير غيرها مما سيرد ذكره في حينه إن شاء الله.

### 8 . التطوير والتجديد:

كان ابن باديس يتصف بنزعة تجديدية ويهتم بتطوير أساليبه الدعوية وحرص على إصلاح التعليم ومناهجه، وكان يرى: أن جامع الزيتونة كلية دينية فلا يكون إصلاح التعليم فيه إلا على مراعاة هذا الوصف الذي هو أساسه وغايته، والرجال الذين يتخرجون من هذا الجامع يقومون بخطط كلها دينية وهم أصناف ثلاثة: رجال القضاء والفتوى، ورجال الإمامة والخطابة، ورجال التعليم، ولكل خطة من هذه الخطط وسائل خاصة لتحصيل الكفاءة فيها والاضطلاع بها، وإن من المعلوم أن ما يحتاج إليه القاضي والمفتي من سعة الاطلاع على الأحكام وتمام الخبرة بتطبيقها على النوازل ؛ غير ما يحتاج إليه الإمام الخطيب من المقدرة على إنشاء الخطب وحسن المعالجة بها لأمراض وقتها وقوة التأثير بها على سامعيها المعالَجين بها ؛ وغير ما يحتاج إليه المعلم من معرفة أساليب التفهيم وفهم نفسية المتعلمين وحسن التنزل لهم والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد بهم، حسب درجتهم واستعدادهم، فلهذا نرى أن أول عمل في الإصلاح هو تقسيم التعليم في الجامع إلى قسمين: قسم المشاركة وقسم التخصص.

. فأما في قسم المشاركة فيتساوى فيه المتعلمون في المعلومات على طبقاتهم، ويحصل الفائزون في الامتحان بعد تمام مدة التعليم التي لا تقل عن ثماني سنوات على شهادة عالم مشارك، بدلاً من لفظة «متطوع»، فإنه لفظ مات معناه وذهبت قيمته بذهاب الوقت الذي وضع فيه والمناسبة التي اقتضته.

. وأما قسم التخصص فيفرع إلى ثلاثة فروع:

فرع للتخصص في القضاء والإفتاء.

وفرع للتخصص في الخطابة.

وفرع للتخصص في التعليم.

وبعد تمام المدة التي لا تقل عن أربع سنوات في فرع القضاء والإفتاء، وعن سنتين في فرعي الخطابة والتعليم ينال الفائزون في الامتحان شهادة التخصص بالعالمية فيما فازوا فيه.

ثم إن المعلمين في قسم الاشتراك يكونون من الحائزين على شهادة التخصص في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع التخصص للتعليم، وأما المعلمون في فرع القضاء والفتوى فلابد أن يكونوا ممن تخصصوا فيهما وتخصصوا في التعليم وكذلك المعلمون في فرع الخطابة[1].

ثم قال ابن باديس: هذا رأينا في مسألة التقسيم.

**وأما مسألة الفنون وكيفية تعليمها،** فنرى أن يشتمل منهاج التعليم المشترك:

ـ على اللغة والنحو والصرف والبيان بتطبيق قواعد هذه الفنون على الكلام الفصيح ـ لتحصيل الملكة ـ وأما قراءتها بلا تطبيق ـ كما الجاري به العمل اليوم ـ فهو تضييع وتعطيل وقلة تحصيل.

ـ وعلى تاريخ الأدب العربي وعلى تعلم الإنشاء وعلى تعلم حسن الأداء في القراءة وإلقاء الكلام.

ـ وعلى العقائد، ويجب أن تؤخذ هي وأدلتها من آيات القرآن فإنها وافية بذلك كله، وأما إهمال آيات القرآن المشتملة على العقائد وأدلتها والذهاب مع تلك الأدلة الجافة ؛ فإنه من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ـ وعلى الفقه، ويجب أن يُقتصر فيه على تقرير المسائل دون تشعباتها، ثم يترقى بهم إلى ذكر بعض أدلتها.

ـ وعلى أصول الفقه، مسائل مجردة ثم يترقى إلى تطبيقها على المسائل الفقهية، لتحصل لهم من هذا ومن ذكر أدلة المسائل الفقهية كما تقدم ملكة النظر والاستدلال.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 181، 182).

. وعلى التفسير، يكون بسرد الجلالين على المتعلم وهو يبين ما يحتاج للبيان. والمقصود من هذا أن يطلع المتعلم على التفسير بفهم المفردات وأصول المعاني بطريق الإجمال.

. وعلى الحديث، بقراءة الأربعين وغيرها سرداً على الطريقة المتقدمة في التفسير.

. وعلى دروس التربية الأخلاقية، يعتمد فيها على آيات وأحاديث واثار السلف الصالح.

. وعلى التاريخ الإسلامي على وجه الاختصار.

. وعلى الحساب والجغرافيا بأقسامها.

. وعلى مبادئ الطبيعة والفلك والهندسة.

وإذا لم يكن في الشيوخ المعنيين من يقوم ببعض هذه العلوم فلنأت بأمثال إخواننا المطربسين من تونس أو من مصر إن اقتضى الحال.

وأما فرع القضاء والفتوى من قسم التخصص، فيتوسع لهم في فقه المذهب، ثم في الفقه العام، وتكون «بداية المجتهد» من الكتب التي يدرسونها ويدرسون آيات وأحاديث الأحكام ويدرسون علم التوثيق ويتوسعون في علم الفرائض والحساب ويطلعون على مدارك المذاهب حتى يكونوا فقهاء إسلاميين ينظرون إلى الدنيا من مراة الإسلام الواسعة لا من عين المذهب الضيقة.

وأما فرع الخطابة، فيتوسع لهم في صناعة الإنشاء والإطلاع على أنواع الخطب ويدرسون آيات المواعظ والاداب وأحدايثهما، ويتوسعون في السيرة النبوية، ونشرة الدعوة الإسلامية، ويمرنون على القاء الخطب الارتجالية.

وأما فرع التعليم، فيتوسعون في العلوم التي يريدون التصدي لتعليمها مع تمرينهم على التعليم بالفعل، ومدارستهم للكتب الموضوعة لفن التعليم.

هذه أصول ما نراه من كيفية الإصلاح بجامع الزيتونة المعمور، وهي وإن لم تكن وافية بالتفصيل، فإنها

كافية في مقام الأعمال، ولعل اللجنة الموقرة تعيرها التفاتاً فتزنها بميزان العدل والإنصاف فعساها واجدة فيها بعض ما يفيد[1].

لقد استطاع ابن باديس أن يقوم بحركة تجديدية سارت على منهج منظم استوحاه من السنة النبوية والتوجيه القرآني وروح العصر، وهو في هذا المجال يسلك المنهج العلمي فيشخص المرض أولاً ثم يتبعه بالعلاج، يعترف للشيخ محمد عبده بأنه: أول من نادى بالإصلاح الديني نداء سمعه العالم الإسلامي كله في عصرنا. ومن عدل الله وحكمته أن كان مبعث هذه الدعوة الإصلاحية هو مصر التي هي مبعث أكثر البدع والضلالات الاعتقادية والعملية، تؤيدها الحكومات فصارت رسمية في نظر المسلمين، وجاء الأزهر على دين الدولة وهوى العامة يقر علماؤه الضلالات بسكوتهم بمشاركتهم العملية وتأييدهم الفعلي والقولي.

أما الجامعان الاخران في شمال إفريقيا وهما الزيتونة في تونس والقرويين في المغرب فهما شرّ الثلاثة كما قال الشاعر. وكيف يكون حال العالم الإسلامي ومراكزه العملية الدينية في ذلك الضلال المبين؟ ومضى ثلث قرن والدعوة تنتشر وتتقدم ولكن لم تقم في أمة إسلامية هيئة علمية منظمة تعلن الدعوة إعلاناً عاماً وتصمد للمقاومة غير الأمة الجزائرية، فكان من علمائها الأحرار المستقلين الذين لا يعيشون على الوظائف، من جاهدوا وصابروا وأسسوا أعظم مؤسسة دينية حتى أصبحت الدعوة ثابتة الأركان وارفة الظلال لا على الجزائر وحدها بل على الشمال الأفريقي كله[2].

### 9. روح الفريق:

كان ابن باديس يؤمن بروح الفريق، وأن العلاج لكثير من أمراض شعبه لا يمكن أن يكون بالعمل الفردي بل في تكوين منظمة من الرجال، لها برنامج حافل بالمبادئ والمثل، ولكن أيضاً بمشاريع العمل والتنظيم، وقد استلهم هذا البرنامج من الفلسفة القرآنية وروح الإسلام المتفتحة، وبيّن هذا البرنامج في عشرين

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 183).

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 79.

بنداً يأتي الحديث عنها مفصلاً بإذن الله تعالى.

وكان يرى أن القائمين بهذا البرنامج هم السلاح في المعركة ،يجب أن يعملوا في دائرة المحبة والوئام وإصلاح شؤون أهل العلم ولمّ شعثهم وتنظيم هدايتهم، ويقول: وعلى كل واحد منا أن يكون ممثلاً لفكرة الجمعية في الإنفاق والتاخي، وأن يطرح كل واحد منا فكره الخالص عندما تجيء المصلحة العامة، فكفى ما تقاتلنا على الكلمات.

وفعالية العمل تكمن في التجديد المستمر في العمل، وأسلوبه التجديد في كل عام تجديداً روحياً وعقلياً وأخلاقياً وعلمياً وتاريخياً. تجديداً إسلامياً محمدياً، لنولد في كل عام جديد ولادة جديدة نجدد ونتجدد نتفقد عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا.

ثم قال: وأما كاتب هذه السطور فقد عزم على تجديد ما فني من قلوب المسلمين[1]، وهو يدرك أن قيمة جمعية العلماء ليست في قيمة أفرادها، لأن الفرد ـ كما سيقول العربي التبسي من بعده على رأس هذه ـ لا قيمة لعلمه الفردي في عصرنا مهما كان علمه، فعصرنا عصر الجماعات لا عصر الأفراد.

ويقول ابن باديس: إن الذي قام به رجال الجمعية وضربوا به المثل الرفيع للناس، من تضامنهم في الشدة كتضامنهم في الرخاء، وثباتهم على يقينهم رغم كل زعزعة وإعصار، وتضحيتهم بالمصلحة الخاصة في سبيل الصالح العام، وثقتهم التامة بالله ثم بأنفسهم، ومن ثم كانت هذه الجمعية من الأمة وإلى الأمة وكل ما لها أو عليها فهو للأمة وعليها.

والجمعية تفتخر بأنها قامت بإحياء فريضتي الإسلام التي نسيها المسلمون وعلماؤهم، وهي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما مرجع عظمة الدولة الإسلامية وحضارتها، لقد كان رجالها مستضعفين يوم كانوا فرادى فمدوا أيديهم إلى بعضهم بعض فأصبحوا متعاونين أقوياء ثم سمعت الأمة كلمتهم فاستجابت

(1) المصدر نفسه ص 80.

ولها الفضل ولها البشر من الله، لقد ضربوا الأمثال بأعمالهم وحملوا الأمانة الإسلامية وأدَّوها وكل شيء يطلب من سبيله وهذا ما جعل عملنا يملك علينا حواسنا وأوقاتنا[1].

ويحصر عبد الحميد بن باديس مهام الجمعية وميادين عملها كما ينص عليه قانونها الأساسي في محاربة الافات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والفجور، وكل ما يفسد على الناس عقولهم أو يضيع أموالهم فهو من الافات. محاربة الجهل والجمود والدجل والخرافة والأباطيل، محاربة كل واقف في طريق التعلم والتعليم أي نوع من أنواع التعليم، محاربة الإسراف وأكل أموال الناس بالباطل وجشع أصحاب المال وقعودهم عن المساهمة في تأسيس المشاريع الاقتصادية والعلمية والخيرية[2].

ويحدد الغاية التي ترمي إليها الجمعية بهذا المنهج العلمي، وهي ترقية الجزائريين في جميع نواحي الحياة إلى أقصى ما تترقى إليه الأمم فيكونوا محترمين من أنفسهم ومن غيرهم، يعرفون كيف يسوسون وكيف يسايسون. وهي كما نرى غاية سياسية تشمل كل نواحي الرقي التي تعمل لها الحكومات الوطنية في مجتمعاتها المستقلة، وقد بلغت الجمعية بمنهجها في عملها وفي نجاحها فيه درجة لم تعد معها مجرد جمعية، وإنما هي سلطة حقيقية قادرة على توجيه الرأي العام أي وجهة شريفة تريدها، ويشير ابن باديس إلى هذه السلطة التي لا يوجد لها مثيل في بلاد المسلمين وخاصة في المشرق العربي الذي تتوزعه المذاهب والفرق والطوائف، فيقول: إن الجمعية أتت هداية الأمة من بابها فخاطبتها بلسانها وقادَتْها بدينها، فاتجه إليها كل مسلم منشرح الصدر مطمئن النفس، بحيث لو كان في الجزائر جميع مذاهب الإسلام لوسعتهم هذه الجمعية بعلاجها النافع بإذن الله للجميع[3].

(1) المصدر نفسه ص 81.

(2) المصدر نفسه ص 81.

(3) المصدر نفسه ص 81.

إن كل هذه النجاحات ينسبها ابن باديس إلى الجمعية وإلى العمل الجماعي، والأسلوب الشوري الذي يسير به أفراد الجمعية مؤسساتهم الإصلاحية والاجتماعية، وعلّموا بها أفراد الشعب في تأسيس المنشات العبادية والتعليمية والتثقفية وهو أسلوب المناقشة في الاجتماعات وطرح الأفكار واتباع رأي الأغلبية، وتقديم الحسابات المالية في كشوفات مضبوطة في الداخل والخارج إلى آخره[1].

### 10 . مؤثِّر:

من أروع ما وصف به ابن باديس مقال كتبه مراسل جريدة فرنسية هي البتي ماتان، الذي كان يحضر حفلاً في تونس يوم 29 مايو 1937م. أقيم بمناسبة مرور عشرين سنة على وفاة البشير صفر أستاذ التاريخ ،، فمما جاء في هذا الوصف ما يلي: والشيخ ابن باديس يمثل حقاً الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الجهوري يستفز الجماهير فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة السلام. وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة عالية من التقدير وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة، أما سُمعتُه فقد اخترقت البحار وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله وإنه لنعم الخلف للبشير صفر.

لقد كانت حياة ابن باديس كتاباً مفتوحاً، ولعل شهادة كاتب فرنسي آخر تغنينا عن الإطالة في هذا الموضوع، ولاسيما هذا الكاتب أستاذ في جامعة ستراتسبورغ حيث يقول: هذا الرجل الذي استطاع ألوف من مواطنيه رؤيته والحكم على حياته، ذلك أن برنامج حياته اليومي يوضح لنا بجلاء شخصيته الحقيقية، لأنه لا يوجد شخص يستطيع أن يخدع الجميع في كل الوقت. وهذه الأفعال والتصرفات المعروضة والمدعمة بعدة شهود تكفي لأن تُصدر عليه الحكم العادل، وأن نبقى على حذر من أولئك الذين لا يهتمون إلا بالمظهر ومجاراة النفس[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 81.

(2) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 43.

كل الأعمال الكبيرة التي كان يقوم بها ابن باديس تدل على نفس كبيرة، فقد كان يكره المديح ولا يسعى إليه، بل يرفضه. ولو كان من الزعامات الحزبية أو الزعامات الهشة لامتلأت الصحف بمدحه في حياته. ولعل مقياس الزعامة الحقة ليس ما يكتب عن الشخص أو القائد وهو حي بل بعد موته، وما كتب عن ابن باديس بعد موته يفوق ما كتب عن جميع الشخصيات الجزائرية مجتمعة، وقد اعترف له بهذه الصفة حتى الذين لم يكن على وفاق مع منهجهم، فصحيفة النجاح التي ساهم في تأسيسها وكتب فيها باسم القسنطيني[1]، أوردت خبراً عن زيارته لوهران وأنها تلقت من بعض الكتاب، مراسلين غير معيّنين رسمياً، وصفاً لهذه الزيارة، ولكن الجريدة لم تنشرها لأن ابن باديس كما تقول الجريدة: رغب منا أن نغفل إدراج كل ما يتعلق بمدحه لأنه لا يرى في المدح فائدة أمام الأعمال[2].

وتكرار هذا الموقف حينما زار ابن باديس بعض جهات الجزائر، فكتب أحد المثقفين وصفاً للزيارة ضمّنه ملخصاً للدروس التي ألقاها ابن باديس لنشرها في الشهاب، فوافق ابن باديس على نشر ما فيه فائدة للقراء، أما ما يتعلق بشخصه من مديح وإطراء فقد حذفه، وأبرز دليل على هذه الخصلة أنه لما ختم تفسير القرآن الكريم وأراد علماء الجزائر إقامة احتفال بهذه المناسبة وطلبوا منه أن يخصصوا عدداً من الشهاب لتخليدها ؛ فسمح لهم شريطة أن لا يجعلوه مخصصاً لمدحه، فوافقوا على هذا الشرط[3].

### 11. مالك بن نبي يصف ابن باديس:

يعتبر مالك بن نبي ثم عمار الطالبي في مقدمة من قدموا شخصية ابن باديس في شمولها وثرائها، ونبهوا إلى أهمية دراسته ودوره الفعال في تقديم المنهج الإسلامي الصحيح.

(1) المصدر نفسه ص 43.

(2) المصدر نفسه ص 43.

(3) عبد الحميد بن باديس، مازن مطبقاني ص 44.

وقد أشار الأستاذ مالك بن نبي عند تقديمه لكتاب آثار ابن باديس في المجلد الأول، أشار إلى التنوع والشمول في شخصية ابن باديس، وما تميزت به من قدرة على الإقناع والمناظرة، كما أشار إلى تماسك منهجه ودوره الفعّال في بناء الشخصية الجزائرية والتاريخ المغربي بوجه عام، وجاء وصفه: إن شخصية ابن باديس تجمع في طياتها جوانب بلغت من التنوع والغنى مبلغاً عظيماً، فقد كان مناظراً مفحماً، ومربياً بناء، ومؤمناً متحمساً، وصوفياً والهاً، ومجتهداً يرجع إلى أصول الإيمان المذهبية ويفكر في التوفيق بين هذه الأصول توفيقاً عذب عن الأنظار إبان العصور الأخيرة للتفكير الإسلامي.

ولم يفصل مالك بن نبي بين شخصية ابن باديس العلمية والدينية وبين شخصيته التربوية والسياسية، ويؤكد على أن وطنية ابن باديس كانت وراء مشاركته في الأحداث البارزة بين 1934م، 1936م، كما كانت وراء نجاحه في إيقاظ الشعور الوطني العام، وأن قصائده ومقالاته هي التي أعادت إلى الشعب الجزائري أبعاده الحقيقية في التاريخ الإسلامي.

كما أكد على تكامل شخصية ابن باديس المفسر السلفي الذي يستنبط من الآيات والأحاديث فروعاً ومعاني للهداية والحجة والاقتداء وإثبات لزوم الرجوع إلى الكتاب والسنة، وأن الإصلاح الحقيقي يبدأ بإصلاح النفوس والضمائر إيماناً بالحقيقة الصادقة: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد : 11]. فتلك أولى خطوات الإصلاح الحقيقي[1].

ويصف مالك بن نبي شخصية ابن باديس المفسر حين يقول: إنه عندما يفسر إنما يمدنا بصورة ما من طيف ذاته، فالذي يتكلم إنما هو الذابّ عن الدين والناقد الاجتماعي والعالم المحقق والمصلح الذي يعبر عن الحقيقة القرآنية بوصفها حقيقة متكاملة تشمل الحياة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية أو ما يعبرون عنه بالدين والدولة أو الدين والدنيا[2].

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 24.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 9 . 11).

## 12. د. عمار الطالبي يصف ابن باديس:

ويحدثنا الدكتور عمار الطالبي عن شخصية ابن باديس في شمولها وتراثها وقدرته الفائقة في التعبير عن أزمة المجتمع العربي، ويتناول جوانب شخصية ابن باديس مع التركيز على الناحية العلمية والتربوية وقدرته على فهم مكنونات النفس البشرية والتعامل مع العصر وفهمه العميق لمتغيرات الواقع وثوابته. ويؤكد ذلك الدكتور الطالبي فيقول:

إن ابن باديس قدم تفسيراً سلفياً للقران راعى فيه مقتضيات العصر معتمداً على بيان القرآن للقران وبيان السنة له وعلى أصول البيان العربي وسننه والنفاذ إلى لغة العرب وادابها وقوانين النفس البشرية وسنن المجتمع الإنساني وتطور التاريخ والأمم.

. وهو فقيه ومحدث من الطراز العالي لا يستشهد إلا بالأحاديث الصحيحة المسندة إلى الصحاح الست، وفي هذا الإطار ظهرت منهجية ابن باديس في رد الفرع إلى الأصول والأصول إلى مستنداتها مؤكداً أن كتاب الموطأ لمالك هو خير مناهج الاستدلال.

. وهو شاعر يفيض الشعر من قلبه، وخطيب يستولي على النفوس ويملك العقول.

ـ وهو مصلح ديني واجتماعي يحارب التقليد والبدع ويدعو للنهضة والحضارة ويغرس الحب وأصول الأخلاق التي هي جوهر المدنية. وهذا ما يؤكده ابن باديس بنفسه حين يقول: أنا زارع محبة، ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان، فاعملوا للأخوّة، ولكن مع كل من يعمل للأخوّة، فبذلك تكون الأخوة صادقة.

. وهو صحفي قدير يقضي ليله في قراءة المقالات والجرائد وما صدر في الدول العربية والأوربية عن العرب والمسلمين باللغة الفرنسية فيرد عليها ويناقشها.

ـ وهو مؤرخ يحلل الحضارة ويكتب في أصول السياسة الإسلامية وله نقد لبعض اراء ابن خلدون في المقدمة وهو الجزء الخاص بالحضارات.

ـ وهو صوفي زاهد لا كمتصوفة أهل زمانه وزهادهم، ويتأثر كثيراً باراء الغزالي في الإحياء، حتى أنه أطلق على كتاب الإحياء «كتاب الفقه النفسي»، كما تأثر بأبي بكر بن العربي وخاصة كتاب العواصم من القواصم.

ـ وهوصاحب منهج تحليلي يقوم على النظر العقلي ؛ استجابة لدعوة القرآن إلى النظر في تجارب الأمم وتطورات الأحداث وما تخضع له من سنن وقوانين لا تبديل لها ولا تحويل، وكان يعتقد بأن المدارك الإنسانية التي تمتاز بقوة التحليل والتركيب هي التي تجعلها تتغلب على الطبيعة وتسخرها، وأن الظواهر الاجتماعية تخضع لمبدأ الأسباب والمسببات، وأنه لا ينبغي الوقوف عند مجرد المحسوسات فالجمع بين المشاهد والعقل هو المنهج العقلي والتجريبي الذي قامت عليه الحضارة الحديثة. وفي هذا يقول ابن باديس: لقد علمنا الله ألا ننظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها وإلى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية، بل نعبر من الظواهر إلى البواطن وننظر من المحسوس إلى المعقول، ونجعل من حواسنا خادمة لعقولنا، ونجعل عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير[1].

## رابعاً: تفرغ الشيخ للتدريس والتربية:

في ظروف تاريخية واجتماعية وثقافية وسياسية عصيبة ومأساوية، كان الشعب الجزائري يعيشها انذاك ؛ بدأ الشيخ عبد الحميد في نهضته العلمية والتربوية والتي يلخصها لنا ابن باديس نفسه في سنة 1939م بقوله: لقد كان هذا العبد يجاهد قبل عقد من السنين في هذا القطر القريب من الفناء، ليست له مدارس تعلمه، وليس له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه، بل كان في اضطراب دائم مستمر ويا ليته كان في حالة هناء، وكان أبناؤه يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية، التي لا تعطيهم غالباً من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها، هذه هي

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 26.

الحالة التي كنا عليها في تاريخنا الحديث[1].

كانت سياسة الاستعمار الفرنسي تعمل على تخريب العوامل التي تشكل المجتمع الجزائري وتمده بالبقاء والاستمرارية والتميز الحضاري العام، وهي عالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وعالم الأفكار ؛ تخريباً شاملاً والذي يعتبر أفظع شيء أصاب الأمة الجزائرية في تاريخها الحديث، لم تستطع ولم تتمكن . بشكل واضح وكامل لا الحركات الثورية ولا السياسية ولا الثقافية ولا الفردية البطولية التي سبقت جهاد ابن باديس . من تداركه وتوقيف نخره واستنزافه لجهود وطاقات وإمكانيات المجتمع الجزائري، الفكرية والبشرية والمادية، وعجزت . بالتالي . عن تحقيق التغيير في بنيته الذاتية مما يؤهله ويمكنه من التحرر من عوامل وأسباب وشروط القابلية للاستعمار، والتي يعني التخلص منها خطوة أولى أساسية وضرورية نحو التحرر من الاستعمار نفسه بكل أشكاله وصوره.

وأمام هذا الوضع الذي كان يعيشه الشعب الجزائري وهذا العجز شبه الكلي من الحركات الجهادية المختلفة السابقة لجهاد ابن باديس، عن إحداث تغيير شامل وجذري لهذا الوضع، وإحداث نقلة نوعية وإقلاع حضاري للمجتمع الجزائري ؛ فإن اللحظات التاريخية كانت تنتظر شخصية كشخصية ابن باديس، تقوم بدور ثوري يعبر عما يختلج في النفوس من قلق وأمل ويضيء الطريق أمام الحائرين، ويجمع الشتات ويوجه الطاقات ويحيي الشخصية الإسلامية التي أتاها البلاء من كل مكان، وأصابها القرح وتكالبت عليها ذئاب الغرب[2].

وأذِنَ الله عز وجل في تحركات ابن باديس وباركها وأيدها، وجعله من الأسباب المهمة في إنقاذ الأمة وقيادتها نحو التحرير وصناعة تاريخها النضالي والكفاحي الأسطوري.

---

(1) جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر ص 109.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 72).

## 1. الاستقرار بقسنطينة:

شرع الإمام عبد الحميد بن باديس في ممارسة عمله الإصلاحي الجهادي استجابة وتلبية لوصية الشيخ حسين أحمد الهندي، الذي أوصاه بالعودة إلى الجزائر لإنقاذها في مأساتها التي تتخبط فيها منذ زمن طويل، وتنفيذاً وتحقيقاً لما اتفق عليه مع أخيه في الجهاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، في أسمارهما الليلية بالمدينة المنورة، فعاد إلى الجزائر عازماً على الإصلاح وفق منهج إسلامي تكونت أبعاده في ذهنه من مجموعة من المؤثرات الهامة صدرت بعضها عن الواقع، وصدر بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ، وصدر بعضها عن الروح الإسلامية الجديدة التي أشاعها في سماء العالم الإسلامي الإمام محمد ابن عبد الوهاب والسيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه وصديقه محمد عبده[1].

بدأ التدريس أولاً بالجامع الأخضر الكبير، ولكنه لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما تدخلت الإدارة الإستعمارية ومنعته، وذلك بسعي من المفتي ابن الموهوب، فكان كلما حضر إلى التدريس منعوه من ذلك، فاستنجد بوالده الذي تدخل واستصدر له رخصة من الإدارة نظراً لمكانته وسمعته لديها، وفي هذا يقول ابن باديس: فأذنت لي بالتعليم فيه . في الجامع الأخضر . بعدما كانت منعتني من التعليم بالجامع الكبير، بسعي المفتي في ذلك العهد الشيخ المولود ابن الموهوب[2].

## 2. التعليم بالجامع الأخضر:

فشرع في التعليم بالجامع الأخضر ورابط فيه مدرساً وفي كل من مساجد سيدي قموش، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي بو معزة، وسيدي فتح الله، يتنقل بينها ليلاً ونهاراً، حتى أنه لم يكن يعرف الراحة في ممارسة عمله الإصلاحي الجهادي، فيعلم الطلاب مختلف الدروس ويفسر القرآن للمواطنين بالليل.

واستمر يتابع دروسه دون ملل لا يعرف الراحة، ويتنقل عبر الوطن ويلقي دروس الوعظ والإرشاد في

(1) العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري ، د. عبد الحليم عويس ص 219.

(2) الشهاب: (ج4، م14 ص 304).

المساجد والمحاضرات في النوادي ويجمع حوله الرجال الذين يتوسم فيهم القدرة على المشاركة معه في النهضة[1]، لتغطية متطلبات التربية والتعليم، واستيعاب أكبر قدر ممكن من التلاميذ حتى أنه كان يلقي في اليوم الواحد عشرة دروس أو أكثر، يقضي سحابة نهاره ومعظم ليله بين التدريس والتعليم والتحضير والقيام بأعباء العمل الإصلاحي الجهادي الأخرى، الأسفار والتنقلات.

يبدأ التدريس بعد صلاة الفجر ويقضي طيلة نهاره مدرساً للأطفال الصغار، وكان لا ينقطع إلا لصلاة الظهر وبعدها لتناول قليل من الطعام ثم يواصل تدريسه لهم إلى غاية صلاة العشاء فوجاً فوجاً، ومن التاسعة ليلاً إلى منتصف الليل ينتقل إلى تدريس الكبار[2].

وواصل جهاده في صمت حتى لا ينتبه إليه الاستعمار وعيونه، وانهال عليه طلاب العلم من الجبال والسهول إلى أن ضاقت بهم المدينة، وأعانه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعام المحاويج منهم جماعة من أهل الخير، ومحبي العلم فقويت بهم عزيمته وسار لا يلوي على صائح[3].

واندلعت الحرب العالمية الأولى وهو في بداية الطريق فاعتصم بالله فكفاه شر الاستعمار[4].

### 3 . مدرسة التربية والتعليم الإسلامية:

تعاظم عدد الطلبة الوافدين على المعهد الصغير الجامع الأخضر حتى أصبح يضم ما يقارب الألف من الطلبة، مما دفع الأمر بالإمام إلى التفكير في ضرورة فتح مدرسة لاستيعاب أفواج الطلبة المتزايدة، فيكّون مدرسة ابتدائية في بناية تقع فوق مسجد سيدي بو معزة كمرحلة أولى، ثم ينقلها بعد ذلك إلى مقر الجمعية

(1) مذكرات محمد خير الدين ص 103.

(2) الإمام عبد الحميد بن باديس، محمود قاسم ص 17 . 18.

(3) جهاد ابن باديس ص 112.

(4) المصدر نفسه ص 112.

الخيرية الإسلامية التي تأسست عام 1917م، ولتحول سنة 1930م في مرحلتها الأخيرة إلى مدرسة، باسم مدرسة التربية والتعليم الإسلامية، حيث حرر قانونها الأساسي وقدمه باسمها إلى الحكومة فصادقت عليه دون أن تدرك خطورته[1].

وحدد أهدافها في أنها تسعى لنشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية والفرنسية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين وذلك باعتماد الوسائل التالية:

. تأسيس مدرسة للتعليم.

. تأسيس ملجأ للأيتام.

. تأسيس نادي للمحاضرات.

. تأسيس مصنع للصنائع.

. وكذا العمل على إرسال بعثات طلابية على نفقة الجمعية للدراسة في الكليات في المعامل الكبرى.

كما يشير قانونها الأساسي إلى الأسس التي أقيمت عليها الجمعية والأهداف التي تسعى إليها في أنها بُنيت من الوجهة التربوية على تربية أبناء وبنات المسلمين الجزائريين تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم، ومن الوجهة التعليمية على تثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين العربي والفرنسي، وتعليمهم الصنائع، ومن الوجهة المالية على تعويد الأمة على العطاء المنظم، وتوسيع نطاق الجمعية بجعل الاشتراك الشهري فيها فرنكين[2].

كما أشار القانون الأساسي إلى نقطة مهمة وأساسية لها مدلول حضاري ومغزى تعليمي بعيد وعميق، أن البنين يدفع القادرون منهم واجب التعليم، وأما البنات فيتعلمن مجاناً[3].

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 354.

(2) المصدر نفسه ص 354، 355.

(3) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 115).

ولقد قامت هذه المدرسة بدور حضاري هام في مجال تربية وتعليم الناشئة حيث تخرج منها جيل كامل تحت إرشاد ابن باديس[1].

كما استقطبت الكبار رجالاً ونساءً فكان ابن باديس مخصصاً فيها دروس للعمال يوم الأحد، أما النساء قواعد البيوت فخصص لهن درساً أسبوعياً بالجامع الأخضر[2].

### 4 . اللقاءات المستمرة بين الإبراهيمي وابن باديس:

وتوثقت الصلة بين ابن باديس وبين الإبراهيمي فيما بين 1920 . 1930م وتعددت اللقاءات بينهما فكانا يلتقيان في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر[3]، يتدارسان ويتناقشان أوضاع الإسلام والجزائر، يقول الإبراهيمي عنها: فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن اثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجات حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[4].

وقد حقق الله وهيأ لابن باديس جملة من الشروط والأسباب التي مكنته ووفقته ليمارس العمل الإصلاحي الجهادي من غير أن يحتاج الوظيفة أو يخاف بطش الاستعمار به، ومن ذلك: ثراء أسرته الذي ساعده على أن يتحرر من الحاجة إلى طلب الوظيفة من الإدارة الاستعمارية، وعلى أن يخصص حياته بأسرها لإحياء الروح الجزائرية[5].

### 5 . التعليم المسجدي:

يرى الإمام عبد الحميد بن باديس أن المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام، فما بني

(1) الحركة الوطنية ، د. أبو القاسم سعد الله (2 / 422).
(2) جهاد ابن باديس ص 114.
(3) المصدر نفسه ص 115.
(4) المصدر نفسه ص 115.
(5) الإمام عبد الحميد بن باديس، محمود قاسم ص 15.

النبي ـ (ص) ـ يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم، ولهذه الحاجة مضى النبي (ص) على عمارة المسجد بهما فما انقطع عمره كله عن الصلاة وعن التعليم في مسجده حتى في مرضه الذي توفي فيه، ثم مضى المسلمون على هذه السنّة في أمصار الإسلام يوقفون الأوقاف على المساجد للصلاة والتعليم، ومن أظهر ذلك وأشهره اليوم الجامع الأزهر وجامع الزيتونة وجامع القرويين.

**أ ـ نوع التعليم المسجدي:**

بين الإمام ابن باديس أن النبي (ص) كان يعلّم أصحابه، يبين للناس ما نزل إليهم ويفقههم في الدين، فما بيّن القرآن وما فقّه في الدين فهو من التعليم الإسلامي وهو من التعليم المسجدي، ولما كان القرآن كتاب الإنسان من جميع نواحي الإنسان، وكتاب الأكوان بما فيها من نعم وعبر، وكتاب العمران بما يحتاج إليه العمران مما يصلح أحوال البشر وما يتصل بالبشر، وكتاب السعادتين الدنيوية والأخروية ؛ كانت العلوم التي تخدم ذلك كله من علوم الإسلام ومن علوم المساجد. ولذا كانت مساجد الأمصار الإسلامية من أيام البصرة والكوفة إلى يومنا هذا مفتحة الأبواب معمورة الأركان بجميع العلوم وإذا خلت في العصر الأخير من بعضها ؛ فذلك للتأخر العام وضعف المسلمين في أسباب الحياة[1].

**ب ـ الحاجة إليه:**

ويقول ابن باديس أيضاً: الإسلام دين الله الذي يجمع بين السعادتين، وإنما يسعدها به من اعتقد عقائده وتأدب بادابه وارتبط بأحكامه في الظاهر والباطن من أعماله، ولابد لهذا كله من التعليم الديني الذي محله المساجد وبدونه لا سبيل إلى شيء من هذا كله، فصارت حاجة المسلمين إليه حاجتهم إلى الإسلام، وصار

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 226).

إعراضهم عنه هو إعراض عن الإسلام وهجر له. وما انتهى المسلمون اليوم إلى ما انتهوا إليه إلا بذلك الهجر، وذلك الإعراض. ولن يرجى لهم شيء من السعادة الإسلامية إلا إذا أقبلوا على التعليم الديني فأقاموه في مساجدهم كما يقيمون الصلاة، وكما كان النبي صلى الله عليه واله وسلم يفعل مِن إقامتهما بمسجده كما تقدم[1].

ولابد للجزائر من كلية دينية يتخرج منها رجال فقهاء بالدين يعلّمون الأمة أمر دينها. وأستطيع أن أقول أن نواة هذه الكلية هم الطلاب الذين يردون على الجامع الأخضر بقسنطينة[2].

### 6. دعم الشعب لطلاب العلم:

كان الإمام ابن باديس بعد اعتماده على الله يتوجه إلى شعبه في دعمه المعنوي والمادي، ولما كثر عدد الطلاب والراغبين في تعاليم دينهم توجه بنداء وبيان إلى الأمة المسلمة الجزائرية التي كانت عند حسن ظن الإمام، ومما جاء ذلك النداء:

- قال تعالى: {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ *} [التوبة : 122].

. وقال (ص): «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة».

. وقال (ص): «الدال على الخير كفاعله».

. وقال (ص): «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

. أيها الشعب المسلم الجزائري الكريم:

تالله لن تكون مسلماً إلا إذا حافظت على الإسلام، ولن تحافظ عليه إلا إذا فقهته، ولن تفقهه إلا إذا كان فيك من يفقهك فيه. ولهذا فرض الله على كل شعب إسلامي أن تنفر منه طائفة لتتفقه في الدين وترجع

(1) المصدر نفسه (1 / 226).

(2) المصدر نفسه (1 / 228).

إلى قومها بالإنذار، فبذلك يرجى لهم الرجوع إلى الله، وما هو إلا الرجوع من الضلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الإعوجاج إلى الإستقامة، ومن الشقاوة إلى السعادة ومن النقص إلى الكمال، وقد بيّن تعالى على لسان رسوله (ص) أن طرق العلم هي طرق الجنة، فمن سلك طريق هذا سهل له طريق ذاك، وبيّن أن من دلّ على مثل هذا الخير ـ بقوله أو عمله ـ فهو كمن فعله، وبيّن أن المعينين لإخوانهم في الخير يعينهم الله، ومن إعانته لهم تيسير ذلك الخير عليهم إلى مثله من الخير: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *} [الأعلى : 5 ـ 7].

ومن إعانته لهم التعويض عليهم عما أنفقوا بالعطاء المضاعف الكثير: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة : 245].

{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *} [سبأ : 39].

**أيها الشعب المسلم الجزائري الكريم:**

أما أبناؤك الشبان حملة القرآن فقد هبّوا هبّة رجل واحد لطلب العلم والتفقه في الدين، يحملون الإيمان في قلوبهم والقران العظيم في صدورهم، والروح الجزائرية المسلمة في لحومهم ودمائهم لا يقصدون إلا أن يتعلموا فيعلموا، ويتفقهوا فيفقّهوا، ولا يرجون من ذلك إلا رضا الله ونفع عباده

وقد جاء منهم هذا العام إلى الجامع الأخضر بقسنطينة ما يناهز الثلاثمائة من جميع جهات القطر وذهب نحوهم ـ وأكثره من تلامذة الجامع الأخضر ـ إلى تونس.

وأما هذا العبد العاجز فإنه بفضل الله ثم بفضل كل معين في الخير قد تقبل هؤلاء الكرام الوافدين والأبطال المتجردين وأقام لهم ـ مثل السنوات الماضية ـ ما يلزمهم من دروسهم وما استطاع من نفقاتهم وضم إليه من الشيوخ ومن كبار تلامذته من يعينه على تعليمهم.

وأما أنت أيها الشعب الكريم ـ فإننا ندعوك بدعوة الله إلى مد يد المعرفة على هذا العمل الواجب العظيم، ندعوكم لتمدوا صندوق هؤلاء الطلبة بما استطعتم من خير، ونذكركم ـ وهذا معلوم عندكم من السنوات الماضية

ـ أن صندوق الطلبة تتولاه لجنة من جمعية التربية والتعليم الإسلامية فهي تضبط دخله وخرجه وتنشره على الناس، ونعرفكم أن أمين هذا الصندوق اليوم هو السيد كرماني الحاج حموش التاجر برحبة الجمال بقسنطينة فهلموا إلى التعاون على البر والإحسان ـ أيها الأخوان ـ والله المستعان والسلام عليكم.

من أخيكم عبد الحميد بن باديس[1]

وكان الشعب الجزائري ملبياً لنداءات ابن باديس فيما يخدم الإسلام وطلابه والصالح العام، فقوته كانت مستمدة من الله ثم من الدعم المستمر من أبناء الشعب الجزائري الملتف حول زعيمه الروحي واستاذه الكبير.

### 7 ـ التجول في القطر الجزائري:

لم يكن الشيخ عبد الحميد يكتفي بالدروس التي كان يقدمها أو يشرف عليها، بل كان يقوم في العطلة الصيفية وفي أيام الراحة الأسبوعية بجولات استطلاعية في القطر، يتعرف فيها على أحوال البلاد والعباد، ويلقى الدروس في المساجد والزوايا وحيثما تيسر له ويعلن عن نشاطه التربوي، وعن الدروس العلمية التي يتلقاها الطلبة في قسنطينة حتى يبين الفائدة المرجوة منها لمن يشاء الالتحاق بها، ويطلب من شيوخ الزوايا الذين يحضرون دروسه ومحاضراته أن يرسلوا أبناءهم وطلابهم للتعلم عليه في قسنطينة... هكذا وبهذا الأسلوب الإعلامي تنامى عدد طلابه من مختلف جهات الوطن، وخاصة عمالة قسنطينة، وأصبحوا يفدون على الجامع الأخضر وعلى دروس الشيخ في مختلف المواد[2].

### 8 ـ طبقات الطلاب:

قسم الطلاب إلى أربع طبقات حسب مستوياتهم، والذين ينهون دراستهم عنده يوجه القادرين منهم لإتمام دراستهم في تونس بجامع الزيتونة، واستمر عمله هذا بهدوء وحكمة وصبر طوال فترة الحرب العالمية الأولى

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 232).

(2) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 44.

«1914 . 1918م» وظل يعلم ويربي الصغار والكبار ويعظ ويرشد العامة والخاصة ويوقظ الهمم وينشر الوعي ويدعو إلى الصالح العام، مخططٌ رسمه في ذهنه وطبّقه في الواقع، وكان من طلائع طلابه النبغاء مبارك الميلي، والسعيد الزاهري، والهادي السنوسي، ومحمد بن العابد، والسعيد الزموشي، وابن عتيق، والفضيل الورتلاني، واخرون كثيرون منهم من اكتفى بما تعلمه عليه ومنهم من واصل دراسته في الزيتونة حتى شهادة التطويع[1].

### 9 . توديعه للطلاب في نهاية العام ونصيحتهم:

في العادة عندما تختم الدروس العلمية بالجامع الأخضر يجمع الأستاذ عبد الحميد بن باديس الطلبة ويلقي عليهم كلمة الوداع ويزودهم بالوصايا النافعة، فيذكرهم بما بينه وبينهم من رابطة الأبوة والبنوة، وما بينهم من رابطة الأخوة، وما تقتضيه هذه الروابط مِن محبةٍ مثمرة للأعمال الصالحة في الخدمة العامة ومِن دوامِ اتصالٍ للتعاون على الخير، ومِن تسامحٍ بين الجميع ومن تناصحٍ بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

ثم يحثهم على أن يمثلوا الأخلاق السامية الفاضلة بين أقوامهم حتى تظهر عليهم آثار ما كانوا فيه من غربة للتربية والتعليم، فيجيبوا الناس في العلم ويكونوا لهم قدوة فيه وفي العمل به.

ويوصيهم بنشر ما تعلموا من خير برفق ولطف وأن يكونوا مظاهر محبة ورحمة على ما قد يلقونه من جفوة من بعض الناس، وأن لا يقابلوا ذلك إلا بالتسامح دون أي شيء من المكروه، وفي إحدى وصاياه للناس قال لهم: اتقوا الله، ارحموا عباد الله، اخدموا العلم بتعلمه ونشره، وتحملوا كل بلاء ومشقة في سبيله، وليهن عليكم كل عزيز ولتهن عليكم أرواحكم من أجله.

أما الأمور الحكومية وما يتصل بها فدعوها لأهلها واياكم أن تتعرضوا لها بشيء، وختم الاجتماع بالدعاء والابتهال بما فيه صلاح الحال والمال إن شاء الله تعالى.

(1) المصدر نفسه ص 44.

ثم في المساء ودعهم الأستاذ واحداً واحداً فرجعوا إلى بلدانهم مزودين بالخير دعاة إليه فتح الله عليهم وفتح بهم إنه الفتاح العليم[1].

وكان الإمام عبد الحميد يرد على رسائل الطلبة من خلال الصحافة وهذا نموذج في الرد:

تحية وشكر إلى أبنائي الطلبة:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته:

جاءتني كتبكم وأفادتني ما يسرني ويسر كل محب للعلم من استمراركم على الجد في مراجعته والترغيب فيه ونشر الهداية . كلٌّ بما استطاع . بين قومه وعشيرته وقد ضاق وقتي عن مكاتبتكم واحداً واحداً فكاتبتكم بهذا على صفحات مجلتكم شاكراً لكم حسن عهدكم وصدق مودتكم سائلاً من الله تعالى أن يجمع قلوبنا على الحق وأعمالنا على الخير.

وسيكون افتتاح الدروس في منتصف شهر أكتوبر أن شاء الله كالمعتاد سهل الله لنا ولكم أسباب العلم النافع ووفقني وإياكم إلى العمل الصالح.

والسلام من أبيكم

عبد الحميد بن باديس[2].

## 10 . بناء جيل من الشباب:

امتدت المرحلة الأولى من جهاده الإصلاحي ثماني عشرة سنة من العمل والجهد المتواصل، تمثلت أولاً في مرابطته مدرساً ومعلماً بالجامع الكبير ثم بالجامع الأخضر من بعده، وفي سيدي قموش، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي بومعزة المسجد العائلي، للصغار والكبار معاً بعد أن كان التعليم في مساجد قسنطينة لا يشمل إلا الكبار، وأما الصغار فإنهم يتعلمون القرآن فقط في الكتاتيب على طريقة المغاربة، التي يذكرها ابن خلدون في

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 224).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 224).

مقدمته، فكان يعلم الصغار من غير تعطيلهم أو توقيفهم عن الدراسة بالكتاتيب صباحاً ومساءً بعد الخروج منها، وفي هذا يقول ابن باديس: فلما يسر الله لي الانتساب للتعليم عام 1332هـ 1913م، جعلت من جملة دروسي تعليم الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة، واخر العشية ؛ فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار[1]، لمبادئ اللغة العربية والدين وعلومهما.

ولم يكن ابن باديس وقتئذ يعرف استقراراً بمسجد معين، بل كان يتنقل بين معظم مساجد قسنطينة نظراً لمضايقات الاستعمار وعيونه له، وتألب خصوم الإصلاح عليه إلى أن استقر به المقام في الجامع الأخضر الذي تحول إلى مؤسسة ومعهد يضم ما يناهز الألف طالب، فكانت دروسه تجذب أفواجاً من الشباب، ودروس الوعظ والإرشاد كانت تجتذب الجماهير إلى حظيرة الإصلاح، وتحدث كل يوم ثغرة في صفوف الضلال، فيأخذ الجميع من علمه وينهل من نبعه، ويتربى على يديه ويتعلم ما يصلح به أمر دينه ودنياه واخرته.

فكانت دروسه . بحق . سبباً قوياً وهاماً في إحياء تعاليم الإسلام وروح العربية والإحساس بالوطنية في النفوس، وحجر الزاوية في إقامة صرح النهضة الإسلامية والعربية في الجزائر؟

واستطاع ابن باديس بعلمه التعليمي التربوي المكثف والمنظم والمتواصل، أن يخرج جيلاً من الشباب المتشبع بقيم الإسلام ولغته واداها. ويعتبر هو نفسه أن هذه المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر[2]، التي تخرجت على يديه وأصبح أفرادها ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة وتركيب عربي حر.. ويُحبرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم، من إخوانهم في المشرق العربي، ويعتلون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القول المؤثر والوصف الجامع ويصفون الدواء الشافي بالقول البليغ[3].

---

(1) عبد الحميد بن باديس، رابح تركي ص 353.

(2) جهاد ابن باديس ص 117.

(3) المصدر نفسه ص 117.

قضى ابن باديس ثماني عشرة سنة في التعليم والتربية والعمل الهادئ بعيداً عن الضوضاء وأحداث الصخب، لأنه كان يحب العمل المنظم الهادف ولكن دون ضوضاء أو إثارة نعرات سواء منها السياسية التي تثير أحقاد المستعمرين أو الدينية التي تمزق كلمة المسلمين[1].

ويمكن القول أن ابن باديس قاد ثورة فكرية وحركة ثقافية وتحوّل معرفي، ساهم في نهضة الجزائر وإعداد جيل المقاومة والجهاد، والذي أعلن الثورة على الاستعمار.

**خامساً: ابن باديس والصحافة:**

ظهرت في الجزائر خلال تلك الفترة صحافة وطنية عربية ساهمت مساهمة فعالة في بعث النهضة الفكرية والإصلاحية الحديثة، فقد عالجت في صفحاتها كثيراً من الموضوعات الحساسة، منها: الدعوة إلى تعليم الأهالي وفتح المدارس العربية لأبناء المسلمين، والتنديد بسياسة المستعمرين واليهود، ومقاومة الانحطاط الأخلاقي والبدع والخرافات، فهذا الأستاذ عمر راسم يجلجل بارائه على غير مواربة ولا خوف فيقول: أجل يجب أن نتعلم لكي نشعر بأننا ضعفاء.. يجب أن نتعلم لكي نعرف كيف نرفع أصواتنا في وجه الظلم، يجب أن نتعلم لكي ندافع عن الحق وتأبى نفوسنا الضيم ولكي نطلب العدل والمساواة بين الناس في الحقوق الطبيعية، وفي النهاية لكي نموت أعزاء شرفاء ولا نعيش أذلاء جبناء[2].

كما ظهر في هذا الميدان كتّاب شاركوا بمقالاتهم وتحليلاتهم في تشخيص الداء الذي ألمّ بالأمة واقتراح الدواء الناجح لذلك. من هؤلاء الشيخ مولود بن الموهوب والشيخ عبد الحليم سماية، والأستاذ عمر بن قدور وغيرهم[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 118.

(2) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 58.

(3) المصدر نفسه ص 58.

كانت الصحافة العربية الجزائرية في تلك العقود نوعين نوعاً ممالئاً للاستعمار، ونوعاً مقاوماً له.

فالصحافة الأولى كانت خادمة للإدارة الاستعمارية، صدرت بإيعاز منها وبمساعدتها للتمويه والتضليل مثل جريدة الجزائري، الذي كانت تصل إليه أصداء الحركة الوطنية المصرية وصحفها، وغير ذلك من الصحف الكثيرة التي كان أصحابها من الأوروبيين الفرنسيين أو الجزائريين الممالئين للإدارة، كجريدة «كوكب أفريقيا» التي صدرت في سنة 1907م.

والصحافة الثانية كانت صحافة وطنية، اضطلع بإصدارها وطنيون جزائريون صادقون مخلصون، مثل مجلة «الجزائر» التي أصدرها في العاصمة الوطني الغيور عمر راسم في 27 أكتوبر 1908م، لتبصير الشعب الجزائري وتثقيفه وإطلاعه على أسرار السياسة.

على أن عمر راسم حاول مرة أخرى سنة 1913م أن يصدر جريدة بعنوان «ذو الفقار» شديدة اللهجة إصلاحية الاتجاه، ولقد عطلتها الإدارة لحدة أسلوبها متعللة باندلاع الحرب العالمية الأولى، وقد صدر منها أربعة أعداد وسيق الوطني الغيور عمر راسم إلى السجن(1).

### 1 . ابن باديس الصحافي:

انتقل ابن باديس بالعمل الإصلاحي الجهادي من مجال العمل المسجدي والمدرسي إلى مجال العمل الصحفي، فإدراكاً منه لأهمية وسائل الإعلام والاتصال، ودورها في الاتصال بالقاعدة الشعبية العريضة بمختلف شرائحها، بحكم أنها عبارة عن مدارس متنقلة تساهم بشكل فعال في نشر الأفكار والمبادئ(2).

كان ابن باديس صحفياً ممتازاً وأستاذاً للصحفيين بدون منازع، والجانب الصحفي يظهر في مجالات

---

(1) مقدمة مجلة الشهاب ، عبد الرحمن شيبان ص 7.

(2) جهاد ابن باديس ص 114.

مختلفة من حياته، ولذلك انطلق في هذا المسار والاتجاه وحقق نجاحات ملموسة ومؤثرة في الشعب الجزائري.

### 2. تأسيس جريدة المنتقد:

أسس جريدة المنتقد الأسبوعية في 11 ذي الحجة 1343هـ تموز 1925م وكان يصدرها صبيحة كل خميس من كل أسبوع، وتولى بنفسه رئاسة تحريرها، بينما أوكل رئاسة إدارتها إلى السيد أحمد بو شمال، وجعل شعارها الحق فوق كل واحد والوطن قبل كل شيء.

وجاء في افتتاحية عددها الأول وفي صفحتها الأولى بيان لخطة الجريدة وأهدافها ومنهجها في العمل الإصلاحي الجهادي تحت عنوان: مبدؤنا وغايتنا وشعارنا ما يلي: بسم الله، ثم بسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون. وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها، لا مقصرين ولا متوانين، راجين أن ندرك شيئاً من الغاية التي نرمي إليها بعون الله ثم بجدّنا وثباتنا وإخلاصنا وإعانة إخواننا الصادقين في خدمة الدين والوطن[1].

ثم تشرح الجريدة المبادئ التي تقوم على أساسها وينطلق منها عمل مؤسسيها الصحفي والإصلاحي الجهادي والتي حددوها في ثلاث مبادئ هي:

المبدأ السياسي، المبدأ التهذيبي، المبدأ الانتقادي[2].

أراد الشيخ عبد الحميد من خلال الصحافة أن يتخذ منها مدرسة للتعليم والتهذيب والتوجيه.

وقد جاء في افتتاحية العدد الثامن عشر من المنتقد وهو العدد الأخير منها بتاريخ 10 ربيع الثاني 1344هـ / 29 أكتوبر 1925م ، بعنوان «معامل العقول» كما أن لمواهب الأرض معامل تحولها إلى مرافق

---

(1) المنتقد: (س 1، ع1، ص1).

(2) جهاد ابن باديس ص 114.

الحياة، ووسائل الراحة لبني الإنسان ؛ فكذلك للعقول معامل تُهذبها وتجعلها الة لإصلاح البلاد وإعزاز العباد[1].

وقد كان الشيخ عبد الحميد يهدف إلى القضاء على الجمود الفكري في فهم الإسلام وتخليصه من الضلالات والخرافات الشائعة في العقائد التي بثها بعض أدعياء التصوف في صفوف الشعب المسكين[2].

وقد قاومت الجريدة الجريئة ـ من جهة أخرى ـ أفكار الفرنسة والتغريب، مذكرة الجزائريين المسلمين بأنهم أمة لها قوميتها ولغتها ودينها وتاريخها، يقول الدكتور محمد ناصر في كتابه «الصحف العربية الجزائرية»: إن جريدة المنتقد تعتبر تحولاً هاماً في تاريخ الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر، لأنها تختلف عن الصحف التي سبقتها، سلاسة أسلوب، ومتانة لغة، وعمق أفكار، إذ استطاع ابن باديس أن يضم إليه خيرة الأقلام العربية مثل مبارك الميلي، والطيب العقبي، والفرقد، وأبي اليقظان، ومن الشعراء محمد العيد، ومحمد الهادي السنوسي[3].

إن هذه الجماعة من الكتّاب والشعراء كانت تمثل الفكرة الإصلاحية التي رسخت جذورها في القطر الجزائري. وقد كانت لهجة الجريدة ـ أعني المنتقد ـ لهجة حارة وحملتها ضد الضلالات والبدع حملة صادقة أثارت حفيظة بعض المبتدعين الجامدين، فأخذوا يسعون ضدها لدى سلطة الإدارة الاستعمارية، فعُطلت بأمر حكومي بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً خلال أربعة أشهر، اشار الشيخ ابن باديس إلى سبب هذا التعطيل في العدد الأول من جريدة «الشهاب» التي خلفت «المنتقد» بعد أسبوعين فقط، فقال: أثار الذين اعتادوا التملقَ صدقَها ، وكبر على الذين تعودوا النفاق صراحتها ، وهال الذين اعتادوا الجبن من الرؤساء أو

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 9.

(2) المصدر نفسه ص 9.

(3) الصحف العربية الجزائرية ، د. محمد ناصر ص 54 ـ 55.

اعتادوا الجمود من الأتباع ؛ صرامتَها... أجمعت هذه الطوائف أمرها، فأخذوا يسعون في الوشاية لتعطيلها وحمل الحطب للمراجع العليا لتحرقها حتى عُطلت[1].

ومن الجدير بالذكر أن تعطيل «المنتقد» كان بقرار من وزارة الداخلية في باريس، ولم يكن من دوائر الولاية العامة في الجزائر أو عامل عمالة قسنطينة، كما كانت تجري الأمور عادة[2].

### 3 . جريدة الشهاب:

وبعد تعطيل «المنتقد» إصدار ابن باديس «الشهاب» فخلفت الأولى في مبادئها وأفكارها وحملت شعارها، على أن الشيخ اصطنع في تحريرها نوعاً من المرونة السياسية، فكان يلين القول ويخفف اللهجة مع السلطة الحاكمة في فرنسا، بينما يغلظه ويحتدّ فيه مع أقطاب الاستعمار ومن لفّ لفهم من المتفرنسين والخونة في الجزائر[3].

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس في الشهاب العدد الأول الصادر في 25 ربيع الثاني 1344هـ الموافق 12 نوفمبر 1925م سواء علينا أُعجبنا أم لم نعجب... فقد وقف المنتقد، ولكن الفكرة الحرة الحقة السليمة الإصلاحية لم تقف ولن تقف، وقف المنتقد فها هو أخوه «الشهاب». واصلت جريدة الشهاب رسالة جريدة المنتقد فلاقت في سبيلها العناء والبلاء وصبرت وصابرت تشتد مرة وتلين أخرى حتى صدمتها في سنتها الرابعة أزمة مالية فتحولت إلى مجلة شهرية[4].

### 4 . مجلة الشهاب:

كانت مجلة الشهاب الشهرية مجلة راقية، تؤرخ للحركة الفكرية والاجتماعية الجزائرية في مرحلة من أهم

---

(1) المصدر نفسه ص 55.

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 11.

(3) الصحف العربية الجزائرية ص 58.

(4) مقدمة مجلة الشهاب ص 11.

مراحلها التاريخية، وكانت بالرغم من حجمها المتواضع غزيرة المادة عديدة الأبواب منها:

ـ مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، وحديث البشير النذير من تحرير الشيخ عبد الحميد، وهي في الغالب افتتاحيات لمجلة الشهاب ويتناول فيها شرح آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة على طريقة الشيخ رشيد رضا في المنار.

. «في المجتمع الجزائري» وتعرض فيه قضايا خاصة بمجتمعنا، من تحرير الشيخ أو غيره من كتاب المجلة.

ـ «رسائل ومقالات» وينشر تحت هذا العنوان الرسائل التي ترد على المجلة من مختلف أنحاء القطر وفي شتى الموضوعات.

ـ «نظرة في السياسة العالمية» وقد انقسم الباب بعد فترة إلى عنوان «في الشمال الأفريقي» وعنوان «الشهر السياسي» في الشرق والغرب.

. باب «المباحثات والمناظرات» في المسائل الفقهية أو الحضارية أو اللغوية.

. «مجتنيات من الكتب والصحف» تنشر فيها عيون المقالات والأحاديث لأعلام الكُتّاب والأدباء العرب والمصلحين في البلاد العربية والإسلامية مثل محمد رشيد رضا، وشكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، ومن الأدباء مصطفى صادق الرافعي، ومحمد حسين هيكل، وزكي مبارك، وكذا أدباء المهجر.

. «قصة الشهر وأخبار وفوائد» وغير ذلك من الأبواب التي ثابرت المجلة على مواصلة تغذيتها، فقد كانت مجلة جامعة فكرية أدبية إصلاحية وطنية سياسية انشأت بيئة ثقافية واسعة في الجزائر، لا يستغني عنها قراء العربية في تلك السنين، كما كانت المجلة تعبيراً وافياً عن مظاهر النهضة الأدبية وأداة لنشر لغة عربية متينة بينة في أوساط واسعة من الطلبة والقراء في الجزائر[1].

---

(1) المصدر نفسه ص 13.

وفي مجال الفكر الإصلاحي الديني نشير إلى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس وجه في 26 نوفمبر 1925م في الشهاب الجريدة نداء لتأسيس «حزب ديني إصلاحي» وهي فكرة دعا إليها عمر بن قدور في جريدة «الفاروق» من قبل ولكنها لم تتحقق إلا في 5 ماي 1931م بتأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» لكن في صورة جمعية لا في صورة حزب.

إن فكرة تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم تزل تشغل بال الشيخ عبد الحميد منذ اجتماعه في الحجاز بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي سنة 1913م، ولم يزل يعمل لها حتى تضافرت جهود العلماء المصلحين على إبرازها إلى الوجود، أعني إثر احتفال فرنسا بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر، فكان ذلك جواباً على الدعاية الصاخبة الطاغية بنجاح الاستعمار في القضاء على الجزائر العربية المسلمة.

وقد دلت الوقائع بعد ذلك على أن الانتصارات المادية التي كانت تتبجح بها أبواق الاستعمار ؛ لم تكن لتمحو الشعب الجزائري من الوجود، ولا أن تنسيه تاريخه وأمجاده وإسلامه الحنيف رمز شخصيته.

وبتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تعززت الصحافة الغربية بجرائد الجمعية وهي:

. السنّة 1933م.

. الشريعة 1933م.

. الصراط المستقيم.

. البصائر التي كتب لها البقاء في أربع سلسلات، أولاها: في عهد ابن باديس، والثانية: في الفترة ما بين 1947م و1956م في عهد الإبراهيمي، والثالثة: أصدرتها الجمعية الخالدة المبادئ في عهد الاستقلال سنة 1992م، وقد صدرت من هذه السلسلة الأخيرة ستة وعشرون عدداً ثم توقفت، واستأنفت البصائر الصدور في 18 صفر 1421هـ / 22 ماي 2000م، لمواصلة كفاحها ودعوتها الأصيلة القائمة على وحدة الشعب

الجزائري في عروبته وعقيدته الإسلامية ولغته وتاريخه[1].

## 5. منهاج الشهاب:

إن الكلمة التي كتبها صاحب الشهاب الإمام ابن باديس عن فاتحة السنة الرابعة عشرة في محرم 1357هـ / مارس 1938م تعبر أوفى تعبير عن منهاج الشهاب ومجالات جهاده ومواقفه تحت شعارين أساسيين مرفوعين في صدر غلاف المجلة، أحدهما عن اليمين، وثانيهما عن الشمال، فالشعار الأول يمثل المبدأ العام للدعوة التي نذر نفسه لخدمتها وهو قوله تعالى: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [يوسف : 108].

ويمثل الشعار الثاني الطريقة التي يبلغ بها هذا المبدأ العظيم وهو قوله تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل : 125].

يقول الاستاذ الرئيس صاحب مجلة الشهاب: بحمد الله وتوفيقه وإعانته ثم بشكر المشتركين بعقولهم أو مالهم وتأييدهم نخطو خطوة جديدة بهذه المجلة في ميدان الحياة، على ما عرفه القراء منا من صراحة في الرأي وصلابة في الحق، ورغبة في الخير، نعمل لصالح الأمة في دينها ودنياها على نور الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح، فتتمسك الأمة بإسلامها وعروبتها، وتحافظ على قوميتها وتاريخها وتتناول أسباب الحياة والتقدم من كل جنس وكل لغة. وتعمل مع كل عامل لخير البشرية وسعادة الإنسان على هذه الأصول وفروعها. مضت الثلاث عشرة سنة من حياة هذه المجلة وقد شاهدت من آثار تلك الأصول في الأمة بحمد الله . ما زادها إيماناً بهذه الأصول وفروعها وثباتاً وصبراً على ما تلقاه في سبيلها[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 14.

(2) المصدر نفسه ص 15.

## 6 . ابن باديس وتقاليده الصحفية المميزة:

إن المتتبع لاثار عبد الحميد بن باديس الصحفية ولأقواله حول الصحافة والصحفيين ؛ يمكن أن يصل إلى اكتشاف جوانب فكرية هامة يستحق كل منها الدرس والبحث على حدة:

**أ . النزاهة الصحفية**: وهذه النزاهة التي كان يحرص عليها ابن باديس هي الوسيلة الفعالة لخلق وبلورة الرأي في الصحافة، والنزاهة في الكتابة الصحفية، وفي المناقشة تفقد الكثير منها مع الأسف، فمازال هناك من ينتقع كلما وجهت إليه ملاحظة حتى ولو كانت في سبيل الحق.

**ب . وضوح الفكرة وبساطة التعبير واحترام القارئ**: وهذه خصائص لا يمكن أن تنجح صحافة بدونها، وقد تدهش عندما ترى عبد الحميد بن باديس يقدم العدد السنوي من مجلة الشهاب ببضعة أسطر، وليس بمقالة طويلة لا تحمل بين طياتها أكثر مما تحمله هذه الأسطر الموجزة.

**هـ . الثقة بالأمة والإيمان بإرادة الشعب، والعمل على إسعاده.**

فهذه الروح كانت تشع في جميع أعمال ابن باديس وهي التي تميز كل كتاباته الصحفية[1].

* * *

(1) ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير د. محمد بحي الدين سالم ص 55.

## المبحث الثالث

## جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

يقول المفكر الاجتماعي الإسلامي محمد المبارك الذي تابع باهتمام الحركة الإصلاحية في الجزائر وفي فرنسا: إن جمعية العلماء قد أحيت الجزائر، وبعثت فيها عروبتها التي كادت أن تغيب، وإسلامها الذي كاد يقضى عليه. ولو أن حركات التحرر السياسي في الجزائر سارت بطريق آخر وعلى منهج بعض الهيئات التي أنشئت في جو التأثر بالثقافة الفرنسية ؛ لكانت الجزائر اليوم قطراً فرنسياً، ولو أنه مستقل استقلالاً ذاتياً، لكنه استقلال يمحو ذاتيتها ويزيل عنها إسلامها وعربيتها[1].

إن من الوفاء للتاريخ ومن الوفاء لأصحاب الفضل والسابقة أن نضع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في القمة من تاريخ الجزائر الحديث[2].

كان الاستعمار الفرنسي حريصاً على نزع الطابع الإسلامي من الجزائر وإضفاء الطابع المسيحي عليه منذ الأيام الأولى للاحتلال، فقد أعطى القائد روفيقو أوامره الصارمة لتحويل أجمل مسجد في مدينة الجزائر إلى كاتدرائية وقد سارعت قواته إلى تنفيذ هذا المخطط، فحاصرت المسجد بتاريخ 18 ديسمبر 1832م وهو غاص بالمصلين فنزلت عليهم ضرباً بالفؤوس والرماح فاستشهد منهم أربعة الاف مسلم جزائري كانوا مرابطين بالمسجد، وتحول المسجد إلى كاتدرائية وقد عرف مسجد صالح باي وهو أجمل مسجد بقسنطينة مصير جامع

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 57.

(2) المصدر نفسه ص 57.

كتشاوة إذ حوله المحتلون إلى كنيسة، وقد جلب لها القس سوشيه منبراً كان آية في النقش العربي من أحد المساجد، وعلى درجات هذا المنبر قام سكرتير الحاكم العام بيجو خطيباً فقال: إن أيام الإسلام الأخيرة قد حلت، ولن تمضي مدة عشرين سنة حتى لا يبقى في الجزائر من إله سوى المسيح، وها هو العمل الإلهي قد بدأ في اللحظة هذه إذا ما خامرنا الشك في بقاء هذا التراب في حضن فرنسا، فلا ريب على الأقل في كون الإسلام قد خسره، إن الرجوع الشامل إلى الله سيكون العلامة التي أتيقن بأن فرنسا ستحتفظ بالجزائر، وأن العرب لن يصبحوا رعايا لفرنسا إلا عندما يصيرون نصارى[1].

إن الاستعمار قد عمل ما في وسعه لتحويل الشعب الجزائري عن هويته الأصلية معتمداً على الجندي والطبيب والمعلم والراهب.

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في معرض الرد على مزاعم الوالي الفرنسي المشهور «نيجلان» الذي يمن على الجزائر أن فرنسا قد أمدتها بعناصر التمدن الأربعة المذكورة[2]:

. جاءت فرنسا إلى الجزائر بالراهب الاستعماري لتفسد به على المسلمين دينهم وتفتنهم به عن عقائدهم، وتشككهم بتثليثه في توحيدهم، وتضارّ في ألسنتهم كلمة الهادي بكلمة الفادي، ذلك كله بعد أن أمدته بالعون وضمنت له الحرية وكفرت به هناك لتؤمن به هنا.

. وجاءت بالمعلم الاستعماري ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم ويلقي الاضطراب في أفكارهم، ويستنزلهم عن لغتهم وادابهم، ويشوّه لهم تاريخهم، ويقلّل سلفهم في أعينهم، ويزهدهم في دينهم ونبيهم، ويعلمهم . بعد ذلك تعليماً ناقصاً هو شرٌّ من الجهل.

وجاءت بالطبيب الاستعماري ليحافظ على صحة أبنائها قبل كل شيء بآية أنه لا يكون إلا حيث

(1) المصدر نفسه ص 58.

(2) البصائر العدد 103 في 16 جانفي 1950.

يكون الأوروبيون، لا في المداثر[1] التي يسكنها الألوف من المسلمين وحدهم ولا في القبائل المتجاورة التي تعد عشرات الألوف منهم. أما هذا الطبيب الاستعماري بالنسبة إلى المسلمين فكأنما جاء ليداوي علة بعلل، ويقتل جرثومة بخلق جراثيم، ويجرب معلوماته فيهم كما يجربها في الأرانب، ثم يعيش على أمراضهم التي مكّن لها الاستعمار بالفقر والجهل[2].

إن الاستعمار القائم على الجندي والمعلم والطبيب والراهب هيكل حيواني يمشي على أربع، وإن الاستعمار قد قضى بواسطة هؤلاء الأربعة على عشرة ملايين من البشر، فرمى مواهبهم بالتعطيل فما أشأم الاستعمار[3]!.

تلك كانت إرادة المستعمرين ومطامعهم منذ أن وطئت اقدامهم أرضنا الطيبة، وهي جعل الجزائر فرنسية تراباً وسكاناً، ولكن القرآن الكريم وتعاليمه الرشيدة وقيمه الخالدة ومقاصده الرفيعة، وتعلق الشعب الجزائري به كان أعظم من فرنسا ومحاولاتها، كما عبّر ذلك أكمل تعبير أحد سدنة الاستعمار في عهده الأخير «روبير لاكوست» الوزير الفرنسي المكلف بإدارة الجزائر تعليقاً على الحادثة التي أوردها الأستاذ عبد الله ناصح علوان: إذ يقول:

من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر قامت فرنسا بتجربة عملية، قامت بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات، أدخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية، وألبستهن الثياب الفرنسية، ولقنتهن الثقافة الفرنسية، وعلمتهن اللغة الفرنسية فأصبحن كالفرنسيات تماماً، وبعد أحد عشر عاماً من الجهود هيأت لهن حفلة تخريج رائعة دعي إليهن الوزراء والمفكرون والصحفيون، ولما ابتدأت الحفلة ؛ فوجأئ الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري فثارت الصحف الفرنسية وتساءلت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عاماً (1958م).

---

(1) المداثر: قرى ريفية.

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 59.

(3) المصدر نفسه ص 59.

فأجاب لاكوست: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟

نعم إن القرآن الكريم المنهج الرباني أقوى من فرنسا ومن كل عدوان وشرّ في الأرض، إذا وجد من يحسن فهمه والعمل به في كل عصر ومصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولذا اعتمد عليه الشيخ ابن باديس في حركته التجديدية الساعية نحو التحرير والاستقلال، وقد استطاع ابن باديس تحويل جهوده الفردية إلى عمل منظم على مستوى القطر الجزائري، جمع فيه علماء البلاد في جمعية علماء المسلمين، والتي ساهمت مساهمة عظيمة في توعية الشعب ورفع الجهل عنه، ودعم الثورة ضد الاحتلال بكل ما تملك من أدوات وأفكار ووسائل، إن أول مسمار دق في نعش الاستعمار وأول لبنة وضعت في جدار الاستقلال بعد عهود المقاومة الشعبية المسلحة كانت بانتصاب الشيخ ابن باديس لتدريس القرآن والسنة وعلومهما بقسنطينة منذ سنة 1913م، وصدق رسول الله (ص) القائل: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه[1].

كما سبق الإشارة إلى ذلك ـ وذلك مصداقاً لقولته المشهورة: أنا أحارب الاستعمار لأني أعلّم وأهذّب فمتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض أجدبت على الاستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير.

ويقول ابن باديس: إن الحياة تنبعث من المدارس فيجب أن تكون المدارس أول ما نهتم به ونسعى لتحقيقه، وكل من يعارض في تأسيسها فقد عارض في حياة الأمة ونهضتها.

نعم إن ابن باديس ليس فقط محارباً للاستعمار بل إن الاستعمار ليرى فيه وفي حركته أعظم خطر على سيادة فرنسا على الجزائر، لقد نشرت جريدة البصائر مقالاً عن تقييم الفكر الفرنسي الاستعماري لابن باديس وحركته ـ جمعية العلماء ـ فيما كتبته الجريدة الفرنسية « صدى باريس » بترجمة مجلة الصباح التونسية بعنوان

(1) رواه الإمام مالك في الموطأ.

«عرب الجزائر» جاء فيه:.. إن الحركة التي يقوم بها العلماء المسلمون في الجزائر أكثر خطراً من جميع الحركات التي قامت حتى الان، لأن العلماء المسلمين يرمون من وراء حركتهم هذه إلى هدفين كبيرين الأول سياسي والثاني ديني.

والعلماء المسلمون المثقفون هم العالمون بأمور الدين الإسلامي وفلسفته، والواقفون على أسرار معتقداته، فهم لا يسعون إلى إدماج الجزائر بفرنسا، بل يفتشون في القرآن نفسه عن مبادئ استقلالهم السياسي.

أسس هؤلاء العلماء في عام 1931م، أي بعد انعقاد المؤتمر الإسلامي في القدس اجتماعاً عظيماً، وشكلوا على إثره جمعية كبيرة انتشرت في قليل من الزمن انتشاراً سريعاً، ولا تزال هذه الجمعية تنمو نمواً مطرداً يوماً بعد يوم، رأس الشيخ ابن باديس هذه الجمعية، وكانت له اليد الطولى في تأسيسها، وهو رجل سياسي ومتدين يمت بنسبه إلى أسرة عريقة في قسنطينة، وضليع جداً في العلوم الدينية وله نفوذ كبير في الجزائر، ويتظاهر أنه لا يعرف اللغة الفرنسية مع أنه يتقنها كل الإتقان[1].

وإن هذا التصور للمفكرين المدنيين الفرنسيين لخطورة ابن باديس . صاحب الشهاب وحركته على الاستعمار . لهو عين تصور العسكريين الفرنسيين أنفسهم، من ذلك ما كتبه المرحوم السيد محمود عبدون إذ يقول: بينما أنا أيام الحرب العالمية الثانية بالجنوب التونسي، قريباً من خط مارث، الذي أقامته فرنسا في الحدود التونسية الليبية، وبما أنني من حراس بعض المكاتب، قررت يوماً أن أطلع على وثائق الضابط المكلف بالتموين، فعثرت على وثيقة رسمية «جد سرية» تصنف الشخصيات السياسية الجزائرية الأكثر خطورة على السيادة الفرنسية، ولكم كانت دهشتي عظيمة إذ وجدت ابن باديس على رأس القائمة متبوعاً بمصالي وبحزب الشعب[2].

---

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 62.

(2) المصدر نفسه ص 62.

## أولاً: العوامل التي ساعدت على تأسيس جمعية العلماء:

تضافرت ظروف عديدة وعوامل كثيرة ساهمت جميعها في إظهار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى الوجود نذكر منها:

### 1 . الظروف التي نشأت فيها الجمعية:

مرور قرن كامل على الاحتلال الفرنسي للجزائر واحتفال الفرنسيين بذلك استفزازاً للأمة، وإظهاراً للروح الصليبية الحاقدة التي يضمرونها للإسلام والمسلمين، كانت الاحتفالات سنة 1349هـ 1930م، فأقامت فرنسا مهرجانات بمئوية استعمارها للجزائر واستفزت هذه الاحتفالات ضمير الأمة وفجرت فيها روح الإصلاح وطاقات المقاومة، ففي تلك الاحتفالات خطب أحد كبار الساسة الاستعماريين الفرنسيين فقال: إننا لن ننتصر على الجزائريين ماداموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم وأن نقتلع العربية من ألسنتهم.

وخطب سياسي آخر فقال: لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فلقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار.

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية . بهذه المهرجانات . فقال: إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر وإن عهد الصليب قد بدأ وإنه سيستمر إلى الأبد، وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهداً لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل.

وفي مواجهة هذا الفجور الاستعماري الصليبي، تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م سالكة طريق المنهاج الإسلامي في الإصلاح والعمل المؤسسي المنظم، وتضاعفت الجهود في تأسيس المدارس

وإلقاء الخطب والدروس في تكوين الجيل العربي المسلم والوطني العامل على استعادة الجزائر إلى حضن العروبة والإسلام والاستقلال[1].

### 2. حاجة الشعب لهذه الجمعية:

إن وجود الجمعيات والاتحادات والنوادي المسيحية وغير المسيحية كان معروفاً في ذلك الوقت، مما دفع بالعلماء المسلمين إلى إنشاء جمعية إسلامية تحدياً للجمعيات غير الإسلامية، حتى تنظم التعليم الحر وتقيم الشعائر الإسلامية وبعض الاحتفالات الدينية، بالإضافة إلى تلك الجمعيات الدينية والثقافية، فقد كانت هناك بعض التنظيمات والأحزاب السياسية الأوروبية في الجزائر قد جذبت بعض الجزائريين للانخراط في تنظيماتها، ثم نشأت بعض الأحزاب السياسية الجزائرية لتحقيق بعض المطالب السياسية الاجتماعية.

وكل ذلك ساهم في دفع الشيخ عبد الحميد بن باديس وإخوانه إلى تكوين الجمعية وقفاً للتزيف والتشتت وتقويماً للمطالب والمشروعات الاجتماعية والسياسية[2].

### 3. الثورة التعليمية:

لقد كان لحركة ابن باديس التربوية التعليمية التي شرع فيها منذ تفرغه للتدريس بقسنطينة سنة 1913م، إثر تخرجه من جامع الزيتونة. كما سلفت الإشارة إلى ذلك. أثر عظيم في طلابه المتوافدين على رحاب جامع الأخضر بقسنطينة من كل أرجاء الجزائر.. أثر في العقول والقلوب والسلوك لم تشهده البيئة الجزائرية من قبل، مما جعل الإمام محمد البشير الإبراهيمي نائب ابن باديس في حياته وخليفته من بعده يقرر في مقدمة كتاب سجل مؤتمر جمعية العلماء المنعقد بنادي الترقي في العاصمة في سبتمبر 1935م ؛ أن من العوامل الأساسية في نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر ؛ الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية، والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه، والتعاليم الحقة التي كان يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته ص 173.

(2) سؤال النهضة عند الشيخ عبد الحميد ، د. لطيفة عميرة ص 101.

والإعداد البعيد المدى الذي يغذي به أرواحهم الوثابة الفتية، فما كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من أفكار صحيحة، وعقول نيرة، ونفوس طامحة، وعزائم صادقة، وألسن صقيلة، وأقلام كاتبة، تلك الكتائب الأولى من تلاميذ ابن باديس هي طلائع العهد الجديد الزاهر، وقد سمع الناس ـ لأول مرة في الجزائر ـ من بعض تلك البلابل شعراً يؤدي معنى الشعر كاملاً، وقرؤوا كتابة تؤدي معنى الكتابة(1).

وتلاميذ الشيخ وإخوانه من العلماء ساهموا إلى حد بعيد في تأسيس جمعية العلماء.

ثم زحفت من أولئك التلاميذ في ذلك العهد أيضاً كتيبة جرارة سلاحها الفكرة الحية الصحيحة إلى جامع الزيتونة، لتكمل معلوماتها ولتبني على تلك الفكرة الحية وعلى ذلك الأساس العلمي الصحيح بناء علمياً محكماً، ورجعت تلك الطائفة إلى الجزائر فكان من مجموعها وممن تخرج بعدها من تلاميذ الأستاذ ومن تلاميذ جامع الزيتونة جنود الإصلاح وقادته وألويته المرفرفة وأسلحته النافذة.

نعلم إن التعليم الباديسي كان ثورة شاملة تعدّى أثرها تلاميذ ابن باديس ومدينة قسنطينة إلى قطاعات كثيرة في شتى نواحي الوطن وشتى المجالات ومن ذلك:

ـ إنشاء جريدة المنتقد والشهاب وغيرهما منذ عام 1925م كما أسلفنا.

ـ إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، وما تبع ذلك من تأسيس مساجد حرة للوعظ والإرشاد للرجال والنساء، ومدارس حرة للتربية والتعليم للبنين والبنات، وأندية للتثقيف والتوجيه للشباب.

ـ اهتمام الزوايا برفع مستوى التعليم فيها، بجلب الأساتذة الأكفاء وتحسين البرامج وطريقة التعليم.

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 17.

. اهتمام السياسيين بالتعليم وعنايتهم به بعد أن كانوا يرون أن الاشتغال بالتعليم إنما يأتي بعد الاستقلال.

. اهتمام المدارس الحكومية التي تشرف عليها السلطة الاستعمارية بالثقافة العربية الإسلامية، حتى لا تفقد مكانتها الثقافية والإدارية في أوساط الشعب الجزائري.

وبكل هذا يتضح خطأ من يظنون ويكتبون أن حركة الإصلاح إنما ابتدأت بتأسيس جمعية العلماء بتاريخ 5 ماي 1931م، بل تأسيس جمعية العلماء كان إرساء لأركان النهضة وازدهاراً لثمارها[1].

### 4. التغيير الفكري:

فقد تأثر علماء الجزائر بالحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي منذ محمد ابن عبد الوهاب، وخير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والكواكبي وغيرهم من زعماء الإرشاد والإصلاح في الشرق الإسلامي وغربه[2]، فكانت لمدارس الإصلاح تأثير مباشر في زعماء جمعية علماء المسلمين، كما أن التغيير الفكري الذي ظهر بعد الحرب العالمية الأولى حين سقطت أقنعة المشعوذين، الذين أماتوا على الأمة دينها بخرافاتهم وبدعهم وتسلطهم على الأرواح والأبدان باسم الدين[3].

## ثانياً: تأسيس جمعية العلماء:

### 1. أول اجتماع لرواد الإصلاح:

وبعد اللقاءات المتعددة التي كانت تتم بين ابن باديس والبشير الإبراهيمي، تارة في سطيف وأخرى في قسنطينة، التي كانت تنصب على دراسة الوضع في الجزائر والبحث عن السبل الكفيلة بمعالجة هذا الوضع،

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 18.

(2) سؤال النهضة عند الشيخ عبد الحميد ص 101.

(3) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 49.

وبعد هذه اللقاءات الممهدة فكر الشيخ عبد الحميد في أن يخطو خطوة عملية تكون تمهيداً مباشراً للشروع في التحضير لتأسيس هذه الجمعية، التي ظلت فكرة لم تجد طريقها للتنفيذ، وتوالت الجهود بعد ذلك الممهدة لإنشاء هذه الهيئة، ويذكر الشيخ خير الدين في مذكراته أنه في عام 1928م دعا الشيخ عبد الحميد بن باديس الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي لندوة يدرسون فيها أوضاع الجزائر، وما يمكن عمله لإصلاح هذه الأوضاع، وكان ممن لبى الدعوة من يمكن تسميتهم «رواد الإصلاح» أمثال: البشير الإبراهيمي، ومبارك الميلي، والعربي بن بلقاسم التبسي، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد خير الدين، واجتمعوا برئاسة الشيخ عبد الحميد بمكتبه، وقدم الشيخ حديثاً مطولاً عن وضعية البلاد والقوانين الجائرة التي تحكمها، ليصل بعد ذلك إلى دور العلماء في المقاومة والتضحية، ومن جملة ما قال: لم يبق لنا إلا أحد أمرين لا ثالث لهما: إما الموت والشهادة في سبيل الله منتظرين النصر الذي وعد به عباده المؤمنين، وإما الإستسلام ومدّ أيدينا إلى الأغلال وإحناء رؤوسنا أمام الأعداء، فتكون النتيجة لا قدر الله أن يجري علينا ما جرى ببلاد الأندلس.. ثم عرض خطة عمل مؤلفة من نقاط هي:

. إنشاء المدارس الحرة لتعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية.

. الالتزام بإلقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرة.

. الكتابة في الصحف والمجلات لتوعية طبقات الشعب.

. إنشاء النوادي للاجتماعات وإلقاء الخطب والمحاضرات.

. إنشاء الفرق الكشافة الإسلامية للشباب.

ـ العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والخضوع للحكم الأجنبي[1].

ومما يلاحظ هنا أن هذا الاجتماع قد سطر البرنامج الذي تستنهض به الجمعية المزمع إنشاؤها، فكأن

(1) إمام الجزائر ص 51.

ابن باديس أراد أن يسبق الأحداث، فحدد محاور النشاط الإصلاحي، الذي يجب أن تضطلع به الجمعية التي دعا إلى إنشائها، وفعلاً كان ذلك هو البرنامج الذي اتبعته الجمعية بعد ميلادها في عام 1931م.

وقبل ميلاد هذه الجمعية بسنة أنشأ الإمام عبد الحميد بن باديس جمعية أخرى لها وظيفة تربوية محضة هي: جمعية التربية والتعليم الإسلامية، وقد انتظم أعضاء المكتب العربي في هذه الجمعية، وتحول المكتب إلى مدرسة عصرية تحمل اسم هذه الجمعية، وهو الاسم الذي سيصبح من الان فصاعداً شعاراً لكثير من مدارس الإصلاح بالجزائر التي أشرنا إليها سابقاً.

وبهذه الهيئة أصبح للحركة الإصلاحية ثلاث هيئات:

. جمعية العلماء على مستوى الوطن.

. جمعية التربية والتعليم على مستوى قسنطينة.

. والإدارة المشرفة على الشهاب.

أي هيئة دينية سياسية، وهيئة تربوية تعليمية، وهيئة إعلامية.

ويشرح لنا البشير الإبراهيمي كيف نجح هو وابن باديس في اجتذاب العلماء والفقهاء إلى الجمعية فيقول: دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها، ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم، فاستجابوا جميعاً للدعوة واجتمعوا في يومها المقرر 5 ماي 1931م، ودام الاجتماع أربعة أيام في نادي الترقي بالجزائر العاصمة(1).

وهكذا تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم الخامس من ماي 1931م في نادي الترقي بالعاصمة، إثر دعوة وجهت إلى كل عالم من علماء الإسلام في الجزائر، من طرف هيئة مؤسسة مؤلفة من أشخاص حياديين ينتمون إلى نادي الترقي، غير معروفين بالتطرف لا يثير ذكرهم حساسية أو تكوين لدى

(1) المصدر نفسه ص 51.

الحكومة، ولا عند الطرقيين، أعلنوا أن الجمعية دينية تهذيبية تسعى لخدمة الدين والمجتمع، لا تتدخل في السياسة ولا تشتغل بها.

ولبى والدعوة وحضر الاجتماع التأسيسي أكثر من سبعين عالماً من مختلف جهات الوطن ومن شتى الاتجاهات الدينية والمذهبية ؛ مالكيين، وإباضيين، مصلحين وطرقيين، وموظفين وغير موظفين، وانتخبوا مجلساً إدارياً للجمعية من أكفأ الرجال علماً وعملاً، يتكون من ثلاثة أعضاء برئاسة ابن باديس الذي لم يحضر إلا في اليوم الأخير للاجتماع وباستدعاء خاص ومؤكد فكان انتخابه غيابياً.

ولم يكن رئيس الجمعية ولا معظم أعضاء مجلسها الإداري من سكان العاصمة، لذلك عينوا لجنة للعمل الدائم، ممن يقيمون بالعاصمة، تتألف من خمسة أعضاء برئاسة عمر إسماعيل، تتولى التنسيق بين الأعضاء وتحفظ الوثائق وتضبط الميزانية وتحضر للاجتماعات الدورية للمجلس الإداري[1].

## 2 . خطة بارعة:

لم يحضر ابن باديس الاجتماع التأسيسي للجمعية من الأول، وكان وراء ذلك هدف يوضحه الشيخ خير الدين أحد المؤسسين الذي حضر الجلسات العامة والخاصة لتأسيس الجمعية، يقول: كنت أنا والشيخ مبارك الميلي في مكتب ابن باديس بقسنطينة يوم دعا الشيخ أحد المصلحين محمد عبابسة الأخضري، وطلب إليه أن يقوم بالدعوة إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بالعاصمة، وكلفه أن يختار ثلاثة من جماعة نادي الترقي الذي لا يثير ذكر أسمائهم شكوك الحكومة أو مخاوف أصحاب الزوايا، وتتولى هذه الجماعة توجيه الدعوة إلى العلماء لتأسيس الجمعية في نادي الترقي بالعاصمة، حتى يتم الاجتماع في هدوء وسلام، وتتحقق الغاية المرجوة من نجاح التأسيس، ويقول الشيخ خير الدين وأسرّ إلينا ابن باديس أنه سوف لا يلبي دعوة الاجتماع ولا يحضر يومه الأول حتى يقرر المجتمعون استدعاءه ثانية بصفة رسمية، لحضور الاجتماع العام،

(1) إمام الجزائر ص 52.

فيكون بذلك مدعواً لا داعياً، وبذلك يتجنب ما سيكون من ردود فعل السلطة الفرنسية وأصحاب الزوايا ومن يتحرجون من كل عمل يقوم به ابن باديس[1].

وهكذا تأسست الجمعية وتشكل مجلسها الإداري المنبثق عن الاجتماع العام. وقد حرص أعوان الحكومة ومن معهم أن تكون للوجوه التي يرضون عنها مكانة في هذا المجلس، حتى يستطيعوا توجيهه كما يشاؤون ولكن عملية انتخاب الأعضاء خيبت مساعيهم، فقد فاز العلماء المصلحون الموالون لحركة ابن باديس بأهم المناصب فيه، برئاسة هذا الأخير. وهذه النتيجة لم ترض أعوان الإدارة الاستعمارية ولا أتباع الطريقة العليوية بالخصوص، لقد انتخبت الهيئة الإدارية ابن باديس غيابياً للرئاسة، والإبراهيمي نائباً له، وللكتابة العامة الأمين العمودي، وهكذا بدأ العمل الإصلاحي الجماعي ضمن إطار ثابت وتنظيم مقنن، تنظيم يتخذ من المسجد والمدرسة والصحيفة والنادي أدوات لحركته، وقد استقبل المواطنون عامة والمثقفون خاصة هذا الحدث بكامل الارتياح، وقد أصبح الشعار الذي أطلقه ابن باديس على الحركة الإصلاحية، الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا على كل لسان وهكذا تبدأ المرحلة الإصلاحية الحاسمة التي أصبحت الإدارة الاستعمارية تحسب لها ألف حساب[2].

### 3. القانون الاساسي للجمعية:

بتاريخ 5 ماي «أيار» 1931م صادقت الهيئة العامة لجمعية العلماء على قانون الجمعية الأساسي وإليك نص القانون:

**القسم الأول: الجمعية**

الفصل الأول: تأسست في عاصمة الجزائر جمعية إرشادية تهذيبية تحت اسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مركزها الاجتماعي بنادي الترقي الكائن ببطحاء الحكومة عدد 9 بمدينة الجزائر.

(1) مذكرات الشيخ محمد خير الدين (1 / 105، 106).

(2) إمام الجزائر ص 53.

الفصل الثاني: هذه الجمعية مؤسسة حسب نظام وقواعد الجمعيات المبينة بالقانون الفرنسي المؤرخ بغرة جويلية سنة 1901م.

الفصل الثالث: لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية.

**القسم الثاني: غاية الجمعية**

الفصل الرابع: القصد من هذه الجمعية هو محاربة الافات الاجتماعية، كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجز القوانين الجاري بها العمل.

الفصل الخامس: تتذرع الجمعية للوصول إلى غايتها بكل ما تراه صالحاً نافعاً لها غير مخالف للقوانين المعمول بها ومنها أنها تقوم بجولات في القطر في الأوقات المناسبة.

الفصل السادس: للجمعية أن تؤسس شعباً في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي.

**القسم الثالث: أعضاء الجمعية**

الفصل السابع: أعضاء الجمعية على ثلاثة أقسام:

مؤيدون وقيمة اشتراكهم عشرون فرنكاً

عاملون وقيمة اشتراكهم عشرة فرنكات

مساعدون وقيمة اشتراكهم خمسة فرنكات

الفصل الثامن: يتألف المجلس الإداري في الأعضاء العاملين فقط.

الفصل التاسع: الأعضاء العاملون فقط هم الذين ينتخبون كل سنة أعضاء المجلس الإداري المتألف من رئيس ونائب له وكاتب عام ونائب له وأمين مال ونائب له ومراقب وأحد عشر عضواً مستشاراً.

الفصل العاشر: للجمعية أن تنشأئ بمركزها بالجزائر مكتباً يكون على رأسه مدير مكلف بإدارة شؤونها ومصالحها.

الفصل الحادي عشر: وللجمعية أيضاً أن تحدث مكاتب عمالية في كل من العمالات، وعلى رأس كل مكتب منها كاتب مكلف بإدارة شؤون الجمعية وهذه المكاتب كلها تكون مرتبطة أتم الارتباط بالمكتب المركزي.

الفصل الثاني عشر: الأعضاء العاملون هم الذين يصح أن يطبق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائري بدون تفريق بين الذين تعلموا ونالوا الإجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية والذين تعلموا بالمعاهد العلمية الإسلامية الأخرى.

الفصل الثالث عشر: الأعضاء المؤيدون والأعضاء المساعدون يشملون كل من راق له مشروع الجمعية من غير الطبقة المبينة بالفصل المتقدم وأراد أن يساعدها بماله وأعماله على نشر دعوتها الإصلاحية.

**القسم الرابع: مالية الجمعية**

الفصل الرابع عشر: مالية الجمعية تتألف من معلوم اشتراكات الأعضاء بكافة أنواعهم المبينة في الفصول المتقدمة.

الفصل الخامس عشر: للجمعية أن تلتمس وتقبل من الحكام المحليين إعانات مالية.

الفصل السادس عشر: مبلغ الاشتراكات والإعانات يقبضه أمين المال ويسلم فيه وصلاً.

الفصل السابع عشر: مال الجمعية يوضع باسمها في أحد البنوك المحلية ولا يبقي أمين المال منه تحت يده أكثر من خمسمائة فرنك.

الفصل الثامن عشر: لا يجوز إخراج شيء من المال بقصد صرفه إلا بأمر كتابي ممضي من الرئيس والكاتب العام وأمين المال وذلك تنفيذاً لما يقرره المجلس الإداري.

الفصل التاسع عشر: يصرف مال الجمعية فيما تقتضيه مصلحتها ويوجبه الوصول إلى غايتها المبينة بالفصل الرابع من هذا القانون الأساسي.

**القسم الخامس: الاجتماعات الإدارية والعامة**

الفصل العشرون: المجلس الإداري يجتمع في الأوقات التي يراها مناسبة، ويجب أن تكون جلساته كلها مسجلة في دفتر محاضر الجلسات، وكل قرار يقرره المجلس ولا يكون مسجلاً بالدفتر المعد لذلك يعتبر لغواً لا عمل عليه، ويجب أن يمضي المحضر رئيس الجلسة وكاتبها.

الفصل الحادي والعشرون: ينعقد الاجتماع العام لسائر الأعضاء مرة في السنة وينعقد هذا الاجتماع بمدينة الجزائر إثر استدعاء من الرئيس، وزيادة على هذا الاجتماع السنوي يجوز عقد اجتماع آخر في أثناء السنة في الزمان والمكان اللذين يعينهما الرئيس، وبعد أن يتفاوض أعضاء الجمعية في أثناء الاجتماع العمومي العادي في برنامج الجمعية وتعرض عليهم أعمال الجمعية في السنة السابقة ؛ تنعقد جلسة ثانية يحضرها الأعضاء العاملون والمؤيدون والمساعدون ويعلمون بحالة الجمعية الأدبية والمالية، ثم يباشر الأعضاء العاملون فقط انتخاب الهيئة الإدارية.

الفصل الثاني والعشرون: إذا شجر خلاف بين عضوين أو أكثر من أعضاء الجمعية، أو تغيرت سيرة أحد الأعضاء بما تراه الجمعية ماساً بحياتها، فلمجلس الإدارة أن يعين لجنة بحث وتحكيم تشمل خمسة من الأعضاء العاملين وخمسة من الأعضاء المؤيدين، وهذه اللجنة تعرض نتيجة بحثها وما تراه في القضية على المجلس الإداري، وهذا الأخير يطبق العقوبات والأحكام المنصوص عليها في اللائحة الداخلية التي ستوضع للجمعية.

الفصل الثالث والعشرون: لا ينظر في طلب متعلق بحل الجمعية إلا إذا كان صادراً من ثلث الأعضاء على الأقل، ولا يعمل به ولا ينفذ إلا إذا صادق عليه أربعة أخماس الأعضاء العاملين، وإذا انحلت الجمعية ـ لا قدر الله ـ يسلم أثاثها ومالها إلى جمعية خيرية إسلامية يعينها المجلس الإداري[1].

---

(1) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 201.

### 4 . غاية الجمعية:

كانت الغاية التي أعلنت في القانون الأساسي للجمعية صريحة وواضحة فيما يخص محاربة الافات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل والافات الدينية، كل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل.

ويظهر الهدف التعليمي في الفصل السادس للجمعية أن تؤسس شعباً في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي.

وحتى عام 1931م كانت هذه هي الغاية التي أعلنتها الجمعية، ولكن بعد تصفية أنصار الإدارة الحكومية، وأعوان الطرق المشبوهة في الانتخاب الثاني الذي أجرته الهيئة العامة للجمعية عام 1932م أخذت غاية الجمعية تتوضح أكثر فأكثر، فضمن الإطار الديني دعا ابن باديس للعودة إلى سيرة السلف الصالح، فقال: خطتنا الأخذ بالثابت عند أهل النقل الموثوق بهم، والاهتداء بفهم الأئمة . المعتمد عليهم . ودعوة المسلمين كافة إلى السنة النبوية المحمدية دون تفريق بينهم، وغايتنا أن يكون المسلمون مهتدين بهدي نبيهم في الأقوال والأفعال والسير والأحوال، حتى يكونوا للناس كما كان هو (ص) مثالاً أعلى في الكمال[1].

وبعد مضي خمس سنوات على تأسيس الجمعية حدد البشير الإبراهيمي غاية الجمعية في المجالات التالية:

**أ . موقفها من الطرق**: بما أن الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين، وأنها هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين والدنيا، وأن هذه الطرق هي أظهر اثاراً وأشنع صورة في القطر الجزائري، لذلك يجب محاربتها ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر، وأننا حين نقضي عليها إن شاء الله نقضي على كل باطل ومنكر وضلال، ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح من أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة، ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان ومع ما فيها من إفساد العقول وقتل للمواهب.

(1) جمعية العلماء المسلمين ، د. أحمد الخطيب ص 115.

**ب . موقفها من التعليم**: بما أن التعليم العربي الحر يدور في دائرة ضيقة من أمكنته وأساليبه وكتبه، فإن غاية الجمعية هي أن توسع دائرة الأمكنة بإحداث مكاتب حرة للتعليم المكتبي للصغار، وتنظيم دروس في الوعظ والإرشاد الديني في المساجد، وتنظيم محاضرات في التهذيب وشؤون الحياة العامة في النوادي، وإصلاح أساليب التعليم بالقضاء على تلك الأساليب العتيقة العقيمة[1].

**ج . موقفها من البدع والمنكرات العامة:**

غاية الجمعية في هذا المجال هي محاربة البدع المرتبطة بالمساجد والجنائز والمقابر والحج والاستسقاء والنذور، والتي أصبحت تشوه هذه المظاهر المقدسة لدى المسلمين.

**د . موقفها من الإلحاد:**

في اعتقاد الجمعية أن الإلحاد حلّ في الجزائر عن طريق الثقافة الأوروبية، والتعليم اللاديني أو التقليد الأعمى، وأن غفلة اباء وأولياء الطلاب الجزائريين غذت قيم هذه الناحية، كذلك فإن الإلحاد قد تمكن في نفوس الشبان المتعلمين في رأي الجمعية، كما يقول البشير الإبراهيمي بسبب نفور رجال الدين الجامدين منهم، وأن انتشار الخرافات وأضاليل الطرق بين الأمة جعل أبناءنا المتعلمين تعلماً أوروبياً الجاهلين حقائق دينهم يحملون من الصغر فكرة أن هذه الأضاليل الطرقية هي الدين، فإذا تقدم بهم العلم والعقل لم يستسغها منهم علم ولا عقل، فأنكروها حقاً وعدلاً وأنكروا معها الدين ظلماً وجهلاً، لذلك فإن خطة الجمعية تقضي بمخالفة هذه الطائفة وجذبها إلى المحاضرات والدروس الدينية لتقويم زيفها واعادتها لحظيرة الدين.

---

(1) جمعية العلماء المسلمين ، د. أحمد الخطيب ص 115.

**هـ . موقفها من التبشير:**

بما أن الجمعيات التبشيرية المسيحية في الجزائر التي تعتبر أداة من أدوات السياسة في ثوب ديني وشكل كهنوتي ؛ قد انتشرت في كثير من المناطق التي تكثر فيها طروق المجاعات، محاولة التأثير بالمال والإغراءات على الوضع الديني للسكان، لذلك فإن على الجمعية مقاومة التبشير بقدر المستطاع.

وبالنتيجة يعرف لنا الشيخ البشير الإبراهيمي الجمعية بأنها جمعية علمية دينية تهذيبية، فهي بالصفة الأولى تعلم وتدعو إلى العلم وترغب فيه وترغب على تمكينه في النفوس بوسائل علمية واضحة لا تتستر، وهي بالصفة الثانية تعلم الدين والعربية لأنهما شيئان متلازمان وتدعو إليهما وترغب فيهما، وتنحو في الدين منحاها الخصوصي وهو الرجوع به إلى نقاوته الأولى وسماحته في عقائده وعباداته، لأن هذا هو معنى الإصلاح الذي أسست لأجله ووقفت نفسها عليه، وبمقتضى الصفة الثالثة تدعو إلى مكارم الأخلاق التي حض الدين والعقل عليها لأنها من كمالها، وتحارب الرذائل الاجتماعية التي قبح الدين اقترافها وذم مقترفيها، وسلكت في هذه الطريقة أيضاً الجادة الواضحة[1].

وأما الغاية السياسية للجمعية، فقد وضعها ابن باديس قبل تأسيس الجمعية ووضع الإطار العام للغاية الوطنية السياسية التي يستهدفها الإصلاحيون بقوله: ولأننا جزائريون نعمل للمّ شعب الأمة الجزائرية وإحياء روح القومية في أبنائهم، وترغيبهم في العلم النافع والعمل المفيد حتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة والانتفاع في العالم، وعليها واجب الخدمة والنفع للإنسانية[2].

هذه كانت غاية الإصلاح في الجزائر إحياء الروح القومية والحض على محبة الوطن والانفتاح على الإنسانية العالمية، إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلاً ونحب وطننا ونعتبره منها جزءاً، ونحب من يحب الإنسانية

(1) المصدر نفسه ص 117.

(2) المصدر نفسه ص 117.

ويخدمها ونبغض من يبغضها ويظلمها[1]، بل إن ابن باديس صرّح بأبيات من الشعر أصبحت يتغنى بها كل الشعب عندما قال:

شعب الجزائر مسلم وإلى العـــروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

أو رام ادمـــاجاً لـــه رام المحال من الطلب[2]

إن غاية الجمعية تبدو واضحة في إطار هذه الأبيات الجميلة المعبرة عن الهوية والعقيدة والثقافة والانتماء الديني لشعب الجزائر المسلم وتحديد انتسابه القومي إلى العروبة التي هي أصله ولا يمكن أن يحيد عنها، ومن قال بأنه انتهى وتم تحويله عن شخصيته فقد كذب، فمن المحال دمجه في كيان غير كيانه الطبيعي لأنه شعب عربي مسلم.

هذه هي الغاية التي سعت إليها جمعية العلماء وعرضتها فيما بعد كمطالب وطنية، وهي ليست بعيدة عن الأهداف السياسية التي ينسبها المفكر الفرنسي «أوغستاف بيرك» إلى جمعية العلماء والتي تتلخص بما يلي:

. تخليص الجماهير الجزائرية من محاولات دمجها في المجتمع الغربي.

. المشاركة في الدعوة إلى إقامة الوطن العربي.

. تكوين الشعب الجزائري الذي عانى من الرزوح تحت الأوامر القاسية والفوضى.

. العمل على جعل الجزائر دولة مستقلة مرتبطة باتحاد فدرالي مع الأقطار العربية.

كان من غايات جمعية العلماء العمل على فصل الجزائر عن فرنسا تحت راية الإسلام في إطار الوطنية الجزائرية، ووسيلته في تحقيق ذلك الهدف تنشئة جيل جزائري جديد مسلح بثقافة وطنية إسلامية وروح وثابة،

---

(1) المصدر نفسه ص 118.

(2) البصائر السنة الثانية العدد 71، 18 جوان 1937م.

ليتمكن في المستقبل من تحقيق الأمنية العزيزة الغالية: الاستقلال، ولقد قاد جمعية العلماء منذ نشأتها وحتى حلها عام 1956م نخبة من العلماء ناضلت بكل الوسائل الفكرية والعملية، كتابة وخطابة وتنظيماً للوصول إلى الغاية المرجوة، فكان هؤلاء بحق أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[1].

### 5. من أهم رجال الجمعية:

. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي «1889 . 1965م».

. الشيخ الطيب بن محمد العقبي «1890 . 1960م».

. الأستاذ محمد الأمين العمودي «1890 . 1957م».

. الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي «1895 . 1957م».

. الشيخ مبارك بن محمد الميلي «1897 . 1945م».

. محمد خير الدين «1902 . 1993م».

. الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى حمدي «1888م . 1973م».

. الشيخ ابراهيم بيوض «1899 . 1981م».

. الشيخ الفضيل الورتلاني «1900 . 1959م».

. الشيخ أحمد توفيق المدني «1889 . 1983م».

. الشيخ محمد العيد ال خليفة «1904 . 1979م».

. الشيخ أحمد حماني «1915 . 1998م».

. الشيخ أحمد سحنون «1907 . 2003م».

. الشيخ عبد الرحمن شيبان «1918 . 2011م»[2].

### 6. مدح ابن باديس لرجال الجمعية:

وقد أثنى ابن باديس على رجال الجمعية فقال في حقهم: إن الذي قام به للرجال الجمعية وضربوا به المثل

---

(1) جمعية العلماء المسلمين ، للخطيب ص 119.

(2) معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، يوسف بو غابة ص 20 . 38.

الرفيع للناس، هو تضامنهم في الشدة وفي الرخاء، وثباتهم على يقينهم رغم كل زعزعة وإعصار، وتضحيتهم بالمصلحة الخاصة في سبيل الصالح العام، وثقتهم التامة بالله ثم بأنفسهم، ومن ثم كانت هذه الجمعية من الأمة وإلى الأمة وكل ما لها أو عليها فهو للأمة وعليها.

والجمعية تفخر بأنها قامت بإحياء فريضتي الإسلام التي نسيها المسلمون وعلماؤهم وهي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللذين هما مرجع عظمة الدولة الإسلامية وحضارتها. لقد كان رجالها مستضعفين يوم كانوا فرادى فمدوا أيديهم إلى بعضهم البعض فأصبحوا متعاونين أقوياء، ثم سمعت الأمة كلمتهم فاستجابت ولها الفضل ولها البشر من الله. لقد ضربوا الأمثال بأعمالهم وحملوا الأمانة الإسلامية وأدوها، وكل شيء عندهم بدليله وكل شيء يطلب من سبيله، وهذا ما جعل عملنا يملك علينا حواسنا وأوقاتنا[1].

وقال في حق صديقه وأخيه ورفيق دربه محمد البشير الإبراهيمي: عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ البشير أن يضل في دين أو يخزى في الدنيا، أو يذل للاستعمار[2].

### ثالثاً: الأصول الفكرية لجمعية العلماء:

إن أي جماعة لا تملك أصولاً نظرية ترجع إليها محكوم عليها بالفشل، إذ سرعان ما يتسلل الشقاق إلى أفراد الجماعة الواحدة، بسبب التأويلات المتباينة، ودرءاً لعاقبة انفراط عقد الجماعة، وسداً لذرائع الاختلاف ؛ وضع الإمام ابن باديس هذه الأصول الفكرية لتستبين الطريق وتتضح معالمه[3].

وتُعتبر هذه الأصول النموذج الأمثل لروعة العلماء في إحاطتهم بالإسلام فهما وتدبراً، ومن يتمعن في هذه الأصول يدرك أنها خلاصة للفكر الإسلامي عقيدة وشريعة وأخلاقاً، والتصور الصحيح مقدمة ضرورية

---

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 80.

(2) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 176.

(3) معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء ، يوسف بو غابة ص 41.

للتوجه الصحيح، والعمل المستقيم، ولهذا كان العلم عندنا ـ نحن المسلمين ـ يسبق العمل بل العلم عندنا دليل الإيمان وطريق الاعتقاد السليم.

ولو فتح الناس جميعاً بصائرهم على حقائق الإسلام وتعاليمه لعلموا أن شريعة الله رحمة كلها وحكمة كلها وعدل كلها[1].

وقد شملت هذه الأصول الفكرية مقاصد الشريعة وأصولها، وقد شملت محاور كبرى قام يوسف بوغابة في كتابه معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائرية دراسة تحليلية ؛ بترتيب وتنظيم وتصنيف ما كتبه الشيخ عبد الحميد بن باديس ووضعها في محاور:

**المحور الأول: العقائد وتحتها أصولاً:**

الأصل الأول[2] التوحيد أساس الدين، فكل شرك في الاعتقاد أو في الفعل فهو باطل مردود على صاحبه.

الأصل الثاني[3] اعتقاد تصرف واحد من الخلق مع الله في شيء ما بشرك وضلال ومنه اعتقاد الغوث والديوان.

الأصل الثالث[4]بناء القباب على القبور وإيقاد السرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية، ومضاهاة لأعمال المشركين فمن فعله جهلاً يُعلم، ومن أقرّه ممن ينتسب إلى العلم فهو ضال مضل.

ونلاحظ في هذه الأصول الثلاثة حرص جمعية العلماء على صفاء العقيدة، كما جاء بها رسول الله (ص) وتلقاها السلف ببيضاء نقية، وهذا يترجم ما كان سائداً في المجتمع الجزائري من انتشار بناء القباب على القبور، والمغالاة في شيوخ الزوايا والنظر إليهم بعين القداسة المفضية إلى الاعتقاد بأنهم يعرفون الغيب ويطلعون عليه وما شابه ذلك.

---

(1) المصدر نفسه ص 42.

(2) هذا الأصل الثاني عشر بترتيب البيان.

(3) الرابع عشر بترتيب البيان.

(4) الخامس عشر بترتيب البيان.

وجمعية العلماء جاءت لتصحيح أوضاعاً فاسدة ولم تأتِ لتقيم خصومات مع هؤلاء أصحاب القباب، ولهذا كانت حريصة على اختيار الألفاظ التي صبغت بها هذه الأصول، فلم نجد كلمة تدل صراحة أو تلميحاً إلى التكفير أو الإخراج عن الملة مع هذا الموقف الحساس.

إن صفاء عقيدة الإسلام من شوائب الشرك والوهم والخرافة، كفيل أن يسعد البشرية كما أسعد السابقين من الصحابة والتابعين، وكفيل أن يداوي جراحاتها ويمسح عنها الامها النفسية ؛ إنها العقيدة وما تملكه[1] من قوة ذاتية.

**المحور الثاني: خُصص للتعريف بالإسلام وذكروا تحته أصولاً.**

الأصل الأول: الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع رسله وكمّله على يدي نبيه محمد (ص) الذي لا نبي بعده.

الأصل الثاني: الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به وذلك لأنه:

أ . كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر جميعاً.

ب . يسوّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين الأجناس والألوان.

ج . لأنه يفرض العدل فرضاً تاماً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.

د . يدعو إلى الإحسان العام.

هـ يحرّم الظلم بجميع وجوهه، وبأقل قليله من أي أحد على أي أحد من الناس.

و . يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير.

ز . بنشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالقتل والإكراه.

ح . يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاؤون.

---

(1) معالم الفكر السياسي ص 44.

ط ـ إشراك الفقراء مع الأغنياء في الأموال، وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة، مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال.

ي ـ يدعو إلى رحمة الضعيف، فيُكفى العاجز ويعلّم الجاهل، ويرشد الضال، ويعان المضطر، ويغاث الملهوف، وينصر المظلوم، ويؤخذ على يد الظالم.

ك ـ يحرّم الاستعباد والجبروت بجميع الوجوه.

ل ـ يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس.

فقد تبين من خلال سرد فقرات الأصل الثاني أن العلماء كشفوا حقيقة الإسلام الشاملة لإصلاح الفرد والمجتمع والحاكم والمحكوم، وأبرزوا الوجه الحضاري للإسلام في المحافظة على حقوق الاقليات، والدعوة الصريحة لأن يعاملوا معاملة البر والإحسان، وأن لا تتدخل الدولة والمجتمع الإسلامي في خصوصيات عقائدهم وعبادتهم، وأن الحوار بالحجة والإقناع هو المسلك الوحيد للتعامل مع البشر جميعاً، وأن لغة الإكراه والإجبار أسقطها الإسلام من نظمه وشرائعه، كما أظهروا الجانب الاجتماعي، حيث يتقاسم أغنياء الأمة وفقراؤها ثروات البلاد دون أن يظهر في المسلمين ما ظهر في غيرهم من التفاوت الطبقي، وعلاقة الحاكم والمحكوم في شريعة الإسلام أساسها التعاون المثمر بين الجانبين دون استكبار أو استبداد من السلطة الحاكمة أو ذل وهوان من الجهة المحكومة.

أما الإنسانية في الفكر الإسلامي فقد نالت النصيب الأوفر من الاهتمام حينما أسقط الإسلام كل اعتبار جاهلي للتفاوت بين البشر، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود، إلا بالتقوى والعمل الصالح[1].

فقد سلم الإسلام من الصراعات الداخلية التي تغذيها العنصرية العرقية أو اللغوية أو الإثنية.

(1) المصدر نفسه ص 46.

ونستطيع أن نجمل القول في هذه النقاط بألفاظ مختصرة لنحصل على شعار متكامل وهو العدل والإحسان، الحرية، الكرامة الإنسانية، وهذا ما وصلت إليه الحضارة الغربية بعد عمى امتد لقرون، وصلت في نهاية المطاف إلى النقطة التي بدأ منها الإسلام، فحرمت أجيالها الماضين من نعيم الإسلام.

**المحور الثالث: خصص لذكر مصادر الإسلام وجمع سبعة أصول:**

الأصل الأول: القرآن الكريم هو كتاب الإسلام.

الأصل الثاني: السنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان للقران.

الأصل الثالث: سلوك السلف الصالح ـ الصحابة والتابعين وأتباع التابعين تطبيق لهدي الإسلام.

الأصل الرابع: فهم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة.

الأصل الخامس: المصلحة كل ما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم مما تقره الشريعة.

الأصل السادس: البدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة، ولم يثبت عن النبي (ص) فعله، وكل بدعة ضلالة.

الأصل السابع: الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحذير لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ[1].

وهذه الأصول المذكورة نستطيع أن نوزعها في نقاط لتكون أكثر وضوحاً.

أ ـ وهي مصادر الإسلام المتعلقة بالوحيين:

قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [الحشر : 7].

وقال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النور : 54].

(1) المصدر نفسه ص 46.

وقال (ص): تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي[1].

ب . تطبيق السلف الصالح: وفهمهم لكتاب الله وسنة رسول الله (ص) خير ما يستعان به على تحديد معاني القرآن والسنة وترجيح أحد المعاني على الاخر.

ج . الأمور التعبدية يشترط فيها التوقف على ما دل عليه الكتاب والسنة، لأن لا مجال للعقل فيه، وهذا ما نص عليه الفقهاء والمجتهدون بقولهم: الأصل في العبادة التوقف وعدم التعليل[2].

وهذا هو الباب الذي زلت فيه أقدام الطرقيين وضلت أفهامهم حينما زادوا في الشريعة ما ليس منها، كاتخاذ القبور مساجد، وكإلزام المريدين بأوراد لم ترد عن صاحب الشريعة (ص).

د . إعطاء العقل المجال في البحث عن علة الأحكام ومناط التكليف، ليربط الفروع بالأصول، ويبحث للناس عما يسعدهم في معاشهم خاصة في النوازل المستحدثة، بشرط أن لا يصادم النصوص الشرعية الثابتة بأسانيدها الواضحة في دلالتها، ودون أن يخرق أيضاً أسوار مقاصد الشريعة الإسلامية.

**المحور الرابع: جُعل للحديث عن تفاضل الناس وتحته أربعة أصول:**

الأصل الأول: أفضل الخلق محمد (ص) لأنه:

أ . اختاره الله لتبليغ أكمل شريعة إلى الناس عامة.

ب .كان على أكمل أخلاق البشرية.

ج . بلّغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته.

د . عاش مجاهداً في كل لحظة من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة.

---

(1) المستدرك على الصحيحين رقم 319 (1 / 138).

(2) ضوابط المصلحة ، محمد سعيد رمضان البوطي ص 508.

الأصل الثاني: أفضل أمة بعده هم السلف الصالح لكمال اتباعهم له.

الأصل الثالث: أفضل المؤمنين هم الذين امنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء والصالحون فحظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظه من تقوى الله.

الأصل الرابع: العمل الصالح المبني على التوحيد به وحده النجاة والسعادة عند الله، فلا النسب ولا الحسب بالذي يغني عن الظالم شيئاً.

ويتضح جلياً أن الخيرية عند الله منوطة بالعمل الصالح، كما أكد ذلك الذكر الحكيم في مواضع كثيرة في كتاب الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *} [البقرة : 277].

من هذا المنطلق المعرفي حدد علماء الجمعية رتب القيادة المصطفاة من الله تعالى على قاعدة الإيمان والعمل الصالح، فأول من توافرت فيه هذه الشروط سيدنا محمد (ص) وهو الذي قال: أنا سيد ولد ادم ولا فخر[1]، وقد شهد غير المسلمين له بعلو المنزلة ورفعة المكانة[2]، ثم يأتي بعده القرون المشهود لها بالخيرية كما في الحديث: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم[3]، وقد بين رسول الله (ص) مكانة الصحابة وأنهم فوق الجميع: لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه[4]، ومن بعدهم تأتي مرتبة المؤمنين المتقين الذين نالوا ولاية الله بالعبادة والمراقبة والمجاهدة.

**المحور الخامس: المنهج العملي للجمعية وتحته أربعة أصول:**

الأصل الأول: ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام وما بيّناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف

(1) مسند أحمد رقم 10987.

(2) الخالدون المائة ، مايكل هارت ص 287.

(3) صحيح البخاري، ك الشهادات 52 رقم 2652.

(4) صحيح مسلم، ك فضائل الصحابة 44 رقم 2540.

الصالح من الأئمة مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان.

الأصل الثاني: الجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة.

الأصل الثالث: المعاندون المستغلون أحق الناس بكل مشرع من الشدة والقسوة.

الأصل الرابع: عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التازر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة.

بعد اتضاح الرؤية على مستوى الفكر والتصور ختموا الأصول ببرنامج عملي نوجزه في ثلاث نقاط:

أ ـ إن عمل الجمعية يخضع للشريعة الإسلامية المحددة في الأصول السابقة التي تدعو إلى كرامة الإنسان، وتحافظ على حريته، وتعامله بالإحسان، ولن تنظر إلى لونه، أو عرقه، أو لسانه، أو دينه، أو انتمائه.

ب ـ إذا ما أساء العملَ شخصٌ ما ؛ إن كان جاهلاً عُلّم، أو غرّر به فُهم مع الرحمة والشفقة عليه، وإن كان عالماً بسوء ما يعمل مصراً عليه يشدَّد عليه ليُلجم عن تضليل غيره.

ج ـ يظهر الأصل الأخير الفهم الواسع والعقل الراجح والفكر الراشد لعلماء الجمعية الذين رتبوا أولويات المعركة، فإذا ما دخلت الأمة في صراع مع الاحتلال فلا ينبغي أن تنشغل بالخلافات المذهبية التي يستغلها العدو الأكبر، بل إن العلم والحكمة والفهم السليم يستدعي الجميع إلى تناسي كل خلاف للمّ الشمل وجمع الصفوف[1].

---

(1) معالم الفكر السياسي ص 51.

وختمت الأصول العشرون[1] بقول الله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *}[يوسف: 108].

## رابعاً: محاولة الاستعمار الفرنسي تفجير الجمعية من الداخل:

استعملت الإدارة الاستعمارية في أسلوبها الترهيبي هذا شتى ومختلف الطرق والأساليب، كانت أولها محاولة تفجير الجمعية من الداخل واحتوائها وتحريفها عن مسارها ومنهجها الإصلاحي الجهادي وخطها الحضاري التغييري الأصيل، إذا هي حركت أعوانها من الطرق الصوفية تلك الطرق التي مالت إليها منذ منتصف القرن الماضي، وأسهمت معها في القضاء على ثورة الأمير عبد القادر[2]، لا نقصد كل الطرق الصوفية ولكن التي تورط زعماؤها في التعاون مع المحتل.

وذلك عند إعادة انتخاب المجلس الإداري للجمعية في سنتها الثانية في 23 ايار 1933م، هذه الطرق الصوفية التي كانت ضمن الأصناف الذين ضمتهم إليها الجمعية عند تأسيسها، ولكن ما كان من تلك الجماعات إلا أن سايرت الجمعية في الظاهر وأسرّت لها الكيد في الباطن[3].

وداومت على حضور جلساتها ودوراتها، لا خدمة لغايتها، ولا إعانة لإدارتها، ولكن عيناً عليها فاجرة، تبلّغ وتشي إلى إدارة الأمور الأهلية[4]، وتحينت الفرصة المناسبة لها عند إعادة تجديد انتخاب مكتب الجمعية فكان رئيس لجنة العمل، قد سعى سعياً شديداً في تكوين عدد كثير ممن يوافقونه على القائمة التي يقدمها للانتخاب، وكانت مكاتبات لبعض الجهات في الحث على القدوم يوم الانتخاب[5]، وساعده في ذلك شيخ

---

(1) عبد الحميد بن باديس الآثار (3 / 131).

(2) جهاد ابن باديس ص 222.

(3) المصدر نفسه ص 222.

(4) رسالة الشرك ومظاهرة ، مبارك الميلي ص 268.

(5) الشهاب ج 8، م 8، ص 395.

زاوية مستغانم، وأصبحت الوصولات توزع على كل من يقال فيه طالب، ليأتي للجمعية العمومية وينتخب من كتبت أسماؤهم في ورقة سلمت لهم.

وتضمنت القائمة التي وزعت ثلاثين اسماً منها أعضاء أقدمون في المكتب، مع شطب على أسماء بعضهم زيادة عليهم، وقد ضُمّ رئيس لجنة العمل إلى قائمة الثلاثين شخصاً وكان ابن باديس على علم من ذلك، غير خائف على الجمعية لأنني ـ كما يقول ـ كنت أعتقد أن الاجتماع العمومي سيضم جمعاً عظيماً من أهل العلم وحسبي بعلمهم هادياً لهم إلى ما فيه خير وسداد للجمعية والأمة[1].

ولذلك ـ كما يقول الإمام دائماً ـ: بينما كان السيدان يعملان عملهما ويقويان حزبهما، كنا تاركين للمسألة حالها تسير بطبيعتها ولو كنا على شيء من سوء النية أو القصد إلى الاستيلاء بالأغلبية، لكنا دعونا تلامذتنا دعوة للحضور وهم كثر وكلهم من أهل العلم فملؤوا نادي الترقي والشوارع المتصلة به ولا فخر. ولكن ما كنا ـ والحمد لله ـ لنقصد إلى التكثر ولا إلى العصبية والتحزب وإحداث الفرقة بين الناس[2].

وحسم ابن باديس الأمر بتذكير جميع الناس الذين حضروا بأن المنتخبين لابد أن يكونوا من أهل العلم كما تنص عليه المادة السابعة من القانون الأساسي للجمعية «الفصل الثامن منه» والتي نصها: الأعضاء العاملون هم وحدهم الذين يجب أن يتألف منهم المجلس الإداري، وهم الذين ينتخبون كل سنة، وهم الذين يصح أن يطلق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائر، بدون تفريق بين الذين تعلموا ونالوا الإجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية وبين الذين تعلموا بالمعاهد العلمية الإسلامية الأخرى.

وذكر الجميع أن مجلس الإدارة عين لجنة لتقييد أسماء من ينطبق عليهم هذا الوصف المذكور في المادة وأنه تقبل من كانت له شهادة ، أو كان باشر التعليم ، أو كان يشار إليه بالعلم في قومه وأنه بعد تقييد أسماء

---

(1) جهاد ابن باديس ص 223.

(2) المصدر نفسه ص 224.

المنتخبين، يكون الانتخاب[1]، ولكن المتربصين والكائدين وأذناب المندسين رفضوا ذلك، وقامت القيامة، واضطربت أركان القاعة بالضجيج وأبى القوم إلا الانتخاب في الحين، دون اعتبار للمادة القانونية، ولا اعتبار لتقييد أسماء المنتخبين، واستمر ذلك الاضطراب من الصباح إلى قرب الزوال، وتأكد جمع العلماء من أن أهل العلم قد حشر فيهم من ليس منهم وكان معهم من لم يتخلق بأخلاقهم، ولا تأدب باداهم مما حتم الموقف وتطوراته على ابن باديس، أن يجمع أعضاء المكتب ليبين لهم دافع وهدف المكيدة التي يراد من وراءها قلب الجمعية والاستحواذ عليها قائلاً لهم: طالباً: أشيروا عليَّ بما ترون، فقال الأستاذ مبارك الميلي: أرى أن تكون لجنة من العلماء يكون أعضاؤها منا ومنهم، يجري امتحان على من لا تتوفر فيهم الشروط[2].

ووقع الإعلان عن الانتخابات وفق الخطة يوم الثلاثاء صباحاً وتم مساءها، ولما سمع القوم هذا سقط في أيديهم وخرجوا من النادي في غليان واضطراب يتدافعون على الأبواب، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة[3].

وتألف المجلس الإداري الجديد من زعماء الإصلاح وصفوة أنصاره ورأى الناس عجيب صنع الله في نصر الحق على الباطل، الذي انشق وانسحب دعاته من الجمعية محاربين ولأغراض أمور الأهلية منفذين وذلك لأن الإدارة الاستعمارية هي التي حرضت بعض أتباعها على سلوك هذا المسلك والقيام بهذا العمل مخوفة إياهم من الجمعية التي ستقطع عنهم الزيارات وارادالها المالية التي تتوقف عليها رفاهيتهم ويقوم على أساسها نفوذهم[4].

ولكن بعد فشل محاولتهم وخروجهم يائسين مهزومين دفعتهم الإدارة الفرنسية وأعانتهم على تأسيس

(1) المصدر نفسه ص 224.

(2) المصدر نفسه ص 224.

(3) المصدر نفسه ص 224.

(4) المصدر نفسه ص 225.

جمعية خاصة بهم، عرفت فيما بعد باسم ووصل بهم الأمر إلى تحريف اسم ابن باديس إلى إبليس بدلاً من باديس[1].

وفسحت الإدارة الفرنسية المجال واسعاً للجمعية لممارسة نشاطها في الميدان مع كل التسهيلات، لمنافسة جمعية العلماء ومحاصرة نشاطها، ففي السنة الثانية من تأسيسها كان رئيسها يقوم بجولات لنشر دعوتها ويزور العواصم لدعم نفوذها[2].

ولكن الرأي العام الجزائري . إدراكاً منه بخلفيات وأبعاد ظهور هذه الجمعية على الساحة، لم يتجاوب معها ولم يستجب لخطابها بل على العكس من ذلك . قابلها برفض ونفور، وحدث . مثلاً . أن رمي بالبيض والطماطم رئيسها في عنابة عندما زارها وأراد إلقاء درس في جامعها الكبير[3]، ولذلك ورغم سعيهم الحثيث في الميدان وفي المساجد الرسمية، ورغم المساعدات التي كانت الإدارة تغدق بها عليهم، كان مال هذه الجمعية الفشل الذريع في محاربة ومواجهة العلماء.

وإبتداءً من أيار 1933م حدثت القطيعة النهائية بين الإصلاحيين والطرقيين[4]، وتوقفت جريدة الإخلاص عن الصدور في كانون الأول 1933م، ولم تعمد إدارة الاحتلال إلى دفع الطرقيين إلى محاولة تفجير الجمعية والاستيلاء عليها، فحسب، كما يؤكد ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله بقوله: ولا شك أن السلطات الفرنسية هي التي أوحت إلى أتباعها، باتخاذ هذا الموقف من علماء الإصلاح، بتأسيسهم لجمعية علماء السنة السالفة الذكر، وكما يؤكد ذلك أيضاً الشيخ الصالح بن عتيق، بل عمدت علاوة على ذلك إلى إنشاء جمعيات دينية مختلفة ، كالتي أنشأتها في تبسة، باسم الجمعية الدينية الإسلامية ، ووضعت على رأسها

(1) المصدر نفسه ص 226.
(2) المصدر نفسه ص 226.
(3) المصدر نفسه ص 226.
(4) المصدر نفسه ص 227.

معمراً يدير شؤونها، ويوجه أهدافها[1]، الخادمة لأغراضها. ولبثّ الدعاية الكاذبة في عقول العامة من الناس، ومن جملة ما كانت تروجه أن العلماء المصلحين ينكرون وجود الأولياء، وقد جاؤوا بدين جديد، ومنذ أن ظهرت الدعوة الإصلاحية انقطعت البركة، وأمسك الله عنا المطر[2].

### خامساً: إصدار القوانين والقرارات التعسفية، في حق رجال الجمعية ونشاطها:

وذلك ابتداء من سنة 1932، إذ أصدرت قوانين لمراقبة وتفتيش وغلق المدارس، التي شرعت الجمعية في افتتاحها، وعزل معلميها، وكل ذلك إذا تطلب الأمر الأمني ذلك[3]. فبعد فشل محاولة تفجير الجمعية، وتحريف مسارها الإصلاحي الجهادي وخطها الثوري التغييري، أصدرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية قوانين وقرارات، مست الجمعية في نشاطها التعليمي، سواء المسجدي منه أو المدرسي، وكذا تعطيل وتوقيف الصحف التي تصدرها، وعرقلة ومحاصرة نشاط رجالها، متابعة وتغريماً وسجناً ونفياً، ويمكن أن نشير إلى بعض هذه القوانين:

#### 1. قرارات تعطيل الجرائد عن الصدور:

فبعد تعطيل المنتقد في سنتها الأولى عام 1925م، عطلت كل من السنة النبوية، والشريعة المحمدية، والصراط السوي، جميعاً في سنة واحدة سنة 1933م، ووصل الأمر بالإدارة في سرعة تعطيل الجرائد إلى: أن الحاكم العام قد أصدر مرة أمراً استبدادياً، يقضي بتعطيل كل صحيفة تصدرها جمعية العلماء مسبقاً قبل ظهورها[4].

(1) المصدر نفسه ص 227.

(2) المصدر نفسه ص 227.

(3) المصدر نفسه ص 228.

(4) الجزائر الثائرة، الفضيل الورتلاني ص 146.

### 2. قرارات فيرناند جيل ميشال لمراقبة حركة العلماء:

والتضييق عليهم ومنعهم من أداء مهام الإصلاحية الجهادية، خصوصاً في المدن الصغيرة والقرى، وكذا الأسواق العامة، هذه القرارات التي أصدرها مدير الشؤون الإسلامية في 16 شباط 1933م، والتي فيها: دعوة كل من يعنيهم الأمر، إلى ملازمة اليقظة والانتباه لمراقبة جميع الاجتماعيات والمحاضرات . التي تنظمها جمعية العلماء تحت زعامة ابن باديس، والعقبي، والعمل على إبعاد المدارس القرآنية عن نشاط هذه الجمعية[1].

وتأمر في الوقت نفسه كل الهيئات: بعدم التردد في كتابة محضر، لكل اجتماع من هذا القبيل، ولا سيما ذلك الذي يأخذ طابعاً تخريبياً، مضاداً لفرنسا[2].

كما نصت قراراته على منع العلماء من دروس الوعظ في المساجد الرسمية، وهي التي تشرف عليها مباشرة، ومنعهم أيضاً من فتح المدارس الحرة، وتعليم اللغة العربية، ومصادرة الصحافة العربية التابعة للجمعية[3]، وقصر الإمامة والإفتاء على من تعينه الإدارة، وحتى يشرف بنفسه على تنفيذ هذه الأوامر، عين فيرناند جيل ميشال نفسه رئيساً للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

### 3. تعيين الإمامة والإفتاء:

لا يتم: طبقاً لمشيئة جماعة المسلمين، تبعاً لهوى المستعمرين... وبذلك تجمع . الإدارة . في يديها أنفذ وسائل الإفساد، فاختيار رجل يؤم بالناس في المسجد، لا يكون بناء على تمييزه بضمير حي أو علم بأصول العقيدة، بل يراعى في ذلك ما يقدم للإدارة من خدمات حتى كأنه جاويش صلاة.

---

(1) الحركة الوطنية ، د. أبو القاسم سعد الله (3 / 21).

(2) المصدر نفسه (3 / 21).

(3) الحركة الوطنية (3 / 21) ، أبو القاسم سعد الله.

### 4 . منع العلماء من دخول الصحراء:

كما تم في السنة نفسها . أي سنة 1933م . إصدار قرار يقضي بمنع أعضاء جمعية العلماء من الدخول إلى الصحراء[1]، والقيام بالدعوة الإصلاحية فيها، بينما وفي مقابل هذا المنع الصارم: تعطى الإعانات، وتمنح التسهيلات للبعثات غير الإسلامية لتنصير أبناء وبنات المسلمين[2].

### 5 . إعتبار اللغة العربية أجنبية:

كما قررت الإدارة ابتداء من سنة 1933م رسمياً اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، وأن المساجد محرمة على العلماء الأحرار بعد أن كان كل هذا منفذاً بالفعل، دون استناد إلى قانون، ومن يومئذ أصبح تعليم العربية في عداد الجرائم، يحاكم عليه قانونياً، ويقضي القاضي بتجريم مقترفيها[3].

وقد نجم على هذا القرار التعسفي ما يلي:

. القيام بغلق مدارس الجمعية في تلمسان وسبق وسيدي بلعباس، وغيرها وطرد معلميها.

. غلق المساجد في وجه العلماء ومنعهم من التدريس فيها.

. تلفيق التهم للعلماء وتشويه سمعتهم عند الرأي العام، ومثال ذلك الشيخ الطيب العقبي الذي اتهم بخلق الاضطرابات ضد الأمن العام، وبأنه داعية وهابي، لتمنعه بعد ذلك من التدريس في الجامع الجديد بالعاصمة، مما أثار غضب الشعب الذي خرج في مظاهرات صاخبة، وعارمة، تصدت لها قوات الشرطة، ولم تهدأ إلا بعد أن وعدت السلطات بالسماح للعقبي باستئناف دروسه. كما يقوم بحملة تشهيرية بهم: يندد . فيها . بهؤلاء الوهابيين الخارجين عن الدين ويطالب المؤمنين بعدم الاستماع إليهم أو الصلاة خلفهم[4].

---

(1) مذكرات محمد خير الدين ص 273.

(2) الشهاب ج4، م14 ص 103.

(3) جهاد ابن باديس ص 229.

(4) الجزائر المعاصرة ، صلاح العقاد ص 30.

وترسل الولاية العامة كتاباً إلى الإمام ابن باديس، تسأله فيه هل لديه رخصة، تسمح له بالتعليم في الجامع الأخضر وغيره؟ مما أثار تعجب الإمام وحيرته. فكتب مقالاً بعنوان: بعد عشرين سنة في التعليم، نسأل هل عندنا رخصة[1]؟

وابتداء من سنة 1934م، أصدرت الإدارة الاستعمارية أيضاً قراراً منعت بموجبه المسلمين من الاجتماع في الجامع الكبير، وحالت دون لقاء الحجاج مع الشيخ ابن باديس ورفاقه من رجال الإصلاح[2]. ولكن الأمة رفضت هذا الإجراء التعسفي، ولم تُعِرْه اهتماماً.

واجتمعت مع الإمام في الجامع بالحجيج، ولم يقف الأمر عند هذا فحسب، بل تعداه إلى منعها أعضاء الجمعية والمنتمين إليها من أداء فريضة الحج، وكانت تسأل كل طالب لذلك، هل أنت مؤيد لجمعية العلماء؟ واحتج الإمام عن هذا المنع الجائر قائلاً: إننا باسم الحق والعدالة، باسم الإسلام والإنسانية، نحتج ضد هذا الاضطهاد الديني الفظيع وضد الوقوف في طريق أداء هذه الشعيرة الكبرى، وضد كل اضطهاد في الفكر والاعتقاد لأي كان[3].

وبهذه القرارات التعسفية التي أصدرتها الإدارة الإستعمارية ضد العلماء ومؤسسة الجمعية، وضد التعليم؛ وجد العلماء أنفسهم بين شرين ونارين، فإذا أقدموا على التعليم بلا رخصة كان التغريم الثقيل والسجن الطويل جزاءهم، وإذا أجمعوا واستسلموا، تم لأعداء الإسلام والعربية مرادهم، وقضوا على القرآن والإسلام ولغة القرآن والإسلام قضاءهم[4].

وأكدت هذه القرارات سنة 1935م، والتي عرفت باسم قرارات «رينييه» والتي تقضي بتضييق الخناق على جميع العلماء ، وكل زعماء الحركة الوطنية ، وكل الأشخاص الذين يظهرون تذمراً ورفضاً لتطبيق القوانين

(1) جهاد ابن باديس ص 230.

(2) مذكرات محمد خير الدين ص 254.

(3) البصائر ع150 ص: 330.

(4) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 294).

والمراسيم والتنظيمات وأوامر السلطة العامة، بتسليط عقوبات عليهم تتراوح بين ثلاثة أشهر وعامين سجناً، وبين خمسمائة وخمسة الاف فرنك غرامة[1].

### 6 . من النتائج التي ترتبت عن هذه القرارات:

وكان من النتائج التي ترتبت عن هذه القرارات، التي أكدت ما صدر قبلها . أن لم تبق حرمة للإسلام ولغته، ومؤسساته ورموزه، من العلماء والمشايخ والأساتذة، وحصلت انتهاكات صارخة وبشعة في حقهم جميعاً، وفي حق التعليم، وفي حق أبناء الشعب الجزائري، الذين يدرسون بمساجد ومدارس الجمعية على مستوى التراب الوطني من حيث المكان، وعلى امتداد سنوات طويلة من حيث الزمان، مما يصعب علينا حصر وعدّ مخلفاتها واثارها، على جميع المستويات، ويكفي أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

أ . ما حصل من اعتداء سافر على مسجد قنزات العتيق، قرب مدينة سطيف من قبل قوات الأمة.

ب . إهانة الشيخ عمر دردور، رئيس شعبة الجمعية بمدينة باتنة.

ج . ما حدث في 8 نيسان 1938م من مأساة في مدينة الوادي، عندما تدخلت القوات الاستعمارية بقوة ضد سكان المدينة واعتقلت الشيوخ: عبد العزيز الهاشمي علي بن سعد، عبد القادر الباجوري، عبد الكامل بن الحاج بن عبد الله، وساقتهم جميعاً وبإهانات إلى سجن الكدية بقسنطينة دون محاكمة، ووضعوا مع المجرمين، حيث مكثوا فيه طويلاً. كما رحبت بأعداد كبيرة منهم في سجن المدينة، وما حدث أيضاً في هذه الأحداث الأليمة، أن حوالي ثلاثين امرأة أجهضت، وعطلت أسواق الوادي ومحلاته، ودامت عمليات العنف والاضطهاد ضد أهل الوادي، لالتفافهم حول الحركة الإصلاحية وعلمائها ثلاثة أسابيع كاملة، ذاقوا فيها أبشع صور القهر والتنكيل[2].

---

(1) الحركة الوطنية (3 / 27).

(2) جهاد ابن باديس ص 232.

وكتب ابن باديس مقالاً ـ تذكيراً بقضيتهم بعنوان: حول مساجين العلماء، هل في سجن الكدية ما يذكرنا بالباستيل؟ وذلك بعد مرور سنة وأربعة أشهر، على إيداعهم السجن ظلماً.

ـ غلق دار الحديث بتلمسان في 5 كانون الثاني 1938م بأمر من الوالي العام في الجزائر.

ـ إصدار قرار محاصرة النوادي، وتضييق الخناق عليها في 13 كانون الثاني 1938م، والذي يقضي منعها من بيع المشروبات إلا بترخيص من الإدارة. هذه الأخيرة: التي كانت ترفض منح أي تسهيلات للنوادي العربية[1].

وسنت لها قوانين تعجيزية ؛ حيث اشترطت هذه القوانين: أن يكون النادي مستكملاً لشروط صحية وغير صحية، قد لا تتوفر إلا في قصر الحاكم العام الفرنسي[2]، وكانت النتيجة ـ لهذا ـ أن أخليت من روادها ومعتاديها، وحرم ـ بالتالي ـ الكثير من الشباب والكبار من التهذيب فيها بعد ما حرموا منه في المساجد، لأنها قطعت عنها قنوات مواردها المالية، التي كانت تتمول منها.

### 7 ـ قانون 8 آذار 1938م:

والذي يعتبر أقسى وأفظع قانون أصدرته الإدارة الاستعمارية في حق التعليم الإسلامي والعربي، ومؤسساته والقائمين عليها، وكان ـ بحق ـ سهماً مسموماً أصاب الأمة في روحها وفي صميم فؤادها في مصدر حياتها وعزتها وفي مقعد البقاء منها. وكان ضربة قتالة للإسلام ولغته، ورجاله في الجزائر.

صدر القانون عن حكومة شوطان، وهو عبارة عن مجموع قرارات تتضمن إضافة عقوبات، ضد كل من يباشر التعليم العربي الديني بدون رخصة، في حين امتناع الحكومة عن إعطاء الرخص[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 232 ، الجزائر الثائرة ص 145.

(2) المصدر نفسه.

(3) الحركة الوطنية (3 / 32) ، أبو القاسم سعد الله.

وذلك بعد أن رأت الإدارة: تصميم الأمة على تعلم قراءتها ودينها ولغة دينها، والقران، واستبسال كثير من المعلمين في سبيل القيام بواجبهم نحو الدين والقران، ولغة الدين والقران، واستمرارهم على التعليم، رغم التهديد والوعيد، ورغم الزجر والتغريم. لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم، وبذلوا جهودهم، حتى استصدروا هذا القانون، قانون العقاب الرهيب[1]، والذي بالغ في تشديد شروط منح الرخص لفتح مدرسة، أو ممارسة التعليم والتدريس بها، أو بالمسجد، فكان الطالبون لها ـ وحسب القانون ـ يفاجؤون بالسؤال عن عقيدتهم، وما تنطوي عليه صدورهم وعن ارائهم وأفكارهم، وهل هم من جمعية العلماء؟ وهل قرؤوا على ابن باديس؟ وهل قرؤوا على بعض تلاميذه؟ وهل عرفوه؟ وهل هم مشتركون في الشهاب؟ وهل هم مشتركون في البصائر؟ فإذا عرفوا منه شيئاً من هذا، تجمعوا له ورفضوا طلبه، وعرقلوا أعماله، وعاكسوه في مصالحه الخاصة، وكان عندهم من المبغوضين[2]، لأنه لم تتحقق فيه الشروط والمواصفات التي يريدونها فيه، والتي ترضيهم وتنيله ـ لديهم ـ القبول الحسن.

وكان رد فعل ابن باديس السريع والقوي من هذا القانون، أن كتب في إصدار جريدة البصائر ليوم 8 نيسان 1938م على الصفحة الأولى منها مقالاً بعنوان كبير جاء فيه: يالله!. للإسلام والعربية في الجزائر، كل من يعلم بلا رخصة يغرم ثم يسجن[3]، قانون 8 اذار: كل من يطلب الرخصة لا يجاب، هذا عمل الإدارة الكثير المتكرر. ومما جاء فيه:.. وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي بحول الله في تعليم ديننا ولغتنا، رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء، فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا، وإننا على يقين من أن العاقبة ـ وإن طال البلاء ـ لنا، وأن النصر سيكون حليفنا[4].

(1) جهاد ابن باديس ص 233.

(2) المصدر نفسه ص 233.

(3) المصدر نفسه ص 234.

(4) جهاد ابن باديس ص 234.

وكان لمقالة هذا ردود أفعال قوية، شجبت صدور القانون: وارتفعت أصوات الاحتجاج والاستنكار، من جميع جهات القطر، وشاركت في ذلك جمعيات من قدماء المحاربين، وهيئات أخرى وبلديات عديدة، وتناولته النيابة العمالية بقسنطينة ووهران، ورفعت فيه النيابة المالية تقريراً بإجماع النواب[1].

وذلك لما شاهدوا نتائجه، واثاره المأساوية والتي ذكرها الإمام ابن باديس في خطاب له، أمام المجلس الإداري للجمعية، عندما قال لهم: ذلكم القانون الذي شاهدتم اثاره في المدارس والمكاتب المغلقة، وأفواج الصبيان والصبيات المشردة، وفي وقفات المحاكم التي وقفتموها، والخطايا التي دفعتموها، والسجون التي دخلتموها، وما لقيتم وتلقون من جهد وعنت أشهد أنه لم تُرْمَ الجزائر المسلمة بمثل هذا السهم، على كثرة الرمي وتفنن الرماة، لقد أدركت الأمة هذا والله، فلا أعرف مظلمة قومت مثل هذه المظلمة، ولا جوراً ارتفعت له أصوات الأمة مثل هذا الجور[2].

وأغلقت دار الحديث بتلمسان، وتم نفي الشيخ البشير الإبراهيمي إلى افلو بالجنوب الغربي في 10 نيسان 1940م، مع معاملته معاملة سيئة، وبقي في المنفى ثلاث سنين تقريباً، ولم يطلق سراحه منه إلا في أول سنة 1943م ومثلها مدرسة القليعة وغيرهما كثير لا يمكن حصره. ورغم كل هذا لم يتوان ابن باديس في توجيه دعوة باسم الجمعية، من خلال البصائر يدعو فيها: كل معلم نزع منه رخصته، أو يكاتبنا بما وقع له من ذلك، ويعرفنا بتفصيله وجميع ما يتعلق به، لنسعى في نازلته، السعي المشروع[3].

واعتبر يوم الثامن من اذار من كل سنة: يوم حزن وحداد، على تعليم الإسلام ولغة الإسلام[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 234.

(2) المصدر نفسه ص 234.

(3) جهاد ابن باديس ص 235.

(4) المصدر نفسه ص 235.

## 8. تشديد المضايقة على طلاب ابن باديس:

ولم ينجُ طلبة الإمام ابن باديس الذين يدرسون عنده أو يزاولون دراساتهم بتونس أو المغرب من هذه الإجراءات، حيث شددت الإدارة متابعاتها لهم، وضايقتهم في تنقلاتهم وحركاتهم، وإلقاء القبض على بعضهم. فكان طلاب معهد ابن باديس بقسنطينة وطلاب جامعة القرويين بفاس، وطلبة جامعة الزيتونة بتونس، يُستنطقون من قبل أعوان الاستعمار، حين كانوا يؤوبون إلى أهلهم بالقرى النائية، أثناء العطل الصيفية وكانوا يتكالبون عليهم تكالباً، يجعل هؤلاء الطلاب المساكين، يقضون عطلهم في جحيم، بحيث لا يكادون يظهرون في الأماكن العامة، والأسواق علناً، إذ كانوا مطمئنين، إلى أن هؤلاء الأعوان كانوا يتربصون بهم الدوائر، ويرقبونهم في كل مكان[1].

كل هذا يمارس في حق العلماء والتعليم، ليعود هذا الأخير إلى الكيفية القديمة الخالية من كل تهذيب ذات العصا والفلقة والحصير، في العصر الذي تتقدم الأمم كل عام في أساليب التعليم، نُرَدُّ نحن إلى الوراء... فاسمع وتعجب يا عصر المدنية والنور[2]، بينما يعامل اليهود الأقلية، بإجراءات مناقضة ومعاكسة لتلك، جملة وتفصيلاً: فكانت تسمح لليهود أن ينشئوا المدارس لأبنائهم، ولا تسمح للمسلمين بإنشاء مثلها لأطفالهم، في الوقت الذي تزعم فيه الدولة أنها منفصلة عن كل صبغة دينية[3]، وتتبنى النظام اللائكي (العلماني) الذي يفصل بين الدين والسلطة السياسية[4].

وأصدرت الإدرة الفرنسية أيضاً في 28 اب 1939م، قانوناً يخص إصدار المطبوعات والمنشورات، أعطى للإدارة: الحق في مراقبة جميع المطبوعات، كما يمنحها حق وقف ومنع جميع المطبوعات، وأصبح كل من يخرج

(1) المصدر نفسه ص 235.

(2) المصدر نفسه ص 236.

(3) حياته وآثاره ، د. عمار الطالبي (3 / 244).

(4) جهاد ابن باديس ص 236.

جريدة أو نحوها، لا بد أن يحصل على رخصة[1].

ولا ننسى أن ابن باديس شخصياً، توفي وهو تحت الإقامة الجبرية بقسنطينة، حيث منعته إدارة الاحتلال من مغادرة ترابها إطلاقاً[2].

ولم تستثن الإدارة الاستعمارية أي معامل، يمكن توظيفه في معادلة صراعها مع العلماء، وأي جهة يمكن الاستفادة منها واستغلالها في صفها ضدهم، خصوصاً وأنها قد وجدت بجنبها: حلفاء طبيعيين لها، من الذين هددت الحركة الإصلاحية تأثيرهم الديني التقليدي، أو مصالحهم الآنية[3].

والذين عند اشتداد المواجهة السافرة بين العلماء والإدارة، وأمام ضرورة اختيار الموقف السياسي الذي فرضته الظروف الداخلية، تسارعوا للانتظام علانية في جهة الإدارة، وإعلان ولائهم لها[4]، خوفاً على مصالحهم ونفوذهم ومكانتهم، وأظهروا أو تظاهروا .كراهية للعلماء . ورفضاً لهم، ومعارضة لنشاطهم وكما استغلت الإدارة كل الجبهات، لإعلان حرب دعائية واسعة لتشويه العلماء ورميهم بالتهم والشبهات التي تقدح في سمعتهم لدى الرأي العام ؛ فأطلقت على الجمعية ألسنة أتباعها في المجالس المحلية، والجمعيات الطرقية والصحافة المضادة لهم، وحتى خريجي المدارس الفرنسية، ودعاة التجنيس بالجنسية الفرنسية[5].

وأوعزت إلى بعض الأئمة المعنيين في المساجد الرسمية من قبلها لرفع دعاوي وشكاوى ضد العلماء حتى تجد الإدارة في ذلك ذريعة لتدخلها، وتبريراً لمواقفها، التي تتخذها للتضييق، أو الحد من نشاطهم وفعلاً وقع كبار ممثلي الأئمة الرسميين وثيقة ، طالبوا فيها الإدارة بالتدخل، لوقف نشاط العلماء ، طالبوا فيها الإدارة

---

(1) الحركة الوطنية (3 / 33) ، أبو القاسم سعد الله.

(2) جهاد ابن باديس ص 236.

(3) جهاد ابن باديس ص 236.

(4) المصدر نفسه ص 236.

(5) الحركة الوطنية الجزائرية ، أبو القاسم سعد الله (3 / 23).

بالتدخل، لوقف نشاط العلماء بالمساجد، ومنعهم من التدريس والخطابة، ووضع حد لهم[1].

### 9. كبرى المكائد التي دبرت للجمعية:

ويؤكد الإبراهيمي أن كبرى المكائد التي دبرت للجمعية في تاريخ حياتها المكيدة التي اغتالت الشيخ كحولا، واعتقلت الأستاذ العقبي[2]، وذلك صبيحة يوم الأحد 20 اب 1936م، عندما عقد وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري، بعد رجوعه من باريس، تجمعاً عاماً بالملعب البلدي، في 20 اب الحالي بالعاصمة، حضره حشد عظيم من الأمة والأئمة والعلماء والذين شاركوا في المؤتمر الإسلامي العام، الذي انعقد في 7 حزيران من السنة.

حادثة الاغتيال هذه، التي ذهب ضحيتها مفتي الجزائر وإمام جامعها الكبير، ابن دالي محمود المدعو كحولا، والتي من خلال تتبع ملابسات وقوعها، واستقراء تفاصيلها، يتبين أنها ليست حادثاً اعتيادياً، لأن: موضع الغرابة أن يكون المقتول فلاناً وأن يكون قتله في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة، التي هي منتصف العاشرة، والاجتماع لم ينقض بعد[3].

والسؤال الذي يطرح إذن: من كان وراء اغتيال كحولا؟ ولماذا تم اغتياله وفي ذلك اليوم بالذات؟ ولماذا أُتّهم الطيب العقبي باغتياله؟.

لمعرفة إجابة وتفسيرات لهذه الأسئلة الكبرى والهامة لمعرفة إجابة وتفسيرات ما قبل حادثة الاغتيال هذه، لمعرفة الملابسات التي أحاطت بعملية الاغتيال، وتركتها تأخذ أبعاد تضفي عليها غرابة وتساؤلات، فابن دالي محمود المدعو كحولا، كانت بينه وبين العلماء عامة والطيب العقبي خاصة . بحكم وجوده بالعاصمة . اختلافات في الاراء، التي تخص ميدان الإصلاح، وبعض المسائل الفقهية، وهو كما يقول عنه الإبراهيمي: نحن معه كشأننا مع بقية الناس، نرى رأياً في الدين، ويرى هو خلافه، والحكم بيننا هو الدليل، فإذا لم يقنع

---

(1) جهاد ابن باديس ص 237.

(2) المصدر نفسه ص 237.

(3) المصدر نفسه ص 237.

فأمره إلى الله، والرجل كما عهدناه، ذكي نزاع بطبيعته إلى الاستقلال الفكري، فلو تركته الظروف لكان في عداد المصلحين[1].

وحتى هذا الاختلاف بينه وبين العلماء، الذي دفعه لمعارضتهم معارضة شديدة، وأحياناً عنيفة، كانت هذه المعارضة منه، مصطنعة ومتكلفة، بحكم أنه يجمع إلى وظيفته الدينية وظيفةً اخرى إدارية، وكلتا الوظيفتين بطبيعتهما، لا تخلوان من ملابسات واحتكاكات تغرس لصاحبها البغضاء في نفوس أقوام، والمحبة في نفوس آخرين[2].

ويبدو أيضاً، أن الإدارة الفرنسية كانت وراء اصطناع هذه المعارضة واستغلال كحولاً في وصفها، لخدمة هدفها في تقويض ومحاصرة نشاط العلماء وإثارة الشبهات حولهما بحكم أن الوظيفتين الدينية والإدارية، اللتين كان يشغلهما تمتا بإرادة إدارة الاحتلال، وليس هذا فحسب، بل: دفعت فرنسا هذا الشيخ لإرسال برقية إلى الحكومة الفرنسية، لتتضمن عبارات قاسية ضد الوفد والمؤتمر الذي عقده العلماء ويتبرأ منهم، ويؤكد إخلاص المسلمين لفرنسا وموالاتهم لها[3].

كما يندد فيها: بالعلماء الجزائريين الذين ليس لهم لا مستندات ولا شهادات.. ولا يمثلون سوى شرذمة من المشوشين، الذين يحاولون بث الفوضى في البلاد[4].

ويظهر أيضاً أن هذه الاتهامات العنيفة منه للعلماء وإرساله للبرقية إلى الإدارة الفرنسية: لم تكن صادرة عن المفتي الضيق، بل كانت صادرة عن إدارة الأمور الأهلية[5]، كما يؤكد ذلك أحمد توفيق المدني، وهو يتكلم بلسان العلماء أنه: ما كان أحد منا يعتقد أن كحول هو كاتب البرقية، بل كنا جميعاً نعتقد أن الإدارة التي

---

(1) المصدر نفسه ص 238.

(2) المصدر نفسه ص 238.

(3) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني ص 254.

(4) أفريقيا الشمالية ، شارل أندري جوليان ص 138.

(5) صراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني ص 338.

يعمل فيها، هي الكاتبة، وهي المرسلة. وأن الشيخ كحول لم يكن له من الأمر إلا الإمضاء[1].

ويزيد الإبراهيمي هذا الأمر تأكيداً، ويصرح أن التلغراف الذي أرسله المفتي «كتب باسمه لا بيده» [2].

ومن هنا استغلت الإدارة بالعاصمة الطيب العقبي خاصة، ووفد العلماء في المؤتمر الإسلامي عامة، كما استغلت ظروف انعقاد التجمع الشعبي بالملعب البلدي وتضرب «عصفورين بحجر واحد»، فأعدت قاتلاً محترفاً وجهته تقتل الشيخ كحول، واتهمت في الوقت ذاته جمعية العلماء، بتدبير جريمة القتل، وتم اعتقال الطيب العقبي، وألقي به في السجن[3]. ليمكث فيه ستة أيام بلياليها في التحقيق.

ولم تقف أمر الإدارة الفرنسية عند الاغتيال واتهام الجمعية في شخص العقبي واعتقاله فحسب، بل تعدى أمرها ذلك، إلى القيام بإجراءات أخرى كان لها:

. **أولاً**: تطويق نادي الترقي بالجند والشرطة والدرك وتفتيشه.

. **ثانياً**: طرد العلماء منه، وغلقه.

. **ثالثاً**: إخراج العقبي منه مسلسلاً مهاناً أمام الناس بكلمات سفهة من قبل رئيس البوليس وبعض أعوانه.

. **رابعاً**: تفتيش إدارات جريدة البصائر، وجمعية العلماء والجمعية الخيرية التي كان يرأسها العقبي، ثم علقها، وكذا غلق إدارة البصائر، التي كان يرأس تحريرها.

. **خامساً**: حجز دفاتر وأوراق الإدارات المذكورة.

---

(1) المصدر نفسه ص 338.

(2) الآثار محمد البشير الإبراهيمي (1 / 203).

(3) عبد الحميد بن باديس ، العسلي ص 138 . 139.

. **سادساً**: شن حملة إعلامية مشوهة، من طرف الجرائد الفرنسية: بعناوين ضخمة، وصور مثيرة، تصف الاغتيال بأنه مؤامرة واسعة النطاق يديرها الوهابيون وتصف العلماء بالإجرام والقتل[1].

وأثارت حادثة الاغتيال، والاعتقال للعقبي، ردود أفعال داخلية وخارجية واسعة، استنكرت العملية، واتفقت على براءة العقبي، والعلماء منها، ووصلت مئات البرقيات والرسائل الخاصة إلى العقبي بعد الإفراج عنه، وإلى الجمعية، مؤكدة امتعاضها، وتأسفها الشديدين على ما حدث.

واعتقد الرأي العام، أنه من المستحيل أن يثبت اتهام الجاني عكاشة للعقبي، بأنه محرضه ودافعه لارتكاب جريمة الاغتيال، واستند في ذلك إلى: أن الأستاذ العقبي، لو لم يمنعه دينه وتقواه مما وصمه به عكاشة، لمنعه شرفه وهمته ومروءته، ولو لم تمنعه هذه الثلاثة، لمنعه عقله وذكاؤه، فهل يعقل أن تهمة سخيفة كهذه، من مجرم كعكاشة، تعلق بمتحصن بهذه الحصون المنيعة كالعقبي، ويكون لها من القيمة ما يُصيِّره متهماً بالإجرام، ومن الأثر ما يدخله سجن بربروس، ومن النتيجة أن يقال له بعد ستة أيام قضاها في السجن، أنت حر، ولكن تحت الطلب[2].

والذي زاد تأكيد براءة العقبي، ومن ورائه العلماء والجمعية عامة من الجريمة، وأنها كانت محبوكة من طرف الإدارة الفرنسية، تراجع عكاشة الجاني عن تصريحه الأول عند بدء التحقيق، والذي اتهم فيه العقبي، بأنه هو الذي أوعز إليه إرتكاب الجريمة وأنه أعطاه الموس التي قتل بها، وأنه وعده بثلاثين فرنك أجرة على القتل، وكان هذا التراجع في اليوم السادس من اعتقال العقبي، بعد أن حصلت مقابلة بينه وبين الجاني، بحضور قاضي التحقيق ومحامي الأستاذ: فلما مثل الجاني أمام القاضي وألقى عليه الأسئلة في الموضوع رجع عن تلك الوصمة التي رمى بها الأستاذ، واعترف اعترافاً صريحاً بأنه مبطل فيه ومفتر على الأستاذ. وأنه يرجو منه في هذا المجلس

(1) مذكرات ص 239 محمد خير الدين.

(2) الآثار لمحمد البشير الإبراهيمي (1 / 197).

أن يسامحه ويعفو عنه، وأعلن أنه راجع عن الباطل إلى الحق[1].

وبعدها تم الإفراج عن العقبي، لعدم وجود أدلة ضده وتبرئة الجاني له.

إن الحوادث التي وقعت حول المؤتمر الإسلامي الجزائري قوت الشعور في سائر طبقات الأمة الجزائرية، بأن هناك سلسلة من المؤامرات السرية دبرت لإحباط مساعي المؤتمر وقتل آمال الأمة في مهدها[2].

وفعلاً حدث ما أرادت الإدارة الفرنسية حدوثه من الأحداث التي افتعلتها وحركت خيوطها خفية، إذ: ما كان ينشر خبر الحادث ـ اغتيال كحولاً ـ حتى نكص الدكتور ابن جلول على عقبيه، وتنكر لأصحابه وشيعته وقال: إنه لا يشترك في حركة تعمد إلى القتل، وإخماد الخناجر في قلوب المعارضين[3].

وأدان بصفة مباشرة:«جمعية العلماء بقتل كحولا»[4]، وهكذا نجحت الإدارة الفرنسية بقيادة مدير شؤون الأهلية بالجزائر السيد ميو، من كيد كبرى المكائد للعلماء بعد نجاحهم الكبير في جمع قوى الشعب وممثليه ـ على مختلف توجهاتهم ـ في أكبر وأضخم تجمع شعبي، شهدته الجزائر منذ دخول الاستعمار الفرنسي.

هذا التجمع الذي كشف بوضوح قوة الجمعية والعلماء الشعبية والسياسية، وأنهم بدعوتهم رَبَّوا الشعب وأعدوه إعداداً قوياً بمواجهتهم انياً، ومستقبلياً، واستطاع هذا المدير، الذي أُتي به خصيصاً من التدريس بالجامعة في فرنسا إلى تولي منصب إدارة الشؤون الأهلية بالجزائر، لمواجهة العلماء بحنكة سياسية وذكاء ودهاء،

(1) المصدر نفسه (1 / 95) ، جهاد ابن باديس ص 241.

(2) مظاهر المقاومة الجزائرية ، محمد الطيب العلوي ص 167. جهاد ابن باديس ص 241 ـ 244.

(3) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني ص 255.

(4) المصدر نفسه ص 255.

واستطاع: أن يضرب جمعية العلماء في الصميم وأن يشتت شملها شذر ومذر، يضرب أكبر رجالها في العاصمة، وهو الشيخ الطيب العقبي، ضربة لا قيامة بعدها[1]. لأن اتهام الإدارة له بتدبير الاغتيال واعتقاله فيما بعد وإبقاءه في السجن قيد التحقيق القضائي: قضاء على شخصه وسمعته، وبالتالي على نشاطه، ومن وراء ذلك تشويه سمعة الجمعية والإساءة إلى الحركة الإصلاحية، وزعزعة حركة المؤتمر الإسلامي[2].

ولم تشوه الإدارة سمعة الجمعية، وتلطخ ثياب علمائها فحسب، بل نجحت في التأثير على نفسية العقبي التي اهتزت لتلك الصدمة العنيفة، التي مست شخصه واعتبرها إهانة له وحطاً من قيمته ومنزلته أمام عزة نفسه، وأمام إخوانه العلماء، وأمام الشعب الجزائري عامة، والأكثر من ذلك: استطاعت فصله عن الجمعية، املة أن الفصل يضعف الجمعية، إن لم يحطمها نهائياً[3].

هذا الفصل الذي جاء بعد بداية فتور علاقته بالعلماء منذ سنة 1937م، وظهرت بداية علاماته متجسدة في موقفة المفاجأئ والمحير عشية اندلا ع الحرب العالمية الثانية، عندما وقف ليبادر إخوانه العلماء، عند اجتماع مكتب الجمعية، بقوله: أرى أنه يجب علينا إرسال برقية إلى رئيس حكومة فرنسا، نظهر فيها صدق عواطف الشعب الجزائري، ووقوفه مع فرنسا ضد كل عدوان[4].

ولكن مكتب الجمعية برئاسة ابن باديس، عارضه معارضة مبدئية شديدة ورد عليه ابن باديس قائلاً: كيف نكون مع فرنسا، وهي التي لم تُقيم لنا وزناً، ولم تعترف لنا بحق؟ وأمعنت في إهانتنا واحتقارنا، فكيف تجدنا ساعة الخطر أعواناً وأنصاراً؟

---

(1) المصدر نفسه ص 255.

(2) الحركة الوطنية (3 / 53) ، د. أبو القاسم سعد الله.

(3) عبد الحميد بن باديس ص 141 ، بسام.

(4) المصدر نفسه ص 141.

يجب علينا أن نسكت عنها إطلاقاً، ولا نقول لها كلمة[1].

وكان الموقف النهائي الذي قرره وخرج به مكتب الجمعية من اجتماعه، هو إيقاف جريدة البصائر عن الصدور، حتى لا ترغم وتحمل قسراً على التصريح بما يخدم إدارة الاحتلال من قريب أو بعيد، لأن التعطيل خير من نشر الأباطيل[2]، على حد تعبير الإبراهيمي، وهكذا تم اغتيال المؤتمر، باغتيال كحولاً، وألقته قتيلاً في مهده بعد شهر فقط من ولادته، وتبخرت في لحظة تلك الوحدة المقدسة، التي ضمت في صف واحد كل القوى الشعبية بعد ربع قرن من سير حثيث موفق نحوها[3].

وتمزقت قيادة المؤتمر، فخرج منها فرحات عباس، وأسس حزب الإتحاد الشعبي، وانفصل ابن جلول عنها وكوَّن حزباً باسم المجتمع الفرنسي الإسلامي ووقعت أزمة حادة بين النواب والعلماء[4].

### سادساً: خصوصيات الحركة الإصلاحية التي قادها ابن باديس:

تميزت الحركة الإصلاحية التي قادها ابن باديس بأمور منها:

1 ـ **أنها استوعبت في منطلقاتها ومناهجها وأهدافها أصول الحركات الإصلاحية السلفية القديمة والمعاصرة**، فأخذت من افكار ابن تيمية في مجال فهمها لحقيقة الدين وأصول الشريعة، وتأثرت بالحركة الوهابية في بعض مواقفها تجاه البدع والخرافات التي لحقت بجوهر العقيدة، واقتدت بالحركة السنوسية في ربط الدين بالدنيا والأخلاق بالسياسة واعتبار محاربة الاستعمار جزءاً من الدين.

وسايرت صيحات جمال الدين الأفغاني في ثورته على الحكم الأجنبي ومقاومة الاستبداد، والدعوة إلى التمرد من أجل التحرر والتوحد.

---

(1) المصدر نفسه ص 141.

(2) الصحف العربية الجزائرية ، د. محمد ناصر ص 198.

(3) مذكرات مالك بن نبي ص 368.

(4) جهاد ابن باديس ص 246.

وتبنت النهج الإصلاحي المعتدل في نشر الوعي وتربية الجماهير، وتهيئتها لتحمل مسؤوليتها في مواجهة العدو ومكافحة التخلف والجمود، كما تبنت اراء وأفكار الكواكبي وشكيب أرسلان وغيرهما من رجال الفكر وزعماء الإصلاح الذين وإن اختلفت الأساليب التي تبنوها في نهجهم العملي ؛ فإنهم جميعاً ذوو نزعة تجديدية تسعى لبعث يقظة فكرية ووعي قومي وديني يؤديان إلى تحرير الإنسان من ضعفه، والمجتمع من أمراضه، والدين من الشوائب التي لحقت به، والبلاد من كابوس الهيمنة الأجنبية وظلم المستبدين.

2 . **كانت حركة شعبية واقعية عملية،** امتدت إلى جميع الفئات وتغلغلت في أوساط الشعب، لأنها كانت تستهدف التعبئة الشاملة وإعادة تشكيل الشخصية الوطنية التي أصبحت مهددة.

3 . **الوسط الاجتماعي** الذي كان يتحرك فيه ابن باديس وسط أمي في معظمه ؛ إذ لم تكن قبل المعركة الإصلاحية ولا في وقتها معاهد تعليمية عالية كما هو الشأن في تونس والمغرب ومصر، لذلك كانت حركته مسايرة لطبيعة الوسط والهدف من إنشائها، ولم تكن دروسه تقدم المعرفة لذات المعرفة ولم يكن خطابه من أجل إظهار البراعة الأسلوبية إنما كان يخاطب القلب والعقل والوجدان بلغة تحقق المسعى بأسلوب تربوي ينفذ إلى الأعماق، هكذا تحدث عنه تلاميذه الذين لازموه مدة[1].

4 . **جاء ابن باديس في وقت كان الاستعمار قد أحكم قبضته على كامل التراب** الوطني وأصبحت أمور البلاد كلها في يده، ففرنس الإدارة والتعليم الذي أنشأه خصيصاً لأبناء رعاياه، وأغلق مؤسسات التعليم الوطنية التي كانت تعلم الثقافة العربية الإسلامية، وشدد الخناق على الدين الإسلامي وعلى اللغة العربية واعتبرها لغة أجنبية، وتم ذلك بتدمير الممتلكات الثقافية وتخريب المكتبات وهدم المساجد أو تحويل وظيفتها، والاستيلاء على موارد الأوقاف التي كانت تغذي التعليم، وجعل الشؤون الدينية بين يدي مسؤول فرنسي في

---

(1) إمام الجزائر ص 116.

تسيير الشؤون الأهلية، يعين ما يشاء للإفتاء والإمامة، والقضاء الخاص بالأحوال الشخصية، فكان ذلك من نتائج انتشار الجهل والأمية والانحراف الديني والجمود الفكري، وذيوع الخرافة، وحين ظهرت حركة الإصلاح في الجزائر لم تجد قاعدة عملية تنطلق منها مثلما كان الأمر في تونس لذلك كان نضالها متعدد الجبهات من ذلك:

أ ـ إحياء رسالة المسجد بتنظيم دروس تعليمية وتثقيفية للعامة والخاصة.

ب ـ إنشاء المدارس في مختلف جهات الوطن بتمويل من الشعب.

ج ـ تأسيس صحافة خاصة بالحركة الإصلاحية تنقل للقراء الأفكار الإصلاحية وتطلعهم على سياسة الاستعمار وقوانينه الجائرة ومواقف العلماء من ذلك.

د ـ إنشاء النوادي الخاصة بالشباب، وتنظيم تعليم خاص بهم وبالبنات والنساء.

هذه الأمور وغيرها تبين أن الحركة الإصلاحية في الجزائر التي كان يقودها ابن باديس تميزت بشعبيتها وشموليتها ؛ ولذلك تمكنت في ظرف قصير نسبياً من توسيع نظامها ونشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في جهات القطر، وبث الوعي الديني الوطني في نفوس الشباب الذين كانوا يقبلون على دروس التثقيف العام بالمسجد والنوادي وغيرها، وبالإضافة إلى التعليم والوعي والتثقيف العام كان للحركة مواجهات عديدة مع مختلف الفئات ـ كما سبق القول:

ـ مع المستشرقين الذين كانوا يدسون على الإسلام.

ـ ومع هيئات التبشير التي كان همها الوحيد هو صد الشباب والأطفال عن الإسلام.

ـ مع المثقفين ثقافة غربية والذين أصبحوا يميلون إلى التنكر إلى شخصيتهم منبهرين بالحضارة الغربية.

ـ مع حكام الاستعمار وساسته في الجزائر وفي فرنسا الذين كانوا يراوغون في الردود على مطالب الجزائريين، وكانوا يتعسفون في التعامل مع العلماء، ومع التعليم الحر.

فقد اتجه ابن باديس من خلال التعليم ومعاركه الصحافيه إلى تكوين قاعدة شعبية عامة منتظمة، تتبنى أفكاره وترتبط بتوجيهاته، ومن هنا نتبين أن مثل هذه الظروف القاسية لم تعرفها الحركات الإصلاحية الأخرى في المشرق والمغرب.

إن الحركة الإصلاحية في الجزائر تميزت بأمور عديدة، ورغم هذه الظروف الصعبة والمعقدة أحياناً نجحت هذه الحركة أيما نجاح، وهيأت جيشاً من الوطنيين كانوا عدة الثورة عند انطلاقها في عام 1954م[1].

### 5. رأي مالك بن نبي في حركة الإصلاح:

لقد أعجب مالك بن نبي دون شك بحركة الإصلاح التي قام بها العلماء المسلمون الجزائريون بقيادة عبد الحميد بن باديس، ورأى فيها مزايا لم يرها في الإحيائية الكلامية المجردة ذات العقلانية النظرية المجردة التي بعثها الشيخ محمد عبده وقبله جمال الدين الأفغاني، وذلك لأن حركة ابن باديس قد بدت لمالك بن نبي أقرب الإحيائيات إلى النفوس وأدخلها في القلوب بما تبنَّت من منهج مستلهم من قوله تعالى في سورة الرعد: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد : 11].

كانت حركة ابن باديس الإصلاحية روحاً جديدة، ودفعا إيمانياً متواصلاً جعلها تستمر في أداء رسالتها ومواصلة عطائها. ويصف لنا الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله تلك اليقظة فيقول: لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس، فكانت ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدَّر يتحرك، ويا لها من يقظة مباركة[2].

* * *

(1) إمام الجزائر ص 117.

(2) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 88.

# المبحث الرابع

# منهج ابن باديس في التعامل مع

# القرآن والسنة النبوية والعقائد والسنن الإلهية

## أولاً: منهج ابن باديس في التعامل مع القرآن الكريم:

### 1 . القرآن الكريم أساس الإصلاح:

نشرت مجلة الشهاب دروس عبد الحميد بن باديس في تفسير القرآن الكريم، التي اتخذ صاحبها لها عنواناً هو «مجالس التذكير في تفسير كلام العليم الخبير»، وقد استمرت هذه الدروس تلقى كمحاضرات أكثر من عشرين عاماً، وهي شاهد على غزارة علم صاحبها من جهة وواسع معرفته بأحوال مجتمعة وحاجاته الفكرية والاجتماعية في الوقت نفسه، فهو لم يكن يعشق تأويل آيات الكتاب ليحملها ما لا تحمل وينطقها بما يريد ويتجاهل دلالة الآية البينة الصريحة، كما أنه لم يكن يعرف تفاصيل الألفاظ والحروف والمعاني الجزئية، حتى تضيع الحكم والمقاصد والأصول العامة التي توحيها هداية القرآن، بل كان التفسير يحقق أهدافه العلمية التربوية الاجتماعية متضافرة متساندة.

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في تقديم ما نشر من «تفسير ابن باديس»:.. ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور محمد عبده، ولكنه مات فخلفه في ترجمان أفكاره ومستودع أسراره (محمد رشيد رضا)، فكتب في التفسير ما كتب ودون آراء الإمام فيه ومات قبل أن يتمه.. فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر، بل وبالشمال الإفريقي عبد

الحميد بن باديس[1].

وبالطبع يتكلم الشيخ في تقديمه لما وصله من تفاسير منشورة بالعربية خلال حياته، إذ لم يكن في طوقه أن يحيط علماً بما نشر في شتى ديار الإسلام بمختلف اللغات، وكذلك اختار بن باديس أحاديث رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ما والى شرحه لمجلة «الشهاب»، كما قدم صوراً معبرة لشخصيات من السلف تحمل القدوة والعبرة. وهكذا استخدم ابن باديس «المصادر السلفيبة» الأصلية من كتاب وسنة وتاريخ صحيح في تصحيح المفاهيم لدى المسلمين المعاصرين، وإعادة صياغة النهج السلفي في التفكير الإسلامي[2].

كانت: دروس ابن باديس في تفسيره للقران أو في غير ذلك من الموضوعات ومحاضراته ومقالاته فضلاً عن جهوده العلمية ؛ تمثل حركيته وحرارته خير تمثيل، فهو يطلق من الكلمات إلى قلوب المسلمين وعقولهم تياراً دافقاً متوهجاً من النور والحياة، ويصوغ للإسلام صورة متكاملة للفكر والعمل، ويتواصى مع المؤمنين أن ينفث بعضهم في بعض روح العمل الاجتماعي الحركي[3]، لقد اعتمد ابن باديس في دعوته الإصلاحية.... وتذكيره، وفكره وعقائده، وأخلاقه على هدايات القرآن الكريم ومقاصده، وكان يرى أن القرآن الكريم فيه العقائد الحقة والتشريعات النافعة والأخلاق الفاضلة، وأن غاية التفسير والتذكير الواحدة والواضحة هي هداية البشر إلى الحق وتعريفهم به، وهذا ما أكده ابن باديس حين قال: القرآن هو كلام الجبار وسيد الأذكار، فيه من العلم ما يفتح البصائر ومن الأدب ما ينور السرائر، ومن العبر ما يبهر الألباب ومن الحكم ما يفتح للعلم كل باب، فيه علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة، وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام وكليات التشريع وحقائق الحياة والعمران والاجتماع ونظم الكون

(1) ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير ، د.محمد بهي الدين سالم ص 85.

(2) المصدر نفسه ص 86.

(3) المصدر نفسه ص 89.

المبنية على الرحمة والقوة والعدل والإحسان، فينال كل تال منها على قدر ما عنده من سلامة قصد، وصحة علم بتقدير وتيسير من الحكيم العليم[1].

## 2. حثه على القرآن ودعوته للاعتصام والعمل به:

### أ. حثه على القرآن الكريم:

ذكر ابن باديس في الحث على القرآن الكريم حديث رسول الله (ص) الذي رواه عثمان بن عفان رضي الله عنه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»: الذي أخرجه البخاري في كتاب فضائل القران، وعلق عليه فقال: فقد تقاصرت همم المسلمين في هذه المدة الأخيرة عن تعليم القرآن وتعلمه، فقل الحافظون له، فعلى كل من نصب نفسه لإرشاد المسلمين في دينهم أن يحثهم على العناية بحفظ كتاب ربهم، وعلى الكتّاب أن يطرقوا هذا الموضوع الكثير النواحي، هذا يأتيه من ناحية فضيلة القران، وذلك من ناحية اختيار المعلمين وما هي الصفات المطلوبة فيهم؟ والاخر من ناحية أسلوب التعليم وما هو الأقرب إلى التحصيل من أي الأساليب؟ ورابع من ناحية تحسين حال المعلمين وتوفير أجرتهم، وكل من هذه النواحي يلزم أن تتعدد فيها الكتابة حتى تحدث تأثيراً في رأي المجتمع وتكون رأياً عاماً في الموضوع، وحسبنا في هذا الباب باب الآثار والأخبار ما أرشدنا إليه.

والحديث صريح في فضل من جمع بين تعلم القرآن وتعليمه لغيره وأنه خير من غيره، وإنما ثبت له هذه المزية لأن المراد من متعلمه مَن حفظه وفهمه وعمل به، والمراد من معلمه من يلقنه غيره ويفسره له ويرشده إلى العمل به، وإذا كان هذا النوع الممدوح في الحديث المفضل على غيره بشهادة الصادق المصدق مفقوداً من بيننا أو كالمفقود، فالواجب علينا السعي في تكوينه ولهذا دعونا الكتّاب إلى العناية بهذا الموضوع.

قال الحافظ ابن حجر في بيان وجه خيرية معلم القرآن ومتعلمه:

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية، د. عبد الحميد درويش النساج ص 101، 102.

ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدي، ولهذا كان أفضل، وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى: بقوله: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ *} [فصلت : 33].

والدعاء إلى الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن وهذا أشرف الجميع. هذا كلام ابن حجر، ثم أفاد أن ليس المراد شيئاً من معاني ما يقرأه أو يُقرئه[1].

**ب الاعتصام بكتاب الله:**

ودعا ابن باديس إلى الاعتصام بكتاب الله واعتمد على حديث رسول الله (ص) الذي رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أتاني جبريل فقال يا محمد أمتك مختلفة بعدك، قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: في كتاب الله. به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك«مرتين» قول فصل وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن ولا تفنى عجائبه، فيه نبأ من كان قبلكم وفصل ما بينكم وخير ما هو كائن بعدكم أخرجه الإمام أحمد، نقله الحافظ ابن كثير أوائل كتابه فضائل القرآن الذي ختم به تفسيره.

وعلق ابن باديس على هذا الحديث فقال: صدق رسول الله (ص) . فقد وقع الاختلاف، وقد دعونا الناس إلى المخرج وهو كتاب الله وسنة رسوله المبينة له، فقال المعاندون ما قالوا إلا من كان يؤمن بأن محمداً رسول الله، فليمتثل إرشاده، وقد أرشدنا إلى المخرج من هذا الاختلاف، فلنعمل بإرشاده، وهدانا إلى طريق الحق عند الالتباس فلنتعهد، وقد وصف الله كتابه بقوله: {هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة : 185]. فهو هدى بين واضح لا يلتبس على مريد الحق التماس الهدى منه، وإذا كانت طباعنا العربية وسلائقنا في فهم لسان العرب قد حالت وفسدت وصعب علينا أو تعذر فهم كلام ربنا، فإن في تعلم اللغة العربية وعلومها ما يجعل لنا سلائق مكتسبة، وإنّ فيما كتبه أئمة التفسير قبلنا ما يجبر نقص السليقة الكسبية عن السليقة الفطرية.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 320).

وقد أوصل الجهل بكتاب الله بعض أدعياء العلم إلى أن جعلوا الدعوة إلى توحيد الله ونبذ ضروب الشرك طريقة خاصة بابن تيمية على معنى أنها بدعة حصلت بعد انعقاد الإجماع، فمن سلك هذه الطريقة فقد عرض دينه للخطر. ولو نظروا في كتاب الله وتأملوه لوجدوا جل آياته دعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك.

وإذا ذكرت لهم هذا قالوا: تلك آيات نزلت في مشركي مكة، فكيف تطبقونها على من يشهد الشهادتين، وهذا نوع آخر من جهالاتهم وتلبيس إبليس عليهم، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد قال تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القرآن لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام : 19].

قال المفسرون: معناه: من بلغه القرآن فتخصيص إنذاره بمشركي مكة تعطيل للقرآن.

قال الغزالي في الأحياء: وينبغي للتالي أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً ونهياً قدر أنه المنهي والمأمور، وكذا إن سمع وعداً أو وعيداً، وكذا ما يقف عليه من القصص فالمقصود به الاعتبار.

قال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ *} [آل عمران: 138].

وقال: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القرآن لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام : 19]..

قال محمد بن كعب القرطبي: من كلمه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل[1].

**ج. مدح العامل بالقرآن:**

وقال ابن باديس في مدح العامل بالقرآن كلاماً جميلاً، واستدل بحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. عن النبي (ص): «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي يقرأ القرآن ولا يعمل به كالثمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر وريحها مر» [رواه البخاري ومسلم وغيرهما].

(1) المصدر نفسه (2 / 322).

وعلق ابن باديس على الحديث فقال: جعل رسول الله (ص)، طيب الطعم دائراً مع العمل، وجعل طيب الرائحة صفة التلاوة، والمجدي على المرء هو عمله وأما التلاوة وحدها لا تجدي، فالمنافق يتلو القرآن ولكنه في الدرك الأسفل من النار.

وقد دل الحديث عن أن العمل بالقرآن درجتين أعلاهما الجمع بين التلاوة والعمل، ودل على أن المخالفة لأوامره ونواهيه دركتين أدناهما الجمع بين الأعراض على حفظه والأضراب عما دعا إليه.

والعمل بالقرآن يقتضي فهم معانيه وكذلك كان المخاطبون بهذا الحديث، فإن القرآن بلغتهم نزل، ولهذا لم يقل في الحديث: «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويفهمه ويعمل به»، لأن ذكر الفهم لأولئك المخاطبين حشو، تتحاشى عنه البلاغة النبوية.

فيا أيها القراء المؤمنون تطلبوا معاني ما تقرؤون، واعملوا بما تفهمون كي تكونوا أترجة، ويا أيها المؤمنون الأميون أسألوا أهل الذكر والعلم بكتاب ربكم وتحروا العمل بما دعاكم إليه كي تكونوا ثمرة، وقد دلت مقابلة القارئ العامل بالقارئ المنافق على تسمية من يخالف ما يقرؤه منافقاً، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، وهم أخس صنوف الكفار، ولكنا نجد من الناس من لا يختلف في إيمانه ثم هو يخالف ما يقرأه، وقد قال العلماء: أن هذا النوع من المؤمنين يسمى نفاقهم نفاق عمل لا نفاق كفر، ويسمون منافقين مجازاً لأن فيهم خصلة من خصالهم وهي مخالفة للأوامر.

فالقارئ إن لم يعمل بما يقرأه فهو منافق حقيقة أو مجازاً. أعاذنا الله وإياكم من النفاق حقيقيِّه ومجازه، وجعلنا ممن يتلو كتابه عالماً بمعانيه عاملاً بما يفهمه منه[1].

(1) المصدر نفسه (2 / 324).

### د . ذم المباهي والمتعيش بالقرآن:

وعلّق ابن باديس على حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ عن النبي (ص): تعلموا القرآن وأسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر: رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرؤه لله. وهذا الحديث رواه أبو عبيد من فضائل القرآن وصححه الحاكم، نقله الحافظ في فتح الباري[1].

فقال ابن باديس عن هذا الحديث: وقد دل الحديث على ذم المباهي بتلاوته. وكثيراً ما يقصد قراء زماننا المباهاة بأصواتهم والفخر بحفظهم، ولا سيما إذا كانوا يتلون مجتمعين بصوت واحد، فليحذر من يجد هذا من نفسه، وليعلم أن كتاب الله هداية تخشع لها القلوب وتستسلم لها الجوارح.

ودل أيضاً على ذم المسترزق بالقران، وكثير من قراء زماننا لا يقصدون من حفظه إلا التوسل به للتلاوة على الموتى بأجرة، ونحو ذلك من الأغراض الدنيوية المحضة.

ولا يتناول هذا الذم من يأخذ الأجر على تعليم القرآن إذا كانت في مقابلة تعبه وشغل وقته، ولم يتخذ تعليمه صناعة من الصناعات المادية المحضة، بل على هذا المعلم ـ أن أراد السلامة من ذلك الذم ـ أن يكون هو نفسه عاملاً بكتاب الله، وأن يقصد من تعليمه الدعوة إلى العمل به[2].

## 3 . مؤهلات التفسير عند الإمام ابن باديس:

إن التفسير ليس كلاماً مباحاً لكل من هب ودب، وإنما يحتاج المفسر إلى مؤهلات علمية وأخلاقية، حتى يكون أهلاً لتعاطي التفسير، وإلا شمله ذلك الوعيد الشديد الذي توعد به النبي (ص): من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار[3].

---

(1) فتح الباري (9 / 82).

(2) المصدر نفسه (2 / 325).

(3) سنن الترمذي، ك تفسير القرآن (2 / 139).

والعلامة ابن باديس قد حقق العلوم والمعارف التي يجب أن تتوفر في المفسر، من الملكة اللغوية وسعة الاطلاع على السنة، ومقاصد الشريعة وأسرار التشريع والأطوار والتقلبات التي مرت بها المجتمعات الإسلامية والبشرية على العموم، ولقد أدرك الإبراهيمي هذه المؤهلات في ابن باديس فقال: ثم جاء أخونا وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قائد تلك النهضة بالجزائر بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة، وهو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم في استكمال وسائلها في ملكة بيانية راسخة وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها، وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع، ومستجدات العمران، بعد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير وقلم كاتب لا تفل له شباه[1].

وعاد العلامة محمد بشير الإبراهيمي في موضع آخر إلى الحديث عن مؤهلات التفسير عند الإمام عبد الحميد بن باديس، وكيف أن المؤهلات التي رزقها ابن باديس لم يرزقها إلا الأفذاذ المعدودون من البشر فقال رحمه الله: له ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة سادسة خاص بها، يرفده بعد الذكاء المشرق والقريحة الوقادة والبصيرة النافذة ؛ بيان ناصع، واطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفيسة والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع، ورأي سديد في عوارضه وأمراضه، يمد ذلك كله شجاعة في الرأي، وشجاعة في القول، لم يرزقها إلا الأفذاذ المعدودون في البشر[2].

كما علق البشير الإبراهيمي على الخطاب الذي ارتجله العلامة عبد الحميد ابن باديس في نادي الترقي والذي كان موضوعه «العرب في القرآن»، وحاول الإبراهيمي نقله إلى قراء الشهاب الغراء، ولكنه أقر بالقصور وهو صاحب البيان الجهير والقلم الخطير، فقال معلقاً:.. وهيهات لما نود من نقله للقراء بجمله وألفاظه، فإنه خطاب عظيم في موضوع خطير لا يضطلع به غير الأستاذ في علمه بفنون القران، وغوصه على مغازيه

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ، د. محمد الدراجي ص 36.

(2) آثار الإبراهيمي (2 / 252).

البعيدة، ونفاده في معانيه العالية[1].

ومما يؤكد تضلع الشيخ عبد الحميد بن باديس في علوم التفسير ما لاحظه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أنه رحمه الله: سلك في درس كلام الله أسلوباً سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى، مستمداً من آيات القرآن وأسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير وأسفارها[2].

### 4 . غرضه من التفسير:

إن الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، كان يعتبر نفسه خادماً للقران الكريم، فقال في حفل الاختتام كلمة رائعة افتتح بها خطابه: أنتم ضيوف القرآن، وهذا اليوم يوم القرآن وما أنا إلا خادم القرآن[3].

ولقد كان ابن باديس رحمه الله، شديد التأثر بالطريقة الهدائية في التفسير، التي انتهجتها مدرسة المنار، فقد استهدف ابن باديس في تفسيره تخريج أجيال مؤمنة، متخلقة بأخلاق القران، لأنه يؤمن بأن القرآن الذي كون رجالاً في السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالاً اليوم لو أحسن فهمه وتدبره، فقال رحمه الله: فإننا نربي . والحمد لله . تلامذتنا على القرآن من أول يوم نوجه نفوسهم إلى القران، من أول يوم غايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالاً كسلفهم، وعلى هؤلاء الرجال تعلق هذه الأمة امالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها[4].

وهذا النص يبين لنا بوضوح الأهداف السامية والغايات النبيلة التي رام ابن باديس تحقيقها من خلال الدرس والتفسير، وهي محاولة بعث المجتمع الإسلامي الذي عرف مرحلة الركود الحضاري منذ أزمنة بعيدة، عن طريق بناء الإنسان المسلم بناء قرانياً يكسبه الفعالية الحضارية ، ويخرجه من مرحلة الذهول الحضاري التي

---

(1) المصدر نفسه (1 / 328).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ، د. محمد الدراجي ص 37.

(3) مجالس التذكير ص 474.

(4) المصدر نفسه ص 476.

يعيشها، فقال رحمه الله: لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه ؛ إلا بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه(1).

وعاود ابن باديس الكرة ثانية عند تفسيره قوله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا *} [الإسراء : 82].

ليؤكد بأن القرآن هو منطلق الإصلاح، فبعد تقسيمه الأمراض التي تعترض المجتمعات البشرية إلى نوعين، أمراض أرواح وأمراض أبدان، أوضح بأن القرآن الكريم هو منطلق الإصلاح، وهو شفاء المجتمع البشري بما شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل، فقال رحمه الله: على أن القرآن هو شفاء لأفراده، فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس ؛ ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني في جميع أمراضه وعلله، شفاء العقائد فلا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجته وبيان ما هو شفاء لها، ولا شفاء لها إلا بالقران، والبيان النبوي راجع إلى القران، ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضاً، فهذه الأمم الغربية . بسجونها ومشانقها ومحاكمها وقوتها . قد امتلأت بالجنايات والفضائح المنكرة التي تقشعر منها الأبدان، وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة النجدية الحجازية والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق مثل أولئك، وما ذلك إلا أنهم داووا الملك بدواء القران، فكان الشفاء التام(2).

لقد استهدف ابن باديس من خلال تفسيره عدة أهداف من أهمها:

ـ أن يكون الهدف الأول للتفسير هو بيان كيفية معرفة الله المعرفة الحقة والإيمان به الإيمان الكامل قلباً وعقلاً، فكراً وسلوكاً.

. أن تكون الغاية الواضحة التي يجب أن يشترك فيها المفسرون هي هداية البشر جميعاً إلى الحق وتعريفهم به مع العناية بطرح مشاكل الإنسان وتحليلها وكيفية معالجتها.

(1) المصدر نفسه ص 252.

(2) مجالس التذكير ص 190، 191.

ـ ضرورة تخليص الفكر الإسلامي مما علق به طوال القرون الماضية من تقاليد وبدع وخرافات وعادات زائفة، فإذا ما تحقق هذا الهدف من خلال التفسير، أصبح التفسير علماً مقنعاً ووسيلة للرد العلمي على اتهامات بعض رجال الاستشراق، الذين يتهمون الدين والقران بالبعد عن المنطقية والعلم، كما يتهمون أصحابه بالرجعية والتخلف على اعتبار أن هذا الفكر يقوم على الظن والسماع وبعيد عن العلم والتجربة، وبالتالي عن الحقيقة لأنه فكر لا منهج له.

. ضرورة تحقيق الوحدة الفكرية عن طريق توحيد المنهج في الاستدلال، فذلك هو السبيل لمنع الخلاف بين رجال التفسير وأصحاب المذاهب مثلما كان يحدث بين الفقهاء والمحدثين من جانب وعلماء الكلام من جانب اخر.

. ضرورة تدعيم الاتجاه نحو الإنسان والعلم، وبدلاً من الاتجاهات التقليدية المصطبغة بالصبغة المذهبية أو البلاغية والنحوية، فذلك هو السبيل لمعالجة نواحي النقص والضعف في الاتجاه العام للتفسير، وتحويل الأنظار نحو الإنسان والعلم بدلاً من نواحي النسخ والإعجاز والقراءات وما نتج عنها من خلافات مذهبية.

. ضرورة أن يكون الهدف العام من التفسير هو تذكير الإنسان، ففي التذكير علم بمبادئ الدين الصحيح وبكيفية بناء الإنسان وحل قضاياه الفكرية والعلمية، وبيان طريق سعادته في الدنيا والاخرة. وعلى ذلك فلا إصلاح حقيقي للإنسان إلا بالتفسير والتذكير، ولا إصلاح شامل للجانب الديني والخلقي والاجتماعي إلا عن طريق الاهتمام بالإنسان وتعليمه وتفهيمه عن طريق التفسير.

وهذا هو الطريق لبناء الإنسان فكرياً وروحياً، وهو الطريق لتحقيق الوعي والنمو الفكري للإنسان والتأكيد على أنه لا تعارض بين الدين والعلم وبين القرآن ومكتشفات العصر، لأن التفسير والتذكير بالقرآن

هو في حقيقته دعوة للعلم وبه تظهر الحقائق العلمية وأسراه الكونية[1].

إن رؤية ابن باديس للإصلاح تنطلق من القرآن الكريم، إذ احتوى كتاب الله عز وجل على علاج كل المشاكل التي تعترض الاجتماع البشري، ولذا فإن ابن باديس استهدف من خلال دروسه في التفسير، بعث إحياء القرآن على الطريقة الصحيحة ليحيي به الأمة الإسلامية التي تدين بهذا القران، وكذا التقريب بين المسلمين وأخلاق القرآن لتعود أمة الإسلام إلى مكانتها التي أرادها الله تعالى لها، تؤدي رسالتها إلى باقي الأمم والشعوب، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنْ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [البقرة : 143].

وقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ *} [آل عمران: 110].

ومن يطالع تلك المقالات النفيسة في التفسير في مجالس التذكير يدرك صدق هذا الذي نقول، ويلاحظ كيف جلّى ابن باديس الهداية القرآنية في أسمى معانيها وأوضح صورها، وكيف ارتقى . الإمام ابن باديس . بدرس التفسير وخلصه من مرحلة الركود والانحطاط التي كان عليها[2].

### 5 . نقده طرق التدريس للتفسير ومناهجه العتيقة:

قام العلاّمة ابن باديس بنقد المناهج العتيقة في التفسير التي كانت سائدة في المعاهد العلمية في وقته، وأكد بأنها مناهج تحول دون الانتفاع بهداية القرآن، واعتبر هذا مظهراً من مظاهر هجر القران، فعند تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورًا *} [الفرقان : 30].

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 119.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس، السلفية والتجديد ، د. محمد الدراجي ص 40.

دعا إلى الاهتمام بعلم التفسير، باعتباره العلم الذي يحقق لنا تدبر آيات القرآن وتفهم معانيها، إذ لا يعقل أن يتخرج طالب من معهد من المعاهد العلمية المرموقة ويتصدى للوعظ والإرشاد والتدريس والتعليم، دون أن يكون قد أخذ بحظ وافر من علوم التفسير، وهذا من أكبر العيوب في تلك المعاهد.

وإذا وجد درس في التفسير في أحد هذه المعاهد فإن محتواه لا يعدو أن يكون مماحكات لغوية، وتطبيقات نحوية، فقال رحمه الله: ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكير في آياته ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه، فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في الحلول الالية، دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلاً، بل ويصير مدرساً متصدراً ولم يفعل ذلك.

وفي جامع الزيتونة ـ عمره الله تعالى ـ إذ حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير فإنه ـ ويا للمصيبة ـ يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهوراً، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى السنة في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الايات، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الالية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية، فهذا هجر آخر للقران مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن[1].

فكل منهج في التفسير لا يجعل من إبراز الهداية القرآنية هدفاً أساسياً له في المنظور الباديسي نوع من أنواع هجر القرآن حتى ولو كان فاعل ذلك يحسب نفسه في خدمة القران، فدرس التفسير ليس من أجل تطبيق القواعد الالية من نحو وصرف وبلاغة، وإنما هو من أجل فهم الشرائع والأحكام وإدراك مقاصد التشريع وأسرار التكليف وتقديم إجابات حول المشاكل التي تواجه الإنسان.

---

(1) مجالس التذكير ص 251.

ولقد أدرك أحد الباحثين المعاصرين هذه الجوانب في تفسير ابن باديس رحمه الله فقال مقارناً بين هذا المنهج الباديسي في التفسير وغيره: ولكم كان ابن باديس رحمه الله رائعاً متفرداً مسدداً في تفسيره للقران الكريم ورسالته الشاملة للفرد والجماعة والدولة والإنسانية كافة، وكان يعالج مشكلات العصر على اختلاف جوانبها حين يفسر آيات القران، فهو يتكلم في لب قضايا السياسة والمجتمع وهو من آيات الكتاب الكريم دون اعتساف أو حذلقة، ولكم أرى بعض من قد يفتنون العامة الان بدروسهم في التفسير في موقف لا يحسدون عليه ؛ إلى جانب مثل ذلك العملاق الفقيه في كتاب الله الذي كان يقدم تفسيرُه بعض الدلائل على أن هذا الكتاب حقاً لا تنقضي عجائبه[1].

والعلامة عبد الحميد ابن باديس جعل من أهم قواعد منهجه في التفسير بيان الألفاظ، وشرح معانيها شرحاً وافياً يساعد على فهم النص القرآني المراد تفسيره، ولقد تحدث ابن باديس نفسه عن هذا فقال في خطبة افتتاح دروس التفسير: فقد عدنا ـ والحمد لله ـ إلى مجالس التذكير من دروس التفسير نقتطف أزهارها ونجتني ثمارها بيسر من الله تعالى وتيسيره على عادتنا في تفسير لألفاظ الآية بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية[2].

ونمثل لحمل ابن باديس لألفاظ الآية بأرجح معانيها اللغوية، بأسلوب بعيد عن الصعوبة خال من التعقيد، معتمداً في ذلك على أصح معاجم اللغة ودواوينها، كلسان العرب لابن منظور ومعجم الصحاح للجوهري..الخ أنه عند تفسير قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا *} [الفرقان : 20].

قال: قال في لسان العرب الأزهري وغيره: جماع معنى (الفتنة): الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما لتمييز الرديء من الجيد، ومنه قوله تعالى: { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } [العنكبوت: 2]، وقوله تعالى:{ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}

---

(1) عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة ص 7 ـ 8.

(2) مجالس التذكير ص 49.

[التغابن : 15]، وقوله تعالى: {وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً} [طه: 40]، وقوله تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الآنبياء : 35].

{أَتَصْبِرُونَ}: والصبر حبس النفس على المكروه ، والمكروه لها: فعل ما فيه تعب وترك ما فيه لذة، ويكون في المشروع والمقدور، ففي الأول بالقيام بالمأمورات والترك للمنهيات، وفي الثاني ـ وهو المصائب والبلايا ـ بالرضا والتسليم للخالق وعدم الاعتراض عليه، وعدم السعي في إزالتها بغير الوجه المأذون فيه(1).

وبالإضافة إلى الدقة والوضوح في الشرح اللغوي للألفاظ ؛ فإنه ـ رحمه الله ـ قد اهتم بالتراكيب في الآيات وتحليلها بطريقة تبرز خصائص الأسلوب القرآني وإعجازه البياني والبلاغي دون الوقوع في المماحكات اللفظية والخلاف بين النحاة واختلاف مدارسهم.

وسأكتفي بإيراد مثال واحد وهو عند تفسير قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً *} [الإسراء : 56].

فقال رحمه الله: أمروا بالدعاء لتوقيفهم على خيبتهم فيه بظهور عجز من يدعون، وحذف مفعول زعم، والتقدير زعمتموهم الهة، للعلم بهم لأنهم ما دعوهم إلا لكونهم الهة في زعمهم. و(لا يملكون): وقع بعد الفاء ولم يجزم في جواب الأمر لأنه خبر مبتدأ محذوف تقديره فهم لا يملكون، وهذا لأن الفاء قصد بها العطف ولم يقصد بها السببية، لأن ذلك يقتضي أن يكون عدم ملكهم متسبباً عن الدعاء مثلها في قول الشاعر:

رب وفقني فلا أعدل عن          سنن الساعين في خير سنن

فإن عدم العدول متسبب عن التوفيق وليس كذلك الأمر في هذه الاية، فإن عدم ملكهم متحقق سواء دعوا أم لم يدعوا، فلذلك امتنع النصب ووجب الرفع على التقدير المقدم(2).

(1) مجالس التذكير ص 241.

(2) مجالس التذكير ص 156.

ومن هذا المثال نرى أن ابن باديس رحمه الله لم يغرق تفسيره بمباحث نحوية وقضايا إعرابية يضيع معها المقصد الأساسي للتفسير وهو معرفة الشرائع والأحكام، وإنما كان يأخذ التركيب على هذه الصفة ولم يكن على تلك وهكذا.. ولذا قال أحد الباحثين المعاصرين: فهو يأخذ من النحو بمقدار الضرورة بحيث يكون في تناوله خدمة للمعنى الذي هو بصدده وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة[1].

ونظراً لهذا المنهج الذي اتبعه ابن باديس في التعامل مع الألفاظ والتراكيب، فإنه اشتد في نقد المفسرين الذين لم يولوا في تفاسيرهم هذا الجانب عناية كبيرة، فخلطوا في شرح الألفاظ وحمّلوا التراكيب ما لا تحتمله من المعاني.

ولننظر إليه ـ رحمه الله ـ وهو يفسر قوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آية تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *} [الشعراء : 128 ـ 131].

فقد أوضح ـ رحمه الله ـ أن هذه الآية كشفت لنا نواحي كثيرة من تاريخ العرب، ومدى ما بلغه العرب من مدنية وحضارة، فهي نص صريح في استحكامهم بعلم تخطيط المدن والعمران بوجه عام.

ولكن الذي لم يعجب ابن باديس هو حمل المفسرين للفظ المصانع في الآية على معنى القصور أو مجاري المياه، وهذا التفسير تشهد له معاجم اللغة ودواوينها بالصحة، ولكن ابن باديس لم يعجبه هذا الاتجاه التفسيري، فقال: ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين على معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي؟!. والذي أفهمه ولا أعدل عنه، هو أن المصانع جمع مصنع من الصنع كالمعامل جمع معمل من العمل، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران، ثم أكد ـ رحمه الله ـ أن هذا ليس كثيراً على أمة وصفها القرآن بما تقدم في الآية؛ لأن المصانع هي أول مستلزمات العمران ثم قال مناقشاً

(1) ابن باديس مفسرا، حسن عبد الرحمن ص 268.

من يتشكك في حملها على المصانع بمعنى المعامل معتمداً على أن الآيات قبحتها ولا يعقل ما يلي:

ولا يقولن قائل: إذا كانت المصانع ما فهمتم، فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم؟ فإنه لم ينكرها عليهم لذاتها، وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها، فإن المصانع التي تشيد تشيد على القسوة، والقسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية، ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم، ومن لوازم ذلك أن ترعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة[1].

وهذا التفسير الذي انتصر إليه ابن باديس من كون المصانع في الآية جمع مصنع من الصنع، وهو تفسير تشهد له الدلالة اللغوية للكلمة كما وردت في معاجم اللغة، إذ أن من معانيها اللغوية ما يصنعه الناس، ثم ما يقوي هذا الرأي في نظري والله أعلم. أن السياق يفيده ويشهد له فقوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آية تَعْبَثُونَ *} [الشعراء : 128].

يشمل كل المعاني التي ذكرها المفسرون للمصانع، من البناء والحصون ومجاري المياه..الخ، ويأتي بعده قوله تعالىَ: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *} [الشعراء : 129].

يفيد معنى جديد، غير مذكور في التركيب السابق وإعمال الكلام أولى من إهماله والتأسيس مقدم على التأكيد[2].

وكما اشتد ابن باديس رحمه الله في نقد بعض المفسرين على شرحهم لبعض الألفاظ القرانية، فإنه وجه سهام النقد كذلك إلى بعض المفسرين في حلمهم للتراكيب في بعض الآيات على غير وجهها الصحيح.

وسأكتفي بإيراد مثال واحد، وهو عند تفسيره لقوله تعالى:{ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ *فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ

(1) مجالس التذكير ص 432.

(2) المصدر نفسه.

وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ *وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ *فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ *} [سبأ : 15 . 19].

فأكد أولاً على أن هذه الآيات معجزة في البلاغة إذ استوعبت تاريخ أمة بكاملها في سطور معدودة، ثم قال بأن هذه الآيات شاهد صدق على المدنية الزاهرة والحضارة الراقية التي بلغتها تلك الأمة العربية، فتلك المدينة كانت عامرة بالبساتين عن يمين السائر وشماله، ثم أن أصحابها كانوا متحكمين في بناء السدود وما كانوا ليبلغوا هذا المبلغ لولا تحكمهم في الهندسة التي هي ثمرة عدة علوم فكرية أخرى، ولكنهم كفروا بأنعم الله هذه ووظفوها فيما يغضب الله ويسخطه، فسلط الله عليهم من الأسباب ما خرب عمرانهم وأباد حضارتهم.

وتصرح هذه الآيات أن عمرانهم كان متصلاً بعضه ببعضه، فلا يخرج السائر من قرية حتى تلوح له أعلام القرية الأخرى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ *} [سبأ : 18].

وبالإضافة إلى قوة العمران، فقد كان الأمن شائعاً ليلاً ونهاراً، ولكن الشيء الذي كان ينقص هو الإيمان والشكر: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} [سبأ : 19].

فما معنى قوله: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}

هناك اتجاه عند بعض المفسرين مفاده أن هؤلاء بطروا هذه النعمة وأحبوا المفاوز يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في المخاوف فطلبوها، كما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام أن يخرج لهم مما تنبت الأرض: {بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} [البقرة : 61]. مع أنهم كانوا في عيش رغيد، في مَنّ وسلوى ومما يشتهون من ماكل ومشارب وملابس مرتفعة(1).

(1) مختصر تفسير ابن كثير (ج3 / ص 127).

ولكن ابن باديس لم يعجبه هذا الاتجاه التفسيري فقال منتقداً: وأما قوله تعالى: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} فإن السطحيين يحملونه على ظاهره، وأي عاقل يطلب بعد الأسفار؟

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم وإنما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملاً يفضي إلى نتيجة لازمة فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة(1).

بمعنى أن الأعمال التي كانوا يقومون بها كانت تستلزم ذلك الجزاء وهو زوال العمران المتلاحم الذي كان يرتاح فيه المسافر.

وهذه الأمثلة التي أوردناها تعكس الحس النقدي الذي كان يتمتع به العلامة عبد الحميد بن باديس، والدقة العلمية عنده في التعامل مع الألفاظ والتراكيب في الآيات المراد تفسيرها، فلم يكن رحمه الله مجرد ناقل لأقوال السابقين من المفسرين، وإنما كان ينقل بفهم وينقد بعقل، فيقبل ما يراه مقبولاً، ويردّ ما يراه غير مقبول(2).

### 6 . رأي ابن باديس في تفسيره بالمأثور:

اهتم ابن باديس في التفسير بالمأثور، وتتبع تفسير القرآن بالقران، وما روي عن النبي (ص) من تفسير للقران، وما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين مما هو تفسير لاي الكتاب الكريم.

ومظاهر تفسير القرآن بالمأثور ثلاثة:

**أ . تفسير القرآن بالقرآن:**

إن المصدر الأول والأساسي الذي كان ابن باديس يعوّل عليه في فهم نصوص القرآن الكريم هو القرآن نفسه، لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وهو بهذا الاعتبار يشكل وحدة متكاملة، يقول العلامة ابن باديس معجباً بهذه القاعدة الجليلة من قواعد التفسير:

---

(1) مجالس التذكير ص 437.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس ، د. محمد الدراجي ص 52.

وما أكثر ما تجد في القرآن بياناً للقران فاجعله من بالك تهتد ـ إن شاء الله ـ إليه[1].

ولقد تعددت مظاهر تفسير القرآن بالقرآن في تفسير ابن باديس، ولا أظن أنني أحيد عن الجادة، أو أبعد عن الصواب، إذا قلت بأن السمة المميزة لتفسير ابن باديس هي هذه، وقد تقدم معنا قول الإبراهيمي المؤكد لهذا الاستنتاج العلمي: فسلك في درس كلام الله أسلوباً سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى مستمداً من التفاسير وأسفارها.

وقد وظف هذه القاعدة في منهجه النقدي في تفسيره لقول الله تعالى: {رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *} فإنه قد ناقش زعم القائلين، بأن كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه، وكتب مقالاً موسعاً تحت عنوان: أيهما أكمل: العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب أم العبادة دونهما؟ يعكس مدى تضلع ابن باديس في علوم الشريعة وإحاطته بأسرارها، ودقة منهجه في المناقشة والرد، وبعد عرضه كثيراً من الآيات في الموضوع وحسن استدلاله منها على المراد قال: ولا تجد في القرآن آية واحدة دالة صريحة على ذكر عبادة ـ هكذا ـ دون خوف أو طمع[2].

**ب ـ تفسير القرآن بالسنة:**

إن الأمر المتفق عليه بين علماء الشريعة أنه بعد كتاب الله عز وجل في بيان معاني الكتاب، تأتي سنة رسول الله (ص)، التي تشرح وتفسر معانيه وتبين ما ورد من آياته مجملاً، وتقيد ما ورد مطلقاً، وهكذا.

ولقد كان العلامة ابن باديس كثير الاحتفاء بهذا المصدر من مصادر التفسير، كثير الاعتناء به، فعند تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا *} [الفرقان : 51].

---

(1) مجالس التذكير ص 323.

(2) مجالس التذكير ص 283.

وبعد تأكيده على عالمية الرسالة الإسلامية التي تفيدها هذه الاية، والحكمة من ذلك، فإنه أورد حديثاً نبوياً يؤكد هذا المعنى وهو الحديث الذي يقول فيه (ص): «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ؛ كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

ثم قال رحمه الله معلقاً على هذا التفسير: وما أحسن التفسير تعضده الأحاديث الصحاح[1].

والذي يطالع تفسير ابن باديس يجده حافلاً بالمأثور مما يدل على أن ابن باديس أولى هذه القاعدة الجليلة ـ تفسير القرآن بالسنة ـ عناية فائقة، واهتماماً كبيراً، كيف لا وهو الذي أكد أكثر من مرة في تفسيره على أنه يجب الفزع إلى السنة النبوية لاستجلاء معاني القرآن الكريم: فعلينا أن يكون أول فزعنا في الفرق والفصل إليه «الكتاب»، وأن يكون أول جهدنا في استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه، مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لاليه[2].

إن ابن باديس كان يفهم السنة في ضوء القرآن الكريم وفي دائرة توجيهاته، وبما أن السنة هي شارحة هذا الدستور ومفصلته فيجب أن لا تعارضه فقال: إن السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان[3].

### 7 . خصائص تفسير ابن باديس:

تميز تفسير ابن باديس بعدة خصائص ومميزات عامة، في مقدمتها أنه تفسير عصري متميز لأنه يجمع بين السلفية والمعاصرة، وأنه يميل إلى الناحية العلمية، والاستدلالية، وأنه ينتصر للعقل ويهتم بالإنسان ومشاكله، وأنه لم يأخذ طابع التفاسير التقليدية سواء من ناحية الموضوعات أو أسلوب المعالجة والعرض، بالإضافة إلى خصائص ومميزات أخرى عامة كالبساطة والوضوح والترابط والعمومية والشمول، والبعد عن الطابع الجدلي

(1) مجالس التذكير ص 264.

(2) المصدر نفسه ص 228.

(3) المصدر نفسه ص 54.

الكلامي، والبعد عن التقليد والنزعات المذهبية الخاصة.

**ومن أبرز هذه الخصائص:**

**أ. التفسير الباديسي تفسير سلفي:**

لقد ظهرت سلفية ابن باديس واضحة عندما حدد أصول منهجه في التفسير والمصادر السلفية التي اعتمد عليها عند ابتداء خطبته افتتاح دروس التفسير حين قال: سنبدأ بتفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات معتمدين في ذلك على صحيح المنقول وسديد المعقول مما جلاّه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه الخلف المتأخرون، فاعتمدنا على أشياء من كتب أئمة التفسير كابن جرير الطبري في تفسيره وسلفيته واهتمامه ببيان معاني الآيات القرآنية وترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب، ثم تفسير الكشاف البلاغي وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات، وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة والحِجاج[1].

وقد التزم ابن باديس بالفعل بهذا الاتجاه السلفي حتى أصبح منهاجاً واضحاً له في فهم القرآن وتدريسه وفي تطبيقه لقضايا العقيدة والأخلاق، وهو يعترف بهذا النهج السلفي والتزامه به حين يقول: إن كل قول يراد به إثبات معنى ديني لم نجده في كلام أهل العصر نكون في سعة من رده وطرحه وإماتته وإعدامه كما وسعهم عدمه، وكذلك كل فعل ديني لم نجده عندهم، وكذلك كل عقيدة، فلا نقول في ديننا إلا ما قالوا ولا نعتقد إلا ما اعتقدوا ولا نعمل إلا ما عملوا، ونسكت عما سكتوا عنه[2].

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 114.

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 114.

**ب ـ التفسير الباديسي تفسير علمي:**

ودليل ذلك أنه ظهر في عصر العلم ويهتم بتفسير الآيات الكونية، وربطها بمكتشفات العلم الحديث، ويهتم بقضايا الإنسان ويربطها بالسببية، وينتصر للعقل ويعتمد على الحجج والبراهين المنطقية، وأثبت في تفسيره أن القرآن لا يقف أمام العلم ولا يعارض البحث العقلي، بل أنه دعوة للعلم واستعمال العقل في النظر والاعتبار، والاهتداء إلى نواميس الكون.

هذا بالإضافة إلى ميل ابن باديس نفسه العلمي الذي يصفه البشير الإبراهيمي بقوله: إن ابن باديس يمتاز بالذوق الخاص في فهم القران، مع بيان ناصع واطلاع واسع وباع في العلوم النفسية والكونية وعلوم الاجتماع والعمران وشجاعة في الرأي والقول ومعرفة السليم والمريض من الآراء والأقوال[1].

والمثال على ذلك تفسير ابن باديس لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آية اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آية النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الإسراء : 12].

وقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [الزمر : 5].

ومما جاء في تفسيره لهذه الآيات: الليل هو الوقت المظلم الذي يغشى جانباً من الكرة الأرضية عندما تكون الشمس منيرة لجانبها المقابل، والنهار هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيئه بنورها، ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وأمكنتها، وبيان تفصيل ذلك فيه دليل علمي على كروية الأرض، وهو المعنى من التكوير ـ لقوله تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ} [الزمر : 5] بأن يحل محله في جزء من الكرة ـ وجزء الكرة مكور ـ فيكون النهار الحالّ مكوراً بحكم تكوّر المحلّ، وكذلك النهار يكوّر عليه فيحل محله من الكرة، فيكون أيضاً مكوراً بحكم تكوّر المحل، وإنما جعل تكوير أحدهما على الاخر بحلوله في محله، لأنه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه نفسه لأنهما ضدان لا يجتمعان، وليسا جسمين يحل أحدهما على الآخر.

---

(1) المصدر نفسه ص 115.

ويستمر ابن باديس في استدلاله فيقول: وبالتعمق في معنى الآية تعرف فيها دليلاً على وجود الله وهو دليل النظام الكوني وما عليه من حسن الترتيب والتقدير بالتسيير، فالآية علامة دالة على الوجود والعظمة لله لأن وجود آية الليل والنهار، وتعاقبهما على هذا الترتيب والتسيير، وأنهما مقدران بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر على نظام محكم وترتيب بديع بحسب الفصول الشتوية والصيفية، وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض الاستوائية والقطبية الشمالية والجنوبية وما بينهما حتى يكونان في القطبين ليلة ويوماً في السنة، ليلة في ستة أشهر هي شتاء القطبين، ويوم في ستة أشهر هو صيفهم، فهذا الترتيب والتقدير والتسيير دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير، ولطيف خبير[1].

كما يشير ابن باديس إلى مدى اتفاق ما في القرآن مع مكتشفات العلم من خلال وصفه وتفسيره لجرم القمر ونشأته ومسترشداً باراء علماء الطبيعة والفلك، ومختتماً تفسيره لهذه الآية بقوله: لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة نبيه (ص) وبرهاناً لديه على البشر مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان[2].

### ج. التفسير الباديسي تفسير استدلالي:

والاستدلالية عنده تعني ضرورة الاهتمام بالترتيب المنطقي والترابط من أجل إبراز الغاية القصوى وراء الايات، وبيان أسباب ترتيبها على هذا النحو، وبيان فائدتها للإنسان، فالترتيب والترابط المنطقي يظهر في العناية باللفظ والمعنى مع التركيز على المعنى العام والهدف العام والغاية القصوى، ألا وهي صالح الإنسان، وأن كل معنى جزئي أو خاص للفظ معين لا يمكن اعتباره معنى حقيقياً أو صحيحاً، وذلك لتغير معنى اللفظ

(1) المصدر نفسه ص 116.

(2) المصدر نفسه ص 116.

حسب مقامه وحسب وقوعه في الجملة أو الآية أو الصورة. وأن هذا الاستدلال يعتمد على الربط بين الأصول العامة التي يتوقف عليها حياة النوع البشري وسعادته، وبين وجوه إعجاز القران. والاستدلال عن ابن باديس من أهم لوازم التفسير.

واهتم ابن باديس بالربط بين الألفاظ والمعاني ومدلولاتها في العبارات وقواعد اللغة، ولأن التفسير الباديسي تفسير استدلالي رأيناه يبدأ تفسيره به، فيستدل أولاً بايات القرآن والحديث ثم يستدل بأدلة المنطق والبرهان العقلي، ثم يربط تلك الاستدلالات بالشواهد الواقعية وملاحظات التجربة والمواقف السياسية والاجتماعية ومختلف مظاهر التغير والتطوير، مستدلاً في كل ما يذهب إليه بأحكام السنة وشرائعها لأنها الطريق العملي والتطبيق السلوكي لأحكام القرآن.

ويمكن القول بأن هذه الاستدلالية والانتصار للعقل مع هذه السلفية والمعاصرة ؛كانت وراء القول بأن التفسير الباديسي يعتبر في مقدمة المحاولات لتقديم تفسير . معاصر . في العصر الحديث، وأنه نجح في تقديم فكر إسلامي خالص معتمداً على الله ثم على منهجية علمية متميزة[1].

## 8 . أمثلة من تفسير ابن باديس للآيات:

### أ . الطور الأخير لكل أمة وعاقبته:

قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا *} [الإسراء : 58].

عنون ابن باديس لهذه الآية العنوان: الطور الأخير لكل أمة وعاقبته.

وقسم شرحه للآية كالآتي:

تمهيد: فقال:

الأمم كالأفراد، تمر عليها ثلاثة أطوار، طور الشباب، وطور الكهولة ، وطور الهرم، فيشمل الطور الأول

(1) المصدر نفسه ص/117.

نشأتها إلى استجماعها قوتها ونشاطها، مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة. ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ وقوة السلطان إلى استكمالها قوتها وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك، بما كان فيها من مواهب وما كان لها من استعداد وما لديها من أسباب.

ويشمل الطور الثالث: ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال، إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندثارها من عالم السيادة والاستقلال. وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر، كما تختلف الأعمار.

هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الأمم في هذه الدنيا أشار إليها في كتابه العزيز في غير ما آية فذكر أعمال الأمم وأنها مقدرة محددة باجالها في مثل قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ *} [الاعراف : 34].

وذكر إنشاء الأمم على أثر الهالكين في قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *} [ الانبياء: 11].

وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *} [الاعراف : 129].

فإن بني إسرائيل ما استخلفوا في الأرض حتى قووا واشتدوا وتكونت فيهم أخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والأنفة بعد خروجهم من التيه، وذلك هو الطور الأول، طور الشباب للأمة الاسرائيلية، وذكر الطور الثاني، وهو طور الكهولة واستكمال القوة وحسن الحال ورغد العيش في مثل قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [النحل : 112].

وذكر الطور الثالث طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى:

{وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا *} [الكهف : 59].

وإهلاكهم بعد إسباغ النعمة وإقامة الحجة عليهم وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم، فإهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم الثلاثة، وإلى خاتمة الطور الثالث وعاقبته جاء البيان في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا *} [الإسراء : 58].

**الألفاظ:**

(القرية): المساكن المجتمعة، ومادة (ق ر ي) تدل على الجمع، فتصدق على القرية الصغيرة والمدينة الكبرى، وتطلق القرية مجازاً على السكان إطلاقاً لاسم المحلّ على الحالّ ومنه هذه. و(الإهلاك): الإبادة والإفناء بالاستئصال، كما فعل بعاد وثمود، و«قبل يوم القيامة»: أي في الدنيا، و«العذاب الشديد»: كأمراض الأبدان وفساد القلوب وانحطاط الأخلاق وافتراق الكلمة وتسليط الظلاّم، كما أرسل على بني إسرائيل عباداً أولي بأس شديد فساؤوا وجوههم وجاسوا خلال ديارهم، وكتسليط أهل الباطل على أهل الحق وكالجدب والقحط وجوائح الأرض وجوائح السماء. و«في الكتاب» أي اللوح المحفوظ و«مسطورا»: أي مكتوباً أسطاراً مبيناً.

**التراكيب:**

(إن) نافية. و(من) زيدت لاستغراق الجنس وتأكيد العموم و(إلا) أفادت مع إن النافية حصر كل قرية في أحد الأمرين من الهلاك والعذاب الشديد، ليعلم أن لا نجاة لكل قرية من أحدهما قطعاً. و(أو) تفيد أحد الشيئين المذكورين على الإبهام وعدم التعيين و(ذلك) إشارة إلى المذكور من الهلاك والتعذيب.

**المعنى:**

يقول تعالى: ما من قرية على وجه الأرض إلا ولا بد أن يحل بها منا هلاك وفناء بما يبيدها ويفنيها، أو عذاب شديد لا يفنيها ولكنه يذيقها أنواع الآلام ، وشديد النكال، كان هذا قضاءً سابقاً في علمنا ماضياً في

إرادتنا مكتوباً أسطاراً في اللوح المحفوظ.

**الأحكام:**

أحكام الله تعالى أحكام شرعية، وهي التي فيها بيان ما شرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم إذا ساروا عليه، وأحكام قدرية وهي التي فيها بيان تصرفه في خلقه على وفق ما سبق في علمه، وما سبق في إرادته. والأحكام الشرعية تقع من العباد مخالفتها فيختلف مقتضاها من الفعل أو الترك، والأحكام القدرية لا تختلف أصلاً ولا يخرج المخلوقات عن مقتضاها قطعاً. وفي هذه الآية حكم من أحكامه القدرية، وهو أن كل قرية لا بد أن يصيبها أحد الأمرين المذكورين بما سبق من علمه وما مضى من إرادته، فلا يتخلف هذا الحكم، ولا تخرج عنه قرية

**إيضاح وتعليل:**

الله حكم عدل حكيم خبير، فما من حكم من أحكامه الشرعية إلا وله حكمته، وما من حكم من أحكامه القدرية إلا وله سببه وعلته، لا لوجوب أو إيجاب عليه، بل بمحض مشيئته، ومقتضى عدله وحكمته، قد قضى على قرية بهذه العاقبة من الهلاك أو العذاب الشديد في هذه الاية، وبين في غيرها سبب استحقاقها فقال تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [الكهف : 59].

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ *} [هود : 117].

وقال: {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ *} [القصص : 59].

وقال تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *} [الانبياء : 11].

وقال تعالى: {عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا *} [الطلاق : 8].

وقال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا} {مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *}[النحل: 112].

فأفادت هذه الآيات أن سبب الهلاك والعذاب هو الظلم والفساد والعتوّ والتمرد عن أمر الله ورسله والكفر بأنعم الله. وما ربك بظلام للعبيد.

**توجيه:**

الطور الأخير للأمم هو الذي ذكر في الآيات كثيراً دون الطور الأول والثاني ووجه ذلك أنه هو الطور الذي ينشر فيه الفساد ويعظم فيه الظلم وينتهي فيه الإعذار للأمة ويحل فيه أجلها، فينزل بها ما تستحقه من هلاك أو عذاب، فكرر ذكر هذا الطور لزيادة التحذير منه والتخوف من سوء عاقبته والحث على تدارك الأمر فيه بالإقلاع عن الظلم والفساد والرجوع إلى طاعة الله تعالى، وإعمال يد الإصلاح في جميع الشؤون، فيرتفع العذاب بزوال ما كان لنزوله من أسباب.

**استنتاج وتطبيق:**

القرى التي قضى عليها بالهلاك والاستئصال هذه قد انتهى أمرها بالموت وفات عنها العلاج مثل عاد وثمود من الأمم البائدة. وأما القرى التي قضى عليها بالعذاب الشديد فهذه لاتزال بقيد الحياة فتداركها ممكن وعلاجها متيسر، مثل الأمم الإسلامية الحاضرة، فمما لا شك أن فينا لظلماً وعتواً وفساداً وكفراً بأنعم الله، وإننا من جراء ذلك لفي عذاب شديد، ولا نعني بهذا أن الأمم الإسلامية مخصوصة بهذا، بل مثلها وأقوى منها في أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الأرض، وإنَّ لهم لقسطهم من العذاب الشديد، وإذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابهما فلأنَّه لكل أمة أجل ولما يأت ذلك الأجل بعد، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون[1].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 299).

**إرشاد واستنهاض:**

قد ربط الله بين الأسباب ومسبباتها خلقاً وقدراً بمشيئته وحكمته لنهتدي بالأسباب إلى مسبباتها ونتجنبها باجتناب أسبابها، وقد عرّفنا في الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقي تلك الأسباب، فنسلم أو نقلع عنها فننجو، فإن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب. وقد ذكر لنا في كتابه أمَّة أقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعد ما كان ينزل بها. ليؤكد لنا أن الإقلاع عن السبب ينجي من المسبب فقال تعالى: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ *} [يونس : 98].

فبمادرتهم للإيمان وإقلاعهم عن الكفر كشف عنهم العذاب وإبطال أسبابه، وهو الإيمان، كما أرشدنا إليه أيضاً.

في قوله تعالى قبل هذا: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} [يونس : 98].

أي: أنجاها من العذاب، وذكر قوم يونس دليلاً على ذلك وأرشدنا إليها أيضاً في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [ الاعراف: 96].

فالإيمان والتقوى . هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا، لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب، ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه وبدأ به في نفسه، ثم فيمن إليه أمره، ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه، ثم جميع أهل ملته، فمن جعل هذا من همه وأعطاه ما قدر عليه من سعيه ؛ كان خليقاً أن يصل إلى غايته أو يقرب منها، ولنبدأ من الإيمان ؛ بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات، ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كالجسد الواحد، ولنشرع في ذلك غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا، ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا، فبدوام السعي واستمراره، يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله. وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا ، ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق

ويبصرنا في العلم ويفقهنا في الدين ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى، وليس هذا عن العاملين ببعيد وما هو على الله بعزيز.

**رجاء وتفاؤل:**

إن المطلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء وأحست بالعذاب، وأخذت في العلاج، وأن ذلك وإن كان يبدو اليوم قليلاً لكنه ـ بما يحيطه من عناية الله وما يبذل فيه من جهود المصلحين ـ سيكون بإذن الله كثيراً، وعسى أن يكون في ذلك خير لأمم الأرض أجمعين. حقق الله الامال وسدد الأعمال بلطف منه وتيسير إنه نعم المولى ونعم النصير(1).

**ب ـ من وعد الله للصالحين:**

وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ *} [الانبياء : 105].

وقد ذكر ابن باديس لهذه الآية عنوان: من وعد الله للصالحين. وشرحها في فقرات على النحو التالي:

**المناسبة:**

لما مضى في السورة ذكر الأنبياء عليهم السلام وأممهم، وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدماتها وأحوال الخلق يوم القيامة ـ جاء في هذه الآية ذكر الأمة التي جاءت بعد تلك الأمم كلها، وهي أمة محمد ـ (ص) ..

**توجيه:**

وإنما كانت هذه الآية في أمة محمد، لأنه لما تكلم على الأمم الخالية لم يبق الكلام إلا عليها، فخوطبت بمقتضاه. الله وكتبه من إرث الصالحين في الأرض، والمخاطبون بهذه الآية المكية هم المؤمنون بالله الموحدون له المتبعون لرسوله محمد ـ (ص) ـ المصدق لجميع الرسل عليهم السلام وهم أصحاب النبي ـ (ص) ـ وهم الصالحون

(1) المصدر نفسه (1 / 300).

الموجودون يوم ذاك على وجه الأرض، فكانت الآية إعلاماً بما كتبه الله لهم ووعداً بإرثهم الأرض.

**الألفاظ:**

(الزبور): بمعنى المزبور، أي المكتوب، والمراد جنس ما أنزله الله من الوحي على رسله ـ (ص) ـ وأمر بكتابته. وقرأ حمزة: الزبور جمع زبر، أي كتاب، فعيَّنت هذه القراءة المراد بالزبور في القراءة الأولى الكتب المنزلة، لا خصوص زبور داوود عليه السلام. (الذكر): المراد به هنا اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء قبل أن يخلق الخلق، وجاء تسميته بالذكر فيما رواه البخاري في مواضع من صحيحه عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال رسول الله ـ (ص) ـ كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض، ومما كتبه في الذكر ما أنزله على رسله عليهم السلام، كما قال تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ *} [البروج : 21 ـ 22].

**الأرض:**

جنس الأرض الدنيوية لأن هذا اللفظ موضوع لها، فإذا أطلق انصرف إليها، وبهذا فسرها ابن عباس عن طريق علي بن أبي طلحة، وهي أصح طرقه (يرثها): تنتقل إليهم من يد غيرهم، وأصل الإرث الانتقال من سالف إلى خالف، وقد يطلق في غير هذا الموضع على أصل التمليك مجازاً.

(الصالحون): الصالح من كل شيء هو ما استقام نظامه فحصلت منفعته، وضده الفاسد وهو ما اختل نظامه فبطلت منفعته، ويظهر هذا من تتبع مواقع الاستعمال، فإذا قالوا هذه الة صالحة عنوانها محصلة المنفعة المرادة منها لانتظام أجزائها، وإذا قالوا الة فاسدة عنوانها لا تحصل المنفعة منها لاختلال في تركيبها، والصالح في لسان الشرع ـ قراناً وسنة ـ لم يخرج عن هذا المعنى حيثما جاء، فالصالح هو من استنار قلبه بالإيمان والعقائد الحقة وزكت نفسه بالفضيلة والأخلاق الحميدة ، واستقامت أعماله وطابت أقواله ، فكان مصدر خير ونفع

لنفسه وللناس، استقام نظامه وزكت منفعته، وهذا هو معنى الصالحين حيثما جاء كما في قوله تعالى: {وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ}وكما في التشهد: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ، وقد بين القرآن من هم الصالحون بياناً شافياً وكافياً بذكر صفاتهم مثل قوله تعالى: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيات اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ *} [آل عمران: 113 . 114].

المعنى: يخبرنا الله تعالى أنه كتب في الكتب التي أنزلها على رسوله من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ الذي هو أصل تلك الكتب أن الأرض يرثها ويملكها عباده الصالحون أهل العقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة والأعمال المستقيمة الذين ينفعون العباد والبلاد.

**(تطبيق)**:

خاطب الله بهذه الآية المؤمنين بمكة وهم في قلة عَدد وعُدد يعدهم بذلك . لا بطريق صريح . أنهم يرثون الأرض ويكون لهم فيها القوة والنفوذ، ويتبعهم بتعليق الوعد بوصف الصلاح على التمسك به والازدياد منه والاستمرار عليه، ثم صرح لهم بالوعد بعد في سورة النور وهي مدنية بقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *} [النور : 55].

وقد حقق الله لهم هذا الوعد ففتح وأورثهم ملك كسرى وقيصر ومد لهم ملكهم في الشرق والغرب، وأولئك الذين كانوا في قلة وخوف يوم نزلت الآية المكية ؛ هم الذين شاهدوا ذلك النصر وتلك الفتوح وترأسوا ذلك الملك العظيم.

«**تعميم وتقييد**»:

علق الوعد بالوصف، وهو الصلاح، ليُعلم أنه وعد عام، ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حظها . ولا محالة . من هذا الوعد، واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضاً تقييده بأهله، فإذا زال وصف الصلاح من أمة زال

من يدها ما ورثت، ونظير هذا التقييد قوله في آية النور: {يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *} [النور : 55].

«**تنظير**»:

مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوي به قلوبهم ويثبت إيمانهم ويظهر به صدق نبيه ـ (ص) ـ بما أعلمه به من غيب أحاديث صحيحة، كقول النبي (ص) لخباب رضي الله عنه وقد لقي الصحابة من المشركين شدةً فسأله أن يدعو فقال له النبي ـ (ص) ـ: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله.

وكقوله (ص) ـ لعدي بن حاتم: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. وقد امتدت به الحياة حتى رأى ذلك. ومثل هذا أحاديث أخرى في الصحيح، فقد تطابقت الآيات والأحاديث في هذا الوعد، وقد صدق الله وعده لعباده الصالحين، وصدق نبيه ـ (ص) ـ بما لم يكن يعلمه أحد ولا يرى شيئاً من أسبابه، بل لا يرى إلا ما هو مناف له. ولكن العاقبة للمتقين[1].

**(إشكالٌ وحلُّه)**:

قال أناس أن أرض الدنيا كما يستولي عليها الصالحون يستولي عليها غيرهم، والأرض التي لا يرثها إلا الصالحون هي أرض الجنة فيجب تأويل الآية بها.

**والجواب**: إن هذا التأويل إنما يُحتاج إليه لو كانت الآية: هكذا: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} بطريق الحصر فيهم أما لو كانت الآية لا حصر فيها فلا حلاجة إلى هذا التأويل بل في لفظ الإرث وربطه

(1) المصدر نفسه (1 / 354).

بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم فانتقلت إليهم، وأنها تزول مع زوال وصف الصلاح، وقد جاء التنبيه على أن الأرض يرثها الصالحون وغيرهم في قوله تعالى: {إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *} [الأعراف : 128].

فيرثها الصالحون نعمة ويرثها غيرهم فتنة ونقمة، كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير.

**إيرادٌ وجوابُه:**

قد يقال: فما هي الفائدة إذا في تخصيص الصالحين بالذكر في هذه الآية؟

**والجواب:**

ـ أن هذه الآية خوطب بها أول الناس الصحابة بمكة وهم الصالحون في الأرض ليعلموا ما وعدهم الله به وليعلموا أن قوة الباطل إلى ضعف، وأن ضعف الحق إلى قوة.

ـ ولأن شأن الصالحين ـ أنَّى كانوا أن يكونوا ـ قليلٌ سيّما أول أمرهم فهم بحاجة إلى أن يعلموا هذا الوعد ليزدادوا إيماناً وقوة وثباتاً.

ـ ولأن الخلق مفتونون بالكثرة في العدد والعُدة، غافلون عن القوة الروحية والأخلاقية وما ينشأ عنهما من استقامة لا يحسبون لذلك حساباً، فيحتاجون إلى العلم بأن الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد، وإن كانوا قلة في الناس[1].

وقال: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ *} [البقرة : 249].

**ـ تحذير من تحريف:**

رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة على الأرض هي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان، فقالوا إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث

(1) المصدر نفسه (1 / 355).

الأرض، وزعموا أن المراد بالصالحين في الاية: الصالحون لعمارة الأرض، فيا لله للقران وللإنسان من هذا التحريف السخيف، كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد، وفسدت الأخلاق . واعوجّت الأعمال، وساءت الأحوال، وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها، والمدنية أساسها، هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المخرف أن يطبق عليها آية القران: كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأما الصالحون فهو لفظ قراني قد فسره القرآن كما قدمناه، وقد شرَّف أهله بإضافتهم إلى الله في قوله: «عِبَادِيَ»، فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلام عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين.

**موعظة وإرشاد:**

فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد أن تصلح أنفسها الصلاح الذي بينه القران، فأما إذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلا حظ لها من هذا الوعد، وإن دانت بالإسلام، ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته من ملك الأرض وسيادة الأمم يؤتي الملك من يشاء ويذل من يشاء، من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت وبلغ بها إلى ما قُدّر له من عز وذلّ وسعادة وشقاء وشدة ورخاء، وكل محاولة لصدها عن غايتها . وهو اخذ بها . مقضي عليها بالفشل، سنة الله، ومن ذا يبدلها أو يحولها؟ {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً *} [فاطر : 43].

ثم: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ *} [الاعراف : 34][1].

(1) المصدر نفسه (1 / 357).

**ج. دفاع الله عن المؤمنين:**

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *} [الحج : 38].

قال العلامة ابن باديس:

**الكلمات:**

دفع الشيء: صدّه وردّه، والدفاع عن الشيء حمايته بصدّ ما يؤذيه عنه، وقُرأئ في المتواتر (يدفع) وقُرأئ (يدافع)، وهو بمعنى يدفع، ولكنه أريد قوة الدفع، فجيء بـ (فاعلَ) الذي يقتضي المغالبة في أصله، لأن دفع المغالب أقوى وأبلغ، أو لأن ما يهيئه الله لهم من أسباب الدفع التي يباشرونها مقابلة لما يقصدهم به أضدادهم فكان الدفع من الجانبين، خان إذا ضيع ما جعل في حفظه وعهدته، والخوان الكثير التضييع لما استحفظ، والكفور الجحود للنعم فلا يعترف بها أو لا يؤدي شكرها.

**التراكيب:**

عندما يكون المؤمنون في قلة وضعف وأعداؤهم في كثرة وقوة. كالحالة التي كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بعيد الهجرة. تشك النفوس في سلامتهم من كيد عدوهم، فلذا جاء هذا الخبر مؤكداً بإن ولكون هذا الدفع جيء بالجملة المستأنفة بعد الجملة الأولى وأكدت بإن لأن الأولى تحمل المخاطب على أن يسأل سؤال المتردد: هؤلاء المدفوعون أعداء مبغضون. فأجيب بالتأكيد، وحذف مفعول يدافع ليعم كل ما يدفع فشمل كيد الكائدين.

**التفسير:**

هذا من الله تعالى خبر حق ووعد صدق للمؤمنين بأنه يرد عنهم كيد أعدائهم ويبطل مكرهم ويكفّ شرّهم، وإن عظم ذلك منهم وكثر، وإن هذا منه لهم متكرر متجدد، ذلك لأنهم، بإيمانهم حافظوا على أمانة الله عندهم وعهده لديهم واعترفوا بنعمه وشكروها، فأحبهم الله ورضي عنهم، فأيدهم ونصرهم ودافع عنهم، ولأن أعداءهم ضيعوا أمانة الله عندهم، بارتكاب المنهيات وترك المأمورات وجحدوا وحدانيته أو نبوة نبيه (ص)

أو ما جاءهم به من شرعه، فأبغضهم ورد كيدهم مغلوبين مدحورين.

**تحرير في التعليل:**

إن الحب في الله والبغض كسائر أفعاله لا تقع إلا على وجه الحق والعدل والسداد، وهذا أمر واجب لأفعال الرب الحكيم، فالمؤمنون أحبهم ونصرهم لإيمانهم، وأعداؤهم أبغضهم وخذلهم لخيانتهم وكفرهم، واقتضت هذه المقابلة أن الخيانة والكفر من صفات أضدادهم وليست من صفاتهم، فإيمانهم مستلزم لأمانتهم بحفظ عهد الله عندهم في نفوسهم وعقولهم وأبدانهم وجميع ما لديهم على جميع أحوالهم، ومستلزم لاعترافهم بنعم الله وشكره عليها، باستعمالها في طاعته وطلب المزيد من بره، وأمانتهم هذه وشكره هي مظهر إيمانهم الذي يميزهم عن أضدادهم ويدل على صدقهم في ذلك الإيمان ورسوخه في قلوبهم، فإذا أعدمت منهم الأمانة فخانوا الله والرسول وخانوا أماناتهم وفشت الفواحش والمناكر والبدع فيهم، وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وإذا بطروا نعم الله عندهم فعطلوا منها ما عطلوا بجهلهم وكسلهم وقعودهم عن الخير وأسباب الحياة والسعادة، واستعملوا ما استعملوا في الشر والفساد واتباع الشهوات ؛ إذا كانوا هكذا فقد استوجبوا غضب الله وبغضه ونقمته، وحرموا نصرته ودفاعه وكانوا هم الظالمين[1].

**خيانة دون خيانة وكفر دون كفر:**

الخيانة خيانتان، خيانة عقيدة وخيانة أعمال، وكذلك الكفر، وكذلك النفاق، وكذلك الشرك، وإنما يخرج المرء عن أصل الإسلام بما كان في أصل العقيدة، لا بما كان في الأعمال إلا عملاً يدل دلالة ظاهرة على فساد العقيدة وانحلالها. وعلى هذا عقد البخاري رحمه الله في الجامع الصحيح أبواباً في ظلم دون ظلم وكفر دون كفر.

(1) المصدر نفسه (1 / 360).

**تطبيق:**

لما كان المسلمون أهل الإيمان والصدق والشكر والأمانة ودافع الله عنهم، وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم، فلما خانوا وكفروا تركهم ومكن منهم، ولكنه برحمته وعدله لم ينسَ لهم أصل إسلامهم فأبقى لهل أصل وجودهم الذاتي، وهم لحم على وضم بين الأمم لا يستطيعون دفعاً عن أنفسهم، وأبقى لهم أصل وجودهم الروحي بكتابه المتلو بين ظهرانيهم رغم إعراضهم عن تدبره وهجرهم لما فيه. عساهم يرجعون ..

**تنبيه وتحذير:**

كل عمل لا يحلّ فهو خيانة، وإن كان بأدنى إشارة، وقد نبَّه الله على هذا بقوله: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ} [غافر : 19]، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل، والإشارة لطرف العين فيما يحرم وأعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة لأن الذنب يعظم بعظم أثره وانتشار ضرره، ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولي أمراً من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم، فحق على المسلم أن يحذر من الخيانة دقيقها وجليلها، وخصوصاً ما اتصل بالناس منها وبتنبه من أقل كلمة وأدنى إشارة توقعه في خطرها[1].

**سؤال وجواب:**

فإن قيل: قد نجد من عباد الله المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة فيعذب وقد يقتل وكأين من نبي قتل، وقد أصاب المؤمنين يوم أحد ويوم حنين ما أصابهم.

**فالجواب:** إن دفع الله يكون بأسباب وأنواع وعلى وجوه تختلف بحسب الحكمة ولا تخلو كلها من دفاع، فإن ما يصيب المؤمنين من البلاء في أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد، ويقوي فيهم خلق الصبر والثبات. وينبههم إلى مواطن الضعف فيهم أو ناحية التقصير منهم، فيتداركوا أمرهم بالإصلاح والمتاب، فإذا هم بعد ذلك الابتلاء أصلب عوداً وأطهر قلوباً وأكثر خبرة وأمنع جانباً، وأنَّ في صبر الصابر

---

(1) المصدر نفسه (1 / 361).

منهم وقد نزل به البلاء الذي لا يقدر على دفعه والظلم الذي لا يقدر على إزالته لبعث للقوة في نفس غيره ممن يتأسى به، وضعفاً في قلب ظالمه وفي كليهما دفع من الله عن المؤمنين.

**مشاهدة وتوصية:**

نعرف في حياتنا مواطن ما نجونا فيها إلاَّ بدفع الله وبُطل كيد الكائدين فيها بمحض صنع الله، وقد كنا فيها ـ فيما نرى ـ على شيء من العمل لله، فكيف بمن كانت أعمالهم كلها لله؟ وهذه المشاهدة التي شاهدنا ـ ولا نشك أن من غيرنا من شاهد مثلنا أو أكثر منا ـ توجب علينا أن نوصي بالإيمان بالله والمحافظة على العهد والثقة به، فإن ذلك يحققه الله بالدفع وينيل أهله العزة والحفظ، فعلى المسلم ـ أن يعمل لذلك ويعتد به ثقة بالله وصادق وعده، والله لا يخلف الميعاد[1].

**د ـ أكل الحلال والعمل الصالح:**

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *} [المؤمنون : 51].

**الكلمات:**

الطيِّب: ما صلح واعتدل في نفسه وسلم من كل ما يفسده ويخرجه عن اعتداله وأصل خلقته، فكان مستلذاً للنفوس سواء كان مما يدرك بالسمع أو بالصبر أو الذوق أو بالشم أو باللمس أو بالعقل، فالطيب هو اللذيذ لذة حسية أو عقلية، ويقابله الخبيث وهو المستقذر حساً أو عقلاً. وعلى هذا جاء قوله تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف : 157].

فما أحلَّ الله إلا الطيب المستلذ، وما حرم إلا الخبيث المستقذر، فلهذا صار الطيب في لسان الشرع يجيء كثيراً بمعنى الحلال، ويكون ضده الخبيث بمعنى الحرام، ومنهُ: {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [المؤمنون : 51]،

(1) المصدر نفسه (1 / 362).

أي المحللات، فملك غيرك وإن كان مستلذاً في الحس، فإنه ليس طيباً لك شرعاً، وذلك لأنه مستقذر في العقل بما فيه عند تناوله بدون إذن صاحبه من التعدي المستقبح في العقل، وقد يجيء الطيب بمعنى الجيد، والخبيث بمعنى الرديء، وعليه قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ} [البقرة : 267].

الصالح هو المستقيم النافع، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات وتناول المباحات من حيث أنها مباحات أو وسائل لفعل المأمورات وترك المنهيات[1].

**التراكيب:**

للاهتمام بالمأمور به قدمت قبل الأمر جملة النداء، ولأن هذا المأمور به مما يجب عليهم تبليغه نودوا بلفظ الرسل، ولأن كل واحد منهم أوحى الله إليه بهذا النداء والأمر في زمانه كان النداء والأمر للجمع، وقد دخل في الجمع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي كان الحديث عليه من الآية التي قبل هذه وهي: {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آية وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ *} [المؤمنون : 50].

كما دخل في الجمع محمد ـ (ص) ـ الذي نزلت عليه هذه الاية، ولأن المقصود من الأكل ـ هو الغذاء واللذة ـ يحصل ببعض قليل «من الطيب» بمن التبعيضية، ولما كان المخاطب يأكل الحلال والعمل الصالح شأنه أن تشرف نفسه لتعيين ثمرة ذلك جاء الخبر مؤكداً بإن في: {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *} [المؤمنون : 51]، وعلم الله مستلزم لجزائه للعاملين، فكان كتابه عن الجزاء وفي الكناية عن الجزاء بالعلم تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم فهو جزاء الله العليم وكفر به.

**التفسير:**

خلق الإنسان مركباً من روح وبدن، وإنما بقاء بدنه بالغذاء، وإنما كمال روحه بالعمل، فأمر الله بالأكل

(1) المصدر نفسه (1 / 364).

لبقاء البدن واشترط أن يكون من الطيبات لأنها هي التي تغذي ولا تؤذي، وأما الخبائث وفيها الأذى ويتفه أو يعدم منها العداء وأمر بالعمل الصالح الذي فيه زكاء للنفس ونفع لها في العاجل والاجل وخير للعباد والبلاد، وأخبر بعلمه بعمل العاملين ليجتهدوا في العمل ويخلصوا له فيه وينتظروا جزاءهم من عنده والدِّين كله عمل صالح وتوحيد خالص، وقد انتظمتهما الآية تصريحاً في العمل واستلزاماً في التوحيد. وبيَّن تعالى بهذه الآية أن ما اشتملت عليه هو دين الله لجميع الأمم أوصى به رسله ـ صلوات الله عليهم ـ ليبلغوه لخلقه فهو حقيق أن يؤخذ به ويعمل.

**توجيه الترتيب:**

تتوقف الأعمال على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، ولهذا قدم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل، فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلَّها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم، وليس في الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها، كما يفعله متصوفة اللحم. وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها، كما يفعله متصوفة الهنادك ومن قلدهم من المنتسبين للإسلام. والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي (ص) ـ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وقد بيَّن ذلك أئمة الأثر رحمهم الله، وقد جوده مالك ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الجامع من الموطأ، وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها، لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الأعمال.

**بيان نبوي:**

خرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال: «أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *} [المؤمنون : 51]، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة : 172].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمده يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك».

فبين الحديث الشريف أن الله طيب، أي منزه عن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله تنعم العقول والأرواح بمعرفته .كما يليق به . ومحبته، وأنه لا يقبل من الأعمال إلا طيباً أي صالحاً من نفسه خالصاً من شوائب المخالفة والرياء والشرك، وبيَّن أن الشرع عام للرسل وللأمم ولا يستثنى من هذا إلا ما دل على اختصاصه بالرسل، وبيَّن أن أكل الحلال هو الذي يثمر قبول الدعاء والدعاء هو مخ العبادة، فإذا رُدَّ عليه فقد رُدَّت عليه عبادته، فكان هذا البيان النبوي على مقتضى ما أفاده ترتيب الأمرين في الاية.

**تكميل**:

في آية الرسل الأمر بالأكل من الطيبات والأمر بالعمل الصالح واستلزام الأمر بالإخلاص، وفي آية المؤمنين الأمر بالأكل من الطيبات والأمر بالشكر، والتصريح بلزوم توحيده تعالى في العبادة لأن تمامها هكذا:

. {وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ *} [البقرة : 172].

واقتصر في الحديث على الأمر بالأكل من الطيبات إما لأن الأكل كان في الحديث على أكل الحلال، وإما لأن الراوي اختصر الرواية.

**الاهتداء**:

على المؤمن أن يتحرى في مأكله ومشربه وكل ما فيه قوام ذاته الحلالَ الطيب يمتثل بذلك أمر الله، ويقصد التوصل به إلى العمل الصالح وعليه أن يتحرى في فعله وتركه أمر الله ونهيه حتى يكون عمله عملاً صالحاً طيباً متقبلاً ويمتثل بذلك أمر الله ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه، والتحري للحق والخير جدير بالتوفيق إليه وكثرة إصابته.

رزقنا الله والمسلمين التحري لطاعته والتوفيق لمرضاته والتأدب بكتابه آمين[1].

---

(1) المصدر نفسه (1 / 341).

**هـ . الود من إكرام الله لأولياء الله:**

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *} [مريم : 96].

**سبب النزول، ووعد السابقين:**

كان السابقون الأولون . من المؤمنين . أول الإسلام بمكة . مبغوضين من أهل مكة المشركين مهجورين منهم مزهوداً فيهم، ومن أشد الالام على النفس وأشقها أن يعيش الإنسان بين قومه مبغوضاً مهجوراً مزهوداً فيه، وخصوصاً مثل تلك النفوس الحية الأبية، فأنزل الله هذه الآية تأنيباً لأولئك السادة ووعداً لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنه سيجعل لهم وداً فيصيرون محبوبين مرغوباً فيهم، وقد حقق الله وعده فكان أولئك النفر بعد السادة المتقدمين من أقوامهم وعشائرهم لسبقهم وفضلهم وكانوا . وهم قادة الجيوش في الفتوحات الإسلامية . المحبوبين هم وجيوشهم المرغوب فيهم من الأمم التي فتحوها لعدلهم ورحمتهم ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوي، أن بعض الأمم الأجنبية دعتهم إلى إنقاذها من أيدي رؤسائها، فكانت هذه الآية من آيات الإعجاز بالإعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال فكان على وفق ما قال.

**عموم الوعد لعموم اللفظ:**

الإيمان . وهو التصديق المثمر للأعمال . والأعمال الصالحة . وهي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الإيمان . هما اللذان جعلهما الله سبباً في تحقيق هذا الود لما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *}

فيعم ذلك كل أهل الإيمان والعمل الصالح وهم أولياء الله و {إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ} [الأنفال : 34].

**. سبب الود وسبب الجعل:**

تُكسب مودة الناس، بأسباب متعارفة بينهم، منها القرابة ومنها الصداقة، ومنها صنائع المعروف ومآثر

الإحسان وأما هذا الود الذي وعد الله به الذين امنوا وعملوا الصالحات فسببه جعلٌ من الله له في قلوب العباد لهم دون تودد منهم ولا توقف على تلك الأسباب، فيودّهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة ولا وصلَ إليه منهم معروف، فهذا نوع من الود الخاص يكرمهم الله به وينعم عليهم به الرحمن من جملة نعمه التي يحدثها ويجددها لهم زيادة على ما يقتضيه الإيمان والعمل الصالح. ومنه الإحسان. من مودة القلوب، أما سبب هذا الجَعْل والوضع والإيجاد من الله لهذا الود والإكرام به ؛ فهو الإيمان والعمل الصالح، وهما سبب لإكرامات كثيرة من الله تعالى، هذا الجعل للود منها.

**بشارة وتثبيت:**

في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق وأنصار السنة ومرشدي الأمم ؛ عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائرهم ويلقَون منهم النفور والإعراض والبغض والإنكار ويجدون أنفسهم غرباء بينهم، يعاديهم من كانوا من أحبابهم ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم، في الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنهم سيكون لهم على كلمة الحق مؤيدون، وفي الله محبون، وسيكون لهم ود في القلوب ممن يعرفون وممن لا يعرفون، وفيها أيضاً تثبيت لهم في تلك الغربة ووحشة الانفراد بما يكون لهم من أنس الود وأي ود هو، ود يكون من جعل الرحمن.

**دفع إشكال:**

الاية منظور فيها إلى مجموع الذين امنوا وعملوا الصالحات وغالبهم، فلا يشكل علينا أن منهم من يموت في غربة الحق قبل أن يكون له على الحق أنصار، ومنهم من يموت غير معروف من الناس، كما أن الود الذي يجعل لهم غير منظور فيه للعموم فلا يشكل ببغض من يبغضهم تعصباً لهوى أو تقليداً أو حرصاً على منفعة أومحافظة على جاه أو منصب أو مال.

**تفسير نبوي:**

قال رسول الله (ص): إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء، إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل ثم ينادي «جبريل» في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض. رواه بهذا اللفظ مسلم ورواه البخاري وغيرهما. وزاد الطبراني.

ثم قرأ رسول الله (ص): {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *} [مريم : 96].

فارتبط الحديث بالآية بزيادة الطبراني، وبيّن النبي (ص) بقراءة الآية أن هذا القبول الذي يجعل لمن أحبه الله في أهل الأرض ـ والمراد بهم من يعرفونه منهم، هو نوع الود المذكور في الاية، وبين أن أهل القبول في الأرض محبوبون في أهل السماء قبل أهل الأرض، وبين أن سبب ذلك القبول هو محبة الله لهم، فمن أحبهم حببهم لعباده. ولما كان سبب القبول محبة الله لهم بيَّن صلى الله عليه واله وسلم أن بغض الله سبب في بغض الخلق لهم، إذا ما تسبب عن أحد الضدين يتسبب عن ضده الضد الاخر، وكما كان ذلك الود والقبول يكون شيئاً زائداً على ما تقتضيه أسباب الود بين الناس، كذلك تكون هذه البغضاء بينهم، فيكون هذا الذي وضعت له البغضاء ـ والعياذ بالله ـ مبغوضاً حتى ممن لم يكن منه إليه شيء من أسباب البغض.

**تبيين وتعيين:**

قد يكون الأتباع والمحبون والراغبون لأهل الحق، ولأهل الباطل، لأئمة الهدى، ولرؤوس الضلال، لدعاة الأتباع ولدعاة الابتداع، ولكن أصل المحبة من الله والود والقبول من العباد هم أهل الحق وأئمة الهدى ودعاة الاتباع للكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالحون، لا لأنفسهم والتحزب لهم وجلب النفع لهم، والذي

يعينهم لهذه الكرامة دون غيرهم هو اتباعهم للنبي (ص) في سيرته ودعوته وما كانت دعوته إلا للقرآن وبالقرآن، دون أن يسأل على ذلك من أجر، وهذا لأن الود والقبول عند العباد مسببان عن محبة الله للعبد، ومحبة الله لا تكون إلا للمتبعين للنبي صلى الله عليه واله وسلم لقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: 31].

فكرامة الود والقبول إنما هي للمتبعين له ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ فأما غيرهم فما يكون لهم من قبول عند أمثالهم فهو فتنة وبلاء عليهم.

**إرشاد:**

أفادت الآية الكريمة والحديث الشريف أنة على المسلم أن يتمسك بالإيمان والعمل الصالح والاتباع للنبي (ص)، ولو كان في قوم انفرد بينهم بذلك وحده، ولا يستوحش من انفراده بينهم، فحسبه رضى الله ومحبته، وكفى بهما أنساً، وليثق بأنه ـ إن صدق ـ ومد الله في عمره يكون له ود وقبول في عباد الله وأنس بمن يحبهم ويحبونه لله، وتلك المحبة النافعة الدائمة والصلة المتينة الجامعة التي تجمع بين أهلها في الدنيا والاخرة. وجعلنا الله والمسلمين من العاملين له والمتحابين فيه[1].

و ـ وقال تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *} [النمل : 20].

**ـ الألفاظ والتراكيب:**

تفقد: التفقد تطلبك ما فقدته وغاب عنك، وتعرفك أحواله، لا أرى: لا أبصر، الهدد: هو «تبيب» وهو طائر صغير الجرم منتن الريح ليس من كرام الطير ولا من سباعها. مالي لا أرى: أستفهم عما حصل له فمنعه الرؤية حيث ظن أولاً أن الهدهد كان حاضراً، وإنما هو لم يره. أم كان من الغائبين: أستفهم عن غيبته حيث ظن ثانياً أنه غائب فاستفهم عن صحة ما ظن، فكلمة أم فيها إضراب وفيها استفهام، فأضرب إضراب انتقال من ظن إلى ظن، كان من الغائبين: تعريض بقبح فعله لما انحط عن شرف الحضور وكان من الغائبين.

(1) المصدر نفسه (1 / 343، 344، 345).

**المعنى:**

تطلب سليمان ـ عليه السلام ـ معرفة ما غاب عنه من أحوال الطير، فلم ير الهدهد، وأخذ يتساءل فظن أن شيئاً ستره عنه فلم يره، ولما لم يكن شيء من ذلك ظن أنه كان غائباً غير حاضر وذلك هو الظن الأخير الذي حصل به اليقين.

**تعليم وقدرة:**

من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها ويتعرف أحوالها إذ هو مسؤول عن الجليل والدقيق منها، يباشر بنفسه ما استطاع مباشرته منها ويضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب عليه منها، وينيط بأهل الخبرة والمقدرة والأمانة تفقد أحوالها حتى تكون أحوال كل ناحية معروفة مباشرة لمن كلف بها، فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه وكثرة أتباعه قد تولى التفقد بنفسه ولم يهمل أمر الهدهد على صغره وصغر مكانه، وقد كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: لو أن سخلة بشاطئ الفرات يأخذها الذئب ليسأل عنها عمر. وهذا التفقد والتعرف هو على كل راعٍ في الأمم والجماعات والأسر والرفاق وكل من كانت له رعية.

**تعليل وتحرير:**

تفقد سليمان جنس ما معه من الطير للتعرف كما ذكرنا، وذكر الطير لأنه هو الذي تعلقت به القصة، وليس في السكوت عن غير الطير ما يدل على أنه لم يتفقده، فالتفقد لم يكن للهدهد بخصوصه وإنما لما تفقد جنس الطير فقده، ولم يجده فقال ما قال، فلا وجه لسؤال من سأل: كيف تفقد الهدهد من بين سائر الطير؟

**تدقيق لغوي وغوص علمي:**

سأل سليمان عن حال نفسه فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ ولم يسأل عن حال الهدهد، فيقل: ما للهدهد لا أراه ؟ فأنكر حال نفسه ، قبل أن ينكر حال غيره، فنقل الحافظ الإمام ابن العربي عن الإمام عبد

الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال: إنما قال ما لي لا أرى لأنه اعتبر حال نفسه ذا علم أنه أوتي الملك العظيم وسخر له الخلق فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العمل، فلما فقد نعمة رؤية الهدهد ؛ توقع أن يكون قصّر في حق الشكر ؛ فلأجله سلبها، فجعل يتفقد نفسه فقال: ما لي.. وكذلك تفعل شيوخ الصوفية إذا فقدوا امالهم تفقدوا أعمالهم، وهذا في الاداب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصر في الفرائض؟[1].

**توجيه:**

مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أجل علوم القرآن وذخائره. إذ هي معاني صحيحة في نفسها ومأخوذة من التركيب القرآني أخذاً عربياً صحيحاً، ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع. وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول، ومنه فهم عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أجل رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ من سورة النصر، أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة وخصوصاً الأول والثاني فهو الذي لا يجوز في تفسير كلام الله وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية، كتفسير ابن عبد الرحمن السلمي من المتقدمين والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين.

الآية السابعة وهي: 21 من النمل (27):

{لأَعِذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *} [النمل : 21].

**الألفاظ والتراكيب:**

«عذاباً شديداً»: بنتف ريشه، هكذا فسره ابن عباس وجماعة من التابعين، بسلطان مبين: بحجة قاطعة توضح عذره في غيبته، سميت الحجة سلطاناً لما لها من السلطة على العقل في إخضاعه، أفادت (أو) أن المحلوف على حصوله هو أحد الثلاثة، فإذا حصلت الحجة فلا تعذيب ولا ذبح، ولو لم تحصل لفعل أحدهما،

(1) المصدر نفسه (2 / 33 إلى 35).

وقدم التعذيب لأنه أشد من القتل، وحالة الغضب تقتضي تقديم الأشد.

**المعنى**:

يقسم سليمان على معاقبة الهدهد ـ وقد تحقق غيبته ـ بالتعذيب أو بالذبح إذا لم يأته بالحجة التي تبين عذره في تلك الغيبة ولا يستثني للعفو ولا يجعل سبباً لسلامته من العقوبة إلا الحجة.

**توجيه واستنباط**:

ليس في الآية ما يفهم خصوص نتف الريش من لفظ العذاب الشديد، وإنما فهم ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وأئمة من التابعين ذلك بالنظر العقلي والاعتبار، فإنَّ نتف ريشه يعطل خاصية الطيران فيه فيتحول من حياة الطير إلى حياة دواب الأرض، وذلك نوع من المسخ، وقد علم أن المسخ في القرآن أشنع عقوبة في الدنيا، فلهذا فسروا العذاب الشديد بنتف الريش.

والإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب فمن حرم ـ إنساناً ـ فرداً أو جماعة ـ من العلم فقد حرمه من خصوصية الإنسانية وحوله إلى عيشة العجماوات وذلك نوع من المسخ فهو عذاب شديد وأي عذاب شديد؟.

**صرامة الجندية**:

كان هذا الهدهد من جنود سليمان التي حشرت له، وقد كان في مكانه الذي عُيِّن له وأقيم فيه، فلما فارق وترك الفرجة في صفه وأوقع الخلل في جنسه استحق العقاب الصارم الذي لا هوادة فيه، وهذا أصل في صرامة أحكام الجندية وشدتها ؛ لعظم المسؤولية التي تحملتها، وتوقف سلامة الجميع على قيامها بها، وعظم الخطر الذي يعم الجميع إذا أخلت بها.

**تقدير العقوبة**:

جرم الهدهد صغير وما كُلِّف إلا بما يستطيعه من الوقوف في مكانه والبقاء في مركزه، ولكن جرمه بإخلاله بهذا الواجب كان جرماً كبيراً ؛ فإن الخلل الصغير مجلبة للخلل الكبير، فقدرت عقوبته على حسب كبر ذنبه لا على حسب صغر ذاته.

**تنبيه وإرشاد:**

كل واحد في قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته مما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته، فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر يدخل، ولا الخلل يقع من جهته، فإنه إذا قصَّر في ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد في قومه وجماعته، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك إليهم، وزوال حجر صغير من السد المقام لصد السيل يفضي إلى خراب السد بتمامه.

فإخلال اي أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤد إلى الضرر العام، وثبات كل واحد في مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن وهما أساس القوة.

**الحق فوق كل أحد:**

لقد أغضب سليمانَ غيابُ الهدهد، فلذا توعده هذا الوعيد وأكده هذا التأكيد، ولكن سلطان سليمان في قوته وملكه ومكانته يجب أن يخضع لسلطان آخر هو أعظم من سلطانه: هو سلطان الحق، والحق فوق كل أحد، وملك سليمان ملك حق ؛ فلا بد له من الخضوع لسلطان الحجة، ليقيم ميزان العدل، والعدل أساس الملك وسياج العمران[1].

## 9. ختم تفسير القرآن الكريم:

عندما ختم العلاَّمة ابن باديس تفسير القرآن الكريم اهتم العلماء وإخوانه من أعضاء الجمعية بهذا الحدث الكبير وتمَّ تدوين أحداث الاحتفال، وكان من أفضل من كتب تفاصيل ذلك الاحتفال المهيب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بقلمه المانع وقدرته على التصوير بدقة متناهية، وإليك ما قال محمد البشير في نقاط معنونة:

---

(1) المصدر نفسه (2 / 37).

### أ . الزمن الذي أخذه ابن باديس في تفسير القرآن الكريم:

أتمَّ الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درساً على الطريقة السلفية، وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدَّخرة لهذا القطر، وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درساً، ولما عاق حواريه الإمام رشيد رضا عن إتمامه كتابة.

إن إكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة في مدة تساوي . بعد حذف الفترات . المدة التي أكمل الله نزوله فيها، يعد في نظر المتوسمين إيذاناً من الله برجوع دولة القرآن إلى الوجود، وتمكين سلطانه في الأرض، وطلوع شمسه من جديد، وظهور المعجزة المحمدية كرة أخرى في هذا الكون.

ثم كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة في الثالث عشر من ربيع الثاني عام 1357هـ دليلاً على انسياق الأمَّة الجزائرية المسلمة إلى القرآن واجتماع قلوبها على القرآن وشعورها بلزوم الرجوع إلى هداية القران، ولا معنى لذلك كله إلا أن إحياء القرآن على الطريقة السلفية إحياء للأمة التي تدين به.

ثم جاءت حفلات التكريم للأستاذ المفسِّر ولوفود القران، وما لقيته تلك الوفود من سكان الحاضرة القسنطينية من صدق الحفاوة، وكرم اللقاء وبشاشة المظهر وتهلل الأسرة وإكرام المثوى وإغداق الضيافة بالغة، على أن القرآن فعل فعله في تلك النفوس فجمعها على التقوى وهداها لكريم الخلال وبسط شعاعه على جوانبها المظلمة، فتعارفت بعد التناكر وتالفت بعد التخالف، ويوشك أن يأتي بعد هذا التعارف الخير الكثير(1).

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس من خلال مقالات الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، د. محمد درَّاجي ص 24.

**ب . تفاوت الاحتفالات:**

تتفاوت الاحتفالات بتفاوتها في سمو المعاني التي تقوم لأجلها، فبقدر سمو السبب وعموميته تكون قيمة الاحتفال، ثم تنزل تلك وترخص كلما تفه السبب أو خصَّ حتى تصل إلى درجة الساقط الذي لا وزن له. ولا يدخل في هذا الباب إلا بضرب من التوسع والتساهل، فأسمى هذه الأسباب ما يذكّر الجمهور بأمجاده التاريخية ومفاخره القومية ومنها نخوة أماتها الضيم، وفحولة قضى عليها التأنث، وذكرى أخنت عليها الغفلة والنسيان، وأصالة خبَّثتها الأعراق الدسيسة، وعزيمة أطفأتها طباع الضعف والفسولة، وأريحية غطى عليها اللؤم المخزي والشح المطاع، وشواعر خدرتها تهدئة الدخيل وزمزمة الحاوي وهيمنة الواغل.

ثم ما يجلو عليه حقيقة دينية أو علمية غشيتها الأوهام والخرافات، ثم ما يحقق له مصلحة في الحياة كانت مجهولة أو حقاً فيها كان ضائعاً، ثم ما يكشف له عن وجوه الفساد فيه ليتقيه ثم.. ثم..

هذا من جهة الأسباب والبواعث، فأما من جهت الأشكال والصور، فأعلى ما فيها أن ينساق إليها الجمهور سائقاً وجدانياً، وأخس ما فيها أن يساق إليها سوقاً أو أن يخدع فيها عن وجدانه بالمرغبات الخادعة.

**ج . أسباب الاحتفالات:**

لكل أمة أسباب طارئة وبواعث تاريخية تدعوها إلى إقامة الاحتفالات، وقد تنبهت الأمم الحية إلى ما فيها من الفوائد فجعلت الاحتفال بها جزءاً من حياتها ومادة من قوانينها الاجتماعية، وإن الأمة الإسلامية لأغنى الأمم من هذه البواعث التاريخية، وكلها من ذلك الطراز العالي الذي أشرنا إليه، ومعظمها بواعث دورية يفضي الباعث منها إلى باعث، فلا تفتأ الأمة مستعرضة ماضيها كله، ولاتزال في غمرة من المنبهات المنعشة.

عندنا معشر المسلمين ليلة الميلاد النبوي وعندنا يوم الهجرة ورأس السنة الهجرية ويوم بدر ويوم أحد ويوم فتح مكة، وغير ذلك من الأحداث التي وقعت في عهد النبوة، ولكل واحد من هذه الأحداث مغزى سام

وأثر بالغ في تاريخنا، وهلم إلى ما بعد من الوقائع الشهيرة الفاضلة حتى تنتهي إلى فتح صقلية ومواقع الحروب الصليبية وفتح القسطنطينية، وهلم ما يخصنا معشر الأفارقة كبناء القيروان واستواء طارق على الجبل، وهلم ما تقتضيه المناسبات في بعض الأوقات كفتح خيبر ودخول عمر لبيت المقدس، وتعال إلى القوَّاد والفاتحين والأجواد والعلماء والحكماء والفلاسفة والشعراء . ولا تعدّ من الدرّ إلا كباره . تجد ما زخره التاريخ وفاضت به العصور ومع هذه المفاخر.

فقلَّ أن تجد قطراً إسلامياً سنَّ أهله سنة صالحة في إحياء هذه الذكريات وإحياء الأمَّة بها إلا في القليل المشوَّه الذي لا ينفع غلة ولا يصيب مرمى[1].

**د . غفلة عن إحياء الذكريات النافعة:**

إن غفلتنا عن إحياء أمجادنا التاريخية هي التي أزهقت في الأمم الإسلامية روح التأسِّي، فأفقرتها من الرجال وجعلت تاريخها الحديث خلواً من المثل العليا، حتى اندس هذا العرق الخبيث في ادابنا فترانا إذا التمسنا مثلاً في الجود، طوينا تاريخ الإسلام كله كأنه صفحة مغسولة وجئنا من العصر الجاهلي بحاتم، وقل مثل ذلك في عنترة والسموأل، فإذا قصرنا الخطو وقاربنا النجعة ووقفنا عند العصر الأول للإسلام، فهل خلت العصور التي بعدهم من مُثُل كاملة ومن مفاخر خالدة؟ لا، فقد تأسَّى عصر بعصر وجيل بجيل، فجاءت عصور زاهرة وأجيال عامرة، فهل جهل التاريخ وانقطعت العلائق الواصلة بين عصوره وضعفت روح التأسَّي ثم تلاشت وصرنا إلى هذا الفقر الشائن في المثل وهذا الخواء المزري في التاريخ؟

وقد زادتنا أضاليل الغاشين إمعاناً في الغفلة وإغراقاً في الركود، ففقهاء هذه العصور الجرداء يمدون التاريخ علماً لا ينفع وجهالة لا تضر، والأجانب يعيّروننا بأننا أمة تعيش في الماضي ويغشّون سفهاءنا في معرض التنصح بأمثل هذه الكلمات ليّاً بألسنتهم وتزهيداً في هذا الماضي زيادة على زهدنا فيه وهم يعلمون أننا نعيش

(1) المصدر نفسه ص 42.

بلا حاضر، ويوجسون خيفة من أن يلم بنا طيف من ذلك الماضي الزاهر فنبني عليه ـ حاضراً من جنسه أكمل منه.

إلا أنهم من إفكهم يقولون: دعوا ماضيكم، فهل تركوا ماضيهم؟.

إنما نراهم أحرص الناس على الاعتداد به والاستمداد منه والامتداد معه إلى عصور الخرافات والأساطير.

وما لنا وللغاش والناصح، إن لنا لماضياً عبقرياً حسدتنا عليه الأمم التوالي، بعد أن حرضت به الأمم الخوالي، فمن مصلحتنا وحدنا أن نحيي ذكرياته في نفوسنا وأن نستمد منه قوة لأرواحنا، وأن نربي ناشئتنا على احتذاء مثله وعبقرياته، وإن إقامة الاحتفالات لتلك البواعث لطريق قاصد إلى ما نريد من ذلك[1].

ومما جاء في كلمة البشير الإبراهيمي في الاحتفالات وتصوير وصفي للاحتفال العظيم بختم القرآن العظيم أيضاً:

**هـ ـ التحذير من بعض الاحتفالات:**

لا نريد للمسلمين أن يعكفوا على تلك الاحتفالات المولدية الشائعة التي يقتصر فيها على تلاوة القصص المشوَّهة، فإن ذلك الطراز لا يتفق مع شرف الذكرى وجلالها. وإن القصص المولدية الحشوية، والخطب المنبرية الرائجة هما سبب تنويم هذه الأمة وأصل بلائها، ولا أن نعكف على ذلك النوع الشائع في مصر كمولدي النبوي والرفاعي وغيرهما، فإن ذلك النوع ـ زيادة على إفساده للدين والأخلاق ـ لايثير النفوس إلى ذكريات ماجدة ولا معاني شريفة، وإنما يمكّن فيها للتخريف والدجل، ولا ذلك النوع الشائع من الأوساط الشعبية من احتفالاتهم يوم عاشوراء بذكرى مقتل الحسين ـ عليه السلام ـ فإنه فضلاً عما يقع فيه من المنكرات المخجلة، لا يثير إلا الحفائظ والإحن ولا يثمر إلا توسيع شقة الخلاف ، ولقد حضرت احتفالاتهم مرة واحدة بدمشق في

(1) المصدر نفسه ص 43.

تربة بأرسلان ؛ فعجبت كيف تصدر تلك الشناعات من مسلم وعلمت لأول مرَّة: إلى أي حد ينتهي التعصُّب والغلو، ثم ذاكرت عالم الشيعة بدمشق الشيخ عبد المحسن العاملي وهو عالم فاضل أديب معتدل في ذلك، فأنكر ما أنكرت بالقول واعتذر عن الإنكار بما فوق ذلك بما يعتذر به علماء الدين في كل مكان.

لا نرضى للمسلمين بهذا الطراز البالي من الاحتفالات التي ذكرنا بعض أنواعها، فقد عكفوا عليها قروناً فما زادتهم إلا خبالاً وانحطاطاً، وإنما نريد منهم محوها واستبدالها بما هو خير، وقد تتابع السواد الأعظم من إخواننا المصريين في هذا النوع السخيف مثل ما تتابع الفريق المثقف منهم في تقليد الغربيين في هذا الباب لا تحفظ ولا استمساك، فبينما سواد الأمة وعديدها الأكثر عاكف على الأضرحة، يقيم حولها احتفالات الموالد ويرجو منها الإمداد، وعلماء الدين يمدونهم في الغي بسكوتهم، ومشيخة الأزهر تزكي أعمالهم بتقبيل شيخها لمقود جمل المحمل.

ونرى الطرف الاخر يتهالك على تقليد الغربيين في ولائمهم واحتفالاتهم السخيفة بالتوافه والسفاسف، ويستهتر في هذا التقليد حتى تطغى احتفالات الغرب الدينية والقومية حتى على المواسم الشرقية الدينية، وهذه جرائدهم ومجلاتهم تشهد في ضجر وعتب أو في رضى وإعتاب بأن هذه الطائفة، وهم عمار الحواضر، يحيون ليلة الميلاد المسيحي وعيد راس السنة المسيحية، ولا يأبهون لعيد الفطر ولعيد الأضحى، ولعمري إن هذا لهو الاستعمار الروحي الذي لا يُعد الاستعمار المادي معه شيئاً مذكوراً[1].

ويا ليت إخواننا هؤلاء استبدلوا غرباً بغرب، فقلَّدونا نحن. ما دام التقليد مبلغ جهدهم. في كثير من هذه المعاني التي يقلِّدون فيها الغربيين، ألسنا مغاربة؟ ألسنا أحق باسم الغرب بالنسبة إلى مصر؟ وإنما أوربا شمال مصر، وقد شرع لهم الشاعر حافظ إبراهيم هذه التسمية في قوله:

ودعونا نشم ريح الشمال أم يقولون: إننا برابرة ومتوحشون: فنعم وكرامة عين، ولكننا مع ذلك شداد في

---

(1) المصدر نفسه ص 46.

الاستمساك بحبال الشرقية في كثير من مناحي الحياة، ولقد صاحبنا الاستعمار أكثر من قرن فما استطاع لنا هضماً.

خالفنا الاتجاه ليلاً ولمسنا ببعض العتب علاقة عزيزة علينا وعزيزاً علينا أن نراها مسرفة في التقليد، غالية في المتابعة على غير هدى على حين نأتمّ بها ونعدها لإمامة الشرق كله، فليهنأ إخواننا أننا تلامذتهم، ولكن في غير ما هم فيه تلامذة الغرب(1).

**و ـ احتفالات الجزائر:**

لم تعرف الجزائر في ماضيها من الاحتفالات إلا تلك الصور العادية الساذجة في العيدين الدينيين، وإلا الزرد الموسمية في بعض الجهات، وإلا نوعاً آخر هو أقرب إلى الاحتفال المنظم لو خلا من المحظورات الدينية وحلا بالمشارب القومية والفوائد الاجتماعية، والعامة تطلق على هذا النوع اسم «الأركاب» وهم يعنون جمع ركْب بسكون الكاف كأركاب خالد بن سنان حماد، وركب عامر لقبر عطية قرب قلعة بني حماد، وركب قسنطينة لقبر ابن عبد الرحمن بالجزائر، وركب البليدة لقبر الشيخ أبي مدين بتلمسان، وكلها من شدّ الرحال غير المشروع، وكلها قريبة من النوع الذي نعيناه على المصريين وإن كانت أقل منه فساداً أو إفساداً.

وعرفت الحواضر الجزائرية شبه احتفال بالمولد النبوي، يقتصر فيه على التجمير والتقصير وتلاوة قصة من القصص الحشوية الشائعة، ولقد حضرت ـ منذ سنوات ـ حفلة مولدية من هذا النوع بحاضرة الجزائر، وسمعت من بعض ما كان يقول قوله: إن النبي (ص) كان يرى من أمام كما يرى من الخلف بعينين خلقهما الله في قفاه.. وكان بجنبي فقيه مقرأئ خفيف الروح، سلفي النزعة، فتغامزنا بالإنكار ولم نستطع جهرة، إذ كان ذلك قبل انتشار الحركة الإصلاحية، ثم أسرَّ إليَّ على سبيل الدعابة قوله: أبى الله إلا أن نكون أسبق منكم لكل

---

(1) المصدر نفسه ص 47.

شيء، فعندنا من هذه «الماركة» من العلماء من يقول ويكتب: إن النبي (ص) لم يولد من السبيل المعتاد[1].

**ز . الاحتفالات النافعة:**

ولبثت الجزائر محرومة من هذا النوع المفيد الذي يغرس المعاني السامية في النفوس بأسبابه وبواعثه، ويزرع المبادئ العالية والمعارف والاداب في العقول بما يقال فيه إلى أن كان عهدها الأخير وكانت نهضتها العلمية الدينية، فلأوائل هذه النهضة شعرت بما للاحتفالات من أثر صالح في النهضات، فالتفتت إليها وجعلتها إحدى ذرائعها لتعضيد الأعمال والمشاريع ونشر المبادئ الصالحة وبث الأفكار النافعة، وترقت بها مع الزمن حيث النظام واختيار المناسبات حتى أصبحت تنافس أرقى ما عُرف من نوعها عن الأمم الأخرى[2].

ح . أروع احتفالات الجزائر:

لعل أروع احتفال شهدته الجزائر في عهدها هذا هو الاحتفال بفتح مدرسة «دار الحديث» بتلمسان في أواخر شهر سبتمبر من السنة الخالية، فقد كان بدعاً من الاحتفالات في نظامه، وفي ضخامة العمل الباعث عليه، وفي جلال المناسبة والذكرى، وفي احتشاد الأمَّة له، وفي علوّ الطبقة التي شهدته وتكلمت فيه من العلماء والشعراء، وقد وصفته الجرائد في حينه، وإنما جلبته هنا مناسبة الحديث عن الاحتفالات.

ثم جاء الاحتفال بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لدروس التفسير بالجامع الأخضر بقسطينة . وهو الذي ألهمنا كتابة هذه الكلمة، فكان شاهداً لما ذكرناه قريباً من تطور هذه الأمَّة في هذه الناحية، ودليلاً على أن نظام الاحتفالات بلغ في هذا القطر كماله، وعلى أن روح التأسي في الصالحات حييت في هذه الأمة وانتعشت، وأنها أصبحت تهتبل الفرص المواتية فتحسن الاختيار. وأذكر أننا كنا في جماعة من الرفقاء الأوفياء تذاكرنا مرَّة في إقامة حفلة تكريم لرفيقنا الأستاذ ابن باديس تنويهاً ببعض حقه على العلم وشكراً لأعماله

---

(1) المصدر نفسه ص 48.

(2) المصدر نفسه ص 49.

الجليلة واثاره الحميدة في التعليم بهذا الوطن واعترافاً بكونه واضع أسس النهضة وإنصافاً لكونه أسبقنا إلى التعليم وأشدَّنا اضطلاعاً به، وأكثرنا إنتاجاً وتخريجاً فيه.. وذهبنا في تقدير الفوائد التي تُجنى من هذا الاحتفال مذاهب لا غلوَّ فيها ولا إسراف. ثم فاتحنا أخانا الأستاذ بهذه الفكرة، فكان الجواب قوله: دعوا هذا حتى نختم دروس التفسير . وبيننا يومئذ وبين الختم سنوات .كأنه يرى أن عمله في التفسير هو أجلّ أعماله في التعليم، وأنه بإتمامه لهذا العمل يستكمل مزية الاستحقاق للتكريم والإجلال من أمته، إذ يكون قدَّم لها عملاً تاماً ناضجاً وصورة كاملة من مجهوداته، وزيادة على ما خرَّج لها من رجال.. كأنه . حفظه الله .كان معلق البال بهذا العمل ويخشى أن تقطعه قواطع الدهر.

وأراد الله، فحقق للأستاذ أمنيته من ختم التفسير، وللأمة رجاءها في تسجيل هذه المفخرة للجزائر، ولأنصار السلفية غرضهم من تثبيت أركانها بمدارسة كتاب الله كاملاً، وبدت مخايل الختم من أواخر السنة الحالية، فكثر الحديث في الأسمار وفي المنتديات عن الاحتفال، وصوَّرت منه الخواطر احتفالاً ملء الأمل.

وكذلك كان والحمد لله، تألفت لجنة تنظيم بمركز الاحتفال «قسنطينة»، وأعدَّت للاحتفال برنامجاً محيطاً محكماً وجعلت شعاره كله «القران»، فالوفود وفود القرآن والضيوف ضيوف القران، وأذاعت توقيت الاحتفال باليومين الرابع والخامس من شهر ربيع الثاني، ثم عدلت عنهما إلى الثاني عشر والثالث عشر منه لعوارض قاهرة لا يملك معها الخيار(1).

### ط . توجه الوفود إلى قسنطينة:

انهالت الوفود القريبة الدار على قسنطينة يوم الجمعة وتلاحقت الأمداد يوم السبت، وشعر الناس شعوراً عاماً أن الجامع الأخضر لا يسع الوافدين، إذ انهال سيلهم، وأن محلاً ما من المحلات العامة لا يسعهم أيضاً،

(1) المصدر نفسه ص 51.

فألهموا من غير تواطؤ العمل بقاعدة التمثيل، فأرسلت كل بلدة وفداً محدود العدد يمثلها، فلم تبق بلدة من عمالة قسنطينة كبيرة أو صغيرة إلا ومثّلها وفد في مهرجان القران، فرأينا هناك وفود البلدان الساحلية من بجاية إلى الحدود التونسية ووفود مناطق التلول من سطيف إلى سوق أهراس ووفود المناطق الصحراوية من بسكرة إلى سوف، وتكاملت عقود هذه الوفود بوفد عاصمة الجزائر الضخم المؤلف من مائة وثلاثين شخصاً، ثم وفد تلمسان وهو أقصى الوفود داراً عن قسنطينة، فبينها ما يزيد عن ألف ميل، ولكن جاذبية القرآن هوَّنت عليه النصب واللغوب. رأى الوفد التلمساني أن يقطع الطريق من الجزائر إلى قسنطينة في سيارة أوتوبيس ذات أربعين مقعداً ليجمع بين الفائدة والنزهة، وعمل بالاتفاق مع الوفد الجزائري على أن يخرج الوفدان من الجزائر معاً ويدخلا قسنطينة مساء السبت معاً.

وبلغ أهالي سطيف أن الوفدين يمرَّان ببلدتهم فأبى عليهم كرمهم إلا أن يقيموا لها حفلة شاي فاخرة وأرسلوا للوفدين استدعاء مع رسول خاص، مبالغة منهم في البر والاحتفاء. وخرج الوفدان من العاصمة على الساعة السادسة من صباح السبت في قطار من السيارات الضخمة يتكوَّن منها منظر ساحر خلاَّب ووصلوا سطيف على الثالثة، بعد الزوال، فتلقَّاهم إخوانهم السطيفيون على بضعة أميال من المدينة بباقات الزهر وطيب التحية، واجتمع الجميع على مائدة الشاي الفاخرة.

ثم استقلَّ قسم من وفد سطيف في بضع سيارات للقاء موكب الوفود على خمسة وعشرين ميلاً إبلاغاً في المبرَّة، فتهلَّلت الأسارير عند اللقاء وطفحت الوجوه بالبشر وانطلقت الألسنة بالتحيات المباركات وتصافحت القلوب قبل أن تتصافح الأيدي وشمس الأصيل بشعاع الوجوه المستبشرة، فكان منظراً سحرياً أخّاذاً لا يستقل بوصفه إلا شاعر ولست بشاعر، ثم انتظمت السيارات موكباً بديعاً وزحفت إلى قسنطينة فدخلتها بعد المغرب وليس وصف مشهد دخول هذا الموكب إلى قسنطينة وانغماس الضيوف والمضيفين في غمرة من نشوة الفرح البالغ إلى حد الذهول بالذي يسعه بياني وإن وسعه إدراكي وعياني.

اجتمعت وفود الغرب بوفود الشرق في مدرسة التربية والتعليم التي أعدَّت مكاتبها وطبقاتها وقاعاتها لهم أحسن إعداد، وبعد أداء فريضة العشاء انصرفوا إلى موائد المضيفين على تقسيم عجيب ومزج غريب يرجع الفضل والشكر فيه إلى لجنة الاحتفال.

**ي. كرم القسنطينيين:**

وقد تبارى كرام القسنطينيين ـ أحسن الله إليهم ـ في إكرام الوافدين وهزَّتهم الأريحية هزَّةٌ بعُد العهد بمثلها، وتجلَّت الضيافة العربية في أجلى صورها، يزينها نظام دقيق دفع هجنة الفوضى ووصمة الاحتلال التي تصاحب الاحتشاد والكثرة، فلم يتخلف مضيف عن ميعاد، ولم تختل لضيف وجبة، ولم يفترق للمجتمعين في منزل شملٌ، وتضاعفت الوفود صباح الأحد، فتضاعفت الحفاوة والبشر وتجلَّى الاستعداد الهائل واتسعت الصدور، فاتسعت المنازل وتنوَّعت صنوف البر حتى وسعت تلك الوفود الزاخرة سكناً مرفهاً وأكلاً مترفاً في أيام الاحتفال ولياليها وارتفعت الكلف بين كل نزيل وأبي مثواه حتى لتحسبهم إخوة رحم أو عشراء دهر.

ثم تلطفوا فخصُّوا الوفود التي لم تسبق لها زيارة قسنطينة، بنوع من التكريم وهو الطواف بهم في أوقات الفراغ على معالمها وقناطرها العجيبة وواديها المدهش ومناظرها الساحرة وغمروهم بفيض من الرقة واللطف أسرت ألبابهم وأنطقتهم ببليغ الشكر، فانقلبوا إلى أهلهم يحملون الإعجاب والإكبار ويضمرون المحبة الصادقة والولاء المحض.

هذه هي الاجتماعات التي كنا ننشدها فلا نجد هذه الاجتماعات التي تثمر التعرُّف الحقيقي وتجمع أفراد الأمَّة على الدين والخير والعلم، وقد زادها إخواننا القسنطينيون تمكيناً وشرعوا من اداب مناهج سيتحدث فيها المتمرسون ويذكرونها لهم بالجميل.

وما ظن الذين يفترون علينا ويتقوَّلون علينا الأقاويل؟ أفي مثل هذا الاحتفال من أعمالنا شائبة نقد أو رائحة إضرار بأحد؟

كان من المتوقع ـ على بعد ـ أن تسمح الإدارة بوقوع الختم في الجامع الأعظم لاتساعه لأضعاف ما يتسع له الجامع الأخضر، وقد طلب منها ذلك واتخذت وسائله فأبت، فما كان من لجنة الاحتفال وكرام القسنطينيين إلا أن قرَّروا أن يفسحوا في المجالس للوافدين وأن لا يزاحموهم في مقاعد الجامع الأخضر ساعة الدرس، ونفَّذوا هذه الخطة على أن تكون مكافاتهم من الأستاذ إعادة درس الختم في ليلة أخرى بعد انحسار الوفود عن قسنطينة(1).

**ك ـ خطبة ابن باديس في الاحتفال:**

وما كادت تشرق شمس يوم الأحد حتى اكتظ الجامع الأخضر بالوفود، فلم يبق فيه متنفس، وشمل الخشوع تلك الصفوف المتراصة حتى لا حركة ولا ضوضاء وتجلَّى جلال كلام الله في بيت الله، فكان مشهداً يستنزل الرحمات، ويتكفل باستجابة الدعوات، وصعد الأستاذ المفسِّر منبر الدرس فشخصت العيون وخفتت الأنفاس، واستهل بتلاوة المعوذتين، وشرع في تفسيرهما بما هو معهود منه، فلا يحتاج إلى نعت ولا إلى إطراء «وقد نشر ملخص الدرس في هذا العدد».

استغرق الدرس ما يقرب من ساعة ونصف أخذ الناس فيها على نفوسهم وجلَّلتهم سحابة من الخشية والسكينة، وكذلك المؤمنون الذين يخشون ربَّهم بالغيب تقشعر جلودهم عند سماع كلامه، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله.

وختم الأستاذ المفسِّر الدرس بأدعية قرانية وابتهالات مأثورة ثم طلب من الحاضرين أن يسألوا الله الرحمة والمغفرة لأخيهم حسين باي، مؤسس الجامع الأخضر ومُحبسه في سبيل العلم وإقام الصلاة وذكر الله كما هو منقوش على رخامة في المسجد، وذكر أن من علامات إخلاص هذا الرجل في عمله وحسن نيَّته أنة يسَّر الله ختم تفسير كلامه من أوله إلى اخره في مدة خمسة وعشرين عاماً بهذا المسجد، فانطلقت الألسنة بالدعاء والترحم وافترقوا على مثل ما اجتمعوا عليه بقلوب خاشعة ونفوس متراحمة وألسنة رطبة بحمد الله وشكره على ما وفَّق إليه من الخير وأعان.

(1) المصدر نفسه ص 53.

وكان هذا اليوم مقصوراً على درس التفسير، حرصاً على كلام الله أن يستقل تأثيره بالنفوس وأسره للأفئدة وعلى عظاته أن تتصل بشغف القلوب، وخصَّ سائر اليوم لاستراحة الوافدين ووقوفهم على معالم المدينة ومناظرها بعد أن أذنت لجنة الاحتفال فيهم باحتفالات الغد وأعماله[1].

**ل . خطباء وشعراء الاحتفال:**

كان يوم الاثنين الموالي ليوم الختم موعداً لإقامة حفلة تكريم للأستاذ المفسِّر وهي الحفلة التي سبقت الإشارة إليها في كلامنا، وكان لها حظ من تصميمنا، واعتزامنا، فسخر الله أسبابها في هذا اليوم، وقد تلطفت لجنة الاحتفال فأسندت رئاستها إلى كاتب هذه السطور، وكان موضع الاحتفال قاعدة «كلية الشعب» الفسيحة، أهطعت الوفود إلى كلية الشعب قبل الساعة المقرَّرة بساعات، ولم يثنهم طول الانتظار ولا اكتظاظ القاعة حرصاً على ضمان المقاعد، وصنع القسنطينيون في هذا اليوم صنيعهم بالأمس، ففسحوا في مجالس كليَّة الشعب كما فسحوا في الجامع الأخضر إكراماً للوفود، وأبت الوفود إلا أن يكون لها شرك في معنى التكريم، وأن يكون لأسمائها وبلدانها دخل في عداد المكرمين، فكان التكريم باسم العلماء زملاء الأستاذ وشركائه في العمل وباسم تلامذته وباسم هذه الوفود الحاشدة.

دقت الساعة التاسعة، فتصدَّرت هيئة جمعية العلماء سدّة القاعة واكتنفهم خطباء الحفل وشعراؤه من تلامذة الأستاذ عن اليمين والشمال، وتقدَّم رئيس الحفل فقدم مقرئاً، أسمع الناس آيات من كلام الله، ثم فتح الرئيس باب الخطابة بارتجال كلمات.

ثم قدم الخطباء على مراتبهم ثم الشعراء كذلك، وسيرى القارئ في آخر هذا العدد تلك الخطب والقصائد منشورة.

---

(1) المصدر نفسه ص 55.

ولما كانت ساعات الاحتفال محدودة لا تتسع لجميع الخطباء ولا للقليل منهم، وكان التلامذة يمثلون طبقات تمتد من أوائل النهضة إلى الان، فقد رؤي حرصاً على الوقت والفائدة الاقتصار على من يمثِّل تلك الطبقات، فتقدم من يمثل المتخرّجين في أوائل الحركة، ثم من يمثلون وسط الحركة واستفحالها، ثم من يمثلون الطبقة المباشرة للتعليم في السنوات الأخيرة، ثم من يمثِّلون الطبقة النازحة إلى جامع الزيتونة، ثم من ممثل الطبقة المستقلة وبالتعليم قام من يمثل تلاميذ التلاميذ، وبعد إنتهاء الخطباء أعلن الرئيس استراحة ربع ساعة ثم الرجوع لسماع الشعراء.

ولما انتهى دور الخطباء والشعراء المقرَّرين في منهاج الحفلة، وقف كاتب هذه السطور وارتجل خطاباً تغنَّى فيه بجمال يوم القرآن وهو يوم الختم، وبفوائد الخير التي سيعود بها على الأمة الجزائرية، وقد حاول كاتبان من كتَّاب الحفلة أن يلتقطاه عند الإلقاء ففاتهما منه الكثير، وتقدَّم إليَّ الحريصون على تخليد الحفلة كاملة أن أكتب ما علق بالذاكرة من ألفاظها ومعانيها، فكتبت ما يقرؤه القارئ في آخر الخطب وأنا أبرأ من إدعاء محاذاته كما ألقي ارتجالاً في ألفاظه ومعانيه.

وبعد خطبة الرئيس، قام الأستاذ المحتفلَ به وارتجل خطبة ضافية نستعيض عن وصفها هاهنا بتلخيص معانيها ونشرها مع الخطب.

**م ـ هدايا ثمينة:**

ومن لطائف الاتفاق أنه خطر لبعض الهيئات تقديم هدية تذكارية للأستاد، ولم تعلم هيئة بما اعتزمت عليه الأخرى من نوع الهدية، فلما قدَّمت الهدايا أمام الجمهور بعد انتهاء الخطابة كان تناسقها مفاجأة مدهشة، وهي محفظة كتب عربية ثمينة قدَّمها وفد تلمسان، وقلم تحبير ثمين معه قلم رصاص قدّمتها هيئة جمعية التربية والتعليم، ونسخة من تفسير المنار قدّمتها هيئة جمعية العلماء، ونسخة من فتح الباري قدمتها لجنة الاحتفال، وكما كانت هذه الهدايا لطيفة في معناها التذكاري وفي رمزها العلمي وفي تناسقها، فقد كان سرور

الأستاذ بها عظيماً ووقعُها في نفسه لطيفاً، ثم تمَّ التناسق ولطف الذوق في حفلة المساء حين قدَّم له تلامذة كشافة الرجاء مصباحاً كهربائياً ظريفاً، وقدَّم له تلاميذه الشاب الغني «زربية» سجادة صلاة.

وفي مساء الثلاثاء اشتركت ثلاث جمعيات علمية وفنية ورياضية في إقامة احتفال زاهر فخم في كلية الشعب ابتهاجاً بضيوف القران. أما الجمعيات فهي جمعية التربية والتعليم وجمعية الشباب الغني الفنية وجمعية كشافة الرجاء الرياضية.

وأما الاحتفال فكان ناجحاً إلى أقصى حدود النجاح مؤثراً إلى أبعد غايات التأثير، ظهرت فيه جمعية «الشباب الغني» ـ على حداثة عهدها ـ بمظهر الكفاءة والتجديد وسلامة الذوق والانسجام بين العازفين في المظهر وبين القطع في المخبر، وقد عزفوا قطعاً مشجية وترنم عليها التلامذة بأناشيد أشجى، حتى لقد رأيت كثيراً من عمار الصفوف الأمامية يبكون تأثراً، وإن أنسى فلا أنسى التلميذين اللذين أنشدا نشيد الترحيب على عزف «البيانو» إنهما لطراز عال في رخمات الصوت وسلامة الأداء وجمال المنطق حفظهما الله وأقرَّ بهما أعين الأمَّة التي تعلق رجاءها على أمثالهما[1].

**ن ـ زاد روحي عظيم:**

إن التطويل في وصف هذه الحفلة يفضية إلى التقصير وخلاصة القول فيها إنها كانت زاداً روحياً قدَّمته قسنطينة لوفودها بعد أن جاوزت الغاية فيما قدمته لهم من أطايب الغذاء البدني، وإن سرَّها وسحرها ليسا اتيتين من الإطراب في العزف والإطراف في الأناشيد والإجادة في التمثيل والاتزان في الحركات، وإنما هما اتيان من شيء آخر وراء هذا كله، هو أمل الأمة في أبنائها، كان صورة في الأذهان ومخيلة في الأدمغة، فرأت منه في هذه الليلة نموذجاً عملياً يبشِّر بتحققه كله، إن الزمان بأحداثه يستطيع أن يمحو من نفوس الوافدين كل ما رأوا وما سمعوا، ولكنه لن يستطع محو شيئين: درس القرآن وهذه الحفلة، وإن الوافدين لا يستطيعون أن يقابلوا

(1) المصدر نفسه ص 57.

إكراماً لقوه من إخوانهم القسنطينيين بمثله أو بأحسن منه، إلا إكرامهم بمثل هذه الحفلة.

وانفضَّ هذا الاحتفال في نهاية الساعة الواحدة بعد نصف الليل بعد أن ختمه الأستاذ بن باديس بكلمة توديع.

من المظاهر التي شاهدها الناس كلهم في هذا الاحتفال سوابقه ولواحقه، الهدوء الشامل، فلم يحدث آية حادثة ولو بسيطة على كثرة الاحتشاد وشدة الازدحام واختناق التعاريج في المدينة وليس مرجع ذلك إلى التنظيم الالي، ففي أدون من هذا الاحتفال نرى الفوضى تطغى على النظام، وطباع السوء لا تنهنه بالزجر وإنما مرجع ذلك إلى التنظيم النفسي وإلى أدب القرآن وقد ملك أزمّة النفوس.

وإن هذا النوع من التربية الدينية هو الذي نريده للأمَّة، وهي تربية كثيرة الفوائد قليلة التكاليف، وقد جُربت فصحّت، فهل من معين لنا على تثبيتها وتعميمها؟

وكأن إدارة الأمن العام بقسنطينة أدركت ذلك فلم نر منها مظاهر الاستعدادات الاستثنائية التي كنا نراها في مثل هذه المشاهد وحسناً فعلت[1].

### 10 . خطبة الأستاذ الإبراهيمي التي ختم بها حفلة التكريم للأستاذ ابن باديس في كلية الشعب:

ارتجل الأستاذ خطبته هذه فلم تصد أقلام الكاتبين من ألفاظها إلا قليلاً مشوشاً لم يحفظ ترابط المعاني بين أجزائها، فألح جماعة من السامعين المعجبين على الأستاذ أن يكتب ما علق بذاكرته من ألفاظها، ويضيف إليها بقلمه ما يربط بين معانيها حرصاً على تخليدها في خطب الاحتفال، فحقق رغبتهم بكتابة ما يراه القارئ منشوراً بعد هذا، وكانت خطبة رائعة مانعة معبرة نقتطف منها الآتي:

(1) المصدر نفسه ص 58.

إن يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم الأغرّ المحجل في تاريخ الجزائر الحديث ولا أبعد إذا قلت إنه اليوم الأغرّ في قرون من تاريخ الإسلام.

هذا هو اليوم الذي يجب أن نؤرّخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا العلمية الدينية، ونؤرخ به لمبدأ ازدهارها وإثمارها ونموّها وإبدارها.

هذا هو اليوم الذي التفت فيه الأمة حول دينها ولغتها فأثبتت أنها أمة مسلمة عربية يأبى لها دينها أن تلين فيه للأعاجم وتأبى لها عربيتها أن تدين فيه للأعاجم[1].

إن الأمة الإسلامية التي يقرأ الناس أخبارها في التاريخ فيقرؤون المدهش المعجب، ويرى الناس اثارها في العلم والتشريع والأدب والحكمة فيرون الطراز العالي البارع، فيستوي المحب والمبغض في الاعتراف بأن أمة هذه أخبارها وهذه اثارها لهي الأمة حق الأمة: إن تلك الأمة ما كانت أمة بذلك المعنى وتلك الأوصاف إلا بالقران.

فالقران هو الذي ربّاها وأدّبها وزكى النفوس وصفّى القرائح وأذكى الفطن وجلّى المواهب وأرهف العزائم وهذب الأفكار وأعلى الهمم واستفزّ الشواعر واستثار القوى وصقل الملكات وقوّى الإرادات ومكّن للخير في النفوس وغرس الإيمان في الأفئدة وملأ القلوب بالرحمة وحفزّ الأيدي للعمل النافع والأرجل للسعي المثمر، ثم ساق هذه القوى على ما في الأرض من شر وباطل وفساد فطهرها منه تطهيراً وعمرها بالخير والحق والصلاح تعميراً[2].

فيا أيها المشفقون على العالم الإنساني أن يأكل بعضه بعضاً، الصحوة بالرجوع إلى الإسلام وكتابه يجد فيهما ظلال السلم وبرد الرحمة وعز القناعة وشرف التقوى ويتمتع من كل ذلك بنعمة السلام.

ويا أيها المسلمون أنتم أطباء هذه المعضلات ولكنكم جاهلون، وأنتم الحكم المرضي في هذه المشكلات

(1) المصدر نفسه ص 61.

(2) المصدر نفسه ص 67.

ولكنكم غائبون، ولو كنتم حاضرين حضور سلفكم لمشاهد العالم ومنازعته العامة لوقفتم .كما وقفوا . بعقائدهم وسطاً بين التناهي والتقصير، وبزكاتهم المرضية حكماً بين الغني والفقير، وبرحمة الإسلام سداً بين الاجر والأجير، وإذاً لزرعتم في طول العالم وعرضه الخير والرحمة وكشفتم عن أقويائه وضعفائه كل كرب وغمّة، وإذاً لرفعتم عن العالم هذه الاصار والأغلال، وفزتم من بين حكمائه وعلمائه بتحقيق نقطة الإشكال.

إن العالم في عذاب وعندكم كنز الرحمة، وإن العالم في احتراب وعندكم منبع السلم، وإن العالم في غمّة من الشك، وعندكم مشرق اليقين، فهل يجمل بكم أن تعطلوه فلا تنتفعوا به ولا تنفعوا[1]؟

طبقوا على أنفسكم جزئية واحدة من إصلاحاته كالزكاة، وأظهروا بها للعالم على صورتها العملية الكاملة وحقيقتها العملية، ثم قفوا بين الصفين لا كموقف عمرو بمصاحفه يوم صفين وأشربوا نفوسهم ما أشربت نفوسكم في معنى قوله تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ *}

ومن معنى قوله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ *}

وأنا الضمين لكم أنهما يتحاجزان ويتسامحان في طرفة عين، إن دينكم دين إصلاح وسبب إصلاح ومظهر إصلاح وكما أوجب عليكم الإصلاح بين المؤمنين مدح الإصلاح بين الناس.

أحبوا قرانكم تحبوا به، حققوه يتحقق وجودكم به، أفيضوا من أسراره على سرائركم، ومن ادابه على نفوسكم، ومن حكمه على عقولكم تكونوا به أطباء ويكن بكم دواء، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *}

(1) المصدر نفسه.

هذه الآية هي دستور الإسلام العام وهذه الآية هي التي نواجه بها كل من رمانا بالتعصب أو بالظلم أو بالأنانية أو بالقسوة، وصدى هذه الآية هو الذي سمعه الناس مردداً في الجامع الأخضر خمساً وعشرين سنة اخرها أمس[1].

**أيها الإخوان:**

تكلم الخطباء والشعراء في المعنى الذي أقيمت لأجله الحفلة، وهو تكريم أخينا الأستاذ عبد الحميد بن باديس وتمجيد أعماله في خدمة الدين والعربية والعلم، وشغلتهم حقوق هذه الحفلة عن حقوق يوم أمس المشهود وأوشكنا أن نضيع واجبه وأن يمر فلا يتغنى بأوصافه لسان، ولعل الأقلام تجفوه تبعاً لذلك فلا يجري في وصفه قلم.

وقد توزعتني الخواطر حين قمت: أأسلك ما سلكه الخطباء والشعراء من تمجيد أخينا بما هو أهله؟ ولو أني جريت في هذا المضمار وأسلس لي الكلام قياده، كان في ذلك الوفاء لأخينا المبجل والجفاء ليومنا الأغر والمحجل، وإن أنا قمت بما يوجبه الوفاء ليوم القرآن قصرت في حق أخ اعتقد أن ما قاله الشعراء والخطباء في حقه قليل، وكيف تفي حفلة مثل هذه محدودة الساعات بتمجيد رجل طوّقت هذا الوطن مننه، فإن قمت ببعض ما يجب للقرآن وليوم القرآن فحسبي في التنويه بأعمال أخي الأستاذ أن هذا اليوم بعض حسناته[2].

وعندما توفي الشيخ محمد رشيد رضا ولم يستطع أن يكمل التفسير، ووصل لسورة يوسف، وطبع الجزء الثاني عشر ثم حل الأجل، فأوجد فجوة واسعة في تاريخ الإسلام وثغرة كبيرة في التفسير الأمثل الذي يعتبر شارحاً لدستور الإسلام وهادياً للأنام في جميع المجالات الدينية والدنيوية، فالتقى الشيخان إثر الوفاة بأسبوع، وتحادث ابن باديس والإبراهيمي على ربوة من جبل تلمسان في إحدى زيارات أولهما للثاني، وكانا في حالة حزن عميق لفقد السيد رشيد رضا وتبادلا مشاعر الأسى والأسف لانقطاع التفسير بموت رشيد رضا صاحب

---

(1) المصدر نفسه ص 68.

(2) المصدر نفسه ص 68.

القدح المعلى، فقال العلامة الإبراهيمي لزميله وصديقه ابن باديس: ليس لإكمال التفسير إلا أنت. وبادله ابن باديس شعوراً بشعور وتقديراً بتقدير، وهما فرسا رهان وبطلا الميدان، وقال الإبراهيمي: حتى لا يكون لي علم رشيد ومكتبة رشيد ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد؟ فقال ابن باديس: إنا لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيراً يغطي على التفاسير من غير احتياج إلى ما ذكرت.

وهكذا عرف هذان العملاقان كل منهما للاخر مقامه ومكانته، وهذا هو شأن العلماء الذين تفخر بهم الأزمان وتقل الفرص لوجود أمثالهما في علمهما وعملهما وتواضعهما، لقد تجدد الأمل في أن يتعاونا على كتابة التفسير الكامل، ولكن العوارض باعدت بين الأمل والعمل ثم حل الأجل[1].

## 11 . كلمة ابن باديس في الاحتفال:

**أيها الإخوان:**

أنتم ضيوف القرآن وهذا اليوم يوم القران، وما أنا إلا خادم القران، فاجتماعكم رغم تنائي الديار وتباعد الأقطار هو نفسه تنويه بفضل القرآن ودعوة جهيرة إلى القرآن في وقت نحن أحوج ما نكون إلى دعوة المسلمين إلى قرائهم، فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالاً بشخصي.

إن أقوال خطبائكم وشعرائكم كلها في الحقيقة إشادة بيوم القرآن ووفود القران، وكل ما لي من فضل في هذا هو أنني كنت السبب فيه.

**أيها الإخوان:**

أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي، وبكل من له يد في تكويني وإن الإنصاف الذي هو خير ما ربى عليه امرؤ نفسه ؛ ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التاريخي العظيم بالتمجيد والتكريم كل العناصر التي كان

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، بأقلام معاصريه ص 104.

لها الأثر في تكويني حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضعيف من ثناء ومدح بالقول والفعل، فإني أشهد الله أنكم بالغتم في التحفي بي والتنويه بأعمالي، وأشهد أن هذا التحفي عسير عليَّ جزاؤه ثقيل على حمله، فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر ووفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التنويه وتقاضت حولها من الثناء الذي أثقلت به كاهلي، فأكون بذلك قد أرضيت ضميري وخففت عن نفسي.

إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي ربَّاني تربية صالحة، ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشرباً أرده وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم، وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً وكفاني كلف الحياة، فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر، ولأكل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يضيع جزاء العاملين، ثم لمشايخي الذين علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه، وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية، وهما ـ من مشائخي ـ اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي ـ إلى التربية والتثقيف والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة، أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله.

وإني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهداً عهد به إليَّ، وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدَّد عليَّ أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت.

وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية، وذلك أنني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام اراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله، فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي:

اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة وهذه الاراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح، فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني افاقاً واسعة لا عهد لي بها ثم لإخواني العلماء الأفاضل الذين ازروني في العمل من فجر النهضة إلى الآن.

فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الإسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم مؤتلفة القصد والاتجاه مخلصة النية متينة العزائم متحابة في الحق مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية ؛ قد ألف بينها العلم والعمل ـ مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار فهؤلاء هم الذين وري بهم زنادي وتأثل بطارفهم تلادي، أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم، ثم لهذه الأمة الكريمة المعاونة على الخير المنطوية على أصول الكمال ذات النسب العربي في الفضائل والحسب العريض في المحامد.

هذه الأمة التي ما عملت يوماً ـ علم الله ـ لإرضائها وإنما عملت وما أزال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها وهويتها، ولكن الله سددها في الفهم وأرشدها إلى صواب الرأي فتبينت قصدي على وجهه وأعمالي على حقيقتها، فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلذات أكبادها، فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العلمي، ثم الفضل أولاً وأخيراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب بادابه. وإن القرآن الذي كوَّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوِّن رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه.

**أيها الإخوان:**

إذا لم يكن في حياتي العلمية من لافت للقران إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي إلى الدرجة التي تحمدونها اليوم ؛ فإننا ـ والحمد لله ـ نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا

وجهودها، وإن أعز ما وصلنا إليه هو تبين الغاية وتلاقي الجهود. وفقنا الله وإياكم للأعمال الصالحة ورزقنا الإخلاص فيها والثبات عليها إنه سميع مجيب[1].

ومن الكلمات التي ألقاها في ذلك الاحتفال:

**أيها الإخوان:**

الإسلام دين الحياة والعلم والفن، والحياة قوة وإيمان وجمال، والعلم يمثل القوة، والفن يمثل الجمال، وبهذا تحتفل بكم ـ يا ضيوف القرآن ـ جمعيات قسنطينة الحيوية التي تمثل القوة والإيمان والجمال.

**أيها الإخوان:**

إذا كنت أستمد القوة والحياة فإنما أستمدها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني ولأمتي، وأخص منهم الأسود الكبار، وهم إخواني الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفاً إلا وجدتهم معي كالأسود، وأما الأشبال الصغار فهؤلاء الأبناء الذين تشاهدونهم يحتفلون بكم الليلة، ولقد جاءت قسنطينة تحييكم بكبارها وصغارها، فذكراكم يا ضيوف القرآن خالدة وهي منقوشة في قلبي لا تفنى ولا تنمحي، إنني أعاهدكم على أن أقضي بياضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما وإنها لواجبات وإِنِّي سأقصر حياتي على الإسلام والقران ولغة الإسلام والقران، هذا عهدي لكم.

وأطلب منكم شيئاً واحداً هو أن تموتوا على الإسلام والقران ولغة الإسلام والقران.

أنا زارع محبة، ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان، من كل جنس من كل دين.

فاعملوا للأخوّة ولكن مع كل من يعمل للأخوّة فبذلك تكون الأخوّة صادقة[2].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 142).

(2) المصدر نفسه (2 / 144).

لقد عشت في هذا الاحتفال بقلبي وروحي ومشاعري وأحاسيسي، ويا لها من روعة وجمال وعظمة، في العطاء والبذل وتحدي الصعاب والقوى الاستعمارية الغاشمة.

كان ذلك الاحتفال إيذاناً من ابن باديس وعلماء الجزائر بأن المرجعية أصبحت واضحة والهوية لا يمكن تغييرها ووجود المستعمر ما هو إلا قضية وقت فقد أذن الله بزواله ورحيله وأن إرادة الشعب الجزائري ستنتصر على المحتل الغازي لا محالة.

### ثانياً: الاهتمام بالسنة النبوية:

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس شديد الاحتفاء بالسنة النبوية الشريفة، يرى بأن الاحتفاء بالسنة والاشتغال بعلوم الحديث من العلامات البارزة للحركة الإصلاحية التي أقام دعائمها، ووطد بنيانها، ووصل ليله بنهاره وبياضه بسواده، من أجل التمكين لها والذود عنها، تقرباً إلى الله وخدمة للأمة، ولذلك كان كثير الدعوة إلى الاقتصار على الصحيح من المرويات، ومحاربة الضعيف، وعدم روايته إلا مع بيان رتبته، لتحذير الأمة منه ومحاربة الاثار السيئة التي يتركها الحديث الضعيف . عند رواجه في عموم الناس . على مستوى الفكر والاعتقاد والعلوم والسلوك[1].

يقول رحمه الله تعالى: تقوم الدعوة الإصلاحية على أساس من الكتاب والسنة، فلا جرم كان رجالها من المعتنين بالسنة، القائمين عليها رواية ودراية، الناشرين لها بين الناس، ومن عنايتهم تحرّيهم فيما يستدلون به ويستندون إليه منها، فلا يجوز عليهم إلا ما يصلح للاستدلال والاستناد، ولا يذكرون منها شيئاً إلا مع بيان مخرجه ورتبته حتى يكون الواقف على بينة مما لو التزمه كل عالم كما هو الواجب ؛ لما راجت الموضوعات والواهيات بين الناس فأفسدت عليهم كثيراً من العقائد والأعمال[2].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 388).

(2) المصدر نفسه.

وإيماناً من الشيخ عبد الحميد بن باديس بمكانة السنة النبوية الشريفة في العملية التربوية، فقد جعلها مادة رئيسية وأساسية في البرنامج الدراسي والمقرر التعليمي لتلاميذه وطلابه، ففي البرنامج التعليمي الذي أعلنت عنه «الصراط السوي» لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي تضمن برنامج الدروس العلمية جاء ما يلي: تشتمل الدروس العلمية على التفسير للكتاب الحكيم وتجويده وعلى الحديث الشريف[1].

وفي التقرير الذي نشرته جريدة البصائر الغراء، عن التعليم المسجدي والحركة التعليمية بالجامع الأخضر[2].

والذي تعرض إلى العلوم التي تدرس فذكر «التفسير الحديث»، وهكذا نرى بأن ابن باديس يرى بأن الطالب الذي يعده للتغيير الإسلامي المنشود لابد وأن يكون قد أخذ حظه من الثقافة الحديثية إيماناً منه بأن السنة النبوية الشريفة مصدر أساسي لفهم الإسلام الفهم الصحيح، وبالتالي للوصول إلى تطبيقه التطبيق السليم، وطالب العلم الشرعي ما لم يأخذ حظه الكبير من السنة، وما لم يتضلع في علوم الحديث فإن فهمه للإسلام سيكون فهماً قاصراً أو منحرفاً قائماً على النقص من هذا الدين أو الزيادة فيه وكلاهما فهم يجر إلى أوخم العواقب وأسوأ النتائج.

ولما كان علم «مصطلح الحديث» بمثابة المدخل الطبيعي لعلوم السنة، ذلك: أنه مجموعة من المباحث والمسائل يعرف بها حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد[3]، فقد قرره على تلاميذه إلى جانب اهتمامه بالمصطلح، فإنه - أي الشيخ عبد الحميد بن باديس - قد اهتم بعلم الرواية الذي يقوم على النقل المحرر الدقيق لكل ما أضيف إلى النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ولكل ما أضيف من ذلك إلى الصحابة

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 68).

(2) المصدر نفسه (4 / 100).

(3) تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ص 3 - 4.

والتابعين على الرأي المختار(1).

ولما كانت دواوين السنة كثيرة ومراجعها متعددة، فهناك الصحيحان وهناك الجوامع والمسانيد والمعاجم والمستدركات والمستخرجات والأجزاء.

ولكن تبقى كتب السنة وهي البخاري ومسلم، وسُنن أبي داود، والترمذي والنسائي وابن ماجه على قول أو موطأ الإمام مالك على قول ثان ؛ في المحل الأرفع والمكان الأول، ولكل كتاب من هذه الكتب ميزة خاصة فالبخاري بالفقه ومسلم بإيراد كل الروايات والطرق للحديث، والترمذي يُعنى بالحديث، وأبو داود حصر أحاديث الأحكام، وابن ماجه حسن التبويب في الفقه، وأما النسائي فقد توافرت له أكثر هذه المزايا.

ولكن السيد عبد الحميد بن باديس، اختار من بين هذه المدونات والمصنفات موطأ الإمام مالك بن أنس وذلك لجملة من الاعتبارات والأسباب منها:

ـ نفي التهمة التي كان أعداء الإصلاح، وخصوم ابن باديس ـ رحمه الله ـ يرفعونها في وجهه وهي أنه صاحب فكر دخيل، لم يحترم فيه المرجعية التي كانت سائدة في هذه الديار، ويحدثنا الشيخ ابن باديس ـ رحمه الله ـ عن ذلك بقوله في مقاله بعنوان «عبداويون» ثم «وهابيون» ثم ماذا؟ لا ندري والله.

وأخذنا نحث على تعلم جميع العلوم باللسان العربي والفرنسي، ونحبب الناس في فهم القران، وندعو الطلبة إلى الفكر والنظر في الفروع الفقهية والعمل على ربطها بأدلتها الشرعية، ونرغبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين. لما قمنا بهذا وأعلناه قامت علينا وعلى من وافقنا قيامة أهل الجمود والركود وصاروا يدعوننا للتنفير والحط منَّا «عبداويين» ـ دون أن أكون ـ والله ـ يوم جئت قسنطينة قرأت كتب الشيخ محمد عبده إلا القليل، فلم نلتفت إلى قولهم، ولم نكترث لإنكارهم، على كثرة سوادهم وشدة مكرهم وعظيم كيدهم..

(1) علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح ص 107.

فلما كملت العشر سنوات وظهرت ـ بحمد الله ـ نتيجتها رأينا واجباً علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلىالإسلام الخالص، والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة وهدي صالح سلف الأمة، وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات، فكان لزاماً أن نؤسس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس، فكان المنتقد، وكان الشهاب، ونهض كُتَّاب القطر ومفكروه في تلك الصحف بالدعوة خير قيام، وفتحوا بكتاب وسنة رسوله ـ (ص) ـ أعيناً عمياً، وأذاناً صمَّاً، وقلوبنا غلفاً، وكانت هذه المرة غضبة الباطل أشد، ونطاق فتنته أوسع، وسواد أتباعه أكثر وتمالأ على دعاة الحق الجمود والبدعة، وعليها بنيت صروح من الجاه، ومنها جرت أنهار من المال، وأصبحت الجماعة الداعية إلى الله يُدعون من الداعين إلى أنفسهم «الوهابيين». ولا والله ما كنت أملك يومئذ كتاباً واحداً لابن عبد الوهاب، ولا أعرف من ترجمة حياته إلا القليل، والله ما اشتريت كتاباً واحداً من كتبه إلى اليوم وإنما هي أفيكات قوم يهرفون بما لا يعرفون، يحاولون من إطفاء نور الله ما لا يستطيعون وسنعرض عنهم اليوم وهم يدعوننا «وهابيين» كما أعرضنا عنهم بالأمس وهم يدعوننا «عبداويين» ولنا أسوة بمواقف أمثالنا مع أمثالهم من الماضين[1].

ـ أما السبب الثاني فهو القيمة العلمية للموطأ، فهو كتاب حديث ورواية، وهو كتاب فقه ودراية، فقد اعتنى فيه صاحبه بالمرويات، ووضع لتحقيق ذلك منهجاً دقيقاً متقناً، يدل على إمامته في هذا الفن، وهو أمر أطبقت عليه شهادات المحدثين، قال الإمام الذهبي: اتفاق الأمة على أنه حجة الرواية[2].

كما اعتبر الإمام البخاري ـ صاحب الصحيح ـ أن أصح الأسانيد على الإطلاق هو: مالك عن نافع عن ابن عمر، ويذهب أبو داود صاحب السنن إلى أن أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر، ثم مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه، ثم مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: روى الترمذي في آخر سننه

(1) ابن باديس حياته وآثاره (5 / 102 ـ 103).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس ، د. محمد الدراجي ص 106.

عن يحي بن سعيد القطان أنه قال: ما في القوم أحد أصح حديثاً من مالك بن أنس. كان مالك إماماً في الحديث، وهو إلى جانب إمامته في الحديث، كان إماماً في الفقه والاجتهاد، ولذلك لم يقتصر في كتابه الموطأ على جمع الأحاديث التي صحت عنده فقط كما فعل أصحاب السنن بعده، وإنما أضاف إلى جمع الفقه المدني، والأساس الذي قام عليه ذلك الفقه من السنن والاثار واجتهادات الصحابة وفتاواهم وما جري به العمل عندهم، واراء التابعين ثم اجتهاداته هو، وهو الفقيه الذي شهد له كبار الأئمة، بعلو كعبه في الفقه وأنَّه من أئمة الشأن في الاجتهاد، فهذا الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: إذا ذكر العلماء فمالك النجم. ويقول: كذلك مالك أستاذي ولا أحد أمنّ علي في العلم من مالك، ومالك حجة بيني وبين الله.

ومن هنا كان الموطأ كتاباً في الفقه والحديث معاً وكان له مكانة لم تتوفر لأي كتاب اخر، قال الشافعي: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك.

وقال أبو بكر بن العربي في شرحه للترمذي: «الموطأ» هو الأصل الأول واللباب وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب وعليهما بني الجميع.

ولذا أقبلت الأمة عليه، واعتنى العلماء به حتى قال القاضي عياض في المدارك: لم يعتن بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ.

ـ وهناك سبب ثالث في نظري، لاهتمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بالموطأ للإمام مالك، وهو تأثر هذا الأخير بعالمين جليلين من علماء الأندلس وهما ابن عبد البر المتوفي 493هـ وأبو بكر بن العربي 543هـ، وكلاهما له إعتناء بالموطأ وإحتفاء به، إذ شرحه الأول بشرح مستفيض، حافل بالفوائد وسماه بـ «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد».

وشرحه الثاني شرحاً وافياً وعنوانه: بـ «القبس شرح موطأ مالك بن أنس».

وكان الشيخ ابن باديس يملك نسخة من القبس وأخبرأنها كاملة، وقد بذل جهداً لكي يخرجها لكن المنية عاجلته، فقال في ترجمته لابن العربي: وصنف في غير فن تصانيف مليحة كثيرة مفيدة منها.. وكتاب المسالك

في شرح موطأ مالك: منه نسخة في مكتبة الجزائر بها نقص، وعندنا منه جزء فيه ما يكمل ذلك النقص:

تلك هي أهم العوامل التي كانت وراء اهتمام ابن باديس بالموطأ، والتي يمكن ردها إلى سبب رئيسي وهو أن الشيخ ابن باديس وجد في الطريقة التي اتبعها الإمام مالك رحمه الله المنهجية المثلى في تكوين العالم الجامع بين الفقه والحديث وبين الرواية والدراية، فعبر عن ذلك بقوله: «وإذا رجعت إلى موطأ مالك سيد أتباع التابعين، فإنك تجده في بيان الدين قد بنى أمره على الآيات القرآنية وما صح عنده من قول النبي (ص) وفعله وما كان من عمل أصحابه الذي يؤخذ منه ما استقر عليه الحال آخر حياته»[1].

لذا اهتم الشيخ عبد الحميد بن باديس بالموطأ للإمام مالك وانبرى لتدريسه على الطريقة السلفية، لطلابه في الجامع الأخضر، وختمه كله في فترة ناهزت على خمس عشرة سنة وأقيم بالمناسبة حفل مشهود[2].

وقد دعي العلماء والأدباء والأعيان لحضور حفل الاختتام الذي كان يوم 12 ربيع الثاني 1358هـ الموافق لفاتح جوان 1939م، وقد تقاطرت الوفود لحضور هذا الحفل الذي تبارى سكان قسنطينة كعادتهم في الاحتفاء بالوافدين وحسن ضيافتهم، وقد وصف الشيخ الجيلاني بن محمد، أحد طلبة الشيخ هذا الاحتفال وصفاً رائعاً ودقيقاً نشر في الشهاب[3].

### 1 . السنة النبوية مصدر للدعوة:

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس يحمل رؤيتة الشمولية عن الدعوة إلى الله عز وجل، فكتب عند تفسيره، لقوله تعالى: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [يوسف : 108] كلاماً نفيساً عن الدعوة إلى الله كيف تكون، وعن ماهية الدعوة فقال رحمه الله: فمن الدعوة إلى الله: دروس العلوم مما يفقه في دين الله ويعرف بعظمة الله واثار قدرته ويدل على رحمة

(1) المصدر نفسه (4 / 75).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس د. محمد الدراجي ص 108.

(3) إمام الجزائر ص 280.

الله، وأنواع نعمته، فالفقيه الذي يبين حكم الله وحكمته داع إلى الله، والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنفعته داع إلى الله، ومثلهما كل مبين في كل علم وعمل.

ومن الدعوة إلى الله: بيان حجج الإسلام ودفع الشبه عنه ونشر محاسنه بين الأجانب ليدخلوا فيه وبين مزعزعي العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه.

ـ ومن الدعوة إلى الله: مجالس الوعظ والإرشاد والتذكير لتعريف المسلمين بدينهم وتربيتهم في عقائدهم وأعمالهم على ما جاء به، وتحبيبهم بيان ما فيه من خير وسعادة لهم، وتحذيرهم مما أدخل من محدثات عليه وهي سبب كل شقاوة وشر لحقهم، وبيان أنه لولا عقيدته المتأصلة فيهم وبقاياه الباقية لديهم ومظاهره القائمة بهم ؛ لما بقيت لهم ـ وهم المجردون من كل قوة ـ بقية ولتلاشعت أشلاؤهم ـ وهم أموات ـ في الأمم الحية.

ـ ومن الدعوة إلى الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتب الاستطاعة، فيجب باليد وإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب وهو أضعف الإيمان وأقل الأعمال في هذا المقام.

ومن الدعوة إلى الله: ظهور المسلمين ـ أفراداً وجماعات ـ بما في دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة، وعلم وعمل، وصدق وأمانة، فذلك أعظم مرغِّب للأجانب في الإسلام، كما كان ضده أعظم منفِّر لهم منه، وما انتشر الإسلام أول مرة بين الأمم إلا لأن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال كما يدعون بالقول، وما زالت الأعمال غباراً على الأقوال.

ومن الدعوة إلى الله بعث البعثات إلى الأمم غير المسلمة ونشر الكتب بألسنتها وبعث المرشدين إلى عوام الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم.

كل هذا من الدعوة إلى الله ثابتة أصوله في سنة النبي (ص) وسنة السلف الصالح من بعده[1].

وقد وجد الشيخ ابن باديس ـ رحمه الله ـ في السنة النبوية الشريفة القولية والفعلية والتقريرية مصدراً متميزاً ومادة حيوية في عمله الدعوي، فكان كثير العودة إلى السنة النبوية إذا أراد أن يحارب فكرة خاطئة أو يصحح وضعاً شاذاً، أو يدعو المسلمين إلى أمر جديد نافع، وأنه بهذا العمل كان يقوم بدور التأسيس والتأصيل لما يدعو إليه، ولأنه كان يعلم علم اليقين بأن عموم المسلمين، لما يؤصل لهم ما يدعوهم إليه ؛ فإنه يكون أدعى للقبول عندهم ومن الأمثلة على ذلك:

**أ ـ حق النساء في التعلم:**

لقد أدرك ابن باديس رحمه الله أنه لا يمكن إحداث تغيير في الأعراف والعادات الجاهلية، وهي أعراف نافذة، وعادات محكمة ؛ ليس من اليسير تجاوزها أو العمل بخلافها، لأن أعداء الفكرة يهيجون العوام ضد الرجل وفكره، فلم يجد الشيخ ابن باديس فرصة مواتية للدعوة إلى تغيير هذا الواقع البئيس أحسن من الاستناد إلى سنة النبي (ص).

فأورد حديث البخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالت النساء للنبي (ص): غلبنا عليك الرجال اجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن، ما منكن امرأة تقدم ثلاثاً من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار. فقالت إمرأة واثنين؟ قال واثنين[2].

ودعا صراحة إلى تعليم المرأة، لأن المجتمع لا ينهض إلا بالجنسيين معاً، مثل الطائر لا يطير إلا بجناحيه معاً، فقال: النساء شقائق الرجال في التكليف، فمن الواجب تعليمهن، وقد علمهن (ص) وأقرهن على طلب التعليم[3].

(1) المصدر نفسه.

(2) صحيح البخاري، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة.

(3) آثار الإمام عبد الحميد (2 / 158).

وقال في موضع آخر داعياً المرأة: فاستناداً إلى هذه الأدلة وسيراً على ما استفاض في تاريخ الأمة من العالمات الكاتبات الكثيرات ؛ وعلينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم[1].

ولم يكتف رحمه الله بالدعوة إلى تعليم المرأة، بل دعا صراحة إلى خروجها إلى المساجد، لتشهد الخير وتتفقه في الدين، وتكون معولاً للبناء، وأداة للإصلاح في المجتمع، فأورد حديث مسلم في صحيحه بسنده عن سالم ابن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: لا تمنعوا نساءكم المساجدإذا استأذنّكم إليها، قال: فقال: بلال بن عبد الله. والله لنمنعهن قال فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سباً سيئاً ما سمعت سبَّة مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم وتقول: والله لنمنعهن[2].

ثم كتب يؤكد بأن خروج النساء إلى المساجد، أمر ثابت بالسنة العملية والقولية، لكن بجملة من الشروط والضوابط التي وضحها أهلم العلم في مواضعها من البحث، وأن الواجب في حق المسلم ألا يعارض أمراً ثبت أنه من الدين، وشهدت له الأدلة الشرعية: هذا الذي وقع من بلال كثيراً ما يقع مثله أو نحوه من أهل الجهل أو البدعة الذين شبوا عليها وشاخوا حتى صارت البدعة عندهم سنة وصدوا ونفروا وأبوا واستكبروا وصارحوا بالمخالفة أو سكتوا وأضمروا الخلاف وما هذا شأن المؤمنين، فحذار إذا سمعت حكماً شرعياً أو نصاً قرانياً أو حديثاً صحيحاً نبوياً أن تقابل بالخلاف أو تضمر الخلاف، بل انشرح بذلك صدراً، ولا يكن في صدرك من

(1) عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره (2 / 161).

(2) صحيح مسلم، انظر نيل الأوطار (4 / 11).

حرج مما قضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً[1].

## 2 . السنة النبوية مصدر للفقه والتشريع والعمل على وصل الفقه بالحديث:

كتب ابن باديس يقول: وإذا رجعت إلى موطأ مالك سيد أتباع التابعين، فإنك تجده في بيان الدين قد بنى أمره على الآيات القرانية، وما صح عنده من قول النبي (ص) وفعله، وما كان من عمل أصحابه الذي يؤخذ منه ما استقر عليه الحال آخر حياته، لأنهم كانوا يأخذون بالأحداث والأحداث من أمره وكذلك إذا رجعت إلى كتاب الأم لتلميذ مالك الإمام الشافعي، فإنك تجده قد بنى فقهه على الكتاب وما ثبت عنده من السنة.

وهكذا كان التعلم والتعليم في القرون الفضلى مبناهما على التفقه في القرآن والسنة.

هذا هو التعليم الديني السني السلفي، فأين منه تعليمنا نحن اليوم وقبل اليوم منذ قرون وقرون؟ فقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوماً منزلة القرآن من تعلم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك.

هذا في جامع الزيتونة فدع عنك الحديث عن غيره مما هو دونه بعد مد المراحل[2].

وعليه، فلقد كان من الطبيعي أن يغتنم الشيخ عبد الحميد بن باديس فرصة شرحه للسنة النبوية الشريفة، لمد جسور التواصل بين علمي الحديث والفقه والرجوع بالتعليم إلى ما كان عليه من عهوده الزاهرة منطلقاً من

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 177).

(2) المصدر نفسه (4 / 76).

التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالأصول، وبالتالي التحرر من ربقة التقليد والتعصب[1].

### أ . أعنِّي على نفسك بكثرة السجود:

روى مسلم واللفظ له وأبو داوود والطبراني في الكبير، قال ربيعة بن كعب الأسلمي كنت أبيت مع رسول الله (ص)، فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: سل، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود[2]، وبعد أن شرح هذا الحديث من حيث الألفاظ والتراكيب والمعنى المستفاد منه راح يعدد الأحكام التي يتضمنها فذكر[3]:

. جواز قبول التبرع بالخدمة وخصوصاً لأهل المقامات العامة في مصالح الناس.

. فضل القيام من جوف الليل.

. سنة مكافأة المحسن على إحسانه.

. فيه مشروعية سؤال الدعاء وخصوصاً ممن ترجى له الاستجابة.

. وفيه عدم الاكتفاء بالدعاء وحده عن التوسل بالطاعات ونوافل الخيرات.

. وفيه فضل السجود والحث عليه.

. وفيه دليل لمن يقول بأفضلية كثرة السجود على طول القيام[4].

### ب . إنما الأعمال بالنيات:

وعند شرحه لحديث الصحيحين: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرأئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

---

(1) الشيخ عبد الحميد السلفية والتجديد ص 119.

(2) رواه مسلم وأبو داوود والطبراني.

(3) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 51).

(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 119.

قسم الأعمال إلى طاعات ومخالفات:

والطاعات بقسميها «الوجوب والاستحباب» تؤثر فيها النية بالقبول والرد، وكذلك المباحات فإنما تؤثر فيها النيات فتقلبها طاعة أو معصية. وأما المخالفات وهي كل ما نهى الله عنه فحرمه أو كرهه، فهذه لا تؤثر فيها النيات ولا تقلبها إلى طاعات، لأنها في نفسها عمل غيرصالح، فقصد الشارع إلى تركها وعدم وجودها، فإذا وجده المكلف يكون قد عمل بنقيض مقصود الشارع.

وعلق على هذا الحديث فقال: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرأئ ما نوى . قاصدين إلى تبريرها غير ملتفتين إلى كونها من قسم الطاعات أو المخالفات أو المباحات، وكثيراً ما يرتكبون البدع كدعاء المخلوقات وكالحج إلى الأضرحة وإيقاد الشموع عليها والنذر لها، وكالرقص وضرب الدف في بيوت الله وغير هذا من أنواع البدع والمنكرات ويتوكؤون في ذلك كله على: إنما الأعمال بالنيات. كلا ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب فإن البدع كلها من قسم المخالفات وإن المخالفات لا تنقلب طاعات بالنيات[1].

### 3. منهجه في شرح الحديث النبوي الشريف:

لقد اتبع الشيخ عبد الحميد بن باديس في عرض الأحاديث طريقة اتسمت بالوضوح، وقوة الإقناع، تقود في النهاية إلى إقناع العقل وإشباع الوجدان ذلك أنه اتبع جملة من الخطوات، كل خطوة منها يبنى عليها اللاحق وتوضح السابق، بعناوين فرعية تساعد القارئ على حسن الاتباع وسلامة الاستنتاج، فلا يسعه في خاتمة القراءة إلا أن يكوِّن فكرة صحيحة عن الموضوع المراد بحثه.

فكان ـ رحمه الله ـ يذكر نص الحديث الشريف ومصدره وراويه، ثم يشرح الألفاظ ويحلل التراكيب ويبين المعاني، ثم يجتهد رحمه الله في استخلاص دروس حية وغير مفيدة وعظات بالغة وحكم وأحكام يوجهها

(1) المصدر نفسه ص 120.

توجيهاً اجتماعياً لصالح أفراد المسلمين وجماعاتهم[1].

وكان ابن باديس يهتم بالمباحث الإسنادية عند تعرضه لشرح الحديث النبوي اهتماماً كبيراً، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق هدفين:

ـ **أولها**: طمأنة القارئ بأن الحديث الذي يشرحه الشيخ يستنبط منه الأحكام والحكم حديث صحيح، ومتوفر على مواصفات القبول.

ـ **ثانيهما**: تدريب الطلاب والدارسين على دراسة الأسانيد ومعرفة الرجال، وكيفية التصحيح والتضعيف. ولم يلتزم ابن باديس طريقة واحدة في إيراد الحديث وسنده، فهو في الغالب الأعم يقتصر من رجال السند على ذكر الصحابي الجليل الذي روى الحديث عن رسول الله (ص)، ثم إنه لم يلتزم طريقة واحدة فهو يذكر متن الحديث أولاً[2]، ومن رواه من الأئمة، ثم يذكر الصحابي وكان يترجم للصحابي ترجمة موجزة قبل شرح الحديث. وأما من خرَّج الحديث، فإن القارئ لمقالات الشيخ عبد الحميد بن باديس يلاحظ بأنه لم يكن يذكر جميع من خرج الحديث، وإنما يكتفي بذكر البخاري أو مسلم إذا كان الحديث من تخريجهما مع بيان اللفظ، لمن هو؟ هل هو للبخاري أو مسلم؟ وقلما يذكر غيرهما من أئمة السنة.

أما إذا كان الحديث من تخريج غيرهما فإنه إما أن يقول رواه الأئمة أو أصحاب السنن أو رواه مالك في الموطأ ويورد السند كاملاً، وأمَّا إذا كان من رواية أصحاب السنن، فإنه يذكر من خرَّجه فهو مثلاً يقول رواه الترمذي وغيره وقال حسن صحيح[3]، أو رواه أبو داوود ثم يعلق: رجاله رجال الصحيح إلا إبراهيم بن مهدي البغدادي فلم يخرج له فيهما ولكنه ثقة ، وثقة أبو حاتم وابن نافع وابن حبان وقد تابعه غيره . وأحياناً نجد

(1) المصدر نفسه ص 123.

(2) المصدر نفسه ص 124.

(3) آثار الإمام ابن باديس (2 / 124).

العلامة ابن باديس يستفيض في الدراسة الإسنادية ويذكر كل من خرج الحديث ويحكم على الحديث ببيان رتبته من الصحة[1].

**أ. الألفاظ والتراكيب:**

لقد كان من منهج الشيخ عبد الحميد بن باديس . رحمه الله . في شرح الحديث النبوي الشريف، أنه بعد الدراسة الإسنادية، يشرع في شرح ألفاظ الحديث شرحاً لغوياً بسيطاً، يبرز معانيها من الأذهان، واستقرارها في الوجدان وكأنه كان يراعي أنه يكتب مقالات علمية في افتتاحيات لجريدته «الشهاب»، فلم يكن ينقل عن دواوين اللغة، وقلما يتعرض إلى المباحث الاشتقاقية والصرفية، بل وقلما يستشهد لذلك بالشواهد.

مثال ذلك:

«الأعمال»: هي الأفعال التي تصدر عن الجوارح فتدخل فيها الأقوال، والغالب أن الأعمال أخص من الأفعال، فهذه فيما كان قصد وغيره وتلك فيها كان عن قصد.

(النية) هي القصد إلى الفعل، (الهجرة) الترك والمراد هنا مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام خوف الفتنة على الدين بالمنع من إقامته (يصيبها) يحصل عليها، ينكحها (يتزوجها)[2].

وبعد شرحه للألفاظ وتبسيطها، كان يتعدى ذلك إلى التراكيب، فيتعرض إلى قواعد اللغة ومباحث الإعراب ويتوقف مع نكات البلاغة، ودقائق البيان يستعين بهما على توضيح المعاني وبسط الأفكار، لكن لا يتوسع في ذلك ولا يغرق في تلك المباحث، وإنما بقدر ما يتوضح المعنى وتبرز جماليات النص.

وفي النموذج الاتي ما يوضح ذلك ففي شرحه لحديث مسلم واللفظ له وأبي داود، والطبراني في الكبير، عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله (ص)، فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: سل؟ فقلت: أسأل مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود.

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 125.

(2) المصدر نفسه ص 131.

تعرض إلى التراكيب فقال: حذف مفعول (سل) للتعميم وهو المناسب لمقام الإفضال في النوال.

غير: معطوف على مرافقتك من عطف لفظ في كلام على لفظ في كلام آخر عندما يقصد المتكلم ربط كلامه بكلام المتكلم قبله لنحو تلقين فيكون مجموع الكلام هكذا: أسألك مرافقتك في الجنة أو غير ذلك؟

والكلام إن كان كافٍ خبراً فهو في قوة الطلب ولذلك كانت أو للتخيير هذا كله على وجه أو التي للتخيير.

وأما إذا كانت للإضراب فتقدير الكلام، بل اسأل غير ذلك، وأما إذا كانت الهمزة للاستفهام فإن الواو عطفت جملة على جملة وتقدير الكلام، تترك ما سألت وتسأل غير ذلك، والاستفهام هنا المراد به الطلب، يطلب منه أن يترك سؤال المرافقة ويسأل غيره.

هو ذاك: تفيد الحصر، أي مسؤولي هو المرافقة لا غير.

فلقد تعرض الشيخ رحمه الله إلى جملة من القواعد النحوية والبلاغية واستعان بها في حسن فهم النص النبوي وأهمها:

. قاعدة حذف المعمول للدلالة على العموم.

ـ قاعدة عطف اللفظ في كلام على لفظ في كلام اخر. يقصد من خلال ذلك المتكلم ربط كلامه بالكلام المتقدم قبله لغرض صحيح كالتلقين.

. ورود الكلام على صيغة الخبر لكن المقصود منه الإنشاء والطلب.

. المعاني المختلفة للحرف «أو» فهو يأتي للتخيير وللإضراب وهكذا.

. ورود الاستفهام بمعنى الطلب.

ـ تعريف الطرفين يفيد الحصر[1].

**ب ـ المعنى الإجمالي للحديث:**

بعد كل الخطوات التي تقدم ذكرها، تأتي مرحلة تحديد المعنى الإجمالي للنص النبوي الشريف، فكان رحمه الله، يعمد إلى تبسيط أفكاره وشرح معانيه بجمل بسيطة، وأسلوب واضح مركز بحيث يجعل القارئ يستوعب أهم المعاني والأفكار التي تضمنها النص.

انظر إليه مثلاً وهو يشرح الحديث الذي رواه الأئمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص): تحاج ادم وموسى، فحج ادم موسى قال له موسى: أنت ادم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال له ادم: أنت موسى الذي أعطاك الله علم كل شيء واصطفاك على الناس برسالته؟ قال نعم. قال أفتلومني على أمر قد قدر علي قبل أن أخلق؟

فقال: المعنى: التقى هذان النبيَّان الكريمان التقاء روحياً في العالم العلوي، فوجه موسى إلى ادم لومه على ما كان منه من الأكل من الشجرة والمخالفة مما أدى إلى إخراجه من الجنة فنسل ذريته بالأرض فكان سبباً في خروجهم إليها، وتمكنت منهم الشياطين في دار التكليف فأغوت وأضلت منهم وكان ذلك كله بسببه فدفع ادم هذا اللوم بأن ما كان مقدراً عليه قبل أن يخلق، فلا لوم عليه فيه، إذ لا دخل له في التقدير. وعرض ادم لموسى بأنه ما كان ينبغي له أن يكون منه هذا اللوم على المقدر مع علو مقامه بالعلم والاصطفاء، فغلب ادم موسى وقامت حجته عليه[2].

**ج ـ الأحكام والفوائد والاستنباط:**

إن الأستاذ ابن باديس لم يوجه عنايته ويقصر اهتمامه على الجوانب الفقهية والتشريعية، بل تجاوز ذلك إلى القضايا النفسية الاجتماعية ، بل والسياسية والحضارية . ذلك أن الهدف من وراء شرح السنة عنده هو

(1) المصدر نفسه ص 133.

(2) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

علاج مشكلات الأمة على جميع المستويات من خلال رصد مواطن الخلل، ومظاهر القصور، ووصف الحلول الناجعة لذلك كله من السنة النبوية الشريفة.

فخلال شرحه لحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر[1].

وأشار إلى أن الحديث يتضمن معنى عظيماً وهو ارتباط كل فرد بأمته ارتباط الجزء بالكل، وعليه فالفرد ينظر إليه في النظر الاجتماعي العام من خلال ما ينظر به إلى أمته، سواء أساواها في المستوى الذي هو فيه من رقي أو انحطاط أم كان أسمى منها أو أدنى، فقيمته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها[2].

وعمل ابن باديس على توجيه كلامه إلى النخب التي تثقفت بالثقافة الغربية وتخرجت في الجامعات الفرنسية، أن تقوم بواجبها تجاه أمتها كاملاً فوجه إليه إليها حديثه فقال: واليوم ـ وقد تجلت لكم الحقيقة علمياً وعملياً ـ عليكم أن تلتفتوا إلى أمتكم فتنشلوها مما هي فيه بما عندكم من خبرة محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية الحقة بين الأمم، وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الإنسانية بإنهاض أمة عظيمة تاريخية من أممها، ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم عن كل أمة وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا ومد اليد إلى كل من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام[3].

وتحدث ابن باديس حديثاً للأمة الجزائرية من خلال الحديث السابق فقال: لا عزة للمسلمين إلا باتحادهم وتعاونهم وإن الاتحاد عمل يبدأ بالأفراد، لينتهي بين الحكومات ورجال السياسة، وأن يعمل الكل

(1) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

(2) آثار الأستاذ الإمام (2 / 103).

(3) آثار ابن باديس (2 / 104).

جاهداً على تفقد البناء وتمتينه حالاً بعد حال، ومحاربة كل مظاهر الاختلال التي تعتوره، والفساد الذي يطرأ عليه(1).

كان ابن باديس يغوص في أعماق النص النبوي، ليستنبط منه جملة من الأحكام التشريعية، والسنن الكونية التي تحكم سير الحضارات، وقيام المدنيات، ثم يعرض واقع الأمة الإسلامية على ذلك كله، ليحدد مدى قرب أو بعد واقع الأمة من النموذج الذي حدده لها القرآن والسنة. ذلك أن الهدف الأسمى من وراء دراسة السنة عند ابن باديس هو بناء الأمة الإسلامية وبذل الجهود للعودة بها إلى المكانة التي حددتها لها السنة(2).

**د . بعض الضوابط لفهم سليم للحديث النبوي الشريف:**

**. فهم السنة النبوية لفهم القرآن:**

إن الشيخ ابن باديس . رحمه الله . كان من العلماء الذين يرون بأن السنة كلها شرح وبيان للقران الكريم، وعليه فلا يمكن أن يفهم شيء منها إلا في ضوء القرآن الكريم، ولذا قال: كان (ص) يذكر بقوله وعمله وهديه وسمته وكان ذلك كله منه على وفق هداية القرآن وحكمه(3).

قال تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *} [المائدة : 15].

عاود التذكير بهذه القاعدة الجليلة، وأن السنة تفهم في دائرة القرآن الكريم وفي ضوء توجيهاته، فقال: محمد (ص) والقران نور وبيان: في هذه الآية وُصف محمد (ص) أنه نور. ووُصف القرآن بأنه مبين، وفي آيات أخرى وُصف القرآن بأنه نور، بقوله: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا} [التغابن : 8].

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 136.

(2) المصدر نفسه ص 137.

(3) الشهاب ج 1 مجلد 5 سنة 1929م.

ووُصف الرسول بأنه مبين: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *} [النحل: 44].

وهذا ليبين لنا الله تعالى أن إظهار النبي (ص) وبيانه وإظهار القرآن وبيانه واحد، ولقد صدقت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي (ص)، فقالت: كان خلقه القرآن.

نستفيد من هذا أولاً ـ أن السنة النبوية والقران الكريم لا يتعارضان ولهذا يردّ خبر الواحد إذا خالف القطعي من القران.

ثانياً: إن فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي (ص)، وفقه حياته (ص) يتوقف على فقه القرآن وفقه الإسلام يتوقف على فقههما[1].

**ـ التتناول الموضوعي للأحاديث والابتعاد عن القراءة الجزئية للنص:**

من أهم القواعد التي كان ابن باديس يراعيها في التعامل مع السنة النبوية الشريفة ويدعو كل قارئ للسنة إلى الأخذ بها، هو التناول الموضوعي للأحاديث أي جمع كل الأحاديث التي وردت في موضوع ما، والاجتهاد في فهم ذلك الموضوع على ضوئها جميعاً، وفهم الحديث الجزئي على ضوء الكليات الواردة وإلا يقع في مطبة القراءة الجزئية للنصوص، الأمر الذي جرَّ الكثير من الويلات والمصائب على الفكر الإسلامي، وشوه الثقافة الإسلامية.

وكمثال على إعماله لهذه القاعدة توجيهه لحديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه البخاري ومسلم وقالت فيه: لو أن رسول الله (ص) رأى ما حدث من النساء لمنعهن المسجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل. الذي عول عليه كثير من الفقهاء في منع النساء من الخروج إلى المساجد، كما كان شائعاً في العصور المتأخرة، حيث حيل بين النساء وبين بيوت الله عز وجل، فحُرمن الفقه في الدين، والخير الكثير، ودفعت الأمة الإسلامية الثمن غالياً من جراء ذلك المنع، فأوضح الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ بأن مراد عائشة

(1) مجالس التذكير ص 54.

رضي الله عنها هو: لأن الذي أحدثنه هو الطيب والزينة، وهو نهى عن منعهن، ونهاهن عن مس الطيب عند إرادة الخروج، فلو رأى ما أحدثن لمنعهن لإخلالهن بالشرط حتى يلتزمنه، ولا يمنعهن منعاً يكون إبطالاً لنهيه الأول من منعهن[1].

إذ جاء في بعض رواياته منع النساء عن مس الطيب إذا أردن الخروج أو يخرجن تفلات: أي غير متطيبات[2].

**. مراعاة الملابسات الزمانية والمكانية:**

ومن القواعد الأساسية في الفهم السليم للسنة النبوية الشريفة، التي أولاها عناية فائقة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله: مراعاة الملابسات الزمانية والمكانية فبمعزل عن معرفة سبب ورود الحديث، وبعيداً عن الأعراف القولية ؛ لا يمكن أن نفهم السنة فهماً سليماً. فأيّ تنزيل للسنة على واقع معين دون الأخذ بعين الاعتبار لهذا الأمر ؛ فإنه يؤدي إلى الوقوع في الحرج ومثال ذلك: بعض الألفاظ التي اكتسبت من خلال التطور معنًى جديداً، فإن تنزيل تلك الألفاظ على المعاني الجديدة المكتسبة، أو فهم الأحاديث الواردة فيها تلك الألفاظ على ضوء المعاني المستجدة، فإنه مسلك معيب يحول دون الوصول إلى الفهم الصحيح للسنة.

وكمثال على هذا الذي نقول لفظ «المكس» الوارد في بعض الأحاديث كحديث أبي داود وغيره: لا يدخل الجنة صاحب مكس[3]. فإنه في أصل الوضع اللغوي هو النقص، ثم أطلق على ما يؤخذ من بائع السلعة ظلماً، والماكس هو اخذ ذلك حتى قال صاحب المصباح المنير: وقد غلب استعمال المكس على ما يأخذه السلطان ظلماً عند البيع والشراء[4]. ولكن هذا مع تطور الزمن أصبح هذا اللفظ يفيد معنى جديداً ،

(1) آثار الأستاذ الشيخ ابن باديس (2 / 176).
(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 141.
(3) سنن أبي داود.
(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 142.

وهو ما يأخذه صاحب السوق من أجرة من رواد السوق الذين يعرضون بضائعهم للبيع، وهذا عقد إجارة تتوفر فيه كل عناصر الإجارة الجائزة، وهذا لا علاقة له بالمكس المنهي عنه شرعاً.

وفي هذا يقول الشيخ ابن باديس .: من هذا البيان يعلم أننا لا نريد تحليل المكس «عياذاً بالله» وإنما نريد أنه غير منطبق على كراء الأسواق واكتراء الانتفاع بالوقوف فيها يوم السوق، وأن العقد الأول بين صاحب السوق ونواب العامَّة، والثاني بين صاحب السوق ومريد الوقوف فيه بسلعة ؛ من عقود الإجارة الصحيحة الجائزة(1).

**هـ . افتتاح دار الحديث بتلمسان:**

إن بناء مدرسة دار الحديث كان بمثابة تحدٍّ من قبل سكان تلمسان ورجال العلماء للإدارة الفرنسية، وإثباتاً لفرنسا أن الأمة الجزائرية قادرة على النهوض وتعليم أبنائها وبناء حضارتها ومستقبلها بنفسها دون وصاية من أي مكان(2).

**. دعوة إلى كل الجزائريين:**

في المؤتمر السنوي العام بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد عام 1356هـ الموفق 1937م بنادي الترقي في العاصمة ؛ وجَّه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى الحاضرين الدعوة التالية: أيها الأخوة الكرام لقد حمَّلني إخوانكم التلمسانيون أمانة يجب أن أبلغها إليكم، وهي أنهم يسلِّمون عليكم ويعاهدونكم على التفاني في خدمة الجمعية ونشر مبادئها، ويبشرونكم أنهم شيَّدوا للإسلام والعروبة معهداً لم يكن له نظير في تاريخ الجزائر الحديث، كما أنهم يتشوَّقون ويتشرَّفون أن يكون فتح هذا المعهد أوَّل مرَّة بيد علاَّمة الجزائر وزعيم نهضتها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهذا المعهد هو دار الحديث المسمَّاة على «دار الحديث الأشرفية» التي أسست منذ قرون في دمشق، تلك المدرسة التاريخية التي تخرج منها أئمة في العلوم وفحول في

(1) المصدر نفسه ص 142.

(2) مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان ، خالد مرزوق ص 196.

الأدب، والتي كان من مدرِّسيها الإمام الحافظ محيي الدين النووي، والإمام النظار تقي الدين السبكي(1).

**. دعوة أهالي مدينة تلمسان:**

كما وجّه دعوة إلى أهالي مدينة تلمسان هذا نصَّها:

إن أكبر دعامة تقوم عليها النهضة العربية الإسلامية بالقطر الجزائري هي تشييد المدارس الحرَّة بمال الأمة لأنها فضلاً عن الواجب الذي تقوم به للدِّين واللغة ؛ تحيي في الأمة روح البذل في سبيل العلم وتقوِّي فيها خلق التعاون على الخير.

وقد قامت تلمسان عاصمتكم التاريخية بقسطها من هذا الواجب كلِّه، فجاءت رمزاً لمجد تلمسان التاريخي وعنواناً على نهضة الجزائر الحديثة، ومفخرة للقطر الجزائري كله وحظاً للعربية والإسلام، وستحتفل تلمسان بافتتاحها يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر سبتمبر 1937م احتفالاً مشهوداً يكون عرساً عالمياً للقطر كله، وتتجلى فيها الأخوَّة الإسلامية بأكمل معانيها.

والجمعية الدينية الإسلامية المشرفة على تشييدها تتشرَّف بدعوتكم للحضور في هذا المهرجان المبارك، وتسألكم بحق الأخوَّة الا تقصِّروا في واجب الحضور الذي هو تأييد للعلم وإعانة للإسلام والعربية(2).

**. الافتتاح:**

لقد كان يوم 27 سبتمبر 1937م يوماً مشهوداً في تاريخ الجزائر عامة وتلمسان خاصَّة، حيث توافد الناس من كامل القطر الجزائري لحضور افتتاح دار الحديث وكان عددهم ثلاثة الاف شخص منهم سبعمائة ضيف، والبقية من أهالي تلمسان.

وخرج يومها أهالي المدينة كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، مواطنين وبعض المستعمرين للقاء زعيم النهضة

(1) آثار الشيخ البشير الإبراهيمي (1 / 306).

(2) مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان ص 198.

الإصلاحية ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الشيخ عبد الحميد بن باديس.

لقد كان الشيخ محمد مرزوق على رأس اللجنة الثقافية والاجتماعية، وتكفل بمراسيم حفل الافتتاح واستقبال الشخصيات والمدعوِّين، وقُدم يومها عمل ممتاز، والكل كان منظماً ولا شيء غاب عن لجنة الاستقبال.

وصل الشيخ عبد الحميد بن باديس على الساعة العاشرة والنصف إلى محطَّة القطار «باب سيدي بومدين» ـ المدرس ـ الشارع الوطني المعروف بشارع العقيد لطفي الان، حتى مدرسة دار الحديث، واصطفَّ على طول الطريق شبَّان ينتمون إلى الحركة الوطنية «من حزب الشعب» وكوَّنوا جدار سلسلة عن يمين الشارع ويساره، متماسكي الأيدي وعلى ذراع كل منهم منديل أخضر لتسهيل عملية المرور للشيوخ، فأعجب الوفد بهؤلاء الشباب ونظامهم، وكان الكل يردد «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». وزغاريد النساء مدوية من الشرفات حتى الوصول إلى باب المدرسة. وقد رفضت اللجنة المنظمة مساعدة البوليس لتنظيم المسيرة، لكن هذا الأخير أحضر جنوداً سنغاليين احتياطاً وتركهم داخل ثانوية ابن خلدون حالياً.

وسار الموكب في نظام وخشوع وكان يضم حوالي 3000 شخص من بينهم 600 إلى 700 من الجزائر وقسنطينة ونواحي تلمسان، كما حضر حوالي ثلاثة من تونس وحوالي خمسة عشر من المغرب وثلاثة من الصحفيين العرب وصحفي من جريدة الأمة ومدير جريدة العدالة والثالث من الجزائر.

كان على باب المدرسة الشيخ محمد مرزوق يستقبل الضيوف، وكان الجمع غفيراً حول المدرسة وفي الأزقة المجاورة، والكل جرى على أحسن ما يرام دون تسجيل لأي حدث، بينما كانت مجموعة من فرقة الكشَّافة الإسلامية بتلمسان تقف عن يمين باب المدرسة ويساره يرحِّبون بالضِّيوف وهم ينشدون نشيد مرحباً أهلاً وسهلاً بكم[1].

(1) المصدر نفسه ص 201.

وقد روى الشيخ محمد شيعلي أنَّ مصطفى هدَّام أخبره أنه سمع بعض المعلمين بالفرنسية يوم الافتتاح يقولون بأن جمعية العلماء هي عبارة عن قنبلة موقوتة ستظهر نتائجها بعد عشرين سنة.

وتلاحقت الوفود وتجمعت أمام مبنى المدرسة، ووقف الشيخ البشير الإبراهيمي بباب المدرسة يخاطب الرئيس ابن باديس ـ وهو يناوله المفتاح ـ بهذه الكلمات البليغة: أخي الأستاذ الرئيس: لو علمت في القطر الجزائري، بل في العالم الإسلامي رجلاً له يد على العلم مثل يدكم وفضل على الناشئة مثل فضلكم لاثرته دونكم فتح هذه المدرسة، ولكن لم أجد، فباسم تلمسان وباسم الجمعية الدينية بالخصوص أناولكم المفتاح لتفتحوها، فهل لهذه المدرسة أن تتشرف بذلك؟

وتناول الاستاذ الرئيس المفتاح وقال: بسم الله الرحمَّن الرحيم ثمَّ على اسم العروبة والعلم والفضيلة أفتح مدرسة دار الحديث، ربنا أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين، ربنا أدخلنا مدخل صدق وأخرجنا مُخرج صدق واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً. جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ثم فتح الباب ودخل، ودخل خلفه العلماء والضيوف وبقيت جموع غفيرة من أهالي تلمسان لم تسعهم البناية واثروا ضيوفهم عليهم.

بقيت هذه الجموع تصيح خارج المدرسة، ابن باديس ابن باديس، نريد أن نرى ونسمع ابن باديس، فأطل عليهم والإبراهيمي والعلماء من الشرفة في الطابق الأول وخاطبهم قائلاً: يا أبناء تلمسان يا أبناء الجزائر: إن العروبة من عهد تبع إلى اليوم تحييكم، وإن الإسلام من يوم محمد (ص) إلى اليوم يحييكم وإن أجيال الجزائر من هذا اليوم إلى يوم القيامة تشكركم وتثني عليكم أمانة من تاريخنا المجيد فأديتموها فنعم الأمناء أنتم فجزاكم الله جزاء الأمناء والسلام عليكم ورحمة الله.

ثم عاد العلماء إلى المدرسة، وفي قاعة المحاضرات اعتلى ابن باديس وصحبه المنصَّة وتكلم الشيخ الإبراهيمي فقال: الفضل في هذه المدرسة لا يرجع لأحد غير جمعية العلماء، فكل فضل لهذا العاجز الضعيف

هو قطرة من بحر فضل جمعية العلماء، ثم أخبر الشيخ الإبراهيمي الحاضرين بأن الرئيس ابن باديس سيفتتح الكلام في دار الحديث بدرس قيّم يلقيه عليهم الان في الحديث النبوي الشريف.

وافتتح ابن باديس الدرس بحمد الله والصلاة على نبيه (ص) ثم روى حديثاً بالسند المتصل بالبخاري ومسلم وهو قوله (ص): مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا أو «رعوا»، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم ومثل من لم يرفع لذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به. متفق عليه من حديث أبي موسى الشعري.

وأفاض في شرحه بطريقته التي اختص بها وعرف بها، واثناء كلامه عن قوله (ص): فعلم وعلَّم، أخرج من جيبه خمسمائة فرنك إعانة رمزية منه للمدرسة، وبعد انتهائه من الدرس تبارى الناس في البذل والتبرع بما لديهم في سخاء وكرم نادرين، كما شارك النساء بعد ذلك بتقديم جواهرهنَّ وحليّهنَّ[1].

كانت مدرسة الحديث في تلمسان تحفة معمارية جامعة بين الفن العربي البديع والشكل العصري الأنيق، وتبدو آية في الفخامة والجمال والسعة والكمال[2].

### ثالثاً: إهتمامه بالعقيدة:

إن القارئ لتراث الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ يجد نصوصاً من الكثرة بمكان، يصرح فيها تصريحاً واضحاً، لا لبس فيه ولا مواربة بأن المنهج الذي يرتضيه في تدريس العقائد هو منهج القرآن نفسه

(1) المصدر نفسه ص 203.

(2) المصدر نفسه ص 204.

وبيان الشارح وهو السنة النبوية الشريفة، ويرى أن هذا المنهج أيسر على عُموم المسلمين كي يفهموا عقائدهم، خلافاً لمنهج المتكلمين الذي يتَّسم بالصعوبة والتعقيد، بل الغموض والتكلف ؛ إذ يزج بهم في عالم من المصطلحات، كالجوهر والعرض والجنس والنَّوع وعالم من الجداليات، التي تتعب عقول العلماء إزاءها، ناهيك عن عقول العوام، بل ويعتبر السير في طريق المتكلمين، والحرص عليها مع الإعراض على طريق القرآن في عرض العقائد وبسطها نوعاً من الهجر لكتاب الله عز وجل، فقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورًا *} [الفرقان : 30].

فقال:.. ونحن ـ معشر المسلمين ـ قد كان منَّا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمن الطويل ـ وإن كنا به مؤمنين ـ بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، فأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة وإصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة[1].

وقال: أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي (ص) الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم، فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم، إذ يجب على كل مكلَّف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم، ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة إلا في كتاب الله، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه، أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريقة العلم إلى عباده وهو في أشد الحاجة إليه، وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه[2].

(1) مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير ص 250.

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص 142.

وفي المقال الذي كتبه الشيخ ابن باديس حول إصلاح التعليم في جامع الزيتونة المعمور وضمّنه جملة من ارائه في الإصلاح التربوي وجملة من المقترحات التي يراها ضرورية لتخريج العالم العامل بعلمه المتفاعل مع قضايا أمته، فإنه كرَّر الدعوة إلى وجوب تجديد الدرس العقدي ؛ وذلك بالابتعاد عن أساليب المتكلمين في تدريسه وبحث مسائله فقال: وعلى العقائد يجب أن تأخذ هي وأدلتها من آيات القرآن فإنها وافية بذلك كُلِّه، وأما إهمال آيات القرآن المشتملة على العقائد وأدلتها والذهاب مع تلك الأدلة الجافة ؛ فإنه من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير(1).

وإلى جانب المصدر الثاني وهو السنة النبوية الشريفة، القولية والفعلية والتقريرية، وهو المصدر الشارح والمبين والمفصِّل لما جاء في المصدر الأول، والذي لا استغناء عنه لمن أراد أن يفهم القرآن فهماً سليماً وأن يطبقه تطبيقاً حسناً، ولقد كان الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ كثير الاحتفاء بالسنة النبوية الشريفة شديد الدعوة إلى والتمسك بها والتعويل عليها في فهم الدين فهماً صحيحاً بعيداً عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين و تأويل الجاهلين.

فقال في مقال لعنوان «بواعثنا، علمنا، خطتنا، غايتنا»، ـ «فأخذنا على أنفسنا دعوة الناس إلى السنة النبوية الشريفة، وتخصيصها بالتقدم والأحجية، فكانت دعوتنا ـ علم لله ـ من أوَّل يوم إليها، والحث على التمسك والرجوع إليها.

ونحن اليوم ما كنا سائرين، وإلى الغاية التي سعينا إليها قاصدين، وقد زدنا من فضل الله، أن أسسنا هذه الصحيفة الزكية وأسميناها «السنة النبوية المحمدية» لتنشر على الناس ما كان عليه النبي (ص) في سيرته العظمى، وسلوكه القويم، وهديه العظيم، الذي كان مثالاً ناطقاً لهدي القرآن وتطبيقاً لكل ما دعا إليه القرآن بالأقوال والأفعال والأحوال، ممَّا هو المثل الأعلى في الكمال، والحجة الكبرى عند جميع أهل الإسلام، فالأئمة

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 59).

كلهم يرجعون إليها والمذاهب كلها تنضوي تحت لوائها، وتستنير بضوئها وفيها وحدها ما يرفع أخلاقنا من وهدة الانحطاط، ويُطهر عقيدتنا من الزيغ والفساد، ويبعث عقولنا على النظر والتفكير، ويدفعنا إلى كل عمل صالح، ويربط أخوتنا برباط الأخوة واليقين، ويسير بنا في طريق واحد مستقيم ويوجهنا وجهة واحدة في الحق والخير، ويحيي النفوس والهمم والعزائم، ويثير كوامن الامال ويرفع عنا الإصر والإغلال، ويصيّرنا . حقاً . خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

فها نحن اليوم نتقدم بهذه الصحيفة للأمة كلها على هذا القصد وعلى هذه النية: عملنا نشر السنة النبوية المحمدية وحمايتها ممَّا يمسها بأذية، وخطتنا الأخذ بالثابت عند أهل النقل الموثوق بهم، والاهتداء بفهم الأئمة المعتمد عليهم، ودعوة المسلمين كافة إلى السُنة المحمدية دون تفريق بينهم، وغايتنا أن يكون المسلمون مهتدين بهدي نبيهم في الأقوال والأفعال والسير والأحوال حتى يكونوا للناس كما كان هو صلى الله عليه واله وسلم مثالاً أعلى في الكمال[1].

وقال أيضاً: فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك فيحضر مجالس العلم التي تذكره بايات الله وأحاديث رسوله ؛ ما يصحح عقيدته ويزكي نفسه ويقوّم عمله، وليطبق ما يسمعه على نفسه وليجاهد في تنفيذه على ظاهره وباطنه، وليداوم على هذا حتى يبلغ ما قُدِّر له من كمال[2].

### 1 . الاستدلال على العقائد:

يقول ابن باديس في دروس العقيدة التي أملاها على طلابه: أول واجب على المكلف من مُسلم بالغ، أو كافر يريد الدخول في الإسلام، أن يعلم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولا يكفي النطق بكلمتي الشهادة إذا كان الناطق بهما لا يفهم أصل معناهما، ويكفي للدخول في الإسلام ما دلَّ على معناهما لحديث

(1) آثار الإمام ابن باديس (5 / 94).

(2) مجالس التذكير ص 320.

بني جذيمة، ولا يكفي النطق بالشهادتين وفهم معناهما إلا مع التصديق التام والاعتقاد الجازم به.. من حصل له اليقين بإخبار الرسول (ص) وكفاه ذلك اليقين.

ويجب على المؤمن مع تصديقه وجزمه ؛ أن ينظر في آيات الله ويستعمل عقله للفهم، كما تجب عليه جميع الواجبات في الإسلام.. النَّظر الواجب على المكلف هو النظر على الطريقة التي جاء بها القران، من عرضت له شبهة وجب عليه أن يبادر إلى إزالتها، وبالنَّظر بنفسه أو بسؤال غيره من أهل العلم، ومن وردت على قلبه خطرات من دون شبهة فليستعذ بالله وليقل امنت بالله ورسوله[1].

لقد عمل ابن باديس على تخليص الدرس العقائدي من المصطلحات المعقدة والقياسات المنطقية، وعاد إلى أدلة القرآن وطريقته في العرض والمحاججة، ولقد أدركَ هذه الميزةَ في العقيدة التي أملاها ابن باديس على طلبته الشيخُ الإبراهيميُّ فقال في المقدمة التي كتبها لها: فجاءت عقيدة مثلى يتعلمها الطالب فيأتي منه مسلم سلفي موحِّد لربه بدلائل القرآن كأحسن ما يكون المسلم[2].

ويقول الإبراهيمي كذلك: حتَّى جاءت دروس الإمام ابن باديس فأحيى بها طريقة السلف في دروسه . ومنها هذه الدروس . وأكملتها جمعية العلماء، فمن مبادئها التي عملت لها بالفعل لزوم الرجوع إلى القرآن في كل شيء لا سيما ما يتعلق بتوحيد الله وصفاته، وما يرجع إلى الغيبيات لا يكون إلابالقرآن، لأن المؤمن إذا استند في توحيد الله وإثبات ما ثبت له ونفي ما انتفى عنه لا يكون إلا باية قرانية محكمة، فالمؤمن إذا سوّلت له نفسه المخالفة في شأن من أمور الاخرة، أو صفات الله، فإنها لا تسول له مخالفة القرآن[3].

والمهم في مدرسة ابن باديس أن الإنسان المسلم ينبغي أن يبلغ درجة اليقين في العقيدة، وأن يعمق هذا اليقين بالنظر في آيات الله التشريعية والكونية، وأن هذا النظر يكون على الطريقة القرآنية.

---

(1) العقائد الإسلامية ابن باديس ص 40.

(2) الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة ص 30.

(3) العقائد الإسلامية ص 24.

إن ابن باديس يجعل الواجب الأوَّل: هو النطق بالشهادتين وفهم معناهما مع التصديق التام والاعتقاد الجازم، ثم يسعى إلى النظر على الطريقة القرآنية لتعميق هذا الاعتقاد وتثبيته، وأن يعتمد على القرآن في دحض الشبهات التي تطرأ، فهو عند تفسير قوله تعالى: {وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا *} [الفرقان : 33].

قال: إذا تتبعت آيات القرآن وجدتها قد أتت بالعدد الوافر من شبه الضالين واعتراضاتهم ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوْجز لفظه وأقربه وأبلغه، وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدَّعوة والإرشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة، ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام إلا في القرآن العظيم ردُّها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة، فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى اي القران، ولا إخالنا إذا أخلصنا القصد وأحسنا النظر إلا واجديها، وكيف لا نجدها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيراً[1].

### 2. موقفه من علم الكلام:

قال ابن باديس: قلوبنا معرَّضة لخطرات الوسواس، بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع الاضطراب عنها ويربطها باليقين هو القرآن العظيم، ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، فما ازدادوا إلا شكًّا وما ازدادت قلوبهم إلا مرضاً حتى رجع كثير منهم في أواخر أيامهم إلى عقائد القرآن وأدلة القرآن فشفوا بعد ما كادوا كإمام الحرمين والفخر الرازي[2].

وابن باديس في هذا النص يُشير إلى تجربة هؤلاء الأئمة العظام، الحجة النُّظار، الذين كانت لهم تجارب خاصة في السير مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم العقلية ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، إذا ساروا إلى

(1) مجالس التذكير ص 260.

(2) مجالس التذكير ص 257.

أبعد مدى ممكن في هذا الطريق، حتى أحسوا بأنه ليس وراء سيرهم مزيد، ولكنهم عادوا فارغي الأيدي، بل زادت شكوكهم وما استراحت قلوبهم، فعادوا إلى نقطة البدء، فهذا إمام الحرمين أبو المعالي الجويني يعلن عند موته: لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه. والان فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل للجويني، وهانذا أموت على عقيدة أمي أو قال على عقيدة عجائز أهل نيسابور[1].

وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغت ما اشتغلت به[2].

وأما فخر الدين الرازي فقد عبَّر عن تجربته بالقول:

| | |
|---|---|
| نهاية إقدام العقول عقال | وأكثر سعي العالمين ضلال |
| وأرواحنا في وحشة من جسومنا | وحاصل دنيانا أذى ووبال |
| ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا | سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا |

ثم قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات قال تعالى: {الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *} [طه : 5].

واقرأ في النَّفي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى : 11].

ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[3].

وكذلك قال أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني:

أخبر أنَّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والنَّدم[4].

إن ابن باديس اعتمد على القرآن الكريم والسنَّة النبوية المطهرة في تعليم العقائد للأمة، وحذر من علم

(1) فتاوي ابن تيمية (4 / 73).
(2) فتاوي ابن تيمية (4 / 73).
(3) المصدر نفسه (4 / 72).
(4) المصدر نفسه (4 / 73).

الكلام، وأرشد إلى الاستفادة من تجارب العلماء الكبار في هذا المضمار، كإمام الحرمين والفخر الرازي.

### 3. الدعوة إلى التوحيد:

إن توحيد الله عز وجل ومحاربة جميع مظاهر الشرك المنافية للتوحيد هي أساس الدين وركنه القويم، وهو المهمة السامية التي ابتعث الله عز وجل بها جميع الأنبياء والرسل، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل : 36].

وقال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء : 36].

وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *} [الذاريات : 56].

وقد أقام ابن باديس مشروعه التجديدي الإصلاحي الدعوي التربوي على تطهير الإسلام من كل البدع والخرافات والشوائب والأضاليل التي ألصقت به كذباً وزوراً، وكذا بناء الإنسان القرآني على أساس من الكتاب والسنَّة وهدي السلف الصالح، لأن إصلاح العقيدة هو منطلق كل إصلاح جاد في المجتمع، لأن فساد العقيدة وسيطرة جملة من المفاهيم الغريبة على الكتاب والسُنَّة على عقل وقلب الإنسان المسلم في عصور الانحطاط؛ هي سبب تدهور المجتمعات الإسلامية وابتعاد الإنسان المسلم عن الفعالية وركونه للسكوت والاستسلام[1].

ومن هذه القضايا التي أولاها ابن باديس عناية فائقة قضية التوحيد والشرك، ففي العقيدة التي أملاها على طُلابه وتحت عنوان «عقائد الإيمان بالله».

يقول: هو الموجود الحق لذاته الذي لا يقبل وجوده العدم، فهو القديم الذي لا بداية لوجوده وهو الباقي الذي لا نهاية لوجوده.

وهو الموجود الذي سبق وجوده كل موجود، فكان تعالى وحده ولا شيء معه، ثم خلق ما شاء من

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة الإسلامية ، د. محمد الدراجي ص 40.

مخلوقاته فهو الغني بذاته عن جميع الموجودات وهي المفتقرة كلها ابتداء ودوماً إليه[1].

ويقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: وهو الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله فلا ثاني له، ولا نظير ولا شريك له في ذاته.

ولا ثاني له ولا نظير له في أسمائه.

ولا ثاني له ولا نظير له في صفاته.

ولا ثاني له ولا نظير له في أفعاله[2].

إن نصوص الشريعة تقضي بأن الله عز وجل موصوف بصفات الجلال والجمال والكمال ومنزه عن كل صفات النقص التي لا تليق بكمال الربوبية وجلال الإلهية.

. قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الحشر : 22 ـ 24].

وقد فصل ابن باديس في موضوع التوحيد وبين أقسامه وشرح كل قسم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الأئمة العدول الأثبات فقال: التوحيد هو اعتقاد وحدانية الله وإفراده بالعبادة، والأوَّل هو التوحيد العلمي والثاني هو التوحيد العملي ولا يكون المسلم مسلماً إلا بهما[3].

وبعد هذا التعريف الجامع للتوحيد وهو اعتقاد وحدانية الله وإفراده بالعبادة، شرع في بيان أقسام التوحيد:

(1) العقائد الإسلامية ص 67 إلى 70.

(2) المصدر نفسه ص 77.

(3) المصدر نفسه ص 78.

**أ . توحيد الربوبية**: وعرَّفه بالقول: توحيد ربوبيته: وهو العلم بأن لا خالق غيره، ولا مدبِّر للكون، ولا متصرف فيه سواه[1].

فتوحيد الربوبية هو الاعتقاد الجازم بأن لهذا الكون خالقاً أوجده من عدم بعد أن لم يكن، وأنَّه هو المتصرف في شؤون الكون، فالله وحده هو الخالق والرازق، والمحيي والمميت والمبدأئ والمعيد، الضار والنافع، فهو وحده قيّوم السماوات والأرض، وهذا الأمر تشهد له نصوص القرآن الكريم، ونصوص السُنَّة النبوية الشريفة، من ذلك:

. {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ} [فاطر : 3].

. {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الاعراف : 54].

. {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ} [السجدة : 5].

ويقول الرسول (ص): لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد[2].

**ب . توحيد الألوهية**: وقال عنه: ومن توحيده تعالى توحيده في الألوهية: العلم بأنه تعالى هو المستحق للعبادة وحده دون سواه والقصد والتوجه والقيام بالعبادات كلها إليه[3].

فالله وحده هو المستحق للعبادة، فلا يعبد إلا الله ولا يعبد إلا بما شرع، والنصوص الشرعية التي تشهد لهذا المعنى كثيرة:

. قال تعالى: {أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *} [الأنبياء : 25].

ـ وقال تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [الأنعام : 79].

. وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام : 162 . 163].

---

(1) العقائد الإسلامية ص 78.

(2) رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن ابن عباس.

(3) العقائد الإسلامية ص 79.

فصّل ابن باديس أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية الذي هو أساس الدين، فقال: ووحدانيته تعالى في ربوبيته تستلزم وحدانيته تعالى في ألوهيته، فالمتفرد بالخلق والرزق والعطاء والمنع ودفع الضر وجلب النفع هو الذي يجب أن يفرد بالعبادة التي هي غاية الخضوع والذل مع الفقر والحاجة للعزيز القادر المنعم[1].

ج ـ توحيده في شرعه: وقال ابن باديس: توحيده في شرعه، فلا حاكم ولا محلل ولا محرم سواه[2].

وهو أن الله عز وجل هو المشرع لعباده فهو الذي يأمرهم وينهاهم ويحلّ لهم ويحرم عليهم، ونصوص الشريعة التي تدل على هذا المعنى كثيرة منها:

ـ قال تعالى: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف : 54].

ـ وقال تعالى: {وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ} [النحل : 116].

ـ قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى : 21].

ـ وقال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى : 10].

وقال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *} [النساء : 65].

وعن عدي بن حاتم الطائي أنه لما جاء النبي (ص) وسمعه يتلو قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} [التوبة : 31].

قال عدي: يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم؟ قال أليس كانوا إذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه، وإذا

---

(1) العقائد الإسلامية ص 80.

(2) المصدر نفسه ص 82.

أحلوا لهم شيئاً أحلوه؟ قال، قلت: نعم ، قال رسول الله (ص): فتلك عبادتهم إيَّاهم[1].

**د . توحيد الأسماء والصفات:**

يقول ابن باديس: وهو الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا ثاني له ولا نظير له، ولا شريك له في ذاته، ولا ثاني له ولا نظير له في أسمائه، ولا ثاني ولا نظير له ولا شريك في صفاته[2].

وقال: عقيدة الإثبات والتنزيه: فثبت له ما أثبته لنفسه على لسان رسوله، من ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله. وننتهي عند ذلك ولا نزيد عليه وننزهه في ذلك عن مماثلة أو مشابهة شيء من مخلوقاته، ونثبت الاستواء والنزول ونحوهما ونؤمن بحقيقتهما على ما يليق به تعالى بلا كيف، وبأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد.. ولا تحيط العقول بذاته ولا بقضائه ولا بأسمائه[3].

## 4 . محاربة الشرك ومظاهره:

وإلى جانب شرحه المستفيض للتوحيد وأقسامه وحسن استدلاله من الكتاب والسنة، فقد أوضح الشرك أيَّما توضيح وتتبع مظاهره في المجتمع، وحذَّر منه ايما تحذير، لأن الشرك ينافي التوحيد، ولا يكون الإنسان موحداً لربه التوحيد الكامل، إلا إذا اجتنب الشرك بكل مظاهره، فعند تفسيره قوله: {لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً *} [الإسراء : 22].

قا: فنهى الله الخلق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكاً في ألوهيته فيعبدوه معه، ليعتقدوا أنه الإله وحده فيعبدوه وحده، وبيَّن لهم أنهم إن اعتقدوا معه شريكاً وعبدوه معه ؛ فإن عبادتهم تكون باطلة وعملهم يكون مردوداً عليهم وأنهم يكونون مذمومين من خالقهم ومن كل ذي عقل سليم من الخلق، ويكونون مخذولين لا

---

(1) الترمذي، ك التفسير.

(2) العقائد الإسلامية ص 77.

(3) المصدر نفسه ص 71.

ناصر لهم، فأما الله فإنه يتركهم وما عبدوا معه، وأما معبوداتهم فإنها لا تنفعهم لأنها عاجزة مملوكة مثلهم فما لهم ـ قطعاً ـ من نصير[1].

وفي الإطار نفسه وعندما تعرض لشرح حديث ثوبان الذي رواه الإمام الترمذي في صحيحه والذي وصفه تحت عنوان مُعبر جداً وهو: «الشرك والوثنية ودعوى النُّبوة».

ونصه: قال رسول الله صى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذَّابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي[2].

تعرَّض إلى إمكانية وقوع المسلمين في الشرك والوثنية.

ولذا كان النبي (ص) يحذر المسلمين كثيراً من الوقوع في الشرك ويدعوهم إلى اجتناب أسباب ذلك.

ثم كتب كلاماً نفيساً تحت عنوان: «اللحوق بالمشركين» جاء فيه: من اعتقد مثل عقيدتهم أو فعل مثل أفعالهم أو قال مثل أقوالهم ؛ فقد لحق بهم وقد يكون اللحوق تاماً مخرجاً عن أصل الإسلام، وقد يكون دون ذلك.

ـ فأصل عقيدة الشرك عند عرب الجاهلية أنهم يعلمون أن الله هو خلقهم وهو يرزقهم وهو المالك لجميع مخلوقاته، ولكنهم كانوا يجعلون توجههم وتقربهم وتضرعهم لالهتهم على اعتقاد أنها تقربهم إلى الله.

ـ وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تامين، وتتضرع وتناديهم على اعتقاد أنهم يقربونهم إلى الله ويتوسطون بها إليه، ويزيدون أنهم ينصرفون لها بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب.

ـ ومن أعمال المشركين في الجاهلية أنهم يسوقون الأنعام لطواغيتهم فينحرونها عندها طالبين رضاها ومعونتها.

---

(1) مجالس التذكير ص 96.

(2) رواه الترمذي وأبو داود والبرقاني في صحيحه.

ـ وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تنحرها عندها إرضاءً لها وطلباً لمعونتها أو جزاء على تصرفها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضر.

ـ ومن أقوال المشركين في الجاهلية حلفهم بطواغيتهم تعظيماً لها.

ـ وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون بالله فيكذبون ويحلفون بمن يعظمونه من الأحياء أو الأموات فلا يكذبون، فهذه الطوائف الكثيرة كلها قد لحقت بالمشركين، وصدق رسول الله (ص) في قوله: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين»(1).

ومن خلال هذا النص فقد تتبع الشيخ ابن باديس جملة مظاهر الشرك المتفشية في المجتمع وقارن بينها وبين المظاهر الشركية التي كانت في الجاهلية ليخلص إلى أن فئات من المسلمين لقد لحقت بالمشركين، وبات من اللازم المسارعة إلى الإنكار عليها والتحذير مما وقعت فيه، ومن هذه المظاهر:

ـ إتخاذ الوسطاء والشفعاء على أنها تقربهم من الله.

ـ الذبح عند المقامات إرضاء لها وطلباً لمساعدتها.

ـ الحلف بمن يعظمونهم من الشيوخ والأولياء وأصحاب المقامات والمزارات، فعبارة وحق سيدي فلان، أصبحت قسماً متداولاً مألوفاً ومقبولاً..إلخ.

وعند تفسير قوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [يوسف : 108].

أوضح بأن الآية تتضمن بالإضافة إلى وجوب تنزيه الله عز وجل عن الشرك، البراءة من المشركين. وأكد بأن مظاهر الشرك كثيرة، فقال رحمه الله:

وهذه البراءة والمباينة، إن كانت مستفادة من أنه يدعو إلى الله وينزهه ، فإنه نص عليها بالتصريح لتأكيد

(1) مجالس التذكير ص 96 ، رواه أبو داود والترمذي.

أمر مباينة المشركين والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جليَّة وخفية في جميع مظاهر شركهم حتى في صورة القول (كما شاء الله وشاء فلان)، فلا يقال هكذا ويقال: ثم شاء فلان كما جاء في حديث بيناه في جزء من الأجزاء الماضية. أو في صورة الفعل كأن يسوق بقرة أو شاة مثلاً إلى ضريح من الأضرحة ليذبحها عنده؛ فإنه ضلال كما قاله «الشيخ الدردير في باب النذر» فضلاً عن عقائدهم كاعتقاد أن هنالك ديواناً من عباد الله يتصرف في ملك الله، وأن المذنب لا يدعو وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات وذلك الميت يدعو له الله، ولتأكد أمر المباينة للمشركين في هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا للبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جلية وخفية[1].

ففي هذا النص دعوة صريحة إلى نبذ الشرك بجميع صوره ومظاهره الظاهرة منها والخفية، وفيه استقصاء لمظاهر شركية في المجتمع[2]، عمل ابن باديس على محاربتها بنشر العلم واتخاذ طريق الحكمة، والاعتماد على الله ثم فقهاء المالكية المعتمدين في الجزائر كالعلاَّمة أحمد الدردير الذي هو عمدة المالكية في هذه الديار وغيرها.

لقد بذل ابن باديس جهوداً عظيمة في محاربة أنواع الشرك وتحذير الناس بالحكمة والموعظة الحسنة فعند تفسير قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً *} [الإسراء : 56].

كتب ابن باديس كلاماً نفيساً في التحذير من شرك الدعاء تحت عنوان: «من دعا غير الله فقد عبد ما دعاه»، جاء فيه: إذا علمت هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون، ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب أو ظلمت بها المساجد، فيدعون من فيها

(1) مجالس التذكير ص 65.

(2) الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة ص 49.

ويدقون قبورهم وينذرون لهم ويستشيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيف يتركونهم وقد يهددونهم بقطع الزيارة وحبس النذور، وتراهم هنالك في ذُلٍّ وخشوع وتوجه قد لا يكون في صلاة من يُصلي منهم، فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين وإن لم يعتقدوها عبادة، إذ العبادة باعتبار الشرع لا باعتبارهم، فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال[1].

## 5. مفهوم القضاء والقدر:

يقول ابن باديس معرفاً بالقضاء والقدر: وقدرُ الله تعالى هو تعلق بعلم الله تعالى وإرادته أزلاً بالكائنات كلها قبل وجودها، فلا حادث إلا وقد قدَّره الله تعالى، أي سبق به علمه «تعالى» وتقدمت به إرادته[2]، فا من أمر يقع في هذا الكون إلا وقد قدَّره الله تعالى بمعنى سبق به علمه تعالى، ومضت به إرادته سبحانه وتعالى، فهذا تشهد له النصوص الشرعية من ذلك قوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ *} [القمر : 49]. فأمره الذي يقدره سبحانه وتعالى يكون لا محالة، ويقع فلا يتأخر فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[3].

وقال الشيخ عبد الحميد بن باديس في القضاء والقدر: وكما سبق قدر الله للأشياء قبل أن يخلقها كذلك كتبها في اللوح المحفوظ قبل خلقها[4].

وهذا أمر تشهد له النصوص الشرعية كقوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ *لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ *} [الحديد : 22 ـ 23].

---

(1) مجالس التذكير ص 158.

(2) العقائد الإسلامية ص 87.

(3) العقائد الإسلامية ص 84.

(4) المصدر نفسه.

ما يشاهدونه من الآيات في المخلوقات، ولا أن ينكروا مجيء الرُّسل إليهم وما تلوا عليهم من ايات، وبهذه الأشياء قامت حجة الله عليهم، وكان جزاؤهم على ما اختاروه بعدها لأنفسهم، فأمَّا ما سبق من علم الله فيهم فهو أمر مغيب عنهم غير مؤثر فيهم ولا دافع لهم، فليس لهم أن يحتجّوا به لأنفسهم لأنهم لم يعملوا لأجله، كيف وهو مغيَّب عنهم، وإنما عملوا باختيارهم الذي يجدونه بالضرورة من أنفسهم[1].

وعاد الشيخ ابن باديس إلى إثارة هذا الموضوع الشائك وهو بصدد الإجابة على السؤال التالي وهو: ما دام الله تعالى عالماً بما يكون من عباده بعد امتحانهم قبل امتحانهم فما هي حكمة هذا الامتحان؟.

فقال: والجواب أن الله تعالى إنما يحاسب عباده على ما عملوه وكسبوه واكتسبوه بما عندهم من التمكن من الفعل والترك وما عندهم من الاختيار، لا على علمه منهم قبل أن يعملوه، فلهذا يمتحنون، لتظهر حقائقهم ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم، ولا حجة لهم في تقدم علمه تعالى بما يكون منهم، لأن تقدم العلم لم يكن ملجئاً لهم على أعمالهم، ففي هذا الامتحان قيام حجة الله على العاملين أمام أنفسهم وأمام الناس كما فيه إظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم[2].

وهكذا فإن الكافر الذي يموت على الكفر، لا يجوز له أن يحتج بالقدر، والعاصي المذنب لا يجوز له أن يحتج على معاصيه وذنوبه بالقدر.

يقول ابن باديس: لا يحتج بالقدر على الذنوب لأن حجة الله قائمة على الخلق بالتمكن والاختيار والدلالة الفطرية والدلالة الشرعية[3].

ويقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: العمل بالشرع والجد في السعي مع الإيمان بالقدر: الشرع معلوم عنَّا أمرنا الله بالإيمان لأنه من مقتضى كمال العلم والإرادة من صفات ربنا، فالقدر في دائرة الاعتقاد، والشرع

(1) مجالس التذكير ص 376.

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص 242.

(3) العقائد الإسلامية ص 92.

في دائرة العمل، وعلينا أن نعمل بشرع الله، ونتوسل إلى المسببات المشروعة بأسبابها ونؤمن بسبق قدر الله تعالى، فلا يكون إلا ما قدَّره منها، فمن سبقت له السعادة يُسر لأسبابها، ومن سبقت له الشقاوة يسر لأسبابها[1].

**ج ـ الإرادة الكونية والإرادة الشرعية:**

إن القارئ لتراث الشيخ عبد الحميد بن باديس، يجد أنَّ هذه المسألة كانت واضحة في فكره، فهو كان يميز جيداً بين الإرادة الكونية وبين الإرادة الشرعية.

وبالتالي فقد تخلص من المتناقضات التي تخبَّط فيها كثير من علماء الكلام وأوردتهم في مهاوي الحيرة وبيداء الضلال، فعند تفسير قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ} [الإسراء : 23].

وأوضح هذا التمايز جيداً فقال: القضاء يكون بمعنى الإرادة، وهذا هو القضاء الكوني التقديري الذي لا يتخلف متعلقه، فما قضاه الله لا بُدَّ من كونه، ويكون القضاء بمعنى الأمر والحكم، وهذا هو القضاء الشرعي الذي يمتثله الموفقون ويخالفه المخذولون والذي في الآية من هذا الثاني[2].

إذا فالقضاء يرد بمعنيين، كليهما تشهد له اللغة ومعانيها، والمعنى الأوَّل هو الفراغ من الشيء، وهذا الجانب يتعلق بالإرادة، فما قضاه الله بهذا المعنى لا بد من تحققه ويستحيل تخلفه وهذا هو القضاء الكوني التقديري.

وأما المعنى الثاني فهو الأمر بالشيء، وهذا هو القضاء الشرعي أي الأوامر والنواهي الشرعية، وهذه تقع مخالفتها من العباد[3]. وقد عبَّر عن هذا ابن باديس بالقول: أحكام الله تعالى قسمان: أحكام شرعية وهي التي فيها بيان ما شرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم إذا ساروا عليه، وأحكام قدرية وهي التي

---

(1) العقائد الإسلامية ص 92.

(2) مجالس التذكير ص 96.

(3) الإمام عبد الحميد بن باديس ، د. محمد الدراجي ص 69.

فيها تصرفه في خلقه على وفق ما سبق في علمه وما سبق في إرادته.

والأحكام الشرعية تقع من العباد مخالفتها، فيتخلف مقتضاها من الفعل أو الترك. والأحكام القدرية لا تتخلف أصلاً ولا تخرج المخلوقات عن مقتضاها قطعاً[1].

وبناء على هذا الأساس وهو التفريق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، فليس كل ما أراده الحق تبارك وتعالى كوناً يكون قد أراده شرعاً. أي أحبه ورضيه[2]..

تعامل الشيخ عبد الحميد بن باديس مع مشكلة الشر وهل يصح نسبته إلى الله تعالى؟ فقال: ومعلوم أن المخلوقات كلها خلقت بحق ولحكمة، فهي في نفسها خير، فإن كان لا ينشأ من أعمالها أو اثارها إلا الخير فهي الخير المحض، وإن كان ينشأ عنها الشر أحياناً أو دائماً، فعملها هو الشر، وهو المستعاذ منه. وتصبح نسبة هذا القسم إلى الله من حيث الخلق والحكمة، ونسبة أعماله إليه من حيث التقدير والتكوين ؛ لا من حيث الرضا والتكليف، فالله لا يرضى بالشر ولا يكلف به[3].

وهذا الموقف قد تجاوز به الشيخ عبد الحميد بن باديس مشكلة لطالما أرَّقت الفكر الإسلامي الذي تخبط طويلاً أمامها، وتوزعته فرق كلامية متعددة إلى اراء متناقضة وجزئية في الموضوع[4].

إنَّ ابن باديس استطاع بما أعطاه الله من علم ومعرفة أن يلخص الموقف الإسلامي الصحيح في هذه المسألة، فأثبت في ان واحد قدرة الله وحكمته وعدله من جانب، ويؤكد من جانب آخر كرامة الإنسان عندما

(1) مجالس التذكير ص 164.

(2) الإمام عبد الحميد بن باديس جهوده في تجديد العقيدة ص 70.

(3) مجالس التذكير ص 164.

(4) الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة الإسلامية ، د.محمد الدراجي ص 70.

وهبه الله العقل وحرّية الاختيار والقدرة على اختيار أحد الضدين، وجعل في ضلال بعضهم صلاحاً لنظام العالم[1].

**د . هداية الدلالة وهداية التوفيق:**

قال ابن باديس: الهداية ونوعها: قد دلَّ الله الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم، وهذه هي هداية الدلالة وهي من فضل الله العام للناس أجمعين، وبها وبما يجده كل عاقل في نفسه من التمكن والاختيار قامت حجة الله على العباد، ثم يسر من شاء . وهو الحكيم العدل . إلى العمل بما دلَّ عليه من أسباب السعادة والكمال، وهذه هي دلالة التوفيق وهي من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته وأقبلوا على ما أتاهم من عنده، فامنوا برسوله والنور الذي أنزل معه كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ *} [محمد : 17].

وأما الذين أعرضوا عن ذكره وأزاغوا عما دلَّهم عليه، فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير، كما قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *} [الصف : 5].

فالمقبلون على الله القابلون لما أتاهم من عنده هُدوا دلالة وتوفيقاً، والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة، وحرموا من التوفيق جزاء إعراضهم[2].

### 6 . موقفه من التصوف:

أدرك ابن باديس أهمية إصلاح مسار التصوف ومواجهة العديد من أصحاب الطرق الذين خرجوا بمذاهبهم عن أصول الدين ومبادئه، كما أدرك أن القضاء على الخرافات وعوامل الجهل من أهم عوامل الإصلاح الديني وبناء المجتمع السليم، ولقد استطاع ابن باديس أن يصحح مسار التصوف الإسلامي في بداية

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، د. محمود قاسم ص 188.

(2) مجالس التذكير ص 55.

القرن العشرين عائداً بشعبه إلى الحقيقة القرآنية وطريق الحياة، واستطاع أن يواجه الطرق المنحرفة وأصحاب الفساد الخلقي والاجتماعي[1].

لقد عاش ابن باديس حياته شاباً وشيخاً كمعظم من عرفهم تاريخ الفكر الإسلامي من الخلفاء الراشدين إلى المصلحين المعاصرين محباً للزهد السني والتصوف السلفي، متجملاً بأخلاق أصحابهما[2].

ولقد حدد ابن باديس موقفه من التصوف عموماً ومن أصحاب الطرق على الخصوص، كما حدد الخطوات العملية للإصلاح الديني والتصوف بوجه عام في:

. ضرورة التمييز بين الدين والتصوف، وبين التصوف الحقيقي وما يدعيه أصحاب الطرق بأنه من الدين أو من التصوف، لأن التصوف الحقيقي هو التصوف السني، أو هو التصوف القرآني الذي يقوم على أصول ثابتة وواضحة من القرآن والسنة، ويتطلب تحققه قراءة القرآن وفهم معانيه واستيعاب أحكامه وتطبيقه لها، فالقران فيه علاج القلوب وشفاء النفوس.

. إن التصوف الحقيقي هو الذي يبعد عن الشرك وينقذ صاحبه من الضلال، ويحقق الوعي الديني ويسهم في إصلاح المجتمع وتطوره.

ـ إن التصوف الحقيق لا يقف عند غاية الوصول إلى الله أو المعرفة بالله عن طريق المجاهدة، بل يجب أن يتعدى ذلك ليكون أسلوباً للحياة وأداة لبناء الإنسان وتحقيق سعادته وتوازنه المادي والروحي لكي يؤدي وظيفته الاجتماعية.

ـ إن التصوف الحقيقي لا بد أن يقوم على التذكير والتفكير في القران، فالقران أفضل الأذكار وتلاوته تطهر القلوب من الغفلة والقسوة والأوهام والشكوك والجهالات.

. إن التصوف الحقيقي لا بد أن يرتبط بالحياة والمجتمع، ولهذا لم يسمح ابن باديس بانتشار صور الغلو في

---

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 18).

(2) أسس مشروع النهضة عند ابن باديس (1 / 121) ، د. محمد بن سمينة.

التصوف أو الدين بين العامة أو الخاصة، وعمل على بيان خطرها عند إنتشارها، وأنها السبب في هلاك الأمم وتأخرها، ولذا أوجب ضرورة مواجهة أعمال الشرك والجاهلية التي يأتيها بعض أدعياء التصوف وبيان خطرها على الدين والمجتمع.

ـ ضرورة استخدام العقل لكي يفرق به بين الحق والباطل، والخبيث والطيب، عند مواجهة أصحاب الاتجاهات الفكرية الضالة والتي تدعي النبوة والصلاح وتمارس كافة مظاهر الشرك والوثنية ؛ وذلك اقتداء بما في القرآن والسنة ومواقف رجال السلف الذين تأسوا بموقف النبي في الاقتداء بمن سبقه إستجابة لقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام : 90].

. الإشادة وإنصاف بعض المتصوفة لما كانوا عليه من استقامة وصدق التدين وصالح الأعمال، فقد أشاد ابن باديس في هذا المضمار بما حفل به تراثنا من عاطر شذى بعض المتصوفة من المتقدمين وطيب ماثرهم في خدمة الدين وقضايا الأمة، كما نوه بما تبرزه بعض أعمال هؤلاء من المتأخرين من تأثيرات حسنة على مجريات الواقع المعيشي، وقدم هؤلاء وأولئك كنماذج قدوة حسنة للتصوف السني والتدين الصحيح، وممن ذكرهم من المتقدمين «الإمام أبي القاسم القشيري» صاحب الرسالة القشيرية في التصوف. ومن المتأخرين جملة من أعلام الإصلاح في العصر الحديث محمد بن عبد الوهاب، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، والإمام المجاهد أحمد الشريف السنوسي، وقد أشاد خاصة بصدق تدين هذا الأخير فقال عنه: فقد كان على جانب عظيم من التمسك بالكتاب والسنة والتخلق بأخلاق السلف الصالح[1].

ـ وفي الجزائر نوه خاصة بصدق تدين إخوانه المصلحين وتمثلهم بسيرة السلف الصالح في الاعتقاد والسلوك، كما أشاد بحسن سيرة مجموعة كبيرة من شيوخ الزوايا ورجال العلم في أنحاء عديدة من الوطن من

(1) أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد (1 / 127).

بينهم: شيخ زاوية غليزان[1]، وشيخ زاوية بن طكوك بمستغانم وشيخ القادرية بها أحد شيوخ زاوية الشيخ المختار بأولاد جلال والشيخ «محمد علي ال خليفة» والد الشاعر محمد العيد. وقد ظل طوال حياته وفياً لهذا المنهج ناهضاً بواجب النصح، فاتحاً صدرلاه لجميع إخوانه التائبين الايبين إلى طريق الهدى الصادين عن طريق الضلال، مشيداً بذوي العلم والفضل والصلاح من أهل الزوايا، حريصاً على ربط صلات المحبة والتعاون معهم، عاملاً على رأب الصدع حاثاً على الاعتصام بعرى الأخوة والوئام.

وهاهو ذا في آخر مقال نشره في حياته (سبتمبر 1939م) يشيد فيه بفضل عالمين اثنين من أبناء الطريقة هما: الشيخ المكي بن عزوز (1854م ـ 1915م) والشيخ محمد الخضر حسين، هذان العالمان اللذان لم يقعد بهما انتسابهما إلى التصوف «الطريقة الرحمانية» عن سمو مركزهما إلى درجة مرموقة في العلم والصلاح والإصلاح «وكلاهما من ابناء الطرقية»، ولكن العلم سما بهما إلى بقاع التفكير والهداية والإصلاح، ولكليهما ـ أحسن الله جزاءهما ـ كتابات في التحذير مما عليه الطرقية اليوم تارة بالتصريح، وتارة بالتلميح[2].

وقد قام ابن باديس بمواقف عملية لإصلاح وتوجيه وتصحيح مسار التصوف ووقف ضد أدعيائه.

**أ ـ موقفه من أصحاب العزلة وأدعياء الزهد:**

أوضح ابن باديس لأدعياء الزهد والعزلة، أن العزلة في الإسلام تختلف عن العزلة الهندية أو الرهبنة المسيحية لأن عزلة النبي (ص) واختلاءه في غار حراء بعيدة في معناها ومضمونها عن فكرة الاختلاء الهندية، حيث ينعزل أحدهم عن الناس تماماً ويذهب في أودية الخيال لتحصيل حالة نفسية خاصة به يعدها نعيماً

(1) المصدر نفسه (1 / 127).

(2) المصدر نفسه (1 / 128).

روحياً، أما الاختلاء النبوي والعزلة كان للتفكير والتدبر لإيجاد طريق خلاص لهذا العالم من الضلال، والقيام بخدمة عظيمة عامة للبشر، وشتان بين الحالتين[1].

### ب . موقفه من أصحاب الاتجاهات الحلولية وأدعياء النبوة:

كتب رسالة مكونة من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة بعنوان: مقام النبوة والرسالة ومخاطبة ذلك المقام بخطاب الجهالة. وفيها قام بالرد على أصحاب غلاة المتصوفة الذين غلوا في خيالاتهم وفلسفية وحدة الوجود والبرهمية الهندية، وقال واصفاً غلوهم وضلالهم: قد شغل بهذه الخيالات أفراد عن فطرة الله وشرعه معاً فجعلوها أعلى مراتب العبودية، وتأولوا لها بعض آيات الكتاب العزيز كقوله: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الكهف : 28].

وما إرادة وجهه تعالى إلا الإخلاص له في كل عمل مشروع من مصالح الدين والدنيا، وإرادة وجهه ليس معناه الوصول لذاته بعد التجرد من كل نعمة في الدنيا والاخرة جميعاً، فإن الاتصال بتلك الذات العلية القدسية التي لا تدركها العقول ولا تدنو من كنهها الأفكار ولا الأوهام مما لم يتعلق به تكليف ولم يرد به شرع[2].

وبين ابن باديس أنه من المستحيل تعقل فكرة الاتحاد أو الامتزاج بين الله والإنسان[3].

ثم كشف ابن باديس في وضوح حقيقة أدعياء النبوة مبيناً أنها ليست من الدين ولا من التصوف فقال: قد ضلت وهلكت باتباع أشخاص ادَّعَوا النبوة من هذه الأمة طوائفُ كثيرة، وقد كان منهم أول الإسلام مسيلمة الكذاب والأسود العشي ثم كان المختار بن عبيد الثقفي، ثم كان منهم في عصرنا قبيلة الباب وإليه تنسب البابية، والبهاء، وإليه تنسب البهائية، وغلام القادياني وإليه تنسب القاديانية. وقد كادت هذه القاديانية تدخل الجزائر على يد طائفة الحلو وشيخها لولا أن قام في وجهه العلماء المصلحون وفضحوهم على

---

(1) الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة ، د. مصطفى حلمي ص 227 . 230.

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 22).

(3) المصدر نفسه (2 / 23).

صفحات «الشهاب» أيام كان أسبوعياً، فرد الله كيدهم ووقى الله الجزائر شراً عظيماً، وقد أخبر النبي (ص) عن هؤلاء الكذابين بأنهم ثلاثون، فلا بد أن يصلوا إلى هذا العدد وقد تكون بقيتهم في أحشاء الأيام(1).

**ج ـ موقفه من أصحاب الغلو والبعد عن الدين:**

الذين أدخلوا السحر والشعوذة، وأعمال الدجل والكهانة في الدين، فكان موقف ابن باديس الحازم في كشفهم وبيان زيف اعتقادهم فقال فيهم: أنهم كانوا يتخذون من القرآن واياته وأسماء الرحمن هزواً، وكانوا يستعملونها في التمويه والتضليل والقيادة والتفريق، ويرفقونها بعقاقير سمية ويهلكون العقول والأبدان، وحاول ابن باديس أن يؤكد على أن التصوف الحقيقي بعيد عن كل هذا الدجل، وأنه يقوم على العلم والعمل الصالح، بدليل أن القرآن الكريم فيه نهي صريح عن السحر والكهانة والاعتقاد في الخيالات والأوهام(2).

ولهذا كان موقف ابن باديس من هؤلاء هو التحذير من خطرهم وكشف أخطائهم وما في أعمالهم من شرك وخرافة وبُعد عن صحيح الدين، وكان يحذر من ذلك بقوله: احذر كل دجال يتاجر بالرقى والطلاسم ويتخذ آيات القرآن هزواً، ويقول الله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ *} [البقرة : 186].

**د ـ موقفه من جماعة ترك العبادة:**

الذين يهدمون فكرة الخوف والرجاء، وكان يمثل رأي هذه الجماعة ما أعلنه شيخها المولود الحافظي من مقالة بجريدة البلاغ الجزائرية جاء فيه: أن العبادة يجب أن تكون لله دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب لأن كمال التعظيم لله ينافيه أن يصاحب العبادة خوف من العقاب أو رجاء الثواب.

فكان موقف ابن باديس هو الرد العملي في مقالة بجريدة الشهاب ـ عدد رمضان 1351هـ بعنوان: أيهما أكمل العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب؟ أم العبادة دونهما؟ وجاء فيه:

---

(1) حياته وآثاره (2 / 239).

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 24).

إن حقيقة العبادة هي غاية الذل والخضوع مع الشعور بغاية الضعف والافتقار، ومن مقتضى الضعف أن يخاف ويوجل، ومن مقتضى الافتقار أن يرجو ويطمع، وأن العبادة في الإسلام وضعت على خوف العقاب ورجاء الثواب لما في ذلك من إظهار غاية عبودية العبد بضعفه وافتقاره أمام ربه المهيمن العظيم، فكيف يهدم هؤلاء فكرة الخوف والرجاء التي ترتبط بالثواب والعقاب ويقولون: إن رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الإخلاص في عبادة الله.

وبين ابن باديس بمختلف الأدلة العقلية والنقلية إثبات أن هؤلاء يهدمون صروح التوحيد بهدمهم أصلاً من أصول العباد لله، وأن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم فقراء المدعين لطريقة الزهد المتمسكين بالبدعة ؛ يذهب بهم غلوهم إلى أن يعتقدوا في أن الكمال يكون في عدم طلب الدنيا والاخرة، ويزعمون أن العبادة المجردة عن الرجاء والخوف ليست بالعبادة التي جاء بها الإسلام، لأن العبادة الشرعية موضوعة على الرجاء والخوف وأن الطمع في فضل الله لا ينافي إخلاص العبادة[1].

**هـ . موقفه من أصحاب الطريقة التجانية:**

بوصفها واحدة من الطرق الضارة بالإسلام، وكان موقفه من محاولته دحض مزاعم أصحابها بمختلف الأدلة العقلية والنقلية وأقوال السلف والأئمة الصالحين.

وبدأ ابن باديس رده عليهم بعرض مزاعمهم الباطلة ومنها:

. أن قراءة صلاة الفاتح أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرة وذلك بالنسبة لمن لم يتأدب باداب القرآن.

(1) المصدر نفسه (2 / 26).

. أن صلاة الفاتح من كلام الله القديم ولا يترتب عليها ثواب إلا من أعتقد ذلك.

. أن صلاة الفاتح علمها النبي لصاحب الطريقة الشيخ محمود التيجاني ولم يعلمها لأحد غيره.

. أن من انتسب لهذه الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب وتغفر ذنوبه كلها الصغار والكبار حتى التبعات.

ثم بعد ذلك جاء ابن باديس فقال: إن صلاة الفاتح ليست من كلام الله لأنها ليست مثل الصلاة الإبراهيمية، وأن النبي (ص) لم يعلمها لصاحب طريقتهم، وأنه لا فضل لأتباعه إلا بتقوى الله، وأن القرآن الكريم وحده كلام الله، أما صلاة الفاتح فهي من كلام المخلوق، ومن أعتقد أن كلام المخلوق أفضل من كلام الخالق فقد كفر، ومن جعل ما للمخلوق مثل ما لله كفر بجعله لله نداً، فكيف بمن جعل ما للمخلوق أفضل مما للخالق، هذا إذا كانت الأفضلية في الذات، أما إذا كانت الأفضلية في النفع ؛ فإن الأدلة النظرية والأثرية قاطعة بأفضلية القرآن على جميع الأذكار وهو مذهب الأئمة من السلف إلى الخلف[1].

**و . مقامات الأدب الصوفي عند ابن باديس:**

كان اهتمام ابن باديس بالتصوف والطرق الصوفية لغاية إصلاحية ودينية وهي تنقية الدين من مظاهر الغلو والشرك والضلال.

وفي هذا الإطار قدَّم لنا العديد من الاراء الهامة والقواعد اللازمة لإصلاح الدين والتصوف، وعرض لأهم مقامات الأدب الصوفي وفي مقدمتها مقام القرب من الله والحب والمعرفة والتوبة والزهد... كما بين حقيقة الأدب الصوفي والأسس الواجب توافرها في مقام الأدب مع الله ومع الناس، لأن التصوف القرآني عنده كله أدب ومن شروط الأدب الصوفي التي أوضحها ابن باديس:

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 142 إلى 150)، عبد الحميد بن باديس آراؤه الفلسفية ص 27.

ـ أن هذا الأدب هو الذي يلزم المتصوف التأدب مع الله ومع النبي (ص) ومع الناس، وعلى ذلك فإن أكثر الناس محافظة على الأدب وحرصاً عليه هم شيوخ الزهد والعلم من أئمة التصوف العارفين.

ـ أن هذا الأدب يستلزم إبطال زعم كثير من الألقاب التي لقب بها بعض المتصوفة مثل قطب الزمان الفرد الذي يعتقد أن الكل دونه والعارف بالمسالك وغيرها، فيجب ألا تطلق جزافاً على كل من يدعي التصوف أو المعرفة لأنها من صفات العارفين الواصلين وأسمى درجات العارفين الكاملين.

ـ أن هذا الأدب يستلزم عدم الغرور، لأن من الأدب عدم الادعاء بعلو منزلة الأولياء والصالحين الذين يأتون بما لا يصدر عن العامة الجاهلين، فالغرور والغفلة أعظم أسباب المحنة، وأن حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن، وأن غاية الأدب الصوفي الوصول إلى هذا المقام، مقام الأدب مع الله، ومع الناس، فنرى الصوفية أكثر أدباً مع شيوخهم ومربيهم ومريدهم حتى قال قائلهم: من لا أدب له لا شريعة له.

أوضح ابن باديس أن مقام الأدب مع الله يتفرع عنه عدة مقامات أهمها:

**ـ مقام القرب من الله:**

وهو مقام رفيع يبتغيه كل من سلك الطريق وفيه السكينة والاطمئنان، وفيه يكون السالك في حالة نفسية خالية من كل قلق، وغاية هذا المقام الحصول على مرضاة الله. فشعور العبد برضى الله هو الغاية التي يسعى إليها الساعون ويعمل لها العاملون هو رضي الله.

فالعمل الصالح ترتضيه العقول وتستعذبه الفطر، ولكنه لا يفيد صاحبه إذا لم يبلغ به مرضاة الله.

ويرى ابن باديس أن مقام القرب أدب دائم ؛ لأن الأدب سيكون في الوقت والحال والمقام، ومن لازم

الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب[1].

**. مقام التوبة:**

ويسميه ابن باديس أحياناً بمقام الإخلاص والعبادة على اعتبار أن العبادة عمادها التوبة والعمل والعلم الجامع الصحيح بقواعد الإسلام وأصوله وهو سبيل الإنسان إلى المغفرة والطهارة.

ويصف ابن باديس، طريق ذلك المقام بقوله: إن كثرة الرجوع إلى الله يقابلها كثرة المغفرة منه، يفتأ العبد راجعاً راجياً المغفرة ولا تصده كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع، فقد كان عباده يذنبون ويتوبون ويغفر لهم ولا يزالون كذلك ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفوراً.

فالتوبة هي السبيل السالك الطريق نحو المعرفة والكمال وهو الطريق الوحيد لبناء الإنسان وخلاصه، ومن ثم فلا تصوف إلا عن علم وفهم للشريعة وأصولها والعمل الناتج عن الإيمان القوي بالله ورسله وكتبه واليوم الاخر بالتوحيد التام لله الواحد الأحد[2].

**. مقام المعرفة:**

والطريق إلى هذا المقام يبدأ بكثرة التفكر والتأمل في آيات الله الكونية وفي آياته القرانية، وبالمزيد من المعرفة والقرب ؛ يقوى الإيمان ويتقدم الإنسان في مراحل أعلى من المعرفة ودرجات الوصول.

ويرى ابن باديس: أن أعلى مراتب معرفة الله تعالى في الدنيا هي معرفة كل شيء به ومعرفته في كل شيء وبكل شيء، وأما أعلى مراتب معرفته في الاخرة فهو مقام الرؤية بتجليته الأعلى في جنات عدن، ولما كان إدراك كنه الذوات المخلوقة له تعالى فوق استطاعة خلقه ؛ فإن الاشتغال بذكر الجزاء عن العمل الموصل

---

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 29).

(2) المصدر نفسه (2 / 30).

إليه ؛ جهل لا علم ولا معرفة، فلا بد إذن من العمل مع المعرفة، والإقلاع عن العادات والبدع، والإقبال على التهليل والتحميد والتسبيح، فيحرر العارف روحه من سلطان المادة ويسمو إلى عالم علوي، عالم الطهر والكمال، ثم يقبل على تلاوة القرآن بتدبر فينير قلبه وروحه ويحرر عقله من ربقة الجهل وقيود الأوهام والخرافات(1).

**مقام الحب:**

يرى ابن باديس أن خير مثال على هذا المقام هو الحب النبوي، حيث يبدأ المحب للنبي بالتأدب معه في الأقوال والأفعال، حتى يكون موقف المحب من الأنبياء كموقف العبيد من السادة، فيجب علينا معهم ـ أي الأنبياء ـ اعتقاد الحرمة وإكبار الجانب ولزوم الأدب في الأقوال والأفعال وجميع الأحوال. وأن مقام الأدب في الحب النبوي معروف عند السادة العارفين وهم أرسخ الناس قدماً في محبة النبي (ص) ويظهر ذلك في صلواتهم وأدعيتهم ومناجاتهم وشوقهم.

ـ ويؤكد ابن باديس على عمومية هذا المقام وعلو شأنه، لأن هذا الأدب ضروري لكل مسلم ولكل إنسان، إذ أن من لا يراعي الأدب في خطاب سيد المرسلين كيف يصلح أن يكون من العارفين السالكين، ومن لا يؤدب نفسه كيف لا يؤدب غيره(2).

ويؤكد ابن باديس كذلك على أهمية ذلك المقام، ويرى أن هذا المقام كله خير وقد سار فيه جميع الصحابة، وأن الحب النبوي يجب أن يكون بعيداً عن المصالح الدنيوية ليكون موافقاً لحب الصحابة والتابعين والصالحين ولهذا كان قول ابن باديس لهم:

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 171).

(2) المصدر نفسه (3 / 160، 161).

اعلموا أن خير هذه الأمة هم أحبها في نبيها، وهم أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على لسان المعصوم، وعلى قدر حبهم فيه كان تعظيمهم له وأدبهم معه[1].

**. مقام الزهد:**

وهو مقام رفيع وصل إليه زهاد الصدر الأول في الإسلام، ويقصد ابن باديس كبار الصحابة وأوائل الزهاد أمثال الحسن البصري ت 110هـ، وإبراهيم بن أدهم ت 159، ورابعة العدوية ت 185هـ، وغيرهم.

وهؤلاء تميز تصوفهم بالزهد في الدنيا والاتجاه نحو الاخرة مع التمسك بالطاعات والقربات، وكان الزهد والورع والإخلاص عندهم وسيلة لا غاية، وسيلة إلى القرب من الله والوصول إلى المعرفة. أما أدعياء الزهد هجروا الدنيا والعمل، وابتعدوا عن الحياة والناس وأصبح الزهد عندهم غاية، وهؤلاء عارضهم ابن باديس وبيَّن لهم حقيقة الزهد فقال: صحيح أن حقيقة الدنيا وراء قشورها الظاهرة، ولكن ليس معنى ذلك من الزهد أو التصوف، وأزهد من الصوفي الذي لا يملك الدنيا ذلك الصوفي الذي لا تملكه الدنيا ولا يداخله الوجل ممن يملكونها[2].

ـ وتم بالفعل تصحيح العديد من المفاهيم الخاطئة التي كان أصحاب الطرق يظنونها عبادة، وهي في الحقيقة مظاهر للشرك بالله، وتراجع عدد غير قليل منهم وانضموا إلى صفوف ابن باديس وجمعية العلماء لينشروا الدين الصحيح.

ـ لقد ظهرت يقظة المصلحين ورجال العلم في الجزائر، كما ظهرت طبقة من المثقفين يؤمنون بضرورة الإصلاح الديني الشامل بوصفه الأساس في بناء الدولة والعمران فأدى ذلك إلى الحد من انتشار ادعاءات الطرق الخارجة عن الكتاب والسنة وتمَّ عزل الكثير منها عن الشعب.

ـ أثبت ابن باديس بالقول والعمل أن القرآن كتاب عقيدة ومنهاج حياة، وأنه مصدر وأساس كل فكر وفلسفة تتخذ منه ومن أحاديث الرسول (ص) قاعدة وهادياً ، ونتيجة لذلك أصبحت الدعوة إلى التنزيه

---

(1) ابن باديس الزعيم الروحي ، د. محمود قاسم ص 92، 93.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 481 . 514).

والتوحيد محوراً لكل تفسير وأساساً لكل دعوة إصلاحية، ومن أجل هذه وصف ابن باديس بأن المخلص والنور والمصلح لأمته ؛ الذي يهديهم ويقودهم إلى المستقبل الأفضل، لأنه العارف بسبيل السعادة والنجاة والسائر على هدى السلف والسيرة النبوية، وكان الأثر المباشر لدعوته الصادقة ظهور مدرسة في الإصلاح الفكري والأخلاقي والاجتماعي في الجزائر والعالم العربي من تلاميذه والسائرين على نهجه في الدعوة والإصلاح[1].

. أثبت أن التوحيد أساس الدين وأساس جميع الأعمال، وأن كل شرك في الاعتقاد أو الفعل فهو باطل، ولذا واجب ترك جميع البدع والمنكرات الدخيلة على الإسلام، وأن البدعة هي كل ما لم يثبت عن النبي قوله أو فعله، ونتيجة لذلك ظهرت بوادر النهضة العلمية، واختفت العديد من الزوايا والطرق الخارجة عن روح الإسلام وانتشار الوعي بضرورة الاعتقاد بأن العلم والعمل معاً أصل الإيمان، وأن ليس للإنسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره، وقد يدخل في عموم عمله ما يكون سبباً له كالذي يعمله ولده أو تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه وما سنه من سنة حسنة أو سيئة فله مثل جزاء من يعمل بها من بعده[2].

ـ والاهتمام ملحوظ الان باراء ابن باديس: والأثر الواضح للمدرسة الباديسية في الإصلاح على العديد من المفكرين وأساتذة الفلسفة في مصر والعالم العربي، وانظر في ذلك مؤلفات كل من د. محمود قاسم، د. يحي هويدي، د. مصطفى حلمي، د. أحمد الجزار، د. محمد البهي، د. عمار الطالبي، تركي رابح، نور الدين حاطوم، د. محمد طه الحاجري، فهمي جدعان، ود. السيد محمد عماوي، د. منى أبو زيد.

ويلاحظ أن هذا الأثر قد بدأ منذ ظهور ابن باديس وانتشار ارائه واستجابة العديد من المفكرين والمثقفين المعاصرين له لدعوته الإصلاحية، وكان في مقدمتهم مالك بن نبي، والعديد من شعراء وأدباء الجزائر وعلمائها،

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 33).

(2) حياته وآثاره، ابن باديس (1 / 169 . 171).

والذي اعترف بفضل ابن باديس وأثره الإيجابي عليه فقال: كنت قبل صحبتي هذا الإمام ولوعاً بأباطيل الخرافيين من الطرقيين راسخ اليقين في الإيمان بطواغيت الدجالين[1].

### رابعاً: فقه السنن الإلهية:

اهتم العلاَّمة ابن باديس بالسنن الإلهية واعتبرها من أهمَّ الهداية القرآنية للإنسان المسلم.

فبناء الدول وتربية الأمم والنهوض بها يخضع لقوانين وسنن ونواميس، تتحكَّم في مسيرة الأفراد والشعوب والأمم والدول، ولقد اهتم ابن باديس بفقه السنن الإلهية، وتعامل مع القوانين والسنن الإلهية بحكمة وقدرة فائقة.

#### 1. سنة تغيير النفوس:

قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ *} [الرعد : 11].

إن التغيير الذي قاده النبي (ص) بمنهج الله تعالى بدأ بالنفس البشرية، وصنع منها الرِّجال العظماء، ثمَّ انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل النَّاس من الظلمات إلى النُّور، ومن الجهل إلى العلم ومن التخلف إلى التَّقدُّم، وأنشأ بهم أروع حضارة عرفتها الحياة[2].

إن ابن باديس سار على هدي ونهج رسول الله (ص) في تغيير النفوس واهتم بالمنهج القرآني في تغيير العقائد والأفكار والتصور وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس تلاميذه وأبناء الشعب الجزائري، ورأى أهمية التربية والتعليم في إعداد جيل عظيم يكون من أهم أهدافه القضاء على الاستعمار، والطريق إلى ذلك: فهم المسلمين لدينهم، ويكون ذلك عن طريق إصلاح العلماء، لكي يقوموا بتعليم عامَّة الناس.

---

(1) عبد الحميد بن باديس آراؤه الفلسفية (2 / 35).

(2) نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني ، لتوفيق محمد سباع ص 367.

وقال ابن باديس: صلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم الذين كيفما يكونوا يكون عموم المسلمين: فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون.

وبالتالي لا صلاح لهم إلا بإصلاح علمائهم: فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم.. لأن العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، مؤكداً أن لا صلاح لعلماء الأمة ؛ إلا إذا تم إصلاح أمر التعليم فيها، لأنه هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم، ونعني التعليم الذي يكون به المسلم عالماً من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم، ويقتدون فيه[1].

وهذا هو الهدف البعيد المدى والتصور الناضج للإمام للتعليم، تخريج النافعين للأمة الذين يكونون بمثابة القدوة العلمية والعملية الصالحة والطيبة لهم. ويبين ابن باديس أن الإصلاح الجذري للتعليم لا يتحقق إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته، فيما كان يعلم (ص) وفي صورة تعليمه، فقد صحَّ عنه (ص) فيما رواه مسلم: أنه قال: «إنما بعثت معلماً»[2]، حتى يتمكن التعليم بذلك من أداء دوره الرسالي والحضاري في: نشر العلم لكل واحد، للكبير والصغير، والمرأة والرجل، بحِلَقِ الدرس ومجالس الوعظ وخطب المنابر، وبكل طريق موصل[3] إلى تحقيق أساس التغيير الذي يقوم على تربية الأبناء والطلبة، على العلم الصحيح والخلق المتين ، الذي ينبغي أن ينطلق من داخل الذات ، أو الضمير للإنساني ، لا من المؤسسات

(1) الشهاب ج 11، 10 ص 478.

(2) الشهاب ج11، م10 ص 480.

(3) جهاد ابن باديس، عبد الرشيد زرّوقة ص 169.

الاجتماعية، فإن إصلاح الذوات الفردية، هو الذي يجر بالضرورة إصلاح المجتمع كله. وهو أصل كل انطلاقة حضارية لأي مجتمع، وصانعها وعلى هذا الأساس، وإنطلاقاً من هذا المنطلق ؛ اتجه ابن باديس في عمله وحركته إلى التعليم، وفرَّغ كامل قواه فيه، إيماناً منه أن الإصلاح ينبغي أن ينصبّ على العقل أولاً، أي: إصلاح العقائد، وعلى الأخلاق ثانياً، أي: تقويم النفس وبناء الفضائل، لأن الباطن أساس الظاهر، والعلم مبدأ العمل لا خارجياً، ولأن مبادئ الإسلام هي أصلاً مبدأ الإصلاح، فقد لزم في رأي ابن باديس، أن تتحقق النهضة بما هو ذاتي[1].

فبدأ تعليمه للصغار في المسجد أولاً، الذي حوَّله إلى معهد للدراسة وتخريج أفواج الطلبة منه، ثم لما تزايد العدد وكثر، ولم يعد المسجد قادراً على استيعابهم انتقل إلى تأسيس وفتح المدارس الحرة وكان هدفه، من حركته التعليمية الواسعة، تخريج جيل قرآني: يتقن حفظ القرآن وأداءه، ويحسن فهمه والعمل به، ويتخلق بأخلاقه ويتربى على هديه، ثم ينشر بواسطته دين الإسلام في أرض الله[2].

ولتحقيق ذلك، كان الإمام ابن باديس يربي تلامذته على القرآن الكريم وهداياته، فيقول مؤكداً ذلك: فإننا ـ والحمد لله ـ نربي تلاميذنا على القرآن الكريم من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة امالها، وفي سبيل تكوينها تلتقي جهودها[3].

حتى يصير المسلم الجزائري المربي والمغَيّر على يد حركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية: رجلاً عزيزاً قوياً عالماً، محسناً كسوباً، معطياً من نفسه اخذاً لها عارفاً بالحياة سباقاً في ميادينها، صادقاً صابراً، هيناً إذا أريد منه

(1) المصدر نفسه ص 454 ـ 455.

(2) جهاد ابن باديس ص 170.

(3) الشهاب: ج4، م14 ص 291.

الخير، صلباً إذا أريد على الشر[1].

وإذا صار كذلك من تربية العلماء له: يحسن إدراكه للأشياء وفهمه لمعنى الحياة، وتقديره لوظيفته فيها، وعلمه بحظه منها وينضج عقله وتفكيره، ويلمّ بزمانه وأهل زمانه، ويتقاضى من أفراد المجموعة البشرية، ما يتقاضونه منه من حقوق وواجبات، ويرى لنفسه من العزة والقوَّة، ما يرونه لأنفسهم[2].

وكان الطلبة عندما يقصدون للدراسة على يديه والتعليم في المساجد التي يعلم بها أو المدارس التي كان يشرف عليها أو أشرفت عليها الجمعية كمؤسسة ـ فيما بعد ـ يخاطبهم عند الانتساب إليها مبيناً لهم طبيعة الدراسة ومراحلها وهدفها قائلاً لهم: إنكم جميعاً أبنائي، وخير لي ولكم أن تكون الرابطة بيننا ـ منذ الان ـ لهذا يجب أن تعلموا من أنكم مطالبون بقضاء فترة هنا عندنا، لا تقل ولا تزيد عن ثلاث سنين وبعدها تختارون أحد أمرين:

ـ الالتحاق بالمعاهد العلمية خارج الوطن لإتمام الدراسة أو التجنيد في كتائب المعلمين لأبناء هذه الأمة والعمل في ميادين الجهاد من أجلها، ومن أجل المحافظة على دينها ولغة دينها، ويترك لهم أمر الاختيار الحر المسؤول ليذكرهم بعد تحديده قائلاً: أنتم الان أطفال صغار، وغداً إن شاء الله رجال كبار، وأنا لا أريد من هذه الرجولة إلا الشجاعة، وشدة البأس في الحق والخير والفضيلة، فخذوا حظكم من الشجاعة منذ الان، وحددوا معالم حياتكم منذ البدء، إن أمتكم وبلادكم بحاجة إليكم، فاقرؤوا هذه الآية الكريمة من كتاب اللهَ: {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ *} [التوبة : 122]، ثم اعملوا في صبر ومثابرة وجلد على تحصيل العلم، الذي به تهيئون أنفسكم لما أنتم عليه مقدمون.

---

(1) البصائر س1، ع37 ص 7.

(2) الآثار للإبراهيمي (1 / 215).

وانتظم الطلبة أفواجاً أفواجاً في المساجد والمدارس التي يعلم فيها ابن باديس وإخوانه العلماء والتي تضاعف عددها حتى: بلغ نحو المائة والخمسين مدرسة تسيرها لجنة مؤلفة من خيرة المعلمين، وتشرف عليها وتتفقدها، وأخذت حركة الإمام ابن باديس تخطو خطوات عظيمة، نحو أهدافها الكبرى، فتتجاوز تأسيس وفتح المدارس الإعدادية إلى فتح المعاهد والثانويات كدار الحديث بتلمسان، ولم يكن هذا هدف ابن باديس فحسب في حركته العلمية التعليمية، بل كان الهدف الأسمى الذي لم يبلغ، هو إنشاء جامعة كبرى بعاصمة الجزائر على غرار الجامعة الزيتونية، تكون مركز إشعاع للثقافة العربية[1].وتنتقي حركة الإمام في تعليمها وبرامجها، الكتب المقررة في المواد الدراسية انتقاءً دقيقاً، فتختار ما هو أقرب إلى الإفادة وأعون على تحصيل الملكة العلمية. وتجتنب الكتب الجامدة المعقدة التي لا تفتق ذهناً ولا تبعث في نفس الدارس نشاطاً، وتختار للمطالعة في مختلف العلوم الكتب الحية السهلة[2].

ويقرر على الطلبة تدريس مقدمة ابن خلدون، لأهميتها العظمى، ليصبحوا بها عقولاً ناضجة راشدة، تعرف كيف تتحرك بالمبادئ من أجل خدمتها، وتحولها واقع حياة، وباعتبارها أساساً لتربية عقلية منهجية متفتحة، وإدراك بصير لسنن الاجتماع والعمران وحياة الدول، وخططِ السياسة والملك وفكر ناقد للأخبار والمعلومات وتنمي الحاسة التاريخية والقدرة على إدراك التطور وديناميكية التاريخ والمجتمعات الإنسانية، مع ملاحظة السنن الثابتة وتتابع المقدمات والنتائج[3].

ويوصي ابن باديس بقراءة ومطالعة الكتب التاريخية النافعة، ككتاب الأستاذ أحمد توفيق المدني (محمد عثمان باشا داي الجزائر سنة 1766م ـ 1791م) والذي فيه ذكرٌ لما كانت عليه الجزائر من قوة وعمران وما أصابها من تخريب وتدمير بعد الاحتلال، فيقول وإنه يتحتم على كل مسلم جزائري أن يقرأ هذا الكتاب،

---

(1) جهاد ابن باديس ص 171، 172.

(2) جهاد ابن باديس ص 172.

(3) من تاريخ الحركة الإسلامية ، د. محمد فتحي عثمان ص 84.

وإنك إذا ختمته أيها المسلم الجزائري لا بد أن تخرج منه تحبُّ من يجب أن تحب وتبغض من يجب أن تبغض.. لأن الحب والبغض سلاحان لازمان في الحياة، ولا بقاء لأمة بدونهما إذا استعملتهما في محلهما[1].

إن التاريخ مادة مهمة في إحياء الأمم والشعوب، ومفتاح لفهم الحاضر وبناء المستقبل، لقد كان أحد ميادين الصراع المرير الذي خاض غماره الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله ضد المشروع الاستعماري الاستيطاني، ذلك أن الاستعمار الفرنسي حاول جاهداً أن يبرر وجوده في هذه الديار على أطروحة تاريخية مغلوطة، قائمة على جملة من الأوهام والافتراءات كدونية الجنس العربي وتفوّق الجنس الأبيض وتحضره، وكون الأرض الجزائرية كانت في التاريخ القديم لاتينية مسيحية، وأن الجزائر لم تكن في يوم من الأيام أمة موحدة، وإنما هي شتات غير متالف من الأجناس أو هي في أحسن الأحوال أمة في طور التكوين، كما تفتقت عن ذلك عبقرية: طوربيز سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي.

وبالمقابل فإن مظاهر التخلف الحضاري والجمود الفكري، التي كانت المعهد الأول للإستعمار الذي كان ينطلق في فراغ الأمة الإسلامية، والتي اجتهد الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله في محاربتها من أجل الوصول بالأمة الإسلامية إلى مرحلة الصحة الحضارية، قد استند في ذلك إلى التاريخ وأحكامه وقوانينه التي تحكم سير النشاط الإنساني.

والقارئ لتراث الشيخ عبد الحميد بن باديس بتمعن يدرك أن التاريخ كان حاضراً عنده بقوة في كل ما كتب من بحوث ومقالات، وأنَّ مواقفه السياسية كانت مبنية على مواقف ثقافية فكرية استعمل فيها التاريخ ووقائعه وأحداثه. وعليه فلا غرو أن نجد الإمام ابن باديس قد جعل من مادة التاريخ مادة أساسية في دروسه التي كان يلقيها على طلبته في الجامع الأخضر بقسنطينة[2].

---

(1) الشهاب س3 ع136، ص 1.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 215.

ولذلك حين أصدر عضو جمعية العلماء الشيخ مبارك الميلي كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» راسله الشيخ عبد الحميد بن باديس مبيناً أهمية هذا الجهد في مواجهة الأطروحة الاستعمارية، راغباً إليه في ذات الوقت أن يحمل هذا الأثر النفيس عنوان «حياة الجزائر»، وهذا نص تلك الرسالة: أخي مبارك، سلام ورحمة. حياك الله تحية من علم وعمل وعلم، اطلعت على الجزء الأول من كتابك تاريخ الجزائر في القديم والحديث، فقلت لو سميته حياة الجزائر لكان بذلك خليقاً، فهو أول كتاب صوَّر الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سويَّة، بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهنالك، وقد نفخت في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر تحفظ اسمك تاجاً لها في سماء العلا، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين[1].

**أخي مبارك:**

إذا كان من أحيا نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً، فكيف من أحيا أمة كاملة، أحيا ماضيها، وحاضرها، وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها فليس والله كفاء عملك أن تشكره الأفراد، ولكن كفاءه أن تشكرك الأجيال، وإذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلاً، فسيكون في الأجيال الغابرة كثيراً، وتلك سنة الله في عظماء الأمم ونوابغها، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وأنا واحد من هذا الجيل بلسان من يشعرون شعوري، أشكرك لأقوم بما علينا من واجب، لا أقابل مالك من حق، جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وإنصاف. والسلام من أخيك عبد الحميد بن باديس.

فالتاريخ في نظر ابن باديس مقوم أساسي من مقومات الشخصية، وباعث من أهم بواعث النهضة. ولذلك كان رحمه الله دائم التذكير للإنسان الجزائري بهذا التاريخ حتى يبعث الاعتزاز بالوجود، ويدفعه للعمل من أجل تغيير واقعه وفي هذا يقول:

وإذا كنتم تثقون بأنفسكم فثقوا بنفوس مؤمنة صادقة،ولم لا نثق بأنفسنا وقد أعطانا الله عقولاً ندرك بها،

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 215.

ومواهب سنسخرها لما يرضي الله ورسوله، لنا مواهب مثل لما لغيرنا، ولنا من هذه القومية العربية الخالدة مثل ما لغيرنا، ولنا من هذا التاريخ الممتد البعيد مجد وملك مثل ما لغيرنا وفوق ما لغيرنا، ولقد أعطانا الله من هذا الدين الإنساني من هذا الدين العقلي الروحي ما يكمل عقولنا ويهذب أرواحنا، أعطانا وطناً شاسعاً مثل ما لغيرنا، فنحن إذاً شعب ماجد عظيم يعتز بدينه، يعتز بلغته، يعتز بوطنه، يعتز بقوميته، يستطيع أن يكون في الرقي واحداً من هذه الشعوب، وأن يفوق كثيراً من هذه الشعوب، ولنا من تاريخه الحافل ما يجعلنا نؤمن بصدق معتقدنا فيه[1]. ويواصل رحمه الله خطابه مبيناً ضرورة معرفة التاريخ.

إننا نعتصم بالحق ونعتصم بالتواضع عندما نقول: إننا شعب خالد، ككثير من الشعوب، ولكننا ننصف التاريخ إذا قلنا: إننا سبقناها في ميادين الحياة، سبقناها بهدايتنا، ونشرنا بينها الشريعة الحقة قبل أن تتكوَّن هذه الأمم، وسبقنا هذه الأمم في نشر هذا الحق أيام كانت في ظلمات من الجهل حالكة، أيام كانت تسبح في لجج من الأوهام والخيالات.

وذلك ما كنا فيه.وما سنعود إليه إن شاء الله، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين، اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة[2].

وجدنا الشيخ عبد الحميد بن باديس في افتتاحياته لخطبه ومحاضراته وكلماته التي كان يلقيها في جموع الشعب في المساجد والنوادي والمدارس حريصاً على إثارة هذا البعد التاريخي فها هو يقول: أيها الجزائري التاريخي القديم، المسلم الصميم[3].

---

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 146).

(2) المصدر نفسه (4 / 147).

(3) المصدر نفسه (5 / 316).

كما وجدناه يدعو الإنسان الجزائري أن يحاكم ما يعرض عليه من اراء وأفكار ومشاريع وخطط على التاريخ لأنه الحكم الفصل، فيقول رحمه الله: أيها الشعب الجزائري، أيها الشعب المسلم، أيها الشعب العربي الأبي، حذار من الذين يمنونك بوحي من غير دينك وأبطال دينك وملتك، استوح الإسلام ثم استوحِ تاريخك، ثم استوحِ قلبك، اعتمد على الله ثم على نفسك، وسلام الله عليك[1].

واستخدم ابن باديس التاريخ في بعث الاعتزاز بالمقومات الذاتية للشخصية، فكتب عن مجموعة من الصحابة والصحابيات، وأعلام السياسة ورجال الفكر، ورجال الفقه والدعوة، إذ كان الهدف من تلك التراجم خصوصاً رجال السلف ونساؤه تقديم النموذج الذي يقتدي به الشاب الجزائري المسلم المتحفز للنهضة والعامل لها، فكتب رحمه الله يقول: هذا باب جديد فتحناه في الشهاب. أردنا منه أن يطلع القراء على تراجم رجالنا ونسائنا من سلفنا الصالح وما لهم من صفات أكسبهموها الإسلام، وما كان منهم من أعمال في سبيله، ففي ذلك ما يثبت القلوب، ويعين على التهذيب ويبعث على القدوة، وينفخ روح الحياة، وما حيي خلف إلا بحياة سلف، وما حياة السلف إلا بحياة تاريخهم ودوام ذكرهم، ولسنا هنا لتتبع الأخبار واستيعاب الأحداث وإنما نقتصر على ما يحصّل أصل القصد[2].

فالهدف هو بعث الحياة في نفوس الشباب من خلال تقديم نماذج حية، عاشت حياتها بالإسلام وللإسلام فقدمت أروع الأمثلة في التضحية والبذل والعطاء والصبر ومواجهة التحديات، وما أحوج شباب الجزائر خصوصاً في تلك الفترة الحالكة إلى معرفة هذه الصفحات المضيئة من تاريخهم المجيد، حتى لا ينشؤوا مبتوتي الصِّلة عن الأصول الثابتة لأمتهم، وفي هذا الإطار يقول ابن باديس: إنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله، فأخذ الأصول الثابتة من

---

(1) المصدر نفسه (5 / 338).

(2) المصدر نفسه (3 / 21).

الماضي، وأصلح شأنه في الحاضر ومد يده لبناء المستقبل، يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه مُعرضاً عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته.

إن ابن باديس استوعب أن بناء الدول وتربية الشعوب والنهوض بها يخضع لقوانين، وسنن ونواميس، تتحكم في مسيرة الأفراد والشعوب والأمم والدول، ولقد اهتدى بهدي القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، ولذلك تعامل مع السنن والقوانين بحكمة، وقدرة فائقة.

إن التغيير الذي قاده ابن باديس بين أبناء الشعب الجزائري بدأ بالنفس البشرية، وصنع منها الرجال والأبطال الذين قادوا ثورة المليون شهيد، لقد اعتمد على المنهج القرآني في تغيير العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد : 11].

لقد انطلق ابن باديس وجمعية العلماء من هذه القاعدة الإلهية التي تدعو إلى صحة العقيدة واستثارة الفكر، وطهارة النفس وكمال الخلق واستقامة العمل[1].

## 2. الأخذ بالأسباب:

يقول ابن باديس: إن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وإن من تمسك بسبب بلغ إلى مسببه، سواء أكان براً أم فاجراً، مؤمناً أم كافراً[2]، والمسلمون لما أخذوا بأسباب العمران كما يأمرهم دينهم، سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع، وحين أهملوا تلك الأسباب تأخروا، حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها، فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليه من الذل والانحطاط[3].

(1) أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد (1 / 59).

(2) الحركة الإصلاحية ، محمد طهاري ص 38، تفسير ابن باديس ص 78.

(3) جهاد ابن باديس ص 167 إلى 193.

فقد بين ابن باديس: السبب في التقدم والتأخر، وهو التمسك والترك للأسباب[1].

لقد عمل ابن باديس بسنة الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية للوصول إلى أهدافه، واهتم بالتنظيم والقيادة والمشروع، ووضعِ البرامج وإعداد الخطط وتحديد المراحل، وبيان متطلبات كل مرحلة، فاستخدم الوسائل الاتية:

1 . الدروس المسجدية.

2 . تعليم الناشئة وتربية الأجيال.

3 . أرسل الطلبة المتفوقين للدراسة بالزيتونة.

4 . إصدار الصحف والمجلات.

5 . إستغلال النوادي وفتحها.

6 . حضور التجمعات والمؤتمرات العامة والدعوة إليها.

7 . الدعوة الشعبية والاتصال بالجماهير.

8 . الاحتجاجات الشعبية والرسمية، الفردية والجماعية، وبواسطة الوفود والرسائل والبرقيات الاحتجاجية، على كل القرارات التعسفية التي أصدرتها الإدارة الاستعمارية في حق الجمعية ورجالها وطلبتها ومؤسساتها الدعوية ونشاطاتها الإصلاحية، لمحاصرتها وخلق العوائق لها ولتضييق الخناق عليها، وللوصول إلى تعطيلها أو شلها عن العمل كلياً أو جزئياً[2].

9 . تكوين الجمعيات الخيرية، والفرق الكشفية والرياضية والفنية، والجمعيات المهنية، كجمعية التجار المسلمين التي أسستها الحركة بقسنطينة، والجمعية الاقتصادية وذلك لتحقيق الاستقلال الاقتصادي للشعب

(1) جهاد ابن باديس ص 167 إلى 193.

(2) المصدر نفسه.

الجزائري وإنعاش مصادر رزقه وعيشه حتى لا يبقى الاستعمار يتحكم ـ توجيهاً وتسييراً ـ فيها[1].

وكان ابن باديس يدعو ـ مشجعاً ومحرضاً كل جماعة يريدون تأسيس جمعية أو فتح مدرسة لتعليم الإسلام والعربية، أن يكاتبوه ويعرفوه، ليرشدهم إلى الوجوه القانونية، اللازمة لذلك[2].

10 ـ لم ينحصر نشاط ابن باديس داخل الوطن، فحسب بل امتد إلى فرنسا، لاستيعاب العمال المهاجرين، من خلال تأسيس نوادي تربوية، ترمي إلى إنقاذ الإخوان، الذين هم بصدد الانغماس في الرذيلة وفي الشارع، ومدهم بتربية الفكر، حسب التعاليم الدينية، والتي تضاعف عددها مع الزمن حتى وصل إلى ثمانية نوادٍ، اتسعت لالاف الأشخاص وضمتهم إليها، علاوة على فتح المدارس لتعليم الصغار والكبار.

وتخصص حركة الإمام بعثات علمية مكونة من أساتذة لزيارة وتفقد أحوال العمال الجزائريين هناك، ودراسة مشاكلهم والإشراف على استيعابهم تربية وتعليماً لهم ولأبنائهم عبر مؤسسات الحركة التي أنشأتها وفتحتها وكان على رأس الذين خصصوا لذلك الشيخان الفضيل الورتلاني، وسعيد الصلاحي[3].

إن ابن باديس رحمه الله بين أن الأسباب الكونية التي وصفها الله تعالى في هذه الحياة الدنيا وسائل لمسببات ـ موصلة ـ من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه بمقتضى أمر الله وتقديره وسننه في نظام هذا الكون، ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الاخر ولا يصدق المرسلين، ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم، نعم لا يضيع على المؤمن أجر إيمانه، ولكن جزاءه

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه ص 193.

(3) المصدر نفسه ص 194.

عليه في غير هاته الدَّار، كما أن الآخر لم يُضع عليه أخذه بالأسباب فنال جزاءه في دار الأسباب وليس له في الآخرة إلا النار[1].

وعندما فسر قوله تعالى: {كُـلاًّ نُمِدُّ هَـؤُلاَءِ وَهَـؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا *} [الإسراء : 20].

قال: وقد أفادت الآية حسبما تقدم ـ أن أسباب الحياة والعمران والتقدم مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ ـ بإذن الله ـ إلى مسببه، سواء أكان براً أو فاجراً مؤمناً أو كافراً، وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً، فقد تقدموا حتى سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع، لما أخذوا بأسبابها، كما يأمرهم دينهم، وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب. فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولا يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب.. إن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب[2].

**ـ الجمع بين الفكر والعمل والاهتمام بالصناعات:**

إن ابن باديس يرى بأن العلم ليس عبارة عن معلومات نظرية يتلقاها الطالب، وإنما هو عبارة عن الجمع بين الفكر والعمل، بين النظرية والتطبيق، ويرى كذلك بأن الميزة الكبرى للجيل الأول من المسلمين الذين فتحوا العالم ونشروا الإسلام في ربوع الدنيا هو تطبيقهم الإسلام على أنفسهم، وهذا جانب عملي.

وحرصاً منه رحمه الله على هذا البعد العملي في التعليم والتكوين، فقد أدخل الصناعات التطبيقية في مناهج التكوين.

فقد أدخل الصناعات التطبيقية في مناهج التكوين، ففي مقال له بعنوان إصلاح التعليم بجامع الزيتونة

(1) مجالس التذكير ص 82.

(2) المصدر نفسه ص 91.

دعا إلى ضرورة تدريس الحساب والجغرافية بأقسامها ومبادئ الطبيعة والفلك والهندسة[1].

وفي سنة 1930م أسس ابن باديس جمعية التربية والتعليم الإسلامية، وقد وقد حرَّر الشيخ بنفسه قانون الجمعية الأساسي، والذي جاء في المادة الثانية منه ما يلي: مقصود الجمعية هو نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية والفرنساوية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين.

وجاء في المادة الثالثة من قانون الجمعية: تسعى الجمعية لمقصدها هذا، أولاً: بتأسيس مكتب للتعليم، ثانياً: بتأسيس ملجأ للأيتام، وثالثاً: بتأسيس نادٍ للمحاضرات، ورابعاً: بتأسيس معمل للمصانع، وخامساً: بإرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى[2].

فهذا الموقف يعبر عن الاهتمام الكبير الذي أولاه ابن باديس للجانب العملي التطبيقي في التكوين، وقد بلغ ابن باديس بالصناعات وإدراك أهميتها لقيام الحضارات، أنه عند تفسير قوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آية تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *} [الشعراء : 128 . 131].

فقد أوضح رحمه الله أن هذه الآية كشفت نواحي كثيرة من تاريخ العرب ومدى ما بلغه هؤلاء من مدنية وحضارة، فهي إذاً نص صريح في استحكامهم بعلم تخطيط المدن والعمران بوجه عام، ولكن الذي لم يعجب ابن باديس هو حمل المفسرين للفظ المصانع في الآية على معنى القصور أو مجاري المياه، فقال: ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن المعنى اللفظي الاشتقاقي والذي أفهمه ولا أعدل عنه، هو أن المصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران، وهل كثير على أمة توصف بما وصفت به

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 60).

(2) المصدر نفسه ص(4 / 53).

في الآية أن تكون لها مصانع بمعناها العرفي عندنا؟ بلى وإن المصانع لأول لازم من لوازم العمران أو نتيجة من نتائجه[1].

وقال كذلك: ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم، ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة[2].

كما بلغ اهتمام الشيخ ابن باديس بالصنائع أنه كان ينقل كل ما تنشره الصحف العربية والإسلامية داخل القطر وخارجه مما له علاقة بموضوع الصنائع تنويراً للقارئ وتوعية له، من ذلك نقله عن جريدة الأهرام، مقالاً مما جاء فيه: وإذاً فالإسلام يحث على تعلم الصنائع ويسميها علماً، ويعتبرها رحمة ويبين أنه كان يقوم بها ويشرف عليها أفضل الخلق وهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهو لا يعادي علماً ولا صنعة بل يعتبر القيام بالصنائع والعلوم من الفرائض التي يتقرب بها إلى الله تعالى[3].

**. رجل الجماهير:**

ـ كان ابن باديس رجلاً حركياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان ودلالات، وكانت هذه الخاصية فيه أحد المقومات الأساسية في حركته التجديدية ودعوته التغييرية، وكان ينطلق بعلمه ودعوته إلى الجماهير العريضة، فيعمل جاهداً على تثقيفها وتوعيتها وتنوير عقولها وتهذيب طباعها. وتوجيهها وتفجير طاقاتها، واختبار العناصر المهمة في تنظيمه العملي لمساعدته على حمل أعباء الدعوة.

ـ يقول الدكتور محمد فتحي عثمان: أما ابن باديس، فكان بحق رجل الجماهير الصابر عليها، العامل معها ووسطها، مهما كانت المكانة الرفيعة له ولأسرته بينها، وقد جاء نشاطه في جماعته صورة لطاقته الحركية الجماهيرية النشطة وكفايته التنظيمية البناءة إلى جانب عقليته الحكيمة المدبرة وبديهيته السريعة الثاقبة في الوقت نفسه.

بل إن دروس ابن باديس في تفسيره للقران أو في غير ذلك من الموضوعات ومحاضراته ومقالاته فضلاً عن

(1) مجالس التذكير ص 432.

(2) المصدر نفسه ص 432.

(3) الشهاب العدد 26 تاريخ 30 ماي 1926م.

جهوده العملية، لتمثل حركيته وحرارته خير تمثيل، فهو يطلق من الكلمات إلى قلوب المسلمين وعقولهم تياراً دافقاً متوهجاً من النور والحياة، ويصوغ للإسلام صورة متكاملة للفكر والعمل، ويتواصل مع المؤمنين على أن ينفث بعضهم في بعض روح العمل الاجتماعي الحركي، وهكذا جاب أنحاء الجزائر على اتساعها طولاً وعرضاً، وأنشأ فروعاً لجمعيته أو لمدارسه وجمع على دعوته الأمازيغ والقبائليين والعرب والمولَّدين من سلالات تركية، وجمع المالكية والإباضية ومن صلح من الطرقيين[1].

**. العمل على إقناع الناس بمشروع المقاومة:**

رسم الشيخ عبد الحميد مشروعه النهضوي وحدَّد الهدف العام جيداً، وهو معاكسته لمشروع الاستعمار الذي استهدف القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الدين الإسلامي واللغة العربية، ومن ثم فإن كل جهوده التربوية والتعليمية والدعوية والإصلاحية، وكل مواقفه السياسية كانت تهدف إلى تحقيق هدفه العام وهو معاكسته المشروع الاستعماري وإبطاله، من خلال إحياء تعاليم الإسلام في «الجزائر» وبعث الأمة الإسلامية من سباتها العميق لتعود إلى مرحلة الشهود الحضاري ومرحلة القوة والعطاء، والسبيل إلى ذلك هو تجديد الدين، وتجديد النفوس به[2].

قال ابن باديس:.. ولما رأوا تصميم الأمة على تعلم قرانها ودينها ولغتها واستبسال كثير من المعلمين في القيام بواجبهم واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد ورغم الزجر والتغريم ؛ لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم حتى استصدروا قانون العقاب الرهيب.

لقد فهمت الأمة أن المعلمين هم المقصودون. فهم معلموا القرآن والإسلام ولغة القرآن والإسلام.. بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان والمروجين للنصرانية في السهول والصحاري والجبال بين أبناء وبنات الإسلام في أمن وأمان ، بل في تأييد بالقوة والمال... فهمت الأمة هذا السر والكيد المدبر لدينها وقرآنها ولغة

---

(1) عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر ص 75، 76.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 237.

قرآنها ودينها، والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها والمعاهدة لله للأمة على ذلك الدفاع إلى آخر رمق من حياتها، وسنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا.. وإننا على يقين من أن العاقبة وإن طال البلاء لنا وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا عرفنا إيماناً وشاهدنا عياناً أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما[1].

وقال:.. علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا عن طريقه، فعاهدنا الله على أن ننفق حياتنا على خدمته ونشر هدايته، فإذا عشت له فإنني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله.

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض عليَّ تلك الروابط لأجله ـ كجزء منه ـ فروضاً خاصة، وأنا أشعر بأن كل مقوِّماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة. فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة.

وما مثلنا في وطننا الخاص، وكل ذي وطن خاص، إلا كمثل ذوي بيوت من قرية واحدة، فبخدمة كل واحد لبيته تتكون مجموع البيوت قرية سعيدة راقية.. فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للإضرار بسواها معاذ الله..

والآن أيها الإخوان وقد فهمتموني وعرفتم سمو فكرة العيش للإسلام والجزائر، فهل تعيشون مثلي للإسلام والجزائر، فلنقل كلنا، ليحيا الإسلام ولتحيا الجزائر[2].

---

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 109).

(2) المصدر نفسه.

وظل الشيخ ابن باديس وفياً لهاته المبادئ التي نذر حياته لها، يضحي بكل شيء في سبيلها، وها هو يؤكد هذه المعاني مرة أخرة، اخذاً على ذلك العهود والمواثيق من إخوانه وطلبته وعموم الشعب الجزائري قائلاً: إنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما وإنها لواجبات.. وإني سأقصر حياتي على الإسلام والقران ولغة الإسلام والقران هذا عهدي لكم، وأطلب منكم شيئاً واحداً هو أن تموتوا على الإسلام والقران ولغة الإسلام.

**. التربية على المبادئ والقيم تسبق العمل السياسي:**

بادر الشيخ منذ عودته من جامع الزيتونة إلى مواجهة هذا المخطط الاستعماري الجهنّمي، وكانت أمامه عدة خيارات للمواجهة، فهناك المجال السياسي إذ كان بإمكانه أن يؤسس حزباً سياسياً ويجمع من حوله المناضلين والأنصار ويُجيّشُهم للمطالبة بالحقوق من الاستعمار، يقول الشيخ عبد الحمبد ابن باديس: لو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهراً، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا، من ثباتنا وتضحياتنا ولقامت الأمة كلّها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نبلغ من نفوسها إلى أقصى غايات التأثير عليها، فإن مما نعلمه ولا يخفى على غيرنا أن القائد الذي يقول لأمته: إنك مظلومة في حقوقك، وأنني أريد إيصالك إليها يجد منها ما لا يجده من يقول لها إنك ضالة عن أصول دينك وإني أريد هدايتك فذلك تلبيه كلّها وهذا لمقاومة معظمها أو شطرها، وهذا كله نعلمه ولكننا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا وبينا، وإننا ـ فيما اخترنا بإذن الله لماضون وعليه متوكلون[1].

إذاً فالشيخ رحمه الله قد اختار ـ عن وعي وإدراك ـ مواجهة الأمة بأمراضها الاجتماعية، وعللها النفسية، وذلك نتيجة لابتعادها عن أصول دينها، فاثر الخطة الدينية القائمة على العلم والتربية، رغم الصعوبات التي تكتنفها والتحديات التي تواجهها، فقال: وبعد فإننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها عن علم بصيرة، وتمسكاً

(1) آثار الإمام ابن باديس (5 / 286).

بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النُصح والإرشاد وبث الخير، والثبات على وجه واحد والسير في خطٍ مستقيم، وما كنا لنجد هذا كله إلا فيما تفرغنا له من خدمة العلم والدين، وفي خدمتهما أعظم خدمة وأنفعها للإنسانية عامة[1].

فاتجه الشيخ إلى مجال التربية والتعليم، والتعليم بيئة إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق وتنوير العقول، وشحذ الهمم، وتقوية الإرادة، وبذل في هذا المجال جهوداً جبارة إذ كان يصل رحمه الله ليله بنهاره، يدرس للكبار في المسجد بعد صلاة العشاء، ويعلم الصغار من الجنسين من قبل صلاة الفجر إلى صلاة العشاء، فوفقه الله لإيجاد النواة الصلبة لحركة الإصلاح فيما بعد.

يقول الشيخ مبارك الميلي وهو من الطبقة الأولى من تلاميذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله: إنه كان يدرس في اليوم الواحد خمس عشرة ساعة كاملة[2].

وغني عن البيان أن الشيخ عبد الحميد بن باديس لما ألقى بكل ثقله في ميدان التربية والتعليم، كان الهدف أن يعدَّ كتائب من طلاَّب العلم، وجحافل من المستنيرين سيشكلون قاعدة الإصلاح وجمهورها الواسع[3].

لقد قام ابن باديس بجهد عظيم في بث العلم بين ناشئة الشعب وتفجير طاقات الهدى بين كل أفراد الأمة، وتحطيم جدران اليأس والخيبة التي أحاط بها الاستعمار الجزائر المجاهدة، بعد تضحياتها الجمة وكفاحها العزيز. قال له ذات يوم أحد أخوانه أحمد توفيق المدني وقد رأى عليه الفاقة والإعياء: يا أخي، أما امنت بأن لنفسك عليك حق؟ أما قرأت تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص : 77].

فأجاب في هدوء غريب: كلا يا أحمد، ما عملت طول حياتي إلا بهذه الآية الكريمة، إن نصيبي من الدنيا هو بث العلم وإعداد الناشئة ليوم رهيب ، وتجهيز الشعب بما يقوي روحه ويرجع له الأمل ، وحفر الأسس

(1) آثار ابن باديس (5 / 286).

(2) البصائر جانفي 1938م.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 242.

العميقة التي يقيم عليها الشعب جدار حياته الحرة المقبلة، وبذلك في نفس الوقت أحسن كما أحسن الله إلي[1].

ولقد بين الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأن التلاميذ الذين كوَّنهم الشيخ عبد الحميد بن باديس خلال عقدين من الزمان كانوا الكتيبة الأولى في جيش الإصلاح، فقال في البحث القيم والدراسة العميقة التي تقدم بها إلى المؤتمر الذي دعت إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي انعقد بنادي الترقي بعاصمة الجزائر في سبتمبر 1935م، وقد اختار الإبراهيمي لبحثه عنواناً موحياً وهو «فلسفة جمعية العلماء» ضمَّنه جملة من ارائه في الإصلاح الديني والعلمي وارَّخَ فيه الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي وفي الجزائر على وجه الخصوص فقال محدداً أسباب نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر:

الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه والتعاليم الحقة التي كان يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية، والإعداد البعيد المدى الذي كان يغذي به أرواحهم الوثابة الفتية، فما كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من فكرة صحيحة، وعقول نيِّرة ونفوس طامحة وعزائم صادقة، وألسن صَقيلة وأقلام كاتبة، وتلك الكتائب من تلاميذ ابن باديس هي طلائع العهد الجديد الزاهر.

وقد سمع الناس لأول مرة في الجزائر من بعض تلك البلابل شعراء تؤدي معنى الشعر كاملاً وقرؤوا كتابة تؤدي معنى الكتابة، ثم زحف من أولئك التلاميذ في ذلك العهد أيضاً كتيبة جرَّارة سلاحها الفكرة الحية الصحيحة، إلى جامع الزيتونة لتكتمل معلوماتها ولتبني على تلك الفكرة الحية وعلى ذلك الأساس العلمي الصحيح، بناءً علمياً محكماً، ورجعت تلك الطائفة إلى الجزائر فكان من مجموعها وممَّن تخرج بعدها من تلاميذ

---

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 146.

الأستاذ، ومن تلاميذ جامع الزيتونة، جنود الإصلاح اليوم وقادته وألويته المرفرفة، وأسلحته النافذة[1].

. العمل الجماعي:

قال ابن باديس: إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله إذا كانت لهم قوّة، وإنما تكون لهم قوّة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكِّر وتدبر، وتتشاور وتتازر، وتنهض لجلب المصلحة ودفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة[2].

وقد جعل الشيخ من أكبر همومه وفي مقدمة أعماله السعي الحثيث لبث روح الاجتماع الشوري في كل ما يهم المسلمين من أمر دينهم حتى لا يستبد بهم مستبد ولا يتخلف منهم متوانٍ، وحتى يظهر الخاذل لهم مِمَّن ينتسب إليهم، فينبذ ويطرح ويُستغنى عنه بالله وبالمؤمنين[3].

وممَّا يؤكد أن التفكير في العمل الجماعي، قديم عند الشيخ ابن باديس، أن الشيخ كان لا يفوت أي فرصة تتاح له مع رجال الفكر وقادة الرأي وحاملي لواء الإصلاح، إلا وتحادث معهم حول الموضوع وما هي الوسائل الكفيلة لتجسيده في الميدان، وما هي الخطوات الواجب اتباعها لبلوغ هذه الأهداف[4].

كان ابن باديس شغوفاً بالعمل الجماعي، دائم التطلع إليه، ولم يكن يفوّت آية فرصة تتاح لتطوير عمل فردي والارتقاء به إلى عمل جماعي ؛ إلا إغتنمها وسعى حثيثاً إلى تجسيدها ميدانياً، لكن العمل الجماعي الأكبر هو «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» والتي ضمت في صفوفها خيرة علماء الجزائر العاملين الذين كانوا يقومون بواجب الدعوة الإصلاح[5].

---

(1) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1 / 181).

(2) مجالس التذكير (1 / 221)، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 244.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 144.

(4) المصدر نفسه ص 245.

(5) المصدر نفسه ص 247.

قال ابن باديس: من المسلّم به أن أهل العلم في كل قطر هم مصدر الهداية والإرشاد، ومبعث التثقيف والتهذيب، وكل واحد في ناحيته هو نبراسها في ظلمة الجهل ومرجعها في مشكلات الأمور، فإذا كان هذا منهم وهم متفرقون قد يجهل بعضهم بعضاً، فكيف يكون هذا منهم إذا اجتمعوا وتعارفوا وتعاونوا؟

فمما لا شك فيه أن نفعهم يكون أكثر وأسرع، وخيرهم يكون أهم وأنجع، لهذا كنا من المبتهجين بالفكرة التي دعا إليها بعض إخواننا بالعاصمة «فكرة جمعية العلماء»، وكنا من الملبِّين لدعوة الهيئة للاجتماع بالحضور عندما يحين وقته ويدعوننا إليه[1].

فالانتقال من الفردية إلى الجماعية، هو الهدف الأساسي من تأسيس الجمعية، فلا بد من تسطير برنامج محدد، ولا بد من تحديد الوسائل الكفيلة بتحقيقه، ولا بد من تحديد مهمة كل عضو بدقة في البرنامج المسطر، فيُلزم بالعمل الجاد من أجل إنجاز ما كلف به، وهذا البرنامج يكون ملزماً للجميع لا يجوز العدول عنه[2].

بيّن ابن باديس أن العمل الجماعي لكي ينجح لابد من تقديم بعض التنازلات، ولا بد من التضحية بكثير من حظوظ النفس، بل لا بد من الكثير من الصبر والتضحية، وكل هذه الأفكار كانت واضحة جداً في ذهن الشيخ عبد الحميد بن باديس وهو يؤسس لهذا العمل الجماعي تأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» فقال مخاطباً الأعضاء:

أيها السادة، قد أنجزتم أمراً عظيماً، وأسستم مستقبلاً عظيماً، ولقد جئتم من أنحاء القطر ملبِّين داعي الاجتماع، ناسين كل أسباب الافتراق، فبرهنتم علىأن علماء الجزائر متصفون بما يجب أن يتصف به العالم الحقيقي، الذي صار العلم له صفة روحية وحياة قلبية، من سعة الصدر والتسامح ونسيان الفكر الخاص أمام

---

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 55).

(2) عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 248.

الصالح العام، إن ما أسسناه لا يكفي فيه اجتماعنا هذا، فعلينا أن نوالي الاجتماع مهما دعينا إليه، وعلى كل واحد منا أن يكون داعية للجمعية بقوله وعمله، وأن يكون مثلاً لفكرتها في الاتفاق والتاخي ونشر الخير، وأن يطرح كل واحد منا فكره الخاص، عندما تجيء مصلحة الجمعية، حسبنا ما مضى، كفى تقاتلنا على الكلمات، فكلمة «فرِّق» ماتت من بيننا، وما بقي إلا العمل على الوفاق والوئام لنبلغ غاية المرام(1).

وإيماناً من ابن باديس بالعمل الجماعي ؛ أنه كان يسند النجاح الذي كان يُحققه في شتى المجالات إلى الدعم الذي كان يجده من إخوانه العلماء معه في الجمعية، واحتضان الأمة جمعاء للمشروع، فقال:

إذا كنت أستمد القوة والحياة فإنما أستمدها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني ولأمتي وأخص منهم الأسود الكبار، وهم إخواني الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفاً إلا وجدتهم معي كالأسود، وأما الأشبال فهؤلاء الأبناء الذين تشاهدونهم يحتفون بكم الليلة، ولقد جاءت قسنطينة تحييكم بكبارها وصغارها، فذكراكم يا ضيوف القرآن خالدة وهي منقوشة في قلبي لا تمحى(2).

**. الحوار مع المخالف والبحث عن قواسم مشتركة:**

إن من الأسباب التي اتخذها ابن باديس لتوحيد جهود الشعب الجزائري لمقاوة الغزاة الفرنسيين ؛ اهتمامه بلغة الحوار مع المخالف من أبناء وطنه والبحث عن القواسم المشتركة، فاجتهد أن يكون الحوار سمة بارزة في منهجه وعلامة مميزة لشخصه، فهو عندما اختاره العلماء المجتمعون بنادي الترقي رئيساً لجمعية العلماء المسلمين وهو غائب عن الاجتماع، فلما حضر وعلم بالأمر، وطلبوا منه أن يلقي كلمة بالمناسبة، قال رحمه الله: إخواني إنني أراكم في علمكم واستقامة تفكيركم لم تنتخبوني لشخصي ؛ وإنما أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضعيف هذا:

---

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 158).

(2) آثار ابن باديس (4 / 216).

ـ **الأولى**: أنني قصرت وقتي على التعليم، فلا شغل لي سواه، فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى تكريم التعليم إظهاراً لقصد من أعظم مقاصد الجمعية وحثاً لجميع الأعضاء على العناية به كل بجهده.

ـ **الثانية**: أن هذا العبد له فكرة معروفة وهو لن يحيد عنها، ولكنه يبلغها بالتي هي أحسن، فمن قبلها فهو أخ في الله، ومن ردَّها فهو أخ في الله، فالأخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد، فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى هذا الأصل، وهو أن الاختلاف في الشيء الخاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام، فماذا تقولون أيها الإخوان؟ فأجابوا كلهم بالوفاق والاستحسان[1].

رفع ابن باديس شعار الوفاق، وذمَّ الافتراق، وبحث عن مساحة مشتركة تكون مجالاً للتعاون مع الاخرين، ويحدثنا الشيخ عبد الحميد بن باديس عن رحلة قام بها إلى مدينة مستغانم بالغرب الجزائري اجتمع فيها بشيوخ الطرق ورؤساء الزوايا، فألقى فيهم كلمة جامعة مما جاء فيها قوله:...

لما انتهينا من العشاء ألقيت موعظة في المحبة ولزوم التعاون والتفاهم على أساسهما وأن لا نجعل القليل ممَّا يختلف فيه سبباً في قطع الكثير مما نتفق عليه، وأن الاختلاف بين العقلاء لابد أن يكون، ولكن الضار والممنوع المنع البات هو أن يؤدينا ذلك الاختلاف إلى الافتراق، وذكرنا الدواء الذي يقلل من الاختلاف ويعصم من الافتراق وهو تحكيم الصريح من كتاب الله والصحيح من سنة رسول الله (ص)[2].

وكان هذا ديدن الشيخ رحمه الله مع الجميع، فحتى مع السياسيين الذين كان يختلف معهم في طريقة العمل وفي سلم الأولويات، فإنه كان حريصاً على تبني قضايا العدل وتجميع قوة الأحرار الصادقين وتأييدهم وتدعيم الصلات بهم ورسم سبل التعاون معهم، مع علمه بأنه قد لا تتطابق مفاهيمهم تفصيلاً مع دعوته

---

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 159).

(2) المصدر نفسه (4 / 247).

الإصلاحية ونظرته الإسلامية. وعليه فالعلاقة التي تربطه ببعض النواب الأحرار الصادقين في خدمة الشعب وقضاياه العامة ؛ هي علاقة تعاون وتأييد وتوجيه وترشيد، فقال: فلما جاءت الحركة السياسية وتقدم رجال أحرار للنيابة عن الأمة، وكان جميع المنتمين للجمعية مع النواب الأحرار، وفاز النواب الأكثر في أكثر الدوائر، لما كان هذا كله زادت نقمة الحكومة على الجمعية.

ووقف ابن باديس إلى جانب حزب الشعب وزعيمه «مصالي الحاج» لما كانت السلطات الاستعمارية تضايقه، أو تزج به في غياهب السجون، قال: فإن كنا هنا نحتج بأقصى ما لدينا من قوة وشدة على المسلك الأهوج الذي تسلكه الإدارة مع رجال حزب الشعب الجزائري، وإلقائها القبض على زعيم الحزب السيد مصالي الحاج محمد، وعمدته السيد الشاعر الكبير مفدي زكريا وأعوانهما في العمل.. وهم إنما يعملون جهاراً في وضح النهار ؛ إن دلنا هذا العمل على شيء فإنما يدلنا على أن الحكومة عازمة على سياسة الشدة والإرهاق، واليوم دور مصالي وغداً دور الاخرين، لكنها والله سياسة لن تنجح ولن تثمر[1].

إن ابن باديس فهم سنة الله في الأخذ بالأسباب من خلال هدايات القرآن الكريم والسنة النبوية، وعمل بها، وأيقن أن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدَّرة أيضاً كالمسببات، فمن زعم أن الله تعالى قدَّر النتائج والمسبَّبات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذُهِل عن حقيقة القدر، وأعظم على الله الفرية، فالأسباب مقدَّرة كالمسببات[2]، وقد قال رسول الله (ص) لمن سأله عن الرُّقى، هل تردّ من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله.

وقد تبين لابن باديس أن حياة الرسول (ص) وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب، وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كلَّ الوسائل والتدابير وأسباب العمل[3].

---

(1) المصدر نفسه ص. 255.

(2) منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة (1 / 428).

(3) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلس ص 391.

إن سنن الله في كونه تُحتِّم علينا الأخذ بالأسباب، كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره، وهو رسول الله (ص)، لقد قاوم الفقر بالعمل، والجهل بالعلم، والمرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد، وكان يستعيذ بالله من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادَّخر لأهله قوت سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السماء وقال للذي سأله: أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل(1).

وقال (ص): فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد(2).

وما غزوات الرسول (ص) المظفَّرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعدَّ الجيوش، وبعث الطلائع والعيون، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر بنفسه واتخذ أسباب الحيطة من هجرته، وأعدَّ الرواحل التي يمتطيها، والدليل الذي يصحبه، وغيّر الطريق واختبأ في الغار(3).

إن قدر الله حق، وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون، من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط(4).

والقران الكريم حافل بالايات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة، والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، وخاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد.

قول الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *} [الأنفال : 60].

---

(1) رواه ابن حبان بإسناد صحيح.

(2) البخاري (5 / 5380).

(3) عقيدة التوحيد، سعاد مِيبْر ص 212.

(4) الإيمان بالقدر، للصَّلاَّبي ص 165.

### 3. المرحلية وسنة التدرج:

لقد أخذ ابن باديس سنة الأخذ بالأسباب، وخطط مع إخوانه ونظم الصفوف ووضع الأهداف وحدَّد المراحل والخطوات للوصول إليها، وأدرك طبيعة كل مرحلة وخصوصيتها، بحيث لا يعمد إلى تجاوز المراحل أو حرقها فيقع في داء الاستعجال المدمر، فيتعجل النتائج قبل أوانها فيعاقب بحرمانها. واستخدم وسائل عصره التي ضمنت الذيوع والانتشار لأفكاره في أوساط الجماهير، وبواسطتها استمرت عملية الإقناع والشحن، حتى انتقل بالجماهير من مرحلة الاستقطاب إلى مرحلة الاستيعاب التام، فطوّر دور كل من:

**. المساجد:**

كان شديد الإيمان بدور رسالة المسجد التعليمية والتكوينية، فقال رحمه الله مؤسساً للدروس العلمية للمسجد: المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام فما بنى النبي (ص) يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتبط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما أنه لا مسجد بدون صلاة، فكذلك لا مسجد بدون تعليم[1].

وكان مُلحَّاً في الدعوة إلى بث التعليم المسجدي فقال: ثم لا بد مع هذا من حث كل شعبة من شعب الجمعية على ترسيم مدرس للتعليم في مساجدهم إن كان لهم مسجد، ثم تسعى الجمعية لدى الحكومة لترسم في كل مسجد من المساجد التي تنظرها مدرساً فقيهاً في الدين، ليعلم الناس ما يحتاجون إليه من أمر دينهم، فكلية تخرج المعلمين الدينيين، ومعلمون في المساجد التي تنظرها الحكومة والتي تنظرها الجماعات، تلك هي

(1) آثار ابن باديس (4 / 94).

الحالة التي يجب أن تكون عليها الأمة الجزائرية المسلمة لتبقى مسلمة[1].

واستطاع ابن باديس من خلال جمعية العلماء أن ينظم الجماهير وأن ترتبط بالمساجد، التي قامت بدورها التعليمي والتربوي والاجتماعي والسياسي، وساهمت في تحقيق الهدف الكبير في القضاء على الاستعمار، فالإدارة والتخطيط والتنظيم والقيادة كانت حاضرة بقوة في المؤسسات المسجدية.

**. المدارس الحرة:**

اعتنى ابن باديس بالمدارس الحرَّة، فحث الشعب وشجعه على التنافس في بنائها، لأنها مصدر الحياة الأبية الكريمة، فقد قال: إن الحياة تبعث من المدارس، فيجب أن تكون المدارس أول ما نهتم به ونسعى لتحقيقه، وكل من يعارض في تأسيسها فقد عارض في حياة الأمة ونهضتها[2]

فكانت المدارس الحرَّة التي ساهم ابن باديس مع شعبه في تأسيسها من وسائل الصراع مع الاستعمار، لأنه من خلال التعليم ينتشر الوعي الوطني، كما أن المناهج التي وضعها ابن باديس تخدم مشروع الشعب الجزائري في التخلص من الاستعمار ومساعدة الشعب في تحقيق اماله وطموحاته.

ولقد أدرك الاستعمار ودهاقنته خطورة ما تقوم به المدارس الحرة من دور خطير، فهذا أحدهم يقول: إن العلماء كانوا يمثلون أكبر الخطر على الفكرة الفرنسية في الجزائر، فشعب مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية، والإسلام الذي يمارسونه مدرسة حقيقية للوطنية[3].

**. الصحافة المجلات والجرائد:**

فقد استخدمها ابن باديس في الإصلاح الديني وحرب البدع والضلالات، وأدَّت (المنتقد) دوراً كبيراً في إيقاظ الوعي الوطني والإصلاح الاجتماعي والديني والقضاء على الجمود الفكري ومحاربة الخرافات، فقد كانت

---

(1) المصدر نفسه (4 / 97).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 262.

(3) الحركة الوطنية (3 / 10).

المجلات والجرائد التي أنشأها العلاَّمة ابن باديس، قد ساهمت في تحولات في تاريخ الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر، وكانت مجلات وجرائد ابن باديس وجمعية العلماء تشتهر بسلاسة الأسلوب ومتانة اللغة وعمق الأفكار، فقد استطاع ابن باديس أن يضم إليه خيرة الأقلام[1].

وقد وصف الشيخ العربي التبسي جريدة الشهاب فقال:

وجريدة الشهاب مدرسة شعبية عصرية على أحدث نظام وأشهر أسلوب، فيها تلتقي الديانة الإسلامية بالمدنية الصحيحة العصرية، لا تفتأ تهدي إلى قرائها من مختلف العلوم وضروب المعارف ما تقر به العين وتحسد عليه الجزائر، وجريدة الشهاب شعبة من شعب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما ملاك صلاح الدين[2].

**. النوادي**:

لم يغفل الشيخ ابن باديس النوادي، وتواصل مع جمهورها، والنادي عبارة عن قاعة للاحتفالات، وقاعة للصلاة، ومحل لبيع المشروبات الحلال، يلتقي فيه الناس، ويتبادلون الأفكار ويطرحون قضاياهم وانشغالاتهم، وكانت تبرمج فيه المحاضرات واللقاءات في حوارات مفتوحة مع بعض رجال الفكر والسياسة، وقد كان لهذه النوادي دور هام في ترقية الوعي الديني والسياسي بما كانت تقدمه من نشاطات ثقافية وفنية:

المحاضرات الاجتماعات للطلبة والشبيبة، التمثيليات والمسرحيات بمناسبة الأعياد الدينية الإسلامية.

كما قامت بدور مدعّم للمدارس الحرة من خلال الإعانات التي كانت تقدمها لها من الأرباح التي كانت تكسبها من بيعها للمشروبات الحلال، وهذا ما يفسر تبرم الاستعمار من هذه النوادي، فأصدر مرسوماً بتاريخ 13 جانفي 1938م حظر فيه بيع المشروبات الحلال في هاته النوادي، بل وسعى جاهداً من

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 263.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 264.

أجل إغلاقها، والحيلولة دون أن يستفيد الناس مما كانت توفره من تهذيب وتثقيف، وتوعية... فقال: فصدر قانون النوادي الذي يرمي إلى إخلائها وحرمان الكبار من التهذيب في نواديهم بعد ما حرموا منه في مساجدهم[1].

**. الرحلات:**

ومن جملة ما عوّل عليه الشيخ عبد الحميد بن باديس للتواصل مع فئات عريضة من الشعب، القيام برحلات عديدة إلى أنحاء القطر الجزائري.

وكان في كل رحلة يحرص على إلقاء درس عام في الوعظ والإرشاد في مسجد المدينة التي يحل بها، ويشرح فيه مبادئ دعوته ويبسطها ويستدل لها من الكتاب والسنة، كما يدفع عنها الشبهات التي يثيرها خصومه عن دعوته حتى يحولوا بينها وبين عموم الشعب. كما كان يحرص على زيارة رجال العلم والفكر وشيوخ الزوايا، ويجتهد معهم على تقريب الشقة وإزالة أسباب الخلاف ما أمكن، والتعاون فيما هو محل اتفاق بين الجميع وهكذا.

ولقد أخبر ابن باديس عن محتوى مجالسه هذه بالقول: ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله والتفقه في الدين، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله (ص)، ورفع الأمية والجدّ في أسباب الحياة من فلاحة وتجارة وصناعة، وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد، وإلى حسن المعاملة والبعد عن الظلم والخيانة مع المسلم وغير المسلم[2].

ومن السنن المهمة التي تعامل معها عبد الحميد بن باديس: سنة المرحلية والتدرج، ذلك أن المشروع الذي نذر له الشيخ حياته هو تحطيم المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وهذا المشروع ضخم يتطلب جهوداً دؤوبة متواصلة، تكون بمثابة حلقات متسلسلة، تمثل كل حلقة مرحلة معينة، وهذه المراحل يجب أن تكون مشدودة إلى بعضها البعض، بحيث تكون المرحلة السابقة ممهدة للاّحقة، واللاحقة مكملة للسابقة.

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 264.

(2) آثار ابن باديس (4 / 225)، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 265.

يقول الدكتور محمود قاسم في كتابه الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير، ولقد وضع ابن باديس خطته علىأساس مبتكر، يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر، ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الأوان، فوجدت نفسها محاصرة بعد أن نحَّى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى[1].

إذا كانت المرحلة الأولى مرحلة تقويض الأسس ونقض الأركان التي كان يرتكز عليها الاستعمار، لتجسيد مشاريعه وتحقيق أهدافه، وفي مقدمة هذه الأسس الطرقية التي كانت تخدر عقول الجماهير وتميت نفوسهم، بما تشيعه في أوساطهم من بدع وأضاليل، فكان من المنطقي أن يتوجه التفكير إلى وجوب البدء بمحاربة هذا الاستعمار الروحاني ؛ لأن إدراك المرحلة ومتطلباتها، ومن أين يكون البدء، ولماذا؟ من أهم الأسئلة التي يجلب على المصلح الحصيف أن يجيب عنها.

ولقد حدث الشيخ البشير الإبراهيمي، أنه والشيخ عبد الحميد بن باديس كانا قد اتفقا منذ لقائهما المبارك عام 1913م بالمدينة المنورة على هذا البدء، ذلك أنهما وبعد تقليب الأوضاع وطول المشاورة انتهيا إلى أن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آتٍ من جهتين متعاونتين عليه، أو بعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويفسدان دينه ودنياه، استعماري مادي هو الاستعمار الفرنسي، واستعمار روحي يمثله مشايخ الطرق المؤثِّرون في الشعب والمتخفون في جميع أوساطه والمتَّجرون باسم الدين والمتعاونون مع الاستعمار عن رضا وطواعية .. والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الاخر بكل قوته، وغرضهما معاً تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة، وإذن فلقد كان من سداد الرأي أن يبدأ «العلماء الجزائريون» بمحاربة هذا الاستعمار الثاني لأنه أهون[2].

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس، د. محمود قاسم ص 15

(2) آثار الإمام الإبراهيمي (5 / 283).

وكان ابن باديس يعطي كل مرحلة حقها ولا يتطلب منها فوق طاقتها، إيماناً منه بأنه من السنن الكونية النافذة سنة المرحلية والتدرج، وإن العمل الجماعي كان هاجساً بالنسبة إليه، ومع ذلك لم يسارع إلى تأسيس جمعية العلماء حتى وفرَّ لها كل أسباب النجاح وعدم الانتكاس، من جيوش جرَّارة من تلاميذه الذين كان يخرّج منهم سنوياً المئات مُسلحين بالعلم الصحيح، والخلق القويم، وبجيوش جرَّارة من الجمهور على استعداد للدفاع عن الجمعية والتضحية عن مبادئها، بما كان يبث فيهم من وعي في دروس الوعظ في المساجد والمحاضرات في النوادي والمقالات في الصحف، وعودة كثير من طلاب العلم الذين توجهوا إلى المشرق العربي لمزيد من التحصيل العلمي والتكوين المعرفي. ولما توفرت دواعي التأسيس وتحققت أسبابه كاملة تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فهل غيّر ابن باديس خطته في العمل؟.

كلا لقد ظل الشيخ ابن باديس مؤمناً بالمرحلية والتدرج، لأنها سنة كونية لا تتخلف، وفريضة شرعية مأمور بها، فها هو الشيخ يحدثنا في خطاب له بعد خمس سنوات من تأسيس الجمعية وعملها في الميدان ؛ يُفصِح عن هذا الفكر الواعي الذي يقرئها فيقول: فالجمعية قد جرت على سنة الله في تطور الكائنات، وكان من أطوارها طور للتمهيد، وطور لإزالة الأنقاض، وهي الان في طورها الثالث، وهو طور البناء والتشييد، ولكل طور حُكمه وحكمته وظروفه وأسبابه ومقتضياته، كما كان لجرائدها السابقة (السنة) فـ (الشريعة) و(الصراط) حظ من هذا التطور، فقد كانت أسماء جرائدها رموزاً لأطوارها.. إن حركة الإصلاح قد فرغ من وسائلها وإعداد أذهان العامة والخاصة لقبولها، ولم يبق إلا الاستقلال بالمقاصد العملية وأهمها بيان الحقائق العلمية والدينية بالدروس والمحاضرات والكتابة[1].

(1) آثار الإمام ابن باديس (5 / 283).

وإدراكاً من الشيخ ابن باديس، أنه لكل مرحلة من المراحل خصوصيتها أو تحديداتها التي قد تصل إلى حد شل النشاط الحركي بالمرَّة، فإنه رفع شعاراً عظيماً وهو: تستطيع الظروف تكييفنا، ولا تستطيع ـ بإذن الله ـ إتلافنا[1].

وإن العمل المنجز مهما كان كبيراً، ومؤثراً ومنتجاً، فلا بد من التفكير الجاد في الخطوات الموالية، والمراحل اللاحقة، فها هو الشيخ يرفع صوته عالياً، مخاطباً الجموع الحاشدة التي جاءت من كل صوب وحدب للاستماع إلى النتائج التي عاد بها الوفد من الدوائر الفرنسية: أيها الجزائري التاريخي القديم، المسلم الصميم، كلمته من كلمة الله، وإرادته من إرادة الله، وقوته من قوة الله، أو لست منذ أشهر كونت مؤتمراً كما ينبغي أن يكون جلالاً وروعة، وكونت هذا الوفد الكريم فحمَّلته مطالبك، فاضطلع بها وأدى الأمانة.. وفداً متحداً متعاوناً متسانداً زار الوزارات والأحزاب وأرباب الصحف فعرفك إليها ورفع صوتك؟

أيها الشعب، إنك بعلمك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية، وهائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها. واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو إلا خطوة ووثبة، ووراءه خطوات ووثبات، وبعدها إما الحياة وإما الممات[2].

كان ابن باديس مستوعباً لسنة التدرج والمرحلية، ونرى ذلك في المراحل التي قطعها على مدار سبع وعشرين سنة، فقد كان بصدد إعداد بناء يستغرق إنجازه وقتاً، ومراحل تكون اخرها الوصول إلى انتزاع الاستقلال الوطني، واسترجاع السيادة الوطنية، وهذا ما أوضحه بقوة عندما قال لجمهرة من الشباب الجزائري المتحمس للقتال ذات يوم من عام 1933م: إن من أراد أن يبني داره، فعليه أن يبني الأسس والجدران أولاً، ثم

(1) الشهاب، فيفري 1929.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 259.

يشيد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمة ؛ فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف[1].

وفي معرض رد ابن باديس على مصالي الحاج الذي كان يطالب بالاستقلال ؛ بين له الشيخ أن الهدف الاستراتيجي لحركته النهضوية هو تحقيق الاستقلال الكامل والشامل، فقال له: وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف؟ وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال[2].

وعلى هذا الأساس فقد وضعت حركة ابن باديس الإسفين الأول في نعش الاستعمار ما بين الحربين العالميتين، إن ابن باديس اتجه ابتداء إلى التربية والتعليم، وتكوين جيل النصر المنشود، في الكتاتيب القرآنية والمساجد والمدارس والنوادي، ومن خلال الصحف والمجلات، لأنه كان يعلم: أن هذا الميدان هو الذي يكوّن الثورة[3]. بحكم أنه كان يقول بصريح العبارة: أنا أحارب الاستعمار لأني أُعلِّم وأُهذِّب، ومتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض ؛ أجدبت على الاستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير[4].

ويؤكد الشيخ أحمد سحنون: أنه لولا جمعية العلماء لما كانت الثورة، فهي التي كانت تشكل المرحلة الإعدادية للثورة، حزب الشعب مثلاً كان يبحث عن الغاية فقط دون السؤال عن الوسيلة، في حين أن الجمعية كانت تتخذ من الوسيلة، مطية للوصول إلى الهدف[5].

فثورة الفاتح من تشرين الثاني التحريرية من عام 1954م جاءت وقد وجدت الجيل المؤهل للقيام بها وخوض غمارها، معدّاً كامل الإعداد. ولم يكن ثوار الجزائر إلا أبناء هذا الجيل الذي ربته مدارس جمعية

(1) مذكرات محمد خير (1 / 384).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 89).

(3) جهاد ابن باديس ص 257.

(4) المصدر نفسه ص 257.

(5) حوار، جريدة الحقيقة، أحمد سحنون (3 / 4).

العلماء ونواديها في الجزائر وفي فرنسا، ولم تكن الثورة التحريرية نفسها إلا جزءاً من الخطة العامة الواسعة التي رسمت خطوطها تلك العقول الكبيرة التي أسست هذه الجمعية، وليس أعظم ثوار الجزائر بطولة إلا تلاميذ بررة لجمعية العلماء ومنفذين مخلصين لخطتها الحكيمة.

إن ابن باديس يعتبر بحق محيي شعب، وباعث حضارة إلى الوجود، ومعلم أجيال وحامي حمى الدين واللغة والوطن في أرض الجزائر كما يعد القائد الحقيقي والأب الروحي لتلك الثورة المجيدة ثورة تشرين الثاني 1954 الخالدة[1].

إن ابن باديس أدمن تدريس السيرة النبوية والسنة واستلهم من هدي النبوة سنة التدرج والمرحلية، فقد راعت الشريعة الإسلامية سنة التدرج بما تشرعه لهم، من واجب أو محرم، فنجد حين فرض الفرائض كالصلاة، والصيام والزكاة فرضها على مراحل ودرجات، حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة، فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين، ثم أقرَّت في السفر على هذا العدد وزيدت في الحضر إلى أربع، أعني الظهر والعصر، والعشاء.

والصيام فرض أولاً على التخيير، ومن شاء صام، ومن شاء أفطر وفدى، أي: أطعم مسكيناً على كل يوم يفطره، كما روى ذلك البخاري عن سلمة بن الأكوع تفسيراً لقوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [البقرة : 184]، ثم أصبح الصيام فرضاً لازماً لكل صحيح مقيم لا عذر له: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة : 185].

والزكاة فرضت أولاً بمكة مطلقة غير محددة، ولا مقيدة بنصاب، ومقادير وحول، بل تركت لضمائر المؤمنين وحاجات الجماعة والأفراد، حتى فرضت الزكاة ذات النصب والمقادير في المدينة.

والمحرمات كذلك، لم يأت تحريمها دفعة واحدة، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس، وتغلغلها في الحياة، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، فليس من الحكمة منع الناس عنها بأمر مباشر

(1) جهاد ابن باديس ص 258.

يصدر لهم، إنما الحكمة إعدادهم ذهنياً وعقلياً ونفسياً لتقبلها وأخذهم بسنة التدرج في تحريمها كالخمر والربا، حتى الأمر الناهي عن الفعل، فكانوا مسرعين في تنفيذه قائلين: سمعنا وأطعنا[1].

كما أن سنة التدرج ظهرت في سيرة النبي (ص) في الدعوة السرية والجهرية وفي الانتقال إلى المدينة وبناء الدولة، فقد تقابل رسول الله (ص) مع طلائع الأنصار الأولى ولم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام، وتلاوة القرآن عليهم، فلمَّا جاؤوا في العام التالي، بايعهم بيعة النِّساء على العبادات، والأخلاق، والفضائل، فلمَّا جاؤوا في العام التالي، كانت بيعة العقبة الثانية على الجهاد والنّصرة والإيواء.

وجدير بالملاحظة: أن بيعة الحرب لم تتمَّ إلا بعد عامين كاملين، أي بعد تأهيل، وإعداد استمرَّ عامين كاملين، وهكذا تمَّ الأمر على تدرُّج ينسجم مع المنهج التربوي الذي نهجت عليه الدعوة من أوَّل يوم[2].

### 4 . سنة الابتلاء:

مرَّ العلاَّمة ابن باديس وجمعية العلماء والشعب الجزائري بألوان من الابتلاءات والامتحانات العظيمة، فقد تعرَّضوا للتضييق في المعاش، وسفكت الدماء، وصودرت الأموال والممتلكات وأدخل السجونَ الأحرارُ المطالبون بحقوقهم الطبيعية في الحياة، وعملت السلطات الفرنسية على التضييق على المساجد والمدارس والجمعيات والنوادي، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا، وإنما استمروا في الكفاح والنضال المشروع.

وقد تعرَّض ابن باديس على المستوى الشخصي لابتلاء في الولد والنفس والأذية المعنوية والمادية، ووصل الأمر إلى محاولة اغتيال الإمام عبد الحميد ابن باديس ذات مساء من يوم 9 جمادى الثانية 1345هـ . 14

(1) الوسطية في القرآن الكريم، د. علي الصلابي ص 496.

(2) السيرة النبوية، للصلاَّبي ص 395، 396.

ديسمبر 1926م، بعد قيامه لصلاة العشاء وفراغه من درسه اليومي بالجامع الأخضر وخروجه منه قاصداً بيته، وكانت عناية الله تحرسه فنجا من تلك المكيدة بمزيد من العناية الإلهية[1].

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: فقد تامر العلويون على اغتياله حيث ثقلت عليهم وطأة الحق الذي كان يقوله ولازال يقوله فيهم وفي أمثالهم، وانتدب أشقاها لقتله في قسنطينة وضربه الضربة القاضية لولا وقاية الله ولطفه، ففي ذلك المشهد الذي تطيش فيه الألباب وتتفشى فيه روح الانتقام قوى الله الأستاذ . وهو أعزل . فأمسك خصمه الفاتك المسلَّح ولبَّبه بثيابه، ثم تجلَّى على قلبه المطمئن بالرحمة فقال . وجرحه يثغب دماً . للجمهور المتألِّب المتعطش لدم الجاني: إياكم أن يمسَّه أحد منكم بسوء حتى تسلموه للمحافظة.

ولولا هذه الكلمة لقطعوا الجاني إرباً إرباً، وقد خلد هذه الحادثة شاعر الجزائر الأستاذ محمد العيد في قصيدة يقول فيها:

وكـادت يد الجاني المسَخَّرِ تعتلي يـد الشيـخ لـولا الله أدركـــه لــولا

وإن أنسى لا أنسى الذين تضَافروا على الفتك بالجاني فـقلت لهم مهلا

إن معاملة الأستاذ الرئيس للجاني عليه بالرحمة والاستبقاء، وإطفاءه لثائرة تلك القلوب التي كانت تغلي حقداً عليه بتلك الجملة الرحيمة ؛ لنفحة من نفحات الأخلاق النبوية التي يدعو الأستاذ ورفاقه إليها، وأساس من الأسس التي بنت عليها جمعية العلماء دعوتها، ومثل شرود في الرفق والرحمة والسلام، وحجة قاطعة لألسنة المتقولين على هذه الجمعية والرامين لها بالسوء[2].

وعندما انتشر خبر محاولة الاغتيال، تهاطلت على الإدارة البرقيات والكتب من جميع جهات القطر ومن تونس الشقيقة، بالتهنئة بسلامة الأستاذ والاستياء من توحش الجاني العلوي، مثلما تواردت وفود القسنطينيين من جميع طبقاتهم على داره، فكان رده في مجلة الشهاب ما يلي:

(1) سنن مشروع النهضة عند ابن باديس (1 / 100).

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1 / 269).

إنني أشكر الشكر الجمّ الأمة الجزائرية جمعاء على ما أظهرته من العطف والشعور نحو شخصي الضعيف، بما رأيت من القسنطينيين كلهم، وما تلقيته من الكتب والبرقيات من جميع الجهات، وأشكر كذلك الأمة التونسية العزيزة التي لا يفصلنا عنها غير الاعتبارات السياسية من فاصل في الوجود.

إنني ـ وايم الله ـ لأرى نفسي أحقر وأقل من هذا الاعتناء، ولكنني أسرّ وأبتهج عندما أعلم أن هذا الشعور العام دليل على ما في قلوب المسلمين من المكانة العظيمة لكلمة الحق وكلمة الدين، اللذين ما أوذيت إلا في سبيلها من طائفة تدعي الخصوصية في الإسلام، وتبعث أتباعها يسطون على الأبرياء بالظلم والعدوان.

فهذا العاجز يكرر شكره بلسان الحق والدين لأهل هذا الشعور الطاهر الشريف، سائلاً من الله تعالى أن يزيده رسوخاً في قلوبهم على مدى الأيام[1].

إن الابتلاء ـ بصفة عامة ـ سنَّة الله في خلقه، وهذا واضح في حركة التاريخ وتقريرات القرآن الكريم، قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا *} [الإنسان : 2].

كما أن طريق الابتلاء سنة الله في الدعوات، كما أنه الطريق إلى الجنة، وقد: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[2].

وقد جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس ومعرفة المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، وذلك لأنَّ المرء قد لا يتبيَّن في الرخاء، لكن يتبين في الشدة قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ *} [العنكبوت : 2].

---

(1) آثار ابن باديس (3 / 425).

(2) مسلم رقم 2822.

## خامساً: الفقه المالكي عند ابن باديس بين التعصب المذهبي والتحرر الفكري:

### 1 . المنهج التربوي التفقيهي عند الإمام عبد الحميد بن باديس:

إن الشيخ عبد الحميد بن باديس جعل من مادة الفقه مادة أساسية في دروسه العلمية، ولكي نتعرف على المرجعية الفقهية عنده فلا بد من إلقاء نظرة على الكتب التي كان يدرّسها الشيخ عبد الحميد بن باديس لطلابه ويستقي منها مادته الفقهية في التدريس، لقد نشر الشيخ عبد الحميد بن باديس في التقرير السالف الذكر عناوين الكتب المدروسة، فذكر: الموطأ، أقرب المسالك، الرسالة، ابن عاشر، البرذوي، المفتاح، التنقيح، السلَّم، المكودي، القطر، الأجرومية[1].

وبالإضافة إلى هذه الكتب ذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس كتاباً آخر مهماً وهو كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد، للفقيه المالكي الكبير أبي الوليد ابن رشد (595هـ)، وذلك في التقرير الذي وافى به علماء الزيتونة الكرام وأعضاء لجنتها الموقرين الذين انتدبوا للقيام بإصلاح التعليم في الجامع المعمور[2].

لقد اعتمد ابن باديس في تكوين طلابه فقهياً المذهب المالكي السائد في شتى أقطار الشمال الأفريقي، وهذه المدونات الفقهية هي الموطأ، ومختصر خليل، أقرب المسالك، الرِّسالة، متن ابن عاشر، وغيرها.

#### أ . موطأ الإمام مالك بن أنس الأصبحي توفي عام (179هـ):

وهو كتاب جليل، حافل بالأحاديث الصحيحة، المرفوعة، والموقوفة والمقطوعة، وكذا المراسيل والبلاغيات وفيه عدد هائل من فتاوى الصحابة والتابعين، وما صح عند مالك من عمل أهل المدينة، وكذا اجتهادات مالك رحمه الله واختياراته الفقهية، فهو كتاب جامع بين الفقه والحديث، وهذا الكتاب عمدة المالكية الأوَّل،

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 100).

(2) المصدر نفسه (4 / 75).

لذا كثر اهتمامهم به وأفردوا له عدة شروح، وفي هذا الإطار، اهتم الشيخ عبد الحميد بن باديس بالموطأ، فقرر على طلاَّبه دراسة هذا الكتاب والتفقه فيه، لأنه في نظره يمثل المنهج الأمثل في صنع الملكة الفقهية، وهو التفقه في نصوص الكتاب والسنة، والتعرف على ملاحظة الأئمة في الاستنباط من النصوص، وحسن الاستدلال، فقال ـ رحمه الله ـ: وإذا رجعت إلى موطأ مالك سيد أتباع التابعين، فإنك تجده في بيان الدين قد بنى أمره على الآيات القرانية، وما صح عنده من قول النبي (ص) وفعله، وما كان من عمل أصحابه الذي يؤخذ منه ما استقر عليه الحال آخر حياته، لأنهم كانوا يأخذون بالأحدث، فالأحدث من أمره، وكذلك إذا رجعت إلى كتاب الأم لتلميذ مالك الإمام الشافعي، فإنك تجده قد بنى فقهه على الكتاب وما ثبت عنده من السنَّة[1].

وقد بينا أن الشيخ عبد الحميد بن باديس درَّس موطأ الإمام مالك رحمه الله وختمه لطلابه في الجامع الأخضر وأقيم حفل بهذه المناسبة.

**ب ـ مختصر خليل وشرحه:**

وثاني الكتب التي قرَّرها الشيخ عبد الحميد بن باديس مصادر لطلابه ينهلون منها مادتهم الفقهية، فهو كتاب مختصر خليل لصاحبه خليل بن إسحاق المتوفى (776هـ)، وهو كتاب طبقت شهرته الافاق، وأقبل عليه العلماء وطلبة العلم حفظاً وفهماً ومدارسة، وشرحاً وتعليقاً، إقبالاً منقطع النظير، لأن صاحبه قد اجتهد فيه في جمع أمهات مسائل الفقه المالكي، بل خلاصة الفقه المالكي وما عليه المعوَّل في الفتوى في المذهب، ولذلك قال رحمه الله في مقدمة المختصر: وبعد، فقد سألني جماعة أبان الله لي ولهم معالم التحقيق، وسلك بنا وبهم أنفع طريق، مختصراً على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى مبيناً لما به الفتوى، فأجبت سؤالهم بعد الاستخارة، مشيراً بـ «فيها» للمدونة وبـ «أوَّل» إلى اختلاف شارحيها في فهمها، وبـ «الاختيار» للّخمي،

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 75).

لكن إن كان بصيغة الفعل فذلك لاختياره هو نفسه، وبالاسم فذلك لاختياره من الخلاف، وبالترجيح لابن يونس كذلك، وبالظهور لابن رشد كذلك، وبالقول للمازري كذلك وحيث قلت خلاف فذلك الاختلاف في التشهير وحيث ذكرت قولين أو أقوالاً فذلك لعدم اطلاعي في الفرع على أرجحية منصوصة[1]، ولما كان لخليل شروح متعددة فإن الشيخ قد اختار شرحاً مختصراً هو «أقرب المسالك»[2].

### ج. رسالة ابن أبي زيد القيرواني (386هـ):

وأما الكتاب الثالث الذي قرره الشيخ عبد الحميد بن باديس على طلاَّبه ينهلون منه مادتهم الفقهية كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني المتوفي (386هـ) وهو كتاب جليل الفائدة الفقهية، كثير النفع، تميز بمكانة خاصة بين كتب المذهب، إذ أقبل عليه الجمع الغفير من العلماء بالشرح والتدريس ما لم يعرف لكتاب اخر. قال الشيخ أحمد زرُّوق في مقدمة شرحه على الرِّسالة: إن رسالة ابن أبي زيد شهيرة المناقب والفضائل، عزيزة النفع في الفقه والمسائل، من حيث أنها مدخل جامع للأبواب، قريبة المرام في الكتب والحفظ والاكتساب، وقد اعتنى بها الأوائل والأواخر، وانتفع بها أهل الباطن والظاهر، وحتى صارت بحيث يهتدي بها الطالب المبتدأئ ولا يستغنى عنها الراغب المبتدأئ، ولم يزل الناس يشرحونها على مرَّ السنين والدهور، والعلماء يتداولونها ويتناولون ما فيها من الأمور، نحو من خمسمائة سنة، ولم تنقص لها حرمة، ولا طعن فيها علم معتبر في الأمة، مع ما فيها من عظيم الشكال، ودواعي الارتكاز من الحساد والأشكال، وهذه كرامة من الله لا تنال بالأسباب[3].

### د. متن ابن عاشر وشروحه:

ومن الكتب الهامة التي برمجها ابن باديس رحمه الله وقررها على طلاَّبه متن ابن عاشر وهو نظم للعلامة

---

(1) تسهيل المعاني وأدلة خليل (1 / 16).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 149.

(3) شرح زروق على الرسالة (1 / 2).

عبد الواحد بن عاشر، كثير الفوائد والتحقيقات، قال عن قيمته العلمية العلاَّمة محمد بن أحمد ميارة المالكي في مقدمة شرحه لهذا النَّظم: هذه المنظومة العديمة المثال في الاختصار وكثرة الفوائد والتحقيق، وحاذا مختصر خليل، والجمع بين أصول الدين وفروعه، بحيث أنَّ من قرأها وفهم مسائلها خرج قطعاً من ربقة التقليد المختلف في صحة إيمان صاحبه وأدى ما أوجب الله عليه تعلمه الواجب على الأعيان(1).

## 2. وجوب التفقه في الكتاب والسنة:

إن كل إمام من أئمة الفقه والاجتهاد إنما كان ينطلق من نصوص الكتاب والسنة، في استنباط الأحكام الفرعية، ولكن الذي وجّد عليه ابن باديس الدرس الفقهي في شتى المدارس، وحتى الجامعات هو الاحتفاء بالفروع الفقهية، وحفظها مفصولة عن أدلتها من الكتاب والسنة، فأعلن عن تبرمه ورفضه لهذا الواقع التعليمي المشين فقال: هذا هو التعليم الديني السلفي وأين منه تعليمنا؟

نحن اليوم وقبل اليوم منذ قرون وقرون فقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوماً منزلة القرآن من تعلم الدين والتفقه فيه ولا منزلة السنة النبوية من ذلك، هذا في جامع الزيتونة، فدع عنك الحديث عمَّا دونه بعديد المراحل(2).

وكان الشيخ ابن باديس مدركاً لصعوبة التغيير، بل ومقدراً لمخاطره، ولكنه مع ذلك اقتحم هذا الميدان، وكله أصرار وعزم على العودة في دراسة الفقه إلى طريق السلف المتقدمين، الذين كانوا يربطون الأقوال بأدلَّتها فقال رحمه الله: فإذا كان الحال هكذا من تلك الأيام في تلك الدِّيار، وقد مضت عليه القرون في هذه البلاد وغيرها ، فإن قلعه عسير والرجوع بالتعليم إلى التفقه في الكتاب والسنة، وربط الفروع بالمآخذ والأدلة أعسر

(1) الدر الثمين والمورد المعين، شرح ابن عاشر لميارة ص 4.

(2) آثار ابن باديس (4 / 76).

وأعسر، غير أن ذلك لا يمنعنا من السعي والعمل لصدق الرجاء وقوة الأمل، وسننفذه في دروسنا هذا العام والله المستعان[1].

### 3. مراعاة المستوى والدعوة للتخصص:

قسَّم ابن باديس طلبته إلى أربع طبقات، فرسالة ابن عاشر، يناسب الطلبة المبتدئين، إذ يقول عنه ناظمه في نظم أبيات للأمي تفيد رسالة أبي زيد القيرواني أرفع مستوى إذ اجتهد صاحبها في تقديم ملخَّص واف عن المذهب المالكي، وأرجح الأقوالَ فيه مركزاً على البعد العملي، وأما مختصر خليل بشروحه المتعددة فهو خلاصة الفقه المالكي، وما هو عليه المعوّل في الفتوى في المذهب، وهكذا نجد العلامة ابن باديس يؤمن بمبدأ التدرج في التعليم، والبدء بالسهل واستيعابه للوصول إلى الصَّعب الغامض وفهمه، وهو أمر كان قد تنبَّه إليه العلامة عبد الرحمن بن خلدون، فقال في مقدِّمته مبيناً أهمية التدرُّج في تلقي المعارف: فاعلم أنَّ تلقين العلوم للمتعلمين يكون مفيداً لو تمَّ ذلك بالتدرُّج شيئاً فشيئاً قليلاً قليلاً، فيلقى على المتعلم مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب[2].

وفي المقترح الذي تقدَّم به الشيخ عبد الحميد بن باديس لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة المعمور، راعى كثيراً مسألة التدرج في التعليم، حين قسم الدراسة في الكلية إلى مرحلتين أساسيتين، مرحلة المشاركة إلى وجوب الاقتصار في تدريس الفقه، على تقرير المسائل دون تشعباتها، ثم يترقى إلى تطبيقها على المسائل الفقهية ليتحصل من هذا ومن ذكر أدلة المسائل الفقهية كما تقدم ملكة النظر والاستدلال، وأما مرحلة التخصص، فالطلبة الذين يخصَّصون في القضاء والفتوى، فيتوسع لهم في فقه المذهب، ثم في الفقه العام، ويكون بداية المجتهد من الكتب التي يدرسونها، ويدرسون آيات وأحاديث الأحكام، ويدرسون علم التوثيق، ويتوسعون في علم الفرائض والحساب، ويطلعون على مدارك المذاهب حتى يكونوا فقهاء إسلاميين ينظرون إلى

---

(1) المصدر نفسه (4 / 70).

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 100).

الدنيا من مراة الإسلام الواسعة لا من عين المذاهب الضيقة[1].

### 4 . الاهتمام بعلم أصول الفقه:

وممَّا يشحذ الملكة الفقهية، وينمي قوة الاستيعاب لأقوال الفقهاء، ومعرفة كيفية استدلالهم لها من الكتاب والسنة وغيرها من الأدلة الإجمالية، علم أصول الفقه، ولذا اهتم الشيخ عبد الحميد بن باديس بهذا العلم وقرّره على طلابه، واختار كتاب أبي عبد الله الشريف التلمساني المتوفي (771هـ) المسمَّى «مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول» وهو كتاب بعيد عن تقرير القواعد الأصولية نظرية مجرَّدة، بل هو كتاب عملي عمد صاحبه إلى تخريج الفروع على الأصول، فيتمكن الدَّارس للكتاب، المستوعب له من الاطلاع الواسع على أقوال أئمة المذاهب وكيفية استدلالهم لأقوالهم الفقهية، فيأخذ حظاً وافراً من اختلافات الفقهاء، ويعرف أسباب اختلافهم ويدرك الراجح من أقوالهم، فينشأ بعيداً عن التعصب المذهبي الضيق ؛ لأن القول الراجح لا يكون بالضرورة إلى جانب مذهبه بالضرورة[2].

### 5 . مؤهلات المفتي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس:

الفتوى منصب خطير، وخطة جليلة القدر، ذلك أن المفتي يوقع عن الله عز وجل ويبلّغ أحكامه، ولذلك اشترط العلماء فيمن يتصدَّى لهذا المنصب الخطر جملة من الشروط وهي في الجملة الاستبحار في علوم الشريعة، علوم الالة وعلوم الغاية، وإدراك مقاصد التشريع وأسراره، والتضلع في علوم العربية والإحاطة بالواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمستفتين، بالإضافة إلى كون المفتي صالحاً متديناً، حسن

(1) المصدر نفسه (4 / 100).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 156.

السلوك، رضي السيرة، حتى تكون فتواه مقبولة عند المستفتين، يتعبدون الله عز وجل بها وهم كلهم ثقة وإطمئنان[1].

ولا يختلف اثنان في كون الشيخ عبد الحميد بن باديس، كان مستكملاً لأدوات الاجتهاد، فهو عالم بالكتاب والسنة، متبحر في الاطلاع على الفروع الفقهية وربطها بأصولها، متضلع في فنون العربية واداباها، خبير بالواقع الإسلامي، وتكفينا هنا شهادة رفيق دربه في الجهاد، وخليفته في رئاسة جمعية العلماء الإبراهيمي وهو أعرف الناس بابن باديس ومكانته العلمية المرموقة، وتميزه عن كثير من علماء العصر، فقال: وعبد الحميد بن باديس باني النهضة وإمامها، ومدرب جيوشها، عالم ديني ولكنَّه ليس كعلماء الدين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة، جمع الله فيه ما تفرق في غيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان النَّاصع، واللسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والعقل اللمَّاح، والفهم الغوَّاص على دقائق القران، وأسرار التشريع الإسلامي، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين، ومناشأئ أمراضهم، وطرق علاجها، والرأي السديد في العلميات والعمليات من فقه الإسلام، والإلمام بمعارف العصر مع التمييز بين ضارها ونافعها[2].

### 6 . الدعوة إلى تأصيل الفتوى وتعليها:

لقد دعا الشيخ عبد الحميد بن باديس المفتين إلى وجوب بيان الأدلة التي بنوا عليها فتاواهم من الكتاب والسنَّة، لأنَّ الله تعبد المسلمين بالنصوص، وذكرُها في نصِّ الفتوى يكسبها هيبة وجلالاً، ويجعلها أدعى للقبول عند المستفتي، وفي ذكر وجه الاستدلال منها عند الأئمة الأعلام الذين تواترت أدلتهم في تقريب المستفتين من العلم ودرجة النظر، فقال رحمه الله: ومما ينبغي لأهل العلم ـ أيضاً ـ إذا أفتوا أو أرشدوا أن يذكروا أدلّة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم، ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته، ويعرفوهم منزلته،

(1) المصدر نفسه ص 157.

(2) آثار الإمام الإبراهيمي (2 / 196).

ويجعلوه منهم دائماً على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلب وأثر في النفوس، فإلى القرآن والسنة ـ أيها العلماء ـ إن كنتم للخير تريدون[1].

وفي هذا الإطار علَّق الشيخ عبد الحميد بن باديس على فتاوى مجلَّة نور الإسلام التي كان يكتب فيها كبار علماء الأزهر الشريف، ومما أخذه على تلك الفتاوى أنها عارية عن الدليل من الكتاب والسنة، خالية من التأصيل بعيدة عن التقعيد، فقال رحمه الله: كنا ننتظر من مجلة يحررها كبار العلماء بالأزهر الشريف ؛ أن تأتينا في باب الفتاوى والأحكام منها بأدلة المسائل، والمستندات الأقوال مع إبدائها رأيها في الترجيح بالطرق المعتبرة عند أهله، وكنا ننتظر لذلك أنها لا ترجع في استدلالها إلا إلى الكتاب والسنة الثابتة، فكنا نخرج منها ـ لو كان ما انتظرناه ـ بمسائل محررة وأدلة معتبرة وأحاديث ثابتة، وفي ذلك زيادة على العلم الصحيح تُعيد لطريق النظر والاستدلال، وربط الأحكام بأدلتها وهو ما لا تزال معاهدها الدينية الكبرى في العالم محرومة منه إلى اليوم[2].

ومراد الشيخ عبد الحميد بن باديس من هذا النص هو تأصيل الفتوى وتعليلها، وليس مراده الاقتصار في الاستدلال على الكتاب والسنة وعدم الأخذ بالقياس والتعليل، كما هو شأن المذهب الظاهري، فالشيخ ابن باديس لم يكن ظاهرياً، بل كان يأخذ بالنصوص ومعقولاتها، من الإجماع والقياس والاستحسان، والأخذ بالمصالح والغوص في أسرار التشريع والبحث عن المقاصد، ولذلك أجاب الشيخ عبد الحميد عن السؤال الاتي وهو المجتهد: إذا أفتى مستنداً إلى ما يفيد الظن من أخبار الاحاد والأقيسة أو النصوص الأخرى الظنية الدَّلالة، هل هو متبع لغير العلم[3]؟

(1) مجالس التذكير ص 142.

(2) آثار الإمام ابن باديس (3 / 240).

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 159.

والجواب: لا بل هو متبع للعلم وذلك من ثلاثة وجوه، إن كل دليل يكون ظنياً بمفرده، يصير يقيناً إذا عرض على كليات الشرع ومقاصده وشهدت له بالصواب، وهذا شأن المجتهدين في الأدلة الفردية، إنَّ المجتهد يعتمد في الأخذ بالأدلة الظنية لما له من العلم بالأدلة الشرعية الداعية إلى اعتبارها.

إن تلك الأدلة بمفردها تفيد الظن القوي الذي يكون جزماً ويسمَّى كما تقدَّم علماً، فما اتبع المجتهد إلا العلم(1).

وهكذا يدعو الشيخ عبد الحميد بن باديس المفتي إلى تأصيل فتواه وتعليلها والاستدلال لها استدلالاً صحيحاً، سواء أكان الدليل نصاً من الكتاب أو السنة إن وجدا، أو إجماعاً متيقناً منقولاً، أو قياساً صحيحاً، أو مصلحة راجحة، أو مقصداً من مقاصد التشريع شهدت له الأدلة الإجمالية والنصوص القطعية، مما ينفي عن الشيخ تهمة الظاهرية التي حاول البعض إلصاقها به ظلماً وزوراً.

وبالإضافة إلى الدعوة إلى تأصيل الفتوى وتعليلها فإنَّ الشيخ ابن باديس، كان يدعو المفتين إلى تحرير الفتوى بعيداً عن أيِّ غموض يكتنفها، بما يجعلها واضحة عند المستفتين، أما أن يعمد المفتي إلى إيراد كل الأقوال المذكورة في المسألة دونما مناقشة لها، أو ترجيح بعضها فهو من إيقاع المستفتي في الخلط، والتشويش، وهو أمر منبوذ لأنه يؤدي إلى نتائج غير حميدة.

ولذلك قال معلقاً على فتوى أحد شيوخ الأزهر: لا والله ما مثل فضيلته مع سائله إلا مثل طبيب قدَّم لمريضه زجاجات من الأدوية والعقاقير منها السام القاتل، ومنها المسكِّن، ومنها المهيج، ومنها غير ذلك، ثم قال لذلك المريض ها أنا قدمت لك ما تداوى به أو ما يمكن أن تداوى به، ولك أيها المريض الرأي في اختيار ما شئت منها، ليس من غرضي أن أبين لك ما يصلح لمداواتك وما لا يصلح، وما هي حينئذ قيمة أمانة ذلك الطبيب ونصحه لمريضه؟ وأين هي ثمرة علمه؟ ومن العجيب أن يقول فضيلته ؛ بعد ما نقل أكثر من صفحة

(1) مجالس التذكير ص 142، 143.

من تلك الاحتمالات الواهية والأقوال المسمومة: ـ ولا داعي للاسترسال ـ وأي استرسال أكثر من هذا[1].

### 7 ـ مناصرة المذهب:

لقد امتازت فتاوى الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ بأنها وفق المشهور، حريصاً على نبذ الأقوال الشاذة وعدم اعتمادها، ولذلك كان يقول ـ رحمه الله ـ: فخير لمن يريد السلامة بدينه أن يقتصر على المتفق عليه وحده أو مع إتيان المختلف فيه مع مبالغته في تحسين قصده وتمام تحرّيه[2].

ومن المسائل الدَّالة على انتصار الإمام عبد الحميد بن باديس لمذهب الإمام مالك، موقفه من مسألة الصلاة الوسطى وما هي؟ فعند تفسير قوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *} [الإسراء : 78]، تعرض إلى موضوع أفضلية الصلوات عن بعضها البعض، فكتب قائلاً: من تخصيص صلاة الفجر بجملة التذييل المؤكدة، وما اشتملت عليه من هذه المزية ؛ أخذ جماعة من أهل العلم أفضليتها على غيرها، فإن قلت صلاة العصر أيضاً لها مزية كما تقدم في حديث مالك.

قلت: إنَّ ثبوت هذه المزية للفجر قطعي بنص القرآن ومتفق عليه في روايات الحديث بخلاف العصر، فقد جاء في بعض الروايات دون بعض وتبقى صلاة الفجر ممتازة تخصيصها بالتأكيد في نصّ الكتاب وكفى هذا مرجحاً لها[3].

وأوضح من هذا النَّص انتصار العلامة ابن باديس للرأي المشهور في مذهب مالك رحمه الله الذي يعتبر أن الصلاة الوسطى التي وردت النصوص الشرعية بالتأكيد على المحافظة عليها، كقوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ *} [البقرة : 238]، بأنها هي صلاة الصبح، جاء في الرسالة

(1) آثار الإمام ابن باديس (3 / 241).

(2) المصدر نفسه (3 / 255).

(3) مجالس التذكير ص 175.

لابن أبي زيد القيرواني: أما صلاة الصُبح فهي الصلاة الوسطى عند أهل المدينة وهي صلاة الفجر[1].

لقد انتصر ابن باديس في هذه المسألة إلى الرأي المشهور في مذهب الإمام مالك واستدل بأدلة متنوعة، وعوَّل عليها إلا أنه كان له منزع آخر في الترجيح وهو إشارة القرآن الكريم إلى هذه الأفضلية لصلاة الصبح: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *}. ومن الأصول في مذهب مالك رحمه الله تقديم ظاهر القرآن على السنة عند التعارض لم تكن السنَّة متواترة أو معضدة بعمل أهل المدينة[2].

## 8. ذم التعصب المذهبي:

بالرغم من اعتزاز الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - بتمذهبه بالمذهب المالكي في الفروع ومناصرته له وإفتاؤه وفق المشهور من الأقوال فيه ؛ فإنه لم يكن متعصباً لا يرى الحق إلا في مذهبه، ولا يتصور الصواب مع غيره، بل كان - رحمه الله - يؤمن بأنَّ المذاهب الفقهية كلها مناهج اجتهادية صحيحة، إجتهد أصحابها في استنباط الأحكام الفرعية من نصوص الكتاب والسنة ومن العمل بمعقولها أو القياس عليها، فالاختلاف الفقهي في الأحكام الفرعية يمثل ثروة تشريعية تعتبر مبعثاً للافتخار والاعتزاز؛ لأنه في حقيقته ما هو إلا تعدد النظريات والمبادئ والطرائق الحقوقية في استمداد من التشريعات الأخرى، لذلك قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - الخليفة الراشد: ما أحب أنَّ أصحاب محمد (ص) لا يختلفون ؛ لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، إنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سُنَّة[3].

وكان ابن باديس يؤكد على وجوب الاطلاع الواسع على المذاهب وارائها بالنسبة لمن يتخصصون في الفتوى وفي القضاء الشرعي، فيقول: فيتوسع لهم في فقه المذهب ثم في الفقه العام، وتكون «بداية المجتهد» من

(1) حاشية العدوي (1 / 212).

(2) المدخل الفقهي العام، للشيخ د. مصطفى الزرقاء (1 / 212).

(3) الشيخ عبد الحميد السلفية والتجديد ص 172.

الكتب التي يدرسونها، ويدرسون علم التوثيق، ويتوسعون في علم الفرائض والحساب، ويطلعون على مدارك المذاهب حتى يكونوا فقهاء إسلاميين ينظرون إلى الدنيا من مراة الإسلام الواسعة، لا من عين المذهب الضيقة[1].

فالفقيه المعاصر يجب أن يستفيد من جميع المذاهب الفقهية، والمدارس الاجتهادية وألا يكون قد حرم نفسه، وبالتالي أمته، من خير كثير وأوقعها في الحرج، لأنَّ المذهب الواحد لا يسع الأمة بكل احتياجاتها.

وفي هذا الإطار وجدنا العلاَّمة عبد الحميد بن باديس يوجِّه انتقاداً لاذعاً لمجلة الأحكام العدلية، تلك المجلة التي صدرت عام 1286هـ والتي فصلت بمواد ذات أرقام متسلسلة كالقوانين الحديثة وتبلغ عدد المواد فيها 1851 مادة، وكلُّها مستقاة من قسم المعاملات من المذهب الحنفي الذي عليه عمل الدولة، فقال رحمه الله: لسنا نبرر صنيعه في رفض الأحكام، ولكننا نريد أن يذكر الناس أن تلك المجلة المبنية على المشهور وراجح مذهب الحنفية ؛ ما كنت تسع حاجة أمة من الأمم في كل عصر، لأنَّ الذي يسع البشرية كُلَّها في جميع عصورها هو الإسلام بجميع مذاهبه لا مذهب واحد، أو جملة مذاهب محصورة كائناً ما كان، وكائنة ما كانت، ونريد أن يذكر الناس أيضاً أن أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا غير ما عرفوه من صغرهم من مذهبهم، وما كانت حواصلهم الضيقة لتتسع لأكثر من ذلك، كما لا يجب أن يذكروا أن مصر بلد الأزهر الشريف ما زالت إلى اليوم الأحكام الشرعية ـ غير الشخصية ـ معطلة فيها، وما زال كود نابليون مصدر أحكامها إلى اليوم، وما زال الانتفاع بالمذاهب الإسلامية في القضاء ـ غير المذهب الحنفي ـ مهجوراً كذلك إلا قليلاً جدًّا[2].

---

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 60).

بداية ص 479

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (3 / 124 . 125).

## 9. الاختلاف المذهبي ووحدة الصف:

بذل الاستعمار الفرنسي جهوداً جبارة من أجل إفساد ذات البين بين الإباضية والمالكية، وكان بعض قالة السوء من المنتسبين للعلم وأهله يغذون هذا التوجه، ويذكون ناره، واستغلوا حادثة منع الإباضية للمالكية من الأذان، فأعلن كل فريق الحرب ضد الاخر، وأراد كل فريق أن يستميل الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى صفه، ولما لم ينحز رحمه الله إلى أي طرف، زاد كل فريق في لومه والحنق عليه، فكتب رحمه الله يقول: واليوم وقد اتفق الجانبان على إنكار سُكوتنا وحمل الحنق علينا وسوء الظن فينا، فإننا نقول كلمتنا للحق والنصفة، غير منحازين بها إلى إحدى الفئتين، بالغة ما بلغت في إرضاء من رضي، وإسخاط من سخط، حيث كنا نعتقد أننا أرضينا بها الحق والوجدان فنقول:

. قد ثبت عندنا أنَّ بعض الأباضية بغرداية منذ زمان بعيد بنى مسجداً وجعل له مأذنة وأحدث فيه أذاناً ثانياً، فاتفقت كلمة جماعة الإباضيين على منعه وهدم مأذنته، فعلمنا بهذا أن الإباضية لم يمنعوا مالكية غرداية من الأذان تعصباً عليهم لأنَّهم مالكية ؛ كيف وقد منعوا قبل ذلك الإباضية مثلهم وهدموا الصومعة، وإنما منعوهم لأنهم يرون الاكتفاء في البلد بأذان واحد.

. فنحن بهذا قد برأنا الإباضية من تعصبهم على المالكية لأنهم مالكية، ولكننا من ناحية أخرى نرى أنه حق عليهم أن يرجعوا في هذه المسألة عن رأيهم، ويسمحوا لإخوانهم المالكية بأذان.

**أولاً**: إصلاحاً لذات البين بين المسلمين، وهي في الإسلام من أول ما تجب وتتأكد المحافظة عليه والقيام به.

**ثانياً**: حفاظاً للوحدة الإسلامية بحفظ القلوب غير متصدعة بداء الفرقة، القتّال المعدود في الإسلام من أكبر المحرمات المهلكات.

**ثالثاً**: مجاملة لبقية إخوانهم المالكية بالقطر الذين تربطهم بهم رابطة الدين والوطن والمصلحة.

هذه كلمتنا نقولها بعهد الله، لا نقصد بها إلا القيام بواجب الصَّدع بالحق والدعوة إليه والإصلاح بين المسلمين، فإن كانت صواباً فمن الله الكريم الرحيم، وإذا كانت خطأ فمنا وعلينا، وليست بالأولى من خطئنا[1].

فإيمان الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ بوحدة الأمة الإسلامية وسعيه الدؤوب وعمله المتواصل من أجل تحقيق الاتحاد بين المسلمين ؛ هما الأمران اللذان جعلاه يركز على القواسم المشتركة بين المسلمين، ويقوّيها، ويدعو إلى تمتينها، وينظر إلى القضايا الخلافية التي نتيجة الاجتهاد المذهبي نظرة متفهم متسامح، فكان رحمه الله يقول: هذا العاجز ـ كما يعلم الناس كلهم ـ كان ولا زال من دعاة التوحيد والاتحاد، وكنت ولا زلت أقول في مجالس ودروس إنَّ المذاهب الفقهية غير الأربعة المشهورة هي كالأربعة، تتفق وتختلف عن نظر واجتهاد[2].

وقال: عند المصلحة العامة من مصالح الأمَّة يجب تناسي كلَّ خلاف يُفرِّق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التآزر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة، بإذن الله، ثم بقوة الحق وأدراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة[3].

### 10 ـ الاجتهاد ومواجهة المستجدات:

رفع ابن باديس صوته عالياً بالدعوة إلى ممارسة الاجتهاد ممن استكمل أدواته، وتحققت فيه شروطه، ذلك أن الاجتهاد هو الذي يكسب الفقه الإسلامي حركية ومرونة، وينفي عنه صفتي الجمود والانغلاق[4]، إنَّ ابن باديس اعتبر التقليد عموماً وصمة عار في جبين الأمة الإسلامية يبوء بإثمها العلماء وطلاب العلم، الذين كلت هممهم وفترت عزائمهم، ورضوا من العلم، بترديد أقوال السابقين، واعتبر هذا الأمر من أهم أسباب

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (5 / 452).
(2) المصدر نفسه (5 / 449).
(3) المصدر نفسه (5 / 156).
(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 183.

تخلف المسلمين، فقال رحمه الله: كما أُدخلت على مذهب أهل العلم بدعة التقليد العام والجامد، التي أماتت الأفكار وحالت بين طلاب العلم ومعين السنة والكتاب، بل صيرتها ـ في زعم قوم ـ غير محتاج إليهما، من نهاية القرن الرابع إلى قيام الساعة ؛ لا في فقه، ولا استنباط، ولا تشريع ؛ استغناء عنهما، (زعموا) بكتب الفروع من المتون والمختصرات، وصارت معانيها الظاهرة بله الخفية مجهولة حتى عند كثير من كبار المقصودين[1].

فطالب العلم أحوج ما يكون إلى التفكير الصحيح، والاستقلال فيه ؛ لأنه بهذه الملكة ترسخ قدمه في العلم ويصبح أهلاً للفتوى والاجتهاد، لمواجهة المستجدات وتقديم الحلول لعويص المشكلات[2].

وفي هذا الصدد يقول ابن باديس: إذا كان التفكير لازماً للإنسان في جميع شؤونه وكل ما يتصل به إدراكه، فهو لطالب العلم ألزم من كل إنسان، فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل، وفيما ينظر من الأدلة تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن تفكير غيره، وإنما يعرف تفكير غيره يستعين به، ثم لا بد له من استعمال فكره بنفسه.

بهذا التفكير الاستقلالي يصل الطالب إلى ما يطمئن له قلبه ويسمى حقيقة علماً، وبه يأمن الوقوع فيما أخطأ فيه غيره، ويحسن التخلص منه إن وقع فيه.

فالتفكير التفكير يا طلبة العلم، فإن القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم، وإنما تربط صاحبها في صخرة الجمود والتقليد، وخير منهما الجاهل البسيط[3].

ولم يكتف الإمام عبد الحميد بن باديس بالدعوة النظرية للاجتهاد، وذم التقليد، بل كانت نزعة الاجتهاد بادية في الفتاوى التي كان يفتي بها سائليه، إذ لم يكن يكتف بنقل الأقوال من الكتب الفقهية

(1) آثار الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس (5 / 38).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 186.

(3) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (3 / 91).

المعتمدة كما عليه التقليد، وكانوا يهابون أن يخالفوا ما هو موجود في كتب المتقدمين، بل كان رحمه الله يفحص الأقوال وينظر إلى العلل والمقاصد التي بُنيت عليها الأحكام[1]، ومن ذلك إجابته على السؤال التالي: هل يجوز للمرأة أن تستعمل دواء يمنعها من الحمل لأنها ضعيفة بالمرض؟

أجاب رحمه الله تعالى بما يلي: أصل هذه المسألة هو العزل أي عدم إنزال الرجل المني في الفرج، وهذا كرهه البعض والمشهور في المذهب جوازه ؛ بإذن المرأة الحرة لحقها في الوطء، والإنزال من تمام لذتها، وفي العزل منع الولادة، فيقاس عليه شرب الدواء لمنع الولادة، فيجوز ما لا يلحق ضرراً بالجسم إذا كان بإذن الزوج لأنَّ له حق في الولد، وإذا كانت ضعيفة عن الولادة فلا تتوقف على إذنه[2].

والخلاصة التي ننتهي إليها بعد هذا التجوال في فكر الشيخ ابن باديس وثرائه الفقهي ؛ أنه كان يملك رؤية واضحة المعالم في تفقيه طلبة العلم، وبناء المجتهد المعاصر، وكيفية ممارسة الفتوى[3].

**. رأيه في الفن والجمال:**

لم يكن ابن باديس من أولئك الفقهاء الذين لا يفكرون إلا في القيم الأخلاقية والمنطقية، بل إنَّه اهتم بالقيم الجمالية أيضاً، فكتب مقالاً عنوانه: الفن الأدبي في الحديث النبوي: فتحدث عن جمال الصوت وعن الصورة الرائعة التي صوَّر بها النبي (ص) النساء في قوله، مما رواه البخاري في صحيحه عن أبي قلابة عن ثابت البناني عن قتادة عن أنس أنه كان للنبي (ص) حاد يقال له أنجشه، وكان حسن الصوت، والنبي (ص) في مسير له، فحدا الحادي وكان يحدو بهنَّ، فقال له النبي (ص): ويحك أنجشه رويداً بالقوارير. وذلك أنه لما غنَّى

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 187.

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (3 / 258).

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 190.

أنجشه للإبل، وكان على ظهورها النساء أخذت في السير، وأشفق النبي عليهنَّ، فأمر الغلام الفارسي الحادي وهو أنجشه أن يرفق بهنَّ لشدة ما يجدن من الاضطراب على ظهور الإبل، وهي تسرع في سيرها، فعبر عن ذلك بصورة جذابة فشبه النساء بالقوارير أو الزجاجات لما فيها من بياض ولمعان ورقة، ولما في النساء أيضاً من رقة العواطف ولطفها وسرعة انكسار قلوبهنَّ وتأثيرها وعسر انجبارها.

وقد حاول ابن باديس أن يعرف لنا مفهوم الفن فبين لنا أنه: إدراك صفات الشيء على ما هي عليه من حسن وقبح إدراكاً صحيحاً، والشعور بها كذلك شعوراً صادقاً والتصوير لها تصويراً مطابقاً بالتعبير عنها بعبارات بليغة في الإبانة والمطابقة للحال ذلك هو الفن الأدبي، فالفن الأدبي عنده يتكون من عناصر إدراكية شعورية وتعبيرية، ومن مطابقة. والفنان هو ذلك الإنسان الذي يدرك صفات الشيء الحسنة والقبيحة إدراكاً صحيحاً، وهو الذي يشعر بتلك الصفات وينفعل بها بصدق، ثم يعبر عن إدراكه وتجربته الشعورية تعبيراً مبيناً بليغاً، على أن يكون ذلك مطابقاً للحال.

ويلاحظ القارئ أن ابن باديس جرى على رأي رجال البلاغة في أصل من أصول البلاغة والنقد، ألا وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، كما أنه اشترط التصوير أن يكون مطابقاً، فكأن المطابقة هنا تشبه لحد ما ما يسميه أرسطو بالمحاكاة، والواقع أن الفنان يبدع الصور ويضفي على الأشياء أخيلة وظلالاً ذاتية ما كان لها أن تعتبر مطابقة للواقع الخارجي أو محاكية له.

ويمكن القول بأن ابن باديس ذهب في الفن مذهباً منطقياً يتصل بالحق أكثر من اتصاله بالإبداع الفني، لأنه اعتبر الفن إدراكاً لصفات الشيء على ما هي عليه في الواقع الخارجي، فكأن الصورة الفنية نسخة مما هو واقع في العالم الخارجي، على نحو ما يتصور الفلاسفة الحقيقة التي يرون أنها مطابقة ما في عالم الأذهان لما في عالم الأعيان، ولم يكن بهذا الاعتبار مثل شيء جديد أبدعه الفنان سوى التعبير الذي يمتاز بالإبانة والبلاغة.

ولكننا نجد ابن باديس يضيف إلى عناصر الصورة الأدبية الفنية عنصراً آخر يتوِّجها،وهو اللذة التي تحصل

للمتذوق ؛ لأن هذه اللذة في نظر ابن باديس تدفع عن الإنسان ما يجده من متاعب الحياة وأوصابها والامها ؛ لأن الاثار الفنية تدخل على النفوس انشراحاً وبهجة وصفاء.

وأدرك ابن باديس أيضاً ما يسمى في الفن بالتواصل أو المشاركة الوجدانية فقال: لذا كان أكثر الفن الأدبي في تصوير الحسن وعرضه على الناس، ليشاركوا الفنان في إدراك ذلك الحسن والشعورية والتذوق للذة ذلك الإدراك والشعور. وبين لنا باعتباره مربياً ومعلماً دور تربية الذوق الجمالي وغرسه في النفوس، لتتمكن من الشعور بما في هذا الكون من آيات الجمال.

وذكر أن القرآن الكريم مفعم بصور ومشاهد تعرض علينا افاق الكون في صورها الجذابة الجميلة، وأشار أيضاً إلى أن الحديث النبوي يشتمل على روائع من الفن الأدبي وخوالد من الاثار الرفيعة، كما أنه استشهد بقصيدة كعب بن زهير الذائعة التي ألقاها أمام النبي (ص): فوصف المرأة والماء الذي مزجت به الخمرة والناقة وصورها تصويراً فنياً، ولم ينكر عليه لأنه لم يكن يصف شخصاً معيناً يؤدي وصفه إلى إثارة الشهوة البهيمية نحوه، وإنما للنفوس البشرية صورها الجمالية، وننمي فيها قوة الشعور والذوق.

ولم يخف على ابن باديس أن ينبهنا إلى ما في الحديث من فقه نفسي، فحلل الحديث تحليلاً فقهياً نفسياً، وأوضح أن فيه تنبيهاً على نبذ التشديد والتنطع فيما لا عيب فيه ولا قبح في معناه ولا فحش في لفظه من جهة وفيه أيضاً: التنبيه على المحافظة على قلوبهن «النساء» وعواطفهن ليدوم ودهنَّ وسلامتهنَّ، ويدوم الهناء معهنَّ والاستمتاع بهنَّ لأنهنَّ ضعيفات القلوب رقيقات العواطف، شديدات الإحساس، يصبرن على كل شيء من الرجل إلا على كسر قلوبهنَّ ومسِّ عواطفهنَّ.

ومن جهة أخرى نجد أن ابن باديس يتصور الإسلام على أنه حقيقة قائمة على عناصر ثلاثة: الحياة والعلم والفن، فقال: الإسلام دين الحياة والعلم والفن، والحياة قوة إيمان وجمال، والعلم يمثل القوة، والفن يمثل الجمال.

بيد أن ابن باديس ربط بين القيمة الجمالية والقيمة الخلقية، فذهب إلى أن الدعوة إلى الجمال والتحبب في جميع مظاهر الحياة يجب أن تكون في إطار العفاف والفضيلة وساق عدة آيات قرانية في هذا المعنى منها:

. قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *} [التين : 4].

. وقوله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} [غافر : 64].

. وقوله: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ} [يونس : 24].

. وقوله: {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} [النمل : 60].

. وقوله: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف : 32].

. وقوله: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ *} [النور : 30].

ويرى أن القرآن نفسه استخدم الصورة الجمالية في الدعوة إلى الهداية وإلى التأمل في الطبيعة: يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي في بيان بديع جذاب، يشوقنا إلى التأمل فيها والتعمق في أسرارها. إن الجمال في نظره يصبح أحياناً فتنة إن لم يُحَط بسياج من الأخلاق، وإذا كان العالم ينطوي على جمال فإنه يصير شراً ووباءً على من اتبع هواه واستبعد عقله. هذا العالم بمائه وأرضه وأزواجه هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال.

إن ابن باديس زارع محبة وداعي إلى المعاني الحقيقية للمذهب الإنساني، ورحابة الأفق، وعلم الناس أن الجمال مقوم من مقومات الحضارة، وأن التربية الجمالية وتنمية الذوق من أسس التربية الخلاقة للشخصية الحرة الشاعرة بذاتيتها وحريتها وقوتها، المتذوقة لما في العالم من جمال، المتعاطفة مع ما في الإنسان من محبة وما في جوهره من كرامة متأصلة(1).

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، جمع د. محمد الدراجي، مقال الدكتور عمار الطالبي ص 16.

ـ في مجال الدفاع عن الإسلام والمسلمين: ورده على طه حسين:

كان الإمام ابن باديس على الأهبة والاستعداد كل لحظة للدفاع عن الإسلام ومقدساته والرد على أولئك الذين يناطحون صخرته ويشوِّهون صورته،، ويقيمون الدليل من عملهم وسلوكهم على جهلهم بالإسلام، أو على فساد فطرهم، وعماية قلوبهم، وسوء أخلاقهم ونواياهم، فما إن يرى منهم كفراً، أو يسمع منهم منكراً ؛ حتى يعلنها في وجوههم صرخة مدوية تقمع النفوس، وتخرس الألسن.

وفي هذا المجال يكتب عن «الرسميين» الذين ملكت الوظائف رقابهم: فأنستهم أنفسهم فباعوا ضمائرهم في مرضاة من يبتغون عندهم العزة، وذهبوا من الملق والتزلف إلى أقصى ما يبلغه المتزلفون والمتملقون، ويقول فيهم: لم يكفهم ما قدموا من أنفسهم ومن قومهم، وما كذبوا ولفقوا بألسنتهم عن غيرهم. فمدوا أيديهم[1]، ـ شلت أيديهم ـ إلى الإسلام والقران، يكذبون ويحرفون.

ويكتب الدكتور طه حسين كتابه «على هامش السيرة» الكريمة على منوالها فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة، والأساطير الخيالية، حتى ليخيل للقارئ أن سيرة محمد (ص) ما هي إلا أسطورة من الأساطير. وفي هذا الدسّ والبهت ما فيه ومن العجب أن قام أحد الكتاب في مجلة «الرسالة» يُطري في هذا الكتاب ويجعله الدليل على أن طه حسين ما يزال أزهرياً رغم كل شيء.

فيقوم طه حسين في العدد الثاني من «الرسالة» فيصدق ذلك الكاتب فيما ادعاه له من رسوخ أزهريته وديانته حتى ليظن القارئ للمقالين أنهما ولدا في مجلس واحد، فالدكتور طه حسين الذي كان يقول عن الإسلام ما شاء ولا يبالي بالمسلمين أصبح اليوم ـ بعدما أخرج من الجامعة ـ يحسب للمسلمين حساباً، فلا

(1) المصدر نفسه ص 168.

يكتب شيئاً إلاوهو يكرر أنه مسلم، وأنه يعظم الإسلام، ولكن ما انطوى عليه صدره يأبى عليه إلا الظهور كما بدا في كتابه هذا الأخير[1].

ونشرت مجلة «المقتطف» الشهيرة مقالاً يقول فيه كاتبه تحت هذا العنوان: «مفاخر أور الكلدانيين»: لقد جاء في بعض الخرافات العربية القديمة أن عاصفة من الرمل ظهرت بمدينة عاد، فأصبحت بعد العاصفة لا عين لها ولا أثر[2].

فرد عليه الإمام رداً مفحماً، قوامه العقل البصير، والحجة الدامغة، والعلم الصحيح، ومما قاله فيه: لا نشك أن كاتب المقال ليس مسلماً، كما لا نرتاب أنه لا يجهل أن قصة عاد من قصص القران: فتعبيره عنها بالخرافة من سوء الأدب الذي ما عهدناه في المرحوم الدكتور صروف الذي كان في علمه وفلسفته وشدة تحقيقه ديناً صحيح التدين، محترماً لكتب الأدباء. ثم حقق الإمام القصة في ضوء القرآن والتاريخ بأسلوبه العلمي المشرق ما يجعلها في مجالها وأفقها البين[3].

ونشرت مجلة «الرابطة الشرقية» في عددها الثالث من المجلد الثاني مقالاً بإمضاء علوي، تحدَّث فيه الكاتب عن الخلاف الواقع بين العلويين الأشراف الحضارمة، والإشاديين في جاوة وسنغافورة، وذكر في مستهل حديثه «الجزائر» لينظر بها فقال: إليك نبأ عن الجزائر فإن في أرجائها حركة تحسبها حركة نهوض لشعبها العربي الذي... إلى صورة مشوهة من العجمة بالعسف والجهل وعدم المعونة في سلوك سبيل الحياة إلى آخر هذا الدهر، فرد عليه الإمام رداً علمياً قائماً على الحجة ووضح حقيقة هذه الحركة وأهدافها لمن يجهلها أو يتجاهلها[4].

**وكتب الأستاذ عبد الحميد العبادي مقالاً تحت هذا العنوان:**

بلاد عربية تحتضر فيها العربية، نشره في الرابطة العربية سنة 1939م، وكان يقصد المغرب العربي، فنشره

(1) الشهاب ج3م1. ذي القعدة 1352هـ/ فيفري 1934م.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 168.

(3) المصدر نفسه ص 168.

(4) الشهاب ج1م1 رمضان 1348هـ: فيفري 1930م.

الإمام في «الشهاب» وعلق عليه بهذه الكلمة الوجيزة الوافية: كلا بل هي ـ العروبة ـ اليوم تزدهر. فقال لهم الله: موتوا ثمَّ أحياهم[1].

كلما يرتفع صوت معادٍ للإسلام هنا أو هناك بما يسيء إليه أو يحط من مكانته، أو ينال من جلاله وجماله ؛ تصدى له ابن باديس بالتفنيد والنقض، أو التوضيح والتصويب[2].

* * *

(1) الشهاب ج3م13 ربيع الأول 1356هـ / مارس 1937.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 168، 169.

## المبحث الخامس

## المنهج التعليمي والتربوي والأخلاقي

## والاجتماعي عند ابن باديس

### أولاً: المنهج التعليمي:

قال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً *} [الإسراء : 36].

مهد ابن باديس لتفسير هذه الآية، بالقول: العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان، وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة من أصول التكليف. فهما أعظم لما تقدمهما من حيث توقفه عليهما، فجيء بهما بعده ليكون الأسلوب من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى. ولما كان العلم أساس الأخلاق قدمت آياته على آياتها تقديم الأصل على الفرع[1].

لقد قرَّر الإمام ابن باديس حقيقة علمية جريئة تبوئه مكانة ممتازة بين المصلحين في العالم الإسلامي، وهي المقولة الخالدة التي يقول فيها: العلم وحده هو الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات، ثم واصل رحمه الله يشرح سرَّ تقدم العلم في كل شيء، ولماذا جعله الإمام المتبع؟

فقال: سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه، ويثمر بثماره ويعقم بعقمه، لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات ثمرة إدراكه الحاصل

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 190.

عن تفكيرهونظره[1]. فبالعلم يحقق الإنسان التطور ويحسن التجارب والخبرات، ويقترب شيئاً فشيئاً من الكمال الإنساني، عن طريق الاكتشاف التي تذلل له الصعوبات التي كانت تنغص عليه عيشه وتكدر صفوه، ولذلك قال: ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير امتاز عنه بالتنقل والتطور في أطوار حياته ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته، فمن المشي على الأقدام إلى التحليق في الجو مثلاً، وبقي سائر الحيوان على الحال التي خلق عليها دون انتقال، وبقدر ما تكثر معلومات الإنسان ويصبح إدراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها ؛ تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول وقسمي العلوم والآداب[2].

وهكذا يقرر ابن باديس رحمه الله بأن الاكتشافات العلمية التي نقلت الإنسان من طور إلى طور، وغيرت مجرى حياته تغييراً كلياً، إنما هي نتيجة إعمال الفكر الذي هو ثمرة العلم، وعليه؛ فحيث لا علم ؛ فلا تحول ولا تطور نحو الأفضل، ولا تحسين في مستوى المعيشة وأنظمة الحياة وإنما يكون هناك... الذي يقود إلى الهلاك العاجل والاجل، ولذلك قال: وإذا لم يصبح إدراكه للحقائق أو لنسبها أو لم يستقم تنظيمه لها، كان ما يتوصل إليه بنظرة خطأ وفساد في فساد. ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر في المحسوس والضلال في المعقول. وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئياً وكلياً من قريب أو من بعيد، وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام ؛ وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها، فتتخذ رؤوساً جُهالاً لأمور دينها وأمور دنياها، فيقودونها بغير علم، فيَضلون ويُضلون، ويَهلكون ويُهلكون، ويفسدون ولا يصلحون.

وما أكثر هذا ـ على أخذه في الزوال بإذن الله ـ في أمم الشرق والإسلام اليوم[3].

(1) مجالس التذكير ص 139.

(2) المصدر نفسه ص 138.

(3) مجالس التذكير ص 138.

إن من أهم أسباب التخلف والانحطاط اللذين ال إليهما العالم الإسلامي هو الابتعاد عن الأخذ بالعلم، والاحتكام إلى نتائجه، وفي شتى الميادين وسائر المجالات، فساد الاستبداد المجال السياسي وأنظمة الحُكم، وساد الفساد المالي قطاعات الاقتصاد، وساد القصور التربوي مجالات التربية والتعليم، وساد التقليد والابتداع مجال الفتوى والدين، وهكذا غيب العقل، وقتل الاجتهاد، وحورب التجديد، وسادت الفوضى جميع أنظمة الحياة وتحلل النسيج الاجتماعي، وأصبح إنسان ما بعد دولة الموحدين يحمل في جنباته بذور القابلية للاستعمار كما عبَّر عن ذلك المفكر مالك بن نبي رحمه الله[1].

### 1. إصلاح التعليم:

إدراكاً لابن باديس للحقائق السالفة الذكر، فإنه قد جعل من إصلاح التعليم أساس النهضة الإصلاحية المنشودة، فقال: رحمه الله: لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين، فلنصلح علماءهم[2].

ولقد نادى ابن باديس إلى إصلاح التعليم ودعا في سنة 1937هـ إلى عقد مؤتمر للمعلمين المسلمين الأحرار في نادي الترقي في مدينة الجزائر، فنشرت جريدة البصائر نص الدعوة التي وجَّهها ابن باديس للمعلمين الأحرار.

وقد تضمنت هذه الدعوة جدول الأعمال الذي ناقش الأمور التالية:

وسائل توحيد التعليم، أسلوب التعليم، أسلوب تربية الناشئة، تجارب المعلمين الأحرار في التربية والتعليم، دراسة الكتاب المدرسي وإمكانية تأليف كتب تتفق وواقع الجزائر، التعليم المسجدي ووسائل تنظيمه وترقيته،

(1) عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 202.

(2) آثار الأستاذ ابن باديس (4 / 74).

البحث عن الوسيلة التي تستعيد بها المرأة المسلمة سيرة سلفها في تلقي العلم، وإعداد تقارير مفصَّلة عن مدى إقبال الأمَّة على التعليم بأقسامه السابقة[1].

لقد اقترح ابن باديس لتغيير برامج التعليم جملة من التطورات تضمنت أفكاراً تتعلق بمناهج التعليم وطرق التدريس، وكذلك بعملية إعداد المعلمين، ودور المسجد في تكميل النقص الذي لا يستطيع التعليم النظامي أن يستكمله[2].

**أ ـ الخطة التعليمية التي سار عليها ابن باديس:**

إن العمل التربوي والتعليمي هو السلاح الاستراتيجي الذي فضله ابن باديس على غيره من الأسلحة، وجعل أداته الفاعلة في خوض معارك المواجهة مع الاستعمار، تلك المعارك التي قاوم من خلالها محاولات الفرنسة والتغريب والتجنيس والتنصير، وكل الأساليب الرامية إلى إبتلاع الجزائر أرضاً وشعباً وعقيدة، ولغة وسلوكاً.

لقد رأى ابن باديس في تلك الفترة أن سياسة الاستعمار الثقافية ماضية في طريقها، حريصة على إنجاز مخططها المتمثل في اقتلاع الجزائري من منبته وتشويه لسانه وعقيدته إيمانه، وقتل ذاكرته حتى لا يحس بما يشعره بهويته أو يربطه بحقيقة أمته.

ورأى أن الطريق الأنجع للوقوف في وجه هذه السياسة هو تسليح المواطنين بالعلم والمعرفة وتنوير عقولهم وتعبئة مشاعرهم، ونشر الوعي بينهم، وتصحيح عقائدهم، وإزالة غشاوة الجهل والغفلة عن أبصارهم حتى يروا حقيقة الاستعمار عارية أمام أعينهم فيواجهوها ويجدّوا في محاربتها.

إن مسعى ابن باديس من وراء مشروعه التعليمي هو إحداث تغيير شامل في العقول والأفكار والنفوس، وفي المحيط الثقافي ؛ حتى يستجيب هذا التغيير لمتطلبات الكفاح من أجل إثبات الذات والدفاع عن الكيان،

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 239).

(2) سؤال النهضة عند الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 173، لطيفة عمِّيرة.

ودرء الأخطار المحدقة بشخصية المجتمع[1].

إن الخطة التعليمية التي سار عليها ابن باديس في تنفيذ مشروعه العلمي تشتمل على الاهتمام بمؤسسات للتعليم والتي من أهمها.

ـ **مؤسسات التعليم المسجدي**: مرَّ الحديث عنها

ـ **مؤسسات التعليم المدرسي**: وبعد تأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية عام 1930م، أسند إليها الإشراف على التعليم الذي سيتطور ويتوسع، تحول «مكتب التعليم» إلى «مدرسة عصرية» تحمل اسم هذه الجمعية «مدرسة التربية والتعليم». ومن هذه المدرسة انطلق التعليم العربي الحر في قسنطينة وامتدت فروعه في المدينة، وفي مختلف جهات الوطن، بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين التي أصبحت تنشط هذا التعليم تحت قيادة رئيس الجمعية الشيخ ابن باديس، الذي ظل يدعو الخيرين من ابناء هذا الوطن إلى تأسيس المدارس وتمويل التعليم، ودفع أبنائهم وبناتهم إلى التعليم في هذه المدارس، وبعد ذلك خلفه في ذلك كله البشير الإبراهيمي[2].

وكانت المؤسسة الأولى التي انطلق منها التعليم المدرسي في بدايته هي «مكتب التعليم العربي» الذي تمَّ إنشاؤه عام 1926م في مسجد سيدي بو معزة، وخصص للتلاميذ الصغار «البنين أولاً» وكان عبارة عن كتّاب، ثم نقل من سيدي بو معزة إلى مقر الجمعية الخيرية لاتساعه وعدد حجراته، وأول من باشر التعليم فيه بمقره الأول الشيخ مبارك الميلي بعد تخرجه[3].

**. مدارس جمعية العلماء:**

من أهم مؤسسات التعليم المدرسي الذي أشرف عليه ابن باديس مدارس جمعية العلماء التي انتشرت في مختلف جهات الوطن بفضل جهود المخلصين من أبناء هذا الشعب وبفضل الحركة الإصلاحية التي كان من

(1) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 252.

(2) المصدر نفسه ص 255.

(3) المصدر نفسه ص 256.

أهدافها الأساسية نشر التعليم العربي وتربية الناشئة تربية عربية إسلامية، وقد بلغت جملة مدارس الجمعية حتى عام 1954م، أكثر من مائة وخمسين مدرسة، يتردد عليها أكثر من خمسين ألف تلميذ وتلميذة يدرسون فيها مبادئ اللغة العربية وآدابها وأصول الدين بين أساسيات التربية الإسلامية والقومية والوطنية الصحيحة، وفي سنة 1946م تكونت هيئة عليا للإشراف على التعليم تدعى لجنة التعليم العليا، تابعة لجمعية العلماء، تتكفل بتعيين المعلمين والمفتشين وترقياتهم وتنقلاتهم ووضع البرامج والمناهج والامتحانات..إلخ، وهي التي وحدت التعليم الحر في كل المدارس طبقاً لبرنامج مضبوط، هذا بعد وفاة ابن باديس(1).

**ب . الإطار التنظيمي للتعليم المسجدي:**

**. مجانية التعليم:**

التعليم المسجدي مجاني لكل الفئات التي تستفيد من هذا التعليم، فالطلاب لا يدفعون أي رسوم مقابل تعليمهم.

**. الإقامة مكفولة لكل الطلاب الوافدين:**

لقد حرص ابن باديس على توفير الإقامة والمساعدات الغذائية لكل الطلاب الوافدين حتى يتفرغوا لتلقي العلم، وقد وجد في المحسنين من سكان قسنطينة وغيرهم الاستعداد الكامل لإعانة الطلبة وتوفير ظروف الإقامة والغذاء لهم.

**. لجنة الطلبة:**

ولأجل ضبط التبرعات والزكوات والهبات أنشأئ صندوق خاص بالطلبة، يتولى الإشراف عليه لجنة مهمتها جمع التبرعات وغيرها وإنفاقها في الوجوه المخصصة لها: دفع تكاليف الإيواء والغذاء وكل ما يتعلق بمرافق السكن: ماء، كهرباء، إصلاح وترميم إلخ.. وضبط المداخيل والمصاريف ونشر ذلك في الصحف حتى يتأكد المتبرعون والمساهمون بأن كل الأموال تصرف في الأغراض الموجهة(2).

(1) المصدر نفسه ص 255.

(2) المصدر نفسه ص 256.

**. الشروط المطلوبة للتسجيل في التعليم المسجدي:**

يشترط في كل طالب يلتحق بالدراسة في الجامع الأخضر وفروعه بقسنطينة ما يلي:

. أن يكون حافظاً للقران أو لبعضه كالربع.

. أن لا يتجاوز عمره خمساً وعشرين سنة إذا كان مبتدئاً.

. أن يصحب معه فراشه وغطاءه.

. أن يستظهر بكتاب من كبير بيته، أو عشيرته للتعريف به[1].

هذا وقد كان ابن باديس يتساهل بعض الشيء في شروط العمر حتى لا يحرم من كانت له رغبة في التحصيل العلمي، ويتبين هذا المعنى من قوله . بعد أن وضح الشروط: فندعو من فيهم استعداد، وعندهم رغبة إلى الإقبال على العلم والرحلة في سبيله، والله نسأل لنا ولهم التيسير والتوفيق.

كما نتبين ذلك من جولاته في القطر، واتصاله بمشايخ الزوايا وبعض الشخصيات التي كان يعرّفها بالمشروع التربوي الذي يضطلع به ويدعوهم إلى إرسال أبنائهم للتعليم[2].

**. نظام العرفاء:**

نظراً لاهتمام ابن باديس بسلوك الطلبة والمحافظة على سمعتهم، أنشأ نظام العرفاء الذي كان معروفاً في تاريخ التربية الإسلامية، فقسم طلبته إلى مجموعات حسب المناطق التي جاؤوا منها، واختار طالباً من كل مجموعة جعله عريفاً على طلبة منطقته يضبط أمورهم ويتابع نشاطهم، ويراقب سلوكهم، ويحفزهم على الجد والاجتهاد، ويكون وسيطاً بينهم وبين الشيخ في الأمور التي يريدون مناقشتها، لذلك يجتمع الشيخ مع هؤلاء العرفاء كل أسبوع لمدارسة قضايا الطلبة: فيتولى كل عريف استعراض أحوال الطلبة الذين يشرف عليهم، فإذا

---

(1) المصدر نفسه ص 256.

(2) المصدر نفسه ص 256.

كان هنالك ما يخالف حسن السيرة ؛ فإن المجلس يتخذ ما يراه صالحاً من إجراءات التأديب أو الطرد.

وقد نشر الشيخ أسماء العرفاء والمناطق التي يشرفون على طلبتها في عدد خاص من الشهاب، كما نشر قوائم بأسماء الطلبة وبلدانهم وعمالاتهم «الجهة التي قدموا منها» مع صور الأساتذة المعلمين والعرفاء وطبقات التلاميذ الأربع.

ويشترط في العريف أن يكون من أقدم الطبة أو من أكبرهم سناً، وقد يكون العريف أستاذاً مساعداً في الوقت ذاته.

**. نظام الدراسة:**

النظام الدراسي الذي سار عليه ابن باديس في التعليم المسجدي هو نظام الطبقات، وليس نظام الحلقات الذي تتداخل في المستويات والذي كان معروفاً في تاريخ التعليم الإسلامي.

فالطلاب في النظام الذي اتبعه ابن باديس يوزعون على طبقات أربع حسب مستوياتهم، ودرجات التحصيل التي بلغوها، ويخصص لكل طبقة منهاج خاص بها على أن تجمع بعض المواد في شكل جذع مشترك لجميع الطبقات، وقد حدد ابن باديس مدة الدراسة بأربع سنوات، يتخرج الطالب بعدها بحصيلة علمية تمكنه من مواصلة الدراسة . إن أراد . في جامع الزيتونة أو في غيره من المعاهد الإسلامية، كما تمكنه من الانتصاب للتدريس في مدارس جمعية العلماء أو تأطير مساجدها[1].

وحرصاً على إفادة كل الطلاب يتولى الشيخ بنفسه تنظيم الدراسة وتوزيع المهام وتكليف الأساتذة المساعدين بالتدريس لبعض الطبقات، أما الطبقة الرابعة فهي من نصيبه إذ هو الذي يتكفل بإلقاء جميع الدروس المبرمجة لها، وحتى لا يحرم الطلاب من دروس الشيخ فإنه خصص لكل طبقة من الطبقات الثلاثة

(1) المصدر نفسه ص 258.

الأخرى درساً أو درسين، وتترك بقية الدروس للأساتذة المساعدين الذين اختارهم ليكونوا عوناً في هذه المهمة[1].

### ج . الأساتذة المساعدون:

كان ابن باديس في البداية يقوم وحده بكل النشاطات التعليمية، ولما كثر أعداد الطلبة الوافدين، وتعددت مستوياتهم أصبح من اللازم الاستعانة ببعض الأساتذة الذين رأى أن لديهم إمكانات علمية، وكفاءة تربوية لتدريس بعض المواد لبعض الطبقات، فوزع مهام التدريس للطبقات الأربع بينه وبين الأساتذة المساعدين الأخرى من دروسه، لذلك خصها ببعض الدروس وترك الباقي للمساعدين. وفيما يلي قائمة الأساتذة المساعدين الدائمين في أواسط الثلاثينات:

- الفضيل الورتلاني.
- عبد المجيد حيرش.
- بلقاسم الزغداني.
- عبد العلي الأخضري.
- الجيلاني الفارسي.
- حمزة بو كوشة.

وهناك أساتذة اخرون غير دائمين كان الشيخ يلتجأئ إليهم عند الحاجة، وحسب المادة، ولكنهم لم يكونوا دائمين، من هؤلاء: عمر دردور، محمد الملياني، عيسى الدراجي، ومحمد صالح رمضان، ومن المساعدين من كان طالباً وأستاذاً في الوقت ذاته كالورتلاني والفارسي والزغداني[2].

### د . مجلس الأساتذة:

من القواعد التنظيمية التي كان ابن باديس يعتمدها في تسيير شؤون التعليم المسجدي: مجلس الأساتذة الذي كان ينعقد خاصة في بداية السنة الدراسية لضبط كل الجوانب المتعلقة بسير التعليم، وتحديد المواد المقررة

---

(1) المصدر نفسه ص 258.

(2) المصدر نفسه ص 258.

والكتب المعتمدة والمواقيت الخاصة بكل مادة، وأماكن التعليم بالنسبة إلى كل طبقة، واستعراض التعديلات المزمع إدخالها على المنهج.

ويحرص ابن باديس في بداية كل سنة دراسية على أن يضبط كل الأمور المتعلقة بالدراسة، ويخبر الطلاب بها، وهكذا يتمكنون من معرفة المواد التي سيدرسونها وكتبها وأوقاتها، وأماكن تعليمها ومعلميها، وكذلك من معرفة مقر سكناهم والمحلات التي تتكفل بإطعامهم، والعريف المسؤول عنهم..الخ.

**هـ . نظام الانتقال من طبقة إلى أخرى:**

الانتقال من طبقة إلى أخرى في البداية كان انتقالاً الياً لا يستدعي تقويماً، إمتحاناً خاصاً، إنما كان الأمر موقوفاً على إنهاء الكتب المقررة بكل فئة «طبقة» في كل سنة. وبعد أن تطور التعليم رأى الشيخ عبد الحميد باتفاق مع الأساتذة المساعدين إجراء إمتحان في آخر السنة الدراسية بحيث يصبح الانتقال من طبقة إلى أخرى مرهوناً بنتائج هذا الامتحان.

وقد أراد ابن باديس ومن معه أن يكون هذا الإجراء فاتحة لعصر جديد، يشعر معه الطلاب بالتطور، وتطلع الأمة من خلاله على جهود العاملين في هذا الحقل، فأُقِرّ فعلاً في 20 من ماي 1937م على الطبقات الأربع، وحددت درجات النجاح والملاحظات الخاصة بكل درجة، بحيث أعطيت ملاحظة (أحسن) لمن أحرز على أكثر من خمس عشرة نقطة، وملاحظة (حسن) لمن أحرز على خمس عشرة أو أربع عشرة، وينتقل الطالب بدون ملاحظة إذا حصل على علامة تتراوح بين عشرة وثلاث عشرة، والذي يحرز على علامة دون العشرة يستمر في طبقته، ويعيد السنة، وهذا هو الإجراء الذي طبق في عام 1937م، ونشرت نتائجه في العدد 69 من جريدة البصائر[1].

(1) المصدر نفسه ص 259.

**و . برنامج المواد الدراسية الخاص بالتعليم المسجدي:**

تشتمل الدروس التي كانت تدرس في الجامع الأخضر وفروعه على:

. تفسير القرآن وتجويده.

. شرح الحديث النبوي الشريف (من الموطأ).

. الفقه المالكي من مختصر خليل وغيره.

. العقائد الدينية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

. الآداب والأخلاق الإسلامية.

. اللغة العربية بفنونها (من نحو وصرف وبلاغة ولغة وأدب).

. الفنون العقلية كالمنطق وغيرها.

ثم أضيف لهذه المواد بعد سنة 1933م مواد أخرى مثل الفرائض والتاريخ والجغرافيا وأصول الفقه.

**. المواد المشتركة لجميع الطبقات:**

. تفسير القرآن ودراسة الحديث.

. دراسة الاداب والأخلاق.

. فصول في التاريخ الإسلامي.

. التوحيد والعقائد (إملاءات).

. التجويد.

. إملاءات في الحساب والجغرافيا.

**. المواد الخاصة بكل طبقة من الطبقات الأربع:**

**. الطبقة الأولى:**

. الأجرومية في القواعد.

. متن ابن عاشر في الفقه.

. إياغوجي في المنطق.

. البيقونية في مصطلح الحديث.

. أحكام التجويد «إملاءات»[1].

**. الطبقة الثانية:**

. القطر لابن هشام (في القواعد).

. رسالة ابن أبي زيد (في الفقه).

. متن السلم الأخضري (في المنطق).

. متن الكافي (في العروض والقوافي).

**. الطبقة الثالثة:**

. ألفية ابن مالك (في القواعد) الجزء الأول.

. مختصر خليل في الفقه، (عوض بأقرب المسالك في السنوات الأخيرة).

. الجوهر المكنون في الثلاثة فنون (البلاغة).

. المفتاح للشريف التلمساني (في الأصول).

. متن الخزرجية (في العروض).

**. الطبقة الرابعة:**

. ألفية ابن مالك (تتمة) في القواعد.

. لامية الأفعال في الصرف.

. مختصر خليل (تتمة) في الفقه (عوّض بأقرب المسالك في السنوات الأخيرة.

. سعد الدين التفتزاني (في البلاغة) شرح كتاب تلخيص المفتاح للقزويني الذي هو ملخص كتاب المفتاح للسكاكي.

---

(1) المصدر نفسه ص 260.

**. كتب المواد المشتركة:**

. موطأ الإمام مالك والبخاري في الحديث.

. مقدمة ابن خلدون (في التاريخ).

. الأمالي لأبي علي القالي وديوان الحماسة (في الأدب).

. كتاب الرحبية في الفرائض.

. البيقونية في مصطلح الحديث.

. إملاءات في الحساب والجغرافيا.

. أحكام التجويد (إملاءات)(1).

**ز . خطة العمل الأسبوعي:**

تنطلق الدروس في كل أسبوع حسب الجدول الزمني المتبع من صبيحة يوم السبت إلى عشية الأربعاء، وتبدأ الدراسة في كل يوم من أيام الأسبوع بعد صلاة الصبح مباشرة، وتتواصل إلى منتصف النهار، ثم تستأنف بعد صلاة الظهر وتستمر إلى العصر، وما بين العصر والعشاء فترة راحة بالنسبة إلى الطلبة، أما الشيخ فيتفرغ لأعماله الأخرى التي تنتظره في مكتبه ومن يأتون لزيارته أو لاستشارته.

وحتى لا يثقل الشيخ على الطلاب كان يترك بين كل درس واخر وقتاً قصيراً للراحة وتغيير الأفواج.

. أما بعد صلاة العشاء فيفرغ الشيخ نفسه لدرس التفسير الذي يلقيه كل ليلة والذي تحضره مئات من عامة الناس وخاصتهم من الطلاب والأساتذة والشباب، حيث تكتظ بهم رحاب المسجد.

وقد كان الناس يتسابقون لحضور هذا الدرس الذي أصبحت له سمعة كبيرة في داخل قسنطينة وخارجها،لأنه درس جامع يجد فيه المستمعون كل ما يهمهم من أمور الدين والدنيا من قضايا الماضي والحاضر

(1) المصدر نفسه ص 261.

والمستقبل، لأن طريقة الشيخ في تفسير القرآن لم تكن طريقة تقليدية تكتفي بشرح ظاهر للفظ واستعراض أقوال العلماء وخلافاتهم التي لا تفيد المستمع.

وبدرس التفسير ينتهي اليوم الدراسي، وقد يرتفع عدد الدروس في فصل الصيف نظراً لطول النهار، وفي شهر رمضان المعظم يضيف الشيخ إلى دروسه المعتادة درساً في شرح متن البخاري قبيل صلاة الظهر كل يوم، حرصاً على إفادة طلابه وجمهور المصلين.

وأما الدروس الخاصة بالنساء، فيخصص لها يوم الجمعة بعد العصر في الجامع الأخضر، وجعل هذا اليوم خاصاً بهم إقتداءً بالنظام الذي اتبعه النبي (ص) في تعليم النساء، وأما الدروس التي يخصصها للشبان والعمال فوقتها يوم الأحد من كل أسبوع (يوم العطلة)، وقد قسمهم إلى مجموعتين، مجموعة تتلقى تعليمها في الفترة الصباحية ومجموعة أخرى تتلقى تعليمها ليلاً بحسب ما يناسب كل مجموعة، وتلقى هذه الدروس في مقر جمعية التربية والتعليم، وهكذا يمر الأسبوع الدراسي من بدايته إلى نهايته وتعطى للطلاب عطلة أسبوعية تدوم يومين (الخميس والجمعة).

أما الشيخ فلا يأخذ عطلة لأن له أعمالاً أخرى تنتظره في هذين اليومين، منها أنه يسافر في أغلب الأحيان إلى الجزائر (العاصمة) ومنها إلى تلمسان في القطار الليلي للاجتماع بالشيخين: العقبي في الجزائر والإبراهيمي في تلمسان، والاطلاع من خلالهما على أحوال الجمعية في الوسط والغرب، ثم بعد ذلك يعود ليلاً إلى قسنطينة، حتى لا تضيع لطلابه دروس صبيحة يوم السبت، وقد يتجه أحياناً إلى جهات أخرى من الوطن.

ويبدو أن هذه الرحلة قد اختصرت في يوم أو توقفت في السنوات الأخيرة نظراً لكثرة أشغاله في قسنطينة، وخاصة حينما شرع يدرس للنساء عشية الجمعة، وعدا هذا كانت له محاضرات في المناسبات بنادي الاتحاد في

قسنطينة أو غيره كنادي الترقي بالجزائر[1].

**ح . طريقة ابن باديس في التدريس:**

طريقته في التدريس تجمع بين القديم والحديث، فهو ينطلق مع الطلاب من المتن الذي يطلب منهم حفظه والاستعداد لتلقي الشروح التي تلقى عليهم، ولكنه لا يهمل مساءلة الطلاب ومحاورتهم، ودفعهم إلى التحليل والمناقشة، ولكي يثير انتباههم، ويجعلهم مشدودين إلى الدرس، يتعمد الشيخ توجيه الأسئلة المفاجئة التي تقطع شرود الذهن، وتجعل الطالب في انتباه دائم، ويقظة مستمرة.

ومن الجوانب المنهجية التي يهتم بها الشيخ أنه لا يكتفي بما طرح في المتن من قضايا أو حقائق، وإنما يحاول أن يستغل الفرص والمناسبات ليطرح قضايا معاصرة لها صلة بحياة الناس سواء أكانت قضايا اجتماعية أو وطنية أو تاريخية أو سياسية. وكان دقيقاً في تحليلاته الأدبية، معاصراً في طرحه للإشكالات التي تواجه المجتمع، مجتهداً في استنباط الأحكام، أو تكييفها مع الواقع، كما كان يحرص أشد الحرص على غرس بذور الروح الوطنية الصادقة في نفوس الطلاب، وحينما يتعرض للشواهد النحوية أو البلاغية أو الاستشهادات الشعرية ؛ فإنه يغنيها، ويشرحها شرحاً وافياً يستخرج منها العبر والحكم وينبه الطلاب إلى محل الشاهد ويطبقه على القاعدة المدروسة من خلال الأمثلة الحية، التي تجعل الطلاب يتذوقون العبارة، ويدركون المعنى، ويستوعبون خصائصها. وكثيراً ما يلفت نظر الطلاب إلى النكت البلاغية والخصائص التعبيرية وأسرار البيان، فينير أفكار التلاميذ، ويفيدهم إفادات لغوية وفكرية، ويحبب إليهم المادة التي يدرسونها[2].

**ط . بعض آراء طلبته في طريقة تدريسه:**

يقول أحد طلبته وهو الجيلاني بن محمد المعروف بالجيلاني الفارسي أو الأضامي: وتكاد تكون ملكة

(1) المصدر نفسه ص 263.

(2) المصدر نفسه ص 264.

التفهيم أبرز صفاته، وأخص نعوته، يختار طريقة الحوار والمراجعة والاستفهام والاستنطاق[1].

ومن أخص صفاته كذلك أنه لا يشعرك بثقل القواعد، وجفاف الحقائق العلمية، بل يفيض عليك من روحه الأدبية وحياته الاجتماعية ونشاطه المستديم ما يكسبك نشاطاً ومرحاً، ورغبة في العلم وتعطشاً له[2].

والذي تجب الإشارة إليه هنا هو: أن التعليم ليس مجرد مجموعة من المواد تدرس، وإنما هو قبل كل شيء روح تسود النظام، فتترك ظلالها على المواد التي تدرس، كما تتركها على الطريقة التي تدرس بها، وعلى إدارة المؤسسات التعليمية وهكذا[3].

ويشير إلى هذا المعنى د. تركي رابح فيقول: وكانت دروسه «الشيخ» بصفة عامة تمتاز بالحيوية والنشاط، وروح الجد المشوب بقليل من المرح والدعابة التي تتخللها بين حين واخر، لكي تخفف من عنائها على الطلبة وتبعث فيهم روح الإقبال على الدراسة والتحصيل، وكان يصب كل تعاليمه التي يدعو إليها في السياسة والدين والاجتماع والاقتصادية الوطنية في هذه الدروس، مهما كانت المادة التي يدرسها حتى ولو كانت القواعد النحوية، لذلك كانت دروسه عامرة وجذابة اسرة تجذب انتباه الطلبة إليها، وتشدهم نحوها وتحملهم على الإقبال عليها بشغف وحماسة لأنهم يجدون فيها ما لا يجدونه في كتاب أو مرجع اخر، وهذه هي ميزة ما لا يجدونه في كتاب أو مرجع اخر، وهذه هي ميزة ابن باديس الكبرى في طريقة تدريسه وهي ميزة عظماء الرجال، وباعثي النهضات الكبرى في التاريخ[4].

ويصف أحد تلامذته، وهو « أحمد بن ذياب » هذه الحيوية في دروسه فيقول: والحيوية في دروس ابن

---

(1) المصدر نفسه ص 264.

(2) الشهاب ج7 م15 أوت 1939 م ص 327.

(3) التربية الإسلامية في القرن 15، عبد الغني عبود ص 34.

(4) عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 308.

باديس زيادة على ما اختصت به من الفضائل ؛ كانت في شدة اتصالها بالحياة أياً كان نوع الفن، وفي تلك النصائح الثمينة التي كان يزود بها تلاميذه والأخلاق الطيبة التي يغرسها فيهم، وفي الروح العظيمة التي يوحي بها إليهم فينشؤون على الطموح والتطلع إلى الجد والاستماتة في سبيل الأمانة التي حملوها[1].

من هذه الأقول نستشف أن ابن باديس لم تكن تهمه المعلومات في حد ذاتها ؛ بقدر ما كانت تهمه الاثار الفكرية والنفسية والأخلاقية التي تحدثها المعلومات، لذلك كان يركز كل التركيز على طريقة التناول، لأنها هي التي تحقق له الغاية التي كان يتطلع إليها، فتكوين شخصية المتعلم هو أهم جانب من جوانب المشروع التربوي الذي كرس له حياته، لأنه كان يسعى إلى الجمع بين التربية والتعليم، فالتعليم الخالي من الروح التربوية لا يكوّن لنا المواطن الواعي الذي يتطلع إليه المجتمع[2].

## 2. الإطار التنظيمي للتعليم المدرسي:

### أ. الجانب القانوني:

إن أهم قاعدة تنظيمية بُني عليها التعليم المدرسي استناده إلى القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الإسلامية، الذي حدد الغرض من تأسيس الجمعية ومن تنظيم التعليم الذي تشرف عليه، فقد ورد في المادة الثانية من هذا القانون: أن مقصد الجمعية هو نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية والفرنسية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين[3].

وتسعى الجمعية لتحقيق غرضها هذا «كما اشارت المادة الثالثة»، بإنشاء المدارس وتأسيس النوادي، وإحداث نظام البعثات لإرسال التلاميذ على نفقتها للدراسة في الكليات والمعاهد الكبرى، بالإضافة إلى

(1) جريدة البصائر، العدد 77، 28 أفريل 1949م.

(2) إمام الجزائر ص 265.

(3) المصدر نفسه ص 266.

المؤسسات الأخرى مثل الملاجئ لرعاية الأيتام، والمصانع لتدريب التلاميذ على المهارات اليدوية، وهذا هو الإطار القانوني الذي حدد اتجاهات الجمعية ومشروعية التعليم وطابعه المميز.

ويبدو من تحليل المواد الأربع الأولى من القانون أن وظائف المدرسة التي تحرص الجمعية على نشرها وتوسيع نطاقها كانت واضحة في ذهن واضع القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم، الذي هو في الحقيقة قانون يؤسس التعليم المدرسي ويحدد أهدافه وإتجاهاته.

ونتبين من التحديد الذي أوردته نشرة جمعية التربية والتعليم في عددها الأول عام 1936م فقد ورد في هذه النشرة على لسان ابن باديس:

ـ بني القانون الأساسي للجمعية من الوجهة التربوية على تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم.

ـ ومن الوجهة التعليمية على تثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين «العربي والفرنسي» وتعليمهم الصنائع.

ـ ومن الوجهة المالية على تعويد الأمة على العطاء المنظم وتوسيع نطاق الجمعية..الخ:

نتبين أنه هنا يسعى إلى تحديد هدف سلوكي اجتماعي تنمو من خلال تحقيقه روح البذل والعطاء واتجاهات التكافل والتضامن والسخاء لتحقيق المشاريع التي تعود على الأمة وعلى أبنائها بالنفع العميم[1].

**ب ـ الأهداف التي يسعى إليها التعليم المدرسي:**

يستخلص مما سبق أن أهداف التعليم المدرسي أربعة: هدف تربوي تكويني، هدف تعليمي تثقيفي، هدف عملي مهاري، وهدف سلوكي.

إن نشر الأخلاق الفاضلة التي نص عليها القانون هي البعد الأساسي في العملية التعليمية، لذلك جعله ابن باديس هدفاً من أهداف الجمعية ، ووظيفة من وظائف المدرسة التي لم يحصر وظائفها في تلقين العلوم

---

(1) المصدر نفسه ص 267.

والمعارف، إنما جعلها تتضمن بالدرجة الأولى تربية الأبناء والبنات تربية عربية إسلامية صحيحة. ويضيف ابن باديس إلى البعد التربوي ـ المتمثل في بناء شخصية المتعلمين، والبعد التعليمي المتمثل في إكسابهم المعارف، يضيف بعداً آخر وهو البعد العملي التطبيقي الذي يكسب المتعلمين خبرة بالحياة ويؤهلهم لممارسة بعض الأنشطة الحياتية النافعة.

لذلك فكر في إنشاء مصنع أو مشغل يتاح فيه للتلاميذ التدريب على بعض المهارات اليدوية، ومعرفة الأساس العلمي الذي يقوم عليه العمل، ومن ثم معرفة قيمة العمل والعاملين، وهذا ما نجده اليوم في مناهج التعليم الأساسي الذي يسعى لتأصيل قيمة العمل في نفوس المتعلمين وأوليائهم(1).

**ج ـ تنشيط التعليم المدرسي:**

لم يضع ابن باديس شروطاً تعوق الأطفال الراغبين في التعليم حين أنشأ مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، وكذلك في مدارس جمعية العلماء التي انتشرت بعد ذلك، بل جعل فرص التعليم فيها متاحة للجميع، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، وسواء أكانوا متمدرسين أم غير متمدرسين، لأن المبدأ الذي بني عليه هذا التعليم والذي يعد من مبادئ النظم التربوية الحديثة ؛ هو السعي إلى تعميم التعليم ونشره في أوساط المجتمع دونما تمييز، حتى يتاح للأجيال المشاركة في الحياة العامة، والإسهام في بناء المجتمع المتعلم القادر على مواجهة الاستعمار بالأسلحة الملائمة.

وحرصاً من الشيخ على تعليم البنات بصفة خاصة فتح في وجوههن أبواب مدرسة التربية والتعليم مجاناً، ورفع عنهن كل قيد، وحارب الذهنيات التي كانت تقلل من أهمية تعليمهن. وحتى يزيل العوائق التي قد تحرمهن من التعليم ؛ رخص لهن أن يدرسن إلى جانب البنين في مدرسة واحدة، ولكن في إطار تنظيمي يتلاءم مع أخلاق المجتمع ويرفع الحرج عن أوليائهم، ويمنع حصول ما يخشى منه، وحث أولياءهن على تغيير مواقفهم

---

(1) المصدر نفسه ص 268

ودفع بناتهم إلى التعليم، مبيناً لهم ضرورة ذلك بالعواقب التي تنتج عن بقائهن جاهلات، لأن المرأة لا تستطيع القيام بوظيفتها بالشكل المطلوب إن بقيت جاهلة أو تركت لسياسة الاستعمار تفعل بها ما تشاء.

وفي هذا الإطار حذر من الأخطار التي تنجم عن الوضعية المتدهورة التي تتعرض لها المرأة الجزائرية، والتي تفرض عليها أحد الأمرين: إما أن تبقى جاهلة مهمشة، وإما أن يرمى بها في أحضان تعليم أجنبي ينفرها من دينها أو يحقره في عينها، وفي كلتا الحالتين تكون النتيجة سيئة: «الجهل أو المسخ». وما يترتب عن هذه النتيجة هو أن لا تقدم للمجتمع إلا أجيالاً شبيهة بها.

وهكذا استوعب الناس أهداف الجمعية ونبل مقصدها، فهبوا للإقبال على مدارسها، فما كادت تمر بضعة أشهر على تأسيس المدرسة «مدرسة التربية والتعليم» بقسنطينة ؛ حتى رأينا ثمانين فتاة تضمها أقسام المدرسة[1].

**د ـ نظام الدراسة:**

نظام الدراسة المتبع في مدرسة التربية والتعليم وفي المدارس المتفرعة عنها شبيهة بالنظام المتبع في المدرسة الابتدائية الحكومية في مدة الدراسة وفي عداد الصفوف، أي أن الدراسة في التعليم العربي الحر تدوم ست سنوات، ومناهجها التعليمية موزعة على ستة صفوف، من الصف الأول إلى الصف السادس. غير أن نظام الدوام في المدرسة الحرة يختلف عن نظام الدوام في المدرسة الحكومية، لأنه موضوع أساساً ليتلاءم مع طبيعة المتمدرسين، فالمدرسة الحرة تعمل وفق نظامين:

نظام النهاريين «المتفرغين لهذا التعليم»، وهو يشبه الدوام المتبع في المدرسة الحكومية، أي الدروس تقدم على فترتين: فترة صباحية وفترة مسائية تتخللها أوقات راحة. أما الدوام الخاص بالتلاميذ المنتسبين إلى المدرسة الفرنسية فهو منظم حسب أوقات فراغهم، بحيث لا يتعارض مع أوقات دراستهم، وغالباً ما يكون قبل بداية

(1) المصدر نفسه ص 270.

الدوام، عندما يكون النهار طويلاً، أو بعد الدوام مساء، تضاف إليه دروس في يوم العطلة، وتضيف بعض المدارس دواماً ليلياً لفئة الشباب أو لمحو الأمية.

**هـ . نظام الانتقال:**

ينتقل التلاميذ من صف لاخر بطريقة الية لا تخضع للاختبارات أو للتقويم المستمر هذا في بداية الأمر، أما بعد ذلك فقد تطور التعليم وتطورت نظمه بحيث أصبح التلاميذ يخضعون للمناداة والمتابعة وتسجيل الغيابات وللامتحانات في آخر كل سنة دراسية[1].

**و . شرط السن غير مطلوب:**

لم يحدد ابن باديس ورفقاؤه في بداية الأمر السن القانونية التي تشترط في بداية الدراسة وفي نهايتها فكان الالتحاق بالمدارس مفتوحاً بدون شرط، بحيث تجد في الفصل الواحد أعماراً متفاوتة، لأن ابن باديس لم يشأ أن يصنع نظاماً صلباً يحرم من هم في حاجة إلى التعليم، بل كان هدفه الأساسي هو إنقاذ الأطفال المشردين أو الضائعين الذين لم يجدوا مقاعد في المدرسة الحكومية حتى ولو كانت أعمارهم تجاوزت السن القانونية للتمدرس، سواء في بداية المرحلة التعليمية أو في نهايتها.

وهذا لا يعني أن هذا الوضع قد استمر حتى بعد أن انتشرت المدارس وتطورات الجهود التعليمية وخاصة في الفترة الأخيرة من عمر هذا التعليم المدرسي الحر، أي بعد وفاة ابن باديس.

فالمعلمون الذين كلفوا بهذا التعليم، إدارة وتعليماً، ومعهم الجمعيات المحلية وأعضاء جمعية العلماء، الذين كلفهم الشيخ بتنشيط عمليات التعليم والإصلاح في مختلف المناطق ؛ هؤلاء جميعاً خطوا بالتعليم خطوات، جعلته يرقى شيئاً فشيئاً بحسب الإمكانات المتوافرة،مما جعل مدارس التعليم العربي الحر في الفترة الأخيرة تقترب

(1) المصدر نفسه ص 271.

في تنظيماتها وفي أساليبها مما يجري في المدرسة الحكومية، فبدأنا نشاهد سجلات المناداة وإحصاء الغيابات وتحديد سن الدخول المدرسي، واشترط الملف الصحي وشهادة الميلاد، الذي يعتمد في التسجيل..إلخ[1].

### 3. البرنامج التعليمي (المقررات الدراسية):

لم يحدد ابن باديس ورفقاؤه المشرفون على التعليم المدرسي والممارسون برنامجاً تعليمياً مفصلاً، يتضمن المقررات الدراسية لكل صف من صفوف المدرسة، على غرار التعليم المسجدي. «وهذا في فترة رئاسة ابن باديس» ولم يحددوا كذلك الكتب والطرائق التي ينبغي أن يتبعها المعلمون في تدريس المواد المقررة في هذه المرحلة فضلاً عن توحيد التعليم، فقد ترك ذلك لاجتهادات المعلمين ومبادرات المدرسين والجمعيات المحلية التي تشرف على المدرسة، واكتفى ابن باديس من خلال اجتماعه بالمعلمين والعلماء وكتاباته في المجال التربوي . بتقديم توجيهات عامة تفيد المعلم الذي يدرك أبعاد مهمته وأهداف رسالته في تلك الفترة العصيبة وأبعاد المهمة التي كانت واضحة.

فالتعليم العربي الحر أنشأئ لغرض يعرفه الجميع، وهو تعليم الأطفال الجزائريين لغتهم ودينهم وشيئاً من تاريخ أمتهم وتربيتهم على قواعد السلوك الإسلامي وأخلاقيات المجتمع الذي ينتمون إليه، كما أن للمعارف العلمية والثقافية العامة التي يحتاج إليها الطفل في حياته بصفته فرداً في المجتمع نصيب في المناهج، وكان المطلوب من المعلمين كذلك أن يثبتوا في نفوس تلاميذهم الروح الوطنية، والاعتزاز بالشخصية الجزائرية.

وفي هذا الإطار كانت توجيهات ابن باديس سواء في اللقاءات التربوية أو في الدروس المسجدية، أو في المحاضرات العامة والمقالات التي كان يحررها وينشرها ويسعى من خلالها إلى بث روح جديدة في نفوس المواطنين جميعاً.

وهذا ما جعل جمعية التربية والتعليم التي يرأسها ابن باديس تؤجل العمل الموجّه لوضع برنامج تعليمي

(1) المصدر نفسه ص 272.

مفصل وموحد، وتأليف كتب مدرسية مناسبة، واقتراح توجيهات تربوية تعتمد في التدريس، لأن المهمة العاجلة التي كانت على عاتق الجمعيتين «جمعية التربية والتعليم وجمعية العلماء» هي تأسيس شبكة من المدارس تستجيب لاحتياجات الشعب، وتوفير العدد الكافي من المعلمين، ومواجهة الاستعمار الذي كان يضيق على أنفاس هذه المدارس ويتشدد في منح الرخص.

ومع ذلك فقد انطلقت المدارس في أداء مهمتها بالوسائل المتاحة، وهب الخيرون من أبناء الشعب يعضدون هذا المشروع بإنشاء المدارس وتوسيع نطاق التعليم(1).

والأمر الذي تجب الإشارة إليه هو المبادرة التي كان يقوم بها بعض المعلمين والمتمثلة في اقتباس بعض المواد أو الأساليب التي يجري العمل بها في المدرسة الحكومية، وإدراجها في برنامج المدرسة الحرة لأهميتها، مثل دروس الحساب والجغرافيا والمحادثة والأشياء والرسم، ويعني هذا أن المعلم الذي يدرك أبعاد مهمته يحرص دائماً على الاحتكاك بالحقائق التربوية حيثما تكون، ليأخذ منها ما يراه صالحاً لتلاميذه، خاصة إذا كان ما يقتبسه لا يتعارض مع الأهداف المسطرة(2).

### 4 ـ العلم في المفهوم الباديسي:

إن العلم في المفهوم الباديسي هو العلم بمعناه القرآني الشامل، وليس العلم الديني فقط، على أهميته في المحافظة على الهوية الثقافية، والحضارية، فهاهو يوجّه نصيحة غالية للإنسان المسلم بهذا الشأن فيقول: فأحذر كل متعلم يزهدك في كل علم من العلوم، فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية، ودعا إليها القرآن بالايات الصريحة، وخدمها علماء الإسلام بالتحسين واستنباط ما عرف منها في عهد مدنيتهم الشرقية والغربية

(1) إمام الجزائر ص 273.

(2) المصدر نفسه ص 276.

حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليوم[1].

ومن هذا المنطلق قام الشيخ ابن باديس بقراءة للحضارة العربية الإسلامية في الجانب العلمي، وقدَّم نظرة للحضارة الأوربية الحديثة فقال: وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام، بل قرون مدنيتهم، عرّبوا كُتب الأمم إلى ما عندهم ونظروا وصححوا، واستدركوا وأناروا بالعلم عصرهم، ومهدوا الطريق، ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم، فأدوا لنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وماضيها ومستقبلها.

وكما نرى الغرب في مدنيته اليوم ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الأمم الخالية التي حفظتها العربية وأدتها بأمانة وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم فجاء هو أيضاً بمكتشفاته التي هي ثمرة علوم الإنسانية من أيامها الأولى إلى عهده، وثمرة تفكيره ونظره فيها. وقد كانت مكتشفاته أكثر من مكتشفات جميع من تقدمه .كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز القرن الماضي . لتكاثر المعلومات، فإن المكتشفات تضم إلى المعلومات فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها، وهكذا يكون كل قرن . ما دام التفكير عاملاً . أكثر معلوماتٍ ومكتشفاتٍ من الذي قبله[2].

فنظرة ابن باديس وقراءته للحضارة الغربية الحديثة كانت متسمة بالاعتدال وموسومة بالإنصاف، فقد تحدث عن العنصر الجوهري في الحضارة الحديثة وهو العلم والتكنولوجيا، وضرورة التسلح بهما، فدعا صراحة إلى الأخذ بكل الأدوات والوسائل التي تمكننا من التحكم في العلم والتكنولوجيا[3].

### 5 . الاهتمام باللغات:

يرى ابن باديس الأخذ بالوسائل التي تمكننا من التحكم في العلم والتكنولوجيا وفي مقدمتها اللغات الأجنبية ، فقال رحمه الله: إن الذي يحمل علم المدنية العصرية اليوم هو أوروبا ، فضروري لكل أمة تريد أن

(1) آثار الأستاذ الإمام ابن باديس (4 / 43).

(2) مجالس التذكير ص .138.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 204.

تستثمر تلك العقول الناضجة وتكتنف دخائل الأحوال الجارية ؛ أن تكون عالمة بلغة حيَّة من لغات أوربا، وكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية ؛ فإنها تبقى في عزلة عن هذا العالم، مطروحة في صحراء الجهل والنسيان من الأمم المتمدنة التي تتقدم في هذه الحياة بسرعة لم يسبق لها مثيل، ومما لا يرتاب فيه . والواقع نشاهد . أن مقدار كل أمة في اللحوق والتخلف بركب المدنية بنسبة كثرة وقلة انتشار لغة فيها من لغات الغرب[1].

فهدف الشيخ ابن باديس من وراء الدعوة إلى تعلم اللغات الأجنبية، كل اللغات الأجنبية، إنما هو التمكن من العلوم والتكنولوجيا، فما دام مصدر العلم اليوم هو أوربا والوسيلة إليه هو التحكم في لغتها، فبات من المصلحة الحرص على تعلم هذه اللغات وإتقانها[2].

وهكذا نجد ابن باديس يجعل من تعلم اللغات الأجنبية وإتقانها وسيلة لفك الحصار عل اللغة العربية، فإذا كان الاستعمار يحرص على تعليم لغته لأبناء المستعمرات ليكوِّن منهم جيلاً متنكراً لأصالته، وقيم دينه ولغته وتاريخه، أي جيلاً ممالئاً للاستعمار مشحوناً بالدونية، فإن ابن باديس حرص على أن يبقى المتعلم للّغات الأجنبية موصولاً بأمته، مستشعراً لضرورة القيام بخدمتها، فمن تعلم لغة أجنبية يكون حاله كمن يحصل على سلاح يدافع به عن قومه، أمَّا أن يوجه ذلك السلاح لصدور بني جنسه فهذا هو الجنون والخيانة[3].

فقال: العلوم في الجزائر، كما أظنها في غيرها ؛ منها علوم تؤخذ باللسان العربي وهي علوم الدين واللسان، ومنها علوم تؤخذ باللسان الأجنبي وهي علوم الأكوان والعمران.

وقد كان الذين يزاولون العلوم الأولى على جمود تام، كما كان الذين يزاولون العلوم الثانية على تيه

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 40).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 205.

(3) المصدر نفسه ص 206.

وضلال، فهؤلاء يعتبرون الاخرين أحجاراً وأولئك يعتبرون هؤلاء كفاراً.

وهكذا كانت الجزائر في الحركة العلمية، إلى أن مرَّت عليها مائة عام وأنشئت جمعية العلماء المسلمين الجزائرين، فتولت إفهام كل طرف قيمة الطرف الاخر، وبينت للجميع أنهم مهما نطقوا بأي لسان فهم من الجزائر إلى الجزائر، ولا تنهض إلا بهم ولا ينهضون إلا بها. ولقد وضعت هذه الجمعية برنامجاً صالحاً لتعليم الصغار اللسان العربي، وتكميل معلومات من تعلموا باللسان الأجنبي، كما خصصت دروساً للكبار(1).

وقال عن الشيخ المصلح التونسي بشير صفر في حفل أقيم بتونس للاحتفاء بذكراه: إنه رجل بنى ما أخذه من العلوم باللغات الأجنبية على ثقافة إسلامية عربية وبذلك استطاع أن يخدم أمته وأن يحتل قلبها(2).

وقال كذلك في محاضرة له بمدينة قالمة: فأرجوكم أيها الشبان الحازمون أن تأخذوا العلم بأي لسان كان وعن أي شخص وجدتموه، وأن تطبعوه بطابعنا لننتفع به الانتفاع المطلوب، كما أخذه الأوربيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصراني وانتفعوا به(3).

وهكذا تحافظ الأمة على ذاتيتها وتنفتح على الحضارة المعاصرة، وهذا الموقف من اللغات الأجنبية الذي أملته ظروف الواقع، وحتمته ضرورة ترقية العربية، وبذل المزيد من الجهود لتكون العربية لغة العلوم والفنون كلها، لأنه لا يتم استقلال أمة دون استقلال كامل عناصر هويتها ومقوِّمات شخصيتها، وفي مقدمتها اللغة القومية، فهو يرى بأن «اللغة العربية من اللغات الحية التي تقرن بالإنجليزية والألمانية»(4).

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 166).

(2) آثار الإمام ابن باديس (4 / 317).

(3) المصدر نفسه (4 / 323).

(4) المصدر نفسه (4 / 40).

وأنها قادرة على استيعاب كل العلوم وتدريسها بها. ولذلك كان كثير الدعوة إلى إبراز خصائص العربية، وقدرتها على مواكبة المستجدات[1].

### 6. الهدف من العلم:

إن العلم المقصود عند ابن باديس ليس هو حشد العقول بالمعلومات النظرية وإغفال السلوك والأعمال التطبيقية، فالعلم وثيق الصلة بالأخلاق، وبدونها لا ينفع العلم لا في كثرة ولا في قليل، فالعلم والعمل متلازمان، يقول ابن باديس: إن الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم، وقوة الإدارة، وقوة العمل، فهي أسمى الخلق الكريم والسلوك الحميد[2].

ويقول كذلك: حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاث، الإرادة، الفكر، العمل، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لا بد للإنسان منها، فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصحيح والإرادة القوية من الخلق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم، فلهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه ودينه ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم، ويقوِّم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والتريض على العمل[3].

فالهدف من العلم في نظر ابن باديس هو بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة، فهو ذو أبعاد نفسية وعقلية واجتماعية. ولذلك يقول رحمه الله: إن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علماً وعملاً فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية. والمثال الكامل لذلك كله هو حياة محمد (ص) في سيرته الطيبة[4].

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 207.

(2) مجالس التذكير ص 269.

(3) المصدر نفسه ص 269.

(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 209.

ويقول كذلك: على المربين لأبنائنا أن يعلموهم ويعلموهن هذه الحقائق الشرعية ليتزودوا وليتزودن بها، وبما يطبعونهم ويطبعونهن عليه من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة[1].

فهو يريد أن يتجاوز الطرق العقيمة في تدريس العلوم التي لا تعدو أن تكوّن عند طالبها ثقافة لفظية جدلية لا تهذب سلوكاً ولا تغيِّر واقعاً، بل تغرق طالبها في معارك وهمية لا يخرج منها إلا وهو خائر القوة منهك الجسد دون أن يستفيد من ذلك شيئاً.

ولذلك يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة مع قليل من العلم، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا[2].

### 7. من آداب المتعلم حسن التلقي وطلب المزيد:

قال تعالى: {وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا *} [طه : 114].

قال ابن باديس في تفسير هذه الآية: لا حياة إلا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم، فلن يكون عالماً إلا من كان متعلماً، كما لن يصلح معلماً إلا من قد كان متعلماً، ومحمد (ص) الذي بعثه الله معلماً، كان أيضاً متعلماً، علمه الله بلسان جبريل، فكان متعلماً عن رب العالمين، ثم كان معلماً للناس أجمعين، أرأيت أصل العلم ومن معلموه ومتعلموه؟ ثم أرأيت شرف رتبة التعلم والتعليم، لا جرم كان لرتبة التعلم آدابها، وكان محمد (ص) أكمل الخلق في آدابه بما أدبه الله وأنزل عليه من الآيات.

---

(1) المصدر نفسه ص 209.

(2) المصدر نفسه ص 210.

### أ . لزوم الصمت عند السماع:

كان النبي (ص) إذ أنزل عليه جبريل . عليه السلام . بالوحي وقرأه عليه قرأ معه وساوقه في القراءة، وكان ذلك منه (ص) لحرصه على حفظه وعدم نسيانه، حتى يبلّغه كما أنزل عليه. ولأن تعلق قلبه بما يسمع من جبريل وامتلاءه به واستيلاء ذلك المسموع على لبه، يدعوه إلى النطق به لما بين القلب واللسان من الارتباط، ولأن شوقه إلى ذلك المسموع ومحبته ورغبته فيه تبعثه على التعجيل بقراءته، غيرأن القراءة عند السماع وقبل تمام الإلقاء تمنع الوعي، لأن عمل اللسان بالنطق يضعف عمل القلب بالوعي والحفظ، فلذا أوصى الله تعالى نبيه (ص) أن لا يعجل بقراءته عند سماعه من جبريل من قبل أن يقضي ويتمم إليه وحيه، فقال تعالى: {وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ} [طه : 114].

### ب . تأكيد الصمت بكف اللسان:

لا يتم تفرغ القلب للوعي إلا بسكون اللسان، فلا يكفي في تفرغه ترك القراءة الجهرية عند السماع حتى يكف اللسان عن الحركة، فلا تكون القراءة الجهرية عند السماع حتى ينكف اللسان عن الحركة فلا تكون قراءة لا جهراً ولا سراً، فلذا أكد الله تعالى طلب ترك القراءة بالنهي عن تحريك اللسان، فقال تعالى: {لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ *} [القيامة : 16].

ثم بيّن أن الله بجمعه في قلبه . (ص) . بالحفظ وأنه يطلق بقراءته لسانه بقوله: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ *} [القيامة : 17]، أي قراءتك إياه، ثم أمره أن يتبع قراءة جبريل إذا قرأه عليه فيقرأه كما قرأه بعد فراغه بقوله: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ *} [القيامة : 18]، أي فإذا قرأه جبريل وفرغ منه فاتبع قراءته فاقرأ كما قرأه، وأنه تعالى يبينه بأقوال نبيه . (ص) . وأفعاله بقوله: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ *} [القيامة : 19][(1)].

### ج . هذا الأدب أدب عام:

إنما المقصود من الكلام البيان عن المراد، وإنما المقصود من السماع وعي الكلام ليفهم المراد، فكما كان

(1) المصدر نفسه (1 / 348).

على المتعلم أن يسكت حتى يفرغ معلمه من القدر المرتبط بعضه ببعض مما يلقيه إليه حتى يفرغ المعلم من إلقائه ؛ كذلك على المناظر أن يستمع لمناظره حتى يستوفي دعواه وحجته.

وعلى كل قارئ لكتاب أن يستوفي ما يرتبط بعضه ببعض منه، ثم يبدي رأيه، وعلى كل مستمع لمتكلم كذلك، فبهذا الأدب يتم وعي المتعلم فيحفظ، وفهم السامع لتحصيل فائدة الاستماع، وبترك هذا الأدب كثيراً ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم وفوات القصد من المناظرة أو القراءة أو الكلام.

**د . دوام التعلم للازدياد من العلم:**

يتعلم الإنسان حتى يصير عالماً ويصير معلماً، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه، ومهما قضى من حياته في التعليم وتوسع فيه وتكمل به فلن يزال بحاجة إلى العلم ولن تزال أمامه فيما علمه وعلمه أشياء مجهولة يحتاج إليها. فعليه أبداً أن يتعلم وأن يطلب المزيد ؛ ولذا أمر الله نبيه (ص) . وهو المعلم الأعظم . أن يطلب من الله . وهو الذي علمه ما لم يكن يعلم . أن يزيده علماً فقال: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا *} [طه : 114].

**هـ . تحذير واقتداء:**

ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصلوا من علم عن العلم فوقف بهم عندما انتهوا إليه فجمدوا، وأكسبهم الغرور بما عندهم فتعظموا وتكلموا فيما لم يعلموا فضلوا وأضلوا، وكانوا على أنفسهم وعلى الناس شر فتنة وأعظم بلاء.

فبمثل هذه الآية الكريمة يداوي نفسه من ابتلي بهذا المرض فيقلع عن جموده وغروره ويزداد مما ليس عنده ممن عنده علم ما لم يعلم، ويحذر من أن يقف عن طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة، ويقتدي بهذا النبي الكريم صلى الله عليه واله وسلم ؛ فلن يزال يطلب من الله تعالى أن يزيده علماً بما ييسر له من أسباب وما يفتح له من خزائن رحمته وما يلقيه في قلبه من نور، وما يجعل له فرقان وما يوفقه إليه من أصل ذلك كله وهو

تقوى الله والعمل بما عليه، نسأل الله لنا وللمسلمين العلم النافع والعمل الصالح، فهو ولي الهداية والتوفيق[1].

## ثانياً: المنهج التربوي:

لقد استطاع ابن بادس أن يربي أجيالاً من الجزائريين، كانت أساساً لنهضة الجزائر الحديثة، فقد أدرك منذ البداية أنه ما من أمة يمكن أن تنهض نهوضاً حقيقياً إلا عن طريق التربية والتعليم، وأن هذه التربية لا تكون مجدية إلا على أساس من العقائد وتقويم الأخلاق الذي يؤدي إلى تطابق الباطن مع الظاهر، فالأخلاق تنبع من أعماق الضمير المتدين لا من قهر المجتمع، فصوت الضمير أقوى من مئات القوانين والأحكام.

وقد أدرك ابن باديس أن القرآن الكريم هو مصدر الخلق العظيم، ولهذا سعى إلى تعليم القرآن وتفسيره لتحصين المجتمع الجزائري وإعداده بتربية إسلامية شاملة أساسها القرآن وسنة رسول الله (ص)، ولتتحصَّن هذه الأمة وتتمسَّك بأخلاقها وقيمها، فلا سبيل إلا بالتعليم والتوعية وبث روح القرآن وأخلاقه في نفوس المتعلِّمين.

وقد خاطب ابن باديس الشعب الجزائري مبيناً مكانة التعليم في عملية المحافظة على الإسلام، حيث قال: أيها الشعب الجزائري المسلم الكريم، تالله لن تكون مسلماً إلا إذا فقهته، ولن تفقهه إلا إذا كان فيك من يفقِّهك فيه، فلهذا فرض الله على كل شعب إسلامي أن تنفر منه طائفة لتتفقه في الدين وترجع إلى قومها بالإنذار، فبذلك يرجى لهم الرجوع إلى الله، وما هو إلا الرجوع من الضلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الاعوجاج إلى الاستقامة، قال تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ *} [التوبة : 122].

وإذا كان الفرد المسلم هو محور العلمية التربوية التعليمية التي تعتمد في أساسها على التثقيف وتعليم الإسلاميين لمحاربة التغريب والتقليد ؛ فإن إصلاح المجتمع في رأي ابن باديس لا يكون إلا بصلاح الفرد،

(1) المصدر نفسه.

وإصلاح الفرد لا يكون إلا بتطهير نفسه وعقله من البدع والخرافات وتأثيرات الغرب، وذلك بتعليم الإنسان المسلم علوم القرآن والسنة والمعارف الصحيحة، وبتربية الأخلاق والقيم الإسلامية(1).

فصلاح النفس كما يقول ابن باديس: هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجِّهة كلها إلى صلاح النفوس، إمَّا مباشرة وإمّا بواسطة.. فتكميل النفس هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع(2).

إن نهوض الأمم ورقيِّها، أو سقوطها وانحدارها ؛ منوط بالعلم والمعرفة والالتزام بالأخلاق السامية أي بالتربية والتعليم، فإذا نجح شعب في برامجه التربوية ـ التعليمية ؛ حقَّقَ أهدافه وغاياته الحضارية، وإن هو أخفق تراجع عن أهدافه(3).

## 1 ـ أهداف التربية والتعليم:

التعليم والتربية هما هدف وغاية في تكوين الشخصية عقلياً ونفسياً وسلوكياً، وهما وسيلة وأداة لتحقيق تلك الغاية، وهما نهج وسبيل لا يمكن تجاوزهما لأولئك الذين يريدون بناء الأمم والحضارات أو تجديدها إذا أصابها التقدم والبلى، والتربية والتعليم هما صنوا العلم والعمل، فلا فائدة من العلم دون العمل، كما لا فائدة من التعليم من دون التربية، فمنذ الأزل، التربية والتعليم متلازمان جنباً إلى جنب لتحقيق غاية الحق من الخلق.

وقد طرح بعضهم رأياً طريفاً حول معصية ادم ـ عليه السلام ـ لله ـ عز وجل ـ وهبوطه من الجنَّة إلى الأرض، حيث قال: إنَّ الله سبحانه وتعالى علَّم ادم الأسماء كلَّها، وقال له بصيغة الأمر الموجب للعمل:

(1) سؤال النهضة، د. لطيفة عميرة ص 163، 164.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 232).

(3) سؤال النهضة ص 164.

{وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *} [البقرة : 35]، فالأمر هنا يمثل التربية، والعمل في مقابل تعليم الأسماء وصيغة الأمر، أي عدم الاقتراب من الشجرة، إلا أنَّه لم يلتزم ادم به فأخذ العلم دون العمل، ولم يتربَّ على الالتزام بمقتضيات العلم، ولأنَّ التربية انفصلت عن العلم لم يكن العلم وحده قادراً على الحيلولة بينه وبين الوقوع في الخطيئة[1].

والمقصود بالتربية هي جملة المبادئ والقيم التي تنتمي إلى ثقافة أو حضارة ما، والتربية غير التعليم، ذلك لأنَّ التربية تعني عملية البناء العقلي والقلبي والسلوكي للإنسان، أي هي عبارة عن تنمية الشخصية لدى الإنسان المتعلم[2].

وقد كانت مهمَّة الأنبياء بالدرجة الأولى هي مهمَّة تربوية، فالنبي (ص) كان المربي الأوَّل في الإسلام، فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن مهمَّة الأنبياء في الأرض حيث قال: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ *} [البقرة : 151].

وقوله أيضاً: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *} [آل عمران: 164].

والذي ينبغي ملاحظته في الآيات السابقة هو اندماج العلم والعمل، التعليم والتربية، الحكمة والتزكية، حيث يقترن تعلُّم الكتاب باكتساب الحكمة، ومعلوم أنَّ الحكمة هي المعرفة المتعلِّقة بالعمل والخبرة والتجارب، فالغاية من التربية إذن ؛ هي أن يكتسب الإنسان أفكاراً ومعلومات وقيماً وسمات الشخصية، تجعله أكثر قدرة على تحقيق ذاته وأكثر إسهاماً في تحقيق أهداف أمَّته وإنجاز طموحاتها، فتكون التربية على هذا الوجه مغايرة للنظرية المجرَّدة ذات البنية المنضبطة على النحو الذي يجده في العلوم التطبيقية البحتة، كالفيزياء والرياضيات

(1) المصدر نفسه ص 167.

(2) المصدر نفسه ص 167.

والكيمياء... وإنَّما هي علم بمعنى اخر، إنها علم أداء أي أنَّها عبارة عن سلوك وممارسة لمعارف وقيم وثقافة، فهي علم يشتق مبادئه عن طريق ممارسة المعارف واقتباسها من العلوم الأخرى[1].

وهنا يأتي دور العلماء والمعلِّمين حيث يختبرون هذه المعارف النظرية في المجال العملي في مؤسسات التربية والتعليم، وتبدأ عملية التعليم كما يفهمها الجميع، وكما جاء بها سلف المسلمين فهو نشر العلم لكل أحد، للكبير والصغير والمرأة والرجل بحِلَقِ الدرس، ومجالس الوعظ وخطب المنابر، وبكل طريق موصل[2].

فالمسؤولية التي تقع على العلماء في مهمَّة التربية والتعليم برأي ابن باديس كبيرة جداً، وفي وقت الشدة والبلاء في طور الانحطاط والتقهقر تكون المسؤولية أعظم، فمسؤولية العلماء عند الله فيما أصاب المسلمين في دينهم لعظيمة، وحسابهم على ذلك لشديد طويل، ذلك بما كتموا من دين الله وبما خافوا في نصرة الحقّ سواه، ولما حافظوا على منزلتهم عند العامَّة وسادة العامَّة، ولم يحافظوا على درجاتهم عنده، وبما شحوا ببذل القليل من دنياهم فيما يرضيه، وبما بذلوا واسرفوا في الكثير من دينهم فيما يغضبه.. وإن راجعنا تاريخ المسلمين في سعادتهم وشقائهم وارتفاعهم وإنحطاطهم وجدنا ذلك يرتبط إرتباطاً متيناً بقيام العلماء بواجبهم أو قعودهم عمَّا فرضه الله وأخذ به الميثاق عليهم.

يقول تعالى في هذا الشأن: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ *} [آل عمران: 187].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *} [البقرة : 159 ـ 160].

(1) المصدر نفسه ص 167.

(2) المصدر نفسه ص 167.

فالعلم إذن أمانة في عنق العلماء، وهم مطالبون بأدائها لمستحقيها ؛ ذلك أنَّ العلم هو هبة الله لهم، وليس ملكاً لهم يفعلون به ما يشاؤون ويستغلونه كيفما شاؤوا، فيكتمونه إن رأوا من مصلحتهم الشخصية ـ إن خوفاً أو طمعاً ـ أن الكتمان أوفق لهم، أو ينشرون منه ما لا يصادم أهواء العامَّة، بل يزيدهم سلطة عليهم وجاهاً، ولا أبخس من يشتري الحياة الدنيا بالآخرة[1].

كان ابن باديس يرى أن الثروة الوطنية إنما هي إنتاج الفضيلة، ومفتاح الفضيلة التربية والتعليم، لقد صرف معظم حياته في التعليم والتربية وأسس المدارس، وطوَّر المناهج، وأعدَّ المدرسين والمعلمين، وكان يعتقد أن التعليم يجب أن يكون متصلاً بطبيعة المجتمع ومشكلاته، وأن يستهدف تغذية قلوب الصغار بالمشاعر والمبادئ الشائعة في بلدانهم، وأن الغاية من التربية والتعليم هي تكوين الشخصية العربية الإسلامية لا مجرد حشد عقل المتعلِّم بكمية من المعارف، ويجب أن تحمل العملية التربوية المتعلِّم على تقدير أهمِّية الصحة والعائلة وواجباتها والصداقة والأخوَّة وفوق كل ذلك حبَّ الوطن الذي هو الدافع الأكبر للناس على محاولة بناء مجتمع مزدهر متطوِّر[2].

وقد بُني القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الإسلامية في مدينة قسنطينة من الناحية التربوية على تربية وتعليم أبناء المسلمين وبناتهم تربية عربية إسلامية، وذلك بالمحافظة على دينهم ولغتهم وتثقيفهم بالعلم والمعارف وباللغتين العربية والفرنسية، وتعليمهم المهن والصنائع[3].

لقد تمحورت الأهداف التربوية إذن في نهج ابن باديس ونشاطه حول الإسلام والوطن واللغة والإنسان الجزائري، فقد اعتمد الإمام في نشاطه التربوي على تطهير النَّفس، وذلك بإصلاح العقائد وتقويم الأخلاق،

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 311)، وسؤال النهضة ص 168.

(2) المصدر نفسه ص 170.

(3) المصدر نفسه ص 170.

فالباطن أساس الظاهر، كما أنَّ العمل التربوي عنده استهدف تأهيل الشعب الجزائري وتنبيه قدراته الفعلية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية والسياسية، لكي يتوصَّل بالنتيجة إلى حياة أفضل في مجتمع أفضل، ثم تستهدف هذه العملية التربوية، الدفاع عن الشخصية الجزائرية، والحفاظ على خصوصية التشكُّل التاريخي الذي لا علاقة أصلاً لفرنسا به لا من قريب ولا من بعيد[1].

## 2. التربية الروحية:

إهتمَّ ابن باديس بالجانب الروحي وحرص على غرس معاني الإيمان في نفوس من يحضر له في دروسه، فكان يربي الناس على الأذكار وتلاوة القرآن والصيام والصلاة والزكاة، واهتم بالأمور التي تغذي الإيمان وتهذيب السلوك المستمدة من الكتاب والسنة، وكان يستخرج الفوائد التربوية من الآيات القرانية، فمثلاً عندما فسَّر قول الله تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *} [النمل : 20]. فقال ما يلي: سأل سليمان عن حال نفسه، فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ ولم يسأل عن حال الهدهد، فيقول ما للهدهد لا أراه؟، فذكر حال نفسه قبل أن يذكر حال غيره.

فنقل الحافظ الإمام العربي عن الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال: إنما قال: {مَالِي لاَ أَرَى}، لأنه اعتبر حال نفسه، إذ علم أنه أوتي الملك العظيم وسُخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر فلأجله سُلبها، فجعل يتفقد نفسه فقال: {مَالِي}، وكذلك تفعل شيوخ الصوفية ؛ إذا فقدوا امالهم تفقدوا أعمالهم، هذا من الأدب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصر في الفرائض[2]؟

وكان يوجِّه عامَّة الناس إلى تزكية النفس وتقويم الأخلاق والتحقق بالعبادة والإخلاص فيها، وإدمان تلاوة القران، والمحافظة على الصلاة على النبي (ص)، وقيام الليل.

---

(1) المصدر نفسه ص 170.

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 81، 82.

وكان يدعو للتسامح ويشرح الأدعية:

**أ . دعاء القنوت:**

إن الإسلام الذي قرَّر التسامح مع أهل الملل أصلاً من أصوله ؛ يجد فيما يتلوه المسلمون من آياته ودعواته وأذكاره ما يقوي تمسكهم بذلك الأصل ويرسخه فيهم، ونحن نذكر هنا على سبيل المثال دعاء القنوت:

«اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونؤمن بك، ونتوكل عليك، ونخنع لك، ونخلع، ونترك من يكفرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخاف عذابك، إن عذابك الجد بالكافرين ملحق» ويزيد قسم عظيم منهم قوله: «اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيما عافيت، وتولنا فيما توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، فلك الحمد على ما أعطيت نستغفرك ونتوب إليك»[1].

أرأيت هذا التوحيد لله والإخبات والتعظيم له، والاعتزاز والاعتماد عليه؟ فلما تعرض الدعاء للكافرين لم يزد على تركهم في قوله: «ونترك من يكفرك»، فالمسلم يتمسك بدينه ويترك غير أهل دينه ودينهم، وهذا من باب قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *} [الكافرون : 6].

ولما ذكر عذابهم في قوله: «إن عذابك بالكافرين ملحق». جعله لله فهو الذي يعذب من كفر به من عباده فلم يرج رحمته ولم يخف عذابه، وهذا من باب قوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ *} [آل عمران: 128].

فالمسلم بهذه التغذية الشريفة الطيبة لا يكون إلا نقي القلب من الحقد الديني واسع الصدر عظيم التسامح، وإذا رأيت ما يدعو في نفس المسلم وما يربيه عليه ؛ فانظر إلى ما ينشره رجال الكنيسة بين أتباعهم من الصلوات اليومية وما تشتمل عليه من آثار للحقد الديني وتقوية له ودعوة صريحة إليه.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 492).

ففي الصلاة اليومية التي نقلناها في العدد الماضي عن (الصدى الكنسي لقسنطينة وبونة) يقول «وأقدم إليك صلواتي بصفة أخص، من أجل اتحاد كل الكاثوليك ومن أجل محاربة الإسلام. بهذا تغذي الكنيسة مؤمنيها وهم في وسط إسلامي لا تكمن سعادته وهناؤه إلا بتعاون سكانه فيه بروح التسامح والتواد، وتملأ صدورهم بهذا التعصب الممقوت ضد قوم مسالمين ومستضعفين، فلا يدري إلا الله كم أثمرت هذه التغذية الخبيثة من علقم، كان وزر من جرعه ومن تجرعه على من بثوه في النفوس ومكّنوه في القلوب. حاشا الأصول الأولى لتلك الملة التي تأمر بهذا، فقد عرفوا ما جاء في «متى» «5: 44»»:

وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيؤون إليكم ويطردونكم.

ولكن الرؤساء الذين يريدون المحافظة على مصالحهم ويرون أن محبة أتباعهم لهم تكون بقدر بغضهم للإسلام، هم الذين يتحملون مسؤولية هذا ويبوؤون بإثمه.

نكتب هذا ليطلع قراؤنا على حقائق واقعية تتصل بالحياة الاجتماعية بينهم وبين من يساكنونهم في وطنهم، وليعلم إخواننا المسلمون عظيم نعمة الله عليهم بما شرعه لهم من أصل التسامح العظيم فيزدادوا به تمسكاً، فيعيشوا سالمي الصدور من داء الحقد الديني والتعصب الممقوت، وليعرف الذين يبثون تلك السموم أن أعمالهم لا تخفى على غيرهم فعسى أن يقلعوا عنها، ويرجعوا للعمل معنا على بث روح التسامح بين عباد الله. والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل[1].

### ب ـ الصلاة على النبي:

بين ابن باديس: أن الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ من أصول الأذكار في الإسلام، ومن أعظمها، فإن الله ـ تعالى ـ أمر بها المؤمنين على أبلغ أسلوب في التأكيد، وأكمل وجه في الترغيب، وجعلها من

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 493).

الأذكار اليومية المتكررة في الصلوات وهي ذكر لساني بتلاوة لفظها، وقلبي بتدبر معانيها، ومثمرة لرسوخ الإيمان وشدة المحبة وتمام التعظيم له ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ المثمرَين لأتباعه، المحصل لمحبة الله عبده، وتلك غاية سعادة المخلوق ونهاية كماله:

{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [آل عمران: 31].

وهذه الصلاة تكون من المخلوق ومن الخالق على المخلوق، فمن الأول صلاة النبي ـ (ص) ـ على المؤمنين، كما في ايتي سورة التوبة المتقدمتين، ومنها قوله ـ (ص) ـ: اللهم صلِّ على آل أبي أوفى. فقد دعا لهم وسأل الله تعالى أن يصلي عليهم، وصلاته على نفسه في تشهده في الصلاة، ومنه صلاة الملائكة على النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ كما في آية الصلاة من سورة الأحزاب، وصلاتهم على المؤمنين كما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ} [الأحزاب : 43]، ويفسر هذه الآية قوله تعالى: {وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ} [الشورى : 5]، وهذا منهم دعاء عام[1].

وقوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} [غافر : 7]، وهذا دعاء خاص.

وكما في حديث: «من صلى عليَّ صلاة صلت عليه الملائكة عشراً»، وحديث: «إذا صلى أحدكم ثم جلس في مصلاه لم تزل الملائكة تصلي عليه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»، ومنه صلاة المؤمنين على النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ وعلى الأنبياء والملائكة وعلى عامة المؤمنين بطريق التبع فهي سؤالهم من الله تعالى ودعاؤهم إياه أن يصلي على نبيه ومن ذكر قبل معه، فهذه كلها من القسم الأول وهو صلاة المخلوق على المخلوق، وكلها لم تخرج على معنى الدعاء[2].

(1) المصدر نفسه (4 / 377).

(2) المصدر نفسه (4 / 377).

وأما القسم الثاني: وهو صلاة الخالق على المخلوق فمنها صلاته على المؤمنين في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا *} [الأحزاب : 43]، وصلاته على الصابرين في قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ *} [البقرة : 157]، وعلى نبيه محمد ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *} [الأحزاب : 56].

قد تنوعت عبارات العلماء سلفاً وخلفاً في تفسير صلاته تعالى على من ذكر من خلقه، ففسرت بالرحمة. والجمع في قوله «صلوات» باعتبار أنواع اثارها ومواقعها، وقوله بعدها «ورحمة» نوع منها خاص. وفسرت بالمغفرة، وفسرت بثنائية عند ملائكته على المصلى عليه ـ من باب (ذكرته في ملأ خير منه) ـ وفسرت بإعطائه وإحسانه، وفسرت بتعظيمه. ولا خلاف في الحقيقة بين هذه التفاسير، فإن مغفرته من رحمته وإن ثناءه من رحمته، وإن عطاءه وإحسانه من رحمته، وإن تعظيمه من رحمته، فرجعت كلها إلى تفسيرها بالرحمة[1]،

ومن الصيغ في الصلاة على النبي (ص) ما رواه أبو سعيد الخدري عند البخاري في أحاديث الأنبياء والتفسير قال ـ رضي الله عنه ـ قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك، فكيف نصلي؟ قال قولوا: «اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما بارك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وفي رواية أخرى للبخاري: كما صليت على آل إبراهيم بزيادة لفظة «ال»، وليس في آخرها «وعلى آل إبراهيم».

وجاءت روايات صحيحة كلها قد اتفقت واختلفت، اتفقت على عمود الكلام وصلب المعنى ومعظم الكلمات، واختلفت في كلمات قليلة[2].

(1) المصدر نفسه (4 / 378).

(2) المصدر نفسه (4 / 378).

والصلاة عليه ـ (ص) ـ واجبة مرة في العمر، وذهب الشافعي إلى وجوبها في التشهد الثاني من الصلاة، وقيل بوجوبها عند ذكره، وثبت الترغيب فيها إثر حكاية الأذان ويوم الجمعة وليلتها، وعند الدعاء، ثم ما شاء حسب الطاقة.

ويقصد المصلي بصلاته امتثال أمر الله ورجاء ثوابه والتقرب إليه بذكر نبيه على وفق أمره وقضاء بعض حقه والمكافأة بقدر جهدنا لبعض إحسانه وإظهار تمام المحبة فيه والاحترام له، وصحة العقيدة في دينه.

وصيغ الصلاة كثيرة والأمر فيها واسع، وأرفعها قدراً وأعظمها نفعاً هي الصيغة التي قالها النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ لأصحابه ـ وقد سألوه ـ في معرض البيان، وبيانه لهم بيان لجميع الأمة بعدهم، وهو أعلم الناس بما ينفع وأحرص الناس على جلبه لأمته، فلا أنفع ولا أرفع مما جاء به من عند ربه واختاره لأمته[1].

ومظهر الصلاة على النبي صلى الله عليه واله وسلم، كسائر الأذكار، وهو اللسان، وثمرتها في الأعمال، ومنبتها هو القلب. فليحذر المصلي من الغفلة عند جريان الصلاة على لسانه.

والصلاة النبوية صيغة تعبدية، فليحذر من اللحن فيها، وجاء وعيد فيمن تركها عند ذكر النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ فليحذر من تركها عنده وخصوصاً من إعتاد تركها، وقد اعتاد بعضهم أن يقول لصاحبه عند الغضب «صلِّ على النبي»، وهذا وضع لها في غير محلها، وتعريض للاسم الشريف إلى ما لا يليق ممن قد يكون عنده جنون الغضب من تقصير أو سوء أدب، فليحذر من هذا ومثله.

وقد هجر الناس الصلاة النبوية التوقيفية واقتصروا على غيرها، وزاد بعضهم فقال: إن غيرها أنفع منها، فليحذر من هذا الهجر ومن هذا القول، فمحمد ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ أنفع الخلق وأرفعهم، وفعله أرفع

(1) المصدر نفسه (4 / 405).

الأفعال وأنفعها، وقولها أرفع الأقوال وأنفعها، فليجعل أصل صلاته الصلاة النبوية، المروية وليجعل بعدها ما شاء.

ومن الكتب المشهورة بين الناس في الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ كتاب تنبيه الأنام وفيه موضوعات كثيرة لا أصل لها، فبينما قارئه في عبادة الصلاة إذا هو في معصية الكذب، فليكن منه على حذر. والله يفتح علينا في العلم ويوفقنا في العمل له والحمد في الأولى والآخرة لرب العالمين[1].

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه واله وسلم من العبادات المهمة في التربية الروحية، وهي من الغنائم المباركة لسالكي طريق المجاهدة في الله، والصلاة على النبي صلى الله عليه واله وسلم لها ثمرات كثيرة وفوائد عظيمة منها:

ـ حصول عشر صلوات من الله عز وجل على المصلي بالصلاة مرة واحدة على النبي (ص).

ـ أنها سبب لشفاعته (ص) إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها.

ـ أنها سبب لكفاية العبد ما أهمه.

ـ أنها تقرب صاحبها من طريق الجنة.

ـ أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن والبركة للمصلي، لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله، ويكرمه ويشرفه ويبارك عليه وعلى اله، وهذا الدعاء مستجاب فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك، والجزاء من جنس العمل.

ـ أنها سبب لدوام محبة العبد لرسوله (ص) وزيادتها وتضاعفها وذلك عقد من عقود الإيمان لا يتم إلا به[2].

هذا بعض المعالم في التربية الروحية التي اهتم بها ابن باديس في تغذية أرواح المواطنين بالغذاء الروحي والزاد

(1) المصدر نفسه (4 / 407).

(2) البحر الرائق، أحمد فريد ص 121.

الإيماني الذي يقربهم من الله عز وجل، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس : 9 . 10].

ولذلك ركز ابن باديس على تطهير الروح وتنزيهها عن مساوأئ الأخلاق وتحليتها بمكارمها لتسمو بصاحبها نحو الكمال الإنساني، ذلك لأن الإنسان مهيأ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي وهو روحه، ومعرَّض للسقوط والنقصان بما فيه من اختلاط عناصر جزئه الأرضي الظلماني وهو جسده، ولا يخلص من كدرات جثمانه، ولا ينجو من أسباب نقصانه، إلا بعبادة ربه التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه، وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه(1).

**ج . الصلاة لأوقاتها:**

قال تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *} [الإسراء : 78].

كان ابن باديس حريصاً على أن يلتزم الناس بالصلاة المكتوبة، ظهر ذلك في خطبه ودروسه، وشرحه لايات الذكر الحكيم، فعندما تحدث عن تفسير الآيات السالفة الذكر، قال: أقم يا محمد . صلى الله عليه واله وسلم . وأمره أمر لأمته لأنَّهم مأمورون بالاقتداء به . الصلاة لأجل ميل الشمس، فأدِّ الظهر والعصر، وفي غسق الليل فأدِّ المغرب والعشاء، وأقم صلاة الفجر إنها صلاة مشهودة(2).

وقد جاء عن النبي (ص) . في الترغيب في امتثال هذا الأمر «أقم الصلاة» وفي الترهيب من مخالفته . من الأحاديث ما فيه مقنع ومزدجر، فمما جاء فيها حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد، فمن جاء بهنَّ لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ولم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة، رواه مالك.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 181).

(2) المصدر نفسه (1 / 309).

ومما جاء في الترغيب حديث أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ـ (ص) ـ يقول: أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هي يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا رواه الشيخان في صحيحهما.

ومما جاء في الترهيب حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال رسول الله (ص) «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» رواه مسلم وغيره بنحوه. وحديث بريدة رضي الله عنه مرفوعاً: العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر. رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم[1].

**ـ الأحكام:**

وقد قال بكفر تارك الصلاة جماعات كثيرة من الفقهاء والمحدثين، سلفاً وخلفاً، مستدلين بحديث جابر وحديث بريدة الصريحين في كفره، وذهبت جماعات أخرى كذلك إلى عدم كفره على عظم جرمه، مستدلين بحديث عبادة ابن الصامت الصريح في جعله في المشيئة، والكافر مقطوع له بدخول النار، ويجيبون عن حديث جابر وبريدة بأن المراد من كفر تارك الصلاة هو الكفر العملي، والكفر قسمان: اعتقادي وهو الذي يضاد الإيمان، وكفر عمل وهو لا يضاد الإيمان، ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحل للترك، وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كذلك، وبهذا يجمع بين الأحاديث. وكفى زاجراً للمرء عن ترك الصلاة أن يُختلف في إيمانه هذا الاختلاف[2].

**ـ تعليم:**

في ربط الصلاة بالأوقات تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات ونجعل لكل عمل وقته، فللنوم وقته، وللأكل وقته، وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته، وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته وتطّرد له أعماله، ويسهل عليه

(1) المصدر نفسه (1 / 312).

(2) المصدر نفسه (1 / 312).

القيام بالكثير من الأعمال، وأما إذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقت فإنه لا بد أن يضطرب عليه أمره، ويتشوش باله، ولا يأتي إلاَّ بالعمل القليل، ويحرم لذة العمل وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر، فقلّ سعيه وكان ما يأتي به من عمل ـ على قلته وتشويشه ـ بعيداً عن أي إتقان.

وقد كان النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ مقسماً لزمانه على أعماله، وفيه القدوة الحسنة، فقد روى عياض ـ رضي الله عنه ـ في «الشفا» عن علي رضي الله عنه قال: كان ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ إذا أوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء. فجزءاً لله وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزَّأ جزأه بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة والخاصة ولا يدخر عنهم شيئاً، فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، قسمته على قدر فضلهم في الدين، منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول ليبلغ الشاهد منكم الغائب وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره يدخلون رواداً ولا يتفرقون إلا عن ذواق ويخرجون أدلة.

فهكذا ينبغي للمسلم أن يقسم أوقاته على أعماله ويعمرها كلها بالخير. وكما ربط الله له صلاته بالأوقات، وهي من أمور دينه، كذلك يربط هو بالأوقات جميع أمور دنياه، والله نسأل لنا ولجميع المسلمين أن يقصرنا على طاعته ويفقهنا في أسرار دينه ويوفقنا إلى اتباع سنة رسوله عليه وعلى اله أفضل الصلاة والسلام[1].

**د ـ نافلة الليل وحسن العاقبة:**

قال تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا *} [الإسراء : 79].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 313).

ومما قاله في تفسيره للآية: أسهر بعضاً من الليل فتعبد بالقرآن في الصلاة زيادة تعبدك به في صلاة فرضك، تكون على رجاء أن يبعثك ربك من مرقدك يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيقيمك مقاماً يحمدك فيه جميع الناس لما يرون لك من فضل وما يصل إليهم بسببك من خير[1].

وقد بينت السنة أن النبي ـ (ص) ـ كان ينام ثم يقوم، فبينت السنة العملية أن التهجد المطلوب هو القيام بعد النوم[2].

والمقام المحمود هو مقام الشفاعة العظمى وهي خاصة به، ويدل عليه حديث جابر الصحيح: من قال حين يسمع النداء ـ الأذان ـ اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ات محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ـ حلت له شفاعتي يوم القيامة.

قد جعل الله تعالى جزاء نبيه ـ (ص) ـ على تهجده وخلوته بربه في مناجاته هذا المقام الذي يحمده فيه الخلق ويتقبل فيه شفاعته ويستجيب دعوته ويفتح عليه بمحامد من ذكره لم يفتح عليه بها قبل. ففي هذا تنبيه للمؤمنين على حسن عاقبة القائمين لربهم في جنح الليل، وما يكون لهم من مقامات عند ربهم على حسب منازلهم، فكما كان المؤمنون ملحقين بنبيهم ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ في مشروعية هذه العبادة ؛ كذلك هم ملحقون به في حسن الجزاء عليها، وإن كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الأعظم فلهم جزاؤهم من مقامات القرب والزلفى والقبول والرضا، على ما يناسب منازلهم جزاء بما كانوا يعملون[3].

**هـ ـ الدعاء بصدق المدخل والمخرج:**

قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا *} [الإسراء : 80].

(1) المصدر نفسه (1 / 315).

(2) المصدر نفسه (1 / 315).

(3) المصدر نفسه (1 / 318).

قال ابن باديس في تفسيره لهذه الآية: قل يا محمد سائلاً ربك متضرعاً إليه، يا رب أدخلني إدخالاً حسناً كاملاً تساوى في ظاهره وباطنه في الحسن والكمال، وتماثلت بدايته ونهايته وحاله وعاقبته فيهما أن أكون فيه على بصيرة ويقين وثبات وقوة، وأخرجني إخراجاً كذلك . وإذا كان بمعنى الظرف كان المعنى أدخلني في مكان حسن أو زمان حسن..الخ وأخرجني كذلك، واجعل لي من عندك تسلطاً بالحق على العقول بالحجة والبرهان، وعلى الملك بالعدل والإحسان، ينصرني ويؤيدني على كل من يقف في طريق دعوتي إليك، وهداية خلقك من جبابرة البغي أو رؤوس الضلال[1].

وقال أيضاً: كل فرد من أفراد بني الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته لا ينفك عن المداخل والمخارج، فكل ساعة يقضيها من حياته هي مدخل باعتبار دخوله فيها من غيرها، ومخرج باعتبار خروجه منها إلى سواها، فإن قضاها صادق العقد صادق القول، صادق العمل، وفارقها كذلك ؛ فهي مدخل صدق ومخرج صدق، وإن قضاها وفارقها سيأئ العقد سيأئ القول سيأئ العمل فهي ليست كذلك، بل هي مدخل كذب وفجور ومخرج كذب وفجور، فالإنسان محتاج في كل لحظة من حياته لتوفيق الله وتأييده، وحفظه وإمداده.

فجاء هذا الدعاء القرآني منبهاً على هذه العقيدة، مشتملاً على سؤال ما يحتاج إليه الإنسان في جميع شؤونه في حياته، وأطواره فيه من ألطاف ربه، ولما كان الإنسان في كل لحظة من حياته . لا بد . واجداً معارضاً وصاداً عن الخير والصدق وقاطعاً في طريق الحق . من نفسه وشياطين الإنس والجن . قرن الدعاء السابق بالدعاء الثاني الذي فيه طلب التأييد من الله بالسلطان المبين.

فالدعاءان على اختصارهما وإيجازهما . قد جمعا للإنسان كل حاجته من تحصيل الخير ودفع الشر فهما من أعظم الأدوية الربانية للإنسان ومن أعظم وسائله الشرعية إلى خالقه، فما أحراهما بأن يلهج بهما في كثير من أوقاته[2].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 320).

(2) المصدر نفسه (1 / 322).

وقال أيضاً: فعلينا أن لا ندخل في أمر إلاَّ على بصيرة به وعلم بحكم الله تعالى فيه، وأن دخوله خير، وأن لا نخرج من أمر إلاَّ على بصيرة وعلم كذلك، لا فرق بين أمر وأمر من كبير وصغير وجليل وحقير، ونكون ـ مع بذل غاية ما عندنا من نظر واختيار ـ معتمدين على ربنا واثقين بحسن اختياره لنا مسلمين له فيما اختاره، ضارعين له مظهرين فقرنا وحاجتنا في كل حال، وعلينا أن نحصل من الأسباب ما يحصل لنا قوة العلم وقوة العمل، لنكون أهلاً للدفاع عن الحق وحزبه، ومقيمين لسلطان الله في أرضه بالحق والعدل والإحسان، معتمدين مع تحصيل تلك الأسباب ـ على الله وحده ـ ومنتظرين منه الفرج والتيسير.

هذان هما الأصلان الأساسيان في سلوك أهل الله:

التمسك بالحق، ومدافعة الباطل، فاستمسك بهما تكن ـ بإذن الله ـ من الفائزين[1].

والله سبحانه وتعالى يتقبل دعاء الصادقين.

ولما أمره الله تعالى أن يدعوه بحسن المدخل والمخرج والنصرة والتأييد ؛ أمره أن يعلن استجابته لدعوته بمجيء الحق وفي ذلك نصره، وذهاب الباطل وفي ذلك هلاك أعدائه وذهاب دولتهم هذا على النظر العام، وأما على النظر الخاص فإن الله تعالى بعد ما ذكر أن أعداءه كادوا يستفزونه من الأرض وأمره أن يتوجه إلى عبادته ودعائه، ذكرفي هذه الآية ما كان من نصره على المشركين، وفتح مكة عليه، وتنكيس الأصنام التي هي باطلهم وإعلان كلمة التوحيد الذي هو دينه وهدايته، ولذا كان النبي ـ (ص) ـ يتلو هذه الآية عندما كان يشير إلى الأصنام فتسقط إلى الأرض، ففي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ـ (ص) ـ دخل مكة «يعني عام الفتح» وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا *} [الإسراء : 81].

(1) المصدر نفسه (1 / 323).

وقال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ *} [سبأ : 49]، الحق الثابت الذي لا يعتريه زوال الباطل الذي لا ثبات له في نفسه، فالإسلام حق ويشمل كل ما هو معصية، زهقت الروح: خرجت، وزهق الباطل: ذهب واضمحل.

الزهوق: الهالك الذاهب(1).

وقال أيضاً: مجيء الحق هو بظهور أدلته، وقيام دولته، وزهوق الباطل هو ببطلان شبهه وذهاب دولته. فأما القسم الأول فإنَّ الأمر فيه ما زال ولن يزال كذلك ولن تزداد على الأيام أدلة الحق إلاَّ إتضاحاً.

ولن تزداد شبه الباطل إلا افتضاحاً.

وأما القسم الثاني فإنه مرتبط بأحوال أهل الحق وما يكونون عليه من تمسك به وقيام فيه أو إهمال له وقعود عنه، فيدال لهم ويدال عليهم بحسب ذلك(2).

ويرتبط قلب المسلم مطمئناً على أن ماهو عليه من الإسلام حق لا شك فيه، وأنه يومئذ منصور ما تمسك به، وأنه إذا خذل فإنما جاءه ذلك من ناحية نفسه، وعلىأن ما عدا الإسلام هو باطل لا شك فيه، وأن صاحبه هالك عند ربه، وأن ما يكون له من سلطان لم يأته من جهة باطلة، وإنما جاءه من أسباب عمرانية مما يقتضيه الحق، وفرط فيه أهله فحرموا ثمرته(3).

وعلى أهل الحق أن يكون الحق راسخاً في قلوبهم عقائد، وجارياً على ألسنتهم كلمات، وظاهراً على جوارحهم أعمالاً، يؤيدون الحق حيثما كان وممن كان، ويخذلون الباطل حيثما كان وممن كان، يقولون كلمة الحق على القريب والبعيد، على الموافق والمخالف، ويحكمون بالحق كذلك على الجميع، ويبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل نشره بين الناس وهدايتهم إليه بدعوة الحق وحكمة الحق وأسبابه ووسائله، على ذلك

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1/ 324).

(2) المصدر نفسه (1 / 325).

(3) المصدر نفسه (1 / 325).

يعيشون وعليه يموتون، فلنجعل هذا السلوك سلوكنا، وليكن من همّنا، فما وفينا منه حمدنا الله تعالى عليه، وما قصرنا فيه تبنا واستغفرنا ربنا، فمن صدقت عزيمته ووطّن على العمل نفسه، أُعين ويُسِّر للخير، وربك التواب الرحيم[1].

**و ـ القرآن شفاء ورحمة:**

قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا *} [الإسراء : 82].

قال ابن باديس: لما جاء في الآية السابقة الإخبار بمجيء الحق، وفي مجيئه صحة الأرواح والأبدان والأحوال، وبزهوق الباطل وفي ذهابه ذهاب العلل والأمراض كذلك ؛ جاء في هذه الآية بذكر القرآن والإخبار عما جاء فيه من الشفاء والرحمة تنبيهاً على أنه هو الشافي من أمراض الباطل وعلله، وأنه هو مصدر الحق وحجة ناصره، ومحصل الرحمة لأتباعه والمتمسكين به[2].

وقال: وصف الله تعالى القرآن بأنه شفاء في مواضع من كتابه منها هذه، ومنها قوله تعالى في سورة يونس عليه السلام:

. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ *} [يونس : 57].

ـ قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً} [فصلت : 44].

وأفادت الآيات كلها أنه شفاء لأهل الإيمان الذين يؤمنون به دون غيرهم بإعراضهم عنه كانوا من الخاسرين، وجاءت آية يونس بتقيد الشفاء بما في الصدور الذي هو العقائد، لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القران، وأصل لغيره، فإنه إذا شفيت الصدور من عقائد السوء ونزغات الشكوك، واعتقدت الحق وارتبطت على اليقين ؛ زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فرده وجماعته، ورقى درجات الكمال، فلا ينافي

(1) المصدر نفسه (1 / 325).

(2) المصدر نفسه (1 / 327).

ذلك أن القرآن شفاء أيضاً للنفوس من سيأئ الأخلاق، كما هو مقتضى الإطلاق في آية الإسراء هذه واية فصلت، لأن الأخلاق ناشئة عن العقائد ولازمة لها ولأنهما كليهما . العقائد والأخلاق . لا تكمل النفس الإنسانية إلا بالشفاء فيهما، ولا ينافي أيضاً حصول الشفاء للأبدان بالقرآن في بعض الأحوال، كما هو مقتضى الإطلاق أيضاً ومقتضى ما سيأتي من الآثار، وإن كان هذا ليس هو المقصود بالقصد الأول من شفاء القرآن[1].

والأمراض الإنسانية قسمان، أمراض أرواح وأمراض أبدان، وكلاهما أنواع. وأمراض الأرواح المقصودة بالذات هنا ترجع إلى نوعين: مرض العقول ومرض النفوس، فالأول بجمود النظر وفساد الإدراك وتقليد الاباء واعتقاد الباطل والشك في الحق، والثاني بفساد الأخلاق وانحطاط الصفات[2].

وقال: فرّط قوم فأهملوا الاستشفاء بالذكر المأثور واقتصروا على الدواء المادي فحرموا أنفسهم من خير كثير، إذا لم يكونوا له كالمنكرين، وأفرط اخرون فأهملوا الدواء المادي وزهّدوا الناس فيه وتزيدوا في جانب المأثور حتى خرجوا عنه واتخذوا لهم من ذلك حرفة وموردًا للمعاش، ونسوا أنواع أشفية القرآن الروحية والاجتماعية التي هي المقصود بالقصد الأول من تنزيله، مقتصرين على الوجه الذي وجدوا منه سبيلا إلى الاسترزاق على ما أحدثوا فيه وابتدعوا، فعكسوا الأمر وخالفوا السنة ووقعوا في المحظور من عدة وجوه، هذان الطرفان مذمومان والعدل هو الوسط الذي لا يهمل هذا ولا ذاك، ويقف في الوارد عندما ورد، ويتناوله على ما ورد[3].

ونزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثال الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين، لأن الوصف المذموم سواء أكان المتصف به مؤمناً أم كان كافراً، فالذين تتلى عليهم الآيات القرآنية

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 329).

(2) المصدر نفسه (1 / 330).

(3) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 223).

والأحاديث النبوية وتفصح لهم الدلائل الشرعية وهم عنها معرضون، وعن تدبرها غافلون وبها متهاونون . ويزدادون بكل مرة إثماً بإعراضهم وغفلتهم وتهاونهم ؛ فيخسرون بقدر ما يفوتهم من الهداية على حسب حالهم وإذا لم يكن خسارهم كخسار الكافرين فهو كخسار المعرضين الغافلين المتهاونين وكفى به خساراً يتنزه عنه المؤمنون و يأباه الراشدون[1].

نتناول القرآن العظيم دواءٌ من عند ربنا، شفاءٌ لأمراض عقولنا وأمراض نفوسنا وأمراض مجتمعنا، فنتطلب ذلك منه بتدبر آياته وتفهم إشاراته ووجوه دلالاته، وشفاءٌ أيضاً لأبداننا، فنفعل كما كان يفعل النبي (ص) إذا أوى إلى فراشه على ما تقدم في حديث عائشة رضي الله عنها وعلى ما جاء من نحو ذلك مما ثبت عنه عليه واله الصلاة والسلام، وانتهى إليه علمنا، غير مقصرين ولا غالين وعلى ربنا متوكلين، سائلين أن يشفينا بالقرآن الكريم أجمعين امين يا رب العالمين[2].

هذه بعض الملامح والمسارات العامة في التربية الروحية التي اهتم بها ابن باديس في نشاطه ودعوته وتربيته وإعداده للشعب الجزائري.

### 3 . التربية الأخلاقية:

لقد أحيا ابن باديس للجزائريين أخلاقهم الإسلامية واستنبطها من القرآن الكريم وأصلح بها نفوسهم. وإذا تتبعنا تفسيره لايات الأخلاق في القرآن الكريم وجدنا لديه مذهباً متكاملاً لا يعالج فيه الأخلاق من الجانب النظري والفردي فقط، بل يعالج على أساس ديني واجتماعي واقعي، ومنهج ابن باديس في التربية الأخلاقية يعتمد على بساطة الأسلوب ودون اللجوء إلى مصطلحات فلسفية معقدة، ويبين بكل وضوح أن الدين والأخلاق يوجبان على الإنسان، أن يهتم بإصلاح نفسه أكثر من اهتمامه بجسمه وأن صلاح الإنسان

(1) المصدر نفسه (1 / 223).

(2) المصدر نفسه (1 / 234).

وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها وما فلاحه إلا بزكاتها طبقاً لقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس : 9 . 10].

ومع ذلك فإن ابن باديس يؤكد على ضرورة التكافؤ بين الجسم والنفس، وهذا ما جاء به الإسلام من ضرورة الجمع بين الدين والدنيا، ثم يربط ابن باديس صلاح الفرد بصلاح المجتمع لتحقيق ما جاء به الإسلام من أن إصلاح النفوس يكون بالتزام شريعة الحق والخير والعدل، والكف عن الظلم والشر والباطل. وخير علاج لإصلاح النفوس هو الرجوع إلى رحمة الله تعالى وإلى القرآن الكريم الذي يؤكد أن الله تواب رحيم لأن الإنسان مفطور على الخطأ، ومن هنا وجبت المداومة على إصلاح النفس، وهنا استطاع ابن باديس أن يظهر الأمل في نفوس الجزائريين لكي يحرروا أنفسهم من الاستبداد بشكله الواسع، سواء أكان من رجال التصوف «المنحرف المرتبط بفرنسا»، أو من الاستعمار.

ويبدو أن منهج عبد الحميد بن باديس في الربط بين الدين والأخلاق هو المسلك العملي والواقعي[1].

ومثلما عمل ابن باديس على تطهير عقيدة الجزائريين بالقرآن الكريم، وتحرير الفقه من أسر المتون والفروع وردِّه إلى المنبع القرآني ؛ عالج الافاق النفسية والاجتماعية أيضاً بالقرآن الكريم، وتناولها من هذا الجانب، فأرشد طلبته والجماهير الغفيرة التي كانت تحضر دروسه إلى ما يعتري أخلاق الأمة من نقص، وما يشيع فيها من مساوأئ وأثر ذلك كله في الفرد والمجتمع، وطرح عليهم البديل الإيجابي من القرآن الكريم الذي يتضمن بين دفتيه موسوعة رائعة من الأخلاق الفاضلة والخلال الحميدة: بيّن القرآن الكريم مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوأئ الأخلاق ومضارّها، وبيّن السبيل للتخلي عن هذه والتحلي بتلك مما يحصل منه الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة[2].

وهو يقرِّر أنه لا شفاء للأمراض التي تصيب العقائد والأخلاق، فتقتل الفاعلية والإيجابية في الأفراد

(1) الحركة الإصلاحية، محمد طهاري ص 47.

(2) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير ص 282.

والمجتمعات، إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم، ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضاً[1].

ويقول: النفس الكريمة هي التي كملت بمحاسن الأخلاق التي تتكون منها إرادة قوية في الفعل والترك تملك بها زمامها[2].

وهذه النفس الكريمة لا تتأتى للإنسان إلا إذا تناولها بالتصفية والتحلية بالخصال الحميدة التي بسط القرآن الكريم أوصافها، وحث المؤمنين على الأخذ بها بعد تنقيتها من الذنوب التي تفسد صلاح القلوب، ولا يتم ذلك إلا بتدبر آيات القرآن الكريم التي تطهر النفس من الذنوب وتزينها بمكارم الأخلاق: المذنبون مرضى القلوب، فإن القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، فكل معصية يأتي بها الجسد هي من فساد في القلب ومرض به، وأن الله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القران، فقال عز وجل: {قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس : 57].

فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به بألفاظه ومعانيه[3].

**أ. ملامح الفكر التربوي الأخلاقي:**

**. ضرورة الاهتمام بالإنسان:**

كهدف رئيسي عام، علماً وعملاً وفكراً وسلوكاً، وهذا الاهتمام يتمثل في ضرورة التعليم المدرسي والتعليم بالقدوة وتنظيم الجماعة وخلق الوعي العام.

وفي هذا يقول ابن باديس: العلم قبل العمل، ومن دخل العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال، وقال أيضاً: إن ما نأخذه من الشريعة المطهرة علماً وعملاً فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية، والمثال الكامل على ذلك هو حياة

---

(1) المصدر نفسه ص 227.

(2) استراتيجية ابن باديس في تدبر القران، د. محمد زرمان ص 78.

(3) استراتيجية ابن باديس في تدبر القران، د. محمد زرمان ص 79.

محمد (ص) في سيرته الطيبة[1].

واستخدم ابن باديس الوسائل المتاحة لتحقيق التربية الأخلاقية، كإلقاء الدروس والتفسير والاستفادة من جهود العلماء السابقين وتدريس كتبهم كالقاضي عياض صاحب كتاب الشفاء، والإمام الغزالي صاحب كتاب علوم الدين، وغيرهم، واهتم بالتذكير والدعوة للتفكير.

ويعلل ابن باديس أهمية العقل في إتمام عملية التذكير والتفكير في الاء الله واثاره، وملاحظة التغيرات الاجتماعية وأطوار الأمم فيقول: إن العقول في حالة البعد عن التفكر والتذكر كثيراً ما تكون مغلولة بقيود أهوائها، محجوبة بحجب غفلتها، فتعمى عن تلك الدلائل والاثار، ويكون تورطها في كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك الاثار، كما أن التذكر هو عملية تفكر وتأمل في دلائل العظمة والوحدانية، ولذا فإن تمام التوحيد لا يكون إلا بالتفكر في سر دلائل الربوبية والألوهية وإفراد الله بالعبادة، لأن توحيده في ربوبيته يقتضي العلم بأنه لا خالق غير الله ولا مدبر للكون ولا متصرف فيه سواه[2].

**. شمولية الإصلاح التربوي:**

أي أن يكون الإصلاح كلي لا جزئي، ويتناول كل ميادين التوجيه الأخلاقي والثقافي والسياسي للفرد، لأن الانصراف لإصلاح جانب واحد هو الفرد أو المجتمع لا يؤدي إلى إصلاح حقيقي، بل يؤدي إلى التخريب والهدم، ولهذا فإن تحقيق هذه الشمولية يتطلب:

. موقف حاسم من عناصر الهدم الأخلاقي والديني والاجتماعي ورسم الخطوات اللازمة.

. إثبات مدى الارتباط بين الفكر والسلوك، والاعتقاد والعمل، وأكد ذلك بدليل تاريخي على اعتبار أن المنهج الذي نجح به المسلمون الأولون في تغيير العالم إنما هو سلوكهم وتطبيقهم الإسلام على أنفسهم قبل غيرهم في الحياة.

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 61).

(2) المصدر نفسه (1 / 61).

ـ ضرورة تعاون الإرادة والفكر والعمل، فهذا التعاون سبيل بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة ظاهراً وباطناً، يقول ابن باديس: إن الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم وقوة الإرادة والفكر والعمل، فهي أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد.. وحياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاثة: الإرادة والفكر والعمل، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد للإنسان منها، فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصحيح والإرادة القوية من الخلق المتين والعمل المفيد من البدن السليم، ولهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة: عقله وخلقه ودينه، ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم[1].

ـ الاهتمام بالجانب النفسي، وهو ما يسميه ابن باديس بالجانب الباطني، وهذا الجانب هام لأن الباطن عنده أساس الظاهر، وإصلاح النفوس هذا يتطلب:

ـ الاعتماد على الحجة والإقناع والمصارحة والدعوة بالتي هي أحسن ووضع التكاليف والأوامر الإلهية المتوجهة للنفس الإنسانية في صورة وصايا أخلاقية تدعو إلى التحلي بالصبر والثبات والصدق والرحمة والمحبة، لأن ذلك سبيل تحقيق الصفاء والراحة للنفس، وفي هذا يحذر ابن باديس من وسائل العنف والشدة، لأن إصلاح النفوس، لا يكون بالشدة، بل بالرفق والصراحة والصدق والتوبة، ويحذر ابن باديس حتى من استخدام أسلوب التقريع الذي ينفر الناس عند الوعظ ويمنع تقبل النصائح.

ـ ضرورة النظر في النفس وفهمها وإصلاحها فذلك أمر إلهي ومطلب إنساني، ولذا يعتبر ابن باديس أن العناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، لأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، استشهاداً بقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس : 9 . 10].

---

(1) آثار ابن باديس (1 / 104)، عبد الحميد بن باديس آراؤه الفلسفية (1 / 63).

ويرى ابن باديس أن فهم النفوس وإصلاحها دعوة إلهية، لأن الله تعالى أمرنا بالنظر في النفوس لفهمها وتوجيهها، قال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ *} [الذاريات : 21].

وقال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس : 7 . 10].

. القرآن الكريم هو القاعدة الأساسية لبناء الفكر وتوجيه السلوك، وذلك يعني أن التربية والإصلاح تكون بما في القرآن من علم ومعرفة والتزام بتعاليمه وتطبيق لمنهجه والتعمق في فهم قوانين النفس البشرية وسنن الاجتماع الإنساني وتطور تاريخ الأمم، كما يعني ضرورة الاقتداء بالنبي (ص) الذي كان خلقه القرآن، وينطق بالصدق والوحي والبيان، وهذا كله في معنى قول ابن باديس: أننا نربي تلاميذنا على القرآن من أول يوم(1).

لقد ساعدَ ابنَ باديس في نجاح مشروعه محبةُ الشعب الجزائري للقران الكريم، واحتلاله في قلوبهم مكانة مقدسة لا تعلوها مكانة، فقد استطاع المصلح الكبير إزالة تراكم الجهل، وقارع الاستعمار، وربط شعبه بالتغذية الروحية والعقلية والنفسية والقلبية..الخ المستمدة من كتاب الله عز وجل، فتحقق قول أحمد شوقي في ابن باديس عند ما قال:

فعلِّم ما استطعت لعلّ جيلا　　　سيأتي يحدث العجب العجاب

**ب . منهج التزكية الأخلاقية:**

لقد حرص ابن باديس على صياغة القيم والفضائل الأخلاقية في صورة منهجية وفق قواعد عامة معروفة، ثم في صورة نداءات ووصايا يمكن أن تتحول إلى قالب تعليمي وإرشادي يسهل التعريف به والدعوة إليه، وكان يردد تلك النداءات في محاضراته ومقالاته وتفسيراته واثناء رحلاته أيضاً، فاستطاع بذلك أن يحول قيم الرحمة والعدل والمساواة والحق والصدق والحب والتسامح وغيرها ، إلى برنامج عمل إصلاحي أو نظرية متكاملة في

(1) المصدر نفسه (1 / 64، 65).

كيفية إصلاح الإنسان وبنائه وتقويمه، وقدمها، كنموذج للأخلاق العملية التي تقوم على أساس ديني وإجتماعي.

ووضع ابن باديس مبادئ الأخلاق الإسلامية في صورة وصايا يجب اتباعها والعمل بها، وبيَّن مدى فائدة الاقتداء والامتثال لهذه الوصايا فقال: إن من يتمسك بها يكون إنسان المدنية ورجل السياسة، وسيداً حقيقياً، يُرمق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم، كما قدم هذه الوصايا بقوله: هناك اداب تقتضيها إنسانيتك يفرضها عليك دينك وتستدعيها مصلحتك في هاته الحياة، ومن هذه النداءات: ثق بأن سياسة الصدق والصراحة والإخلاص المرتكزة على الحب والعمل والتعاون ؛ لا بد وأن تظهرك أمام العالم بمظهرك الحقيقي رغم كل الغيوم التي ينشرها حولك خصومك ومنافسوك، فتعطيك إذن حقوقك، فبالصدق والصراحة، والإخلاص تحيا طيبة بجميع أبناء العالم العاملين المخلصين[1].

ووضع ابن باديس مجموعة من القواعد الواجبة الالتزام والتنفيذ، كإطار عام لمنهجه في التربية الأخلاقية:

**القاعدة الأولى: الالتزام بالمنهج القرآني:**

أكد ابن باديس على أن صلاح الإنسان وفساده متوقف على مدى فهمه واتباعه لمبادئ الأخلاق الإسلامية والقران ومعانيه والإمتثال لأوامره والبعد عن نواهيه ؛ فبذلك وحده يمكن الاعتماد على المبادئ الأخلاقية العليا والتي بدونها لا يتغير المجتمع أو أخلاقه[2].

**القاعدة الثانية: الجمع بين النظر والعمل:**

وهي قاعدة عامة للإصلاح الأخلاقي، لأن تطبيق الأخلاق له الأثر المباشر والمؤثر في إنماء الوعي والتفكير مع الشعور بأهمية الوجود والتطور والحياة،

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 178 . 179).

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 38).

وحسن عاقبتها، ومن هنا كان شفاء النفوس والعقول بالقرآن، فالمطابقة بين الظاهر والباطن، والتلازم بينها عقداً وقولاً وعملاً ؛ ضرورة لتصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، وبها تكون سلامة الأرواح وكمالها وعليها قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها[1].

**القاعدة الخامسة: المطابقة بين العلم والدين:**

بيّن ابن باديس ضرورة تأسيس الأخلاق على العلم والدين معاً. فقد وضح:

. أن الدين أساس الأخلاق وكذلك العلم الصحيح والخلق المتين، فهما الأصلان الذان يبنى عليهما كمال الإنسان، وإن العلم أساس الأخلاق لأنه الأصل وهي الفرع.

ـ أن اتباع الخلق القويم هو سبيل رفعة قدر المسلمين وقدرتهم، تلك القدرة التي تزداد تباعاً بالجمع بين عقائد الدين الواضحة والأخلاق الطيبة والعلم بها على حقيقتها.

. أن العلم هو الإمام المتبع في الأقوال والأعمال والاعتقادات، وأن التمسك به ضرورة حتى تكون عقائدنا حقاً وأقوالنا صدقاً وأفعالاً سداداً.

. أن الاعتماد على العقل ضرورة لكي يتجنب الناس ما هم فيه من شر، وليس صعباً ؛ لأن الله قد وهبهم الدين والعقل، فديننا دين الرحمة والاتحاد والخير، إنه الدين الذي يعلّمنا ألا نتحد على الشر أبداً ولا نضمره لأحد من الناس، كما لا نقبله من أي أحد منهم كائناً من كان[2].

**ج ـ الفضائل الأخلاقية عند ابن باديس:**

اهتم ابن باديس في تفسيره لآيات القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام ببيان أهم الفضائل الأخلاقية المستمدة من المصادر النقلية، وفي مقدمتها الرحمة، والعدل والمساواة والأمانة والصدق والإحسان والبر إلى

(1) المصدر نفسه (1 / 127).

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 42).

اليتامى والمساكين والبر إلى الوالدين والجهاد في سبيل الله والحب والتسامح والصبر والثبات والإيثار والوفاء بالعهد وغيرها، وذلك عند تفسيره للعديد من الآيات القرآنية[1]، وإليك بعض الأمثلة:

فعندما فسَّر آخر الآيات من سورة الفرقان قال: القرآن يصف عباد الرحمن:

**. الصفة الأولى والثانية:**

قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا *} [الفرقان : 63].

اشتملت الآية على بيان الأدب في معاملة الجاهلين من أفراد الناس، أكانوا مسلمين أم غيرهم، وما اشتملت عليه من الأدب قد جاء في آيات كثيرة مثل: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ *} [الأعراف : 199].

وقوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ *} [القصص : 55].

فهو أدب مشروع مؤكد، وحكم دائم محكم، وهو في معاملات الأفراد كما نرى، فلا ينافي ما شرع من الحرب عند وجود أسبابها وتوفر شروطها بين الأمم والجماعات، وهي من الأمور العامة كما ترى، فبطل قول من زعم أن هذه الآية بالنسبة لغير المسلم وهي منسوخة باية السيف، لأن هذه الآية ثابت حكمها في حال واية السيف ثابت حكمها في حال أخرى، فلا تنسخ إحداهما الأخرى، وما أكثر ما قتلت أحكام باية السيف هذه، وهي عند التحقيق غير معارضة لها لمباينة حالها حالها[2].

وقال: القول السلام محمود ومطلوب في كل حال، وإنما خصت حالة خطاب الجاهل لأنها الحالة التي تثور فيها ثائرة الغضب بما يكون من سفهه ومهاترته، فعلى المؤمن أن يكون حاضر البال بهذه الآية عندما

(1) المصدر نفسه (2 / 42).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 429).

تسوق إليه الأقدار جاهلاً فيخاطبه بما لا يرضيه حتى يسلم من شره، ويكسر من شرته، فيسلم له عرضه ومروءته ودينه، ويسلم ذلك الجاهل أيضاً من اللجاج في الشر، والتمادي فيه، فيكون المؤمن بقوله السلام وتأدبه بأدب القران، قد حصّل السلامة للجميع وأعظم به من فضل وأجر في الدنيا والدين، وفقنا الله لذلك والمسلمين أجمعين(1).

**الصفة الثالثة:**

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا *} [الفرقان : 64].

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يحيون الليل فيبيتون يصلون لربهم يوافون بين السجود والقيام. هذه الآية من آيات الحث على القيام مثل قوله تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [السجدة : 16].

وقد بينت السنة المطهرة مقداره، فثبت في الموطأ من طريق أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ـ (ص) ـ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدي عشرة ركعة يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً. والسلام بعد كل ركعتين لحديث «صلاة الليل مثنى»، وثبت عند مسلم من طريق سعد بن هشام عنها أنه كان يفتتح صلاته بالليل بركعتين خفيفتين، فتلك ثلاث عشرة، وقد ثبت ذلك في الموطأ من طريق عروة عنها قالت: كان رسول الله ـ (ص) ـ يصلي الليل ثلاث عشرة ركعة، وهذا هو الغالب من أحواله، وقد كان يصلي أقل منه في بعض الأحوال، فقد ثبت عند البخاري من طريق مسروق عنها أن صلاته صلى الله عليه واله وسلم بالليل سبع وتسع وإحدى عشرة سوى ركعتي الفجر، ومثل ما جاء عن عائشة من انتهاء ركعاته إلى ثلاث عشرة.

جاء في الموطأ من حديث ابن عباس وجاء فيه أيضاً من حديث زيد بن خالد الجهني، وفي هذه السنّة

(1) المصدر نفسه (1 / 441).

العملية الثابتة بيان للقدر الأكمل الذي يكون به العبد ممن يصدق عليهم هذا الوصف من صفات عبد الرحمن(1).

**الصفة الرابعة:**

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *} [الفرقان : 65 . 66].

ومن صفاتهم أنهم يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم، لأن عذابها عذاب شديد فادح ملحّ ملزم، ولأنها بئست المستقر الذي يستقر ويثبت فيه وبئست فيه وبئس المقام الذي يقام ويمكث فيه(2).

وقال: إن جهنم هي أقبح مستقر وأقبح مقام، وإن الدنيا هي مطية الاخرة، فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا ساء كذلك مستقره ومقامه في الاخرة وإن ملازمة العذاب في الاخرة على قدر ملازمة المعاصي في الدنيا، فمن لازمها بالكفر ومات عليه ؛ دامت له تلك الملازمة، ومن لازمها بالإصرار على الكبائر، كانت له على حسب تلك الملازمة، فعلى العاقل أن يحسن مقره ومقامه، وأن يتجنب كل موطن تلحقه فيه الملامة، وأن يجتنب مجالس السوء والبدعة ويلازم مجالس الطاعة والسنة، وأن يسرع بالتوبة مفارقاً الذنوب، وأن لا يصر على شيء من القبائح والعيوب، وأن يكون سريع الرجوع إلى الله ولو عظم ذنبه وبلواه فالله يحب التوابين ويغفر للأوابين، جعلنا الله منهم أجمعين، آمين(3).

**الصفة الخامسة:**

قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا *} [الفرقان : 67].

قال ابن باديس: الإسراف مذموم فهو ما كان في منهي عنه نهي تحريم أو كراهة، أو في مباح قد يؤدي إليهما، فالأول كمن أوْلم وليمة، أنفق فيها جميع ماله، وأصبح بعدها هو وأهله للضيعة والحاجة، والثاني كمن

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 445).

(2) المصدر نفسه (1 / 445).

(3) المصدر نفسه (1 / 445).

أوْلم وليمة دعته إلى الاستدانة، وإن كان يظن القدرة على الأداء، لأن الدين محذر ومستعاذ منه، والثالث: كالاستمرار على إيلام الولائم مع القدرة عليها في الحال مما قد يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين في المال.

والتقتير مذموم أيضاً، فهو ما كان إمساكاً عن مأمور به أمر وجوب، أو استحباب، وعن مباح يؤدِّي إليهما، **فالأول**: كمن يمسك عن أهله شحاً حتى يضيقهم ألم الجوع والبرد.

**والثاني**: كمن لا يذيقهم بعض الطيبات التي يخص بها نفسه من السوق.

**والثالث**: كمن يمسك عن تطييب خاطر زوجته ببعض الكماليات مع قدرته عليها مما قد يفسد قلب زوجته عليه أو يحملها على ما لا يرضيه.

والقوام العدل هو الممدوح، فهو أن ينفق في الواجب والمندوب وما يؤدي إليهما، ويمسك عن المحرم والمكروه وما يؤدي إليهما، ويتسع في الحلال دون مداومة في الأوقات واستيفاء لجميع اللذات واستهتار بالمشتهيات[1].

**الصفة السادسة والسابعة والثامنة:**

قال تعالى: {وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ} [الفرقان : 68].

قال ابن باديس: لما أثبت لهم أصول الطاعات في الآيات المتقدمة نفى عنهم أمهات المعاصي في هذه الآية تنبيهاً على أن الإيمان الكامل هو ما تثبت معه الطاعات وتنتفي المعاصي، وذلك هو غاية الامتثال للأوامر والنواهي، وفيه تعريض لما كان عليه المشركون من الاتصاف بهذه المعاصي من دعائهم الهتهم مع الله وقتلهم النفس وارتكابهم فاحشة الزنى. وقدّم إثبات الطاعات على إنتفاء المعاصي تنبيهاً على أن من راض

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 466).

نفسه على الطاعة ودانت نفسه بالإخبات والانقياد للأوامر الشرعية ضعفت منه أو زالت دواعي الشر والفساد، فانكف عن المعصية[1].

فمن هنا نعلم أن على المسلم الذي يعمل لتزكية نفسه ؛ أن يواظب على الطاعات بأنواعها وأن يجتهد في حصول الأنس بها والخشوع فيها، فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه[2].

ويبين ابن باديس وجه ترتيب هذه الصفات المنفيات، فقال: قامت الشريعة على المحافظة على حقوق الله وحقوق عباده، وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فمن دعا مع الله غيره، وأشرك به سواه، فقد أبطل حق الله وأعدم عبادته، ومن قتل النفس فقد تعدى على أول حق جعله الله لعباده بفضله وهو حق الوجود، وعمل على إبطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم، فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير الله معه، ولما كان الزنى فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد وذلك مؤد إلى الاضمحلال والزوال والشرور والأهوال قرنه بقتل النفس فذلك قتل حقيقي، وهذا قتل معنوي[3].

ومعنى الآية: والذين لا يدعون ولا يعبدون مع الله إلهاً آخر فيشركون به سواه في عبادتهم إياه، ولكنهم يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة ويوحدونه في ربوبيته وألوهيته، ولا يقتلون النفس التي جعل الله لها حرمة وحرم قتلها بالسبب إلا الحق الثابت في دين الله المعارض لحرمتها المقتضي لقتلها بالزنى بعد الإحصان أو الكفر بعد الإيمان أو القتل للنفس العمد العدوان، ولا يزنون فيأتون ما حرم الله عليهم إتيانه من الفروج[4].

ولما ذكر سبحانه نفي تلك المعاصي عن عباد الرحمن بيّن الوعد بالعذاب الشديد لمن يفعل تلك المعاصي

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 468).

(2) المصدر نفسه (1 / 469).

(3) المصدر نفسه (1 / 469).

(4) المصدر نفسه (1 / 470).

فقال: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً *} [الفرقان : 68 . 69].

والقرآن الكريم إذا نهى عن شيء ذكر مضرته وسوء عاقبته للعباد في الدارين، وإذا أمر القرآن بشيء ذكر فائدته وثمرته عليهم فيهما[1].

هذه هي سنة القرآن في التربية وهي أنجح الطرق في جعل المأمور والمنهي يمتثل للأمر والنهي في كل نفسه، ويعمل لتنفيذها بعقله وإرادته، فالتربية التي تنبني على امتثال الأمر والنهي من غير المعصوم والانقياد لهما إنقياداً أعمى، مخالفة لتربية القران، والخير كله في اتباع القرآن في جميع ما يفيده القرآن[2].

والقران يذكرنا بمضاعفة العذاب على كبائر الاثام، لنذكر عندما تحدثنا أنفسنا بالمعصية سوء عاقبتها وتعدد شرورها وتشعب مفاسدها ومضاعفة العذاب بحسب ذلك عليها لنزدجر ونكف فنسلم من الشر المتراكم والعذاب المضاعف ونفوز بأجر التذكر وثمرة التذكير. جعلنا الله والمسلمين ممن انتفع بالذكرى وسلم من فتن الدنيا والاخرة بمنه وكرمه آمين[3].

ولما ذكر تعالى عظائم الذنوب وأكبر كبائرها وتوعد بالوعيد الشديد عليها، عقّبها بذكر التوبة منها ورغب فيها لينبه عباده على طريق الرجوع إليه، وإن من تاب منهم إلى الله تاب الله عليه[4].

قال تعالى: {إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [الفرقان : 70].

يُستثنى من ذلك الوعيد بمضاعفة العذاب والخلود فيه مهاناً ؛ من رجع إلى الله من الشرك وقتل النفس والزنى بالتوبة الصادقة وشفع توبته بالعمل الصالح الدال على صدق تلك التوبة، فهؤلاء بتوبتهم وعملهم

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 472).

(2) المصدر نفسه (1 / 473).

(3) المصدر نفسه (1 / 474).

(4) المصدر نفسه (1 / 475).

الصالح يقبلهم الله ويجعل مكان سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً، ويتجاوز عن ذنوب عباده، فقد تجاوز عما كان منهم من شرك أو قتل أو زنا رحيماً منعماً على عباده فقد أنعم عليهم بالحسنات مكان ما تقدم من سيئاتهم[1].

دعا الله بهذا عباده المذنبين حتى لا يتسرب القنوط إلى قلوبهم، وهو محرم عليهم، ولا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب وإن عظم، ورغّبهم في التوبة بأنها رجوع إليه وكفى، وإن الرجوع إليه فيه من الخير والشرف فوق ما تصوره الألفاظ، فما أحلمه من رب كريم وما أرحمه بعباده المذنبين[2].

**الصفة التاسعة:**

{وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ} [الفرقان : 72].

لما وصفهم بالصفات المتقدمة الدالة كلها على كمال أخلاقهم واستقامة أعمالهم في ظواهرهم وبواطنهم، بإنبائها على قوة إيمانهم وصحة عملهم، فاكنوا أهل الحق المتصفين به في عملهم وعلمهم القائمين عليه في جميع أحوالهم، وصفهم هنا ببعدهم عن الباطل ومشاهدته، ومجانبتهم لأهله[3].

فهم لا يحضرون مشاهدة الباطل والإثم من كل مجلس تتعدى فيه الحدود، أو تنتهك فيه الحرمات، أو يحكم فيه بالجور، أو تعظيم فيه الطواغيت، أو يدعى فيه بدعوى الجاهلية، أو تحيا فيه معالم الوثنية، أو تطمس فيه السنة النبوية، أو يدعى فيه أحد مع الله، أو يضرع إلى سواه. والاحتمال الاخر: والذين لا يشهدون شهادة الزور: لا يخبرون إلا بالحق الواقع[4].

**الصفة العاشرة:**

. قال تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا *} [الفرقان : 72].

والمعنى وإذا مروا في طريقهم بقول أو فعل يفعل مما لا فائدة فيه جاوزوه معرضين عنه أزكياء غير متدنسين بشيء ولا ملتفتين لأهله.

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 476).

(2) المصدر نفسه (481/1).

(3) المصدر نفسه (1 /482).

(4) المصدر نفسه (1 / 483).

وفي الإقبال على اللغو شغل للبال به، وتكدير للخاطر بظلمته، وتضييع للوقت فيه، ولكل كلمة تسمعها أو فعلة تشهدها أثر في حياتك وإن قلّ، وقد يعقبها ضدها فتزول بعد ما شغلت وعطلت، وقد يردفها مثلها فتثبت وتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين، وبقدر ما تلتفت إلى اللغو تلتفت عن كرمك، وبقدر ما يعلق بك منه ينقص من ذكائك، وبقدر ما تتساهل بالوقوف عليه تقرب من الدخول فيه، وإذا دخلت فيه واستأنست بأهله جرَّك إلى الزور وعظائم الأمور، وللشرِّ أسباب متواصلة وأنساب متصلة يؤدي بعضها إلى بعض، فينتقل المغرور الغافل من خفيها إلى جليها، ومن صغيرها إلى كبيرها، فالحازم من لم يسامح نفسه في قليلها، ويتباعد كل البعد عنها وعن أهلها، وقد هدتنا هذه الآيات لنهتدي، وذكرت عباد الرحمن لنقتدي. والله المستعان ولا توفيق إلا به[1].

**الصفة الحادية عشرة:**

. قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً *} [الفرقان : 73].

ولما وصفهم فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل، ومجانبتهم لأهله، أو بعدهم عنه وصفهم، بإقبالهم على الحق، وإنكبابهم عليه، متفهمين مستبصرين[2].

فمن صفات عباد الرحمن أنهم إذا ذكرهم مذكر بايات ربهم التي أنزلها على نبيهم ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ بما فيها من ذكر مخلوقاته وإنعامه وأيامه في أوليائه وأعدائه ووعده ووعيده وترغيبه وترهيبه ؛ أقبلوا عليها وأكبوا على سماعها بآذان واعية، وأبصار راعية وقلوب حاضرة، وعقول متدبرة، لا كمن يقبلون عليها ويكبون

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 487).

(2) المصدر نفسه (1 / 487).

على سماعها ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون لأنهم لا يعقلون ولا يتدبرون[1].

**الصفة الثانية عشرة:**

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *} [الفرقان : 74].

لما وصفهم في الآيات المتقدمة بما دل على أنهم أهل خير وكمال في أنفسهم، وصفهم في هذه بما دل على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم أزواجهم وذريتهم ومن سواهم، وقدم الأزواج على الذرية لأنهم ألصق ولأنهم الأصل[2].

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم يسألونه أن يهب لهم أزواجاً وذرية تقر بهم أعينهم بأن يكونوا لهم على ما هم عليه، ويسألونه أن يكونوا على أكمل حال في العلم والعمل والاستقامة يقتدي بهم فيها المتقون[3].

إن الإنسان مهيأ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي وهو روحه، ومعرض للسقوط والنقصان بما فيه من أخلاط عناصر جزئه الأراضي الظلمائي وهو جسده، ولا يخلص من كدرات جثمانه ولا ينجو من أسباب نقصانه إلا بعباده ربه التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه، فبعبادة ربه يكمل فيرقى في مراتب الكمال، ويدنو من الملأ الأعلى عند الرب الأعلى ذي الجلال والإكرام، فالله طيب وإليه يصعد الكلم الطيب، ولا طيب ولا كمال إلا للعابدين، فلا قيمة ولا قبول لغيرهم عند رب العالمين[4].

### 4 . التربية الاجتماعية:

رأى ابن باديس أن المدخل لتحقيق الإصلاح الاجتماعي الشامل هو تحقيق الوعي القائم على العلم

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 488).
(2) المصدر نفسه (1 / 491).
(3) المصدر نفسه (1 / 494).
(4) المصدر نفسه (1 / 505).

والفضيلة لكافة طبقات الشعب، وأن هذا الوعي هو السبيل لانتشار الأخلاق واستلهام القدوة الصالحة في كل مجال والمثل الأعلى الأخلاقي لمواجهة نواحي النقص وعلاج المفاسد الاجتماعية ومواجهتها والقضاء عليها، وفي مقدمتها الجهل والجمود وما يتبعها من مفاسد وتخلف[1].

لقد تسبب الاحتلال الفرنسي في تردِّي الأوضاع الاجتماعية للأفراد والمجتمع الجزائري، وما أن وطئت أقدام المحتل الفرنسي الأراضي الجزائرية حتى استحالت حياة الناس إلى جحيم من الفقر والفاقة والعوز، والبطالة والحاجة، وانتشرت بينهم الأمراض العضوية والنفسية والاجتماعية، وهذا ما عبَّر عنه أحد الأوربيين الذين زاروا الجزائر في مطلع القرن العشرين:

إن الحياة التي يحياها الجزائريون هي حياة لا يمكن وصفها بغير البائسة والحقيرة، هذا الشعب الذي كان بالأمس السيِّد المتصرف فيما يملك، أضحى اليوم نتيجة لوجود الفرنسيين على أرضه كالعبد الذليل ينتظر اللقمة التي تُرمى إليه ليسدَّ بها رمقه من الجوع، الحياة البائسة جداً، الناس يعانون من المرض والأوبئة، والأمراض الجلدية تنتشر بصورة مخيفة بين الناس الصغار والكبار، وقليل من الناس يحظون بفرصة العلاج والدواء، لقد تنقلت في أرجاء متفرِّقة من الجزائر، ورأيت مشاهد فظيعة لشعب فقير بائس يسير ببطء نحو الفناء، الأسر الأوربية والفرنسيون يستأثرون بالمال والثروة والطعام والأرض، وأهل الأرض طردوا منها إلى الصحراء حيث الجدب والأرض القاحلة[2].

ومع هذا الدمار فقد جلب الاستعمار معه العادات والافات السيئة باختلافها مما يفضي إلى الفوضى والتسيُّب والفلتات الذي يكون المناخ المناسب لشيوع الرذائل وإنتشار الجرائم والفساد وما إلى ذلك. فقد كانت السلطات الفرنسية تعمل وفق مقاربة اجتماعية، ترمي إلى تشجيع الفساد بما في ذلك تعاطي الخمور

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 88).

(2) بناة المجد، توفيق المدني ص 80.

والبغي وتشجيع المعاملات الربوية التي كانت تجارة رائجة يمارسها اليهود، وسرعان ما انتشرت بين الجزئريين[1].

بالإضافة إلى التساهل والتسامح مع المجرمين والمفسدين والقتلة والمنحرفين، بل إن هؤلاء كانوا واحدة من الأدوات التي تبطش بها القوات الفرنسية، فاستعملتهم كالكلاب المسعورة في إلحاق الأذى بمن يعارضون فرنسا ويناصبونها العداء، وكانت فرنسا تشجع على فتح الخمارات، وتعطي قروضاً وتسهيلات لمن يريد أن يلج هذه التجارة، وانتشرت الرشوة والتواطؤ والتحايل على الناس، سمة من سمات الإداريين الفرنسيين وغير الفرنسيين.

وأمام هذا الوضع الاجتماعي المتدهور قام ابن باديس وشيوخ جمعية العلماء بالتصدي للافات والكبائر والمحرمات، بتوعية الناس وفق أسلوب الدعوة والنصيحة والوعظ، وكتابة المقالات الاجتماعية لتصحيح العادات الخاطئة والغريبة عن المجتمع الجزائري، وكانت مقالات ابن باديس والإبراهيمي في مجال محاربة الفساد أنموذجاً لهذه الالية، وقد كانت الدعوة إلى الدين الصحيح باب الولوج إلى حرب شاملة على الفساد.

يقول الشيخ العربي التبسي:.. نعم الدواء لأمراضنا والترياق المجرب لأمراضنا واحد لا ثاني له، وما ذلك الدواء إلا عودتنا تائبين إلى العمل بشريعتنا الإسلامية المعصومة الكفيلة بإسعاد هذا الفرد الشقي وإصلاحه من جميع نواحيه ومداواته من كل أمراضه، كما داوته يوم فسد قبل الان بأربعة عشر قرناً، وأسألوا التاريخ أيها المرتابون عن ذلك إن كنتم في ريب من هذه الحقيقة، الشريعة الإسلامية المحصورة في كتاب الله وسنة رسول الله (ص)، وفهم السلف الصالح لهما دواء للإنسانية في فردها وجماعتها[2].كما أن الشيخ أبا اليقظان وهو الرجل المصلح الذي كان سباقاً إلى إنشاء بنوك أهلية إسلامية لحماية الجزائريين من المعاملات الربوية وإبعادهم عن هذه الآفة التي لا تبقي ولا تذر ؛ شكَّل وجهاً من وجوه الإصلاح الاجتماعي الاقتصادي لمواجهة الفساد

---

(1) المصدر نفسه ص 82.

(2) المصدر نفسه ص 78.

في المعاملات، فهو يرى أنه من الضروري أن يعتمد الأهالي على تحصيل أرزاقهم بأنفسهم، وألا ينتظروا فرنسا أن تطعمهم، فهي تسرق أقواتهم فكيف يشغل جوعُهم بالها؟

كما دعا الأثرياء من المجتمع الميزابي إلى إقامة بنك أهلي إسلامي غير ربوي، يكون سنداً للناس في نشاطاتهم بهذه الناحية، ويبعدهم عن الحرام الذي تريد فرنسا جرَّهم إلى التعامل به، وقد غضبت السلطات الفرنسية كثيراً لذلك واستدعته شرطتُها للتحقيق والمساءلة وقد برَّر ذلك بقوله: بيَّنت أنه يجب تأسيس ذلك البنك الأهلي على القواعد الإسلامية خلاف ما عليه البنوك الحديثة، ويسرُّنا من جهة أخرى أن يدخل الشباب المسلمون البنوك الأجنبية حتى يتعلموا النُّظُم المالية لإدارة المصارف بفنون حديثة.

ومن بين المظاهر الاجتماعية التي تفشَّت بين بعض الأسر الجزائرية ظاهرة السرف المالي التي لم يهملها الشيخ مبارك الميلي وأفرد لها اهتماماً ودرساً مفصَّلاً في مجموعة مقالات نشرها عن الموضوع منها قوله: عاقبة السّرفِ الماليّ في الاخرة أن يُلقى بصاحبه في النَّار، وعاقبته في الدنيا أن يُلقى به في المتربة والصَّغار. فالسرف الماليُّ أيها السادة هو الذي ألقى بكثير من أسرنا بين أيدي المرابين ؛ إذا ذُكرت لهم الرحمة وأثنيت عليهم حسبوها فينا مُغرماً بكراسي النيابة أو مُبتلى بخصومة العباد أو في معنى هذين. والسرفُ المالي هو الذي وضع بيوتاً كانت ذات مجد وسؤدد، وهو الذي قعد بالأُمَّة الجزائرية عن الاضطلاع بمهامها وشغلها بغيرها[1].

ومن تنوع الافات والأمراض الاجتماعية التي كان على الجمعية مواجهتها وإجتثاثها من المجتمع الجزائري لإصلاح أحوال الناس ؛ كانت الأساليب التي انتهجها شيوخ الجمعية تتنِّوع لكنها تصب جميعها في روافد التوجيه الاجتماعي مع تفاوت نسبي بين أساليبهم، فهناك من يغلب عليه اعتماد الحجاج العقلي ومخاطبة

---

(1) المصدر نفسه ص 88.

الفكر، ومنها ما يغلب عليه الإكثار من توظيف الشواهد والقرائن[1].

وكان ابن باديس متميزاً في قيادة الجمعية وفي خطابه الاجتماعي، وحدد الوسائل والخطوات العملية لتحقيق الوعي والإصلاح في:

**أ . ضرورة الالتزام بالمبادئ السامية الداعية إلى الخير العام**، والتي تبعد الإنسان عن المعاصي والشرور ومفاسد الأخلاق والمجتمع كالميسر والبطالة والخمور والفجور، فتلك المفاسد هي التي تفسد على الناس عقولهم وتضيع أموالهم وتتلف أبدانهم.

ويرى ابن باديس أن التنفيذ العملي لهذه الخطوة يمكن تحققه عند الالتزام بالعلم والفضيلة والبعد عن عوامل الجهل والرذيلة، ويقول مؤكداً موقفه العملي: لهذا حاربت الجهل والجمود والدجل والخرافة وكل أنواع الأباطيل، وحاربت كل واقف في طريق العلم والتعليم، وكل وجوه السرف وأكل أموال الناس بالباطل، وهذا لن يتأتى إلا في ظل قانون العدالة الإلهية والالتزام بالحق ونصرته حيثما كان، وبإقامة ميزان العدل في القول والحكم والشهادة بين الناس أجمعين المعادين، والموالين، استجابة:

. لقوله تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [الأنعام : 152].

. وقال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء : 58].

ومن هنا كان من الضروري الالتزام بمبادئ العدالة الاجتماعية ومتطلباتها الأساسية، وفي مقدمتها معرفة ماهية الصواب والخطأ والحقوق والواجبات ووجوب الوفاء بالعهود والعقود وبر الوالدين وشهادة العدل وأعمال الخير، ومن العدالة أيضاً وضع المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية، والدعوة إلى الإخاء والمساواة بين الأجناس في المكانة والعمل، ومن العدالة أيضاً حب الخير للناس وللحياة عموماً، وهو ما يعبر عنه ابن باديس بقوله: إننا قوم نريد الحياة لأنفسنا كما نحبها لغيرنا ، ونكره أن ندخل الضرر على أي كان غيرنا، كما لا

(1) المصدر نفسه.

نرضى أن يدخل علينا الضرر، ونحترم لغتنا ومجدنا، كما نحترم لغة ومجد غيرنا، لأننا قوم نحب الخير فلا نحرم منه أحد[1].

**ب . ضرورة الالتزام بالمبادئ التربوية الناجحة،** وتحقيق هذه الخطوة عملياً يتطلب أن توصف هذه المبادئ بالعمومية والشمول، ليتولد عنها الشعور بالانتماء والاهتمام المشترك والحرص على تكامل الشخصية، كما يتطلب انتشار العلم والتعليم وبناء المؤسسات التربوية، وأن يكون الإطار العام لهذه التربية هو الأسلوب النبوي وفق منهج التدرج من الخاص إلى العام، ومن الجزء إلى الكل، ومن الفرد إلى المجتمع، ولكي يحقق ابن باديس الوعي وينشره قام بتحويل المساجد إلى مؤسسات تربوية، وكذلك المدارس والمعاهد والصحف، كما حرص على انتشار الأساليب التربوية القائمة على تدعيم القيم والأخلاق، فكان يقول: على المربين لأبنائنا وبناتنا أن يعلموهم ويعلموهنَّ هذه الحقائق الشرعية الداعية إلى احترام الإنسانية والمساواة والتراحم والتعاطف ليتزودوا وليتزودنَ بها، وبما يطبعونهم ويطبعونهنَّ عليها من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة[2].

ولتحقيق مبدأ العلم والتعليم وفق منهج التدرج من الخاص إلى العام ومن الجزء إلى الكل، قرر ابن باديس: أن المجتمع لا يكون إلا بأفراده الذين يمتازون بالحرص والفناء من أجل مجتمعهم، وأن الاهتمام بالنشء يبدأ من الفرد ثم الأسرة، ثم العائلة ثم القبيلة ثم المجتمع الخاص أو الوطن ثم يمتد إلى الإنسانية أو البشرية بوصفها الوطن الكبير المتكون من ذلك كله، وأن التربية الحقيقية تبدأ بإصلاح نفس الفرد ثم بإرشاد أهله وأقرب الناس إليه من بعدهم . فإذا تحقق ذلك . فلا نلبث أن نرى الخير قد انتشر في الجميع لأن من الأسر تتركب الأمة، وعندما يعني كل واحد بأسرته ترتقي الأمة كلها بارتقاء أسرها، فارتقاء أي كل بإرتقاء أجزائه، ويكون المعتني بأسرته، في الوقت نفسه معتنياً بأمته، وعندما يقصد بخدمة أسرته خدمة أمته يثاب ثواب خادم

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 88).

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 88).

الجميع، أسرته بالفعل، وأمته بالقصد، وكل هذا مما يثاب المرء عليه شرعاً[1].

ـ ولتحقيق مبدأ تكامل الشخصية وفق منهج الاهتمام المشترك، قرر ابن باديس: أن الكمال الإنساني متوقف على التربية السليمة القائمة على العلم أولاً ثم قوة الإرادة والفكر والعمل وهي الأركان الثلاثة التي تبنى عليها حياة الإنسان ولهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه ودينه ودفع المضار عنها، وهذا لا يكون إلا بالتربية، فيثقف عقله بالعلم، ويُقوِّم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى، والتريض على العمل[2].

ويصف ابن باديس كيفية تحقق الوعي بشعور بالانتماء والاهتمام فيقول: لا حياة للشخص إلا بحياة قومه ولا نجاة له إلا بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلا إذا شعر بأنه جزء منهم، ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم، كما يحرص على نفسه، وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها:.. وإنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر، وهذه الجماعة المنظمة القوية هي ناتج الفرد موضوع الاهتمام المشترك، ذلك الفرد الذي يكمل إذا كملت جوانبه الثلاثة: العقلي، والخلقي، والعملي[3].

**ج ـ الالتزام بمعايير النقد البناء:** بوصفها الوسيلة الفعَّالة لتغيير الأنماط الثقافية وتصحيح المفاهيم وتنمية روح المشاركة والتعاون ومواجهة المفاسد الأخلاقية والاجتماعية وتحقيق الترابط الاجتماعي، ولكي يحقق النقد هذه المهام ؛ أكد ابن باديس أن الإطار العام للنقد البناء هو الإطار الأخلاقي ؛ فبه يتحقق الانتصار للحق والعدل والخير ومقاومة الباطل والظلم والشر في جميع المجالات والنواحي:

---

(1) الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة، د. مصطفى حلمي ص 230.

(2) آثار ابن باديس (1 / 105).

(3) ابن باديس: حياته وآثاره (1 / 106 . 111).

وأن مهمة النقد الأولى هي:

في المجتمع العربي عموماً والجزائري على وجه الخصوص، وخاصة تلك التي تعوق التطور الاجتماعي وفي مقدمتها: التخلف الفكري واللغوي، ثم الطرقية بمفاسدها وأفكارها، ثم الاستعمار بتوجهاته وأساليبه، وأن هذه المعوقات أو النقائص الثلاث وليدة أسباب مشتركة ومترابطة لأن التخلف وليد الطرقية والاستعمار، والطرقية وليدة الجهل والتعصب، والاستعمار سبب لكل من التخلف والطرقية، كما أن التخلف والطرقية عاملان يساعدان على وجود الاستعمار واستمراره[1].

**. والمهمة الثانية للنقد:**

عند ابن باديس هي مهمة أخلاقية لأن هدف النقد الأول هو تقويم الأخلاق الذي يتحقق عندما تكون مهمته النظر من الناس إلى أعمالهم لا إلى أقدارهم، ولا يكون للأشخاص فيما يختص بأحوالهم الشخصية، وإنما يتوجه إلى سلوكهم الذي يمس شؤون الأمة، ويكون بنقد الأشخاص الذين يتولون مناصب قيادية كالحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء وكل من يتولى شأناً عاماً، لأن هدف النقد العام هو مناهضة المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين ونصرة الضعيف والمظلوم[2].

**. والمهمة الثالثة للنقد:**

عند ابن باديس هي مهمة إصلاحية تتمثل في السعي لهدم كل فاسد وتنمية كل صالح، وتحقيق ذلك بالوعي الذي ينمي الروح القومية والقوى الابتكارية، وبالنقد البناء الذي يكشف حقيقة الأوضاع أمام الشعب، والعلم بأسباب الانحطاط دينياً، وسياسياً وأخلاقياً، ولهذا كان تأكيد ابن باديس على أن البناء والوعي لا يتم إلا بنبذ التقليد والتعصب للمذاهب ونبذ الاستبداد ومحو الجهل والقضاء على كل عوامل الخلل والضعف والتخلف وفق مبدأ العلّية على أساس أنه إذا زالت العلة بالنقد زال المعلول، وأن علة الفتور والضعف

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 94).

(2) ابن باديس: حياته وآثاره (1 / 82، 83).

هي الخلل الديني الذي لا يعالج إلا بتوجيه النقد البناء وفحص أسباب الداء ووصف الدواء[1].

**د ـ العناية المستمرة بالإنسان**: وتحقيق ذلك عملياً يتطلب حمايته من الافات الاجتماعية واثارها الضارة، ولقد اعتبر ابن باديس أن الطرقية المنحرفة في مقدمة الافات الاجتماعية المعوّقِة للبناء والإصلاح، ولأنها تقوم بعمل ما يحرمه الشرع وينكره العقل.

ولهذا فهي قوة مؤثرة بالسلب على النمو الحضاري للمجتمع، مما جعل ابن باديس يربط بين المعركة ضد التخلف وبين الطرقية من جانبها السلمي، فتصدى لهم وعمل على بيان خطر هذا النوع من التصوف من الوجهتين الدينية والاجتماعية، وخاصة أن القوى الخارجية الاستعمارية كان لها دورها في تحول بعض الطرق عن حقيقة التصوف الإسلامي، فابتعدوا عن الجهاد والزهد الحقيقي وأصبح التصوف عندهم مجرد طقوس وشعوذات، ورغم هذا لم يهاجم ابن باديس التصوف ككل ولم يهاجم جميع الطرق، بل إنه التزم الموضوعية، وميز بين نوعين من الطرقية أحدها إيجابي يعمل من أجل انتشار الدين ويشارك في الجهاد والعمل الجماعي، والاخر سلبي قد انحرف عن أصل الدين ويتعاون صراحة مع الاستعمار ويستسلم للتواكل[2].

وكان موقف ابن باديس العملي في مواجهة هذه الآفة قد بدأ منذ عام 1925م حين بدأ بمعارضة آرائهم في الصحف والتدليل على تهافتها وخروجها عن أصل الدين، ثم مقاومة اتجاههم بتدعيم التربية الروحية والاجتماعية، والتحرر من شوائب التقليد، والدعوة للتعليم المستنير والدين الصحيح، ومن ناحية أخرى حاول تقويم الاتجاهات السلبية لبعض شيوخ الطرق الصوفية وخاصة هؤلاء الذين اشترطوا على جمعية العلماء وعلى

---

(1) المصدر نفسه (1 / 71 ـ 82).

(2) ابن باديس الزعيم الروحي، د. محمود قاسم ص 19 ـ 41.

رأسها ابن باديس أن يهجروا السياسة، وأن يحرِّموا استخدام النظر العقلي والاستدلال، وأن يوافقهم على أفعالهم.

وقد اقترح عليهم ابن باديس أن يعرضوا هذا الرأي على حكم لا يميل مع الهوى وهو الكتاب والسنة، وعندما أيقن من غلوهم وعنادهم رفض الصلح معهم ووصف ذلك بقوله: إننا نعلن لإخواننا أننا على رجاء اليأس من خصوم تضيع معهم حكمة لقمان، ولا يجدي معهم حلم معاوية، ولا يرضيهم عدل ابن الخطاب، ولا تسامح صلاح الدين، وليس لنزاعهم معنا غاية غير كمّ أفواهنا وكسر أقلامنا، ثم إقلاق راحتنا إذا أعجزتهم المقادير عن إزهاق أرواحنا «مشيراً إلى محاولة اغتياله» وليس لهم إلى هذه الغاية غير وسيلتين: إحداهما الوشاية بنا إلى الحكومة بأننا وطنيون ضد الاستعمار وأننا نعمل للجامعة الإسلامية، وثانيهما الاختلاف علينا مع الأمة بأنا ندَّعي الاجتهاد، وأنا نستخف بأمتنا في الدين، وأنا ننكر الولاية والكرامة ؛ لذلك فإنه لا أمل في مثل هذا الصلح وذلك اللقاء[1].

وهذا بالإضافة إلى موقفهم السلبي الضار لأنهم أصبحوا أداة لتخدير الشعب، وصوروا للناس أن الاحتلال الفرنسي وما يفعلونه أنه إرادة الله سبحانه التي لا ترد، كما تزعموا دعوة الاندماج مع فرنسا قائلين: إذا كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك وهو على كل شيء قدير، وإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً، ولكنه كما ترون يمدهم بالقوة وهي مظهر قدرته الإلهية، لنحمد الله ولنخضع لإرادته[2].

**هـ ـ العبادات والمواسم الدينية وأثرها الاجتماعي:**

إن الإسلام أولى اهتماماً بالغاً بالعبادات الإسلامية والمواسم الدينية، لما لها من فاعلية في التأصيل لهذه الظاهرة، وإبراز فاعليتها في تعضيد قوة الفرد، وانتظام أمر المجتمع، وتوثيق عرى الأخوة بين جميع أفراده، وذلك

(1) المصدر نفسه ص 41.

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 96).

من خلال ما تغرس في نفوس الأفراد وحياة الجماعة من معاني التالف والمحبة والطهر، وما تزرع في ضمير الجماعة من قيم التازر والإتحاد، فتحدث ابن باديس في هذا الإطار عن الزكاة كعامل من أهم عوامل التكافل الاجتماعي الذي يفرض على أفراد المجتمع التعاضد والتعاطف فيما بينهم، مما يجعل من واجبات الجماعة كفالة أصحاب الحاجة من معوزين ومعوقين، وفقراء ومساكين وأيتام وأرامل وأيامى، ويضمن المجتمع لهؤلاء جميعاً ما تدعو إليه الحاجة، من أمور حياتهم الخاصة، من تعليم وإيواء وعطف ومواساة، وما إلى ذلك من ضرورات الحياة الكريمة مما تستوجبه رابطة الأخوة[1].

فالمسلم الذي يشعر بأخوة الإسلام شعوراً صحيحاً ويعتقدها اعتقاداً صادقاً ؛ هو الذي يشاطر المسلمين في سرائهم وضرائهم ويشركهم معه فيما عنده من خير[2].

ولم يقتصر في معالجته لهذه الظاهرة والتنوية باثارها الاجتماعية والإنسانية على حدود الوطن الصغير، وإنما بصره على امتداد دار الإسلام والعروبة مهتبلاً مناسبة إحياء أحد المواسم الدينية . ليلة الإسراء والمعراج . فدعا إلى مشاطرة الإخوة الفلسطينيين في القدس الشريف الامهم ومواساتهم فيما يلقون من إرهاب وظلم على أيدي الإسرائيليين الظالمين، ومد يد العون والإغاثة لهم بالدعاء وبالعطاء، فقد: رُمِّلت الالاف من نسائهم ويُتِّم مثلها من أبنائهم، وضاع عجزتهم ومرضاهم فأكلتهم الفاقة وأنهكتهم الأوصاب وأحاط بهم البلاء من كل جانب.. فلنبادر للقيام بالواجب علينا نحو إخواننا نذكرهم بالدعاء وبرفع البلاء والعطاء لتحصيل القوت والدواء[3].

وفي هذا الإطار يغتنم فرصة حديثه عن موسم الحج بحثّ الحجاج الجزائريين على الإحسان إلى إخوانهم

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 83).

(2) المصدر نفسه.

(3) آثار الإمام (5 / 472).

سكان البقاع المقدسة بما يخفف عنهم ما يعانون من جهد ومشقة واحتياج[1].

وأما الصلاة، فمن اثارها أنها تعلمنا . بأوقاتها المحدودة وبوقوف المصلين فيها صفوفاً منتظمة متراصة النظام والدقة واحترام الوقت، كما تمكن في نفوسنا لعوامل التعارف والألفة والاتحاد بما يعود على أمورنا بالانضباط وعلى أعمالنا بالاطراد[2].

فهكذا ينبغي للمسلم أن يقسم أوقاته على أعماله ويعمرها كلها بالخير، وكما ربط الله صلاته بالأوقات وهي من أمور دينه، كذلك يربط هو بالأوقات جميع أمور دنياه[3].

وأما الصوم فيحرر روح الصائم من سلطان المادة، ويرقى بها إلى افاق سامية وكمالات علوية: فيحرر روحهم من سلطان الشهرة وسلطان المادة ويسمو بنا إلى عالم علوي ملكي من الطهر والكمال.

كما يقوي الصوم إرادة الفرد ويعوده الصبر والثبات ويرجع على صحته بالتحسن، ويقوي إحساس الغني بمعاناة الفقير، بما يحمله على التعاطف معه والإحسان إليه[4].

وأما ما يعود من ذاك على الأمة فيظهر في مدى فاعلية تلك الشعيرة في توطيد عرى الأواصر بين الأمة وبين دينها من جهة، والرفع من جهة ثانية من قدرتها على تحصين مقوماتها الشخصية، والتصدي لما يستهدفها من عوامل الاستلاب والتذويب، وتعزيز إمكاناتها الجهادية للتغلب عما يحول بينها وبين أهدافها من مخاطر وأطماع: إن الظهور بمثل هذه المظاهر الدينية لمماً يزيد في إحكام الرباط الملي وتوثيقه، وإن الشعب كلما كان

(1) آثار الإمام (5 / 448).

(2) أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد (1 / 253).

(3) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 313 . 434).

(4) أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد (1 / 254).

قوياً دؤوباً على القيام بمقدساته، كان قوياً على مقاومة العوامل الهدامة[1].

وعمل ابن باديس على أن يسمو بشخصية الفرد، ويحصّن كيان المجتمع في حديثه عن المواسم الدينية «عيد الفطر» و«عيد الأضحى» و«الإسراء والمعراج» و«المولد النبوي الشريف».

وقد قال في هذه الذكرى العظيمة الخالدة أكثر من عمل شعراً ونثراً، ومن شعره، تحية المولد الكريم، والقومية والإنسانية[2].

ومما جاء في قصيدته الأولى قوله مخاطباً جمهور الحفل الذي يحيي المولد النبوي الشريف:

أحييت مولد من به          حي الأنام على الحقب

بالعلم والآداب والأخلاق          في نشء عجب

نشء على الإسلام أسس          بنائه السامي انتصب

نشء بحب محمد          غذاه أشياخ نجب

فيه اقتدى في سيره          وإليه بالحق انتسب

أما نثره فيتمثل في جملة من الخطب قالها في هذه الذكرى، وقد أطل فيها إطلالة هادفة على الواقع تصويراً، ونهوضاً به، وقد أولى في هذا الباب عناية كبيرة بتوجيه الأمة وحثها على الإفادة من ذكرى ميلاد رسولها العظيم محمد (ص) بما يعمق روحها بالشعور بالتطلع والرقي والكمال ويقوي في نفسها العزم على اهتبال هذه الفرصة للإقبال على تجديد حياتها:

فلنجعل يوم ولادته من كل عام يوماً نعزم فيه على تجديدنا تجديداً روحياً وعقلياً وأخلاقياً وعملياً وتاريخياً، تجديداً إسلامياً محمدياً في جميع ذلك، لنولد في عامنا ولادة جديدة، وهكذا نجدد ونتجدد في كل ذكرى مولد[3].

(1) أسس مشروع النهضة (1 / 254).

(2) المصدر نفسه (1 / 255).

(3) المصدر نفسه (1 / 256).

ونخلص من هذه الوقفة عندما جاء في آثار الإمام من نتاج في العبادات الدينية والمواسم الإسلامية إلى التأكيد عما في ذلك من بيان أثر تلك العبادات والمواسم في السمو بالسلوك الفردي والاجتماعي إيجاباً وسلباً ويتجلى ذلك بشكل خاص فيما يجب أن يطبع أخلاق الفرد من طهر وكمال، وفيما ينعكس على أوضاع المجتمع من رقي وانسجام(1).

إن ابن باديس . رحمه الله . كان يرى:

. أن الأخلاق الفاضلة ركن ركين في تزكية النفس وتقويم السلوك، وترقية المجتمع والنهوض به، وأما المفاسد فتنحط بشخصية الفرد وتضعف من قدرة المجتمع على العطاء الراشد والمساهمة الفاعلة في مسيرة الحضارة الإسلامية.

. لم يتناول ابن باديس الأخلاق من منظور فلسفي على اعتبار أنها قواعد نظرية مجردة، وإنما كان تناوله لها بصفتها قيمة اجتماعية سلوكية ترتكز أساساً على هداية القرآن والسنة النبوية الشريفة وهدى السلف الصالح، ويتجلى ذلك في الميدان تحلياً بالفضائل وتخلياً عن الرذائل ؛ بما يزكو بالنفس ويحدّ من نزواتها ويسمو بالسلوك ويرقى به إلى معارج الرقي والكمال الإنساني.

. يرتكز حديث ابن باديس عن الأخلاق على الدعوة المباشرة إلى التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة من دون الشعور بالحاجة إلى شيء من التدليل على أهمية ذلك في حياة الأمة، لاعتقاده أنها تدرك ذلك من موروثها الديني والاجتماعي، بالرغم مما ترسف فيه من جهل وجمود وتقليد.

ـ لم يوقف ابن باديس على موضوع الأخلاق باباً مستقلاً بها في تراثه، يديره على تحليل اثارها إيجاباً وسلباً في حياة الفرد والمجتمع، وإنما كان يعالج ذلك من خلال نظرات مبثوثة في مواطن كثيرة من نتاجه في ثنايا مقالة أو في صلب خطبة، أو في معرض تفسير آية أو شرح حديث، فكان وهو يتحدث في هذه الأشكال عما يتحدث لا يفوته أن يقف وقفة هنا وأخرى هناك يحث على التجمل بهذا الخلق أو التخلي ضده(2).

---

(1) المصدر نفسه (1 / 256).

(2) المصدر نفسه (1 / 256).

وإن إدراك ابن باديس لهذه الأهمية التي تتمتع بها الأخلاق الحميدة في حياة الإنسان من نحو وحرصه من نحو ثان على السمو بالسلوك الفردي والاجتماعي.

إن هذا وذاك دفعا به على أن يولي عناية خاصة بعنصرين اثنين من عناصر المجتمع، وهما المرأة والشباب لما لهما دون غيرهما من الفئات الاجتماعية الأخرى من مكانة فاعلة مؤثرة في حياة الأمة، وقد خصهما بهذه المكانة بشيء من اهتمامه، إبرازاً لدورهما في المجتمع وحرصاً على النهوض بهما تربية وتعليماً وتوجيهاً[1].

**و . المرأة:**

أدرك ابن باديس رحمه الله أن المجتمع لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام وشطره يقبع في ظلمات الجهل، كما أدرك أن التعليم سيؤدي إلى تكوين جيل لا ينتمي إلى الجزائر وفكرها وعقيدتها، وقد كتب ابن باديس كثيراً عن المرأة، ولعلنا نقتطف بعضاً مما كتبه في هذا المجال حيث كتب في أحد مقالاته مؤكداً: أن البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديُّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتها من رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهنَّ[2].ويقول في مناسبة أخرى: لماذا تعاقب المرأة بعلمها؟ هل هو وِرْدُ صفاء للرجال ومنهل كدر للنساء؟ هل له تأثير حسن على فكر الذكور قبيح على فكر الإناث[3]؟

أما الخطوات العملية التي اتخذها ابن باديس في هذا السبيل فإنه لما تأسست جمعية التربية والتعليم حرص رحمه الله أن يتضمن قانونها الأساسي أن يكون تعليم البنات مجاناً سواء كن قادرات على دفع مصاريفه أم عاجزات عن دفعها، وذلك تشجيعاً لهنَّ على الإقبال على الدراسة[4].

(1) المصدر نفسه (1 / 256).

(2) عبد الحميد بن باديس، د. مازن مطبقاني ص 61.

(3) المصدر نفسه ص 62.

(4) المصدر نفسه ص 62.

وزيادة على هذا فإنه كان يتصل شخصياً بالمواطنين يحثهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم، وكان يفعل ذلك أثناء جولاته في أنحاء القطر ويطلب من زملائه العلماء الدعوة إلى تعليم المرأة.

ولم يكن كافياً أن تتعلم الفتيات الصغيرات، فقد خصَّصَ دروساً للنساء في المسجد الأخضر، وغيره من مساجد قسنطينة، وكنَّ يحضرن بأعداد كبيرة حتى ضاقت عليهنَّ جنبات المسجد المخصصة للنساء(1).

ولنا أن نتساءل لماذا كل هذا الاهتمام بتعليم المرأة؟

إن داعية كإبن باديس لم يكن ليخفي ما يدبر للمرأة المسلمة خُفية وعلانية، ولم يكن منعزلاً بعيداً عن ساحة المجتمع، فكما كان بعض الجاهلين بالإسلام يحرصون على إبقاء المرأة جاهلة، كان في الطرف الاخر من يدعوها إلى الخروج غير المنضبط، بل وتلقِّي العلوم الغربية، فقد أدركت الدراسات الاستشراقية التنصيرية والاستعمارية ما يمكن أن يؤديه تعليم المرأة تعليماً غربياً من تحولات اجتماعية نحو التغريب، فما إن صدر كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» حتى صفَّقوا له وهلَّلوا. وكانوا يدركون أن التخريب يكون أبلغ إذا كان من الداخل، فقد ذكرت الوثائق الفرنسية، أهمية كتاب طاهر الحداد «امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع» الذي نادى فيه بأن الشريعة الإسلامية لم تكتمل في عهد صاحب الرسالة (ص)، وأن المجال مفتوح لمزيد من التشريعات بخصوص المرأة، بإعطائها مزيداً من الحقوق، وبمعنى أدق تقليد المرأة الغربية(2).

وانطلقت بعد ذلك الصحف الفرنسية تدعو إلى تعليم المرأة الجزائرية التعليم الغربي، ومن ذلك ما كتبته صحيفة صدى تلمسان في إجابة للمحرر عن تعليم المرأة الجزائرية بقوله: نعم ويكون أجدى إذا كان باللسان

---

(1) المصدر نفسه ص 62.

(2) إمرأتنا أمام الشريعة والمجتمع، الطاهر الحداد ص 20.

الفرنسي، فجاء ردَّ ابن باديس عليه: نعلم ونجزم أن تعليم المرأة إذا لم يكن بلسان قومها . بلغت من درجات العلم ما بلغت . يكاد يضلُّها عن الطريق المستقيم[1].

وقد تقدم ابن باديس خطوة رائدة في تعليم المرأة، حيث إنه بعد أن أنهت بعض التلميذات دراستهنَّ في مدرسة جمعية التربية والتعليم القسنطينية فكَّر في إرسالهنَّ إلى مدرسة جمعية دوحة الأدب السورية، وبعث رسالة بهذا الخصوص إلى رئيسة هذه الجمعية جاء فيها:

يسرُّك يا سيدتي أن تعرفين «تعرفي» أن بالجزائر نهضة أدبية تهذيبية تستمد حياتها من العروبة والإسلام، غايتها رفع مستوى الشعب العقلي والأخلاقي، ومن مؤسسات هذه النهضة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، ولما علمت إدارتها بجمعيتكم المباركة بما نشرته عنها مجلة الرابطة العربية، رغبت أن نرسل بعض البنات ليتعلمن في مدرسة الجمعية، فهي ترغب في حضرتكم أن تعرفوها بالسبل إلى ذلك[2].

فالمرأة عند ابن باديس: خلقت لحفظ النسل وتربية الإنسان في أضعف أطواره {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف : 15].

فهي ربة البيت وراعيته والمضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به، فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها، ونربيها على الأخلاق السوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ونصف امرأة[3].

والمرأة الجزائرية كونها مسلمة: فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة ونعرفها عن طريق الدين ما لها وما عليها، ونفقّهها في مثل قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *} [الأحزاب : 35].

---

(1) الشهاب العدد 104 في 7 محرم 1346هـ 7 يوليه 1927م.

(2) عبد الحميد بن باديس، د. مطبقاني ص 64.

(3) مقدمة مجلة الشهاب ص 43.

والمرأة المسلمة كونها جزائرية فيقول ابن باديس بأنها:

بدينها، ولغتها، وقوميتها. فعلينا أن نعرّفها حقائق ذلك لتلد أولاداً منا ولنا يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الاتية، ولا ينكرون أصلهم، وإن أنكرهم العالم بأسره، ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر الناس أجمعون[1].

والطريق الموصل إلى هذه الأهداف:

هو التعليم: تعليم البنات تعليماً يناسب خلقتهنَّ ودينهنَّ وقوميتهنَّ[2].

**. اهتمامه بالأسرة:**

وقد أولى الشيخ عناية فائقة واهتماماً كبيراً بالأسرة، الحضن الذي يتربى فيه الرجل والمرأة، واهتم بترشيد الفتيات والفتيان بكيفية الزواج الناجح، ولذلك لما كتب محمد العابد الجلاَّلي قصته بعنوان «السعادة البتراء» ذهب فيها إلى أن الزواج بين بطلي القصة سيكون ناجحاً لأنه مبني على التعارف والحب، علق الشيخ عبد الحميد بن باديس على ذلك بمقالة في العدد الموالي من الشهاب (ج3 . م11) في ركن المقالات معرض اراء وأفكار، وقعه بحرف . ع بعنوان «الزواج أيبنى على الحب والتعارف أم على المحبة والمعرفة؟»، ذهب فيه إلى أن الزواج المأمول لا يقوم على التعارف المطلق والحب الشهواني، إنما هو الذي يقوم على الوسطية الإسلامية القائمة على المعرفة البريئة بين الخطيبين، وما ينشأ عنها من محبة بريئة.

فقال: فالزواج الإسلامي مبني على المعرفة البدنية بالرؤية، والمعرفة النفسية بالبحث عن الدين والخلق، وعلى المحبة التي تحصل بذلك، ويدل عليها رضا كل واحد منهما بصاحبه، ولم يراعَ في الزواج الإسلامي الحب الشهواني الذي يثيره الاختلاط لما في الاختلاط من تعريض الفضيلة للخطر، ولأن الحب ثورة وقتية لا تلبث أن تنطفأئ، وأخلق بالزواج المبني عليه أن تنحلّ عراه عند إنطفائه.

---

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 44.

(2) المصدر نفسه ص 44.

هما أمران، حب ثائر مبني على تعارف مخطر سريع الخمود، ومحبة هادئة مبنية على نظر عفيف وعلم الدين والخلق، تدوم بدوام الدين، وتثبت بثبات الأخلاق، أيُّ هذين أحق أن تبنى عليه الزوجية التي يقصد منها دوام التالف والتعارف والعمل لخير الأسرة والأمة والبشرية؟ لا أحد من العقلاء يتوقف في الجواب عن مثل هذا السؤال(1).

**. الشفاء بنت عبد الله القرشية:**

كان ابن باديس يكتب في مجلة الشهاب تحت عنوان: رجال السلف ونساؤه، ويشتمل على غرر الاثار ودرر الأخبار ينفض الغبار عن الجامدين ويكبح به جماح الجاحدين، كما كان يكتب فصلاً تحت عنوان: السنة المطهرة يحتوي أحاديث نبوية مختارة لمعالجة المشاكل الاجتماعية، فمما كتبه تحت عنوان رجال السلف ونساؤه الشفاء بنت عبد الله القرشية قال: كانت من عاقلات النساء وفضلياتهنَّ، وكانت تحسن الكتابة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرعاها ويفضلها ويقدمها في الرأي تقديراً لسابقتها وعقلها، ومعرفة فضائلها، وكان ربما ولأّها شيئاً من أمر السوق في بعض الأحيان، ثم قال مستنتجاً: تتولى المرأة الكتابة وتعلِّم غيرها وتتولى تدبير أملاكها وتجارتها وما تستطيعه من عمل عام، كما تولت الشفاء أمر السوق في بعض الأحيان، ولا شك مما أهّلها لذلك عند عمر معرفتها بالكتابة.

وبهذا الأسلوب اللين الهادأئ يدعو الأستاذ عبد الحميد إلى تعليم المرأة وتوليتها المناصب في الدولة، وإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه منحها هذا الحق منذ أربعة عشر قرناً، فمن الذي تحدثه نفسه باتِّهام الإسلام بالمحاباة وعدم المساواة. والشفاء بنت عبد الله هذه ذكرها ابن باديس أيضاً تحت عنوان السنة المطهرة، فقال: عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل النبي (ص) وأنا عند حفصة، فقال لي: ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة، وبعد ما شرح الأستاذ هذا الحديث، بما تقتضيه قواعد العلم، ذكر أن من أحكامه

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 45.

وفوائده تعليم النساء الكتابة، ثم قال: وأقوى منه في الاستدلال العموميات القرآنية المتكاثرة الشاملة للرجال والنساء، فإن مذهب الجمهور وهو المذهب الحق أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا لمخصص يخرجهن من نص أو إجماع أو بضرورة طبيعة لأن النساء شقائق الرجال في التكليف.

هكذا يرى ابن باديس لزاماً علينا نشر العلم بين أبنائنا وبناتنا على أساس ديننا وقوميتنا، إذ العلم تراث البشرية جمعاء. ومعلوم أن العلم الذي هو يتعلق بالكونيات، فالمرأة إذن على ما ذهب إليه عبد الحميد بن باديس، لها أن تتعلم من العلوم ما تشاء، فلها أن تزاحم النسور في السماء والحيتان في الماء ما دامت متمسكة بدينها، وذلك ما يدعوها إليه الإسلام(1).

**. وقف إمام خيالي:**

قال ابن باديس: ألقيت محاضرة في هذا الموضوع بنادي الترقي بالعاصمة في شهر ربيع الأول. وفيما يلي أكتبها على ما بقي في ذهني، كنت ألقيتها ارتجالاً وإذا شذ عني شيء فلا يكون إلا قليلاً.

كنت وأنا قادم للعاصمة من مضيق «حصن الماء» ؛ أحوم على موضوع أختاره للمحاضرة التي اقترحها عليَّ أعضاء النادي المحترمون، فوقع فكري على المرأة وحالتها وواجباتها وحقوقها وبينما أنا أفكر فيها وأجمع أطراف الحديث في شأنها ؛ إذ أنا برجل مسلم جزائري ببرنوسه وقنورة وقف أمامي . لم يقف أمام حسي ولكن وقف أمام خيالي . وأخذ ذلك الرجل يخاطبني بشدة وعنجهية ويقول:

أنتم تفكرون في تعليم المرأة فلمن تعلمونها؟ لي أنا.

الرجل الجاهل: ليقعنَّ لها ما يقع للعالم الضعيف المغلوب من الجاهل القوي الغالب. ومن يعلمها؟ أنا الجاهل، كيف أترك نفسي وأعلمها؟

أنتم تفكرون في نزع حجابها وخلطها بالمجتمعات، ألا تخافون عليها غيرتي؟ فلأقاتلنَّ عليها ألا تخافون

---

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 221.

إغارتي؟ فلأضايقهنَّ ولترينَّ مني كل أنواع التعدي والأذى.

إذا أردتم التفكير الصحيح والإصلاح المنتج، ففكروا فيَّ قبلها، فأنا ابوها وزوجها ووليها ومصدر خيرها وشرها.

وإذا أردتم إصلاحها الحقيق فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها، وأما حجاب الستر فإنه ما ضرها في زمان تقدمها، فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكاناً عالياً في العلم وهنَّ متحجبات، فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم إلى الكلام في كشف الوجوه قبل كل شيء[1].

إن إبراز ما تتسم به مواقف ابن باديس وكتاباته في موضوع المرأة، هو: الحكمة والاعتدال والرصانة في الطرح والمناقشة في تشخيص الداء ووصف الدواء، مما يميز منهجه العام في جميع مواقفه وأعماله، فهو يحافظ في معظم الأحوال على موضوعيته ووسطيته، فكان في هذا الموضوع كعهده في غيره وسطاً بين الإفراط والتفريط، إفراط المستلبين وتفريط الجامدين، فكان بذلك من بين أبرز المفكرين وكتاب تيار الاعتدال والوسطية والروح العلمية في العالم العربي الإسلامي[2].

**ز ـ اهتمامه بالشباب:**

كان الاحتلال الفرنسي قد شمل بسياسته الظالمة عموم أفراد الشعب الجزائري نسائه ورجاله، شيوخه وشبابه، غير أن التركيز كان منصباً على الشباب أكثر من غيره، لما في الشباب من أهمية في حياة الأمم ـ وكان ذلك بإضعاف قواه وإفساد أخلاقه بهدف ضرب الأمة في أكبر قوة مادية تملكها في حياتها، وكان ابن باديس قد اهتم وركز على الشباب مبكراً، فظهرت رعايته بالشباب في محورين اثنين:

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 218.

(2) أسس مشروع النهضة (1 / 188).

الرعاية العامة للشباب، والعناية الخاصة بالطلبة.

**. الرعاية العامة للشباب:**

تدخل عناية ابن باديس بالشباب في إطار اهتمامه العام بمجموع أفراد المجتمع الجزائري، وطبيعي أن يتوجه هذا الاهتمام في نطاق النهضة إلى عنصر الشباب أكثر من غيره بما ينتظر أن يقوم به من نشاطات في هذا المشروع، بسبب ما تميزت به من قوة في الإرادة وصدق في العزيمة وثقة في المستقبل، فهو عدة الأمة، وحادي قافلة نهضتها، وحامل مشعل تطلعاتها إلى أهدافها في التحرر والتقدم[1].

يقول ابن باديس عن شباب الجزائر في ذلك العهد، وما ينبغي أن يكون عليه: «أعلن الشهاب» من أول يومه و«المنتقد» الشهيد قبله ؛ أنه لسان الشباب إلا شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده وقبح له دينه وقومه، وقطع له من كل شيء . إلا منه . أمله، وحقره في نفسه تحقيراً. وإلا شباب جاهل أكلته الحانات والمقاهي والشوارع.

ومن وجد العمل منه لا يرى نفسه إلا الة متحركة في ذلك العمل، لا همّ له من ورائه في نفسه فضلاً عن شعوره بأمر عام، وإلا شباب حفظه الله للإسلام والعروبة، فأقبل على تعلمها، لكنه تعلم سطحي لفظي خالٍ من الروح، لا يعتز بماضٍ، ولا يألم بحاضر، ولا يطمح لمستقبل، اللهم إلا أفراد قلائل جدًّا هنا وهناك.

وأما اليوم فقد تأسست في الوطن كله جمعيات ومدارس ونوادٍ . إلا نادراً . إلا وهو منخرط في مؤسسة من تلك المؤسسات وشعار الجميع،: الإسلام، العروبة، الجزائر[2].

وقد شمل الشيخ بعنايته مختلف قطاعات الشباب: الطفولة، الطلبة، الكشافة، الرياضيين، الفنانين، شمل

(1) أسس مشروع النهضة (1 / 290).

(2) الشهاب ج2، م14 ربيع الثاني 1357هـ مارس 1938م.

هؤلاء جميعاً، وهم في محاضنهم وفي مدارسهم ونواديهم، فقد عني بالأطفال وهم في حجور أمهاتهم رضعاً، تفتك الأمراض والأوبئة بأجسامهم، يصارعون الموت في كل لحظة من الليل أو من النهار، فيصرعهم ويتخطف منهم زهاء أربعين في المائة من مجموعهم، بسبب الفاقة وسوء التغذية والأمراض. إن موت أربعين في المائة ناتج في الأكثر عن عدم الوجد وسوء الحال، بدليل أن الموت والمرض في أبناء الفقراء أكثر منهم في غيرهم[1].

وتمتد عناية ابن باديس بالشباب إلى الكشافة الإسلامية الجزائرية، فكانت تربطه بها صلة متينة، فكان رئيساً شرفياً لأول مؤتمر كشفي ينعقد بالجزائر سنة 1930م، كما كان رئيساً ومؤسساً لفوج «كشافة الرجاء» سنة 1935م، وكان يوجههم في نتاجه.

ومما جاء في ذلك في قصيدته «تحية المولد الكريم» بوجه ويشجع عناصر هذا الفوج، محملاً إياهم أمانة النهوض بالأمة والعمل على تحريرها والرقي بها، هذه الأبيات:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذِب

أم رام إدماجاً له ... رام المحال من الطلبْ

يا نشء يا ذخر الجزائر ... في الشدايد والكرب

يا نشء أنت «رجاؤنا» ... وبك «الصباح» قد اقترب

خذ للحياة سلاحها ... وخض الخطوبَ ولا تَهَبْ

وارفـــع منـــارَ العـــدل ... والإحسان واصدم من غصب

وأَذِقْ نفوسَ الظالمين ... السُّمَّ يمزجُ باللهبْ

واقلع جذور الخائنين ... فمنهم كل العطب

واهزُز نفوس الجامدين ... فربما حَيِيَ الخَشَبْ

(1) أسس مشروع النهضة (1 / 292).

نحن الألى عرف الزمان قديمنا الجَمَّ الحَسَب

ومعين ذاك الجوُّ في نسل العُروبة ما نضب

من كان يبغي وُدَّنا فعلى الكرامة والرُّحَبْ

أو كان يبغي ذُلَّنا فله المهانة والحَرَب

هذا نِظَامُ حياتِنا بالنور خُطَّ وباللَّهَب

حتى يعود لشعبنا من مجده ما قدْ ذهب

هذا لكم عهدي به حتى أُوَسَّد بالتُّرَب

فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب(1)

ومما جاء في هذه القصيدة توجه ابن باديس إلى المجتمع حاثاً إياه على العناية بهذا النشء قائلاً:

يا قــوم هذا نشؤكم وإلى المعالي قد وثب

كونوا له يكن لكم وإلى الأمام ابناً وأب

ويصور الشيخ الشاعر الصالح رمضان، وهو أحد مرشدي الكشافة الإسلامية الجزائرية بعض مهام هذا الفوج فيقول:

نحن «الرجا» عند المحن لقــومنا وللوطـــــــن

لفوجنا سرب نفيس عبد الحميد بن باديس

كأن فيه «ماسنيس» يزجي الصفوف ويسوس

فرقتنا «صلاح الدين» حاضرة في كل حين

فتياتها قــرة عيـــن لفــوجنا والمسلمـــين

وكانت تربط ابن باديس بالجمعية الرياضية «المولودية» صلة وثقى، يكاد يعرفها العام والخاص، فكان يشجعها ويحرص على توجيه عناصرها دينياً وأخلاقياً، كما كانت له علاقته مماثلة مع جمعية الفن للموسيقى العربية بقسنطينة(2).

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، د.تركي رابح ص 225، 226.

(2) أسس مشروع النهضة (1 / 293).

**. العناية الخاصة بالطلبة:**

ويتحول هذا الاهتمام العام بالشباب إلى عناية خاصة بالطلبة، تشملهم وهم يطلبون العلم في كتاتيبهم، ومدارسهم، ومساجدهم، وكان الكاتب قد بذل جهوداً حميدة في هذا الميدان منذ أن رابط بالجامع الأخضر، يربي الناشئة ويكوّن الجيل، ولم تكن عنايته هذه بتربية الشباب لتقتصر على تربية البنين دون البنات، وإنما كانت تشمل الجانبين، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وكان يحرص في هذا المجال على توطيد أسباب الصلة بينه وبين طلبته بتقديم يد العون لهم، فكان يساعدهم مادياً من ماله الخاص، وما تعود به مساعيه من أجلهم لدى المحسنين بحثِّه إياهم على إغاثة أبناء الأمة، بما يمكّنهم من التغلب على مؤونة التبلغ والتفرغ، ثم مواجهة أعباء الطلب والتحصيل[1].

كانت عنايته بطلابه كبيرة، وكان يؤكد أن مهنته كمعلم ؛ تجعله دائم التفكير في تلامذته[2].

. العناية الشاملة بعموم الشباب: كان ابن باديس يرى ضرورة العناية بجميع هذه الفئات الشبابية، وكان يعمل على تربيتهم وتثقيفهم وتوجيههم إلى المنابع الصافية من أصول دينهم والمناهل العذبة من مبادئ أخلاقهم، والتمكين لهذه وتلك في قلوبهم وفي عقولهم، وقد عني في هذا المضمار بما ينمي قواهم الجسدية والروحية بحثِّهم على المحافظة عل صحتهم البدنية: حافظ على صحتك، فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك[3].

وحثهم على الاهتمام بقواهم العقلية: حافظ على عقلك فهو النور الإلهي الذي مُنحته لتهتدي إلى طريق السعادة في حياتك. حافظ على حياتك ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك[4].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 231) وما بعدها.

(2) أسسس مشروع النهضة (1 / 295).

(3) المصدر نفسه (1 / 296).

(4) المصدر نفسه (1 / 296).

وكان ابن باديس حريصاً على ما يسمو بأخلاقهم، ويحفظ شخصيتهم، ويحميهم من الانزلاق في مهاوي الرذيلة والفساد، وقد أولى في هذا الباب عناية خاصة بالتصدي لما يهدد الشباب من تيارات هدامة، تزين لهم التنكر لدينهم وقومهم عن طريق ما تبثه في صدورهم من سموم وتزرعه في سلوكهم من افات، وقد ساعد على ذلك ما يغزو العقول يومئذ من الخرافة والتقليد، بسبب الجهل والفهم السقيم لحقائق الإسلام، الذي يشده إلى العقل والعلم حبل متين، فكان خطر ذلك كبيراً على الشباب ولاسيما على أولئك الذين كانوا يتعلمون منهم في المدارس الأجنبية ؛ فإن قلة زاد هؤلاء من الدين الصحيح والعلم النافع، إلى جانب تلك السموم التي كان ينفثها في صدورهم من ينفثها من الأخصائيين في ذلك من دوائر الاحتلال، لقد أوشك هذا النقص أن يؤدي ببعض هؤلاء إلى حافة السقوط في وهدة الشك والمروق من الدين، مما جعل من المهام الرئيسة الإسراع إلى انتشال هؤلاء من هذه المخاطر. ولذلك كان الإقدام على انتشال هؤلاء من هذه الطبقة من الشباب من أوكد الواجبات في مثل هذا الظرف الذي طغى فيه تيار المادة على كل شيء[1].

وكان لابن باديس وجمعية العلماء دور كبير في توعية هؤلاء الشباب وتعريفهم بالمكانة السامية التي تحظى بها في دينهم قيم العقل والعلم والحق والعدل، فكان لهذه الجهود أن اتت أكلها فاهتدى بعض الشباب إلى الطريق الصحيح، ومن أقوى الأدلة على ذلك، بل حسبنا في ذلك أن نقايس بين حالة هذه الطبقة المنكرة وهي حالة تمرد ومروق وإلحاد ؛ وبين حالتها الراهنة وهي حالة تدعو إلى الاطمئنان والسرور[2].

كما قام ابن باديس بتقديم نماذج من سير السلف الصالح للشباب، لتكون محل قدوة واعتبار لديهم. فرسم لهم صوراً من أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام، وملامح من سير بعض السلف نسائه ورجاله،

---

(1) آثار الإمام (3 / 253، 254).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 253، 254).

وبعض القصص الديني، محاولاً بذلك أن يلفت النظر إلى ما في هذه الأمثلة من مواطن الأسوة بما يساعد على بناء نفوس الشباب وعقولهم، مما في تلك المواقف من مبادئ الدين والعلم والأخلاق، فيكون لهم من ذلك ما يجعلهم يحملون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الاتية، ولا ينكرون أصلهم وإن أنكرهم العالم بأسره، ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر لهم الناس أجمعون[1].

لقد اعتنى صاحب الشهاب بالشباب عناية خاصة تكويناً ورعاية وتوجيهاً، فهو لا يفتأ يوجه إليهم نصائحه في آية مناسبة مواتية، من ذلك الكلمة التاريخية التي سدد بها نظرتهم نحو الحياة، وذلك في الاحتفال الذي أقامته جمعيات الحياة بقسنطينة التربية والتعليم، الشباب الفني، الكشافة الإسلامية، والفريق الرياضي «المولودية» . مساء يوم الثلاثاء 13 ربيع الثاني 1357هـ وذلك تكريماً للضيوف الذين حضروا ختم الأستاذ ابن باديس لدروس تفسير القرآن الكريم كما أسلفنا:

**أيها الإخوان**:

الإسلام دين الحياة والعلم والفن، والحياة قوة وإيمان وجمال، والعلم يمثل القوة، والفن يمثل الجمال، وبهذا تحتفل بكم ضيوف القرآن جمعيات قسنطينة الحيوية التي تمثل القوة والإيمان والجمال[2].

وقد بلغ من اهتمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتكوين الشباب أن خصصت لهم جريدة باللغة الفرنسية لتكون لسان حال شبيبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد صدر العدد الأول منها بتاريخ 13 رمضان 1371هـ الموافق 6 جوان 1952م.

وكانت متوجهة بصفة خاصة إلى الشبيبة الجزائرية المثقفة بالفرنسية لتعريفها بالثقافة الإسلامية ومبادئها، للتقريب بين أبناء الوطن الواحد، وإحباط مساعي الاستعمار للتفريق بينهم، ليتمكن الجميع متحدين على

(1) أسس مشروع النهضة (1 / 297).

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 39.

خدمة الوطن بتفاهم وتعاون. وكان يحررها نخبة من الشباب الواعي بالثقافة العربية الإسلامية المتشبعة بالروح الوطنية ومجموعة من الشخصيات الفكرية والسياسية المتمكنة من الفكر الإسلامي وتاريخه المجيد[1].

ومن الوسائل التي اعتمدها الشهاب لبث الوعي الوطني والديني والخلقي في نفوس الشباب خاصة وجماهير الشعب عامة: الخطابة والتمثيل يعززان عمل المسجد والمدرسة، والنادي والصحيفة والكتاب والنشاطات الثقافية التي تقام في المسارح وقاعات الاحتفالات والمخيمات الكشفية، ويضاف إلى ذلك مساندتها للجمعيات الفنية من أصحاب الاحتراف والهوية الوطنية منها والوافدة.

من ذلك ما نشره الشهاب عن خطاب مرتجل للشيخ محمد البشير الإبراهيمي جاء فيه: التمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان وأخوان شقيقان، وإن منزلتهما من دواعي التهذيب والتربية الفاضلة لأرفع منزلة، وإن مكانتهما من بين مقومات الأخلاق لمنزلة الطعام والشراب من بين المقومات الجسدية وما بنيت نهضة من النهضات الأخلاقية في الأمم الجديدة إلا وللتمثيل والخطابة في بنائها القسط الأوفر والحظ الأولى، وليس موقف الممثل بينهم دون موقف الخطيب، ولا موقع الرواية من نفوسهم دون موقع الخطبة، فإنما الخطيب والممثل شيء واحد، الممثل خطيب إذا أحسن تصوير المغزى وشخّص الحقائق الغائبة للمشاهدين كالحاضر المشاهد وألبس الخيالات لباس الواقع المحسوس، والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقص الخبر، وكيف يستخرج العبر، وكيف يسوق المؤثرات فيترك في نفوس سامعيه أعمق الأثر.

بل إن رجال الإصلاح ليغتنمون كل فرصة سانحة لنشر الدعوة الإصلاحية واليقظة الوطنية في أي تجمع كالأعراس والجنائز ومجالس الصلح بين المتخاصمين والأسواق والسجون والمعتقلات[2].

---

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 40.

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 41.

## 5. التربية العقلية المعرفية:

يؤكد ابن باديس على ضرورة النظر العقلي في المعرفة حتى تكون يقينية وباعثة على التفاؤل فيقول: يجب على المؤمن مع تصديقه وجزمه أن ينظر في الايات، آيات الكون والإنسان ويستعمل عقله للفهم، كما تجب عليه جميع الواجبات في الإسلام لقوله تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [يونس : 101].

وقال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ *} [الطارق : 5].

وقال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت : 20].

ويشير ابن باديس إلى أهمية التأمل العقلي لأنه شرط أساسي لتمام الإيمان وصحته وتحقيق اليقين، ولأن مَن عَدِمَ إيمانه اليقين خرج من دائرة المؤمنين وكان من جملة الكافرين ولو نطق بالشهادتين وعمل أعمال المؤمنين[1].

واهتم ابن باديس بتقديم صورة للمعرفة الشاملة التي تهتم بالوجود والإدراك معاً، وبتحديد أهداف هذه المعرفة وكيفية عمل العقل ودوره.

وإذا كان أصل المعرفة عنده هو الإدراك والتحليل والفهم للمعلومات والمكتشفات، فإن ميزة هذه المعرفة الكبرى هي الإدراك الناتج عن عمليات التركيب والتحليل والتطبيق، ولولا هذه المعرفة لما ترقى الإنسان أطوار حياته وتميز عن باقي المخاوقات، وذلك لأن العقل هو القوة التي امتاز بها الإنسان وساد هذا العالم الفاني، ولأن العقل هو ميزان وبرهان على صحة كل معرفة[2].

### أ. أنواع المعرفة عند ابن باديس:

يرى ابن باديس أن المعرفة تتميز بالشمول والكلية والتغير وبالتطور لأن مصادرها لابد أن تجتمع بين العقل والحس والقلب، لتقدم لنا العلم اليقيني بقسميه النظري والعملي استجابة لقوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء : 36].

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 71).

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 73).

ويمكن القول بأن ما قدمه ابن باديس من اراء في المعرفة عموماً، وخاصة عند تفسيره للاية السابقة التي يسميها آية العلم والأخلاق؛ هو رأي يرضى جميع الأطراف المتنازعة حول المعرفة، سواء أصحاب المدرسة الحسية أو العقلية، لأن رأيه يؤكد شمولية المعرفة وأهمية تعاون العقل مع الحس والوجدان.

وابن باديس يقول بالتأمل كوسيلة معرفية للظواهر. فهذا التأمل لا يكون إلا بالنظر «عقل وبصر»، وإذا كان تأمل صور العالم العلوي والسفلي بالبصر، فإن النظر في التاريخ وأحوال الأمم السابقة لا يكون إلا بالعقل، وإذ يقول ابن باديس بتطور المعرفة وشمولها ؛ فإن هذا التطور مرهون بتطور العلم وبالتالي تطور الإنسان. ولأن هذه المعرفة ترتبط بتطور الإنسان والعصر الذي يعيشه والعلم الذي يتحصل عليه فهي تمر بثلاثة أطوار أو مراحل:

ـ **الطور الأول**: هو طور المعرفة السطحية المشوشة حيث يقل الاعتماد على العقل، وهذا الطور يصفه ابن باديس بطور الجمود حيث كثرة المعلومات مع إهمال النظر فيها، فيبقى الإنسان فيه حيث هو جامداً، ثم لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل أو تضمحل.

ـ **الطور الثاني**: هو طور النضج العقلي والمعرفة الصحيحة ومكتشفات العلم، حيث الاعتماد على العقل مع كثرة المعلومات وهذا الطور يصفه ابن باديس بأنه طور التقدم والحضارة.

ـ **الطور الثالث**: وهو طور التخلي عن العقل والمعرفة، ويسميه ابن باديس بطور الهلاك التام، حيث الانحطاط الذي يصعب فيه إدراك الحقائق أو نسبها ولا يستقيم تنظيم العقل لها، فكل ما يتوصل إليه بنظرة خطأ في خطأ وفساد في فساد ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر في المحسوس والضلال في المعقول.

وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئياً وكلياً من قريب أو من بعيد، وهذا هو الانحطاط، أي انحطاط الأمم الانحطاط التام[1].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 268).

وهكذا بدأت محاولة ابن باديس إبراز أهمية المعرفة والعقل، وإثباته أن تمام المعرفة ليس فيما تقدمه الحواس وحدها أو العقل وحده، بل إن تمام المعرفة يتوقف على تعاون وترابط جميع مصادرها من عقل وحس وحدس فطري سليم، وهو ما سيتضح من أنواع المعرفة التي عرضها ابن باديس أثناء شرحه للأحاديث أو تفسيره لايات القرآن الكريم[1].

**. المعرفة العلمية:**

يقول ابن باديس: إن تمام المعرفة لا يكون إلا بتمام العلم، وهذا سبب التكريم الإلهي للإنسان التكريم العام، أما التكريم الخاص فهو تكريم الإنسان لنفسه وروحه، بتنزيهها عن مساوأئ الأخلاق وتحليتها بمكارمها، وتكريم العقول يكون بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات، وربطها بالعلوم والمعارف وجميع الاعتقادات، وتكريم الجوارح يكون بتنزيهها عن المعاصي وتجميلها بالطاعات، فنتحرى بأقوالنا وأفعالنا أكرم الأقوال وأكرم الأفعال، ونترفع عن جميع الرزايا والدنايا[2].

ويوضح ابن باديس مدى التلازم والترابط بين المعرفة والعلم عند بيان مصادر المعرفة والعلم الواحدة، المتمثلة في الحس والعقل والوجدان عند تفسيره لقوله تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء : 36]. فهذه الآية تثبت وحدة ترابط مصادر المعرفة ووسائل العلم على اعتبار أن السمع هو القوة التي تدرك بها الأصوات بالة الأذن، والبصر هو القوة التي تدرك بها الأشخاص والألوان بالة العين، وقدم السمع على البصر لأن به إدراك العلوم وتعلم النطق، فلا يقرأ ولا يكتب إلا من كان ذا سمع وقتاً من حياته، والفؤاد هو القلب والمراد به هنا العقل من حيث اعتقاده لشيء ما[3].

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 74).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 306، 307).

(3) آثار ابن باديس (1 / 269).

ويميز ابن باديس بين المعرفة العلمية والحقيقة العلمية، فالعلم عنده إدراك جازم مطابق للواقع عن بينة، سواء كانت تلك البينة حساً أو مشاهدة، بالسمع أو بالبصر أو برهاناً عقلياً كدلالة الأثر على المؤثر، والصنعة على الصانع، فإذا لم تبلغ البينة بالإدراك رتبة الجزم فهو ظن، ومعنى ذلك أن الإدراكات الناشئة عن الظن فهي العلم مجازاً أو الوهم[1].

ويحاول ابن باديس إبراز أهمية العلم ودوره المعرفي في مجال السلوك والأخلاق ولذلك قال: العلم هو المقدمة الضرورية لكل عمل، ومن دخل في العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال، ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال، وربما اغتر به الجهال فسألوه فاغتر هو بنفسه فتكلم بما لا يعلم فضلّ وأضلّ[2].

**. المعرفة العقلية:**

يقول ابن باديس: علمنا الله ألا ننظر في ظواهر الأمور دون بواطنها، وإلى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية، بل ونعبر من الظواهر إلى البواطن وننظر من المحسوس إلى المعقول، ونجعل من حواسنا خادمة لعقولنا، ونجعل من عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير، كما يؤكد على قيمة هذه المعرفة التي تعتمد على العقل، ودورها بوصفها الأساس في ظهور الحضارات، لأن العلم التجريبي يقوم على مبادئها، وكذلك باقي العلوم لأنها تخضع لمبدأ السببية.

وسوف تظهر قيمة هذه المعرفة وأهميتها عند عرض اراء ابن باديس في كيفية عمل العقل ومقتضى دوره وقدراته، والحدود التي يجب ألا يتخطاها، مع الإشارة إلى الخصائص العامة للمعرفة العقلية عنده[3].

وهناك الخصائص العامة للمعرفة العقلية:

---

(1) تفسير ابن باديس ص 149 . 150.

(2) ابن باديس حياته آثاره (2 / 275).

(3) عبد الحميد ابن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 82).

ـ يؤكد ابن باديس على أن هذه المعرفة لا تقف عند حدود الزمان الحاضر، لأن العقل قد استطاع أن يدرك في هذا الزمان ما لم يستطع إدراكه في زمان سابق. وإن إدراك الحقائق يكون باستقراء الواقع ومجموع ظواهره الماضية والحاضرة.

. أن هذه المعرفة تقوم على أساس من المنطق والبرهان وحاجات الإنسان وقدراته.

. أن غاية عمل العقل البشري تحقيق الاستقامة والكمال للإنسان التي تتحقق بالفكر والعمل.

ويعلي ابن باديس من قيمة الفكر الذي يسبق كل فعل، ويعلل أفضلية حالة الفكر على حالة العمل في الإنسان لأن حالة الفكر هي حالة التأمل العقلي في آيات الله الكونية، وهي حالة ينفرد الإنسان لربه ويخلص له قلبه، ويتوجه إلى خالقه بالفكر والاعتبار ودوام المراقبة والإقبال، هذا في حالة الفكر، أما في حالة العمل ففيها يعالج الإنسان بعقله وحواسه شؤون حياته من أمر نفسه وأهله وما إلى رعايته من مصالحه أو مصالح غيره، فيمارس فيها الأسباب ويباشر فيها ما تقتضيه بشريته، وهو في هذه الحالة متعبدٌ مأجورٌ ما جرى فيها على حدود الله وقصد به امتثال شرعه[1].

**. دور العقل وأهميته:**

أكد ابن باديس أن مهمة العقل الأساسية هي التأمل، والتأمل عنده عملية إدراكية وكشفية، لأن التأمل من أجل الفهم واستجلاء حقائق الكون والاعتبار بعظمتها وتناسقها وعظيم نفعها، وعلى ذلك فإن مهمة العقل ليست ميتافيزيقية بقدر ما هي واقعية وعملية، لأن بالعقل ندرك بدائع عجيبة وأسرار، ولأن التأمل والتفكير وسائل للفهم وتحقيق أغراض الإنسان في الحياة وتحقيق صدق الإيمان واليقين[2].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 138).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 131، 132).

ويصف ابن باديس مهمة العقل الإدراكية والكشفية ومجالها فيقول: ومهمة العقل مهمة إدراكية أي إدراك الآيات والظواهر الكونية في العالم العلوي والسفلي الدال على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته.

ومهمة العقل مهمة كشفية أي كشف الحقائق والوصول إلى الحكمة في تعاون ؛ لأن الحقيقة والعقل والحكمة مقدمات المنطق السليم وميزان الصدق في المعرفة. فبالحق والحكمة والنور المخرج من كل ظلمة والفرقان في كل شبهة والفصل في كل خصومة، بها تفتح البصائر وتطهر الضمائر وتعرف طريق الحق والهوى من طرائق الباطل والضلال[1].

**. حدود العقل:**

عندما وضع ابن باديس حدود العقل ومهمته ؛ حصرها في مجال النظر والبحث والاكتشاف والتحليل والتعليل في عالم الممكن، وأكد على أن قصور العقل عن إدراك الحقائق المغيبة عنه ليس بسبب طبيعته، ولكن بسبب إرادة الله. وأن عدم إدراك هذه الحقائق فيه رحمة بالإنسان وفضل من الله ونعمة. وأن قصور العقل عن إدراك حقائق النفس الإنسانية يرجع إلى تشابك العوامل المؤثرة في سلوكه من عواطف وانفعالات. ولذا فإن الأثرة المستولية على النفوس حجاب كثيف يحول دون رؤية الحقائق كما هي[2].

ويعلل ابن باديس ضرورة عدم إطلاق قدرات العقل، لأن مهمة العقل مرتبطة بطبيعته وطبيعة الحقائق التي يستطيع إدراكها والأخرى التي يعجز عن إدراكها، فالعقل عاجز عن إدراك حقيقة القدر والروح وبعض حقائق الكون البعيدة التي لم يكشفها العلم بعد، وتسمى بالمعجزات الكونية، وأن خفاء تلك الحقائق في الآيات الكونية لم تأت عبثاً، بل كانت إيقافاً للعقل عند حده، وتعريفاً له بقدره، وتنبيهاً له على عظيم

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 60).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 171، 172).

آيات ربه، حتى أن حقيقة العقل نفسه وطبيعته كانت ضمن هذه الحقائق التي لم يستطع العقل البشري إدراكها بسهولة[1].

والعقل عند ابن باديس لا يعمل بمفرده في مجالي المحسوس والمعقول أو ما يسميه بعالم العلوم والاداب، لأن العقل عنده يستعين في إدراكه وتحقيق مهامه بالنور الإلهي، ويسترشد بمنهج القرآن والسنة حتى يتغلب على العقبات التي تعوق عمله وأداءه لوظيفته، وبذلك يتغلب على حالة الشك والتردد والضعف ويخرج من حالات الحيرة إلى حالة الاطمئنان[2].

وهكذا حدد ابن باديس مهمة العقل وحدوده وقدراته، أما ما فوق قدرته فعليه أن يفوض الأمر لله، لأن مجال الإدراك البشري هو الممكن المحدود بحدود العقل وقدراته، ومهمته فيه هي التأمل للوصول إلى اليقين والإيمان، أما مجال الغيب فليس للعقل فيه مجال، وعليه التصديق به دون محاولة إدراك حقيقته، لأنه عجز عن إدراك كنه هذه الأشياء التي هو عاجز عن إدراكها[3].

ويصف ابن باديس مجالات عمل العقل وحالات قوته وعجزه تفصيلاً أثناء تفسيره لقوله تعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ *} [آل عمران: 7].

إن في خلق الله وفي شرع الله وفي قدر الله وفي كلام الله ما يخفى على العقول إدراك حقيقته أو حكمته أو معناه لطفاً من الله بالإنسان وتنبيهاً له، وقد قامت الحجة عليه فيما جهل بما عرف، وكثيراً ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات سبباً في صد العقول عن النظر وطول أمد الخطأ والجهل، ويكون عمله ـ أي العقل ـ في قدر الله هو الاعتبار في تصاريف القدر، والاتعاظ بأحوال البشر واستحصال قواعد الحياة من سير الحياة، فإذا رأى من تصاريف القدر ما لم يعرف وجهه،ولم يتبين ما فيه من عدل وحكمة

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه (1 / 85).

وإحسان ورحمة ؛ فليذكر عجزه، وليذكر ظهور ما خفي عنه من مثل ذلك في وقت ثم ظهر له فيوقن أن هذا مثله، وأنه إذا طالت به الأيام قد يظهر له من وجهه ما خفي منه، فيتلقاه الان بالتسليم والتنزيه راداً علمه إلى الله تعالى مفوضاً أمره إليه، ويكون عمله في شرع الله هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف وتحصيل الأحكام وحكمها والعقائد وأدلتها والاداب وفوائدها والمفاسد وأضرارها، حتى إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر ما علته ذكر عجزه وتوقف عنده، فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين، ولم يمنعه عجزه عن تعليل وتبيين وجهة ذلك القليل من المعنى ؛ من التفهم والتدبر لما بقى له من الكثير.

ويكون عمله في كتاب الله هو التفهم والتدبر لاياته والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها وما جاء في التفاسير المأثورة، وما نقل من مفهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم المشهود لهم بذلك من أمثالهم، فإذا وقف أما المتشابه رده إلى المحكم، وإذا انتهى إلى فواتح السور ذكر عجزه فامن بما لها من معنى وقال: الله أعلم. فهذا السير النظري والعمل العملي المبني على اليقين بعدل الخالق جل جلاله وحكمته ورحمته في خلقه وقدره وشرعه وكلامه، ومعرفة العبد بقدره ومقامه ؛ يزداد السائر على مقتضاه إيماناً وعلماً وفوائد جمة[1].

**. المعرفة الفطرية:**

يرى ابن باديس أن المعرفة الفطرية هي أصل المعرفة الإنسانية، وهي نوع من الإدراك المتطور للمعلومات وللحقائق في بساطتها وبداية نشأتها، وأن هذه المعرفة تتميز عن المعرفة التي للحيوان، لأن المعرفة الحيوانية فطرية بحتة وأنها نوع من أنواع الإدراك الأولي البسيط، أما المعرفة الإنسانية فيمتاز الإدراك فيها بالتركيب والتحليل والتطبيق[2].

---

(1) المصدر نفسه (1 / 86).

(2) المصدر نفسه (1 / 87).

ويعلل ابن باديس أهمية هذه المعرفة ويحدد حقائقها المميزة في:

أن المعرفة خاصة بالجانب الإلهي وحده وأنها تتحقق من خلال ثلاث مراحل من العلم:

**الأولى**: علم بالله لمعرفة صفاته ونعوته.

**والثانية**: علم من الله لمعرفة الظاهر والباطن والحلال والحرام والنهي والأحكام.

**والثالثة**: علم مع الله وهو معرفة تقوم على الخوف والرجاء والمحبة والشوق.

ـ أن هذه المعرفة تساعد الإنسان في التغلب على عناصر الطبيعة والتحكم فيها بما فيها من حيوان وجماد وتسخيره لمصلحته، أما رقي أطوار التقدم في حياته فيرجع للعقل الذي هو القوة التي امتاز بها وساد هذا العالم الفاني.

ـ وأن هذه المعرفة تتميز بأنها إيمانية وقلبية وكامنة في النفس وأنها يقينية وصادقة بطبيعتها، ويمكن التأكد من وجودها وصدقها بوسيلتين، إما بسؤال الغير من أهل العلم، وإما من طريق معرفة الإنسان لنفسه، لأن هذه المعرفة مغروسة في النفس وواجب الاعتراف بها، وهذا ما يؤكده ابن باديس بقوله: من عرضت له شبهة وجب عليه أن يبادر إلى إزالتها بالنظر لنفسه أو بسؤال غيره من أهل العلم، وإن هذه المعرفة بدون الإذعان القلبي والخضوع لا تفيد شيئاً، ومن لم يخضع قلبه لما عرفه من عقائد الإسلام لم تفده تلك المعرفة ولم يكن بها من المسلمين[1].

ـ إن المعرفة الفطرية الإيمانية لا تتكرر ولا تتعارض مع المعرفة الحسية والعقلية ولا تنفصل عنهما، ولكي تستكمل هذه المعرفة وظيفتها ويستمر صدقها ؛ لابد من أن نحذر العديد من العوامل التي تؤدي إلى فساد الإدراك والفطرة السليمة مثل:

---

(1) المصدر نفسه (1 / 89)، العقائد الإسلامية لابن باديس ص 25 ـ 43.

ـ الأخذ بظاهر الأشياء والتسرع في الحكم، وهو ما حذرنا منه ابن باديس فيقول: علينا أن نحذر الاعتراض أو الحكم بالأنظار السطحية دون بحث عن الحقائق، أو أن نلحق شيئاً بشيء دون أن يتحقق انتفاء جميع الفوارق، فقد انتشر بعدم الحذر من هذين الأمرين جهالات، وارتكبت ضلالات. والجهل المركب والقياس الفاسد هي أعظم أصول الفساد والضلال[1].

ـ الاغترار بقدرة العقل المطلقة على اكتشاف كل مجهول، فيجب أن نحذر ذلك أي خطر الإعجاب بالعقل، وضرورة وضع الحدود له حسب قدرته.

ـ يقول ابن باديس: إن قلوبنا معرضة لخطرات الوساوس والأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم، ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وما حكاه المتكلمين ومناقضتهم فما ازدادوا إلا شكاً وما ازدادت قلوبهم إلا مرضاً، حتى مع كثير منهم في أواخر أيامهم عندما لجؤوا إلى القرآن وعقائده وأدلته فشفوا بعدما كادوا كإمام الحرمين والفخر الرازي.

ـ الحيرة والاضطراب والضلال لناتج عن خفاء الحقيقة، وفي بيان الحقيقة الهدوء والاطمئنان وإنارة السبل للعاملين، وفي معرفة الحقيقة راحة للإنسان وفي بعدها الحيرة والقلق والاضطراب[2].

. الحقد والبغض بين الناس يحول بين معرفة الحق والصدق، وكل من يريد أن يعرف الحق بفطرته عليه أن يخلي قلبه ما استطاع من الحقد والبغض، لأنه إذا سلم القلب وحصل الفهم أثرت كلمة الحق أثرها لا محالة[3].

. المال والجاه والرئاسة والسلطة، بها يطغى الإنسان ويتعالى ويتعاظم، فالسلطة كلها قواطع تبعد الإنسان عن الحق والإدراك السليم وتغلّ الفكر[4].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 293، 294).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 345).

(3) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 90).

(4) المصدر نفسه (1 / 90).

**. المعرفة الغيبية:**

إن ابن باديس أثناء بحثه في المعرفة العقلية وجد أن هناك بعض الحقائق وقف العقل أمامها عاجزاً عن إدراكها ومعرفة حقيقتها، لأنها تفوق طاقته وقدرته في البحث والنظر والتعليل والاكشاف، كما لاحظ في نفس الوقت أن البعض الاخر ينكر عالم الغيب وينكر قدرة الإنسان على معرفته. ومن ثم تأكيد ابن باديس على أن هذه الحقائق التي لا يستطيع العقل فهم طبيعتها وفي نفس الوقت لا يستطيع إنكارها لأنها موجودة بالفعل، وأنها تمثل جانباً من عالم الغيب مثل بعض الآيات الكونية وحقائق الكهرباء في الكون والقدر والروح، بل العقل نفسه في الإنسان ؛ أضافها ابن باديس إلى هذه الحقائق التي يصعب على العقل إدراك حقيقتها، واطلق اسم المعرفة الغيبية على هذا النوع من المعارف والحقائق التي لا يحكمها البرهان العقلي ويصعب تحديدها.

ورأى ابن باديس أن وقوف العقل عند حدود هذه الحقائق التي تفوق طاقته ووقوفه عند حد النظر والاعتبار في الحقائق الممكنة ؛ فتلك حكمة الله في كونه أن يقف العقل بقدراته في حالة عجز أمام عالم الغيب، حتى لا تختلط الحقائق بالأوهام أو حقائق الغيب بحقائق العلم. ومن هنا يأتي تحذير ابن باديس المتكرر من خطر الإعجاب بالعقل وقدراته المعرفية حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها وأن مدركاته يقينيات بأسرها، فعندها يؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات ويحسب أنه لا شيء بعدها وقد يخرج إلى إنكار خالقها، ويؤديه حسبانه الثاني إلى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته إلى غايات لا نسب بين اليقين وبينها، فكان من لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حداً يقف عنده وينتهي إليه ليسلم من هذا الخطر خطر الإعجاب بالعقل[1].

والمعرفة الغيبية عند ابن باديس هي معرفة غير مباشرة، وظنية وليست يقينية، بل هي نوع من الوهم الذي

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 52، 53).

لا يكون معرفة بحال، لأنه مجموعة من الصور الخيالة المحتوية على مجرد الظن أو التخمين[1].

ومن هنا تختلف تلك المعرفة عن المعرفة المباشرة التي أجازها الله سبحانه لأصفيائه من الرسل والصالحين للإعلام عن أشياء مستقبليه يجب معرفتها من جانب الرسل، وهذه المعرفة لا تتعارض ولا تتنافى مع إطلاع الله تعالى لأنبيائه على بعض ما يكون في المستقبل، إذ أنه علم محدود في شيء مخصوص كان بإعلام الله لهم، ولا يتجاوز علمهم إلى ما عداء في أحشاء المستقبل من الغيب ولا لما في الحال منه مما لم يعلموا به[2].

ويميز ابن باديس بين الظن المؤيد بالشرع وبين العلم بالغيبيات، ويؤكد أن العلم الحقيقي لا يؤيد الدخول في الغيبيات وخاصة أحوال ما بعد الموت، ففيها يكتفى بما جاء في القرآن أو ثبت في حديث عن الملائكة والجن والعرش والكرسي واللوح والعلم بعلامات الساعة وما لم يصل إليه علم البشر[3].

* * *

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 91).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 114).

(3) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 92).

# المبحث السادس

# مقومات الشخصية الجزائرية، ومكانة

# الأمة العربية والإسلامية، والفكر السياسي عند ابن باديس

## أولاً: مقومات الشخصية الجزائرية:

إن المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري هي أهم الأهداف التربوية عند ابن باديس إن لم نقل هي الهدف الاستراتيجي المحوري الذي تتفرع عنه كل الأهداف الأخرى التي يأتي التعليم في مقدمتها، وتحرير البلاد في نهايتها، فهو لا يتصور مستقبلاً آخر للجزائر إلا في ظل عروبتها وإسلامها، وهما ركنان أساسيان من أركان الشخصية الجزائرية، وأما الركن الثالث فهو الجزائر، فالإسلام بتراثه الروحي العظيم، والعروبة بقيمها العريقة، والجزائر بماضيها المجيد ومستقبلها الزاهر ؛ هي المكونات الثلاثة للشخصية الجزائرية في رأي ابن باديس[1]، والتي صاغ على أساسها شعاره المعروف الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا[2].

ويمكن للباحث أن يحلل شعار الحركة الإصلاحية التي قادها ابن باديس فيتضح له الآتي:

### 1 . الإسلام ديننا:

الإسلام في منظور ابن باديس منهج هداية ونظام اجتماعي شامل وتنتظم ضمن فصوله أمور الحياة الدنيا

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، د. تركي رابح ص 255.

(2) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 67.

ومطالب الأخرى، لأن الإسلام في جوهره وكما فهمه أئمة السلف: هو سعي جاد إلى المواءمة بين الطبيعة والإنسان وبين الحياة البشرية في جوانبها المادية والحياة البشرية في جوانبها الروحية، وهو بهذا يسع الأوطان والأقوام والأجناس ويستوعبها ويحترم الأديان ويعترف بها، ويدعو إلى حسن المعاملة حتى مع المخالفين للدين غير المحاربين مصداقاً لقوله تعالى: {لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *} [الممتحنة : 8].

فالإسلام دين عدل وإنصاف وتسامح، لأنه كما يقول ابن باديس: دين الإنسانية التي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، لأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله[1].

ومن أقواله التي يؤكد فيها هذا المفهوم قوله: الإسلام عقد اجتماعي عام فيه ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه، وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام[2]، ويقصد هنا في ضوء المبادئ والقواعد التي يدعو إليها الإسلام: ومن أحدث ذلك ما قرره مؤتمر القانون الدولي العام في حق الفقه الإسلامي وصلاحه لأمور الحياة فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة[3].

وابن باديس يرى أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام كتاب حكمة، والحكمة هي العلم الصحيح والإدراك القويم للحقائق، وهو الخلق الكريم والعمل الصالح ثم يوضح فيقول: ففي الفقه في دين الله الكمال العلمي وفي العمل به الكمال العملي.. وما كمال الإنسان العلمي وكماله العملي إلا بالمعرفة الصحيحة والسلوك المستقيم[4].

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 112).
(2) الشهاب ج 8 م 13 أكتوبر 1937م ص 260.
(3) إمام الجزائر ص 68.
(4) المصدر نفسه ص 68.

وكان كثيراً ما يردد: لا نجاة لنا إلا بالرجوع إلى القرآن، إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام عليه[1]، لأنه ما من فكرة أو سلوك إلا وفي القرآن شاهد عليها، وما من معضلة إنسانية إلا وفي القرآن ما يرشد إلى حلها، إنه نظام تشريعي محكم للعلاقات الإنسانية، فالعدل والأخوة والاحترام، وتحريم الظلم وأشكال الاستعباد والاستغلال، والحرية والتضامن وإقرار الإحسان العام وما إليها ؛ كلها قيم قرانية تشربتها شخصية ابن باديس.

إن غاية ابن باديس من التشديد على تنبيه الناس إلى الحقائق المتضمنة في القرآن الكريم هي:

. إقامة مجتمع إسلامي متكامل، والطريق إلى بناء هذا المجتمع هو فهم القرآن وتدبره واتباعه، والسير على هديه ولذا يقول: وإن القرآن الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوِّن رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه[2]، ثم يقول: فإننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستحقق أن يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم. وعلى هؤلاء القرانيين تعلق الأمة امالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها[3].

إن الإسلام الذي يراه ابن باديس طريقاً لخلاص الأمة من أوضاعها المتردية هو الإسلام الإيجابي، الذي يحارب السلبية والجمود والاستكانة والاستسلام لليأس والكسل، ويناهض كل أشكال الاستغلال والاضطهاد والتمييز العرقي والجنسي، ويدفع المنتمين إليه إلى الثورة على ما في نفوسهم من ضعف وجبن وتردد، وعلى الأوضاع الفاسدة التي تعوق مجتمعهم عن النهوض والتقدم ومقاومة التخلف بكل أشكاله[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 69.

(2) خطوات في العمل الإسلامي، أبو جرة سلطاني ص 47.

(3) إمام الجزائر ص 69.

(4) المصدر نفسه ص 70.

وهكذا يتحدد المفهوم الإيجابي الذي يعطيه ابن باديس للإسلام كما يراه وكما يجب أن يراه العلماء، إنه الإسلام الذي يبنى فيه الاعتقاد على المعرفة والتدبر والتفكير، وليس على الوراثة والتقليد، لأنه يرى أن هناك نوعين من الإسلام في العصر الحاضر:

. إسلام وراثي مبني على التقليد والجمود.

. إسلام ذاتي مبني على التفكير والبحث والتأمل.

والذي ينهض بالأمم والشعوب في رأيه إنما هو الإسلام الذاتي المبني على التفكير، يقول ابن باديس: أما الإسلام الذاتي فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وادابه وأحكامه وأعماله، ويتفقه حسب طاقته في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويبنى ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان وعمل، ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان، كما هي بمقتضى الشعور والوجدان[1].

وكان ابن باديس كعادته كلما همَّه أمر جمع جنده من رجال جمعية التربية والتعليم وحاورهم وخطب فيهم مبيناً حقيقة الأمر الذي يشغله ليسمع منهم رأيهم ويبين لهم رأيه، لأنه لا يريد أن ينفرد برأي خاص في المسائل الجوهرية.

ففي أخريات حياته عام 1937م تحدث إلى أعضاء جمعية التربية والتعليم التي تشرف معه على التعليم العربي الحر، تحدث إليهم في محاضرة نشرتها الشهاب ج/ 10، م12: وقف الإمام أمام ذلك الحشد الطيب من جند الإسلام وحماة العربية ونظر في وجوههم ليقرأ فيها مستقبل الجزائر، ومدى استعدادهم لصنع هذا المستقبل، وبعد أن حياهم بأفضل تحية مهد لموضوعه بكلمات نقتطف منها مايلي:

ينبغي لكل قوم جمعهم عمل أن يفهم بعضهم بعضاً، كما ينبغي أن يفهموا العمل الذي هم متعاونون

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 228.

عليه، ليكونوا في سيرهم على بصيرة من أنفسهم وعملهم، ونحن أيها الأخوة الذين اجتمعنا على التربية والتعليم من معلم ومتعلم يجب علينا أن يفهم بعضنا بعضاً.. وأنا أظن نفسي مفهوماً عند من يتصلون بي مثلكم، ولو كان ذلك في زمن قليل، لأني ما فتئت أعلن عن فكرتي التي أعيش لها ورغباتي التي أسعى إليها في كل مناسبة.. ثم قال في بيان مؤشر:

**. لمن أعيش؟ أعيش للإسلام وللجزائر جاء فيه:**

والذي يهمنا هنا في الجواب هو الشطر الأول منه: أعيش للإسلام**!**

قال: قد يقول قائل أن هذا ضيق في النظر، وتعصب للنفس وقصور في العمل وتقصير في النفع، فليس الإسلام وحده ديناً للبشرية، ولا الجزائر وحدها وطناً للإنسان، ولأوطان الإنسانية كلِّها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية، ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام، فأقول: إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها ؛ هو ما نقصده ونرمي إليه ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه[1].

. ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة، فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع.

ونحن لما نظرنا إلى الإسلام وجدناه الدين الذي:

ـ يحترم الإنسانية في جميع أجناسها فيقول جلّ وعلا: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *} [الإسراء : 70].

. ويقرر التساوي والأخوة بين جميع الأجناس، ويبين أنهم كانوا أجناساً للتمييز لا للتفضيل، وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، فيقول الله: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ *} [الحجرات : 13].

---

(1) إمام الجزائر ص 72.

ـ ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم بما يجمعها في وحدة الأصل ووشائج القرابة القريبة والبعيدة فيقول تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا *} [النساء : 1].

ـ ويقرر التضامن الإنساني العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع، والإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع، فيقول: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة : 32].

ـ ويقرر شرائع الأمة ويهون عليها شأن الاختلاف ويدعوها كلها إلى التسابق في الخيرات، قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [المائدة : 48].

ـ ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها ويسلم أمر التصرف لأهلها فيقول: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *} [الكافرون : 6].

. ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق، قال تعالى: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المائدة : 8].

. ويحرم الاعتداء تحريماً عاماً على البغيض والحبيب فيقول: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة : 2].

. ويأمر بالعدل والإحسان فيقول: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [النحل : 90].

. ويأمر بحسن التخاطب فيقول {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً} [البقرة : 83].

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا في الإسلام، وهو الدين الذي فطرنا عليه الله بفضله ؛ علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته وخدمة كل ما هو بسبيله

ومن ناحيته، فإذا عشت له فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هذا إلا بالإسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله. فهذا ـ أيها الأخوان ـ معنى قولي، أنني أعيش للإسلام[1].

إن اهتمام ابن باديس بالإسلام وارتباطه به يعتبر محوراً جوهرياً في استراتيجية التغيير التي سار عليها في حياته، ويرجع ذلك إلى قناعته على قدرة تعاليم الإسلام على التصدي لمخططات الاستعمار وأكاذيب المستشرقين ودعاة التنصير ومن والاهم من المنفذين لمؤامرات الغزاة، والتي كانوا يستهدفون النيل من الكيان الروحي للجزائر، ومن ثمة ابتلاع الوطن أرضاً وعقيدة وثقافة، لذلك ابن باديس يدافع عن الإسلام ويجاهد في سبيل حمايته من خطر الابتلاع، وحماية بلاده مما يدبر لها، إذ لا فرق عنده بين الدين والوطن، فالدفاع عن الوطن يتضمن حتماً الدفاع عن الدين.

هذه هي استراتيجية ابن باديس التي أصبحت استراتيجية جمعية العلماء، فهو لم يفصل في معاركه التي خاضها في هذا السبيل هو ورفاقه بين الإسلام والجزائر. وكان يرى أن الطريق الأمثل لتحقيق الفوز في هذا المجال هو التعليم وتربية الأجيال، وتثقيف العقول وإذكاء الوعي واحياء الضمائر والقلوب لفهم وظيفة الإسلام الحقيقية، التي ليست محصورة في تلقين الناس كيفية ممارسة الشعائر الدينية، وتعليمهم ما يجوز وما لا يجوز من الأقوال والأفعال فقط ؛ إنما الوظيفة الحقيقية للدين الإسلامي هي محاربة الجمود الفكري، والتدهور الخلقي، والقضاء على روح الخضوع والاستسلام لمخططات الاستعمار، التي يسعى من ورائها إلى إفراغ العقول والقلوب من كل ما يشعرها بذاتيتها وينير طريقها في الحياة، واستطاع أن يجعل من التثقيف جبهة من جبهات الدفاع للتصدي:

ـ لإحباط كل سياسة ترمي إلى التنصير والفرنسة، أو الإدماج والتجنيس، ومواجهة كل المساعي التي كان

(1) إمام الجزائر ص166 .

يتخذها الاستعمار لتضليل الجزائريين وخنق وعيهم واجتثاثهم من منابتهم، بهدف تأييد الاحتلال وإلحاق الجزائر نهائياً بفرنسا عن طريق الإدماج والتجنيس[1].

إن ابن باديس يرى أن المجتمع الجزائري مسلم، ويجب أن يحكمه مسلمون، يرعون حرمة الإسلام وأحكامه، ولذلك قال: الإسلام هو الأساس الذي يجب أن يبنى عليه كل عمل للجزائر، والنهج الذي يجب أن يسير فيه كل من يتولى قيادة ناحية من نواحي سيرها في الحياة، وكل من حاد عنه قولاً أو عملاً فإنه يعد خائناً للأمة، ويجب أن يعامل بما يستحقه الخائنون[2].

إن ابن باديس كان في تحليله يربط بين الوطنية والإسلام، ولكن نظرته على الرغم من أنها منطلقة من الجزائر ؛ لم تكن محصورة في الجزائر، بل كانت تمثل واقع البلاد العربية والإسلامية لأن أحوالها متشابهة، كما كان يدعو في مجال تسيير شؤون المجتمع إلى اعتماد القوة والأخلاق، القوة التي تستخدم في الحق والخير والدفاع عن العدل والسيادة، والقوة الحقيقية هي قوة العلم إذ العلم هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، والمسلمون لن يحققوا سيادتهم وعزتهم بين الأمم إلا إذا خضعوا في حياتهم لهذا القانون الإلهي الصارم النافذ في تطور المجتمع وعمرانه. وبدون قوة العلم والأخلاق لا يمكن للحاكم أن يحقق العدل والأمن، أو أن يسوس الناس بالإحسان على أساس من الحق والخير والجمال[3].

والأخلاق التي يجعلها ابن باديس أصلاً من أصول الحكم ووسيلة من وسائله هي الأخلاق القرآنية التي كانت أخلاق الرسول (ص) والتي لخصها ابن باديس في الفضيلة واعتبرها ركناً من أركان النهضة، الأخلاق

---

(1) إمام الجزائر ص 74 . 75.

(2) المصدر نفسه ص 83.

(3) حركة ابن باديس التربوية علي علواش ص 244.

التي ينتفي مع وجودها الظلم والاستبداد والخيانة والعدوان والتمييز والأنانية وغير ذلك من الرذائل التي تهدم المجتمع[1].

وحيث أن القرآن هو المصدر الأول الذي يعتمد في فهم الإسلام، فقد استخلص ابن باديس من خلاله أن العلم والعقائد والأخلاق من أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وقرر أن أول خطوة في نهضة المسلمين هي بناء حياتهم على قوة العلم والأخلاق اللذين هما أساس كل قوة[2]، ولكن لا علم ولا أخلاق إلا بالعقائد، ولا يحصل شيء من ذلك إلا بالتربية والتعليم[3].

ويرى ابن باديس أن النظام السياسي العادل يسهم في نشر الفضيلة، ويحارب الرذيلة، وينمي في الناس الإحساس بالقوة والعزة والكرامة. ويشير في سياق آخر إلى أن الخضوع للاستبداد يتنافى مع غيرة المسلم وإيمانه بالله وبحقه في الحرية والحياة فيقول: فالذلة من المسلم نقص في إسلامه، والقساوة مثلها نقص فيه[4].

### 2. العربية لغتنا:

إن ابن باديس الذي حفظ القرآن وتأثر بحقائقه وتشرب الثقافة العربية الإسلامية منذ صغره ؛ امتلأت نفسه حباً لهذه اللغة وتقديراً لقيمتها الثقافية، فدرسها ودرس تاريخها وادابها وعرف الوظائف الحية التي تضطلع بها، والقيم التي تزخر بها، وأدرك بعمق ارتباطها بالإسلام، وبوجدان الإنسان المسلم، لأنها الأداة التي بها يناجي ربه، ويفهم القرآن ويطلع على حقائق الإسلام والتراث، وبها يتواصل مع أبناء جنسه ويحس بانتمائه القوي إلى أمته، وبأن هذه اللغة جزء من كيانه وركن من أركان شخصيته.

ولذلك جعلها ابن باديس رديفة الإسلام، وخصص لها مكانة في مشروعه الإصلاحي، وأعطاها الرتبة الثانية ضمن بنود شعاره الوطني الثلاثي الأبعاد « الإسلام ، العربية ، الجزائر » الشعار الذي جعلته الحركة

---

(1) إمام الجزائر ص 83.
(2) المصدر نفسه ص 84.
(3) المصدر نفسه ص 84.
(4) المصدر نفسه ص 84.

الإصلاحية دليلاً موجهاً لنشاطها ومنهاجاً محدداً لمضمون هذا النشاط، سواء في مجال التعليم أو الدعوة الإسلامية، أو في مجال بعث اليقظة السياسية والوعي الوطني[1].

**. نظرة ابن باديس إلى اللغة:**

يقول ابن باديس: علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود.. ولا رابطة تربط ماضينا بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المحروسة... إنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها نقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به، وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار وما في النفس من الام وامال.

إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين وخدم العلم وخدم الإنسانية، هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ سنين فليحقق الله أمانينا[2].

ويقول ابن باديس: هذا هو اللسان الذي ما فتئنا نتحدث عن محاسنه «عن فوائده» منذ أن نصبنا أنفسنا لهذه المهمة أي منذ 1913م إلى هذا التاريخ 1939م. لذلك نرجو من الله أن تتحقق الأماني، وأعظم هذه الأماني هي أن يتخلص الشعب من الاستعمار، وتستعيد اللغة العربية مكانتها في الحياة بين أهلها وفي وطنها، ولقد تحققت هذه الأماني أو بعض منها على الأقل، ولكن بعد رحيل ابن باديس رحمه الله[3].

وبهذا المنطق الحضاري نجحت الخطة الباديسية في إعداد الجيل الذي أحيا الوطن الجزائري في نفوس أبنائه، ومهد الطريق لجيل ات ليسترجع هذا الوطن بالثورة من قبضة الاستعمار، وبذلك أصبحت العربية

---

(1) إمام الجزائر ص 85.

(2) آثار عبد الحميد (4 / 147، 148).

(3) إمام الجزائر ص 89.

والعروبة والقومية على يد الحركة الباديسية طوق نجاة الجزائر من المسخ الحضاري، والسلاح الذي حققت به الباديسية نصراً خيل للكثيرين أن تحقيقه قد غدا أحد المستحيلات، كما ورد في تعليق الأستاذ عدايسية في المجاهد الأسبوعي عدد 1868 بتاريخ 1996/5/3م[1].

**. السياسة الاستعمارية تجاه اللغة:**

يمكن إجمال الحديث عن السياسة الاستعمارية تجاه اللغة العربية في عهد عبد الحميد بن باديس في كونها سياسة عدائية حاقدة ترمي إلى شيئين:

. فرنسة الشعب الجزائري فكراً ولغة وسلوكاً.

. محاربة اللغة العربية وانتقاص قيمتها وتضييق الخناق عليها.

**. سياسة الفرنسة:**

لقد نفذ الحكام هذه السياسة علانية وبدون مواربة، وتمثلت البداية في:

. إقصاء اللغة العربية من الميدان من كل الدوائر الرسمية التي كانت تعتمد فيها.

. إحلال اللغة الفرنسية محلها في جميع الدوائر والمرافق بدءاً من المدرسة إلى الإدارة.

. اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية لا يجوز أن تعتمد في تحرير الوثائق الرسمية.

. وإمعاناً في إقصاء اللغة العربية ؛ تم سد أبواب التعليم الوطني الذي كانت فيه العربية هي اللغة السيدة، بالاستيلاء على موارد الأوقاف التي كانت مصدر الإنفاق على التعليم، بالسطو على المؤسسات التعليمية وتخريبها، إما بتهديمها أو تحويل وظيفتها التعليمية بجعلها ثكنة أو إدارة أو إعطائها لرجال الكنيسة ينفذون فيها مشاريعهم التنصيرية.

---

(1) المصدر نفسه ص 89.

ـ تضييق الخناق على تعليم العربية ومطاردتها حتى خارج المدرسة الفرنسية التي أنشئت خصيصاً لتطبيق سياسة الفرنسة، «فرنسة العقول، والألسنة، والمحيط الذي يتعامل معه الجزائري».

.كانت سياسة التجهيل التي اعتمدتها حكومة الاستعمار في الجزائر أسلوباً من أساليب الفرنسة، لذلك لم تتح الفرصة التعليمية لأبناء الجزائر في البداية، ثم ظهر لها أسلوب اخر، فأنشأت لهم مدارس خاصة ووضعت لها برامج معينة، وحسب أهداف استعمارية واضحة، وحرصت أن يكون التعليم كله بالفرنسية، فوضعت بذلك الجزائريين في موقف الاختيار بين الفرنسة أو الجهل[1].

وضعتهم أمام خيار صعب، إما أن يقبلوا هذا الوضع ويسجلوا أبناءهم في هذه المدارس التي مستواها التعليمي أقل من مستوى المدارس الخاصة بأبنائهم، وإما أن يمتنعوا فيبقى أبناؤهم جاهلين[2].

والأمر في كلتا الحالتين هو في صالح الفرنسة، وكانوا يظنون أن الجزائري الجاهل أو المفرنس يسهل ابتلاعه واقتلاعه من منبته، لذلك أصروا على تنفيذ هذه السياسة ولكنهم أخطؤوا التقدير، فقد رفض معظم الجزائريين أن يرسلوا أبناءهم إلى هذه المدارس التي اعتبروها فخاً من فخاخ التنصير، كما أشار إلى ذلك بعضهم، ومع ذلك بقي الجزائري محافظاً على دينه ولغته وشخصيته، ولم يرض بالذوبان في الشخصية الفرنسية رغم الإغراءات والحيل.

**وقد ترتب على هذه السياسة:**

. لا وجود للتعليم باللغة العربية في مدارس التعليم الابتدائي إلا في عدد محدود من الصفوف الأخيرة من هذه المرحلة. وبتعدد عدد الصفوف والمدارس تبعاً لعدد التلاميذ الراغبين في الالتحاق بالمدارس الفرنسية الإسلامية الثلاث وهي مدارس ثانوية انشئت خصيصاً لتخريج بعض الموظفين الذين تحتاجهم حكومة الاستعمار مثل المترجمين والقضاة.

(1) التعريب بين المبدأ والتطبيق، بن نعمان ص 165.

(2) إمام الجزائر ص 90.

ـ وأما في المدارس الثانوية الأخرى فتدرج اللغة العربية لغة اختيارية بين اللغات الأجنبية، وفي مرتبة أقل قيمة من اللغات الأجنبية المطروحة للاختيار، وإذا اختار بعض التلاميذ العربية فإن ما يقدم لهم هو العربية الدارجة في أغلب الأحيان بدعوى أنها اللغة الحية، أما اللغة الفصحى فهي اللغة الكلاسيكية التي لا تستعمل في الحياة، وقد ألفت كتب لتعليم الدارجة «الموغلة في العامية».

. ولا وجود للعربية في المجالات الأخرى باستثناء المصالح الخاصة بالتوثيق الشرعي لأحكام الزواج والطلاق والتي أفردت لها مصالح خاصة.

ـ حظر استعمال اللغة العربية في المجالات الرسمية، وفرض على الجزائريين أن يترجموا المستندات والوثائق القديمة التي كانت في حوزتهم مثل العقود ويصدقوا عليها حتى تصبح مقبولة لدى الإدارة وصالحة للتعامل.

ـ من أساليب الفرنسة فرض حصار محكم على المجتمع الجزائري، وتشديد الرقابة على جميع المنافذ التي تربط الجزائر بالمشرق، والتي يمكن أن يطل منها النور ويتسلل شعاع المعرفة والوعي القومي، لذلك كانت تشدد الرقابة على الكتب والمجالات والجرائد القادمة من المشرق. وكثيراً ما كانت تصادرها وتحجزها، ولم نجد أصدق وصف لتلك العزلة التي كان يعيش فيها المجتمع الجزائري مما قاله محمد فريد المصري بعد عودته من رحلته الاستطلاعية إلى الجزائر سنة 1901م.

إن الأهالي هناك يعاملون بقوانين مخصوصة غاية في الشدة والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع وحرية السفر وحرية مطالعة الكتب والجرائد.

لم يرض المواطنون بهذه السياسة التي كان هدفها واضحاً في فرنسة الجزائري فكراً وسلوكاً ولغة، ولم يستسلموا للواقع المفروض عليهم، بل واجهوا الموقف بما يستحق، فقاطعوا المدرسة الفرنسية، واعتبروا تسجيل أبنائهم بها مدخلاً إلى التنصير أو المسخ أو الخروج من الملة[1].

---

(1) إمام الجزائر ص 92.

لقد اكتشف الجزائريون أن الفرنسيين لم يكن هدفهم نشر اللغة الفرنسية في الوسط الجزائري ومحاربة اللغة الفرنسية فقط، وإنما كانوا يسعون لتكون اللغة الفرنسية في الجزائر لغة قومية بالنسبة إلى الجزائريين، أي لها ارتباط قوي بمشاعرهم وأفكارهم وثقافتهم، بحيث تعارض اللغة القومية الأصلية وتقضي عليها. ونقرأ هذا المعنى في نص آخر في قرار 1948م الذي يقول نصه:

إن لغتنا هي اللغة الحاكمة، فإن قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة، وبهذه اللغة يجب أن تكتب جميع العقود وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا، فإن أهم الأمور التي ينبغي أن يُعتنى بها قبل كل شيء هو: السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين[1].

ومن الأساليب التي استعملتها الإدارة الاستعمارية في محاربة اللغة العربية ؛ محاربة أهلها والقائمين عليها، من ذلك محاربة ابن باديس وجمعية العلماء بكل الوسائل وحتى الدسائس، وتشويه صورة العلماء وصورة ابن باديس بالخصوص في أعين الناس، حتى يناصبوهم العداء ويستصغروا قيمتهم ويقاطعوا دروسهم والاتصال بهم.

وقد ذهبت الإدارة في هذا الاتجاه بعيداً ويكفي أنها حاولت إغتيال الشيخ ابن باديس نفسه[2].

لقد طاردوا العلماء والمعلمين، وحاكموهم بالباطل، وسجنوهم مع المجرمين وغرموهم، فكان تعليم اللغة العربية وممارسة الوعظ بها جريمة من الجرائم التي تجعل المعلمين في مستوى واحد مع اللصوص والقتلة ومهربي المخدرات[3].

هذه أمور كلها تندرج ضمن السياسية الاستعمارية التي وجهتها لمحاربة اللغة العربية وكل ما يتصل بها.

(1) المصدر نفسه ص 93.

(2) المصدر نفسه ص 95.

(3) المصدر نفسه ص 96.

**. مواجهة ابن باديس للوضع:**

في هذا الوضع الصعب ظهرت حركة ابن باديس التي كان فيها وفياً لاتجاهاته وأفكاره، وظهر له أن الأمر يحتاج إلى خطة للمواجهة، خطة محكمة البناء، متعددة الأوجه، وإلى وسائل مادية وتنظيمية وبشرية، فصمم على الشروع في العمل، وانطلق في تنفيذ الخطة التي تمّ شرحها في هذا الكتاب، ونشر التعليم واهتم بتربية الأجيال وتثقيف الناس ونشر اللغة العربية وترقية تعليمها، وجعل من التعليم بالجامع الأخضر بقسنطينة مدخلاً جريئاً لتنفيذ هذا المشروع، فقد كان الجامع الأخضر بمثابة جامعة من ناحية ومعهد لتكوين المعلمين والأساتذة الذي يحتاج إليهم الجزائر في نهضتها الجديدة من ناحية أخرى، وتمكنت الكوادر التي ساهم في تعليمها مع جمعية العلماء من الاطلاع على تاريخها وتراثها وفهم دينها وكتاب ربها، وغرس ابن باديس محبة اللغة العربية في نفوس المتعلمين، وجعلهم يحسون بأنها جزء من كيانهم ورمز معبر عن شخصيتهم.

وانطلق ابن باديس مع الصعاب والعوائق هو ورفاقه وتلاميذه يعملون في المدارس الحرة في شتى أنحاء القطر الجزائري، ولقيت هذه الجهود المخلصة نجاحاً منقطع النظير، كما يصور ذلك ابن باديس حيث يقول:

الشعب الجزائري شعب مسلم طبعه الإسلام على تعظيم التعليم وحب التعليم واحترام المتعلمين، فلما دبت فيه الحياة وهب للنهوض، واندفع للتعلم اندفاعاً أدهش قوماً وحيّر اخرين، فقدم له علماؤه المسلمون قبساً من نور الإيمان الذي هو في حنايا ضلوعه، وناغوه بلغة دينه التي تتصل بروحه ليفهم ذلك الدين ويتذوق معانيه وتتشرب روحُه حقائقَه وأحكامه.. وإذا كنا نصرف أكثر جهدنا للتعليم العربي فذلك لأنها اللغة المهملة بين أبنائها المحرومة من ميزانية بلدها، المطاردة في عقر دارها، المغلقة مدارسها، المحارب القائمون على نشرها من أبنائها، اللهم إلا قليلاً نادراً على خوف يحتج به عند مقتضى الحال وإلا المدارس الرسمية الثلاث التي لا

تقبل إلا عدداً محدوداً، فإلى المسؤولين الذين يقدّرون مسؤوليتهم نوجه نداءنا من أجل حرية ولغة الدين[1].

وهكذا نجد الإمام ابن باديس قد اتجه بكل جهده إلى العناية بالتعليم الإسلامي وتعليم اللغة العربية، وإنشاء المدارس في طول البلاد وعرضها في مدنها وقراها، وكان ابن باديس معاصراً في استعمال أداة التربية والتعليم، لتحقيق مقاصده، وقد أدرك قيمة المدرسة في خدمة الأهداف العقيدية الفكرية على المدى الطويل، وكان معاصراً في إدراك ما يحتاجه الشعب الجزائري بالذات في ذلك الوقت الذي يهدده خطر الابتلاع والاحتواء من قبل السلطة الاستعمارية[2].

إن حرص ابن باديس على التعليم عموماً، وعلى تعليم اللغة العربية وادابها خصوصاً ؛ كان الدافع إليه الحفاظ على الشخصية الجزائرية، وفطنت السلطة الاستعمارية للغاية التي كان يتوخاها من جهوده المتواصلة في مجال تعليم الناس لغتهم وأساسياً دينهم وتاريخهم، فجدّت في وضع العراقيل أمام تلك الجهود، ومن ذلك إلزام كل معلم باستصدار ترخيص بذلك وإلا تعرض للغرامة والسجن بمقتضى قانون 8 مارس سنة 1938م والقوانين التي سبقته.

وكانت قد عمدت من قبل إلى التضييق على ابن باديس في أحاديثه ومحاضراته وكتاباته. وقد كتب ابن باديس في جريدة البصائر يوم 8 أفريل 1938م مقالاً بعنوان أعداء الأمة الجزائرية يجمعون أمرهم ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قراراً وزارياً بعقوبات صارمة على التعليم، ليهدموا الشخصية الإسلامية من أصلها، وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها، علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وادابه وأحكامه، وأن لا تعليم له إلا بتعليم لغته، فناصبوا تعليمها العداء، وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية ومكاتب التعليم الديني العربي والضن بالرخص واسترجاع

(1) إمام الجزائر ص 100.

(2) عبد الحميد بن باديس، فتحي عثمان ص 81.

بعضها حتى لم يبقوا منها إلا على أقل قليل، ولما رأوا تصميم الأمة على تعلم قرانها ودينها ولغة دينها، واستبسال كثير من المعلمين في القيام بواجبهم، واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد ورغم الزجر والتغريم ؛ لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم حتى استصدروا قانون العقاب الرهيب. لقد فهمت الأمة من هم المعلمون المقصودون، فهم معلمو القرآن والإسلام ولغة القرآن والإسلام.. بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان المروجين للنصرانية في السهول والصحارى والجبال بين أبناء وبنات الإسلام في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال. إلى أن يقول: سنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا وإننا على يقين من أن العاقبة ـ وإن طال البلاء ـ لنا، وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا قد عرفنا إيماناً وشاهدنا عياناً أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودها ولو أجتمعوا كلهم على محاربتهما[1].

ويؤكد الشيخ البشير الإبراهيمي هذه الروح النضالية وهذا التصميم على خوض المعركة مهما كان الثمن فيقول: والأمة الجزائرية من أوفى الفروع العربية لهذه اللغة، وأكثرها براً بها وتمجيداً واعتزازاً لها إلى أن يقول: جاهدت هذه الأمة في سبيل لغتها جهاداً متواصلاً كان من ثمرات النصر فيه هذه النهضة التعليمية التي ولدت الكتاب والشعراء والخطباء والوعاظ، وهي نهضة لم تعتمد الأمة فيها إلا ما في نفسها من حيوية موروثة، ولم تلتمس فيها عوناً من أجنبي، بل لم تلق من الأجنبي إلا المعارضة الحادة والتثبيط القاتل، وكان من نتائج هذه النهضة إلحاح الأمة في المطالبة بمظهر سياسي وطني للغتها،وهي أن تكون رسمية في المدارس والدواوين والأقلام.. والأحكام، وأن يعترف لها بمكانتها في وطنها وأن تمحى عنها تلك الوصمة التي لم تسبّ بأبشع منها وهي أنها أجنبية في دارها[2].

إن هذه العراقيل التي كانت تضعها السلطة الفرنسية أمام جمعية العلماء والإمام ابن باديس خاصة ؛ لم

(1) البصائر (8 / 4 / 1938م).

(2) التعريب بين المبدأ والتطبيق، بن نعمان ص 180.

تفت في عضدهم، ولم تثنهم عن عزمهم، بل زادتهم قوة لأنهم تأكدوا أن عملهم أصبح يخيف الحكام ويقلقهم، وهذا دليل على أنهم في الاتجاه السليم.

ويشخص البشير الإبراهيمي هذه الروح المعنوية فيقول: بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم، ونقدر أنها ستعم، وأن أول المطر قطرة، وأن الأحكام ستكون بالغرامة والسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرتفعة. وهو هنا يتحدث بلسان جميع معلمي اللغة العربية، ونستقبل هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي بإخواننا المجرمين في مجالس الأحكام ومقاعد الاتهام. وحسبنا شرفاً أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخراً أن تكون التهمة «فتح مدرسة دينية وقرانية بدون رخصة» وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية والإسلام ويسجنهم على التعليم، كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة وسجن واحد[1].

**. الإعتزاز بالعرب وحضارتهم:**

قال ابن باديس: على كل من يدين بالإسلام، ويهتدي بهدي القران، أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيتهم، وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام ذلك لارتباط تاريخهم بالإسلام، ولعناية القرآن ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام[2]، وابن باديس يرى أن العرب هُيئوا تاريخياً لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية: وتفسير ذلك أنه: ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال.

ولعل أهم ما أعجبه في خصال النفس العربية تلك العزة التي عرفت بها، ونفورها من كل إذعان أو خضوع وانقياد للأجنبي يقول: فمن الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء، لا في لغتها، ولا

---

(1) إمام الجزائر ص 102.

(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ابن باديس، أعمال الملتقى الدولي 10 / 9 / 1912.

في شيء من مقوماتها، ومن الواضح جداً مبلغ ما في كلام ابن باديس من التوظيف في واقع الجزائريين انئذ، وما ينطوي عليه من الاستفزاز والتحريض، ولن يترك الحديث عن الحديث عن العزة العربية، فهو يذكّر بها في كثير من مقالاته وقد وصف بها الشعب الجزائري مفتخراً بها وبه في شعر له مشهور يقول فيه:

أشعب الجزائر روحي الفدا   لما فيك من عزة عربية

بنيت على الدين أركانها   فكانت سلاماً على البشرية[1]

**. الاحتجاج لعروبة الجزائر:**

ما كان باستطاعة الشيخ الإمام أن يمضي في الدفاع عن عروبة الجزائر والجهاد من أجل الهوية العربية الإسلامية من دون أن يثبت هذه الصفة بحجج تاريخية وبراهين مقنعة، في ذلك الوقت الذي كان الاستعمار يعلّم فيه أطفال الجزائر أن أجدادهم هم الغالبون، وهم سكان بلاد الغال، أي من يُعتبرون أجداداً للفرنسيين الحاليين، لذلك طرح السؤال بكل صراحة ووضوح وأجاب عنه بنفس الوضوح والصراحة.

**كيف صارت الجزائر عربية؟**

يقول ابن باديس في مجلة الشهاب فبراير 1938م: ما من نكير أن الأمة الجزائرية كانت أمازيغية من قديم عهدها. ولم تستطع أمة في التاريخ أن تقلبها عن كيانها أو أن تخرج بها أمازيغيتها.. بل كانت هي تبتلع الفاتحين، فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحاً إسلامياً لنشر الهداية، لا لبسط السيادة، دخل الأمازيغ الإسلام، وتعلموا لغة الإسلام العربية طائعين، فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة، ونافسوهم في مجالس العلم، وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش، فاتحدوا في العقيدة والنحِلة، كما اتحدوا في الأدب واللغة، فأصبحوا شعباً واحداً عربياً متحداً غاية الاتحاد، ممتزجاً غاية الامتزاج. وأيّ افتراق يبقى بعد اتحاد الفؤاد وإتحاد اللسان؟

وقد وجد الشيخ ابن باديس نفسه مجبراً على أن يخوض على جبهة «وحدة الأمة» معارك حامية لسد

(1) المصدر نفسه ص 27.

أبواب الفتنة ؛ ذلك أن شرذمة صغيرة من ذوي النفوس المريضة، قد وقعت في أسر المخطط الاستعماري، وبدت منها سلوكيات وخيمة العواقب على وحدة الشعب التي هي أقوى أسلحته لدحر عدوه المسيطر(1).

**. التحذير من الفتنة على الأساس العرقي المزعوم:**

ظل الاستعمار حقبة طويلة من الزمن يتامر على وحدة الشعب الجزائري ويروج لنظرية انقسامه إلى أجناس وأعراق شتى، فلما لم تعط المؤامرة النتائج التي كان يرجوها منها ؛ كلف فئة من عملائه أصحاب الامتيازات أولئك الذين لهم مصلحة مصيرية في خدمة السلطة الاستعمارية في أي ميدان تحدده لهم، حتى لو كان وحدة الشعب والوطن، وكان لهم الشيخ الإمام بالمرصاد كعادته أبداً.

وكان رد الفعل في شكل مقال واسع الأصداء أراد له أن يكون ذا طابع تربوي موجه إلى الشعب بغية تنبيهه وتحذيره من خطر الوقوع في الفخ المنصوب له من ألد الأعداء، كان عنوان المقال المنشور في مجلة الشهاب في عدد شهر فبراير 1939م هو: ما جمعته يدُ الله لا تفرقه يدُ الشيطان، يقول فيه بوجه خاص: إن أبناء يعرب وأبناء أمازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرناً، ثم دابت تلك الفروق تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدّهم في السرّاء والضرّاء، حتى كونت منهم خلال حقب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً، أمه الجزائر وأبوه الإسلام.

ولكن معارك ابن باديس لم تكن تنتهي أو تخمد مع فريق في ميدان من ميادين الهوية العربية الإسلامية للجزائر ؛ حتى تندلع مع فريق اخر، وكانت مقاومته لنظرية الاندماج مقاومة مشهودة(2).

**. مواجهة الاندماجيين:**

الاندماجي مصطلح سياسي تاريخي دل في الجزائر على من يؤمن بما يسمى الاندماج ويناضل سياسياً من أجل تحقيقه، وكان الواقع الجزائري يطلق على جماعات من النخبة الجزائرية يعتقدون أنه من المستحيل

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 31.

(2) المصدر نفسه ص 32.

افتكاك الجزائر من مخالب الاستعمار الفرنسي، لا سلماً ولا حرباً. وعلى ذلك فإن الأنفع والأجدى في نظرهم من المطالبة بالاستقلال ؛ إنما هو السعي إلى مطالبة السلطات الفرنسية بتحقيق المساواة بين كل الفرنسيين مادامت القوانين الفرنسية تنص على أن الجزائر فرنسية، أي تحقيق الانصهار التام بين الشعب والأقلية الأوروبية التي تمثل الوجه القبيح للاستعمار الاستيطاني في الجزائر، وهي التي جاءت في ركابه وملّكها بالقوة أراضي الجزائريين الخصبة، وحوّل القادرين منهم إلى خدم بلا حقوق ولا اعتبار لكرامتهم الإنسانية، ذلك هو الاندماج في مصطلحهم.

وقد كان الشيخ ابن باديس مناهضاً صلباً للاندماج والإندماجيين، وهو المشهور بقصيدته التي يرى فيها أن الاندماج هو الأمر المحال وفي ذلك يقول قصيدته المشهورة التي غدت نشيداً وطنياً تغنت به أجيال كثيرة من أبناء الوطن ومن أشهر أبياتها قوله:

| | |
|---|---|
| شعــب الجزائر مســلم | وإلى العـــروبة ينتسب |
| من قال حاد عن أصله | أو قال مات فقد كذب |
| أو رام إدمــاجاً لــه | رام المحـــتال من الطلب |

وقد كان من أشهر هؤلاء الاندماجيين في هذه الفترة التي نتحدث عنها السيد فرحات عباس الذي كان من رجال السياسة البارزين في ذلك العهد، وهو الذي صار بعد اندلاع الثورة أول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ما بين سنتي 1958م، 1960م، فقد تغيرت أفكاره ومواقفه مع الزمن وانخرط في الثورة الشاملة ضد المحتلين.

كان فرحات عباس قد كتب في جريدة الوفاق التي تصدر باللغة الفرنسية واسمها لانطانت يوم 23 فبراير 1936م مقالاً باللغة الفرنسية تحت عنوان «فرنسا هي أنا» قال فيه ما ترجمته: لو كنت اكتشفت الأمة الجزائرية لكنت وطنياً. ولن أموت من أجل الوطن الجزائري، لأن هذا الوطن غير موجود لم أعثر عليه ، وقد

سألت التاريخ وسألت الأحياء وسألت الأموات وزرت المقابر فلم يُحدّثني عن هذا الوطن الجزائري أحد[1].

وتصدّى الشيخ الإمام ابن باديس للردّ عليه في مقال كان له صدى واسع ودويّ كبير تحت عنوان «كلمة صريحة» ردّ فيه على فرحات عباس، بدأه قائلاً:

إن هؤلاء المتكلمين باسم المسلمين الجزائريين، والذين يُصورون الرأي العام الإسلامي الجزائري بهذه الصورة هم في وادٍ والأمة في واد.. ثم يُضيف في صرخة استنكار: لا يا سادتي، نحن نتكلم باسم قسم عظيم من الأمة، بل ندعي أننا نتكلم باسم أغلبية الأمة، فنقول لكم ولكل من يُريد أن يسمعنا.. إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة.

ثم يخلص الإمام إلى أهم فقرة في مقاله والتي يقول فيها: ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست في فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معين، هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة[2].

وقد بلغ من تأثير هذا المقال في المحيط السياسي، أن قامت على الشيخ الإمام ضجة كبيرة، أراد أصحابها من خلالها أن يستفزوا عليه سلطات الاستعمار، بحُجة كونه ضد «الوجود الفرنسي في الجزائر». أما المعني نفسه وهو الأستاذ فرحات عباس، كما يسميه الشيخ ابن باديس بكل أدب، فقد زاره في مكتبه بإدارة المجلة التي يُشرف عليها في مدينة قسنطينة، وهي مجلة الشهاب التي صدر فيها المقال، وشرح له من خلال تلك الزيارة أنه كان يريد أن يُحق حقوق الجزائريين في المساواة مع الفرنسيين.

ثم كتب فرحات عباس يُعيد ذلك مقالاً في جريدة «لاديفانس» «الدفاع» مقالاً توضيحياً حاول أن

---

(1) المصدر نفسه ص 33.

(2) المصدر نفسه ص 34.

يخفف فيه من وطأة المقال الأول، وما كان من اثاره السلبية في الرأي العام الوطني(1).

وقد أثنى الشيخ ابن باديس على تقبل فرحات عباس للنقد البنّاء فقال: وإنا لنشهد أنه من أكمل الرجال الذين رأينا فيهم ـ بهذه المناسبة ـ الهمة العالية وشرف النفس وطهارة الضمير، ونقدنا له لم يتألم منه ولم يتكدر، وسلك مسلك كبار رجال الساسة الذين يحبذون النقد وينصاعون لكلمة الحق(2).

وبهذا الأسلوب الحكيم استطاع ابن باديس أن يعمل عمله السحري في نفس المرحوم الزعيم فرحات عباس ـ المشهود له بالحصافة والإخلاص ـ فيحوله من حالته التي كان يقول فيها: فرنسا هي أنا، إلى أن يصبح من قادة ثورة نوفمبر 1954م، بل أول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وأول رئيس للمجلس الوطني التأسيسي في فجر الاستقلال(3).

فإن الإجراءات الإدارية كانت هي الأخرى مانعاً أمام الراغبين في طلب التجنس(4).

وعموماً فقد شهدت الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر اقتراح مشاريع عديدة لتجنيس الجزائريين المسلمين، وبعد فترة هدوء شهدتها بداية القرن العشرين عاد بعد ذلك الحديث مجدداً عن قضية التجنيس، وعرف أهمية أكبر بمناسبة صدور قانون التجنيد العسكري الإجباري في فيفري 1912م فُرض على الجزائريين ومشاركة الجزائريين في الحرب العالمية الأولى وما قدموه من تضحيات في المعارك التي دارت انذاك في أوروبا ؛ ولذلك فقد تعالت بعض الأصوات تطالب بضرورة تعويض هؤلاء بمنحهم الحقوق السياسية. وقد تمخض في النهاية عن كل النقاشات التي تمت والمشاريع التي قدمت صدور قانون 4 فيفري 1919م.

---

(1) المصدر نفسه ص 34.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 76.

(3) مقدمة مجلة الشهاب ص 73.

(4) المواقف السياسية للعلامة عبد الحميد بن باديس، عبد العزيز فيلالي، د. أحمد صاري، ص 164.

لقد نص هذا القانون على: أن أهالي الجزائر بإمكانهم الحصول على صفة المواطن الفرنسي بموجب إجراءات السيناتوس كونسيلت 14 جويلية. وبموجب هذا القانون . 4 فيفري 1919م . ودون شك أن هذا القانون جاء نتيجة لفشل قانون 1865م والفرق الواضح ما بين القانونين هو أن الإجراءات في قانون 1865م تقوم به السلطات الإدارية في حين أنه في قانون 1919م تقوم بها السلطات القضائية مهما يكن فمنذ صدور هذا القانون أصبح أمام الجزائريين الراغبين في التجنس والاندماج في المجتمع الفرنسي طريقتين إما طلب التجنس حسب قانون 1865م أو طلب ذلك حسب قانون 1919م.

وقد تعددت الاراء حول هذا القانون ما بين مؤيد ومعارض، وتزامن الشروع في تطبيق القانون مع ظهور الحركة الإصلاحية في بداية العشرينات وظهور الصحافة الإصلاحية، التي كانت منبراً للعلماء للتعبير عن ارائهم ومواقفهم من مختلف القضايا المطروحة انذاك.

ومن بين العلماء الأوائل الذين انبروا إلى هذه القضية الشيخ عبد الحميد بن باديس، فقد استغل في أحد أعداد الشهاب(1)، فرصة التعليق على كلمة وزير الداخلي الفرنسي للوفد الجزائري الذي شارك في حفل افتتاح مسجد باريس في شهر جويلية 1926م ليبين موقفه من هذه القضية، فقد خاطب الوزير الوفد بقوله: إن عرضتكم لوزارة الداخلية لها معنى مخصوص... إن دعوة هذا الوفد دون بقية الوفود إلى وزارة الداخلية له معناه، ويتطرق بعد ذلك لوضعية الجزائري المسلم منذ صدور قانون 1865م.

وفي نظر ابن باديس أن الجزائريين لم يتمتعوا من ذلك الوقت بحقوق المواطن الفرنسي لأنهم لم يكونوا ملزمين بكل الواجبات، أما اليوم فهم يقومون بجميعها، فمن حقهم أن يطالبوا فرنسا بحقوقهم بمقتضى كلمة وزير الداخلية، إلا أن ابن باديس يرفض التجنس بالشكل الذي جاءت به القوانين ويقول أنه بإمكان الجزائري المسلم الحصول على حقوقه دون أن يقدم على التجنس الذي يؤدي حسب القانون الفرنسي إلى التخلي عن

(1) المصدر نفسه ص 166.

الأحوال الشخصية، وهو يرد بذلك على دعاة التجنس المطلق، وبالنسبة إليه لا يوجد تناقض ما بين أن يكون الجزائري فرنسياً يتمتع بجميع حقوقه وفي نفس الوقت محافظاً على شخصيته[1].

وبعد النقاش حول مسألة التجنيس الذي دار في نهاية العشرينات ما بين المصلحين الرافضين لذلك والمدافعين عن الاندماج في فرنسا حتى مع التخلي عن الأحوال الشخصية ؛ يعود ابن باديس إلى الحديث عن هذه المسألة في بداية الثلاثينات، مستغلاً في ذلك خيبة أمل المتجنسين واعترافاتهم بفشل سياسة التجنيس، فبعد نشر الربيع الزناتي لمقال يعبر فيه عن خيبة أمله في الوضعية التي ال إليها المتجنسون من جراء السياسة الاستعمارية والممارسات اليومية غير اللائقة التي يتعرضون لها، يستغل ابن باديس هذا الاعتراف ليعلق عليه تحت عنوان «أقر الخصم وارتفع النزاع، داعية التجنس يعترف بالخيبة».

لقد بات معلوماً ضرورياً أن رفض أحكام الإسلام هو ارتداد عنه، وما كان أكثر الذين فعلوا هذه الفعلة على قلتهم عالمين بهذه الحقيقة. وما أقدموا على ما أقدموا عليه من رفض الإسلام ؛ إلا ببواعث الرغبة في عرض الدنيا ودواعي الطمع من نيل الحقوق الفرنسية كالفرنسيين الحقيقيين، ولكن هذه الرغبة لم تتم، وهذا الطمع لم يتحقق وبقي القوم ويا للأسف معلقين لا من ملة ابائهم ولا من الملة الأخرى[2].

ومع ذلك فإن ابن باديس لم يبعد المتجنسين ولم يقصهم عن مجتمعهم الأصلي، بل فتح لهم الأبواب للعودة، حتى تتكاتف جهود الجميع لأن الجزائر المستقبل في حاجة إلى جميع الطاقات المثقفة[3].

غير أن العلماء لم يكتفوا بهذه المواقف المعتدلة والمتفهمة للمتجنسين ، فأمام إلحاح المتجنسين وغير

(1) المصدر نفسه ص 166.

(2) المصدر نفسه ص 167.

(3) الشهاب أكتوبر 1930م.

المتجنسين في معرفة الحكم الشرعي من قضية التجنس والاندماج لم يتوانوا في تحريمه واعتباره ردة[1].

ففي جانفي 1938م أصدر الشيخ ابن باديس فتوى تكفر كل مسلم قبل التجنس مع تخليه عن أحواله الشخصية، حيث تنص الفتوى بتكفير كل مسلم جزائري أو تونسي أو مغربي يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية باختياره، ويتجنس بالجنسية الفرنسية للتمتع بالحقوق المدنية.

قال ابن باديس: ما أكثر ما سئلنا عن هذه المسألة، وطلب منا الجواب في الصحف، ومن السائلين رئيس المتجنسين الأستاذ التركي «الذي لم يجد من يفته في تونس» وكاتبنا برسالتين، فأدينا الواجب بهذه الفتوى: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد واله: التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة الإسلامية، ومن رفض حكماً واحداً من الأحكام الإسلامية عدّ مرتداً عن الإسلام بالإجماع فالمتجنس مرتد بالإجماع، والمتجنس ـ بحكم القانون الفرنسي يجري تجنسه على نسله، فيكون قد جنى عليه بإخراجه من حظيرة الإسلام، وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، وإثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجاً عن شريعة الإسلام بسبب جنايته ـ والعلم عند الله. خادم العلم وأهله، عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء[2].

كما أفتى في قضية تزوج المسلم الجزائري بالفرنسية بالرغم من أن الإسلام يبيح الزواج بالكتابية ؛ فقد أفتى ابن باديس بحرمة زواج الجزائري المسلم بالفرنسية، وعلل ذلك بكون النتيجة التي يؤدي إليها هذا الزواج هي الخروج عن حظيرة الإسلام، لأن القانون الفرنسي يقضي بأن أبناءه منها يتبعون جنسية أمهم في خروج نسله عن حظيرة الإسلام، فإن كان راضياً بذلك فهو مرتد عن الإسلام جان على أبنائه ظالم لهم، وإن كان غير راض لهم بذلك وإنما غلبته شهوته على الزواج فهو اثم بجنايته عليهم وظلمه لهم، لا يخلصه من إثمه هذا

(1) المواقف السياسية للعلاّمة عبد الحميد بن باديس ص 167.

(2) الفكر السياسي عند عبد الحميد بن باديس ص 203.

إلا إنقاذهم مما أوقعهم فيه[1].

وفي ذات الموضوع أصدر فتوى أخرى في قضية دفن أبناء المتجنسين في مقابر المسلمين، سأل أحد أهالي «ميشلي» من القبائل الكبرى عن أبناء المتجنسين بالجنسية الفرنسية هل يجوز دفنهم في مقابر المسلمين؟ فكان جواب ابن باديس كما يلي: بعد الحمد لله والصلاة والتسليم على النبي واله، قال: فابن المطوربي أي «المتجنس» إذا كان مكلفاً ولم يُعلم منه إنكار ما صنع أبوه والبراءة منه فهو مثل أبيه لا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين. وإن كان صغيراً فهو مسلم على فطرة الإسلام يدفن معنا ويصلى عليه. كتبه خادم العلم وأهله عبد الحميد بن باديس[2].

لقد تصدى ابن باديس إلى دعاوى الاندماج والانصهار في الثقافة الفرنسية، واستطاع أن يخلص الجزائر من تلك الأفكار الهزيلة، التي لم تصمد أمام الحقائق وطبيعة الأشياء، وصلابة الشخصية الجزائرية المعتزة بدينها ولغتها وبلادها.

### 3. الجزائر وطننا:

الجزائر بالنسبة إلى ابن باديس هي وطنه الخاص، وهي عنده ليست إقليماً جغرافياً فحسب، ولكنه كيان حي من البشر الذين يعيشون فيه وتؤلف بينهم روابط الدين واللغة والتاريخ، يقول في الشطر الثاني من السؤال «لمن أعيش» أعيش للإسلام والجزائر.

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص. وتفرض عليه تلك الروابط لأجله. كجزء منه. فروضاً خاصة، وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة، وكما أني كلما أردت أن أعمل عملاً وجدتني في حاجة إليه، إلى رجاله وإلى ماله، وإلى آلامه وآماله وكذلك أجدني أعمل. إذا عملت. قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه وهكذا.

---

(1) الفكر السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس، أعمال الملتقى الدولي، تقديم عبد العزيز فيلالي ص 204.

(2) المصدر نفسه ص 204.

هذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كل حال وفي جميع الأعمال، وأحسب أن كل ابن وطن يعمل لوطنه لابد أن يجد لنفسه مع وطنه الخاص مثل هذه المباشرة وهذا الاتصال.

نعم، إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا هي دائماً منا على بال، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لابد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير، عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص. وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد لغة وعقيدة واداباً وأخلاقاً وتاريخاً ومصلحة، ثم الوطن الغربي والإسلامي، ثم وطن الإنسانية العالم ولا نستطيع أن نؤدي خدمة مثمرة لشيء من هذه كلها إلا إذا خدمنا الجزائر.

وما مثلنا في وطننا الخاص ـ وكل ذي وطن خاص ـ إلا كمثل جماعة ذوي بيوت في قرية واحدة، فبخدمة كل واحد لبيته لتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية، ومن ضيع بيته فهو لما سواها أضيع، وبقدر قيام كل واحد بأمر بيته تترقى القرية وتسعد، وبقدر إهمال كل واحد لبيته تشقى القرية وتنحط، فنحن إذا كنا نخدم الجزائر ؛ فلسنا نخدمها على حساب غيرها، ولا للإضرار بسواها ـ معاذ الله ـ ولكن لننفعها وننفع ما اتصل بها من أوطان، الأقرب فالأقرب، هذا أيها الإخوان مرادي بقولي: إنني أعيش للجزائر[1].

ثم ختم إجابته بقوله: والان أيها الإخوان وقد فهمتموني وعرفتم سمو فكرتي «أعيش للإسلام والجزائر» فهل تعيشون مثلي للإسلام والجزائر؟

وكان الجواب بالإجماع: نعم نعم[2].

---

(1) الشهاب ج 10 م 12، وكذلك آثار الإمام ابن باديس (4 / 112).

(2) إمام الجزائر ص 103.

**. الوطن والوطنية:**

الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء:

بهاتين الجملتين منذ نيف وعشر سنين توجنا جريدة «المنتقد» الشهيرة وجعلناهما شعاراً لها تحمله في رأس كل عدد منها، هذا أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة إجرامية لا يستطيع أحد أن ينطق بها، وقليل جداً من يشعر بمعناها، وإن كان ذلك المعنى دفيناً في كوامن النفوس، ككل غريزة من غرائزها، لا سيما في أمة تنسب إلى العروبة وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية ذات التاريخ المجيد.

أما اليوم وقد صارت كلمة الوطن والوطنية سهلة على كل لسان، وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها، وقد يقولها اخرون بألسنتهم ولا يستطيعون أن ينتسبوا لها في المكتوب من رسمياتهم، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون في وطنياتهم، وينكرها اخرون زعماً منهم أنها ضد إنسانياتهم وعمومياتهم، فكان حقاً لقراء «الشهاب» علينا أن نقول لهم كلمة مختصرة نبين بها حقيقة هذه الكلمة وأقسامها وأقسام الناس إزاءها، ومن أي قسم نحن من تلك الأقسام؟

من نواميس الخليقة حب الذات للمحافظة على البقاء، وفي البقاء عمارة الكون، فكل ما تشعر النفس بالحاجة إليه في بقائها فهو حبيب إليها، فالإنسان من طفولته يحب بيته وأهل بيته لما يرى من حاجته إليهم واستمداد بقائه منهم، وما البيت إلا الوطن الصغير، فإذا تقدم شيئاً في سنه اتسع أفق حبه وأخذت تتسع بقدر ذلك دائرة وطنه، فإذا دخل ميدان الحياة وعرف الذين يماثلونه في ماضيه وحاضره وما ينظر إليه من مستقبله، ووجد فيهم صوره بلسانه ووجدانه وأخلاقه ونوازعه ؛ شعر نحوهم من الحب بمثل ما كان يشعر به لأهل بيته في طفولته، ولما فيه ـ كما تقدم ـ من غريزة حب الذات وطلب البقاء وهؤلاء هم أهل وطنه الكبير، ومحبته لهم في العرف العام هي الوطنية(1).

(1) ابن باديس وعروبة الجزائر، محمد الميلي ص 158، 159.

فإذا غذي بالعلم الصحيح، شعر بالحب لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية، وكانت الأرض كلها وطناً له وهذا وطنه الأكبر. هذا ترتيب طبيعي لا طفرة فيه ولا معدل عنه، فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف وأحب الوطن الصغير. والناس إزاء هذه الحقيقة أربعة أقسام:

ـ قسم لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة، وهؤلاء هم الأنانيون الذين يعيشون على أممهم، كما تعيش الطفيليات على دم غيرها من الحيوان، وهم في الغالب لا يكون منهم خير حتى لأقاربهم وأهل بيتهم.

ـ وقسم يعرفون وطنهم الكبير فيعملون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه ولو بإدخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى، بل يعملون دائماً على امتصاص دماء الأمم والتوسع في الملك، لا تردهم إلا القوة، وهؤلاء شر وبلاء على غير أممهم، بل وعلى أممهم فهم مصيبة البشرية جمعاء.

. وقسم زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر، وأنكروا وطنيات الأمم كما أنكروا أديانهم . وعدوها مفرقة بين البشر. وهؤلاء عاكسوا الطبيعة جملة وما عرفته البشرية منذ الاف السنين. ودلائل الفشل على تجربتهم حيث أجروا تجربتهم ولا تكاد تخفى.

. وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها ونزلها منازل غير عادية ولا معدو عليها، وترتيبها الطبيعي في تدرجها كل واحدة منها مبنية على ما قبلها ودعامة لما بعدها. وامن ـ هذا القسم ـ بأن الإنسان يجد صورته وخيره وسعادته في بيته ووطنه الصغير، وكذلك يجدها في أمته ووطنه الكبير، ويجدها في الإنسانية كلها وطنه الأكبر. وهذا الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة. إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع أجناسها وأديانها[1].

فهي تخاطب البشرية كلها في جميع أجناسها بقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *} [الإسراء : 70]. وتخاطبها في جميع أديانها

(1) عروبة الجزائر ص 159.

بقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *} [الكافرون : 6]. وتخاطب الأمم والأوطان بقوله تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [الأنفال : 61]. وبقوله: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *} [البقرة : 194].

وهذه هي وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ووطنية كل مسلم صادق في إسلامه ووطنيته، وقد أعلناها يوم قلنا على رأس جريدة «المنتقد»: الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء، وسرنا على مقتضاها إلى اليوم في كل ما قلنا وكتبنا، وسنبقى عليها ـ ككل مسلم جزائري ـ حتى نلقى الله إن شاء الله.

أشعب الجزائر روحي الفدا    لما فيك من عزة عربية

بنيت على الدين أركانها    فكانت سلاماً على البشرية[1]

وكتلخيص لفكرة ابن باديس في موضوع الوطن والوطنية نورد التعليق التالي للأستاذ الميلي:

فابن باديس في هذا النص يفسر ما يعنيه بالوطنية الإسلامية، فهو لا يتحدث عن الوطن الإسلامي الذي نجده عند كثير من علماء الدين، ولكنه يتحدث عن وطن عربي إسلامي، ومعنى ذلك أنه لا يعتبر الإسلام مرادفاً للقومية، ولكنه يعتبره من حيث علاقته بالوطن عنصراً أساسياً في تكوين الوطن الجزائري أو الوطن المغربي أو الوطن العربي، كما يعتبر الإسلام من حيث علاقته بالإنسانية نوعاً من «الهومانيزم».

ويجب أن نشير هنا إلى حقيقة، وهي أن ابن باديس يمزج بين الجزائر والعروبة والإسلام، فالجزائري هو عربي مسلم، وهو إنسان قبل كل شيء.

ويؤكد ابن باديس هذا المعنى في العدد الأول من جريدة المنتقد حين يقول: إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلاًّ، ونحب وطننا ونعتبره جزءاً، ونحب من يحب الإنسانية ويخدمها، ونبغض من يبغض الإنسانية ويظلمها،

(1) المصدر نفسه ص 160.

فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري وتحبيب بنيه فيه، ونخلص لكل من يخلص له، ونناوأئ كل من يناوئه من بنيه وغير بنيه[1].

إن ابن باديس كان يعمل على تأكيد عروبة الجزائر وإسلامها وهويتها الوطنية وانتمائها الحضاري «كأمة لها تاريخ حافل» لا يجهله إلا الجاحدون، تلك القضية التي خاض من أجلها معارك سياسية وفكرية ضد أطراف عديدة ضد حكام فرنسا وساستها وصحافييها من جهة وضد النخبة الجزائرية المفرنسة من جهة أخرى. تلك النخبة التي انساقت بسذاجة إلى أطروحات الفرنسيين التي تنكر وجود الكيان الجزائري، وتعتبر العرب الموجودين في الجزائر عناصر دخيلة قذفت بهم موجة الفتح الإسلامي الذي يعدونه غزواً، كما قذفت موجات الغزو الأخرى بعناصر شتى من مختلف الأجناس.

ولهذا اعتبر ابن باديس أن الجهاد من أجل الجزائر والذود عن الشخصية الجزائرية باللسان والفكر والمواقف ودحض كل الشبهات والأكاذيب واجب ديني ووطني، يجب أن يضطلع به كل المؤمنين بقضية الجزائر وكل العلماء والمفكرين الشرفاء والنزهاء، والذين يستلهمون دروس التاريخ ويستنطقون الأحداث الحضارية[2].

إن ابن باديس استطاع أن يقنع كل من كان يبحث عن الحقيقة أن الجزائر كيان إسلامي وثقافي وحضاري، وليست مجرد قطعة جغرافية تقترب أو تبتعد عن فرنسا، وليست فقط تجمع بشري يعيش على هذه الأرض من غير أن تكون له روابط تربط بين عناصره، ومن ثم لا يمكن إلحاقه بفرنسا، لأن كل المبررات التي استند عليها دعاة الاندماج باطلة، وإنما أوهام بعيدة كل البعد عن الواقع والحقائق.

لقد دافع ابن باديس عن الجزائر دفاع الأبطال في معارك الفكر والثقافة والتاريخ والحضارة والعقائد، لقد أثبت بالبراهين أن الجزائر لها تاريخ عظيم وهوية مستمدة من الإسلام وشعب رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً.

---

(1) إمام الجزائر ص 110.

(2) المصدر نفسه ص 111.

## ثانياً: مكانة الأمة العربية والإسلامية:

### 1. مفهوم الأمة:

إن لمفهوم الأمة عند الشيخ عبد الحميد بن باديس أبعاداً ترتكز على مقومي «العقيدة» «واللسان»، فالشعب الجزائري مسلم وإلى العروبة ينتسب، هكذا يحدد الشيخ المقومات التي تصنع وجود الأمة بمرجعياتها الثقافية المتأصلة في الذات الجزائرية، والتي يتقاسمها وشعوب عدة حاولت الجغرافيا تضييق افاق توافقاتها التاريخية واللسانية والعقائدية.

لقد شكلت نضالات ابن باديس تجسيداً عملياً لمفهوم الأمة ؛ ذلك المفهوم النابع من وعي عميق ومتجذر بالانتماء، انتماء أكبر من الأرض والتراب تؤطره جوامع ترتكز على ثوابت تنبني عليها الشخصية الجزائرية، وبذلك كان المفهوم يمثل هدفاً تربوياً يبتغي الشيخ ترسيخه، باعتباره استراتيجية تؤسس حصانة للهوية، ومن ثم كانت الجهود الإصلاحية للشيخ بمثابة تأهيل لمفهوم الأمة[1].

فالأمة عند الشيخ كيان يرتبط بظروف تهيأئ وجوده وتبسط تحققه: وأولاها الحرية، ذلك أن الحرية تحيل إلى القدرة على اتخاذ القرار في الأمم المغلوبة على أمرها.. لا تستطيع أن تصنع أمراً لنفسها فكيف تستطيع أن تصنعه لغيرها، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فكيف تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها، وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها، فكيف يعتمد عليها في خارجيتها؟ فالوحدة السياسية بين هذه الأمم أمر غير ممكن ولا معقول ولا مقبول[2].

وبذلك تفتقد الأمة بالمفهوم الشامل عند ابن باديس لأهم ركيزة لقيامها كوحدة أو ككيان له وجوده العيني وليس النظري فحسب، وهذه الركيزة يعقدها الشيخ في الوحدة السياسية للأمة.

فالوحدة السياسية تكون مقترنة بممارسة واعية ومسؤولة وحرة ولا يمكن من الناحية المنطقية أن تقوم هذه

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 227.

(2) الآثار (3 / 398 . 399)، ابن باديس.

الوحدة في ظل التبعية والقبوع تحت نير الإملاءات الاستعمارية ؛ ذلك أن الاستعمار عائق في وجه تشكل الأمة ووحدتها. وهي نظرة وإن فرضها الواقع السياسي للأمة العربية في عهد الشيخ، إلا أنها رؤية استشرافية تنظر لمفهوم الوحدة السياسية، تلك الوحدة التي لم تتجسد بعد في استقلال الأمة العربية وتخلصها من ربقة الاحتلال الأجنبي، فاستبدلته باحتلال آخر هو الاحتلال الأيدولوجي الذي شكل عائقاً أمام الوحدة السياسية باعتباره شكلاً آخر من أشكال القبوع تحت الإملاءات الاستعمارية.

والواقع الاستعماري يفرض على الأمم المغلوبة أن تعمل أولاً على التخلص منه ثم التوجه نحو تحقيق الوحدة، وهو عمل يختص به كل شعب في أطره الجغرافية المحدودة تبعاً لما تراه يتوافق ووضعيتها التاريخية والواقعية دون أن تلغي حقيقة انتمائها وجوهر هويتها الجمعية[1].

يقول الشيخ:... نجد شعوباً أخرى وهي شعوب الشمال الإفريقي المصابة بالاستعمار، فهذه لا وحدة سياسة بينها ولا بين غيرها ولا يتصور أن تكون، ومن الخير لها أن تعمل كل واحدة منها في دائرة وضعيتها الخاصة على ما يناسبها من الخطط السياسية التي تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة مع الشعور التام بالوحدة القومية والأدبية العامة والمحافظة عليها والمجاهرة بها[2].

فالوحدة السياسية مرتبطة بالحرية والقدرة على التجسيد الواعي لمفهوم الانتماء، أما الوحدة الثقافية فهي الشعور بذاك الانتماء وتأصله في الذات الجمعية للأمة، وهو شعور تتمخض عنه ممارسات اجتماعية وأدبية ثقافية تعلن عن ارتباط الأمة وصلتها بماضيها وبمحيطها المكمل لها، كوجود وكماهية.

فالأمة تتشكل كمفهوم من ناحيتين: ناحية سياسية دولية وناحية أدبية اجتماعية، فالناحية السياسية من شأن الأمم المستقلة التي تنعم بالقدرة على التوجه العملي نحو مرجعياتها الثقافية المتأصلة فيها لتشكيل الوحدة

---

(1) المصدر نفسه ص 229.

(2) المصدر نفسه ص 229.

كمنطلق أساس لتجسيد مفهوم الأمة، في حين أن الناحية الأدبية الاجتماعية فهي التي يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها، لأنها ناحية تتعلق بالمسلم من جهة عقيدته وأخلاقه وسلوكه في الحياة في أي بقعة من الأرض كان ومع أي أمة عاش وتحت أي سلطة وجد[1].

وتتخذ الأمة في مفهوم الشيخ ابن باديس أبعاداً أوسع من أطر الجغرافيا، وتمتد إلى فضاءات التاريخ واللغة والدين، تلك الفضاءات التي تجمع شعوباً عدة في بوتقة واحدة وأمة موحدة، هذا مع إقصاء المكون العرقي الذي لا يمكن أن يشكل ركيزة دعائمية لمفهوم الأمة[2].

ويعتبر عند الشيخ هذا المفهوم انطلاقاً من ملامسته لواقع الجزائر باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية الإسلامية، حيث يقول: ما من نكير أن الجزائر كانت أمازيغية من قديم عهدها وما من أمة من الأمم استطاعت أن تقلبها من كيانها ولا أن تخرجها من أمازيغيتها أو تدمجها في عنصرها، بل هي التي تبتلع الفاتحين، فينقلبوا إليها ويصبحوا كسائر أبنائها، فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحاً إسلامياً لنشر الهداية ـ لا لبسط السيادة ـ وإقامة العدل الحقيقي بين جميع الناس لا فرق بين العرب الفاتحين والأمازيغ العرب أبناء الوطن الأصليين، دخل الأمازيغ من أبناء الوطن في الإسلام وعلموا لغة الإسلام العربية طائعين، فأمتزجوا بالعرب بالمصاهرة، ونافسوهم في مجال العلم، وشاطروهم سياسة الملك، فأقام الجميع «العرب والأمازيغ» صرح الحضارة الإسلامية يعبرون عنها وينشرون لواءها بلغة واحدة هي اللغة العربية الخالدة، فاتحدوا في العقيدة والنحلة كما اتحدوا في اللغة والأدب فأصبحوا شعباً واحداً عربياً متحداً غاية الاتحاد ممتزجاً غاية الامتزاج[3].

فالأمة لا تنبني وفق الانتماء العرقي، لأن ذلك تضييق للمفهوم وقصر له، وهو مفهوم لا يقبل التضييق أو

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 230.

(2) المصدر نفسه ص 230.

(3) المصدر نفسه ص 230.

التقزيم لأنه يتأسس على العقيدة واللسان والتاريخ والثقافة، وهي دعائم تتسم باتساع الأفق والشمول، فكل من كان دينه الإسلام ولغته لغة القرآن فهو ينتمي لدائرة «الأمة»، باعتبار أن هذين العاملين يشاركان باقي العوامل في بوتقة وحدة العقيدة واللسان، فالتاريخ يخضع لشمولية التاريخ الإسلامي، وكذا تحيل الثقافة إلى مرجعيتها الإسلامية المتأصلة فهي كتفكير وممارسة.

وفي نظرة تنم عن رؤية شمولية ترفض المساحات المؤطرة بالحدود وتتوخى تقديم المفهوم على حقيقته، بعيداً عن السقوط في مغبة النزوع نحو الفرق بما يمثله ذلك من توجه عنصري يفرق ولا يجمع، بل إنه تكاد لا تخلص أمة لعرق واحد، وتكاد لا توجد أمة لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزاءها، ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها ؛ هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد[1].

فالانتماء للأمة العربية يعني ذلك الشعور الذي ينتفض في وجه الجغرافيا والحدود، والأمة هي تلك الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً.. تنطق بالعربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها وتحمل مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة[2].

وهو انتماء يغوص في عمق التاريخ ليأخذ منه مشروعيته وشرعيته المعرفية، باعتبار أن اللغة العربية تمثل بعداً تاريخياً إلى جانب كونها بعداً لسانياً، وكذا رابطاً بين حاضر الذات وماضيها، وبذلك تكون هذه اللغة بمثابة إعلان عن هوية الأمة وحضورها عبر التاريخ[3].

فابن باديس حينما يتحدث عن اللغة العربية يضمّنها كل هذه المقومات، باعتبارها لغة القران، والرابطة القوية التي تربط بين أفراد الأمة الواحدة، والتي من خلالها تبرز الذكريات التاريخية التي يعيش عليها المجتمع، والشعور المشترك الذي يؤلف بين قلوب أفراد المجتمع..

(1) المصدر نفسه ص 231.

(2) المصدر نفسه ص 232.

(3) المصدر نفسه ص 232.

وهكذا فاللغة من الوجهة القومية هي الرابطة الشعورية والفكرية التي تربطنا بجنسنا وبقومنا وثقافة هذا الجنس، والجنس هنا هو العروبة ؛ شعور وجداني وكيان ثقافي واتجاه حضاري[1].

ثم إن العامل الأساسي الذي ينبني عليه مفهوم الشيخ ابن باديس للأمة هو عامل العقيدة باعتبارها الخانة الجامعة والإطار الذي تنصهر فيه الانتماءات الأخرى. فالإسلام هو المعين الذي تأخذ منه الأمة مفهومها وهو المفهوم القرآني الذي يصرح به نصاً حيث يقول: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ *} [الأنبياء : 92]. وكذلك يقول عز من قائل {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: 110].

فالمفهوم القرآني للأمة كان بمثابة المرجعية الثقافية التي يؤسس ابن باديس مفهومه عليها في الوطنية الإسلامية ؛ هي الدائرة الأوسع والتي تشمل الدوائر الأخرى الأقل شمولاً، على عكس التحليل الذي نجده عند فلاسفة المذهب الإنساني «الهومانيزم» الذي يجعل الدائرة الإنسانية هي الأوسع والأكثر شمولاً، لأن الأجناس والأديان والأوطان والثقافات في رأيهم هي حواجز وعوامل مفرقة بين الناس الذين يرجعون إلى أصل واحد[2].

إن الإسلام هو المقوم الأكبر لبلورة مفهوم الأمة، ذلك أنه يشمل الهوية والانتماء، ويوسع افاقه الدستور الموجه للإنسانية جمعاء، إنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وإن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وإن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه[3]، وهو الركيزة الأساسية لبلورة مفهوم الأمة عند الشيخ فالانتماء للإسلام يعني وجود رابطة جامعة بين المنتمين لهذا الدين، بل إن الإسلام هو الذي يصنع الفرد ليجعل منه عضواً فعالاً في المجتمع.

---

(1) المصدر نفسه ص 233.

(2) المصدر نفسه ص 87.

(3) الآثار (4 / 236).

وتربية النشء على المقومات الإسلامية هي التي من شأنها صناعة الأمة ؛ هو منهج ابن باديس الذي عاش من أجله، فالإسلام هو الذي يحوي كل المقومات ليذيبها في بوتقة الانتماء الديني. انتماء يلغي الحدود وتتسع آفاقه[1].

لقد علّم ابن باديس الجزائريين كيف يعلنوا التزامهم الوطني والعربي القومي والإسلامي العقدي، وقد عبّر عنه شعراً قائلاً:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب[2]

إن ابن باديس الذي أكد انتماءه لأمته العربية فكراً تغنّى بذلك في بعض ما نظمه من الشعر، ومما قاله:

المجد لله ثم المجد للعرب من أنجبوا لبني الإنسان خير نبي

ونشروا في الناس ملة عادلة لا ظلم فيها على دين ولا نسب

قومي هم وبنو الإنسان كلهم عشيرتي وهدي الإسلام مطلبي

وقال أيضاً:

أشعب الجزائر روحي الفدا لما فيك من عزة عربية

بنيت على الدين أركانها فكانت سلاماً على البشرية[3]

هذه هي الأمة في فكر الإمام ابن باديس الذي سعى لتعزيز الوطنية الجزائرية في نفوس مواطنيه، وتعزيز القومية العربية، مبيناً العلاقة الراسخة المتأصلة بين العروبة والإسلام[4].

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 234.

(2) المصدر نفسه ص 246.

(3) المصدر نفسه ص 256.

(4) المصدر نفسه ص 256.

### 2. قضايا العالم الإسلامي:

كان للشيخ عبد الحميد بن باديس أثر كبير في تحطيم الأسوار التي بنتها فرنسا حول الجزائر، فكانت أول ضربة معول في هذا السور رحلة الشيخ عبد الحميد تلميذاً إلى تونس، وهناك اتصل بعلماء الزيتونة تلميذاً لا كالتلاميذ، يتلقى علم ما في الكتب والمجلدات لينال شهادة، بل تلقى عنهم زيادة على ما في الكتب ما عرفوه من أحوال العالم الإسلامي وما يموج فيه من تيارات فكرية، وحركات إسلامية تحاول النهوض به وإقالته من عثاره[1].

#### أ. تونس:

وأصبح متعلقاً بتونس عندما كان مقيماً بها وبعد رجوعه، وكانت له عدة أدوار لدعم الإخوة التونسيين في نضالهم، فقد كان من الذين درسوا على يديه بتونس: الشاعر التونسي الطاهر جواد الذي شهد له ابن باديس في دفتره المدرسي بالمواظبة والفهم والأدب، فربما كان لهذه الملاحظة دورها في تفجير طاقات هذا الشاب الذي قدر له أن يقوم بدور مشهود في التاريخ النضالي والعمالي التونسي[2].

كما نادى ابن باديس بضرورة توحد أقطار افريقيا الشمالية من أجل التحرر. فعندما زار تونس سنة 1937م للمشاركة في ذكرى وفاة البشير صفر اعتذر عن اختيار الجمعيتين المنظمتين «جمعية الطلبة الجزائريين والجمعية الودادية الجزائرية بتونس» وأن الحديث عن الجزائر دون المغرب العربي قائلاً: لأنني أومن بأن هذا الشمال الإفريقي لا ينهض إلا بتضامننا مع بعضنا البعض، كما نادى أيضاً بالاحتفاظ بالذاتية العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي كله، والإعلان بوحدة أقطاره في الحاضر والمستقبل.. مثلما هي ثابتة في الماضي.

وأوردت المخابرات الفرنسية أن ابن باديس زار تونس ما بين 22 و29 أوت 1938م وأجرى محادثات مطولة مع الشيخ الثعالبي حول الأوضاع السياسية في شمال إفريقيا، واتفق الإثنان على تمثيل تونس والجزائر في

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 164.

(2) إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية، خير الدين شترة ص 144.

مؤتمر حزب الوفد المصري الذي كان سيعقد في أكتوبر أو نوفمبر من نفس السنة[1].

كما كان ابن باديس أحد الشهود التاريخيين لقضية الوفاق، وقد ورد اسمه في الكلمة الحاسمة، وكان حريصاً على متابعة هذه القضية التي أرقته وشغلت صفحات متوالية من جريدة الشهاب، انطلاقاً من وحدة الشعور بمحنة المغرب العربي، وقد سمي الشقاق في تونس «بالفتنة الملعونة»، واستلهمت الشهاب مقالها بهذه الافتتاحية «الله . الله في وطنكم أيها التونسيون، فالرعاة يتنازعون والذئب على الباب، ولئن أكله الذئب وأنتم عصبة إنا إذاً لخاسرون» وإعادة جريدة الإرادة التونسية نشر المقال تحت عنوان: صوت علماء الجزائر ورأيهم في فتنة الشقاق في تونس[2].

**ب . موقف ابن باديس من ثورة الريف في المغرب الأقصى:**

ساند الإمام ابن باديس الثورة في المغرب الأقصى وذكر موقف الأمير عبد الكريم الخطابي: أن الأمير صرّح كما يصرّح دائماً أنه لا طمع له غير استقلال بلاده في حدودها الطبيعة. وبعد أن ذكر الصلح المعروض من طرف الإسبان توسطاً عن فرنسا قال: وهل بعد هذا نقول أن الصلح قريب؟ كلا إن استقلال الريف المجهول في الأوراق تحت النفوذ الإسباني لا تطيب به نفوس الماليين والعسكريين من الإسبان، فهم يراوغون ويخالفون وخصوصاً على حساب غيرهم . ويتمسكون بكل سبب لإبقاء الريف تحت نفوذهم رسمياً، ولو كان ملكه فعلياً أبعد عنهم من العيون[3].

ونجد ابن باديس يمدح الأمير عبد الكريم الخطابي ونضاله وشجاعته بقوله: وفي مقابل هذا نجد الأمير عبد الكريم رجلاً سياسياً كبيراً.. يعتقد أن اسبانيا لا قيمة لها أمامه، وقد بطش بها بطشة كبرى بالأمس[4].

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 165.

(2) المصدر نفسه ص 165.

(3) المصدر نفسه ص 165.

(4) المنتقد العدد 3 16 جويلية 1925م ص 51.

ولم تغب عن ابن باديس مشاركته الفكرية والروحية لإخوانه المغاربة، ففي الشهاب ذكر التطهير البربري[1].

حيث كتب يقول: لقد دأب إخواننا المغاربة على إحياء هذه الذكرى المؤلمة كل يوم 16 ماي ـ مايو 1930م، ثم توجه إليهم ببيان موقف علماء الجزائر ومشاركتهم ومساندتهم لإخوانهم المغاربة في هذه القضية، وينصح لهم بعد ذلك بمواصلة الجهاد: وإننا لنشارك قلباً وقالباً شقيقتنا المغربية في هذا الحداد الوطني الديني، ونرفع أصواتنا إلى جانبها بالاحتجاج العميق والاستياء البالغ. ثم نقول لإخواننا رجال المغرب الأحرار إن هذه المظلمة لا تزول عنهم إلا بفضل جهادهم ونضالهم واستماتتهم في سبيل كلمة الحق، ولن يُكتب لهم الفوز إلا بالتضامن وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف[2].

**ج ـ ليبيا:**

كانت فظائع الاستعمار الإيطالي في ليبيا دافعاً لابن باديس أن يظهر مشاركة الشعب الجزائري لإخوانه المسلمين فيما تعرضوا له من محن، فكتب ابن باديس يقول: فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تلبي هذا النداء الصادر من القطر الشقيق المظلوم وترفع صوتها بالاحتجاج والاستنكار ضد ما ارتكبته إيطاليا من الظلم الفادح الذي أنزلته على طرابس العربية المسلمة، فأصابت به كل قلب عربي وكل مسلم، وتنذرها بأن الضمير الإسلامي والعربي قد استيقظ من نومه[3].

ولما توالت الهجرات الليبية الجماعية إلى الأقطار المجاورة خلال سنة 1931م، حيث تناقلت الصحف التونسية والجزائرية أخبار تلك الهجرات الجماعية للأسر الليبية التي وصلت إلى الجزائر وهي في حالة يرثى لها، وقد تأسفت صحيفة الشهاب الجزائرية التي يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس من قسنطينة لوضعية أولئك اللاجئين الطرابلسيين الذين وصلوا إلى التراب الجزائري قائلة: أما الذين قدموا إلى الجنوب الجزائري من هؤلاء

(1) عبد الحميد بن باديس العالم الرباني، د. مطبقاني ص 126.

(2) الشهاب ج 4 م 13 ربيع الثاني 1356 ـ 1937م.

(3) البصائر العدد 152 في 20 ذي الحجة 1357 ـ 1938م.

اللاجئين البائسين فيبلغ عددهم نحو السبعة الاف على حافة فقر وبؤس، لا يمكن أن يستطيع قلم وصفها، وقد جمع لهم إخواننا أهل بسكرة الأبرار إعانة من بينهم[1].

كما نددت الصحيفة في عدد لاحق بالسياسة الاستعمارية الإيطالية الفاشستية التي ينتهجها الطليان الفاشست في طرابلس الغرب وبرقة قائلة: إيطاليا القاسية الدموية ماذا فعلت في ربع قرن بنصف مليون من المسلمين؟ أجدر بكِ أن تقضي أمام محكمة التاريخ وضمير الإنسانية لتجيبي جواب المجرمين عن هذا السؤال[2].

كما احتج ابن باديس باعتباره رئيساً لجمعية علماء المسلمين الجزائريين على التصرفات الإيطالية تجاه الطرابلسيين لدى رئيس جمعية حقوق الإنسان الفرنسية قائلاً: الرئيس قيرنوط . نهج لونيفرسيتي رقم 10 باريس: إن الأمة الإسلامية الجزائرية لفي أقسى التأثر مما لحق بإخوانهم الطرابلسيين الذين ذهبوا ضحايا التوحش الفظيع، وهي تريد أن تيسر ذلك أن ترى تدخل جمعيتكم الأليق لمصلحة هؤلاء المنكوبين.

وتعتبر هذه البرقية صرخة احتجاج في وجه إحدى المنظمات العالمية التي تنادي بحقوق الإنسان في أوروبا، في وقت لم يكن فيه أقل صدى في العالم الغربي للاحتجاجات التي أطلق صرختها الليبيون، وناصرهم في ذلك أشقائهم العرب وإخوانهم المسلمين. وهكذا كان موقف الشيخ عبد الحميد بن باديس من الفظائع الإيطالية في طرابلس الغرب وبرقة موقفاً شاملاً واضحاً وصريحاً يتسم بالحدة والصرامة والشجاعة، فلم يفرق بين ما ارتكبته إيطاليا بحق الليبيين وبين ما ارتكبته فرنسا بحق الجزائريين، فكلا الاستعمارين الإيطالي والفرنسي من جهة نظره وجهان لعملة واحدة[3].

---

(1) دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ص 267، ناصر سعيدوني.

(2) صدى كفاح عمر المختار في الجزائر، ناصر الدين سعيدوني مجلة البحوث التاريخية عدد 2.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 299، 300.

**. موقف ابن باديس من استشهاد عمر المختار:**

كان استشهاد عمر المختار صدمة عنيفة هزت مشاعر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بصفة عامة، ورجال الحركة الوطنية في منطقة المغرب العربي بصفة خاصة، والذين كانوا يتابعون باهتمام بالغ حركة كفاح الليبيين ضد المحتلين الإيطاليين، وفي مقدمتهم ابن باديس الذي قام من فوره بتدبيج مقال مطول نشره في صحيفة الشهاب التي يترأس تحريرها بعنوان «سيد الشهداء ورأس الأبرار» جاء فيه:

رحمه الله رحمة واسعة، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. اغتالت يد الطغيان الاستعماري بطلاً من خيرة العرب ورأساً من أعظم رؤوسهم، ومجاهداً كان يقف في طليعة مجاهديهم، وصنديداً غالبته الأيام فغالبها، وصارعته الحوادث فصرعها، وحاربته دولة من أكبر دول الأرض بجنودها ودباباتها وطياراتها، فثبت أمامها ثبات الراسيات، متدرعاً بالإيمان متحصناً بقوة العزيمة معتداً بالله ولطالما انتصروا وظفر، ولطالما انكسر واندحر، فما زاده النصر إلا عزيمة، وما زاده الاندحار إلا ثباتاً، واعتكف على قتال المعتدين الظالمين وحوش الاستعمار الإيطالي، فكان في حربهم شريفاً مسلماً مستميتاً ساعة الملحمة، رؤوف حليم ساعة وضع الحرب لأوزارها.

ذلك هو سيدي عمر المختار زعيم السنوسيين في برقة، الذي جاهد عشرين عاماً دفاعاً عن بيعة الإسلام وكرامة الوطن ضد الطغاة المستعبدين. ولم تترك السلطة الإيطالية من وسيلة سافلة وحشية إلا ارتكبتها لإخماد مقاومته، فأغلقت سائر زوايا السنوسية في البلاد وصادرت أملاكها، ثم حصرت ثمانين ألفاً من بقايا السكان الذين نجوا من المذابح وفظائع القتال الإيطالي، ضمن منطقة محاطة بالأسلاك الشائكة كيلا يلتحقوا بعمر المختار، وأقامت على التخوم المصرية حراسة شديدة جداً.

كل ذلك وصنديد برقة رابط لا يأخذه في سبيل الله ضعف ولا وهن، وكان يجول في ميادين القتال ممتطياً صهوة جواده الأدهم، وقد وهن عظمه ولم يتدارك الوهن قلبه، واشتعل رأسه شيباً واكتست لحيته لون القمر، وما استطاعت الثمانون عاماً التي قضاها في طاعة الله وجهاد في سبيله أن تقوس له ظهراً أو تضع له هامة، إلى أن أقام له الإيطاليون كميناً فأسروه إثر قتال عنيف، وأبت الوحشية الإيطالية إلا أن تقيم برهاناً جديداً على فقدها كل شرف وتجردها عن كل عاطفة نبيلة، فحكمت عليه حالاً بالإعدام ونفذت ذلك الحكم رمياً بالرصاص[1]، ألا في سبيل الله تلك الروح الطاهرة النقية التي رجعت إلى ربها راضية مرضية، تستنزل نعمته وسوط عذابه على أدناس الاستعمار الإيطالي المتكالبين. وما الله بغافل عما يعمل الظالمون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[2].

كما أعاد الشيخ عبد الحميد بن باديس نشر مقال مطول للأمير شكيب أرسلان بعنوان: عمر المختار لم يكن ثائراً على حكومة شرعية، بل كان مجاهداً عن وطن مغصوب بالقوة. كان قد نشر في إحدى الصحف العراقية فور استشهاد عمر المختار واستعرض فيه الكاتب بطولة المجاهد ومواقفه المشرفة ورفضه لكافة المؤامرات الإستسلامية التي ترمي إلى إحباط معنويات المجاهدين وإضعاف عزيمتهم[3].

ومما ذكره شكيب في مقاله الطويل قوله في عمر المختار: أما أن الشهيد عمر المختار هو من أعظم رجال هذا العصر وممن تستزين بسيرته صحائف التاريخ العام فلا يماري في ذلك أحد عنده ذرة من الإنصاف[4]

وقال أيضاً: ولم يكن عمر المختار رجل حرب فقط، بل كان رجلاً محنكاً منجداً خبيراً بسياسة قومه مطلعاً على أحوال وطنه ذا عقل سليم وحكم سديد وتدبير مصيب، وإنما كان العبقري الأكبر في شجاعته

(1) ما قاله ابن باديس عن رمي عمر المختار، بالرصاص غير صحيح، فقد تم اعدامه شنقاً حتى الموت.

(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 301، الشهاب.

(3) المصدر نفسه ص 302.

(4) الشهاب ج 11 مجلد 7، نوفمبر 1931م ص 691. 701.

وصبره وثباته وقوة عزيمته وصلابة عوده وشدة إيمانه، وكان كأنه صحابي كبير عاش في هذا القرن[1].

إن عمر المختار عند شكيب أرسلان كما هو عند الشيخ عبد الحميد بن باديس لم يكن خارجاً عن السلطة التي تحكم الوطن بقوة السلاح، والتي لم يعترف بها يوماً بل كان مجاهداً في سبيل وطنه ودينه وعرضه، طالباً الشهادة في سبيل الله، مردداً عبارته الشهيرة «نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت» وبالفعل لاقى عمر المختار وجه ربه وهو يقاتل أعداءه بسلاحه وبقلمه وفكره الثاقب قائلاً: إذا أنا مت تستمر الثورة من بعدي[2].

ومن جانب آخر عندما أقيم حفل تأبين المجاهد عمر المختار في بيت الأمير محمد سعيد الجزائري، وخرجت الجماهير الدمشقية إلى الشوارع، وأغلقت المحال التجارية، ودعا خطباء المساجد إلى مقاطعة البضائع الإيطالية ؛ اشترك الأمير محمد سعيد الجزائري في تلك المظاهرات، وأرسل برقيات الاستنكار إلى عصبة الأمم المتحدة بجنيف، وإلى رئيس وزراء إيطاليا، وفيما يلي نص البرقية الأولى: جنيف عصبة الأمم: اجتمع مئات الأشخاص من علية القوم ووجهاء السوريين لتأييد قائد الحركة الوطنية في طرابلس، برقة السيد عمر المختار الذي أعدمه الإيطاليون بعد أسره، واستفظعوا عمل إيطاليا المخالف لقوانين الحرب، ذلك التصرف الذي أدمى قلوب العرب جميعاً، أرفع إليكم استنكارهم واحتجاجهم على حكومة إيطاليا التي لم تراع شعور المسلمين في إخوانهم الطرابلسيين. دمشق: حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ـ محمد سعيد[3].

وجاء في البرقية الثانية الموجهة إلى موسوليني رئيس الحكومة الإيطالية ما يلي: روما، رئيس وزراء إيطاليا السنيور موسوليني: إعدام السيد عمر المختار زعيم طرابلس ـ برقة الذي أسرته السلطات العسكرية أدمى قلوب

(1) المصدر نفسه.

(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 303.

(3) المصدر نفسه ص 303.

العرب، وأوجب استياءهم الشديد، لمخالفة ذلك التصرف المريع لنظم الحرب والعدالة. باسم مئات المجتمعين من أعيان السوريين أرفع إليكم هذا الاحتجاج وأعرب لكم عن غضب المسلمين على تصرفات رجال حكومتكم في حق الطرابلسيين. دمشق: حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ـ محمد سعيد[1].

وهكذا كان يرى الجزائريون بصفة عامة، وقادة الجهاد الإسلامي دعاة الإصلاح في الجزائر وفي مقدمتهم الشيخ عبد الحميد بن باديس جهاد عمر المختار واستشهاده في سبيل وطنه ؛ على أنه جزء من كفاح الأمة العربية جمعاء، لإحياء الأمجاد العربية ورفع راية الإسلام، فلم يفرقوا على الإطلاق بين ما يقومون به من نضال ضد المستعمر الفرنسي، وبين ما يقوم به الليبيون من جهاد ضد المحتلين الإيطاليين بقيادة شهيد العروبة والإسلام شيخ الشهداء عمر المختار[2].

**ـ موقف ابن باديس من زيارة موسوليني إلى طرابلس وبرقة:**

أعلن موسوليني عن نفسه بأنه «حامي الإسلام»، وكان الهدف الحقيقي من تلك الزيارة هو الإعلان أمام الرأي العام الأوروبي بأن طرابلس وبرقة أصبحتا جزءاً أساسياً من الإمبراطورية الإيطالية، وخندقاً من خنادق المواجهة المحتملة في البحر المتوسط، وفي المستعمرات الفرنسية في تونس والجزائر ومراكش والمستعمرات الإنكليزية في مصر والمشرق العربي.

وقد علق الشيخ عبد الحميد بن باديس على تلك الرحلة عبر صحيفة الشهاب قائلاً: إن هذه الرحلة ما هي إلا استعراض دجال، ولو كانت لنا بالضحك قوة لضحكنا من هذه الخزعبلة الكبيرة المضحكة، فخزعبلة السيف التي كلفت الحكومة مائتي ألف ليرة إيطالية وحمل إلى طرابلس وقدم هناك من قبل فريق من المسلمين بموجب أوامر عليا أطلقوا عليه اسم «سيف الإسلام».

يا إيطاليا.. يا عديمة الرحمة.. يا دموية.. ماذا فعلت خلال ربع قرن بنصف مليون من المسلمين؟ من

(1) المصدر نفسه ص 304.

(2) المصدر نفسه ص 304.

الذي فوّض طاغيتك في التحدث باسم الإسلام؟ وأن يعلن في انعدام ضمير على الطريقة الرومانية أنه حامي حمى الإسلام[1].

كما سعى ابن باديس من خلال جمعية العلماء المسلمين وجريدة الشهاب الناطقة باسمها أن يذكر الشعب الجزائري بمجاهدي العروبة والإسلام، وعملهم الدائب لتعميق فكرة الأخوة العربية الإسلامية، التي تجمع بينهم وبين أشقائهم الليبيين، فنشر في جريدة الشهاب ثلاث صور لزعماء العرب الذين غدرت بهم السلطات الاستعمارية الإيطالية والفرنسية والإنكليزية، كانت أولها صورة للزعيم عمر المختار كتب بجانبها «عمر المختار ضحية الاستهتار الإيطالي» وعزز بقصيدة أحمد شوقي التي رثى فيها عمر المختار قائلاً:

ركزوا رفاتك في الرمال لواء        يستنهض الوادي صباح مساء..

ثم علّق على ذلك قائلاً: ومن الغرور الذي تصاب به الدول الطاغية أنها تحسب معسول كلامها ينسي الناس حنظل أعمالها، فلأجل تنبيهها من هذا الغرور نشرنا صور ضحاياها في هذا الجزء من مجلتنا[2].

وإيماناً من الشيخ عبد الحميد بن باديس بأنه لن يصلح حال الأمة الإسلامية إلا إذا صلح علماؤها لأنهم بمثابة القلب للأمة، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم وقوي إيمانهم، فإنه لم يتردد في توجيه نقده اللاذع إلى بعض المواقف المتخاذلة لبعض العلماء الذين سخرتهم إيطاليا لخدمة أغراضها في السابق.

ويذكر بالموقف المشين الذي وقفه قاضي قضاة طرابلس عندما قام في هيئته الشرعية فقدم سيفاً لموسوليني خلال زيارته السابقة إلى طرابلس. فيكرر استهجانه لذلك الموقف قائلاً: منذ زمن قريب قام قاضي طرابلس فقدما سيفاً لموسوليني فلم يكفه أن يسميه سيف طرابلس، فيكذب على وطنه وقومه ؛ فسماه سيف الإسلام ليكذب على دينه وربه، وزاد في هذا الإفك والجرأة أن سمى مستعبده ومستعبد إخوانه المسلمين: حامي الإسلام[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 306.

(2) المصدر نفسه ص 307.

(3) المصدر نفسه ص 308.

### د . وحدة الشمال الإفريقي:

وأما عن وحدة الشمال الإفريقي، فقد كانت شغله الشاغل والركن الركين الذي قامت عليه دعوته، فجعل من الأركان الثابتة والأبواب القارة لمجلته الشهاب ركناً بعنوان «في الشمال الإفريقي» يتتبع فيه ما يجري في أقطار دول المغرب من أحداث، ويتفاعل مع قضاياه إيماناً منه بوحدة أقطار دول المغرب. فقد جاء في الركن مقال بعنوان: «الأيام الخالدة في تاريخ المغرب الحديث» ما يلي: إننا إذ نمد من وراء هذه الحدود الوضعية يد الإخلاص والولاء إلى رجال المغرب الأبرار . أبناء بلاد الشمال الإفريقي . وإلى مجاهديهم الكرام الأحرار، والأباة وإلى شركائنا في الأصل والنسب، وإلى الذين خلقنا الله معهم أمة واحدة تشترك في وطن يربط الأطلس بين أجزائه رباطاً وضعته يد الله، فلا تستطيع أن تحله يد البشر، وتشترك في لغة ودين وعوائد وتقاليد، وتشترك في أيام خالدة مرسومة على صفحات التاريخ، ثم هي شريكة في المحن والالام وتصرفات الأيام، وشريكة في كل المصالح الدينية والدنيوية، وشريكة في الامال الفسيحة والنظر إلى المستقبل بأعين متفائلة مغتبطة، شريكة فوق كل ذلك في ميدان الجهاد الوطني في سبيل الحرية والتحرر.

ويقول الشهاب عن تونس: لتونس الخضراء أيام عزة وفخار هي أيام الحزب الدستوري، وما أدراك ما هي.

ويقول الشهاب عن الجزائر: وللجزائر أيام شرف وسؤود هي أيام جمعية العلماء المسلمين.

ويقول الشهاب عن المغرب الأقصى: وللمغرب الأقصى أيام بطولة ماجدة وشرف واستشهاد هي ايام كتلة العمل الوطني.

ويؤكد الشهاب ما يربط هذه الأقطار من وحدة بالمعنى الروحي والأدبي فيقول في مقال افتتاحي بعنوان: الشمال الإفريقي كيف يجب أن يعالج [1] ؟ جاء فيه : إن الاتحاد الإسلامي والوحدة العربية بالمعنى الروحي

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 89.

والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي ـ هما موجودان ـ تزول الجبال ولا يزول، بل هما في ازدياد دائم، بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والإسلام، وأما بالمعنى السياسي والمعنى العملي فلا وجود إلى اليوم لهما.

وأما العلاج فقد كتب الشهاب يقول عنه: وكادت كلمة القوم ـ الاستعمار ـ تتفق على أنه الضغط والإرهاق واستعمال القوة والشدة.

نقول ـ بالصدق والصراحة اللذين تعرفهما منا الدوائر الحكومية ـ إنه علاج قد يُسكن الشعب شيئاً ما، ولكنه زرع في القلوب بغضاً وحقداً، وملأ الصدور ثورة وحماساً، وما مال ذلك بطبيعة الامتلاء وطول الزمان إلا الانفجار.

**هـ ـ فلسطين:**

ولعل قضية فلسطين من أبرز القضايا التي نالت اهتمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، فهو لم يعش حتى تتأسس دولة اليهود على أرض المسجد الأقصى، ولكن الأحداث التي كانت تقع هناك لفتت الأنظار إلى المخطط اليهودي الماكر، فما كان من ابن باديس إلا أن أرسل الاحتجاج على الأحداث الدامية التي وقعت في فلسطين منذ أوائل الثلاثينات، وكان احتجاجه موجهاً إلى وزارة الخارجية الفرنسية، وما كان الاحتجاج هو الوسيلة الوحيدة، بل كان الشعب الجزائري على فقره وحاجته يجود بما يستطيع لمساعدة إخوانه في فلسطين(1).

وعبّر ابن باديس عن موقفه من قضية الأمة الإسلامية فلسطين السليبة من خلال إحدى خطبه التي قال فيها: إخواني إني أحييكم وأحيي جميع إخوانكم الذي خلفهم العذر، ثم أسكب عبرة الأسى على ما تلقاه أرض القدس الشريف من عسف الاستعمار الغاشم، الذي فرّق بين الإخوة الذين عاشوا في هناء وصفاء منذ قرون، كما لطخ تاريخهم من هذه الفعلة بكل نقيصه مخزية ومردية، ولطخ تلك الرحاب المقدسة بالدماء البريئة، فبلسانكم ولسان الجزائر كلها من الأجنة في بطون الأمهات إلى الذين في الأجداث أرفع الشكوى إلى

(1) المصدر نفسه ص 164.

الله، ثم الاحتجاج إلى كل من فيهم إنسانية من جميع الأمم[1].

**و ـ رأيه في الثورة السورية:**

حمّل ابن باديس فرنسا مسؤولية الثورة في سوريا، فذكر أن هذه الثورة، جاءت بغتة فلم يدر الناس أسبابها، ومن جرائد سوريا قد عرفنا السبب الحقيقي لهذه الثورة المجهولة العاقبة، وهو صلابة الإدارة فقد وقعت من كاربييه حاكم الجبل إهانة للدروز، وإهانة لبعض زعمائهم، فلم يصبروا عليها.. فلما رأى الشعب الدرزي ذلك.. اتّحد ونهض وأوقد نار حرب لا يدري إلا الله متى تنتهي وإلى أين ينتهي لهيبها[2].

وبعد أن حمّلها المسؤولية ؛ وجّه خطاباً إلى فرنسا قائلاً: ما أحوج فرنسا إلى حكام يسلكون جانب اللين مع من ساقتهم الأقدار إلى كنفها، وأما الصلابة والشدة وقلة الاكتراث بالأمم الضعيفة، فإنها لا تورّث إلا خسارة الأموال والرجال والقلوب، وتشوه السمعة، وتوجد لأعداء فرنسا ثغراً ينفذون إليها منها[3].

**ز ـ المسلمون في روسيا:**

فمنذ أول أعداد «المنتقد» نجده ينقل أخبار المسلمين في روسيا، حيث يقول الخبر: هدم الشيوعيون معهداً إسلامياً في مدينة طشقند اسمه «مدرسة كابيلربي»، وأخذوا ينشئون في مكانه تمثالاً للزعيم لينين. ثم يستنتج الخبر أن هذا العمل وأمثاله يؤكد «عداء البولشفيك للإسلام والمسلمين، كما هم أعداء جميع المتدينين»[4].

وبعد سنوات تنشر الشهاب مقالاً مقتبساً من مجلة «الفتح»، يوضح دور اليهود في الثورة البلشفية وأنهم المسيطرون عليها، والدليل على ذلك ما يتمتع به اليهود من حقوق وامتيازات، وهذا ما قاله مندوب مسلمي

(1) المصدر نفسه ص 164.

(2) المنتقد العدد 10 الخميس 14 صفر ص 178.

(3) المصدر نفسه ص 178

(4) المنتقد العدد الأول في 11 ذي الحجة 1343هـ 2 يوليو 1925م.

روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة 1344هـ: إنهم «البولشفيك» لا يفرقون بين أهل دين ودين، بل يضطهدون أهل الأديان جميعاً ؛ إلا أن اليهود سالمون من هذا الاضطهاد، ومتمتعون بحقوق لا تنسى لأحد سواهم، بل الحكومة كلها في أيديهم. وفسر ذلك بأنه النفاق والدهاء، فاليهود بلشفية في الظاهر، وهم في الباطن لا يفرطون في مثقال ذرة من يهوديتهم، وبهذا المكر الكبّار نجحوا دون سائر أهل الأديان[1].

## 3 ـ الأحداث الفكرية والأدبية في العالم الإسلامي:

### أ ـ أمير الشعراء أحمد شوقي:

واهتم ابن باديس رحمه الله بالأحداث الفكرية، فلما قرر أدباء مصر مبايعة شوقي أميراً للشعراء، أسرع الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى توجيه النداء إلى الأدباء الجزائريين، لإقامة حفل تكريم لشوقي، ولكن السلطات الفرنسية رفضت الإذن لهم بذلك، فكتب في الشهاب يقول: وقد لبّى أدباء الجزائر نداءناً وكدنا نعقد حفلة التكريم لولا تحذير إداري عرض لنا تركنا له ما عزمنا عليه، متعجبين من الوقوف في سبيل حفلة أدبية محضة[2].

نعم إنها حفلة أدبية محضة ولكنها تأكيد للرابطة الإسلامية واحتفاء واهتمام بشأن شاعر معروف، وفي ذلك تمجيد للغة العربية وإعلاء لشأنها الأمر الذي حاربته فرنسا منذ بداية الاحتلال[3].

### ب ـ في تأبين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم:

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى:

**أيها الإخوان:**

إذا كانت الأمم اللاتينية ـ على ما بينها من تزاحم وتخاصم وتقاتل وتناحر ـ ترتبط برابطة اللاتينية وتتفاخر بثقافتها، وتعقد المجتمعات العظيمة لتقوية روحها وتمتين حبل التمسك بها، فنحن ـ أبناء العربية ـ

(1) الشهاب ج 10 م 7 ص 622.

(2) الشهاب العدد 105 في 14 محرم 1346هـ.

(3) عبد الحميد بن باديس، مازن مطبقاني ص 131.

وليس بيننا شيء من تلك المفرقات، بل ما بيننا إلا ما يقرب بعضنا من بعض من المؤلِّفات والمحزنات، أحق بأن نفعل مثلهم وأكثر منهم في لغتنا العربية.

وفوق هذا فإن اللغة اللاتينية ليست لغة العلم والأدب المشتركة ما بينهم مثل العربية التي هي لغة العلم والأدب ما بين سبعين مليون من أبناء الضاد، وليست اللاتينية قريبة من عامياتهم مثل قرب العربية الفصحى من عاميتنا، حتى أنه لو قام خطيب يخطب باللاتينية لما وجد من يفهمه إلا قليلا من أهل القلم منهم، ونحن نلقي دروسنا ومحاضراتنا وأكثر خطبنا بالعربية الفصحى فلا يبعد على السامعين إلا قليل من القول.

فإذا كانت العناية باللاتينية من واجب خاصتهم، فإن العناية بالعربية من واجبنا عامة وخاصة، إذ هي لغتنا أجمعين. وإذا كان تمسكهم برابطتهم اللاتينية لم تخرج أي واحد منهم عن وضعيته الاجتماعية الخاصة ؛ فإن تمسكنا بهذه الرابطة العربية لا يخرجنا عن وضعيتنا الخاصة وما لنا من ارتباطات أخرى يرتبط بها المجتمع الجزائري.

**أيها السادة:**

إن من حقنا ومن الواجب علينا ـ نحن معاشر المسلمين الجزائريين ـ الذين تشربت عروقنا هذه اللغة الكريمة من معين قوميتنا الشريفة، وتغذت أرواحنا من بيانها العذب بالشرب المصفى من ديننا العظيم، واستنارت عقولنا من شمسها المضيئة بالأنوار الساطعة من تاريخنا الجليل، من حقنا الواجب علينا أن نكرم العربية، ومن يكرم العربية وخصوصاً من خدم العربية بعقله وروحه وحياته مثل شاعرينا الكريمين؟

ومن حقنا ـ أيضاً ـ أن نرتبط بأبناء العربية ارتباط القلب واللسان، ارتباط العقل والتفكير، ارتباط الشعور والتقدير، خصوصاً عندما يتحرر الشعور العام لأمر هام، وتتوجه القلوب العربية لتكريم عظيم أو إحياء ذكرى عزيز، مثل احتفالنا هذا مع العالم العربي لتكريم الشاعرين العظيمين وإحياء ذكراهما العزيزة الخالدة.

**أيها السادة:**

إننا باحتفالنا هذا بذكرى شاعري العربية العظيمين شوقي وحافظ، نكرم سبعين مليوناً من أبناء العربية الذين يعدون العربية لغتهم القومية، ونكرم خمسمائة مليون من أبناء الإسلام الذين يعدونها لغتهم الدينية، ونكرم الأمم المتمدنة جمعاء التي يعترف أكابر علمائها المنصفين بمزية اللغة العربية التاريخية على العلم والمدنية.

**أيها الإخوان:**

ليس الشاعران الخالدان بالمحتاجين للتعريف بهما، ولست بالباحث الأديب الذي يستطيع أن يعرض عليكم في بلاغة وإيجاز صوراً فتانة من أدبهما، غير أنني ربما استطيع أن أقول شيئاً من وجوه العبرة والقدوة في حياتهما ووجوه من النعمة العظيمة من الله تعالى على العربية بهما.

قد اتحد الشاعران في المواطن وتقاربا في المولد والوفاة ولكنهما تباينا في البيئة والنشأة والمعيشة، فنشأ شوقي في بيت الأمارة، وفي بيئته الخاصة عاش حافظ عيشة البؤس والشدة، فكان من نعمة الله أن قسمت الحياة بينهما هذا التقسيم ليؤدي كل منهما للعربية رسالته من ناحيته ومؤثراتها الخاصة به.

فلقد أخرجت بيت الأمارة المرتبطة بالخلافة من شوقي شاعر الإسلام والعرب والأحداث الإسلامية الكبرى والتاريخ الإسلامي العام وتاريخ العرب، وأخرجت البيئة العامة الرازحة تحت نير الظلام والمتجرعة لألوان الشقاء والمتقلبة في دركات الانحطاط من حافظ شاعر الأخلاق والاجتماع والوطنية، ولا غناء لواحد من العرب عما جاء به كل واحد من الشاعرين في ناحيته، ولو لم يخلق الله إلا أحدهما لما تمت النعمة من الناحيتين.

كانت العربية القرآنية قد تنوسيت أساليبها وانقطع سند الأمة العربية عنها، فجدد الشاعران من شبابها، وأعادا من بيانها ما حسب الناس أنه مات مع الأيام الزاهرة للعرب بالمشرق والمغرب.

حسب قوم أن العربية لا تتسع لما جد من المعاني إلا إذا خلعت عنها ثوب القرآن ولبست ـ مثلهم ـ

منسوجات «لانكشير» وأخوات «لانكشير» فجاء الشاعران ـ خصوصاً شوقي في العقد الأخير من عمره ـ من قصائدهما العصرية المعاني القرآنية اللغة والأسلوب والتراكيب ـ بأوضح الرد وأبلغ التكذيب[1].

عاش الشاعران كل على ما قسم له من الحياة حتى جاءت الحرب العالمية الكبرى ووضعت أوزارها، فإذا بشوقي يخرج إلى العالم من قفص دار الإمارة، وإذا بحافظ يدخله بؤسه إلى قفص الوظيفة في دار الكتب المصرية. فماذا كان من الشاعرين العظيمين بعد؟

كان منهما ما يجب أن تكون فيه أبلغ العبرة، فإن شوقي اتسعت شاعريته العالمية وقويت نزعته الوطنية، وأما حافظ فقد سكت إلا عن قليل كان أكثره رثاء، ولعمر الحق ما أسكته إلا الوظيفة التي ينسى بها الشرقي ـ حتى مثل حافظ ويا للأسف ـ نفسه وأمته وملته، إلى ما شاء الله.

**أيها الإخوان:**

أن مما نفع شوقي إطلاله على اداب أمم أخرى من لغة أوروبية هي الفرنسية، وأن مما نفع حافظاً ما مسه من الألم مع قومه، وقد كان يطالع «الأغاني» و«العقد الفريد» ويعيد مطالعتهما المرة بعد المرة، فعلى أدباء الجزائر وشعرائها أن يدرسوا ادابهم العربية، وأن يطالعوا الاداب الغربية في اللغة الفرنسية، وأن يمازحوا قومهم ليألموا وينعموا ـ إن كان نعيم ـ لتكون لهم منزلة أدبية عالمية واثار بارزة في الحياة.

**أيها الإخوان:**

إن حياة الشاعرين العظيمين قد أخمدت نوابع وأماتت قرائح، وإن موتهما بما نشاهد من تكريم العالم العربي لهما سيحيي ملكات ويبعث هماً فكونوا ـ وأنتم أنتم ـ في أول الرعيل.

**أيها الأخوان:**

ليس للجزائر من حافظ إلا ما للأوطان العربية من شعره وأدبه وفنون قوله،أما شوقي فقد قدر له أن يزور

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 535).

هذه الجزائر في شبابه وينزل بعاصمتها أربعين يوماً للاستشفاء، ويقول عنها: ولا عيب فيها سوى أنها قد مسخت مسخاً، فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف النطق بالعربية، وإذا خاطبته بها لا يجيبك إلا بالفرنسية[1].

فاعجبوا للاستدلال على حالة أمة بمساح الأحذية منها، ولا يجمل بي أن أزيد في موقعي هنا على هذا، إلا أن فقيدنا العزيز لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له في الجزائر رأي اخر، ولعلم أن الأمة التي صبغها الإسلام، وهو صبغة الله، وأنجبتها العرب وهي أمة التاريخ، وأثبتتها الجزائر وهي العاتية على الرومان والفاندال، لا تستطيع ولن تستطيع أن تمسخها الأيام ونوائب الأيام.

**أيها الإخوان:**

باسمي الضئيل، وباسم الجزائر الكبير، وباسم جمعكم الكريم، أرفع التحيات الزكية للفقيدين الخالدين في مرقدهما ولجميع العاملين لإحياء العربية وأدبها من بعدهما.

فليعش العرب، ولتعش العربية، وليعش المحبون لهما من الناس أجمعين[2].

**ج. وفاة الشيخ محمد رشيد:**

في سنة 1935م توفي الشيخ محمد رشيد بمصر، فكتب ابن باديس: نعت أخبار مصر وفاة هذا الإمام، وقد كانت وفاته إثر رجوعه من مشايعة الأمير سعود إلى الإسكندرية، فابتدأه الألم أثناء الطريق وما بلغ إلى مصر حتى وافاه الأجل. وقد شيعت جنازته في مشهد عظيم ودفن بجوار الأستاذ الإمام محمد عبده. لقد كان الأستاذ نسيج وحده في هذا العصر، فقهاً في الدين وعلماً بأسرار التشريع وإحاطة بعلوم الكتاب والسنة، ذا منزلة كاملة في معرفة أحوال الزمان وسير العمران والاجتماع. وكفى دليلاً على ذلك ما أصدره من أجزاء التفسير، وما أودعه مجلة المنار في مجلداتها التي نيّفت على الثلاثين وما أصدر من غيرهما مثل الوحي المحمدي

(1) المصدر نفسه (3 / 536).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 194).

الذي كان أحب كتبه إليه، وإن ما كان يقوم به من عمل في تفسير القرآن لا تستطيع أن تقوم به من بعده إلا لجنة من كبار العلماء، فهل يكون في رجال الأزهر من يتقدمون لخدمة الإسلام بتتميم هذا العمل الجليل؟ إننا نتمنى أن تتوجه عناية الأستاذ مصطفى المراغي إلى هذا فيكون من أعظم أعماله.

أجر الله الإسلام والمسلمين في هذه المصيبة، وخلف عليهما خيراً منها، ورحم الله الأستاذ حجة الإسلام وجازاه خير ما جازى به عباده الصالحين[1].

وكتب بعد ذلك مقالات في الشيخ محمد رضا نقتطف منها:

**مولده**: ولد في حدود 1291هـ 1965م بقرية القلمون من قرى لبنان.

. **بيته**: بيت شرف ودين وعلم وفضل وصلاح يعرفون بالمشائخ من قريتهم وإليهم يرجع أهلهم في الدين وإصلاح الشؤون.

ـ **نشأته**: نشأ في هذا البيت الطاهر نشأة علم ودين وتقوى وشعور بواجبات القيام بحاجات الناس وإيصال الخير إليهم.

. **تعلمه وشيوخه**: قرأ القرآن وتعلم الخط والحساب من كتّاب قريتهم، وحبب إليه من الكتب كتب الأدب والتصوف، فكان يقرأ كتاب الإحياء لحجة الإسلام الغزالي، فطبعه بطابع الزهد والتدين، وأكسبه ملكة العربية الفصيحة والأسلوب المرسل في البيان، ثم أدخل مدرسة ابتدائية جميع التدريس فيها باللغة التركية فلم يقم فيها إلا سنة.

ثم سنة 1302هـ دخل مدرسة الأستاذ حسين الجسر، وكان هذا العلامة أنشأ مدرسته لتعليم علوم الدين واللغة العربية واللغات الأجنبية والعلوم الدنيوية على الطريقة العصرية مع التربية الإسلامية الوطنية، فتخرج في العلوم العربية والشرعية والعقلية على الأستاذ الجسر في مدة ثمان سنوات وكتب له شهادة العالمية.

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 194).

وتشبّع بروحه في ضرورة الجمع بين علوم الدين وعلوم الكون المادية والاجتماعية والعمرانية مع التربية الإسلامية لنهضة الأمة، وأخذ الحديث وفقه الشافعية عن شيخ الشيوخ العلامة محمود نشافة، وحضر قليلاً من نيل الأوطار للشوكاني على العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي، واستفاد كثيراً من معاشرته في العلم والأدب والتصوف، وتلقى بعض كتب الحديث عن العالم المحدث الشيخ القوقجي.

**. الكتب التي خرجته:**

شغف بكتاب الإحياء فطالعه كله وأعاد مطالعته فكان له الأثر الصالح في زهده وأخلاقه وإخلاصه في العلم وتقواه في العمل وكان طريقه منه في فهم الدين أنه دين روحاني أخروي فقط، وأن إرشاد المسلمين محصور في تصحيح عقائدهم ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا.

ثم اتفق له في أثناء مدة طلبه للعلم ـ وهو يقلب أوراقاً علمية لأبيه ـ أن وجد عددين من جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها حكيم الشرق جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، فقرأهما بشوق ولذة بعثاه على البحث عن بقية أعدادها، فلما قرأ ما وجد منها المرة بعد المرة ؛ أحدثت فيه أثراً جديداً ونقلته من طور إلى طور، وصار طريقه في فهم الإسلام أنه دين روحاني جسماني أخروي دنيوي، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل[1].

وإن إرشاد المسلمين يجب أن يكون ـ مع تصحيح عقائدهم، ونهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات ـ إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ومبادرة الأمم العزيزة من العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة.

**. نسكه:**

حبب إليه كتاب الإحياء مجاهدة نفسه على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام والاكتفاء بقليله والنوم

(1) المصدر نفسه (4 / 197).

على الأرض وغير ذلك. وأخذ أوراد الشاذلية عن شيخه أبي المحاسن القاوقجي أعبد عباد شيوخ الطريق في وقته. ورغب منه أن يسلكه تلاوة الأوراد وحضور الاجتماعات فقال له الشيخ: يا بني إنني لست أهلاً لما تطلب، فهذا بساط قد طوي وانقرض أهله، ثم تلقى الطريقة النقشبندية وقطع مراتبها كلها فكان نسكه ـ أولاً ـ تصوفاً طرقياً شاذلياً فنقشبندياً بما فيه من حق وباطل وهدى وضلال.

**ـ تخلص نسكه من الباطل والضلال:**

دعاه شغفه بكتاب الإحياء إلى اقتناء شرحه الجليل للإمام المرتضى الحسيني، فلما طالعه ورأى طريقته الأثرية في تخريج أحاديث الإحياء فتح له باب الاشتغال بعلوم الحديث وكتب السنة، وتخلص مما في كتاب الإحياء من الخطأ الضار ـ وهو قليل ـ ولاسيما عقيدة الجبر والتأويلات الأشعرية والصوفية والغلو في الزهد وبعض العبادات المبتدعة، وترك أوراد الشاذلية لما علم أن قراءتها من البدع التي جعلت من قبيل الشعائر والشرائع التي شرعها الله تعالى على ما فيه ـ أي: ورد السحر ـ وأمثاله من الأمور والأقسام المنتقدة شرعاً، واستبدل بها قراءة القرآن ووردا آخر في الصلاة على النبي (ص) ليس فيه شبهة بدعة من توقيت وجهر وصيغ منكرة ومضاهاة للشعائر الموهمة للمأثور عن الشارع كما ترك أوراد النقشبندية وذكرها «غير المشروع المخالف لجميع ما ورد في الذكر المأثور» وبين ما في رابطتها من شرك أو بدعة.

فتخلص نسكه ـ بعد طرح ذلك كله ـ للتنسك الإسلامي من تجريد التوحيد وتزكية النفس وتقويم الأعمال وتصحيح النية ومحاسبة النفس ومراقبة الله في جميع الأعمال والزهد في الدنيا والعمل للاخرة والمبالغة في العبادة المشروعة والاعتصام بالورع موزوناً ذلك كله ومضبوطاً بالكتاب والسنة، وما كان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون واتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين، وهذا هو الذي يراد بالتصوف إذا جاء اسم التصوف في كلام علماء السنة والأثر، وقد كان السيد محمد رشيد رضا رحمه الله من أئمتهم فهذا هو نسكه وهذا هو تصوفه.

**. تعليمه وإرشاده:**

تصدى للتدريس في مسجدهم حيث كان عمه .كأسلافه يقوم بالأمامة والخطابة والتدريس، فكان يقرأئ الرجال دروساً في الفقه الشافعي ودروساً في التوحيد بالسنوسية. ولما رأى صعوبتها عليهم وضع لهم عقيدة سهلة وكان يربيهم في تعليمهم بما يحثهم عليه من القيام بالشعائر الدينية، وكان يلقي عليهم المواعظ الدينية معتمداً فيها على آيات القرآن العظيم، ثم لم يكتف بما يقوم به من التعليم والإرشاد في المسجد ؛ فكان يذهب إلى مقهى يجتمع فيه العوام فيعظمهم ويرشدهم حتى هدى منهم من هدى الله، ورأى أن على المرشد هداية النساء مثل ما عليه هداية الرجال، فكن يجتمعن في دار أسرته فيلقي عليهن العقائد والأحكام والاداب في عبارات سهلة بدون كتاب، وكان يأمرهن بتغيير زيهن بما هو أستر وأطهر حتى تكون المرأة في الشارع كما تكون في الصلاة.

**. أمره بالمعروف وتغييره للمنكر:**

كان بعد ما قرأ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كتاب الإحياء يأمر وينهي لا يخاف لومة لائم وأول حادثة صدع فيها بالنهي عن المنكر في حفل عظيم من الناس .كانت يوم شهد حفلة للطريقة المولوية، ورأى رقصهم وحلقة غلمانهم فصاح فيهم بما معناه «أيها المسلمون إن هذا منكر لا يجوز النظر إليه، ولا السكوت عنه، لأنه إقرار له وأنه يصدق على مقترفيه قول الله تعالى: {اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا} وأنني قد أديت الواجب فاخرجوا رحمكم الله» وخرج مفارقاً لهم .

**. ما وقع بينه وبين شيخه الجسر بسبب هذا الإنكار:**

كان الشيخ الجسر على علمه بالعلوم الشرعية وإلمامه بالعلوم العصرية شيخاً في الطريقة الخلوتية، فكان ينصح لتلميذه بأن يكف عن أهل الطريق ولكن لايأتيه على ما يفعلونه مما يبتدعونه في الإسلام ويشرعونه لأنفسهم مما لم يأذن به الله بدليل وكان السيد يقول له: أقنعني بما تقول بالدليل ليصير عقيدة لي أرجع إلى قولك. فكان يجيبه الشيخ بقوله: أنت أهل علم وصاحب حجة وليس لك عندي غير ما قلته. وكما كان

ينكر على العامة ؛ كان ينكر على الحكام والكبراء ما يراه منهم لا يخص بإنكاره أحداً دون أحد، وكذلك كل ما كان عن عقيدة ولوجه الله من الأعمال لا يتركه صاحبه على كل حال.

هذه ترجمة السيد قبل هجرته إلى مصر وقد رأينا أنه صار عالماً معلماً مرشداً ذا منزلة رفيعة في العلم والتقوى والنصح للمسلمين وهو بعد في أول العقد الثالث من عمره[1].

وجاء في المقال الثاني بعنوان الاعتبار بما كنا نشرناه من القسم الأول من حياة حجة الإسلام السيد محمد رشيد رضا:

لقد بلغ السيد رشيد رضا من الفقه الديني والتمكن من علوم الكتاب والسنة والخبرة بأحوال الزمان منزلة ما استحال أنها تتاح لأحد من بعده إلا في دهر طويل، لأن الأسباب التي يسرت له لا نراها اليوم مجتمعة في مكان، غير أن هذا لا يمنعنا من الاعتبار بحياته والأسباب التي اتيحت له لنأخذ بها ونحث على الأخذ بها، وهذه أهم النواحي التي كان لها ذلك الأثر في مقامه العظيم.

**ـ البيئة المنزلية:**

البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديُّن الأم هو أساس حفظ الدين.

والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن، والسيد رشيد كانت متانة خلقه وقوة دينه من أثر أمه التي كانت ـ كما قال هو ـ على جانب عظيم من الدين مع العلم الكافي لمثلها، ولبيئة بيته، فإذا أردنا أن نكوّن رجالاً فعلينا أن نكوّن أمهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً وتربيتهن تربية إسلامية، وإذا تركناهن على ما هن عليه من الجهل بالدين ؛ فمحال أن نرجو منهن أن يكون لنا عظماء الرجال، وشر من تركهن جاهلات

(1) المصدر نفسه .

بالدين إلقاؤهنّ حيث يربِّيْنَ تربية تنفرهن في الدين أو تحقره في أعينهن، فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهن، ولأن تكون الأم جاهلة محبة له بالفطرة تلد للأمة من يمكن تعليمه وتداركه ؛ خيرٌ بكثير من أن تكون محتقرة للدين تلد على الأمة من يكون بلاء عليها وحرب لدينها.

فنوع تعليم البنات هو دليل من ستكون من أجيال الأمة في مستقبلها، وقد تفطنت لهذا بعض الأمم المالكة لزمام غيرها فأخذت تعلم بناتها تعليماً يوافق غايتها، فمن الواجب علينا . ولنا كل الحق في المحافظة على ديننا ومقوماتنا . أن نعنى بتعليم بناتنا تعليماً يحفظ علينا مستقبلنا ويكون لنا الرجال العظماء والنساء العظيمات، وإلا فالمستقبل ليس كالماضي فقط بل شر منه لا قدر الله[1].

وتحدث ابن باديس عن أثر المعلمين في الشيخ محمد رشيد، وهمته في التحصيل الدراسي، واهتمامه بالتربية الروحية، وتعيينه الغاية واستعداده للتضحية في سبيلها، فقد كانت غايته أن يهتدي في نفسه وأن يهدي غيره. وتحدث عن تفكيره الاستقلالي فقد استطاع أن يتخلص في كتاب الإحياء للغزالي من الخطأ الضار . وهو قليل . فتخلص منها ورسم لنفسه ولغيره من خلال سيرته وعلمه الزهد الإسلامي الصحيح والنسك المشروع، وكان بعيداً عن الوظائف الحكومية، وتفرغ لخدمة الإسلام والدعوة إليه وبيان حقائقه لأبنائه وغير أبنائه[2].

**. هجرته إلى مصر:**

كان لديه رغبة عارمة للتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده والأخذ عنه والتكمل به، فقد كانت مطالعته لمجلة العروة الوثقى باعثاً لإعجابه بالإمام جمال الدين الأفغاني وشغفه والشوق إلى لقائه، وكان كاتبه وهو بالإستانة في ذلك، ولم يساعده القدر على لقائه، وكان حبه للإمام جمال الدين مستلزماً لحبه لتلميذه ومعينه ووارث علمه وحكمته، ومحرر العروة الوثقى الشيخ محمد عبده، وكان السيد قد التقى به ببلدة طرابلس من

(1) المصدر نفسه (4 / 302).

(2) المصدر نفسه (4 / 305).

أرض الشام وتعرف به وحضر مجلسه فازداد به شغفه وتعلقه، فلما توفي السيد جمال الدين سنة 1314هـ عزم على الهجرة إلى مصر والاتصال بالاستاذ الإمام.

**. آثار اتصاله بالأستاذ الإمام:**

جاء السيد رشيد إلى مصر وهوعالم ومفكر وكاتب متبصر، فصحب الأستاذ الإمام صحبة العالم الصغير للعالم الكبير، فكان من أول آثار ذلك اصداره للصحيفة الإصلاحية التي كان يستمد روحها من الأستاذ الإمام، ثم رغبة منه في إلقاء دروس التفسير التي كانت أساساً لتفسير المنار، ورغبته إليه في إقراء علم البلاغة من كتابي إمامها «دلائل الإعجاز» «وأسرار البلاغة»، فكانت قراءتهما فتحاً جديداً في العربية، كما كانت دروس التفسير فتحاً جديداً في الدين(1).

**. وفاء السيد للأستاذ الإمام في حياته وبعد وفاته:**

كان السيد الساعد الأيمن والعضد الأشد للأستاذ الإمام في جميع ما قام به، كما كان الترجمان الصادق عن أفكاره والمدرأ الصمام في الدفاع عنه، واستمر السيد على وفائه للأستاذ الإمام بعد وفاته كما كان له في حياته، وما عرف المصريون وغير المصريين قدر الأستاذ الإمام وحفظ عليهم أمانته وخلّد لهم اثاره إلا السيد رشيد، وكان إلى آخر حياته. وقد فاق أستاذه في نواح عديدة من العلم. لا يفتر يلهج بأستاذه حتى كاد ينسي الناس نفسه وأثره الخاص في الدين والعلم والإصلاح.

**. مواقفه بعد الأستاذ الإمام:**

مضى السيد الرشيد بعد الأستاذ الإمام مضطلعاً بأعباء خطته الإصلاحية، واتسعت افاق أعماله إلى العالم الإسلامي كله، وكان لابد له من أن يصطدم بالحالة السياسية التي عليها العالم الإسلامي، والتي هي بطبيعتها العقبة الكؤود في سبيل كل إصلاح. فأصبح السيد رشيد من الفرسان المعلمين في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي، وكان في كليهما يصدر عن إيمان، ويجالد بقوة، ويناظر بحكمة، ويفحم ببرهان.

(1) المصدر نفسه (4 / 206، 207).

**. غايته السياسية:**

لقد كانت غايته السياسة الكبرى إيجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب، تكون مركزاً للأمم الإسلامية في العالم، بصفة دينية إذا لم تكن بصفة سياسية. وعلى هذه الفكرة ولهذه الغاية ناصر الدستور العثماني وجمعية الاتحاد والترقي. فلما تبينت له منهم النعرة الملية الضيقة ؛ ناوأهم وعمل على إيجاد مملكة عربية إسلامية مستقلة عن الدولة العثمانية، التي كان يرى الإتحاديين سائرين بها إلى الانهيار. فانضم إلى الجمعية العربية العاملة في مصر وأوروبا، ولهذا الغرض ولهذه الغاية كان مع الشريف حسين يوم أعلن الثورة العربية، حتى إذا تبين غدر الحلفاء بما كان من معاهدة «سايس . بيكو»، ورأى الشريف حسين لا يرجع عن اغتراره بهم، نفض يده منه وانقلب عليه وعلى البيت الهاشمي كله.

ولغايته التي ذكرنا كانساير إمام اليمن يوماً حتى تبين له أن نطاق المذهب الزيدي لا يتسع لأمم الإسلام.

وفي أثناء هذا أخذت لوامع الدولة السعودية تلوح في الأفق حتى فاجأت العالم بإزالة العرش الهاشمي المتداعي وانتصابها مكانه بمكة المكرمة، فوجد فيها السيد رشيد ضالته من دولة إسلامية تنفذ الشرع الإسلامي وتقف عند حدوده وتحيي سننه، وتقاوم كل ما ألصق به من بدع وضلالات، وتنتمي إلى أحد المذاهب الأربعة الكبرى.

فشمر عن ساق الجد لمؤازرتها وتأييدها وإرشادها، ووجد من ملكها الملك عبد العزيز ال سعود الرجل المسلم الذي يعمل للدين وينتصح لكل ناصح فيه. فسار معه السيد رشيد إلى غاية واحدة حتى قضى وهو في طريق رجوعه من تشييع ولي عهده، فإذا كان يظهر من السيد رشيد تبدُّل في سيره السياسي ؛ فإنما هو تنقل من طريق إلى طريق في سبيل الوصول إلى غاية معينة، فلما وجد الطريق اللاحب المبين سلكه حتى مات رحمة الله عليه[1].

(1) المصدر نفسه (4 / 208).

**. أثر السيد رشيد في العالم الإسلامي:**

إن السيد رشيد بما نشر من تفسير القرآن الكريم على صفحات المنار وما كتب في المنار وغير المنار، هو الذي جلّى الإسلام بصفاته الحقيقية للمسلمين وغير المسلمين، وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القران، وهو الذي دحر خصوم الإسلام من المنتمين إليه وغير المنتمين إليه، وهتك أستارهم حتى صاروا لا يحرك أحد منهم أو من أباههم يده إلا أخذ بجنايته، فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم إصلاحاً وهداية بياناً ودفاعاً ؛ كلها من اثاره فرحمه الله وجزاه أفضل ما يجزي العاملين[1].

**د . وفاة الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي:**

قال ابن باديس: ما كاد يندمل جرح العالم الإسلامي بوفاة حجة الإسلام السيد رشيد رضا حتى فجع بوفاة مفتي الإسلام الشيخ محمد بخيت المطيعي في رجب الماضي، ونحن نكتب اليوم كلمة عن فضيلته كما كتبنا من قبل عن السيد رشيد رضا وما كان قلمُنا القاصر ليوفي واحداً منهما حقه.

**. منزلته العلمية:**

نال شهادة العالمية من الدرجة الأولى سنة 1293هـ وتصدى لخدمة العلم والإزدياد منه بالتدريس بجد منقطع النظير ومداومة ليس فيها فتور، فكان علماً في سائر العلوم الأزهرية، وكان ممتازاً بين كبراء الأزهر بتحقيق الأصلين علم الكلام وأصول الفقه، وكان بسعة علمه وقوة إدراكه وتمييزه يرفع الخلاف في كثير من أمهات المسائل، ويبين أن الخلاف فيها لفظي وأن أصل المسألة محل اتفاق.

**. منزلته في القضاء والفتوى:**

دُعي إلى الاشتغال بالقضاء فتقلد وظائفه، وتنقل بينه وبين الفتوى حتى بلغ أعلى درجاتهما، فلما بلغ سن التقاعد تفرغ للإفتاء العلمي، فكانت ترد عليه الأسئلة من جميع أقطار العالم الإسلامي فيجيب عنها.

---

(1) المصدر نفسه (4 / 209).

وكان له كتّاب يتولون له كتابة ما يحرره ويمليه ويرسلونه إلى السائلين وينفق هو على ذلك كله من خالص ماله.

**. موقفه من الإصلاح الديني:**

كان زميلاً للشيخ محمد عبده في الطلب وهو الوحيد من شيوخ الأزهر الذي كان يساميه وينال معه حظاً من الشهرة خارج مصر، وكان ـ على معارضته له في نواح ـ يؤيده في إنكار البدع والمحدثات في الدين[1].

**. إنصافه للأستاذ الإمام وشهادته له:**

لما رمى بعض حساد الشيخ عبده أيام تصديه لأخذ شهادة العالمية بالتهاون بالصلاة ؛ شهد له الشيخ محمد بخيت عند مشيخة الأزهر فقال: إننا دائماً نقدمه فيؤمنا في صلاة الجماعة لتقواه وصلاحه.

ولما عقدت أول حفلة لذكرى الشيخ محمد عبده وكانت يوم الثلاثاء 16 ذي القعدة 1340هـ بالجامعة المصرية، كانت تحت رئاسة الشيخ محمد بخيت، فخطب في تلك اللحظة ومن جملة ما قال عن الأستاذ الإمام: ترك فراغاً عظيماً كان يشغله وحده، لم يستطع أحد أن يشغله بعده، فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة والنفوس الكبيرة[2].

**علاقتي به:**

لما رجعت من المدينة المنورة على ساكنها واله الصلاة والسلام سنة 1332هـ، جئت من عند شيخنا العلاّمة الشيخ حمدان الونيسي المهاجر إلى طيبة والمدفون بها رحمه الله، جئت من عنده بكتاب إلى الشيخ بخيت، وكان قد عرفه بالإسكندرية لما مر بها مهاجراً، فعرجت على القاهرة وزرت الشيخ بخيت بداره بحلوان، مع صديقي الأستاذ إسماعيل جغر المدرس اليوم بالأزهر. فلما قدمت له كتاب شيخنا حمدان قال لي: «ذاك

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 212).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 212).

رجل عظيم»، وكتب لي إجازة في دفتر إجازاتي بخط يده رحمه الله وجازاه عنا وعن العلم والدين خير ما يجزى العاملين الناصحين[1].

### 4 . النقل عن الصحف الإسلامية المشرقية:

كانت مجلة الشهاب تتلقى العديد من الصحف الإسلامية، فتنقل عنها ما تراه مناسباً لنشر الوعي الإسلامي، وتبصرة القارئ الجزائري بقضايا أمته ودينه. ولننقل فيما يلي نماذج من هذه الصحف:

ـ عن مجلة «صدى الشبان المسلمين» بالبصرة «العراق» محاضرة بعنوان «أسباب تحامل أوروبا على الإسلام» للبارون النمساوي عمر افرنهلز ألقاها في الكلية الإسلامية بالهند جاء فيها: أما المانع الاخر في سبيل انتشار الإسلام هناك فنجده في التحامل والتعصب، إن المسألة مسألة جمود نفساني، فقد خلق الكفاح السياسي القديم بين المسلمين والمسيحيين من النفور جواً من الأغلاط وسوء التفاهم، ومن النفور والعداوة، بل من الزور والبهتان والقذف الظالم في حق الإسلام ونبيه الكريم (ص)[2].

. ونقلت الشهاب مقالاً عن مجلة «الكفاح العراقية» من عددها الممتاز في ذي الحجة 1357هـ / يناير 1939م بعنوان: لن يصلح شأن الأمم الإسلامية حتى يوجهوا سياستهم شطر الإسلام جاء فيه: مادامت الشعوب الإسلامية الان وزعماؤها وقادتها لا يفكرون إلا في مصادقة الدول الأجنبية ومحاكاتها وتقليدها والاندماج في أوضاعها ؛ فلن تقوم للشعوب الإسلامية قائمة.. ولن يرجع لهم عزّ ولا يبلغون مجداً. فجعل زعماء السياسة في العالم الإسلامي لهذا العهد لم يدرسوا الإسلام دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية، إنما هم كلهم أبناء مدرسة السياسة الأوروبية المبنية على أنقاض القرون المسيحية الوسطى في أوروبا. وقد كانت الكنيسة إذ ذاك العدو اللدود للسياسة والعلم فنشؤوا هم أشد عداوة لها وجرّوا في سبيل عداوة المسيحية عداوة

---

(1) المصدر نفسه (4 / 212).

(2) عبد الحميد بن باديس، د. مطبقاني ص 132.

كل دين بلا تمييز في طبائع الأديان، وطغت العناية بتاريخ أوروبا على العناية بتاريخ الشرق ودينه ومجده، حتى إن الطبقات الراقية المتعلمة من الأمم الشرقية الإسلامية لا تكاد تعرف عن تاريخ الإسلام ولا عن تاريخ بلادها في عهد النهضة شيئاً يذكر[1].

. وعن مجلة الرابطة العربية حول دعوة العلماء إلى قيام مجمع فقهي إسلامي قالت المجلة: ولقد دعا العلماء في مختلف العصور إلى وجوب توحيد المذاهب والتوفيق بين العقائد، فلم تصادف دعوتهم نجاحاً لأنها كانت دعوة فردية جاءت في عصور الجمود والخمول. وفي هذه السنة وجّه الأستاذ الجليل عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مثل هذه الدعوة إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وقام فضيلته بدوره فأخذ اراء كبار العلماء في العالم الإسلامي[2].

### ثالثاً: أسس قيام الدولة العربية الموحدة:

لم يكن ابن باديس أول من آثار فكر قيام الدولة العربية الموحدة، فقد أثارها من قديم بعض فلاسفة الإسلام الأوائل أمثال الكندي والفارابي ثم ابن خلدون، كما أثارها في أواخر القرن التاسع عشر رجال الإصلاح الديني والسياسي أمثال الكواكبي والأفغاني، وبعدهم جاء ابن باديس في تفسيره ومقالاته ليحدد أسس قيام هذه الدولة وعوامل بناء الحضارات وأسباب انهيارها، كما حدد الأطر السياسية والجغرافية والسكانية للدولة العربية الموحدة، وأثر المقومات اللغوية والدينية والقومية في تفاعل هذه الأطر وتكوين الإطار المرجعي لهذه الدولة.

وبرغم الملامح المثالية في التصور الباديسي والأمل الواعد في تحقيق هذه الدولة، فقد حاول في واقعية تقديم تصور لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع العربي بالفعل، مؤكداً على أن في استقراء التاريخ والواقع بإمكاناته

---

(1) المصدر نفسه ص 134.

(2) المصدر نفسه ص 134.

ومتغيراته دليل على إمكان تحقق هذه الدولة التي تحكمها مجموعة من الأسس والأطر الأخلاقية والدينية والاجتماعية والجغرافية الواحدة وهي:

### 1. الإطار الخلقي:

ويتمثل في ضرورة الالتزام بالقانون الذي يساوي ويؤاخي بين الجميع في كل شيء في إطار عام من الحق والعدالة، وفي الثواب والعقاب وفي العمل والتفكير، وحتى في مجال التضحية من أجل بناء وبقاء الدولة ووحدتها وحمايتها، وقد عبر عن ذلك ابن باديس بقوله: الحياة تشترى بالأرواح والأبدان، ذلك هو الثمن، ومن دفع الثمن فمن الحق والعدل أن يأخذ المثمن، وعلى مبدأ الحق والعدل يكون حق الأفراد في التمثيل البرلماني وفي جميع المجالس الإقليمية، وتوحيد النيابة البرلمانية والمشاركة في الانتخابات وحرية التعبير والمساواة في كل شيء، بما فيها الحقوق المدنية والسياسية، وهكذا تكون المؤاخاة الحقيقية والتي لا تكون إلا عندما يشعر الإنسان بأنه لا مغموط الحق ولا مهضوم الجانب من صاحبه(1).

### 2. الإطار الجغرافي والسكاني:

ويصف ابن باديس التفاعل السكاني في هذه الدولة بقوله:

فالجليل والكبير له مكانه، والصغير والحقير له مكانه، وعلى كل مواطن أن يسد الثغرة التي من ناحيته مع شعوره بارتباطه مع غيره من جميع أجزاء البنيان التي لا غناء لها عنه، كما لا غناء له عن كل واحد منها، فكل واحد من المؤمنين عليه تبعه بمقدار المركز الذي هو فيه والقدرة التي عنده، ولا يجوز لأحد وإن كان أحقر حقير أن يخل بواجبه في ناحيته، فإنه إذا أزيل حجر، صغير من بنيان كبير دخل فيه الخلل بمقدار ما أزيل، وإذا بدأ الخلل من الصغير تطرق الكبير(2).

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 122).

(2) المصدر نفسه (2 / 122).

### 3. الإطار الاجتماعي:

يرى ابن باديس أن يؤسس الإطار الاجتماعي للدولة على أساس التعاون والمشاركة، ويقول: إن الدولة العربية الواحدة لا بد أن يكون قوامها العمل والإنتاج والنظام، وأن تكون كل مدينة من مدنها هي مدينة الشعب العامل، إذ العمل طريق التغيير والإنتاج، وبه يكون التطور والبناء والنهضة وفق الشعار الدائم، فاعمل وداوم على العمل، وحافظ على النظام، فالعمل ما هو إلا خطوة ووثبة وراءها خطوات وثبات، وبعدها إما الحياة وأما الممات.

### 4. الإطار الديني:

ويتمثل في الالتزام بالواجبات والتكاليف وبما في الدين من نصح وإرشاد وعلم وبصيرة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ولكي يصبح الدين من أهم أسس بناء الدولة الموحدة دعا ابن باديس إلى:

ـ ضرورة التمسك بالإسلام الذاتي، أي الإسلام علىحقيقته الذي يقوم على الفهم والإدراك للعقائد والأخلاق والاداب الإسلامية والأعمال، شريطة أن يبني ذلك كله على الفكر والنظر ليحيا حياة فكر وإيمان وعمل[1].

ـ ضرورة الالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتضرب على يد سفهائها وأهل الفساد منها، وتهجرهم وتنبذهم من مجتمعهم من الشرور والبلايا، وتقل أو تنعدم منها المفاسد والمنكرات، أما الأمة التي تسكت عن سفهائها وأهل الشر من كبرائها وتدعهم يتجاهرون فيها بالفواحش والقبائح هي أمة هالكة متحملة جريرة المجاهرة بالمعاصي[2].

ـ ضرورة التمسك بتعاليم الدين الداعية إلى العلم والثقافة والأدب لأن هذه التعاليم بمثابة الغذاء الذي يحتاجه الجسم، فكما أن الأبدان تحتاج إلى الغذاء كذلك الدول في حاجة إلى غذاء من الأدب والرقي والعلم

---

(1) المصدر نفسه (2 / 124).

(2) المصدر نفسه (2 / 124).

الصحيح، ولا يستقيم سلوك أمة حتى تنقطع الرزيلة من طبقاتها، وتنتشر الفضيلة بينهم ؛ إلا إذا تغذت عقول أبنائها بهذا الغذاء النفيس[1].

ـ ضرورة الانتباه إلى ما في الدين من قوة عظيمة لا يستهان بها، وقوة معنوية نلتجأئأ إليها في تهذيب أخلاقنا، وقتل روح الإغارة والفساد والجرائم فينا، ودور كبير في تسيير أمور الدولة وسياستها، ومن ثم فالدولة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته وتجلب عليه وعليها الأضرار والأتعاب والفتن[2].

## 5 . الإطار السياسي:

ويشرح ابن باديس مفهوم السياسة الحكيمة التي تقوم عليها الدولة وعمادها العلم والدين، فيقول: إن العلم هو وسيلة المعرفة لحقيقة الأوضاع السياسية والإجتماعية في الدولة، وهو السبيل ليعرف العرب والمسلمون أنهم المتسببون فيما هم فيه، ووجب عليهم ألا يحملوا مسؤولية ذلك إلى غيرهم أو إلى الأقدار، فهناك أسباب لكل شيء، وهذه السببية يتم معرفتها بالعلم.. فالسياسة الحكيمة تؤكد على أن العلم وكذلك الدين لا ينهض حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق، وعلى ذلك وجب على الدولة أن تلتزم في سياستها بقوانين العلم وحدود الإيمان معاً، وأن العلم في هذه الدولة مهمته خلق الوعي وتنبيه الأذهان إلى المشكلات التي تعترض كلاً من الدولة والأفراد وكيفية حل هذه المشكلات، كما أن على العلم تقع مسؤولية توجيه السياسة لهذه الدولة[3].

والسياسة الحكيمة عند ابن باديس تعتمد على أسس وأهداف ثلاثة: هي التعاون على الخير، ثم السعي لتحقيق السعادة، ثم نشر السلام. وذلك لأن الدولة العربية الإسلامية الموحدة هي دولة إنسانية ودينها هو دين الإنسانية العام الذي لم ينزل للعرب وحدهم، بل نزل لبني الإنسان كافة، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ} [سبأ : 28]. وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء : 107].

---

(1) المصدر نفسه (2 / 125).

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 88) (3 / 565).

ومن أجل تطبيق هذا المبدأ عملياً كان ابن باديس يؤكد موقفه العملي المتمثل في:

ـ أصر على وجود العلماء في المجالس النيابية، اعتقاداً منه بأن السياسة ستكون في نظر هؤلاء العلماء المشاركين هي التفكير والعمل والوطنية.

. ضرورة أخذ العلم عن كل أمة وبأي لسان، واقتباس كل ما هو مفيد مما عند غيرنا، ومد اليد إلى كل من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام.

. ضرورة أن تؤسس السياسة على العلم، لأن السياسة بلا علم هي مجرد فكر نظري لا يفيد، وأن السياسة مع العلم تكون كالتربية والتعليم وسيلة إصلاحية فعالة.

ـ رفض ما دعا إليه الإمام محمد عبده من ضرورة فصل الدين عن الدولة والسياسة، على اعتبار أن السياسة لحقت بالعقائد الدينية حين تغلغلت فيها الأهواء السياسية فأورثت شقاقاً وخلافاً. أما ابن باديس فقد رفض هذا الفصل وأصر على إشتراك السياسة مع الدين في بناء الدولة الموحدة، وخاصة إذا كان هذا الاشتراك بأسلوب علمي يوقظ الوعي ويحرك الهمم والعزائم، ويحقق للأمة النهضة، ويساعدها في التغلب على العقبات وفي مقدمتها عوامل التفريق بين الداخل والخارج.

. وأن العلم الذي يوجه السياسة والأمة هو العلم بالأسباب، إنه العلم الذي يبني الأمم ويكون الحضارات، وبه يجعل الله من الأمة الضعيفة أمة قوية عندما تأخذ بأسباب العلم والمدنية، وتضعف الأمة عندما تبتعد عن تلك الأسباب.

ويؤكد ابن باديس أن تلك سنة كونية ثابتة وأن من سنن الله في كونه أن يعلم هذا العالم الإنسان ما لم يكن يعلم، كإخراج الضد من الضد، وإخراج الحي من الميت، وإنقاذ الأمة الضعيفة التي لا تملك شيئاً من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية، فتلك سنة ثابتة ولا تختلف باختلاف الأمم ولا تتبدل على الأجيال(1).

---

(1) جمال الدين الأفغاني، عبد الرحمن الرافعي ص 120 إلى 121.

### رابعاً: خصائص الدولة العربية الموحدة:

حدد ابن باديس تلك المميزات والخصائص، وكيفية المحافظة عليها في مقال بمجلة الشهاب جاء فيه: إن من الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها، ولذلك نرى القرآن الكريم يذكرها بالشرف، ليفهم العرب السر والحكمة في اختيار الله لهم للنهوض بهذه الرسالة لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل، وأن تظهر دين الله على الدين كله، وأن هذه الدولة غير متعصبة، لأن قوامها الوحدة والاعتصام والوطنية الإسلامية التي تمزج بين العروبة والإسلام، ولا تنكر الوطنيات الأخرى، ولا تتنكر للدائرة الأكبر إذ الوطنية الإسلامية العادلة هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مقوماتها وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها[1].

ويضيف ابن باديس إلى هذه الخصائص القومية والوطنية عدة خصائص أخلاقية وعلمية واجتماعية ويؤيدها بأدلة عقلية ونقلية، ومن هذه الخصائص:

#### 1 . دولة فاضلة:

لأنها تقوم على فضائل الأخلاق الدينية، ومنها التعاون والتفاهم والعدل والإحسان، وأن هذه الدولة الفاضلة هي النموذج العالي للدولة العربية الإسلامية، عندما تحاكي الأصول التي نفذها الخلفاء الأوائل وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق، وأن هذا النموذج لم تستطع الكثير من الدول الحديثة أن تصل إلى مستواها، أو تتمكن من تنفيذ نموذجها، لأن الأحكام التي سار عليها أبو بكر لم تكن من تفكيره الخاص، أو اجتهاده الشخصي فحسب، بل كان يستمد أحكامه من أصول الدين وأوامر الله الحكيم الخبير، وهي الأصول التي لا نجاة للعالم اليوم إلا بها[2].

#### 2 . دولة تعاون ومشاركة:

يشير ابن باديس إلى أهمية هذه الخاصية من الناحية الاجتماعية والخلقية بقوله: إنه بتطبيق أخلاق الدين

(1) مجلة الشهاب د7 م13 عام 1937م ص 141.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 282 . 288).

في التعاون والمشاركة سيكون إصلاح حالهم ومالهم، ويتم تنوير عقولهم وتزكية نفوسهم، وتصحيح عقائدهم وتقويم أعمالهم، وتكمل الإنسانية وينظم الاجتماع ويشيد العمران ويقام ميزان العدل وينتشر الإحسان[1].

### 3. دولة علم ومدنية:

لأن العلم هو أساس قيام الدول وأصل بقائها، وأن بالعلم تتقدم الدول، ويستمر تقدمها باستمرار العلم وتطور المعرفة، كما تنحط الدولة بإنحطاط العلم.. ودليل ابن باديس على ذلك أنه كلما يتطور العلم تتقدم الدولة بتطور مكتشفات العلم، وأن المتكشفات عندما تضم إلى المعلومات فتكثر المعلومات ويكثر ما يتبعها من المكتشفات على نسبة كثرتها، ويكون كل قرن ـ ما دام التفكير مستمراً ـ أكثر معلومات، ومكتشفات من الذي قبله. فإذا قلّت معلوماته قلّ اكتشافاته. وهذا كما كان النوع الإنساني في أطواره الأولى، وإذا كثرت معلوماته وأهمل النظر فيها، بقي حيث هو جامداً، ثم لا يلبث أن يتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل وتضمحل ؛ لأن المعلومات إذا لم تتعاهد بالنظر زالت من الحافظة شيئاً فشيئاً، وعلى ذلك يقل العلم وينتشر الجهل والفوضى بجميع أنواعها، وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام، وذلك عندما يرتفع العلم، ويفشو الجهل، وتنتشر الفوضى بأنواعها، فتتخذ رؤوساء جهالاً لأمور دينها ودنياها، فيتعهدونها بغير علم، فيضلون ويضلون، ويَهلكون ويُهلكون، ويفسدون ولا يصلحون[2].

ويستشهد ابن باديس على أهمية العلم والمدنية في بناء الدولة والحضارة بأدلة تاريخية من القرآن الكريم، وهي تلك الدول والحضارات التي أقامها العرب من قديم، مثل أمة عاد وثمود وسبأ التي كانت باليمن، ويرى أن من قيام هذه الدول وتطورها ونهضتها وانحطاطها واندثارها لعبرة بالغة، ففي أخذها بأسباب العلم والمدنية

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 342).

(2) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير ص 657 ـ 661.

والإيمان وصدق الاعتقاد كان نجاحها ونجاتها من العذاب، وعندما بعدت عن أسباب العلم والإيمان واقترفت الكفر والشرك كان هلاكها، وهذا ما يثبته القرآن في غير ما اية، منها قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [الكهف : 59].

وقوله تعالى: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ *} [يونس : 98].

فتلك أدلة نقلية وعقلية تؤكد أثر الإيمان والأخذ بالأسباب، وأن في استقامة الإنسان نجاحه وفي فساده هلاكه.

وقد تعرض ابن باديس بتفصيل هذه الأدلة في تفسيره وفي محاضرته التي ألقاها بنادي الترقي بالعاصمة الجزائرية في إبريل 1939م.

وجي فيها قوله: قد ربط الله بين الأسباب ومسبباتها خلقاً وقدراً بمشيئته وحكمته، لتهتدي بالأسباب إلى مسبباتها وتتجنبها باجتناب أسبابها، فإن بطلان السبب تقتضي بطلان المسبب، ولذا فإن الأمة التي أقلعت عن أسباب العذاب ارتفع عنها كما في قوله تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} [يونس : 98].

وكما في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف : 96].

فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد من حالتنا هذه لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب[1].

## خامساً: وظائف الدولة العربية الموحدة:

إذا رجعنا إلى تفسير ابن باديس المسمى بمجالس التذكير، وتفسيره للأحاديث في هدى النبوة، ومقالاته في العروبة والوطنية ؛ تراه يحدد وظائف الدولة العربية الموحدة والأهداف العامة للدولة ؛ من حفظ للنظام،

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 130).

وتحقيق للحرية والعدالة والاستقلال، وحفظ للأموال وتحقيق للأمن والأمان، وتنمية للقوى الابتكارية للفرد، وتحقيق للتقدم والحضارة. ويمكن تفصيل هذه الوظائف كالتالي:

### 1 . امتلاك وسائل القوة لتحقيق العدل:

وفي ذلك يقول ابن باديس: لا بد لكل أمة تسود وتقوى من بطش، ولكن البطش فيه ما هو حق بأن يكون انتصافاً وقصاصاً وإقامة لقسطاس العدل بين الناس، وفيه ما هو بطش الجبارين المنهي عنه، وقد دعت الآيات والأحاديث العديدة إلى امتلاك وسائل القوة والسيادة لبناء الدولة القوية التي ستمتلك البحار وتغزو الأمصار الكبار، وينبه القرآن والحديث إلى ذلك لتستعد الأمة لهذا الهدف وتأخذ له طريقه ولتتوصل إليه بأسبابه إذ لا يكون إلا بأسباب الملك ولا تكون قوة إلا بأسباب السيادة[1].

### 2 . السعي لتحقيق الأمن والسلام الاجتماعي:

ففي ظل الأمن تكون الحياة المطمئنة للجميع، فلا يخاف الفرد حاضراً أو مستقبلاً، وإنه في ظل هذا الأمان الذي توفره الدولة القوية يتحقق الابتكار المنتج، بخلق الفرص التي تكفل ممارسة تطبيق هذا الابتكار بما يعود على المجتمع بالنفع[2].

ولتحقيق ذلك لا بد من السعي لامتلاك وسائل السيادة وتشجيع الابتكار الفردي والجماعي، وتحقيق ما يسمى بالرقابة المركزية في إطار عام محدد هو العنصر الديني، لأن الإيمان بوصفه أهم عناصر قوة الدولة هو سياج الأمان والشكر والفضيلة والعدل.. والدولة بدون هذه الوسائل وتوفيرها هي مجتمع فوضوي، وكل مدينة لم تحصن بهؤلاء فمصيرها الخراب[3].

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 131).

(2) من هدي النبوة، ابن باديس ص 100، 101.

(3) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 68 . 74).

### 3. حفظ الأموال باحترام الملكية:

فتلك وظيفة الدولة التي أشار إليها القرآن في آيات عديدة وفي قوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً *وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *} [الإسراء : 34 . 35].

ففي ذلك إشارة إلى أهمية المحافظة على المال كملكية خاصة وعامل من عوامل البناء والقوة للفرد والدولة، وهو داخل في نسيج القوى الأخرى اللازمة لتنفيذ الأعمال كالقوة الذاتية والقوة الدينية والقوة العقلية وغيرها.

### 4. المحافظة على التراث ومكوناته:

إن ابن باديس كانت مواقفه كمصلح وصاحب حكمة واضحة في الدعوة إلى الإصلاح الشامل، وتخليص المجتمع العربي من التقاليد الزائفة والأفكار البالية التي غرستها عهود الاستعباد والإقطاع والجهل، ولهذا فالإنسان العربي في حاجة ماسة إلى أفكار وتقاليد جديدة تتفق وظروفه الجديدة، وليساير التقدم العلمي، وأن ذلك لا يتعارض مع ضرورة التمسك بالتراث الإسلامي الصحيح والمحافظة عليه لأن ذلك من أهم مقومات الشخصية العربية، فالدين بتراثه له الدور الفعال في جمع شمل هذه الأمة ونهضتها، وحتى يحيا الإنسان العربي بإسلامه الذاتي والوراثي وما به من أحكام وعقائد وقيم وأخلاق ؛ يحيا حياة فكر وعمل[1].

### 5. السعي لتحقيق الحرية والاستقلال والمحافظة عليهما:

لأن الوجود الحقيقي للدولة لا يكون إلا بحريتها واستقلالها والمحافظة عليها ومقاومة أعدائها، ولكي تتحقق هذه الوظيفة في الدولة العربية الموحدة رأى ابن باديس ضرورة تحرر واستقلال جميع الشعوب العربية، وأن تقاوم الدول العربية كل مستعمر وكل عامل من عوامل التخلف والجهل والرجعية، لأن الشعب الحر هو

(1) ابن باديس وعروبة الجزائر ص 60.

مصدر القوة الدائمة والمحرك الطبيعي لكل إصلاح، وأن الحرية والاستقلال شرط كل تقدم وكل بناء، وهي الشرط الضروري لإتمام الإتحاد بين أي قطر عربي واخر إلى جانب عوامل الوحدة الأدبية والاجتماعية، وهي شرط ضروري لقيام الدولة ونجاح سياستها، لأن السياسة الدولية هي من شأن الأمم المستقلة وأن الحرية والاستقلال لا يكونا إلا من خلال موقف سياسي يتمكن من حل العديد من المشكلات، ويواجه كل القوى التي تحد من حرية الفرد والمجموع(1).

ولأن هذه الحرية وظيفة وغاية ووسيلة ؛ كان موقف ابن باديس العملي من أجل حرية وطنه واستقلاله، ورفضه لدعوات الاندماج والفرنسة والاستسلام، ودعوته إلى جميع أشكال الحرية، فكانت دعوته لحرية الدين والتعليم وحرية الصحافة، كما كانت دعوته إلى تحرير فلسطين ومساعدة اللاجئين، ورفض التقسيم لذلك القطر العربي الشقيق الذي ضمنت له العهود والمواثيق الدولية حفظ كيانه واستقلاله، مقرراً أن ذلك التقسيم هو اعتداء على جميع الشعوب العربية والإسلامية، وأن بناء الدولة العربية الموحدة ضرورة، وأنها لو قامت لما كان هناك وجود للاستعمار في الشرق، ولما كانت هناك مشكلة فلسطيني(2).

## سادساً: عوامل قيام الدولة وبناء الحضارة:

اهتم ابن باديس في تصوره للدولة الحديثة بإبراز عوامل البناء والهدم، وأطوار تطور الأمم والمراحل التي تمر بها وأسباب تقدمها وعوامل انهيارها.

وقد استعرض هذه الأطوار من خلال تفسيره للايات القرآنية التي تعرضت لتطور الحياة والكون والإنسان وواقع الأمم الماضية والحاضرة ومن هذه الآيات قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا *} [الإسراء : 59].

وفي تفسيره لهذه الآية ربط ابن باديس بين أطوار الأمم وتطورها وبين أطوار الإنسان ومراحل نموه، مشيراً

(1) ابن باديس: حياته وآثاره (2 / 411) (3 / 221).

(2) البصائر العدد 31 أغسطس 1937م.

إلى العلاقة الوثيقة بين الإنسان والدولة في حالة قوتها وضعفها ويقول: إن الأمم كالأفراد تمر عليها ثلاثة أطوار هي: طور الشباب وطور الكهولة وطور الهرم.

أما **الطور الأول** فيمثل نشأتها إلى استجماعها قوتها ونشاطها، وفيه تكون مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة.

**والطور الثاني**: ويشمل ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ وقوة السلطان، إلى استكمال قوتها وبلوغها ما كان لها أن تبلغه من ذلك بما كان فيها من مواهب، وما كان لها من إستعداد وما لديها من أسباب.

أما **الطور الثالث**، فيشمل ابتداءها في التقهقر والانحلال إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال ؛ إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندراسها في عالم السيادة والاستقلال. وهذه الأطوار الثلاثة قانون كوني عام لجميع الأمم، فما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر، كما تختلف الأعمار.. وأن طور الهلاك هذا إنما يتحقق بعد إسباغ النعمة وإقامة الحجة على الأمم ؛ وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم، فإهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم(1).

ولتفصيل هذه الأطوار وانعكاسها على الإنسان والمجتمع اهتم ابن باديس بتحديد عوامل قيام الدولة وأسباب انهيارها: وأما عوامل قيام الدولة وبناء الحضارة فهي:

**1 . امتلاك واستكمال وسائل البناء والتعمير**، وذلك بامتلاك وسائل القوة تمهيداً للدخول في الطور الأول من أطوار الحضارة وهو طور المدنية.

ويؤكد ابن باديس ذلك بقوله: إن وسائل البناء والتعمير هي وسائل قيام الحضارات وإن آية أمة لا تعمر الأرض إلا إذا ملكت وسائل التعمير، وهي كثيرة ومجموعها هو ما نسميه بالحضارة أو المدنية، كالحضارة

(1) ابن باديس: تفسير ابن باديس في مجالس التذكير ص 189، 191، 661.

المادية وفنونها كالزراعة والصناعة والتجارة وما يستلزمها من علم بحال الأرض وطبائعها.

أو في القوة البدنية التي ترى في القدرة على النحت كما في الحضارة الرومانية[1].

**2 . امتلاك وسائل العلم والتعليم**، لأن العلم في مقدمة القوى البناءة في صرح الحضارة والمدنية، وهو قوة ناتجة عن اندماج القوة الروحية والإيمان والفكر الواضح السليم، وهذا العلم هو الذي يحصن المدنية تماماً مثل عروق البدن، ومن ثم تكون العلوم كعوامل بناء الجسم الإنساني، والتي تظهر انعكاساتها في صلاح النفس البشرية وتحسين الأوضاع الاجتماعية.

ويصف ابن باديس كيفية امتلاك هذه الوسائل وأثرها في النهضة والحضارة حين يقول: إن بناء الحضارة لا يتم بالفكر اليدوي وحده، بل بالعمل اليدوي الذي يتوقف على علوم كثيرة كالهندسة، والهندسة تتوقف ثمرتها على علوم أخرى كثيرة، وعلوم العمران، كعروق البدن يمد بعضها بعضاً، فهي مترابطة متماسكة متلاحمة[2].

**3 . الالتزام بسياسة امتلاك القلوب وتنوير العقول ووحدتها**، ويبين ابن باديس أثر هذا العمل في بناء الدولة والحضارة وكيفية توجيهه نحو الحق والخير والرحمة والعدل، فيقول: إن الله قد جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة، والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية، سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة والتمكن من الوصول لخير الإنسانية، وأن حرية الفرد لازمة له لممارسة حقوقه في العمل والإنتاج وتكوين العلاقات وإحداث الانسجام المطلوب للوحدة الوطنية، ولأن حرية الأفراد واجتماعهم ووحدتهم تشكل واحدة من أسباب قوة الدولة التي بها يكون التمكن والبقاء، ثم الاستمرار، وهي غير الحقوق المادية الالية التي يكون فيها البطش والتي لا يدوم لها سلطان[3].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 70 . 73).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 375).

(3) التفسير في مجالس التذكير ص 661 . 668.

**4 ـ امتلاك وسائل الإعداد والاستعداد للقوة**: من أجل الدفاع وتطبيق الأحكام، وفي مقدمة هذه الوسائل الالتزام بالقانون، على اعتبار أن قوة القانون من القوى التي يجب على الدولة امتلاكها لأنها من أهم وسائل حفظ الدولة وبقائها، ويرى ابن باديس أن القانون للدولة التي تريد بناء حضارتها بمثابة العقل الذي لا تغلّه التقاليد ولا تقيده حماقة النفس البشرية، ويكون له دوره الفاعل والمثمر عند الالتزام به وتطبيقه، وبه يحدث الانسجام ويتحقق الاستقرار والعدالة، ويؤثر أثره في الفرد والجماعة، إذ القانون هو القوة العادلة التي يكون بها تنظيم الصفوف ورفع الظلم، وإصلاح نظام الحكم ومحاربة الفساد، والإسراف لا بقوة الجبارين، بل بقوة العقل والعلم والقانون[1].

**5 ـ الالتزام بعوامل الوحدة والاعتصام ونبذ عوامل التحزب والتعصب**، لأن القوة مع الاتحاد والضعف مع التشتت والانقسام، ومن عوامل الوحدة التي بينها ابن باديس:

التمسك بما في الدين من نصح وإرشاد وعلم وبصيرة ودعوة إلى الاعتصام والاتحاد، وضرورة التمسك بدوافع القومية والشخصية، والحفاظ على مقومات الشعب البناءة كالجنسية ووحدة اللغة والدم والمصير ووحدة العقيدة، وغيرها من المقومات التي ينشأ عنها الشعور المشترك بين الفرد وبين من يشاركه هذه المقومات والمميزات.

وأن الالتزام بهذه العوامل والمقومات من الواجبات التي أمرنا بها كما في:

ـ قوله تعالى: {وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال : 46].

ـ وقوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء : 59].

ـ ويؤكد ابن باديس على أن تلك عوامل القوة والوحدة والاعتصام التي تطرح بها جميع المفرقات بين

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 136).

المذاهب والمشارب، ويترسخ الاعتقاد بأن الاتحاد واجب محتم على جميع المؤمنين، لأن فيه القوة والحياة وفي تركه الضعف والممات[1].

**6 . السعي لتحقيق الوحدة الفكرية وتعميق أسس الأخوة والكمال الإنساني**، وفي هذا الإطار كانت دعوة ابن باديس إلى الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية وضرورة تمسك الشعب الجزائري والعربي بقوميته وعروبته وديانته، ورفض كل رأي أو مذهب يضر ولا يتفق مع عروبته وديانته، مؤكداً على أن المؤمنين باتحادهم في دولة واحدة تكون لهم قوة، وكل واحد فيهم بمفرده يمكن قهره، أما مع اتحادهم فإنهم يكونون في مأمن من كل قهر، وأن التمسك بمقومات الوحدة الفكرية والقومية في الأمة من الأشياء الغريزية، وأن المحافظة عليها والاعتزاز بها مما جبل عليه الناس كما جبلوا على حب البقاء، ولكن قد يطرأ عل بعضهم سوء ظن فيهما نتيجة لجهل أو ضعف، فيتخلى عنهما فيكون ذلك التخلي نذير الفناء[2].

**7 . تحقيق البناء الاجتماعي السليم**: وهو الذي يبدأ من الأسرة المتماسكة السليمة واتحاد عنصري الأمة وتعاونهما، وهما الرجل والمرأة، وتحقيق الوحدة والوئام الاجتماعي في ظل الارتباط برباط الجنسية السياسية أو ظروف المصلحة المشتركة بين الشعوب العربية، واستجابة لدعوة التعاون والمشاركة في الحديث النبوي:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، فعلى البناء الاجتماعي السليم وتعاون الرجل والمرأة تقوم الحياة ويتوقف العمران.

ـ تدعيم اللغة المشتركة بين عناصر الأمة وشعوبها، لأن اللغة من أهم عوامل وحدة الدولة وقوتها، ويدلل ابن باديس على صدق ذلك بعدة أدلة عقلية ونقلية منها:

. أن الدولة يمكن أن تقوم رغم اختلاف أجناس وأعراق مواطنيها، أما إذا كانت هناك لغة مشتركة واحدة فهناك إذن دولة واحدة.

(1) ابن باديس: حياته وآثاره (2 / 157).

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 138).

ـ أنه لا تكاد تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكوّن الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد.

ـ أن اللغة الواحدة لها أثرها الفعال في بناء الدولة ووحدتها، لأنها العامل الأول في توحيد العقول والقلوب والرابطة القوية لجميع الأفراد.

ـ أن هناك فرق كبير بين عامل الدم وعامل اللغة في توحيد الأمم، بدليل نقلي هو قول النبي (ص): «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالسهر والحمى».. ودليل عقلي هو: أنك إذا وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان، وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير، ثم وضعت شامياً وجزائرياً ينطقان باللسان العربي، لرأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله... لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم، فاللغة إذن هي الأصل في الاتحاد، وإيجاد الوحدة الوطنية التي تكون عندما يكون الوطن متحداً غاية الاتحاد، ممتزجاً غاية الامتزاج، ولا يمكن الافتراق بعد امتزاج واتحاد الفؤاد واللسان[1].

ـ أن الدولة الموحدة بناء متكامل، فيه يتحول الأفراد إلى إنسان واحد وتتحول الشعوب إلى شعب واحد لامتزاج العقل والقلب والروح، وليس تكوّن الأمة متوقفاً على اتحاد دمها، ولكنه متوقف على اتحاد قلبها وروحها وعقولها اتحاداً يظهر في وحدة اللسان وادابه واشتراك الالام والامال، وعلى هذه الوحدة الأدبية يجب أن تؤسس الدولة العربية، كما تأسست منذ فجر التاريخ، فاللغة العربية التي تنطق بها وتتغذى من تاريخها

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 139).

وتحمل مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة تميزها وحدة اللغة والدم والتفاعل من خلال التاريخ[1].

## سابعاً: عوامل ضعف الدولة وإنهيار الحضارة:

يقول ابن باديس: رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن فيه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق وفساد في العقيدة، وجمود في الفكر وقعود عن العمل، وانحلال في الوحدة وتعاكس في الوجهة وافتراق في السير ؛ حتى خارت النفوس القوية، وفترت العزائم المتقدمة، وماتت الهمم الوثابة، ودفنت الأمال في صدور الرجال، واستوى القنوط القاتل واليأس المميت، فأحاطت بنا الويلات من كل جهة وانصبت علينا المصائب من كل جهة[2].

ويضيف ابن باديس إلى هذه العوامل الشخصية والعامة مجموعة من العوامل الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والتي كانت سبباً مباشراً في ضعف الدولة العربية، والإسلامية منذ الخلافة الراشدة وحتى مطلع القرن العشرين، وهذه العوامل هي:

### 1 . العوامل الأخلاقية:

ويعددها ابن باديس في كل ما يؤدي إلى فساد الطبع وفساد النفس الإنسانية والنظر إلى المصالح الخاصة دون المصالح العامة، وكل ما يؤدي إلى فساد الخلق وسوء السلوك، ويصف ابن باديس خطر هذه العوامل على الفرد والمجموع فيقول: إن الغرور والتكبر من أسباب الهلاك للأمة فتضعف وتضعف لذلك أمته، وليس أضر على الأمة من زهو أبنائها وطفرتهم والتغرير بنفوسهم، والغرور والتكبر من فساد أحوالهم، يكون بفساد عقائدهم وأخلاقهم وذلك عنوان ذهابهم واضمحلالهم[3].

وعلى عكس الغرور والتكبر فإن الشعور بالذل والمهانة يحدث نفس الأثر الضار على الفرد والمجموع، لأن هذا الشعور مع تأصيل الجهل من أهم عوامل الهدم، لأنه يقتل الشعور بالعزة والشرف من النفوس، والجاهل

(1) المصدر نفسه (2 / 140)، ابن باديس حياته وآثاره (4 / 239).

(2) ابن باديس: حياته وآثاره (3 / 24، 78).

(3) ابن باديس وعروبة الجزائر ص 49.

يمكن أن تعلمه والجاهل يمكن أن تهذبه، ولكن الذليل الذي ينشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزةً وإباءً وشهامةً تلحقه بالرجال(1).

وكما وصف ابن باديس عوامل الهدم الخلقية يصف لنا كيفية التغلب عليها فيقول: أما مواجهة ذلك فيكون بأن يحل محل الإفتراق الوفاقُ والتواصلُ، وأن يشعر كل فرد من الأفراد بما ينفع الأمة ويقويها، وأن يهتم بمصالح الأمة ويضعها في المكانة الأولى من الاعتبار والاهتمام، ولا بد من ترك العجب والغرور فذلك سبيل الإنسان إلى الكمال والتقدم، لأن الإنسان بطبيعته مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص، وتلك الجبلة مما يسهل تربية النفوس وإصلاحها بالتخلص من الرذائل والتحلي بالفضائل(2).

### 2. العوامل الاجتماعية:

والتي تتمثل في سوء التعليم وإهمال الفرد وانتشار البدع والنزعات المذهبية والطائفية، وغيرها من عوامل الافتراق والتفكك الاجتماعي.. وهي العوامل التي يصفها ابن باديس بأنها العامل القتَّال في عظام الأمة، وأن مقاومته لا تكون إلا بنشر ما يغذي العقول، ويحمي الأخلاق، ويقّوم فاسد العادات، ويحارب البدع التي أدخلت على الدين، وكانت سبباً في النزاعات العصبية والعرقية، وانتشار مختلف السلبيات الاجتماعية التي كان يغذيها المستعمر(3).

ويضيف ابن باديس إلى هذه العوامل كل ما يؤدي إلى الظلم والفساد لأن انتشار الظلم في الدولة هو سبب هلاكها المبين بدليل قوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ *} [هود : 117].

وقوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *} [الأنبياء : 11].

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 141).

(2) التفسير في مجالس التذكير ص 666.

(3) صفحات من الجزائر ص 82، ابن باديس وعروبة الجزائر ص 240 . 241.

فأفادت الآيات أن سبب الهلاك والعذاب هو الظلم والفساد والعنود والتمرد عن أمر الله ورسله والكفر بأنعم الله(1).

### 3. العوامل السياسية:

وبعد أن بين ابن باديس عوامل ضعف الدولة وانهيارها بوجه عام؛ بدأ يحذر من خطر تلك العوامل السياسية لأنها من أخطر عوامل هدم الدولة بدلاً من كونها عوامل للبناء، ومشيراً إلى أخطار سوء استخدام السلطة من الحاكم واعتماده على القوة الغاشمة، حين يلجأ إلى استنزال الوسائل الغير أخلاقية وما ينتج عن سوء سياسته من فساد وإباحية، واستخدامه للقوة ظناً منه أنها للسلام والعدل، في الوقت الذي لا يعلم أنه السبب المباشر في انتشار المظالم، ودعوة الأنانية، وتفكك الأمة، وظهور اختلافات الرأي والانقسام، وكان هذا الخطر وراء مواقف ابن باديس الحاسمة في نبذ ومواجهة كل أنواع الصراع السياسي الهدام، وخاصة أن الوضع السياسي العام في العالم العربي هو العقبة الأكبر في سبيل تحقيق كل إصلاح أو تغيير أو بناء(2).

### ثامناً: أصول الولاية في الإسلام:

قال ابن باديس: لما بويع لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بالخلافة رقى المنبر فخطب في الناس خطبة اشتملت على أصول الولاية العامة في الإسلام، مما لم تحققه بعض الأمم إلا من عهد قريب على اضطراب منها فيه، وهذا نص الخطبة: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني.

أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم.

ألا أن أقواكم عندي الضعيف حتى اخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى اخذ الحق منه.

(1) تفسير ابن باديس ص 193 ـ 194.

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 143).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

**الأصل الأول:**

لا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة إلا بتولية الأمة، فالأمة هي صاحبة الحق والسلطة في الولاية والعزل، فلا يتولى أحد أمرها إلا برضاها، فلا يورث شيء من الولايات ولا يستحق الاعتبار الشخصي، وهذا الأصل مأخوذ من قوله: «وليت عليكم» أي قد ولاني غيري وهو أنتم[1].

**الأصل الثاني:**

الذي يتولى أمراً من أمور الأمة هو أكفؤها فيه لا خيرها في سلوكه، فإذا كان شخصان اشتركا في الخيرية والكفاءة وكان أحدهما أرجح في الخيرية والاخر أرجح في الكفاءة لذلك الأمر، قدم الأرجح في الكفاءة على الأرجح في الخيرية، ولا شك أن الكفاءة تختلف باختلاف الأمور والمواطن، فقد يكون الشخص أكفأ في أمر وفي موطن لاتصافه بما يناسب ذلك الأمر، ويفيد في ذلك الموطن، وإن لم يكن كذلك في غيره ؛ فيستحق التقديم فيه دون سواه، وعلى هذا الأصل ولى النبي صلى الله عليه واله وسلم عمرو بن العاص غزاة ذات السلاسل وأمدَّه بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح فكانوا تحت ولايته وكلهم خير منه، وعليه عقد لواء أسامة بن زيد على جيش فيه أبو بكر وعمر، وهذا الأصل مأخوذ من قوله «ولست بخيركم».

**الأصل الثالث:**

لا يكون أحد بمجرد ولايته أمراً من أمور الأمة خيراً من الأمة، وإنما تنال الخيرية بالسلوك والأعمال، فأبو بكر إذا كان خيرهم فليس ذلك لمجرد ولايته عليهم، بل ذلك لأعماله ومواقفه، وهذا الأصل مأخوذ أيضاً من قوله: ولست بخيركم، حيث نفى الخير عند ثبوت الولاية.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 402).

**الأصل الرابع:**

حق الأمة في مراقبة أولي الأمر، لأنها مصدر سلطتهم وصاحبة النظر في ولايتهم وعزلهم.

**الأصل الخامس:**

حق الوالي على الأمة فيما تبذله له من عون إذا رأت استقامته، فيجب عليها أن تتضامن معه وتؤيده إذ هي شريكة معه في المسؤولية، وهذا ـ كالذي قبله ـ مأخوذ من قوله: «إذا رأيتوني على حق فأعينوني».

**الأصل السادس:**

حق الوالي على الأمة في نصحه وإرشاده ودلالته على الحق إذا ضل عنه، ونقويمه على الطريق إذا زاغ في سلوكه. وهذا مأخوذ في قوله: «وإذا رأيتموني على باطل فسددوني».

**الأصل السابع:**

حق الأمة في مناقشة أولي الأمر ومحاسبتهم على أعمالهم وحملهم على ما تراه هي لا ما يرونه هم، فالكلمة الأخيرة لها لا لهم، وهذا كله من مقتضى تسديدهم وتقويمهم عندما تقتنع بأنهم على باطل ولم يستطيعوا أن يقنعوها أنهم على حق، وهذا مأخوذ ـ أيضاً ـ من قوله: «وأن رأيتموني على باطل فسددوني».

**الأصل الثامن:**

على من تولى أمراً من أمور الأمة أن يبين لها الخطة التي يسير عليها ليكونوا على بصيرة ويكون سائراً في تلك الخطة عن رضى الأمة، إذ ليس له أن يسير بهم على ما يرضيه، وإنما عليه أن يسير بهم فيما يرضيهم، وهذا مأخوذ من قوله: أطيعوني ما أطعت الله فيكم «خطته هي طاعة الله» وقد عرفوا ما هي طاعة الله في الإسلام.

**الأصل التاسع:**

لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي رضيته لنفسها وعرفت فيه فائدتها، وما الولاة إلا منفذون لإرادتها فهي تطيع القانون لأنه قانونها، لا لأن سلطة أخرى لفرد، وكائنة من كانت تلك الجماعة فتشعر بأنها حرة في تصرفاتها وأنها تسير نفسها بنفسها وأنها ليست ملكاً لغيرها من الناس لا الأفراد ولا الجماعة ولا الأمم ويشعر هذه الشعور كل فرد من أفرادها، إذ هذه الحرية والسيادة حق طبيعي وشرعي لها ولكل فرد من أفرادها، وهذا الأصل مأخوذ من قوله: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم»، فهم لا يطيعونه هو لذاته وإنما يطيعون الله باتباع الشرع الذي وضعه لهم ورضوا به لأنفسهم، وإنما هو مكلف منهم بتنفيذه عليه وعليهم، فلهذا إذا عصى وخالف لم تبق له طاعة عليهم.

**الأصل العاشر:**

الناس كلهم أمام القانون سواء لا فرق بين قويهم وضعفيهم فيطبق على القوي دون رهبة لقوته، وعلى الضعيف دون رقة لضعفه.

**الأصل الحادي عشر:**

صون الحقوق في حقوق الأفراد وحقوق الجماعات، فلا يضيع حق ضعيف لضعفه ولا يذهب قوي بحق أحد لقوته عليه.

**الأصل الثاني عشر:**

حفظ التوازن بين طبقات الأمة عند صون الحقوق، فيؤخذ الحق من القوي دون أن يقسى عليه لقوته فيتعدى عليه حتى يضعف وينكسر، ويعطى الضعيف حقه دون أن يدلل لضعفه فيطغى عليه، وينقلب معتدياً على غيره، وهذا الأصل واللذان قبله مأخوذة من قوله: ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى اخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى اخذ الحق منه.

**الأصل الثالث عشر:**

شعور الراعي والرعية بالمسؤولية المشتركة بينهما في صلاح المجتمع، وشعورهما ـ دائماً ـ بالتقصير في القيام بها ليستمرا على العمل بجد واجتهاد، فيتوجهان بطلب المغفرة من الله الرقيب عليهما، وهذا مأخوذ من قوله: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[1].

هذا ما قاله ونفذه أول خليفة في الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، فأين منه الأمم المتمدنة اليوم؟ فهل كان أبو بكر ينطق بهذا من تفكيره الخاص وفيض نفسه الشخصي؟ كلا، بل كان يستمد ذلك من الإسلام ويخاطب المسلمين يوم ذاك بما علموه وما لا يخضعون إلا له ولا ينقادون إلا به، وهل كانت هذه الأصول معروفة عند الأمم فضلاً عن العمل بها؟ كلا، بل كانت الأمم غارقة في ظلمات من الجهل والانحطاط ترسف في قيود الذل والاستعباد تحت نير الملك ونير الكهنوت، فما كانت هذه الأصول ـ والله إذن ـ من وضع البشر وإنما كانت من أمر الله الحكيم الخبير ـ نسأله ـ جل جلاله ـ أن يتداركنا ويتدارك البشرية كلها بالتوفيق للرجوع إلى هذه الأصول التي لا نجاة من تعاسة العالم اليوم إلا بها[2].

## تاسعاً: مسألة إلغاء الخلافة العثمانية:

### 1 ـ نظرة ابن باديس للكماليين:

إذا كان بعض الجزائريين قد تسامحوا بداية مع سياسة الكماليين ثم ناصبوهم العداء بعد إلغائهم لنظام الخلافة أمثال «عبد الحفيظ ابن الهاشمي» ؛ فإن العلامة ابن باديس قد سلك نفس المنهج، فقد غض الطرف عن سياسة الكماليين وتفهمهم قبل 1924م، ولكنه منذ إلغاء نظام الخلافة تفاجأ منهم، وأصدر مقالة بعنوان «الفاجعة الكبرى» أو «جنايات الكماليين عن الإسلام والمسلمين ومروقهم من الدين»:

---

(1) المصدر نفسه (3 / 405).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 405).

بدأ ابن باديس مقاله بتبرير ولائه للكماليين قبل إلغائهم لنظام الخلافة فقال: فلئن والينا الكماليين بالأمس ومدحناهم، فلأنهم قاموا يذبُّون عن حمى الخلافة وينتشلون أمة إسلامية عظيمة من مخالب الظالمين، وقد سمعناهم يقولون في دستورهم: إن دين الدولة الرسمي الإسلام، ثم كشف ابن باديس أبعاد سياسة الكماليين، فقال: ما كنا نجهل عقيدة الشبيبة التركية المتفرنجة ولا مبادئها، وكيف نجهل ذلك منها وقد حفظ التاريخ خطب زعمائها، المليئة بالتأفف من الدين، أم كيف تخفى مقاصدهم وقد فتحوا دستورهم بعد عهد عبد الحميد بمحو كلمة الشهادة من رايات الجيش، وختموها في هاته الأيام بنبذ النظام العائلي الإسلامي في مسائل الزواج والطلاق، وبالفصل بين السلطة الروحية والزمنية. إلى أن قال: لا والله ما كانت تخفى علينا عقائدهم وإنما كنا نغض الطرف عن شرورهم ؛ إبقاء على الوحدة الإسلامية.. وما كنا نحسب أبداً أن يقدموا على إبطال الخلافة.

ثم لم يلبث الكاتب أن عدد منكرات الكماليين من تفهم للخليفة العثماني واله، ورفضهم للديانة الإسلامية، وإبطالهم للمحاكم الشرعية، وفي الأخير اعتبرهم مارقين من الإسلام، لأنهم جنوا على الإسلام والمسلمين أربع جنايات، الأولى على الخلافة، لأنها أقوى ما يستعين به دعاة الوحدة الإسلامية السليمة، والثانية على الخليفة ؛ لأنه «خليفة الإسلام»، وقد تُرك مُلقى على أعتاب الأوربيين ؛ والثالثة على عائلة ال عثمان التي تمثل «مجد الترك»، والرابعة والأخيرة على الدين الذي «أخذوا في استئصاله من الأمة التركية».

### 2. موقف ابن باديس من الخلافة الإسلامية القائمة:

وبعد شرحه لملابسات إلغاء الخلافة طرح ابن باديس موقفه من الخلافة الإسلامية مستقبلاً، فقال: زالت الخلافة بالمعنى الحقيقي والمعنى الصوري، فلنعلمْ أنه لا خلافة بعد اليوم، ولنرفضْ كل خليفة تشم منه رائحة الأجنبي، ولتعمل كل أمة مسلمة على النهوض بنفسها، ولا يكونن ما وقع مضعفاً لعزائمنا ما دام الإسلامُ

الجامعة الكبرى التي تجمعنا[1].

وبعدما نفى عبدُ الحميد وجود خليفة اليوم تتوفر فيه الشروط الشرعية كاملة، فالكماليون حينما ألغوا السلطنة في 1 نوفمبر 1922م 1341هـ، وأبقوا عبد المجيد بن عبد العزيز خليفة له سلطة روحية فقط ؛ فذلك مخالف للإسلام.

### 3 . ابن باديس وبديل الخلافة الإسلامية:

طرح ابن باديس بديلاً شرعياً لذلك المنصب الإسلامي الحساس، من خلال مقال أصدره بعنوان: الخلافة أم جماعة المسلمين[2]، قال فيه:

إن الخلافة هي المنصب الإسلامي الأعلى الذي يقوم على تنفيذ الشرع الإسلامي، وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحل والعقد من ذوي العلم والخبرة والنظر، وبالقوة من الجنود وسائر وسائل الدفاع.

ولقد أمكن أن يتولى هذا المنصب شخص واحد صدر الإسلام وزمناً بعده . على فرقة واضطراب . ثم قضت الضرورة بتعدده في الشرق والغرب، ثم انسلخ عن معناه الأصلي وبقي رمزاً ظاهرياً تقديسياً ليس من أوضاع الإسلام في شيء.

فيوم ألغى الأتراك الخلافة . ولسنا نبرر كل أعمالهم . لم يلغوا الخلافة الإسلامية بمعناها الإسلامي، وإنما ألغوا نظاماً حكومياً خاصاً بهم،، وأزالوا رمزاً خيالياً فتن به المسلمون لغير جدوى، وحاربتهم من أجله الدول الغربية المتعصبة والمتخوفة من شبح الإسلام، علمت الدول الغربية المستعمرة فتنة المسلمين باسم «خليفة»، فأرادت أن تستغل ذلك مرات عديدة أصيبت فيها كلها بالفشل، ليس عجيباً من تلك الدول أن تحاول ما حاولت وغاياتها معروفة ومقاصدها بينة، وإنما العجب أن يندفع في تيارها المسلمون وعلى رأسهم أمراء وعلماء منهم، ومن هذا الاندفاع ما يتحدث به في مصر فتردد صداه الصحف في الشرق والغرب، وتهتم له صحافة الإنجليز على الخصوص، يتحدثون في مصر، وفي الأزهر عن الخلافة كأنهم لا يرون المعاقل الإنجليزية الضاربة في

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 363.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 410).

ديارهـم، ولا يشـاهدون دور الخمـور والفجـور المعـترف بهـا في قـانونهم، وكفـى غـروراً وانخـداعاً أن الأمـم الإسـلامية اليـوم ـ حتى المستجدة منهـا ـ أصبحت لا تخدعها هـذه التهاويـل، ولـو جاءتها مـن تحـت الجبب والعمائم.

للمسلمين ـ مثلما لغيرهم من الأمم ـ ناحيتان: ناحية سياسية دولية وناحية أدبية اجتماعية:

فأمـا الناحيـة السياسـية الدوليـة فهـذه مـن شـأن أممهـم المستقلة ولا حـديث لنـا عليهـا اليـوم، وأمـا الناحيـة الأدبية الاجتماعية فهي التي يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها، لأنها ناحية تتعلق بالمسلم من جهة عقيدته وأخلاقه وسلوكه في الحياة في أي بقعة من الأرض كان، ومع أي أمة عاش وتحت أي سلطة وجد، وليست هـذه الناحيـة الإنسـانية المحضـة دون الناحية الأولى في مظهـر الإسـلام، ولا دونها في الحاجـة إلى الحفظ والنظام لأجل خير المسلمين على الخصوص وخير البشرية العام.

إن الأمم الكاثوليكية ـ مثلاً ـ على اختلاف أوضاعها السياسية وتباين مشاربها وأنظارها فيها، ترجع في ناحيتها الأدبية إلى مركز أعلى هو بابا روما المقدس الشخص والقول في نظر جميعهم.

نعم ليس لنا ـ والحمد لله ـ في الإسلام بعد محمد صلى الله عليه واله سلم شخص مقدس الذات والقول تُدَّعى له العصمة، ويعتبر قوله تنزيلاً من حكيم حميد، ولكن لنا جماعة المسلمين وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية، ويصدرون عن تشاور ما فيه خير وصلاح، فعلى الأمم الإسلامية جمعاء أن تسعى لتكوّن هذه الجماعة من أنفسها، بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخّل الحكومات، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها.

لقد كنت كاتبت صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الشريف بهذا المعنى، ولكنني لم أتلق منه جواباً، وعرفت السبب يوم بلغنا أن أخواننا الأزهريين هتفوا ـ يوماً ـ بالخلافة لملك مصر فاروق الأول. وسيرى صاحب الفضيلة

الأستاذ الأكبر ؛ أن خيال الخلافة لن يتحقق، وأن المسلمين سينتهون يوماً ما ـ إن شاء الله ـ إلى هذا الرأي[1].

### 4 ـ ابن باديس يقيِّم مصطفى كمال أتاتورك:

لقد تعجب كثيرٌ من المحليين والمفكرين لمواقف ابن باديس من مصطفى كمال: الذي لم يقم للدين والأخلاق أي وزن، فهل كان ابن باديس جاهلاً لما أصدره الرجل من تشريعات وقوانين منافية للدين؟

هناك مبرر لتحليل ابن باديس لمواقف مصطفى كمال، وأرجعه إلى قوة مصطفى كمال في مقاومة الاستعمار ؛ فطبيعي أن تستهوي هذه السياسة ابن باديس وهو يرغب في تحرير بلاده من الاستعمار[2]، فوصف ابن باديس مصطفى كمال بالآتي:

#### أ ـ من أعظم عباقرة الشرق:

في السابع عشر من رمضان المعظم خُتمت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب فيحولون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقاً جديداً. ذلك هو مصطفى كمال بطل غاليبولي في الدردنيل وبطل سقاريا في الأناضول وباعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو. وإذا قلنا بطل غاليبولي فقد قلنا قاهر الإنجليز أعظم دولة بحرية التي هزمها في الحرب الكبرى بشر هزيمة لم تعرفها في تاريخها الطويل. وإذا قلنا بطل سقاريا، فقد قلنا هو قاهر الإنجليز وحلفائهم من يونان وطليان وفرنسيين، بعد الحرب الكبرى ومُجليهم عن أرض تركيا بعد احتلال عاصمتها والتهام أطرافها وشواطئها.

#### ب ـ باعث تركيا:

وإذا قلنا باعث تركيا فقد قلنا باعث الشرق الإسلامي كله، فمنزلة تركيا التي تبوأتها من قلب العالم

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 412).

(2) الفكر السياسي عند الشيخ الإمام ص 68.

الإسلامي في قرون عديدة هي منزلتها، فلا عجب أن يكون بعثه مرتبطاً ببعثتهما.

لقد كانت تركيا قبل الحرب الكبرى هي جبهة صراع الشرق إزاء هجمات الغرب، ومرمى قذائف الشره الاستعماري والتعصب النصراني من دول الغرب، فلما انتهت الحرب وخرجت تركيا منها مهمشة مفككة، تناولت الدول الغربية أمم الشرق الإسلامي تمتلكها تحت أسماء استعمارية ملطفة، واحتلت تركيا نفسها واحتلت عاصمة الخلافة، وأصبح الخليفة طوع يدها وتحت تصرفها، وقال المارشال اللنبي وقد دخل القدس . اليوم انتهت الحروب الصليبية، فلو لم يخلق الله المعجزة على يد مصطفى كمال لذهبت تركيا وذهب الشرق الإسلامي معها.

لكن كمالاً الذي جمع تلك الفلول المبعثرة، فالتف به إخوانه من أبناء تركيا البررة، ونفخ من روحه في أرض الأناضول حيث الأرومة التركية الكريمة، وعُيل ذلك الشعب النبيل، وقاوم ذلك الخليفةُ الأسير وحكومتُه المتداعية وشيوخُه الدجّالينَ من الداخل، وقهر دول الغرب وفي مقدمتها إنجلترا من الخارج، لكن كمالاً هذا أوقف الغرب عند حده وكبح من جماحه وكسر من غلوائه، وبعث في الشرق الإسلامي أمله، وضرب له المثل العالي في المقاومة والتضحية فنهض يكافح ويجاهد، فلم يكن مصطفى محيي تركيا وحدها بل محيي الشرق الإسلامي كله، وبهذا غير مجرى التاريخ ووضع للشرق الإسلامي أساس تكوين جديد، فكان بحق . كما قلنا . من أعظم عباقرة الشرق العظام، الذين أثروا في دين البشرية ودنياها من أقدم عصور التاريخ.

**ج . موقف مصطفى كمال من الخليفة وعلمائه:**

إن الإحاطة بنواحي البحث في شخصية أتاتورك «أبي الترك» مما يقصر عنه الباع، ويضيق عنه المجال، ولكنني أرى من المناسب أو من الواجب أن أقول كلمة في موقفه إزاء الإسلام، فهذه هي الناحية الوحيدة من نواحي عظمة مصطفى أتاتورك التي ينقبض لها قلب المسلم ويقف متأسفاً، ويكاد يولي مصطفى في موقفه هذا الملامة كلها، حتى يعرِّف المسؤولين الحقيقيين الذين أوقفوا مصطفى ذلك الموقف، فمن هؤلاء المسؤولون؟

المسئولون هم الذين كانوا يمثلون الإسلام وينطقون باسمه ويتولون أمر الناس بنفوذه، ويعدون أنفسهم أهله وأولى الناس به.

هؤلاء هم خليفة المسلمين، وشيخ إسلام المسلمين، ومن معه من علماء الدين، شيوخ الطرق المتصوفين، والأمم الإسلامية التي كانت تعد السلطان العثماني خليفة لها[1].

. أما خليفة المسلمين فيجلس في قصره تحت سلطة الانجليز المحتلين لعاصمته ساكتاً ساكناً، مستغفراً لله، بل متحركاً في يدهم تحرك الالة لقتل حركة المجاهدين بالأناضول، ناطقاً بإعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين.

ـ وأما شيخ الإسلام وعلماؤه ؛ فيكتبون للخليفة منشوراً يمضيه باسمه ويوزع على الناس بإذنه وتلقيه الطائرات اليونانية على القرى برضاه، يبيح فيه دم مصطفى كمال ويعلن خيانته، ويضمن السعادة لمن يقتله.

. وأما شيوخ الطرق الضالون وأتباعهم المنوَّمون ؛ فقد كانوا أعواناً للانجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم، يوزعون ذلك المنشور ويثيرون الناس ضد المجاهدين.

. وأما الأمم الإسلامية التي كانت تعد السلطات العثماني خليفة لها فمنها ـ إلا قليلاً ـ من كانوا في بيعته فانتفضوا عليه، ثم كانوا في صف أعدائهم وأعدائه، ومنها من جاءت من مستعبديها حاملة السلاح على المسلمين شاهرة له في وجه خليفتهم.

فأين هو الإسلام في هذه «الكليتيات» كلها؟ وأين يبصره مصطفى الثائر المحروب، والمجاهد الموتور منها؟

لقد ثار مصطفى كمال حقيقة ثورة جامحة ولكنه لم يثر على الإسلام وإنما ثار على هؤلاء الذين يسمون

---

(1) المصدر نفسه (4 / 215).

بالمسلمين، فألغى الخلافة الزائفة وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم، فرفض مجلة الأحكام، واقتلع شجرة زقوم الطرقية من جذورها، وقال للأمم الإسلامية: عليكم بأنفسكم وعليَّ نفسي، لا خير لي في الاتصال بكم ما دمتم على ما أنتم عليه، فكونوا أنفسكم ثم تعالوا نتعاهد ونتعاون كما تتعاهد وتتعاون الأمم ذوات السيادة والسلطان.

وأما الإسلام، فقد ترجم القرآن لأمته التركية بلغتها لتأخذ الإسلام من معدنه، وتستقيه من نبعه، ومكّنها من إقامة شعائره، فكانت مظاهر الإسلام في مساجده، ومواسمه تتزايد في الظهور عاماً بعد عام، حتى كان المظهر الإسلامي العظيم يوم دفنه والصلاة عليه تغمده الله برحمته.

**د . مجلة الأحكام:**

لسنا نبرر صنيعه في رفض مجلة الأحكام، ولكننا نريد أن يذكر الناس أن تلك المجلة المبنية على مشهور وراجح مذهب الحنفية ؛ ما كانت تسع حاجة أمة من الأمم في كل عصر، لأن الذي يسع البشرية كلها في جميع عصورها هو الإسلام بجميع مذاهبه لا مذهب واحد أو جملة مذاهب محصورة كائناً ما كان وكائنة ما كانت.

ونريد أن يذكر الناس أيضاً أن أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا غير ما عرفوه من صغرهم من مذهبهم، وما كانت حواصلهم الضيقة لتتسع لأكثر من ذلك، كما يجب أن يذكروا أن مصر بلد الأزهر الشريف ما زالت إلى اليوم الأحكام الشرعية . غير الشخصية . معطلة فيها، وما زال «كود» نابليون مصدر أحكامها إلى اليوم، وما زال الانتفاع بالمذاهب الإسلامية في القضاء . غير المذهب الحنفي . مهجوراً كذلك إلا قليلاً جداً[1].

**هـ . نزع الأحكام الشرعية:**

نعم إن مصطفى أتاتورك نزع عن الأتراك الأحكام الشرعية،وليس مسؤولاً في ذلك وحده وفي إمكانهم أن

(1) المصدر نفسه (4 / 216).

يسترجعوها متى شاؤوا، وكيفما شاؤوا، ولكنه أرجع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض، وذلك ما لا يسهل استرجاعه لو ضاع، وهو وحده كان مبعثه ومصدره، ثم إخوانه المخلصون. فأما الذين رفضوا الأحكام الشرعية وعادوا إلى «كود» نابليون، فماذا أعطوا أمتهم؟ وماذا قال علماؤهم؟

**و . تعزيته للشعب التركي:**

فرحم الله مصطفى، ورجح ميزان حسناته في الموازين، وتقبل إحسانه في المحسنين.

وإلى الأمة التركية الشقيقة الكريمة الماجدة، التي لنا فيها حفدة وأخوال، والتي تربطنا بها أواصر الدين والدم والتاريخ والجوار، والتي تذكر الجزائر أيامها بالجميل، وترى شخصها دائماً ماثلاً فيما تركت لها من مساجد ومعاهد للدين الشريف والشرع الجليل.

إلى تركيا العزيزة نرفع تعازي الجزائر كلها، مشاركين لها في مصابها، راجين لها الخلف الصالح من أبنائها ومزيداً من التقدم في حاضرها ومستقبلها.

وإلى هذا، فنحن نهنئها برئيس جمهوريتها الجديد عصمت اينونو، بطل «اينونو» ومؤتمر لوزان وثنيّ مصطفى كمال، وإن في إجماعها على انتخابه لدليلاً على ما بلغته تركيا الكريمة من السعادة والكمال، ما يناسب مجدها المقدس، وتاريخها الحافل بأعظم الرجال وجلائل الأعمال[1].

أجد نفسي أخالف شيخنا العلامة ابن باديس في نظرته لمصطفى كمال، نعم: ما قاله في منصب الخلافة وكونه أصبح اسماً لا معنى ولا فعلاً، كما أن المواقف التي اتخذها الخليفة العثماني لا تنسجم مع مبادئ الحرية والاستقلال والجهاد وتحرير الأوطان وسيادتها، ولم يكن علماء الدولة العثمانية والمشرعين على مستوى حضاري كبير، بحيث يستطيعون أن يتصدوا للتحديات الحضارية والقانونية والتشريعية والسياسية..إلخ.

---

(1) المصدر نفسه (4 / 217).

إن مصطفى كمال نفذ مخططاً مرسوماً، رسم في المعاهدات التي عقدت مع الدول الغربية، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة 1340هـ 1923م على تركيا، فقبلت شروط الصلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع وهو رئيس الوفد الإنجليزي في مؤتمر لوزان وهي:

. قطع كل صلة لتركيا بالإسلام.

. إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً.

. إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة.

. إتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم[1].

وعم الاستياء الشديد العالم الإسلامي، فشوقي الذي مدحه سابقاً بكى الخلافة فقال:

| | |
|---|---|
| عادت أغاني العرس رَجْع نواح | ونُعيتِ بين معالم الأفراح |
| كُفنت في ليل الزفاف بثوبه | ودُفنت عند تبلج الإصباح |
| ضجت عليك ماذن ومنابر | وبكت عليك ممالك ونواح |
| الهند وآلهة ومصر حزينة | تبكي عليك بمدمع سحاح |
| والشام تسأل، والعراق وفارس | أمحا من الأرض الخلافة ماح |
| يا للرجال لحُرةٍ موؤودة | قتلت بغير جريرة وجناح |

ثم انبرى شوقي يوجه التقريع والنقد الشديد إلى أتاتورك الذي يريد بجرَّة قلم وبالحديد والنار أن ينقل الأتراك رغم أنوفهم من اسايا إلى أوربا، ومن جذورهم العميقة في الشرق إلى الانتظار على أبواب الغرب:

| | |
|---|---|
| بكت الصلاة وتلك فتنة عابت | بالشرع عربيد القضاء وَقاحِ |
| أفتى لخُزعبلة وقال ضلالة | وأتى بكفر في البلاد بواح |

(1) تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون ص 287.

إن الذي جرى عليهم فِقهُهُ — خُلقوا لفقه كتيبة وسِـــلاح

نقل الشرائعَ والعقائد والقُرى — والناس نقل كتائب في الساح

تركته كالشبـــح المـــؤله أمه — لم تَسْلُ بعد عبادة الأشبـــاح

غرته طاعات الجموع ودولة — وَجَد السواد لها هوى المرتاح[1]

ولم يترك شوقي أن يبيِّن سبب ظهور هؤلاء المتسلطين إلى جهل الشعوب واستسلامها للطغاة المستبدين فقال:

مجـــدُ الأمور زوالـــه في زلـــة — لا ترج لاسمك بالأمور خلودا

خلعته دون المسلمين عِصـــابة — لم يجعلوا للمسلمين وجـــودا

يقضون ذلك عن سواد غافـــل — خُلِقَ السواد مضَلَلا ومســودا

إني نظرت إلى الشعوب فلم أجد — كالجهل داء للشعوب مُبيــدا

وإذا سبى الفرد المســلط مجــلساً — ألفيت أحرار الرجال عبيـــدا[2]

لقد نفذ مصطفى كمال المخطط كاملاً وابتعد عن الخطوط الإسلامية، ودخلت تركيا عمليات التغريب البشعة، فألغيت وزارة الأوقاف سنة 1343هـ 1924م، وعهد بشؤونها إلى وزارة المعارف، وفي عام 1344هـ 1925م أغلقت المساجد وقضت الحكومة في قسوة بالغة على كل تيار ديني، وواجهت كل نقد ديني لتدبيرها بالعنف، وفي عام 1350هـ 1351هـ / 1931م . 1932م حددت عدد المساجد، ولم تسمح بغير مسجد واحد في كل دائرة من الأرض لا يبلغ محيطها 2000 متر، وأعلن أن الروح الإسلامية تعوق التقدم.

وتمادى مصطفى كمال في تهجمه على المساجد، فخفض عدد الواعظين الذين تدفع لهم الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ، وأمرهم أن يفسحوا في خطبة الجمعة مجالاً واسعاً للتحدث عن الشئون الزراعية والصناعية وسياسة الدولة وكيل المديح له، وأغلق أشهر جامعين في اسطنبول، وحوّل أولهما وهو مسجد ايا صوفيا إلى متحف، وحول ثانيهما وهو مسجد الفاتح إلى مستودع.

---

(1) التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي ص 112.

(2) الشوقيات ديوان أحمد شوقي (1 / 112).

أما الشريعة الإسلامية، فقد استُبدلت وحل محلها قانون مدني أخذته حكومة تركيا عن القانون السويسري عام 1345هـ 1926م، وغيَّرت التقويم الهجري واستخدمت التقويم الغربي، فأصبح عام 1345هـ ملغياً في كل أنحاء تركيا وحل محله عام 1926م.

. في دستور عام 1347هـ 1928م أغفل النص على أن تركيا دولة إسلامية، وغيَّر النص القسم الذي يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً من أن يحلفوا بالله، كما كان عليه الأمر من قبل.

. وفي عام 1935م غيَّرت الحكومة العطلة الرسمية فلم تعد الجمعة، بل أصبحت العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد، وأصبحت عطلة نهاية الأسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السبت وتستمر حتى صباح يوم الاثنين.

ـ وأهملت الحكومة التعليم الديني كله في المدارس الخاصة، ثم إلغاؤه، بل إن كلية الشريعة في جامعة اسطنبول بدأت تقلل من أعداد طلابها التي أغلقت عام 1352هـ 1933م.

. وأمعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التغريب، فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطربوش، وأمرت بلبس القبعة تشبهاً بالدول الأوربية.

ـ وفي عام 1348هـ 1929م بدأت الحكومة تفرض إجبارياً استخدام الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية، وبدأت الصحف والكتب تصدر بالأحرف اللاتينية، وحذف من الكليات التعليم باللغة العربية واللغة الفارسية، وحرم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية، وأما الكتب التي سبق لمطابع اسطنبول أن طبعتها في العهود السالفة، فقد صدرت إلى مصر، وفارس، والهند.

وهكذا قطعت حكومة تركيا ما بين تركيا وماضيها الإسلامي من ناحية، وما بينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربية والإسلامية من ناحية.

. وأخذ أتاتورك ينفخ في الشعب التركي روح القومية، واستغل ما نادى به بعض المؤرخين من أن لغة

السومريين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد ما بين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال: بأن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة في العالم، ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم بعد أن حارب كل نشاط إسلامي، وخلع مصطفى كمال على نفسه لقب «أتاتورك» ومعناه أبو الأتراك[1].

ـ وعملت حكومته على الاهتمام بكل ما هو أوربي، فازدهرت الفنون وأقيمت التماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلها، وزاد الاهتمام بالرسم والموسيقى، ووفد إلى تركيا عدد كبير من الفنانين أغلبهم من فرنسا والنمسا[2].

وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة وأمرت بالسفور، وألغى قوامة الرجل على المرأة، وأطلق لها العنان باسم الحرية والمساواة، وشجع الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص.

ـ وفي زواجه من لطيفة هانم ابنة أحد أغنياء أزمير، الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان أزمير، أجرى مراسم الزواج على الطريقة الغربية كي يشجع على نبذ العادات الإسلامية، واصطحبها وطاف بها أرجاء البلاد، وهي بادية المفاتن تختلط مع الرجال وترتدي أحدث الأزياء المعينة على التبرج الصارخ.

. وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة التركية، ففقد كل معانيه ومدلولاته، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية[3].

. عمل على تغيير المناهج الدراسية، وأعيد كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضي التركي القومي، وجرى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية، واستبدلت بكلمات أوربية.

---

(1) حاضر العالم الإسلامي (1 /115)، شكيب أرسلان.

(2) المسألة الشرقية، للدسوقي ص 428 . 432.

(3) حاضر العالم الإسلامي (1 / 116).

ـ وأعلنت الدولة عزمها في التوجه نحو أوربا، وانفصلت عن العالم الإسلامي والعربي، وأمعنت حكومتها من استدبار الإسلام، حتى حاربت بقسوة أي محاولة ترمي إلى إحياء المبادئ الإسلامية[1].

ـ وكانت خطوات مصطفى كمال هذه بعيدة الأثر في مصر وأفغانستان وإيران، والهند الإسلامية، وتركستان، وفي كل مكان من العالم الإسلامي، إذ أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الاستعمارية أن ينفذوا إلى مكان الصدارة، وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة المزعومة، فقد هللت له صحف مصر ـ الأهرام والسياسة والمقطم ـ ذات الاتجاهات المضادة للإسلام، والمدعومة من النفوذ الغربي واليهودي والماسوني.

لقد بررت تلك الصحف تصرفات كمال أتاتورك ووافقت عما ابتدعه، ونشرت له أقوالاً منها: ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين. وأنه ـ أي مصطفى كمال ـ ألقى القرآن ذات يوم من يده فقال: إن ارتقاء الشعوب لا يصلح أن ينفذ بقوانين وقواعد سنت في العصور الغابرة.

لقد كانت حكومة تركيا العلمانية الكمالية ـ هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان ـ ليست حكومة دينية من طراز فرنسا وإنجلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ إنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الأناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغي الكنائس[2].

وكان للإعلام اليهودي دور كبير في الترويج لهذه الردة، مثلما كان دوره البارز في تشجيع أتاتورك على البطش بأية معارضة إسلامية، وكانت تزين له أن ما يقوم به من المذابح والوحشية ضد المسلمين ليست سوى معارضة بطولية، كما كانت منبراً لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي والمناداة بالحرية الفاجرة للمرأة للتركية،

(1) الإتجاهات الوطنية، لمحمد حسين (2 / 100).

(2) العلمانية، د. سفر الحوالي ص 573.

والـترويج لفنـون الانحـلال الخلقـي معتـبرة أن شـرب الخمـر والمقـامرة والـزنا ليسـت إلا مظـاهر للتمـدن والتحضر[1].

إن الحقيقـة المرة أن مصـطفى كمـال أصبح نموذجـاً صـارخاً للحكـام في العـالم الإسـلامي، وكـان لأسـلوبه الاستبدادي أثر في القضاء على الإسلام ؛ فإن فرنسا مثلاً بررت حرصها على تنصير بلاد الشمال اللأفريقي وإخراجها من دينها وعقيدتها وإسلامها، بأنه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم[2].

لقد أصبح مصطفى كمال زعيماً روحياً لكثير من الحكام الذين باعوا اخرتهم بدنياهم الزائلة.

قـاد المسـلمون ثـورات مسـلحة ضـد الحكـم العلمـاني المعـادي للإسـلام، وظهـرت أهـم الثـورات في المنطقـة الجنوبيـة الشـرقية عـام 1344هـ، ثم في منيمـين عـام 1349هـ، وقـد قمعهـا الكمـاليون بشـدة منقطعـة النظـير وذهـب ضـحيتها عـدد كبير مـن العلمـاء، وأهملت المنطقـة اقتصـادياً وعلميـاً. وقامـت حركـة النـور بزعامـة الشـيخ بـديع الزمـان سـعيد النورسـي وتلاميـذه مـن بعـده، وقـد كتـب العديـد مـن الرسـائل الإسـلامية ومقاومـة مبـادئ الكمـاليين والعلمانيـة، ولم تعمـد حركتـه إلى حمـل السـلاح واقتصـر جهادهـا علـى اللسـان، وقـد حـاول أتاتـورك إستمالته وناقشه واستنكر دعوته الناس إلى الصلاة مدعياً أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فأجابه: إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي الصلاة وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود[3].

فسجنه ثم نفاه بعد اتهامه بمؤامرة لقلب نظام الحكم، ولكن دعوته استمرت في الانتشار سرًّاً بين صفوف الجامعيين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة، ومثل للمحاكمة مرة أخرى لتهمة أتاتورك بالدجال، فوقف أمام المحكمة وقال:إنني لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزته باتباعهم للسياسة

(1) حاضر العالم الإسلامي (1 / 117).

(2) العلمانية، د. سفر الحوالي ص 573.

(3) حاضر العالم الإسلامي (1 / 117).

والجمعيات السرية، على حين يحق للمارقين الافتراء على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ثم يعد ذلك أمراً مقدساً لأنه حرية، أما نور القرآن الذي يأتي إلى أن يشع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره ؛ فهو خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة.

اسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق: إنني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوة افعلوا ما يمكنكم فعله، فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقة من حقائق افسلام[1].

فأعيد إلى منفاه وبقي حتى عام 1367هـ، حين بدأت الحكومة تضطر للاستجابة لمطالب الشعب المسلم بخصوص النشاط الديني[2].

لقد تجلت سياسة أتاتورك العلمانية في برنامج حزبه «حزب الشعب الجمهوري» لعام 1349هـ مرة، وعام 1355هـ مرة ثانية والتي نص عليها الدستور التركي وهي المبادئ الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب، وهي: المقاومة، الجمهورية، الشعبية، العلمانية، الثورة، وسلطة الدولة[3].

توفي أتاتورك عام 1356هـ، بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين. لقد أصيب مصطفى كمال قبل وفاته بسنين بمرض عضال في الكلية لم يعرف كنهه، وكان يتعرض لالام مبرحة مزمنة لا تطاق كانت السبب في إدمانه على شرب الخمر، مما أدى إلى إصابته بتليف الكبد، والتهاب في أعصابه الطرفية، وتعرضه لحالات من الكابة والانطواء . وقد تدهور في المستويات العليا للمخ . لذلك كان هذا الديكتاتور مثلاً فريداً في القسوة والتنكيل والأنانية المدمرة[4].

(1) حاضر العالم الإسلامي (1 / 122).

(2) المصدر نفسه (1 / 122).

(3) المصدر نفسه (1 / 116).

(4) الدولة العثمانية، للصَّلاَّبي ص 514.

### 5. سنية الدولة أو طرقيتها:

نظر ابن باديس إلى واقع العالم الإسلامي ومدى اقتراب دوله من روح الإسلام وبعد الآخر عنه، وخرج من هذه النظرة بأن هناك نوعين من الدول الإسلامية في عصره.

**النوع الأول**: سماه بالدولة السنية.

**والثاني**: سماه بالدولة الطرقية.

الدولة السنية وجدها في السعودية التي كانت على يد عبد العزيز ال سعود: قائمة على تنفيذ الشريعة بعقائدها واداها وأحكامها الشخصية والعمومية، فاستتب فيها الأمن والعدل، ويدقق بأنه لا يتكلم عن هذه الدولة من الناحية السياسية بل من الناحية الإنسانية أو الخلقية، فقد ظهرت في الحجاز من البدع والضلالات والخرافات، ورجعت أتباع الطرق التي تسمى الطرق الصوفية إلى عقولهم ودينهم.

أما الحكومات الطرقية، فهي التي توجد في مصر لأنها تؤيد تأييداً رسمياً الاجتماعات الصوفية بما فيها من مناكر وقبح مظاهر وسوء مناظر، ويواطئها على هذا علماؤها الرسميون بسكوتهم وإقرارهم وتأويلاتهم.

والحقيقة أن معيار سنية الحكومة الإسلامية أو طرقيتها عند ابن باديس لا يقتصر على دستور هذه الدولة أو قوانينها، بل لعل هذا المعيار يأتي في الدرجة الثانية.

أما المعيار الأول والمقياس الأساسي للدولة الإسلامية عنده، فهو موقفها من الاستعمار الأجنبي، فبقدر ما تقف الدولة الإسلامية موقف العداء والمقاومة من الدول الغربية بقدر ما تكون في نظره دولة مسلمة، وبقدر ما تتواطأ وتقترب دولة المسلمين من دول الإستعمار بقدر ما تبتعد عن الإسلام. ولذلك يعتبر دولة أتاتورك التي قضت على دولة الخلافة أقرب إلى الإسلام من دولة الخلافة، لأن أتاتورك كان يحارب الإنجليز والخليفة العثماني كان صنيعة لهم، وهو أيضاً نفس الموقف الذي يقفه من الطرفين في الجزائر،فهو لا يقاومهم لأفكارهم

الصوفية، بل يقاومهم لأنهم جعلوا زواياهم في خدمة الاستعمار الفرنسي، وهو يصرح بهذا تصريحاً، ولا يتركنا نستنتجه من كتاباته.

وهو عندما يطبق هذا المعيار الوطني على الحكومة الإسلامية في كل من السعودية ومصر، يجد «الإمام المجاهد» السيد الشريف السنونسي الذي كان على تمسكه بالكتاب والسنة ودعوته إلى الله وإرشاده للعباد والتفقه في الدين والصبر والزهد وحفظ الكرامة، ولكن لم تقبله الحكومة المصرية في أرضها لأنها أعطت وعداً لإيطاليا في ذلك، فاحتضنته الحكومة السعودية، وكرمته، ومرض في أرض الحجاز واشتد به المرض فرغب في التداوي بمصر فطلبت حكومة الحجاز من الحكومة المصرية السماح له بذلك، وكانت الحكومة المصرية في انتظار قدوم ملك إيطاليا، فماطلت ولم تجب حتى توفي الإمام دون أن تسمح له بالدخول لأجل التداوي.

ويقول الشيخ ابن باديس في هذه الواقعة أن في هذا الموقف من هاتين الحكومتين البرهان القاطع على أن الحكومة السعودية ملتزمة بالسنة، وأن الحكومة المصرية تناصر طرق التصوف لأن علماءها الدينيين يعيشون على رواتبهم وعلى رضا العامة واستغلال جهلها، وهل أفسدَ الناسَ إلا الملوكُ، وأحبار سوء ورهبانها؟[1].

## عاشراً: المؤتمر الإسلامي:

استجاب الشعب الجزائري إلى دعوة ابن باديس رئيس جمعية العلماء والدكتور ابن جلول رئيس جمعية النواب بعمالة قسنطينة إلى عقد مؤتمر إسلامي جزائري عام تعرض فيه مطالب الأمة وحقوقها، وتتبادل فيه الآراء بين علماء الأمة ونوابها وذوي الرأي منها فيما يتفق من هذه المطالب والحقوق مع الأوضاع الحكومية الحاضرة.

هبَّت الأمَّة كلُّها على صوت الداعي، فأعلنت يقظتها وشعورها واستعدادها، وتضامنها واتحادها،

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 64.

وساعدها (اعتدال الزمان)على إظهار قواها الكامنة، وعلى انطلاق ألسنتها بالتعبير الواضح عن الامها، فتجلّت جزائريتها وإسلامها للعيان في يوم مشهود هو يوم 17 ربيع الأول سنة 1355هـ الموافق ليوم 7 جوان 1936م، وفي مدينة تاريخية هي مدينة الجزائر، وفي صالة «الماجستيك» الفسيحة.

لم يمض على الجزائر الإسلامية، في تاريخ ارتباطها السياسي بفرنسا، يوم أغرّ محجل، تمثَّلت فيه الأمَّة روحاً وجسماً، وتلاشت فيه الفوارق الاعتبارية كهذا اليوم. ففيه التقى، عن فكرة وعقيدة، الجزائري بأخويه القسنطيني والوهراني، وفيه اجتمع ـ على تلك الفكرة ـ المصلحون والطرقيون وعلماء الدين ورجال السياسة، والشيوخ والشبان والتجار والفلاحون والعمال، جمعت الكل صفتا الإسلام والجزائرية، ووحَّدتهم قسوة الأيام، وألفت بينهم المحن والهموم، فاندفعت ألسنتهم تعبِّر عن رغائب الدين بلغة الدين، وعن رغائب الدنيا بلغة السياسة.

والنقطة التي يلتقي عندها الكل، هي الإسلام والجزائرية، لذلك كان ضرورياً أن يكون مدار البحث على الإسلام ولسانه، والمسلم وحقوقه في الحياة.

انعقد المؤتمر برئاسة الزعيم الدكتور جلول، نائب قسنطينة المالي[1]. ومستشارها العمالي[2]، ورئيس جمعية نوابها، ومثَّل فيه نواب العمالات الثلاث جميع منتخبيهم، ومثَّلت فيه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المعنى العالي الذي هو سمة المؤتمر، وهو الإسلام، فحق أن يقال: إن الأمَّة الجزائرية كلها حُشِرت في هذا المؤتمر، وإن قدرت الجرائد الفرنسية من ضمّتهم قاعة المؤتمر بخمسة أو ستة الاف شخص، وحزرناهم نحن بسبعة الاف أو يزيدون.

(1) نسبة إلى المجلس المالي الذي أسسته فرنسا سنة 1900 بالجزائر، ليشرف على ماليتها، وقد كان بمثابة البرلمان. أُلْغِيَ سنة 1947، وعُوِّض بما يُسمَّى «المجلس الجزائري».

(2) نسبةً إلى العَمَالَة وهي المحافظة أو الولاية.

سبق يوم المؤتمر يوم تمهيدي بنادي الترقّي، اجتمع فيه أنصار المؤتمر من شبَّان العمالات الثلاث، قدموا في شكل جمعيات مفوَّضة من طبقات الشباب الراقي العامل ليمثِّلوا عنصر التجديد في الأمَّة، ولينصروا المؤتمر ويؤيدوا النواب ويعينوهم بالقول والعمل، وشاركهم في هذا الاجتماع كثير من نواب العمالات الثلاث أيضاً. وكم كان جميلاً من أولئك الشبان ومن أولئك النواب أن يلوذوا بجمعية العلماء المسلمين، ويسترشدوا بها ويمزجوا رأيها برايهم، ويظهروا مجتمعين على معنى الوفاء لها والإخلاص لمبادئها والاعتراف بفضلها على هذه الأمَّة فيما أيقظت من مشاعر، ونبَّهت من إحساسات وجمعت على المصلحة العامة من قلوب.

وكانت الليلة التي أسفر صباحها عن المؤتمر، تمهيدية أيضاً، تقاربت فيها وجهات النظر المختلفة حتى اتفقت، وكانت ليلة بهيجة اجتمعت فيها عناصر القوة الثلاثة: العلماء والنواب والشبان، وتمثلت فيها العمالات الثلاث أكمل تمثيل.

وخلاصة ما استقر عليه الرأي في هذه الليلة، أن المطالب الجزائرية تنقسم إلى قسمين: قسم لا يختلف فيه نظر ولا يتشعب فيه رأي، لأنه عبارة عن مظالم صريحة وأوضاع شاذة كانت تعامل بها الجزائر بصورة استثنائية، كحرية القول والفكر والكتابة والاجتماع والتنقل والتعليم العربي والمساجد وكرفع القوانين الاستثنائية الشاذة..إلخ.

وقسم يحتاج إلى تأمل ودقة نظر، وهي الحقوق السياسية، وأشد مسائل هذا القسم تعقيداً مسألة النيابة في البرلمان[1].

. وقال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

وقد كانت تغمر المحافل الجزائرية أسماء برامج عتيقة في وضعها أو في معناها، ولكل برنامج أشياع وأنصار، وكان من رأي كاتب هذه الأسطر وجماعة من المفكرين، إلغاء تلك البرامج كلها، لأنها وُضعت في

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1 / 230).

ظروف ضيقة وبُنيت على اعتبارات فردية، وفي بعضها ما لا يتفق مع الرغائب الجزائرية الإسلامية، وفي بعضها ما يتصادم مع الذاتية الجزائرية الإسلامية، ووضع برنامج إسلامي جزائري روحاً ومعنىً واسماً، ينتزع من حالة المسلم الجزائري التي هو عليها الآن.

وكان من حسن التوفيق أن رجعت الاراء إلى هذا الرأي، فاجتمع الحاضرون في تلك الليلة التمهيدية على تسمية المؤتمر باسم «المؤتمر الجزائري الإسلامي»، وعلى عدم اعتبار البرامج القديمة أساساً له، وعلى المطالبة بحقوق المسلم الجزائري السياسية تامة غير منقوصة، مع المحافظة التامة على أحواله الشخصية الإسلامية تامة غير منقوصة، مع إصلاح الخلل الواقع فيها الان، وعلى إعطائه حق النيابة في البرلمان على أساس الانتخاب المشترك المتحد، بحيث ينتخب المسلمون مع الفرنسيين نائباً واحداً سواء كان مسلماً أو فرنسياً، وكل مسلم له حق الانتخاب اليوم في المجالس الجزائرية من بلدية وغيرها، له حق الانتخاب في النيابة البرلمانية.

ثم المساواة في الحقوق التي تتبع هذا التساوي في الانتخاب النيابي البرلماني.

وتفاوض الحاضرون في جميع المسائل التي يجب عرضها في المؤتمر وتقديمها باسمه، وفي نظام المؤتمر ومكتبه وخطابه، فوقع الاتفاق الإجماعي على إسناد رئاسة المؤتمر للزعيم السياسي الدكتور ابن جلول، وتأليف المكتب من النواب والعلماء والشبان، فمن النواب على الجزائر: الدكتور تامزالي النائب المالي، والدكتور البشير عبد الوهاب النائب العمالي، والسيد محمد الطاهر طيار، والصيدلي عبد الرحمن بوكردنَّه، النائبان البلديان.

وعن قسنطينة: السيد عبد الرحمن بن خلاف، والدكتور سعدان، والصيدلي عباس فرحات، النواب العماليون.

وعن وهران: السيد محمد بن سليمان النائب البلدي بتلمسان، ونائب رئيس جمعية النواب بوهران، والدكتور الجيلاني بن التهامي، والسيد محمد لالوت، النائبان البلديان.

وعن العلماء: الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي.

وعن الشبان والهيئات الإجتماعية جماعة منهم.

ووقع الاتفاق، على أن يتكلم باسم وهران الدكتور ابن التهامي، فيعلن للمؤتمر تضامن وهران مع العمالتين في جميع المطالب، ويتكلم باسم الجزائر الدكتور عبد الوهاب بمثل ذلك، ويتكلم باسم قسنطينة الصيدلي عباس فرحات، ثم يتعاقب الخطباء[1].

وعندما قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي الجزائري إسناد رئاسته إلى الإمام، خشي أن تعوقه هذه الرئاسة عن مهمته التعليمية والتثقيفية، التي ملكت قلبه ومشاعره وأحاسيسه، أصدر بياناً قال فيه: أنا مع شكري لإخواني الذين أولوني ثقتهم الجماعية، ومع كون الأمة الجزائرية لم تعرف عني في أي وقت من الأوقات الفرار من الواجبات، مع كل هذا أعلي لهؤلاء الإخوان أنهم أغفلوا حين أسندوا الرئاسة إليَّ عن أشغالي العلمية التي تستغرق أوقاتي كلها، والتي أضحي في سبيلها بكل عزيز.. وبناءً على هذا فإني أعلن لهؤلاء الإخوان والأمة الجزائرية كلها أنني لست لنفسي، وإنما أنا للأمة، أعلم أبناءها وأجاهد في سبيل دينها ولغتها، وإن كل ما يقطع عليّ هذا الطريق أو يعوقني عن أداء واجبي في هذا السبيل، فإني لا أرضى به، ولو كان ذلك في مصلحة الأمة[2].

وبعد ذلك تم إسناد رئاسة المؤتمر إلى الدكتور ابن جلول.

### 1 . يوم المؤتمر:

ما كادت الساعة المقرَّرة لافتتاح المؤتمر تدق، حتى كانت قاعة «الماجستيك» الفسيحة وإيوانها الفخم

(1) المصدر السابق (1 / 133).

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 170.

وشرفاتها، كلها مكتظة بالوافدين من الأقطار الثلاثة[1]. فكان منظراً مؤثراً وإن الناظر ليدرك لأول نظرة أن طبقات الأمَّة كلها تمثَّلت في المؤتمر، فترى العامل، والتلميذ والفلاح، والغني، والفقير، والوجيه، والخامل، والفتى، والشيخ، ممتزجين متلاصقين، فتحكم بالبداهة كيفما كان سنُّك وحظك من شهود المجتمعات ؛ أنه أول مشهد من نوعه شهدته في عمرك بهذا الوطن.

انتظم المكتب بهيئته التي أسلفنا القول عنها، واستقرَّ رجال الصحافة في المقاعد التي خُصِّصت لهم، وافتتح المؤتمر الدكتور عبد النور تامزالي النائب المالي والبلدي بكلمة رحَّب فيها بالمؤتمرين، وتمنَّى لهم النجاح باسم مدينة الجزائر التي هو عضو في مجلسها البلدي، ونائب شيخها.

ثم قام رئيس المؤتمر الدكتور صالح بن جلول فخطب خطبة طويلة وصف فيها حالة الأمَّة، وبيَّن الأسباب الداعية لعقد المؤتمر والمقاصد التي ستعرض عليه. وأعلن في الأخير أن النواب كلهم مجمعون على المطالبة بالحقوق السياسية، ومنها التمثيل في البرلمان لا على أسس البرامج الشخصية الرائجة، بل على أسس المساواة التامة والتعميم التام، والمحافظة التامة على الأحوال الذاتية الإسلامية بحيث ينتخب الجزائريون على اختلاف أجناسهم نائباً واحداً، ويكون حق الانتخاب البرلماني حقاً لكل مسلم جزائري له حق الانتخاب المحلي، مع المحافظة والاعتراف للمسلم الجزائري بذاتيته الشخصية الإسلامية وأحكامه الإسلامية.

ثم قام بعده الدكتور الجيلاني بن التهامي النائب البلدي بمستغانم متكلماً باسم اتحاد نواب عمالة وهران، فأعلن للمؤتمرين تضامن جمعيته مع جمعيات النواب على هذه المطالب.

(1) جريدة «البصائر»، السنة الأولى، العدد 24، الجمعة 29 ربيع الأول 1355هـ/19 جوان 1936م. أي المقاطعات الثلاث أو المحافظات الثلاث وهي وهران، والجزائر العاصمة وقسنطينة.

وقام بعده الدكتور البشير عبد الوهاب نائب البليدة العمالي، فأعلن باسم نواب عمالة الجزائر تضامنهم مع إخوانهم على تلك المطالب.

وتكلم بعده السيد عباس فرحات نائب سطيف العمالي، فأعلن ما أعلنه زميلاه من قبل، وعلم شاهدو المؤتمر أن كلمة النواب مجتمعة على المطالب ومتفقة في النقطة التي كانت محل نزاع وهي نقطة التمثيل البرلماني وكيفيته.

ثم تكلم الدكتور سعدان نائب بسكرة العمالي عن سكان القسم العسكري الجنوبي[1]، فاقترح على المؤتمر المطالبة بحذف المحاكم العسكرية الشاذة وتصيير الأقسام الجنوبية مدنية، فوافق المؤتمر بالإجماع علىهذا الاقتراح.

ثم فتح الرئيس الباب للخطباء من النواب والعلماء والشبان على ترتيبهم المقرر، فخطب نحو العشرة منهم، وكانت خطب النواب والشباب كلها دائرة على أن الجزائر المخلصة المرتبطة بفرنسا ارتباطاً وثيقاً المقيمة على ولائها لها في أيام الشدة والرخاء وقدمت أصدق البراهين ؛ ليس من العدل ولا من الإنصاف أن لا تأخذ حقها في الحياة مستوفى. وليس من العدل ولا من الإنصاف أن ترزأ في ذاتيتها، وأن تدفعها ثمناً لتلك الحقوق زيادة على ما دفعته من أثمان غالية. وأن تحافظ على هذه الذاتية التي هي مناط فخرها بكل الوسائل، وأنها تساس في القرن العشرين بقوانين إستثنائية لا تليق بمكانتها ولا بسمعة فرنسا. فمن الحق والعدل أن تُلغى هذ القوانين الجائرة وتُمحى من الوجود، وأنها محرومة في القرن العشرين من الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون. فمن الحق والعدل أن تشاركهم في التمتع بتلك الحقوق كما شاركتهم في القيام بالواجبات.

ثم انتهى دور الخطابة إلى العلماء، فخطب الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خطبة مؤثرة نوَّه فيها بقيمة هذا المؤتمر في تاريخ الجزائر، فعلا الهتاف والتصفيق، ثم تخلص إلى ذكر المطالب الخاصة بالدين واللغة العربية فشرحها للناس شرحاً وافياً، وأعلن أنه قدم بخلاصة تلك المطالب تقريراً لمكتب المؤتمر لينظمه مع المطالب الجزائرية. وتقدم للحاضرين بأن يرفعوا أيديهم إن كانوا موافقين على

(1) كان جنوب الجزائر خاضعاً للحكم الفرنسي العسكري.

هذه المطالب، فارتفعت في لحظة واحدة سبعة الاف يد وعلا الهتاف.

كان الدكتور ابن جلول رئيس المؤتمر قد تعرَّض في الاجتماع التمهيدي للمؤتمر للغة المؤتمر، وهل تقع المفاوضات والمحادثات فيه بالعربية أو الفرنسية، فحكم الواقع في المسألة وهو أن تكون الخطب السياسية باللغة الفرنسية لتؤدى المعاني بألفاظها الاصطلاحية، وليكون مراد المؤتمر منها واضحاً لا شبهة فيه، وليكون صدى المؤتمر مطابقاً لحقيقته، ولتسهل مهمة الصحافيين الأوربيين، وأن تكون الخطب المتعلقة بالمطالب الدينية من علماء الدين باللغة العربية.

لذلك كانت الخطب التي سبقت خطبة الأستاذ الشيخ ابن باديس . ما عدا خطبة الأستاذ العمودي . كلها بالفرنسية. وكانت أول خطبة أُلقيت باللغة العربية الفصحى هي خطبة الأستاذ ابن باديس، فأرهفت الاذان وطفح البشر على وجه الحاضرين. وخطب بعده كاتب هذه الأسطر. والأستاذ الشيخ الطيب العقبي، فتجارّت اللغتان في المؤتمر إلى غاية واحدة وتمثَّلت فيه تمثُّلاً صحيحاً.

كانت خطبة الأستاذ الشيخ الطيب العقبي طويلة، وكانت فيها مواقف فاترة، تعرض فيها لبعض المعاملات الشاذة والقرارات الجائرة، في مسألة المساجد والجمعية الدينية في الجزائر. فنقد تلك المعاملات، وتلك القرارات نقداً حارًّا، ولم يكن فيه خارجاً عن الموضوع كما زعم بعض الناس، لأن الأستاذ العقبي لم يتعرض لقرار منع التدريس الحر في المساجد إلا استدراكاً على الخطباء الذين تعرَّضوا لقرار شوطان وقرار ريني، وطلبوا إلغاءهما فذكرهم الأستاذ بأن هناك قراراً ثالثاً[1]نسوه، مع أنه لا يقلّ عنهما شذوذاً ومنافاة للعدل والإنصاف.

---

(1) المقصود هو القرار المعروف باسم «ميشال» الأمين العام لولاية الجزائر بالعاصمة. وقد صدر القرار سنة 1933، ويقضي بمنع أعضاء جمعية العلماء من إلقاء دروس الوعظ والإرشاد والتعليم في المساجد.

نص المطالب التي قدَّمها لمكتب المؤتمر رئيس جمعية العلماء خاصة بالدين واللغة العربية.

**أ . اللغة العربية:**

تُعتبر اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتُكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية، وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرَّة مثل اللغة الفرنسية.

الديانة:

**ب . المساجد**: تسلم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر لها يتناسب مع أوقافها، وتتولى أمرها جمعيات دينية مؤسسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدين عن الحكومة.

**ج . التعليم الديني**: تؤسس كلية لعلوم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرِّسين ومؤذِّنين وقيِّمين وغيرهم.

**د . القضاء**: ينظَّم القضاء، بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية، يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدينية المشار إليها في الفصل السابق، وإدخال إصلاحات على المدارس التي يتخرج منها رجال المحاكم، منها تدريس تلك المجلة، والتحقق بالعلوم الشرعية الإسلامية، وطبع التعليم بطابعها لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثلين لها.

«عبد الحميد بن باديس»

ختم المؤتمر بالموافقة الإجماعية على كل ما عُرض عليه من المطالب، وبالموافقة على أن يرفع باسم المؤتمر الشكر للحكومة الشعبية والثقة بها بتلغراف تُليت مسودته على المؤتمر فأقرَّها.

ثم عرضت اقتراحات خاصة قبلت كلها بالإجماع، منها التنوية بالرجال العاملين للقضية الجزائرية وذكرهم بالخير، فتقرَّر إرسال تشكرات المؤتمر للوزيرين فيوليت وموتي علمساعيهما المحمودة لخير الجزائريين. وتقرَّرت إقامة تذكار للأمير خالد الجزائري، وهتف المؤتمرون باسم «م. ألبان روزي» باعتبار أنه أول من رفع صوته من السياسيين بحق الجزائر.

واقترح الأستاذ العقبي عقد مثل هذا المؤتمر كلما جدَّ في القضية الجزائرية شيء، فقبل هذا الاقتراح بالإجماع.

ولما كان من الأصول المتبعة في كل مؤتمر تأسيس لجنة تنفيذية باسمه تنظِّم أعماله ومقرَّراته وتتعقبها وتواصل العمل على تنفيذها ورفعها إلى المراجع الخاصة، فقد كان آخر ما قرَّره المؤتمر الإسلامي الجزائري لزوم تأسيس لجنة تنفيذية للمؤتمر تقوم بتلك الأعمال، وترك النظر في نظامها وأعضائها لمكتب المؤتمر على أن يؤسسها في مساء ذلك اليوم.

وفي مساء يوم المؤتمر اجتمع زعماء التواب ورؤساء اللجان بنادي الترقِّي، وقرَّروا تأسيس لجنة وقتية تتركَّب من ثلاثة نواب وثلاثة من العلماء وثلاثة من الشبان، تتولى تنظيم المطالب وترتيبها وتسعى في تكوين اللجنة التنفيذية التي يجب أن تكون دائرتها أوسع والتمثيل فيها أعم. فتألفت اللجنة الوقتية من الدكتور ابن جلول، والمحامي طالب عبد السلام، والصيدلي عبد الرحمن بو كردنة عن النواب، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ محمد خير الدين عن العلماء، والسيد ابن الحاج، والسيد بو شامة، والسيد عبد الله العنابي عن الشبان.

وقد واصلت هذه اللجنة الوقتية أعمالها وعقدت جلسات متعددة، فرتَّبت المطالب ونظَّمت أوراق المؤتمر، وقرَّرت ـ في سبيل تكوين اللجنة التنفيذية ـ أن تسعى في تأسيس لجان تسمَّى لجان المؤتمر في المدن الكبرى من العمالات الثلاث، وكل مدينة تستتبع ملحقاتها لتكون هذه اللجان الفرعية قوة ومدداً للمؤتمر، وأن تنتدب كل لجنة عضواً من أعضائها ليكون عضواً في اللجنة التنفيذية.

وقرَّرت اللجنة الوقتية عقد اجتماع في الخامس جويلية الاتي بنادي الترقِّي بالجزائر، يحضره نواب اللجان المنتدبون عنها لتكوين اللجنة التنفيذية منهم، وفي هذا الاجتماع تسلَّم اللجنة الوقتية أعمالها والمطالب والأوراق التي تحت يدها، للجنة التنفيذية.

وبعد أن أتمَّت اللجنة الوقتية أعمالها سلَّمت جميع ملفات المطالب إلى هيئة متركِّبة من الأستاذ ابن الحاج، والأستاذ الأمين العمودي، والسيد اوزقان، لأنهم مقيمون بمدينة الجزائر، وعهدت إليهم بحفظ الملفات حتى تسلم إلى اللجنة التنفيذية ومخابرة لجان المؤتمر وتلقي الأجوبة منهم بعنوان الأستاذ ابن الحاج.

وتفرَّق بقية الأعضاء ليسعوا في تأسيس تلك اللجان قبل الخامس من جويلية.

وفَّق الله العاملين وأعانهم وسدَّد خطاهم ووقاهم شر المفسدين.

هذا وصف مجمل للمؤتمر وخلاصة موجزة من أعماله، وقد وصفته الجرائد الفرنسية الصادقة في مهمتها أحسن وصف، وصوَّرته الجرائد العربية الصادقة في دينها ووطنيتها أصدق تصوير.

ولم يبق بعد هذا إلا عمل الأمَّة، وعملها في هذا الباب محصور في تأييد المؤتمر بالقول والفعل وإزالة العراقيل من طريقه، وحمايته من كيد الكائدين، والمحافظة على روحه ومبادئه، ووصفيه الجميلين الإسلام والجزائرية، فالمؤتمر مؤتمر الأمَّة الجزائرية الإسلامية. باسمها انعقد وباسمها تكلم ولمصلحتها سعى، وعن رغائبها عبَّر، وعن حقوقها دافع وناضل، فلتمدَّه بالتأييد والمعونة، ولتحذر شرور المفسدين والخائنين والموسوسين والدساسين ولتقابلهم بما يستحقونه من النبذ والخذلان.

إن هذا المؤتمر هو حجر الأساس في بناء مستقبل الأمَّة، ولا يبني مستقبل الأمَّة إلا الأمَّة.

### 2. يوم الجزائر[1]:

وقال الإبراهيمي عن الوفود:

من الوفود تترامى بهم قطر الحديد، من كل فج سحيق، وتتهادى بهم السيارات، من مختلف النواحي والجهات، تهوي أفئدتهم إلى مدينة الجزائر، ولو كان وراء البحر مطلب لخاضوا البحر إليه، أو كان في أعماقه مأرب لغاصوا في لجحه عليه.

(1) بيان شامل للمؤتمر الإسلامي الجزائري، مجلة «الشهاب»، الجزء الرابع، المجلد 12، جويلية 1936م.

من الوفود؟ يعلو وجوههم البشر والابتهاج، وتلوح عل قسماتهم أمارات الفرح والسرور، وترتسم على أساريرهم سمات الطرب والارتياح. لم يزدادوا علىالنصب إلا نشاطاً، ولم يورثهم اللغوب إلا عزماً ومضاءً، لم يعقهم شغل، ولم تثبطهم حاجة، ولم يثنهم بعد شقة.

من الوفود؟ توارد القطا على منهل، وتزاحمت تزاحم الحجيج على منسك، تحدثك عنهم سيماهم أنهم قوم تنازعتهم امال دافعة، وأشغال قاطعة، فهجروا الأشغال وانقادوا للامال، وتقرأ من حركاتهم واتجاهاتهم، وتطلعاتهم، وتحسبهم أنهم قدموا لغاية واحدة وأنهم كانوا فيها على ميعاد، وتستعرضهم تصعيداً وتصويباً، فلا ترى فيهم إلا المغوار وأبا المغوار فتقول إنهم جمعوا على تثويب متجاوب الأصداء، وحشروا لميقات يوم معلوم، وأن الذي جمع هذه الأشتات على اتحاد الوجهة وائتلاف المنزع كما تجمع طاقة الزهر على الحسن والشذى لا على التئام الألوان، واتساق الأوراق والأغصان، لأمر خطير ونبأ عظيم.

من العلماء؟ يزجرون المواكب ويقودون الكتائب، ويقدمون الصفوف ويمهدون لأنفسهم مكان العامل في الجملة والطليعة من الحملة. والبسملة من اللوح، يشاركون في الرأي ويساهمون في المشورة ويرتجلون الفتيا في المشاكل المستعصية فتأتي كفلق الصبح، وتعلو أصواتهم بالدعوة إلى الاجتماعات، والخطابة في المجتمعات، يُراع حمى الدين فإذا هم ذادة، وتُدعى إلى العظائم فإذا هم قادة، ويمثِّلون للأمَّة علماء سلفها الذين كانوا معاقلها المنيعة عند حلول النوائب، وأعلامها الهادية عند اشتباه المسالك، ومراجعها إذا ناب خطب أو حَزَبَ كرب، بعد أن كان الظن بهم أنهم قرَّاء فواتح وكتّاب «خواتم» وأحلاس معابد، أكبر شأنهم في الأمَّة أن يقولوا هذا حرام وهذا حلال.

من النواب؟ الموفون بالعهد على شيوع الخطر، المنجزون للوعد على كثرة الإخلاف، الحاملون للأمانة

على انتشار الخيانة والغدر، المضطلعون بما حملوا من أعباء على فشو القصور والتقصير، المسيّرون للسفينة في موج كالجبال وليل خافت الذبال، وعواصف هوجاء، وطريق محفوفة بالأخطار ملتوية عوجاء، السائرون بالقافلة في صحراء طامسة الأعلام دامسة الظلام على هداية الرأي الأصيل إذا أعوز الدليل، والبصيرة النافذة إذا غش المستشار، والحق البين إذا اشتجرت المطامع والأهواء، والصبر الجميل إذا تقولت السياسة، والعزيمة الصادقة إذا ساور اليأس.

من الشبان؟ فتيان الحمى، وجنود الحق، ورعاة الماضي، وبناة المستقبل، ومعاقد الأمل الباسم، وطلائع العهد الجديد، ومستودع القوة في الأمَّة، وسرَّ التجدُّد والاستمرار فيها، ومبعث النشاط والحياة منها.

ما لهم يتدفقون تدفق السيل، ويندفعون اندفاع الأَتِيّ المزبد؟

ما بالهم متساوون كأسنان المشط، مستوسقين ككعوب الرمح، متسقين كنجوم الجوزاء؟ كأن لم تكفهم قوة الشباب ولم يقنعهم سلطان الشباب فأرادوا أن يسندوهما بقوة الاتحاد وسلطان الاتحاد؟

ما بالهم يخرجون عن طبع الشباب، ويتنصلون من غرارة الشباب، فيتّسمون بوقار الشيخوخة وجلالها، ويظهرون بمظهر الحنكة والتمرُّس؟

مهلاً فلذات الأكباد، وثمرات الأفئدة، وتزوَّدوها نصيحة خالصة محضتها التجربة ومحَّصها الاختبار، قد مضى أمسكم بخيره وشرِّه، وسينطوي يومكم هذا على غرّه، وإنما أنتم أبناء الغد والغد محجوب، فتدرعوا له بالأخلاق الفاضلة تملكوا أزمته وتتقوا مذمته، وإنما أنتم موكولون إلى العمل والعمل محسوب، فأعيذكم أن يقول التاريخ عنكم ما قال عنا، وإنما أنتم أبناء العروبة والإسلام فكونوا للعروبة والإسلام.

أفتمارونني على ما أرى؟ أما والله ما كذب العيان ولا أخطأ الحدس، إنها ـ وأبيكم ـ لَلأُمَّة الجزائرية المسلمة العربية الفتية الناهضة، نفضت الغبار في غير تثاقل ولا تناعس، وستغبر في وجوه السابقين.

إنها الأمَّة الجزائرية وقد أسلمت مقادتها لمن يحسن القيادة في دينها ودنياها، بعد أن استفاقت على وقع الأحداث، وإلحاح العوادي، وحلول الغير، ونعيق النعاة، وتلاعب الأيدي السفيهة، تعلن حياتها، وتثبت وجودها، وتستأنف تاريخها، وتبني مستقبلها بيدها، وتعيد المعجزات العيسوية كرة أخرى، نطق في المهد، أو قيام من اللحد[1].

### 3 . أمس واليوم:

كانت حالة الجزائر قبل اليوم حالة مريبة لا تدعو إلى الاطمئنان. تفرُّق شنيع في الأمَّة لم يسلم معه دين ولا دنيا. والتباس حالك في المقاصد لا يظهر معه خطأ من صواب، ولا غيّ من رشد، ولا مفسدة من مصلحة، وسفه فظيع في الانتخابات لم يثمر إلا شَناناً وتمزيقاً. ولم يلد إلا نواباً لا يغنون عند حلول الخَطب بالأمَّة غناء، وكانت السياسة الجزائرية تسير إلى غايات الاستعمار المتطرفة على أوضاع شاذة، هي شر ما خلقت عصور العسف والظلم. وكانت الأمَّة محرومة حتى من رفع الصوت بالشكوى والتظلم، فلم يكن من المرجو لهذه الأمَّة أن يدال ليسرها من العسر ولسعادتها من الشقاء.

حتى قيَّض الله لها من رفع صوته بالإصلاح، وهيَّأها للاجتماع على الصالحات، فتدرجت في هذا السبيل واستبانت طريق الهدى فسارت عليه، وأول ما أونس منها من بواكير الرشد حسن اختيارها لنوابها، ومحاسبتها لهم على أعمالهم، واجتماعها على المطالبة بحقوقها بواسطتهم.

رفعت الأمَّة الجزائرية صوتها مطالبة بحقوقها عدة مرات، بواسطة نوابها الأحرار فرادى ومجتمعين. وخطبوا حكومة الجزائر مراراً فلم يلقوا منها إلا كل معاكسة لما كان يسودها من تأثير حزب الاستعمار، وسافر وفد النواب المعلوم إلى فرنسا في صيف سنة 33 فلقي تلك الخيبة المريرة، التي أذكت حماسة الشعب الجزائري فتضاعف نشاطه، وكانت عليه خيراً عميماً، وأنتجت للسياسة الاستعمارية عكس ما تريد.

---

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1 / 245).

وكانت حكومة فرنسا كلما تعالى صوت المطالبة تعمد إلى المسكنات والمخدرات، فأرسلت مرة لجنة من مجلس الشيوخ يرأسها م. فيوليت الوالي العام الأسبق للجزائر لتدرس الحالة وتشير بالعلاج. وأرسلت أخيراً وزير الداخلية لذلك العهد م. ريني. ولم تكن لتلك المسكنات من نتيجة ولا تأثير، والحالة الجزائرية لا تزداد إلا ارتباكاً. وحالة المسلم الجزائري تنتقل من سَّيأئ إلى أسوأ. والحكومة الجزائرية متصاممة عن سماع صوت المطالبة، ممعنة في إخفائه، إلى أن جاءت نتيجة الانتخابات التشريعية الفرنسية الأخيرة بفوز أحزاب الجبهة الشعبية، فارتفع صوت الأمة الجزائرية بالمطالبة من جديد وحدثت فكرة المؤتمر(1).

### 4. سرّ تعليق الامال على الجبهة الشعبية:

يهرف الجاهلون بحقيقة المسلم الجزائري أو المريدون به شرَّاً بكلمات لا قيمة لها في تأويل المظهر الذي ظهر به الجزائريون من تعليق امالهم وإعلان ثقتهم في الجبهة الشعبية، ويفسِّرون هذا المظهر بأنه اتجاه حقيقي نفساني نحو الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية، وهو تفسير خاطأئ بعيد عن الحقيقة. فإن المسلم الجزائري قد أقام الأدلة التاريخية على تصلبه في جزائريته وإسلامه، وعلى أنه ليس من السهل على الأحداث أن تكيُّفه بغير كيفيته التي طبعها عليه دينه ومقوِّماته. وهو بعد شكور على الإحسان لأول ما يرى مخايله، وقد تعاقبت على فرنسا في عهدها الأخير حكومات تنتمي إلى أحزاب، فلم تر الجزائر من جميعها بارقة خير ولا مخيلة إحسان ولو بالقول، ولا شفقة عليها ولا رحمة بها ولا رثاء لحالها، بل كانت على العكس من ذلك ترى من تلك الحكومات المتعاقبة زيادة في الإرهاق وإمعاناً في العسف، وتسمع عبارات التهديد والوعيد صريحة فصيحة، وقد تسمع في بعض الأوقات الوعود المعسولة فتبادر بالشكر المضاعف، ثم لا تكون النتيجة على طول الانتظار والصبر إلا الخيبة وتجرع مرارة الإخلاف.

(1) المصدر نفسه (1 / 246).

فلما فازت الأحزاب الشعبية، ومبادئها الإنسانية معروفة لجميع الناس، وبادرت بالإعلان بلسان صحفها والإفصاح عما تبيّته للشعب الجزائري من إصلاح سياسي واجتماعي، وما تضمره له من خير ورحمة هو أهل لهما، وَاحْتَفَّ بتلك التصريحات والوعود ما دلَّ على أنها ليست من جنس الوعود السالفة التي لم ينجز منها ولا واحد. لما وقع كل ذلك ؛ كان من المعقول جداً أن يكون هوى المسلمين الجزائريين مع الجبهة الشعبية وميلهم إليها وأن يقابلوا الخير بمثله، خصوصاً وقد كانت تلك التصريحات والوعود من أحزاب اليسار مسوغة في قالب يقتضي العطف على الشعب الجزائري والاعتراف بجميله وأهليته لتلك الحقوق، ويا ما أشرف عرفان الجميل إذا كان متبادلاً بين الطرفين!.

إن من خصائص هذه الأمَّة الجزائرية عرفان الجميل لأهله ومكافأة الإحسان بالإحسان، وهي خلالٌ طبعها عليها دينها. وقد سمعت من أحزاب اليسار وعوداً جميلة عريضة، فقابلتها بشكر جميل عريض طويل، ثم هي تنتظر ؛ فإن خرجت تلك الوعود إلى حيِّز الإنجاز جعلت الشكر عليها وقفاً والإخلاص كفاءً. وإن خابت الظنون في هؤلاء كما خابت فيمن مضى قبلهم لجأت إلى الصبر والثبات كعادتها في النائبات، ولا تيأس من روح الله ولا تسمِّي الأشياء بغير أسمائها، فتقول للمسيء أحسنت وللكاذب صدقت.

إن هذه الأمَّة الجزائرية فقدت كل شيء،ولكنها لم تفقد دينها الذي علَّمها كيف تميِّز المحسن من المسيء، وعلمَّها كيف تكافأئ الإحسان وإن قلَّ، بالإحسان الكثير، وكيف تكافأئ الأساءة بالإساءة عدلاً وبالإحسان فضلاً، فليدع المتخرصون هذه الأمَّة المظلومة، وليعذروها في مظهرها الجديد الذي ظهرت به، ولا يحملوه على أنه نكاية في حزب وتحيّز إلى حزب. فمن الظلم الفاضح أن تلوم الجائع المغرور إذا هش لكلمة الإحسان، ونطقت جوارحه قبل لسانه بشكر المحسن، وقد كانت هذه الأمَّة تقابل أقل من هذا بأكثر من هذا، وعند المسيو فيوليت الخبر اليقين، فسلوه يخبركم أنه لم يظفر سياسي بمثل ما ظفر به من حب الجزائريين وتقديرهم وامتلاك قلوبهم، كل ذلك لكلمة خير قالها فيهم وسعي صالح سعاه في مصلحتهم، على ما يتطرق

ذلك السعي من شكوك واحتمالات وعلى أنه لم ينجز من سعيه قليل ولا كثير[1].

### 5. فكرة المؤتمر:

يسجِّل التاريخ المنصف فكرة عقد المؤتمر الإسلامي الجزائري للأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، فقد كان نشر في جريدة (لاديفانس) في عددها الصادر في 3 جانفي سنة 1936 اراء له في السياسة الجزائرية كان لها وقع عظيم، ومن تلك الاراء التي ارتاها الأستاذ عقد مؤتمر إسلامي جزائري، فكان أول من فكَّر في عقد هذا المؤتمر قبل فوز الجبهة الشعبية بأشهر.

وللأستاذ ـ حفظه الله ـ اراء في شؤون الأمَّة الجزائرية ترجع في مردَّها إلى هذا الأصل. وهو أن المرجع في مسائل الأمة هو الأمة، والواسطة لذلك هي المؤتمرات. ونحن مع تسليمنا لوجاهة فكرة الأستاذ، نعتقد مستيقنين أنه لو دعا داعٍ قبل اليوم إلى عقد هذا المؤتمر ـ كيفما كانت منزلة الداعي في الأمَّة ـ لما باء إلا بالخيبة والفشل لأسباب يعرفها كل أحد، أما وقد فازت الجبهة الشعبية في الانتخابات التشريعية، وأصبحت أزمة الحكومة الفرنسية بيدها ؛ فقد أصبح عقد المؤتمر ميسوراً ومتأكَّداً في ان واحد، فماذا وقع؟

كانت الدعوة إلى عقد هذا المؤتمر العام من قسنطينة، وكانت قوية مؤثرة بقوة مصدرها ومكانته في الأمَّة، ومصدرها رئاسة جمعية العلماء التي هيأت الأمَّة للاستجابة لدعوة الحق، بعد أن علَّمتها الحق، ورئاسة جمعية النَّواب التي لم تعرف الأمَّة معنى النيابة وحقيقية النيابة إلا منها، والتي ضربت المثل للإخلاص للمصلحة العامة والتفاني في خدمتها، وللأمَّة بهاتين الجمعيتين ثقة واسعة الحدود ثابتة الأسس.

لذلك كان صوتهما مجتمعاً أشدَّ تأثيراً في النفوس وأدعى إلى الاستيثاق والقبول. فما كادت تسمع تلك الدعوة الجامعة وتقرأ في الصحف عن عقد المؤتمر، الصادرة عن رئيس جمعية العلماء ورئيس جمعية النُّواب بقسنطينة حتى تلقَّته الأمَّة باذان مرهفة ونفوس متطلعة مستشرقة.

(1) المصدر نفسه (1 / 247).

لم يكن بين الدعوة إلى المؤتمر وبين عقده إلا أيام قليلة، فلم تنظم له دعايات واسعة كما هو الشأن في المؤتمرات الخطيرة، بل كان الاعتماد فيه على إحساس الأمَّة واتجاهها الصادق إلى المطالبة بحقوقها أكثر من الاعتماد على الدعاية والإعلان.

وكل ما وقع من الأعمال التمهيدية: انعقاد لجان تحضيرية من الشُّبان والعمَّال ورجال الصنائع والفلاَّحين وقدماء المحاربين في قسنطينة والجزائر وتلمسان وبعض مدن القطر، لتنظيم المطالب الخاصَّة المتعلِّقة بهذه الهيئات، ولإعانة المؤتمر على أعماله العامة. ولو تراخى الزمن وانفسحت المدة بين الدعوة إلى المؤتمر وبين عقده لكان المظهر أروع، والعديد أكثر.

ولعلَّ بعض الناس يرى من الحكمة أن لو تأخر انعقاد المؤتمر مدة عن الدعوة حتى تعدَّ له العدد اللازمة، وحتى تدرس المطالب وتختمر الاراء، وتتقارب وجهات النظر، إذ ليست المطالب الجزائرية من الأمور الهيِّنة التي لا يضرَّ وقوع الغلط فيها، بل هي في حقيقتها بناء مستقبل الأمَّة بأسرها، وإن غلطة واحدة في تلك المطالب لتؤدِّي إلى تجرُّع الأمَّة مرارتها أحقاباً.

والجواب عن هذه الملاحظة التي سمعناها باذاننا من بعض أولي الرأي، أن السبب الأكبر الداعي إلى التعجُّل بالمؤتمر أقرب إلى الحكمة من هذه الملاحظة على سدادها، وهذا السبب هو مسابقة الحوادث العائقة، والمفاجات الطارئة التي قد تعرقل المؤتمر وتبطئه، أو تفسده وتبطله، وأقلَّ ما يترتب على هذا من المفاسد تفسخ العزائم وفشل الإرادات وإنتكاث القوى، وما أكثر هذه الطوارأئ في هذا الوطن، وما أكثر العاملين على هدم المشاريع، فما عسى أن يكون في التعجُّل أيضاً انعقاد المؤتمرات على إثر تشكيل الوزارة الجديدة، وهو مبرر له مغزاه.

ولعلَّ هذه الملاحظة لا تندفع إلا إذا حلَّلنا المطالب الجزائرية بعض تحليل، ذلك أن هذه المطالب ترجع

إلى أصلين: مفاسد تدرأ ومصالح تجلب. وقد تستقلّ إحدهما عن الأخرى وقد تتلازمان، فإن طلبنا إلغاء (الانديجينة)[1] مثلاً فقد طلبنا درء مفسدة محققة لا يتنازع فيها إثنان من غير أن تترتب على درئها مصلحة إيجابية.

وإذا طلبنا إلغاء قرار شوطان القاضي بتعطيل الصحف العربية قبل بروزها، فهذه مفسدة يترتَّب على درئها مصلحة إيجابية وهي حرية الصحف العربية، فنكون قد حصلنا على فائدتين: درء مفسدة وجلب مصلحة. وهكذا يقال في حرية الفكر والاجتماع والتنقُّل وفتح المساجد، والمطالب التي هي من هذا القبيل لا يختلف فيها جزائريان ولا يتسرَّب إليها الغلط بحال، وليس عندنا إلا مسألة واحدة يعدّ التساهل أو الغلط فيها جريمة بل كفراً، وهي مسألة الحقوق الشخصية الإسلامية، ومسألة أخرى اختلفت فيها الأنظار ثم اتفق المؤتمر فيها على رأي حاسم وهي مسألة التمثيل البرلماني، وسيعلم القارئ تفصيل القول فيهما في هذا المقال.

### 6 . النقاط التاريخية في المؤتمر:

على الساعة التاسعة من صباح يوم السبت السابق ليوم المؤتمر ؛ اجتمع بنادي الترقي أفواج من شبان العمالات الثلاث، منتدبين من اللجان التحضيرية التي تشكلت في مختلف المدن ومفوضين في النيابة عنها والتكلُّم باسمها. وفي هذه اللجان تجتمع كل القوى الجزائرية وتتمثَّل جميع نواحي الحياة منها.

وشاركهم في هذا الاجتماع نواب تلمسان البلديون من بينهم السيد محمد ابن سليمان نائب رئيس جمعية النواب بوهران، والسادة محمد القلعي المحامي، ومحمد بن مرزوق ومحمد حميدو وبن عودة بوعياد نواب بلديون بتلمسان، والدكتور الجيلاني بن التهامي نائب بلدي بمستغانم، والسيد محمد لالوت نائب بلدي بسيدي بلعباس، والسيد بن عمارة نائب بلدي بتيارت، والدكتور سعدان نائب عمالي ببسكرة. وجمهور من أعيان العمالات الثلاث.

---

(1) كلمة فرنسي Indigenat معناها " الأهالي " ويطلقها الفرنسيون على الجزائريين احتقاراً لهم، وقانون الأنديجينة صدر في سبعينيات القرن الماضي، لا يطبق على الجزائريين ، وهو أبشع القوانين المعروفة في العالم وأقساها .

وتفاوض الجميع . في جو مشبع بالإخاء والتضامن والشعور باشتراك المصلحة . في كل النقاط التي تهم المؤتمر، وحلّلوا كل ما كان مشكلاً من نقاط الخلاف فتوصلوا فيها إلى حل قاطع.

وحضر في المناقشات الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء، وكاتب هذه الأسطر، والشيخ محمد خير الدين، على معنى المشاورة وإعطاء الرأي في كل ما يتعلق من المطالب بالدين واللغة العربية.

وانفضَّ هذا الاجتماع على الساعة الثانية عشرة، وفي عشية ذلك اليوم اجتمعت هيئات الشبان والأعيان بالنادي الرياضي لإتمام أعمالها التحضيرية، واجتمعت هيئات النُّواب بقاعة «قيون تيل» لذلك الغرض، وعلى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم اجتمع النُّواب وممثلو جمعية العلماء والشبان والأعيان بقاعة «قيون تيل»، وفي هذا الاجتماع تمَّ الاتفاق على صورة المطالب التي تعرض على المؤتمر للموافقة عليها وعلى الرأي النهائي لكيفية التمثيل البرلماني، وفيه اتفق الحاضرون على نظام المؤتمر وكيفيته، وأن يكون مركباً من النُّواب والعلماء والشبَّان، وعلى إسناد رئاسة المؤتمر العام إلى الدكتور بن جلول. وإنفضّ هذا الاجتماع على الساعة الثانية عشرة ليلاً، وتمادى النواب على أعمالهم الخصوصية إلى الساعة الثانية قبل الفجر.

### 7 . قائمة القرارات:

عرضت المطالب العامة على المؤتمر فأقرّها بالإجماع، فأصبحت قرارات يجب على أولى الرأي والمسيرين للمؤتمر السعي بكلِّ الوسائل لتنفيذها باسم الأمَّة، ويجب على الأمَّة أن تتساند وتتعاضد وتقف صفاً واحداً من وراء قادتها المخلصين، وأن تحافظ على المؤتمر وقراراته كما تحافظ على أعزّ عزيز لديها.

. ثقة المؤتمر بالحكومة الشعبية الجديدة وشكرها على عواطفها نحو الأمَّة الجزائرية.

. إلغاء جميع القوانين والقرارات الاستثنائية الخاصَّة بالمسلمين.

. تخويل المسلمين جميع الحقوق التي يتمتَّع بها الفرنساويون، مع المحافظة التامَّة على المميزات الإسلامية التي يتمتَّع بها المسلم الجزائري في أحواله الذاتية الشخصية مع إدخال إصلاحات عليها.

. تخويل المسلمين الجزائريين حق التمثيل في البرلمان الفرنسي على هذه الصورة:

. إنتخاب مشترك بين المسلمين والفرنسيين.

. تعميم في المنتخبين المسلمين على الصورة الجارية الان في انتخاباتهم المحلية.

. تأكيد في المحافظة على الأحوال الشخصية الإسلامية.

. تأسيس لجنة تنفيذية للمؤتمر على الوجه الآتي بعد.

### 8 . قائمة الاقتراحات الفردية:

. إلغاء الولاية العامة وما يتبعها من الأوضاع الإدارية كالدوائر المختلطة[1] والقوَّاد[2]، وإلغاء مجلس النيابة المالية الذي يتحكم في الميزانية، وإلغاء المجلس الأعلى المبني عليه.

. إلغاء المحاكم العسكرية.

. عقد المؤتمر بهذا الاسم وبهذه الروح وعلى هذه المبادئ عند كل مناسبة.

. تكريم الرجال الذين عملوا لخير الجزائر بلا فرق بين أجناسهم، الأحياء بشكرهم باسم المؤتمر، والأموات بإحياء ذكراهم، وجرى في هذا الموقف ذكر فيوليت وموتي والأمير خالد والبان روزي.

---

(1) الأقسام التي يقطنها الجزائريون والفرنسيون ويحكمها قانون عنصري، ويسيِرها شخص يسمَّى «متصرِّف».

(2) جمع «قايد»، موظفون جزائريون مسؤولون عن القرى، وهو كشيخ البلدية في المدينة.

ـ طرح كلمة «انديجان» وهجر استعمالها.

ـ العفو عن المحكوم عليهم في حوادث 5 أوت[1].

ليس من شأن هذه المجلة الشهرية أن تفيض في نقل الخطب وتفصيل الوقائع، وإنما هذا من شأن الصحف اليومية والأسبوعية، وقد قامت الصحف الفرنسية والعربية بهذا الواجب، وأظهرت اهتماماً عظيماً بالمؤتمر، فأرسلت محرّريها ومصوّريها لحضوره، ونشرت عنه صوراً صادقة، وأبى لها إنصافها للتاريخ وإخلاصها لمهنتها إلا أن تعترف بروعته ونظامه وشرف مبادئه، ومن شَذَّ شَذَّ في النار.

وإذا لم يكن التفصيل من شأن هذه المجلة، فإننا كتبنا فيها من نقاط المؤتمر ما فيه إثارة للعبرة وإرسال للمثل، وحسب قرَّائها منها هذا[2].

## 9 ـ أهم مقررات المؤتمر:

أول برنامج عرف في عالم السياسة الفرنسية الجزائرية مختصاً بالمسلمين الجزائريين هو برنامج م. فيوليت، وصاحبه من أبرز المشتغلين بالسياسة الأهلية الجزائرية، وقد أدار برنامجه على اعتبارات سياسية دقيقة لا يفهمها إلا الراسخون في علم السياسة، وأفرغه في قالب لفظي مستهوٍ خلاَّب، وينطوي على معانٍ غامضة ويحتمل وجوهاً كثيرة من الاحتمالات والتفسيرات، ومنها ما يعدُّ في الاعتبار النفسي الجزائري من الشعريات، ومثل هذه المعاني قد تكون عند التطبيق مثاراً للإشكال والعسر. وقد يكون من الحكمة في وضع برنامج مثل هذا يُبنى عليه مصير أمة كاملة ؛ أن تكون معانيه بمقربة من أفهام العامة، خصوصاً إذا كان تنفيذه يتوقَّف على رأي تلك الأمَّة أو على تأييدها.

ثم ظهر بعد برنامج فيوليت برنامج النائب «ڤيرنوت» وتواصل البرنامجان في مجلس الشيوخ، فلم يظفر واحد منهما بقبول، وبين البرنامجين خلاف في النقاط الجوهرية من الموضوع، وفي كليهما جهات صالحة، غير

(1) وقعت في قسنطينة سنة 1934، بسبب سَبّ يهودي رسول الله (ص).

(2) المصدر نفسه (1 / 251، 252).

أن برنامج فيوليت كان أكثر استهواءً لخاصَّتنا وشبابنا وأسيرَ على ألسنتهم، وبذلك بذ قرينه في الشهرة والحظوة، وظهر برنامج «كيطولي» نائب قسنطينة فلم يلقَ في الأوساط الجزائرية أدنى اعتبار.

وظهر في آخر وقت برنامج دوروكس، نائب الجزائر، فكان حظُّه قريباً من حظ سابقه.

فلما أعلنت الدعوة إلى المؤتمر كانت الأنظار مختلفة في أي البرامج يجب أن تكون المطالبة بالحقوق على أساسه، وكان أنصار برنامج فيوليت أكثر عدداً في الطبقات المتنوِّرة وأقوى نفوذاً، ومن العجيب الدالِّ على تقدير هذه الأمَّة للجميل أن معظم تأثُّر أنصار هذا البرنامج اتٍ من اسم صاحبه واشتهاره ببعض المواقف في صالح المسلمين أكثر مما هو ات من التحقُّق بصلاحيته في العاجل أو في الاجل، فهل هناك دليل أكبر من هذا على ذهاب هذه الأمَّة في المكافأة على الإحسان إلى الأمد الأقصى.

كان من رأينا في هذا النزاع والتحيُّز إلى البرامج أن تُلغى كلها، وأن لا يتَّخذ واحد منها أساساً للمطالب الجزائرية، وذلك لأنها كلها وضعت في ظروف خاصة وبُنيت على اعتبارات خاصَّة، وقد ذهبت تلك الظروف وتلاشت تلك الاعتبارات، وأصبحنا نسمع من شبه المسؤولين في الحكومة الشعبية أن حكومتهم مستعدَّة لإعطاء أكثر ما يمكن من الحقوق للأمَّة الجزائرية، فلا يكون من السداد ولا من الحكمة أن نتقيَّد في ظرف كهذا ببرنامج لو كُلِّف واضعه بوضعه في هذا اليوم لما رضي به لنا ولوضعه على نحو اخر، بل الواجب أن نضع لمطالبنا برنامجاً مستقلاً منتزعاً من حالة الأمَّة الجزائرية منطبقاً على نفسيتها وميولها الخاصة، وقد صارحت بهذا الرأي إخواننا نوَّاب عمالة وهران في اجتماعهم الأخير بتلمسان، عندما رأيتهم مختلفين حول أسماء البرامج، فرجعوا إلى هذا الرأي واقتنعوا بسداده[1].

(1) المصدر نفسه (1 / 253).

ثم لما قدمنا الجزائر وجدنا إخواننا كلهم رجعوا إليه واقتنعوا بسداده، وكانت نتيجة هذا كله أن قرَّر المؤتمر دعم تقييد المطالب ببرنامج معيَّن وعدم بنائها على أساس برنامج مخصوص.

ومعنى هذا كلّه أن المؤتمر بحكمه هذا وقراره هذا ؛ قد فضَّ أعظم مشكلة، وأزال أكبر خلاف كان يأتي ـ لو ترك ـ بأسوأ الاثار في المجتمع، فشكراً للمؤتمر الإسلامي الجزائري على هذا القرار الخطير[1].

### 10 ـ اللجنة التنفيذية:

المؤتمرات في الحقيقة قوّات تشريعية تستمدّ قوتها من الجمهور الحاضر المقرِّر والجمهور الغائب المؤيد، والقوة التشريعية تحتاج دائماً إلى قوة تنفيذية، تتابع الأعمال حتى تنتهي بها إلى التنفيذ، لذلك كان من الأصول المتبَّعة في المؤتمرات أن تؤسس لها لجنة تُسمَّى اللجنة التنفيذية، وظيفتها تنفيذ كل ما يقرره المؤتمر وتطبيقه على النحو الذي قُرِّر عليه، فإذا قرَّر المؤتمر مطلباً أو اقتراحاً سعت اللجنة في تنفيذه بجميع الوسائل، وتتحمَّل مسؤولية كل ما يقع من تقصير أو إخلال.

وعلى هذه السنة جرى المؤتمر الإسلامي الجزائري، فقرَّر تأسيس لجنة وأقرَّها.

إن الأعمال العظيمة أو الكبيرة إذا وكلت إلى فرد ضاعت أو اختلطت، وتوزيع الأعمال ـ مقرونة بالمسؤولية ـ على أفراد معينين أدعى للسرعة والإنجاز وعدم الضياع والاختلال، وإذا كانت مقررات المؤتمر الإسلامي الجزائري كلها مطالب واقتراحات، فإن مهمة اللجنة التنفيذية تنحصر في تنظيمها وترتيبها وطبعها في كرّاس يسمَّى «كرَّاس المؤتمر الإسلامي الجزائري»، وتقديمها للمراجع الحكومية المختصَّة بواسطة وفد من النُّواب توفده أو بما تراه من الوسائط[2].

---

(1) المصدر نفسه (1 / 253).

(2) المصدر نفسه (1 / 254).

وقد تمَّت على الوجه الآتي:

### 11. ما تمَّ بعد المؤتمر ولم تنشره الصحف:

اجتمع بنادي الترقِّي في مساء يوم المؤتمر رؤساء جمعيات النُّواب وكثير من أعضائها البارزين وممثلو جمعية العلماء ورؤساء لجان الشبّان المؤيدين من العمالات الثلاث، وتداولوا إبداء ارائهم في كيفية تنفيذ قرار المؤتمر النهائي القاضي بتشكيل لجنة تنفيذية للمؤتمر. فاتفقت الاراء على أن اللجنة التنفيذية يجب أن تمثِّل فيها الأمَّة تمثيلاً واسعاً، وقبل النظر فيها يجب تأليف لجنة مؤقتة من تسعة أعضاء: ثلاثة من النُّواب، وثلاثة من العلماء، وثلاثة من الشُّبان، على اعتبار واحد من كل طائفة عن كل عمالة، لترتب مطالب المؤتمر وتنظِّم مقرَّراته وتهيأئ العمل للجنة التنفيذية، ويوكل إلى هذه اللجنة المؤقتة النظر في تكوين اللجنةالتنفيذية بما تراه بعد الدرس والتمحيص.

فتألَّفت اللجنة المؤقتة فعلاً من ثلاث نواب هم الدكتور بن جلول رئيس المؤتمر، والمحامي عبد السلام بن الطالب، والصيدلي عبد الرحمن بو كردنة، وثلاثة من العلماء وهم المشايخ محمد خير الدين، الطيب العقبي، البشير الإبراهيمي، وثلاثة من لجان الشُّبان، وهم الأستاذ بن الحاج، والمهندس عبد الرحمن بوشامة، والسيد عبد الله العنابي.

وقد وكل النُّواب أمرهم إلى أحدهم وهو الصيدلي عبد الرحمن بو كردنة، وفوَّضوا إليه أن يتكلم باسمهم في هذه اللجنة ويبرم مع إخوانه ما يراه صالحاً، وشارك في أعمالها بصورة فعلية الأستاذ الأمين العمودي والشيخ محمد خير الدين ممثلين لجمعية العلماء، واضطَّر السيد عبد الله العنابي إلى الرجوع إلى بلده فوكَّل الشاب أوزقان.

لبثت اللجنة المؤقتة أسبوعاً كاملاً - بعد ارفضاض المؤتمر - توالي اجتماعاتها بنادي الترقِّي، فرتَّبت المطالب والقرارات والاقتراحات ونظمتها، ومهَّدت طريق العمل للجنة التنفيذية وعبّدتها، واستقرَّ الرأي في كيفية تشكيل اللجنة التنفيذية أن يقوم الأعضاء العاملون في اللجنة المؤقتة بعد رجوعهم إلى دوائرهم بجولات منظمة

في أقسام العمالات الثلاث، ويقيمون فيها اجتماعات عامة يشرحون فيها أعمال المؤتمر وقراراته، ويبيّنون فوائده وثمراته الحاصلة والمرجوّة، ويدعون الأمَّة إلى حمايته وتأييده ويؤسسون في كل قسم لجنة فرعية، تسمَّى (لجنة المؤتمر) برئيسها وكاتبها وأمين مالها، وتنظيم كل لجنة جميع الملحقات التابعة لذلك القسم حتى القرى الصغيرة، على أن تقوم هذه اللجان بالدعاية للمؤتمر والدعوة إلى تأييده، ويراعى في تأسيسها المعنى الذي أسست عليه اللجنة المؤقتة بالجزائر من جميع العناصر الثلاثة: النُّواب والعلماء والشُّبان، فإذا تمَّ تأسيس لجان المؤتمر على هذه الكيفية المنظَّمة انتخبت كل لجنة منها عضواً من أعضائها ليكون عضواً في اللجنة التنفيذية التي ستنعقد أول إجتماعاتها في الخامس من شهر جويلية الاتي بنادي الترقِّي بالجزائر.

وبهذه الكيفية تكون اللجنة التنفيذية للمؤتمر ممثِّلة للأمَّة أكمل تمثيل.

ثم أودعت اللجنة المؤقتة جميع أوراق المؤتمر وملفَّاته بعد فحصها وإحصائها عند ثلاثة من أعضائها المقيمين بالعاصمة، وهم الأستاذ بن الحاج ممثلاً للشُّبان والأستاذ الأمين العمودي ممثلاً للعلماء، والصيدلي عبد الرحمن بو كردنة ممثلاً للنُّواب، وعهدت إليهم بأن يكونوا نقطة اتصال بين المؤسسين للجان المؤتمر، حتى إذا تمَّ تأسيس اللجان وانتخب أعضاء اللجنة التنفيذية وانعقدت الجلسة الأولى في الخامس من جويلية بصفة رسمية، سلَّموا لها كل ما تحت أيديهم من أوراق المؤتمر وقراراته، وبذلك تكون اللجنة المؤقَّتة قد أتمَّت أعمالها وأدَّت الأمانة إلى أهلها.

وسيكون أول أعمال اللجنة التنفيذية طبع المطالب والقرارات باللغتين العربية والفرنسية في كراسة تسمَّى «قرارات المؤتمر الإسلامي الجزائري»، وتشكيل وفد من النُّواب يسافر إلى فرنسا باسم المؤتمر لتقديم مطالبه[1].

(1) المصدر نفسه (1 / 255).

## 12. مطالب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

للأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائرين وصاحب جريدة «المنتقد» الشهيدة ومجلة «الشهاب» آراء ناضجة حكيمة في السياسة الجزائرية، وقد رفع صوته بها قبل أن يرتفع أي صوت آخر من أصوات اليوم، ونشرها في «المنتقد» و«الشهاب» وغيرهما في عدة مناسبات يوم كانت الألسنة خرساء والأقلام مقيَّدة.

ولما قدَّم لمكتب المؤتمر مطالب جمعية العلماء المسلمين المتعلقة بالدين واللسان العربي صدر تقريره الموجز البليغ ببيان رأيه الخاص في المساواة والنيابة، ثم أردفه ببيان مطالب الجمعية.

وهذا نصَّ التقرير:

**. حقوق الأمَّة الجزائرية التي تطلبها من الأمَّة الفرنسية:**

**مقدمة:**

إن الأمَّة الجزائرية قد شاركت الأمَّة الفرنسية في مواقف الموت، فمن الحق والعدل أن تساويها في مواقف الحياة.

إن الحياة تُشترى بالأرواح والأبدان، والأمَّة الجزائرية قد بذلت أرواحها وأبدانها مع الأمَّة الفرنسية ومثلها، ومن دفع الثمن فمن الحق والعدل أن يأخذ المثمن.

إن الأمَّة الجزائرية سمعت في أيام الشدَّة ومواطن اليأس من الأمة الفرنسية أنهما يستويان في السلم كما تساويا في الحرب. فأما الذين ماتوا في تلك الأيام فقد ماتوا وقلوبهم تنعم بذلك الأمل المعسول. وأما الذين بقوا بقيت قلوبهم تتجرَّع الخيبة بعد الخيبة وتنطوي على الألم بعد الألم.

إن الأمَّة الفرنسية لا تستغني عن الأمَّة الجزائرية، كما لا تستغني الأمَّة الجزائرية عنها، فمن الخير لهما معاً أن لا تشعر الواحدة منهما من ناحية الأخرى بنقص في الود أو ظلم في الحقوق.

وعلى هذا بنينا ما نقدِّم من الحقوق التالية طالبين من الأمَّة الفرنسية، وخصوصاً من الحكومة الشعبية الجديدة التي تمثِّل الشعب الفرنسي والمبادئ الجمهورية أصدق تمثيل ـ باسم الحق والعدل ـ تنجيزه.

**الأوضاع والمعاملات الخاصة:**

لا تتحقق المساواة المطلوبة إلا برفع جميع الأوضاع الخاصة مثل المتصرفيات ومجالس «الكريمينال» [(1)]والمعاملات الخاصة مثل الأنديجينه وأعطيات الجندية، وزيادة مدة الخدمة العسكرية، والبرنامج الخاص بالتعلُّم في المكاتب الابتدائية وغيرها، وحرمان عمَّال الجزائر من كثير مما يتمتع به العمَّال الفرنسيون.

**النيابات:**

لا يمكن للأمَّة الجزائرية أن تنال حقَّها من الحياة على الأرض الجزائرية ما دامت لا تمثِّلها في جميع المجالس إلا أقلية، فأوَّل مطلب في النيابة هو تسوية نواب الجزائريين بالنُّواب الفرنسيين في جميع المجالس، ثم مطلب توحيد النيابة البرلمانية بكلا المجلسين، بحيث يشارك في انتخاب النُّواب البرلمانيين مشاركة فعلية جميع سكان الجزائر على اختلاف أجناسهم وعقائدهم مع بقاء المسلمين على جميع ذاتياتهم الإسلامية.

هذا التصدير قدَّمه الأستاذ للمؤتمر باسمه الخصوصي، وعلى أنه رأي من الاراء يضمّ إلى نظائره، وبعد هذا بيَّن في إيجاز بليغ مطالب جمعية العلماء وقدَّمها باسمها وهي:

**«اللغة العربية»:**

تعتبر اللغة العربية مثل اللغة الفرنسية، وتُكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية، وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، وتُعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرة مثل اللغة الفرنسية.

(1) كلمة فرنسية معناها الجرائم، الجنايات.

«**الدين**»:

1 ـ **المساجد**: تسلَّم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر لها يتناسب مع أوقافها. ويتولَّى أمرها جمعيات دينية مؤسسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدين عن الحكومة.

2 ـ **التعليم الديني**: تؤسَّس كلية لتعليم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرِّسين ومؤذنين وقيِّمين وغيرهم.

3 ـ **القضاء**: ينظِّم القضاء بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية، يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدينية المشار إليها في الفصل السابق، وإدخال إصلاحات على المدارس التي يتخرج منها رجال القضاء، منها تدريس تلك المجلة والتحقق بالعلوم الشرعية الإسلامية، وطبع التعليم بطابعها لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثلين لها.

هذه هي النقاط الأساسية التي تنبني عليها المطالب الدينية، قدَّمها رئيس جمعية العلماء باسمها للمؤتمر، لتكمل بها مطالب الأمَّة الجزائرية في نواحي حياتها الأخرى، وقد وافق المؤتمر على هذه المطالب بإجماع برفع الأيدي بهيئة رائعة مؤثرة، وجمعية العلماء على استعداد تام لشرح هذه النقاط وبيان تفاصيلها وكيفية تطبيقها[1].

## 13 ـ أثر مشاركة جمعية العلماء في المؤتمر:

كانت تلك اللحظة العلنية التي ظهر بها ممثلو جمعية العلماء المسلمين في هذا المؤتمر، من الدعوة إليه وحياطته وتأييده ؛ مثار ابتهاج عظيم عند المخلصين للوطن والعاملين على خيره، لأنهم يعلمون ما في مشاركة العلماء في المؤتمر من خير وفائدة للأمَّة وما فيها من قوة، وتمكين للمؤتمر، ومثار فرح واغتباط في الطبقات العامية، لأنها ترى في حضور العلماء للمؤتمر ضماناً وكفالة لأعزَّ عزيز لديها ـ وهو الدين واللغة العربية ـ وكانت

(1) المصدر نفسه (1 / 257).

من جهة أخرى مثيرة لسخط أشخاص ومقامات عرفناها وبلوناها، فلم نعرف منها الرضى بما يسرّ المسلمين، ولا الفرح بما يقرب بعضهم من بعضهم. ولم ننل منها إلا كل معاكسة لمصالحهم، ونحن لا يهمُّنا من أمر هؤلاء الأشخاص ولا هذه المقامات شيء ؛ ما دمنا قد أدَّينا واجبنا نحو ديننا ولغتنا وشاركنا في عمل صالح لأمَّتنا.

وإنك لتسمع بعض الألسنة التي تترجم عن قلوب جاهلة أو مريضة تردِّد هذا السؤال: ما معنى مشاركة العلماء في مؤتمر سياسي؟ كأنهم يريدون تخويفنا بهذا الغول الموهوم غول السياسة، وتفويت الفرصة علينا بمثل هذه الترهات. وكم أضاعت هذه الترهات على الغافلين من فرص.

وإننا لنعلم أن وراء الأكنَّة، شخوصاً مجتنة، في كيد الأبالسة وخفاء الجِنّة، وإن هذه الشخوص جربت العلماء فوجدتهم لا يلينون لغامز، فيسوؤها أن ينعقد المؤتمر، ويسوؤها بنوع خاص أن يشارك العلماء فيه، فيكتسب قوة من قوَّتهم وثباتاً من ثباتهم ولوناً راسخاً مما عرفوا به من الرسوخ، ثم يتحوَّل غيظها عنه إلى قالة السوء يشيعونها عليه، وأحدوثة الاستهجان يرمونه بها في طوائف مخصوصة، تردِّد تلك الأصداء وتلبس علينا بأن المؤتمر يهمُّها أكثر مما يهمُّنا، باية أنها لا تستهجن إلا جوانب النقص فيه، ومن جوانب النقص . في هذا المنطق الزائف . اشتراك العلماء في المؤتمر.

فويحكم.. إن العلماء الذين تعنونهم هم من الأمَّة في الواقع والحقيقة، في حال إنكم لا تعدون منها إلا بالزعم والدعوى، وإن العلماء يمثِّلون الوصف الذي ما كانت الأمة أمة إلا به وهو الإسلام ولسانه، وإن مطالب الأمَّة التي رفعت صوتها بها في المؤتمر ترجع إلى أصول أربعة، الدين والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وإن لكل مطلب من هذه المطالب فروعاً متشابكة، وإن كل أصل من هذه الأصول يحتاج إلى بحوث ودراسات تفتقر إلى كفايات واختصاصات، وإذا كان في نواب الأمَّة ومفكريها من فيه الكفاية والمؤهلات لدراسة المطالب السياسية ووصل مقدمتها بنتائجها وإعطاء رأي ناضج فيها، أو كان في فلاَّحينا وتجَّارنا من

نعتمد عليه وعلى رأيه في المطالب الاقتصادية مثلاً، فَمَنْ للمطالب الدينية وما يتبعها من اللغة العربية غير العلماء[1]؟

## 14 . كلمة ابن باديس بمناسبة اجتماع الوفد الجزائري بالشعب:

أيها الجزائري التاريخي القديم، المسلم الصميم، كلمته من كلمة الله، وإرادته من إرادة الله، وقوته من قوة الله، أو لست منذ شهر كونت مؤتمراً كما ينبغي أن يكون جلالاً وروعة، فذلك مجلى إرادتك ومظهر قوتك، وكونت هذا الوفد الكريم فحمّلته مطالبك، فاضطلع بها وأدى الأمانة في ثمانية أيام، وهي لا تؤدى إلا في إضعاف ذلك من الأيام، وفدٌ . لعمرالله . مثلك في قوتك وإرادتك وحياتك وكرمك، وفد متحد متعاون متساند، زار الوزارات والأحزاب وأرباب الصحف، فعرفك إليها ورفع إليها صوتك. ولقد كدت تكون أيها الشعب مجهولاً عندهم تمام الجهل، لكن بأعمالك العظيمة وبما قام به الوفد ؛ صرت معلوماً لدى من يعرف الحق ويحترم الكريم وينصف المظلوم.

أيها الشعب، إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية وهائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها؟.

إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا، وفتحنا قلوبنا، فإن مدت إلينا يدها وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد، وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه فإننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها إلى الأبد.

أيها الشعب، لقد عملت وأنت في أول عملك فاعمل ودم على العمل وحافظ على النظام، واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو الا خطوة ووثبة ووراءه خطوات ووثبات. وبعدها إما الحياة وإما الممات[2].

(1) المصدر نفسه (1 / 258).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 332).

### 15 . مشاهدات وملاحظات ابن باديس مع الوفد فقد قال:

**. تمهيد:**

لقد كان مقرراً أن يزور الوفد تلمسان وقسنطينة بعد اجتماع الجزائر الذي وقع في 14 جمادى الثانية أوت ليطلع الأمّة على أعماله واماله، وكان مقرراً أن يكون السفر لتلمسان مساء ذلك اليوم. ولكن مكيدة قتل ابن كحُّول المشؤومة حالت دون ذلك، وما ينبغي . في نظرنا . أن تحول. ويا ليتها أدت إلى التأخير فقط، ولكنها كانت تكاة لمن لم تكن له رغبة في تلك الزيارة في الترك والإبطال. ولهذا رأينا أن نطلع قراءنا على شيء مما بقي بأذهاننا مما شاهدنا ولاحظنا، وشيء في الجملة خير من لا شيء[1].

**. على ظهر الباخرة:**

كان أعضاء الوفد . من النواب والعلماء والشبان . كأسرة واحدة في الأنس والعطف والاتحاد، وكانت أوقات ينفرد فيها الشيوخ الثلاثة فهي التي أتحدث عنها لما فيها من أدب خاص.

**. الأستاذ العقبي:**

يعرف الناس العقبي واعظاً مرشداً يلين القلوب القاسية، ويهدم البدع والضلالات العاتية بقوة بيانه وشدة عارضته، ولكن العقبي الشاعر لا يعرفه كثير من الناس. فلما ترنحت السفينة على الأمواج وهب النسيم العليل ؛ هب العقبي الشاعر من رقدته، وأخذ يشنف أسماعنا بأشعاره، ويطربنا بنغمته الحجازية مرة والنجدية أخرى.

ويرتجل البيتين والثلاثة والأربعة في المناسبات . وهاج بالرجل شوقه إلى الحجاز، فلو ملك قيادة الباخرة لما سار بها إلا إلى جدة دون تعريج على مرساي، وإن رجلاً يحمل ذلك الشوق كله للحجاز ثم يكبته ويصبر على بلاء الجزائر وويلاتها ومظالمها ؛ لرجل ضحى في سبيل الجزائر تضحية أي تضحية.

(1) المصدر نفسه (3 / 333).

**ـ الأستاذ الإبراهيمي:**

وبينما كان حكيمنا الإبراهيمي يساجل الأستاذ العقبي ذكرياتهما بالحجاز وأيامهما بطيبة الطيبة، ويفيض في الحديث عن أيامه هو بالشام وتعليمه بالمدرسة السلطانية بدمشق ويحدث عن رفاقه وأصدقائه من أدباء الشام وشعرائها وعلمائها ورجالها ـ الذين لا تخلو الجرائد اليوم من ذكرهم ـ إذا به ينتقل بنا فجأة إلى الأندلس. وعجبنا بادأئ بدء لتلك القفزة من الأستاذ حتى ذكرنا ما بين الشام والأندلس من علاقات في فتحها وانتقال الخلافة الأموية إليها فقلنا إن الأستاذ قد عوضه الله من القوة في عقله ما ضاع عليه في رِجله وكدنا نغبطه على عَرَجِهِ. وهاجت الذكرى الأندلسية بصاحبنا الإبراهيمي وأخذ في الحديث عليها وعلى وطنينا المقري مؤرخها حتى كاد ينثر علينا «نفح الطيب» من حفظه، وعلمنا أننا سنرى أنوار الأندلس بعد الغروب وبدت لنا بعد صلاة المغرب فطار لب صاحبنا وأخذ يهلل ويكبر ويحوقل ويسترجع.

وسبقته إلىقول الشاعر:

كبّرت نحو ديارهم لما بدت          منها الشموس وليس فيها المشرق

فكاد يجنّ جنونه، وأخذ يحدث عن شموس العلم التي بدت من ذلك الأفق، وعن الثائر ابن غانية وما يتصل به، وقضيناها سهرة أمام تلك الأنوار، وأين منها عندنا «نار غالب» أو «نار الملحق»[1].

**الأستاذ عبد الحميد بن باديس:**

هذه هي المرة الأولى والأخيرة أعبر فيها عن نفسي كما عبرت عن رفيقي «الأستاذ»، فإن ما كنا نشعر به من الاتحاد الروحي كرّه إليَّ أن أعبر عن نفسي بغير ما عبرت به عنهما وأنا في قرارة نفسي أبغض التواضع المصنوع، كما أبغض الادعاء الكاذب فلا أعرفه من نفسي ولامرة واحدة، وأما التواضع المصنوع فمما تنقضي به العادة ويحتمه أصل التربية، وقد خرجت عنهما هذه المرة امتثالاً للطبع ولن أعود.

(1) المصدر نفسه (3 / 335).

لقد كنت مأخوذاً بأدب الرفيقين ولطفهما، وكنت أختم إنشادات العقبي بالاهات والأنات، وتارة بالهزات والوقفات، وكنت أساوق الإبراهيمي الحافظة فيما ينشد من «نفح الطيب» وقد طال عهدي به. ولم تفارقني مهنة المعلم فكنت أجدني عن غير قصد أقرر نكتة في بيت من الشعر أو عبرة في حادثة من التاريخ، فيوافق الرفيقان وقد يخالفان. وكنت بحكم مهنتي أيضاً، أفكر في تلامذتي وإعدادهم لمثل مقام هذين العالمين الأديبين العظيمين، فلن يحفظ الإسلام والعربية في الجزائر إلا بأمثالهما فينبعث في عزم على الجد والاجتهاد في التعليم كل ما بقي من حياتي حتى آخر ومضة من الروح واخر قطرة من الدم. ويمر بذهني خاطر مزعج يكدر عليَّ ذلك الصفو ويكاد يضعف ذلك الأمل. أتدري ما هو الخاطر: هو «صندوق الطلبة» الفارغ المدين، ولكنني سرعان ما أزيله بكلمتي التي ألهمت إلى قولها منذ نحو ربع قرن: «نحن على الفيض الرباني» ولن نزال عليه إن شاء الله.

**ـ المقابلات الرسمية:**

استقبلت الوزارات المقصودة كلها الوفد كله، فكان رئيس الوفد الدكتور ابن جلول يقدم الوفد للوزير واحداً واحداً، ثم يلقي كلمات في التعريف بالوفد ومقاصده وما يناسب مقام زيارة الوزير، ثم يتكلم الوزير بما يدل على الترحيب وحسن القبول، ثم يتلو الكاتب العام للجنة المؤتمر الأستاذ ابن الحاج مطالب الوفد، وهي التي قررها المؤتمر ويشرحها مطلباً مطلباً شرحاً وافياً، ثم يجيب الوزير أهم تلك المطالب ويناقش في بعضها ثم تكون كلمات من بعض الأعضاء في أثناء الحوار.

هذه هي الصورة الإجمالية العامة لجميع المقابلات على ما يختلف من التفصيل في كل وزارة بما يناسبها(1).

(1) المصدر نفسه (3/ 336).

**ـ عند م. فيوليط:**

هو أول من زارنا، ولما أجاب عن المطالب قال: قد أكون نسيت شيئاً. فذكّره الأستاذ العمودي بمطلب حرية التعليم العربي. فأخذ في مدح العربية وأنها لغة تاريخية ولغة علم، فمن المحال أن أحداً يبغضها أو يقاومها فقلت له: لكن مع الأسف أن اللغة العربية محارَبة بالفعل من الإدارة الجزائرية وأن المسلمين يشعرون من أجل ذلك بألم شديد.

ونبهت بعض الإخوان إلى أن م فيوليط لما كان يتكلم على المطالب كان يتكلم بفصاحة واسترسال، فلما أخذ في الكلام على العربية لم يكن كما كان. فوافقوني على ذلك وقد كانوا تنبهوا له مثلي. صحيح أن م. فيوليط يحب الخير للمسلمين، ولكنه لا يحب لهم ما يعرقلهم عن الاندماج التدريجي، وليس كل ما يحبه لنا أحد عن حسن نية هو مما نحبه نحن لأنفسنا.

وقابلنا م. فيوليط مرة ثانية ـ الشيوخ الثلاثة والدكتور ابن جلول والأستاذ القلعي ـ فوضَّحنا له مطالب المؤتمر في الحرية الدينية وحرية التعليم بالمساجد لكل عالم مسلم، وتأسيس جمعيات دينية في كل ناحية باختيار أهلها، وذكر له الأستاذ الإبراهيمي الظلم الواقع من الإدارة الجزائرية في هذه الناحية من حياة المسلمين، الظلم الذي لم يبق فيه من خفاء كما لم يبق عليه من صبر. فوعد بأنه سينظر المسألة مع رئيس الوزراء.

**ـ عند وزير الداخلية:**

ولم تمكن مقابلة نفس الوزير ـ لتنقلاته في البلدان بسبب الاعتصابات ـ فقابلنا الكاتب العام للوزارة م أوبو وهو رجل راديكالي صميم، وممن كلمه الأستاذ العقبي فقال له: نريد أن نعامَل في الجزائر بما يعامَل به غيرنا من سكانها من الطليان والإسبان فإننا نعامل بها أدنى من كل جنس. فوعد الوزير بالنظر في الحالة وأنه سيقدم هو إلى الجزائر بنفسه[1].

---

(1) المصدر نفسه (3 / 337).

**. عند وزير الحربية:**

م دالاديه راديكالي من يمين الراديكال، وقد صارحنا بأنه لا يمكن أن يوافق على إعطاء النيابة بالبرلمان ما دمنا محافظين على الشريعة الإسلامية في حقوقنا الشخصية. وصرح بأنه يكون مع المعارضين إذا عرضت المسألة في البرلمان. والذين يعرفون م دالاديه لا يستغربون منه ؛ لأن هذا هو رأي الراديكاليين إلا القليل، فلو عرضت مسألة النيابة في البرلمان ولقيها م دالاديه وأكثرية حزبه بمالعارضة مع من يعارضها من أحزاب غير الجبهة الشعبية لقضي عليها بالفشل قطعاً.

**. عند رئيس الوزراء:**

لطف وبشاشة وجاذبية: هذه الصفات التي يمتاز بها ـ مجموعة ـ م بلوم على كل من لقيناه من رجال الحكومة الفرنسية. بعد خطاب رئيس الوفد وشرح الكاتب لمطالب المؤتمر تكلم كبير الوزراء وافتتح كلامه بقوله: «إنني مسرور بزيارة مسلمين ليهودي وديمقراطيين لديمقراطي وفرانسويين لفرنسوي»، وبهذه الروح ألقى جميع خطابه[1].

**.كلمة لكبير الوزراء:**

قدمت قبل اليوم مطالب الأُمَّة الجزائرية مرات عديدة بطرق متعددة، وكانت تقابل بقبولها للنظر فيها، وبالوعد بانجاز بعضها، ثم لا يكون بعد ذلك شيء من الوفاء من الواعدين، ولا شيء من الاستياء من الموعودين.

غير أن هذه المرة لم تكن كتلك المرات في جميع ما يحيط بها، وبالطبع لن تكون مثلها فيما ينشأ عنها من نفع عند الوفاء أو ضرر عند الإخلاف.

فأحببت أن أصارح كبير الوزراء بالعاقبة السيئة التي تكون لخيبة الأمة الجزائرية في مطالبها هذه المرة إذا خابت، فقلت له ـ بحضور الوفد كله والمترجم رئيس الوفد ـ: «الأُمَّة الجزائرية المتألمة ليس ألمها ضد جنس ولا

(1) المصدر نفسه (3 / 338).

ضد دين ولا ضد فرنسا، وإنما ألمها ضد الظلم، ولهذا لما جاءت الحكومة الشعبية وتوسمت فيها الحرية والعدالة أعطتها كل ثقتها، وأعلنت سرورها بها، وأرسلت هذا الوفد. فإذا رجعنا إليها ببعض مطالبها زادت ثقتها، وإذا رجعنا بأيدينا فارغة انعكس ذلك الفرح وحصل عن انعكاسه ضرر عظيم يستغله أضدادنا وأضدادكم» فأجابني . باندهاش .: «كيف ترجعون بأيديكم فارغة وأنا أشتغل وحبيبي فيوليط من الان في مطالبكم»، فقال م فيوليط: «قبل الأحد ينجز العمل»، وقد كنا لخصنا من المطالب بعضاً منها لينجز ونرجع به في أيدينا وهو الذي دار عليه هذا الحديث. ولكن بعد هذا كله ها نحن قد رجعنا بأيدينا فارغة وما زالت فارغة إلى الان. نعم فيها وعود وفيها امال، وسنصبر هذه العطلة الصيفية على كل حال.

**. مقابلات الأحزاب الشعبية:**

أكبر الأحزاب الشعبية التي تتألف منها الجبهة الشعبية هي الحزب الاشتراكي والحزب الراديكالي والحزب الشيوعي. وقد زار الوفد الأحزاب الثلاثة كلاً في قسمه الخاص به من دار البرلمان، فأما الاشتراكيون والشيوعيون فقد كانوا موافقين على مطالب المؤتمر كلها، وأما الراديكاليون فكان منهم الوفاق على جملة المطالب لا على تفصيلها، وظهر منهم احتراز وتريث، وأشاروا إلى إرسال لجنة برلمانية لبحث الحالة وهذا هو الذي قررته الحكومة بعد كما هو معلوم(1).

**. مقابلة الصحافة:**

عيَّن رئيس الوفد وقتاً لمكاتبي الصحافة الباريسية في قاعة النزل الذي كان به الوفد، فاستقبلهم الوفد فيها في الوقت المعين وبين لهم المطالب، وقد كتبت الصحافة بعد كل بحسب مشربه، ولكن الأمر الذي كان حاصلاً ولا محالة هو لفتها الرأي العام الفرنسي للمسألة الجزائرية الإسلامية لفتاً جدياً لم يكن قد حصل على هذا الوجه من قبل.

(1) المصدر نفسه (3 / 339).

**النتيجة المحققة:**

أدى الوفد مطالب مؤتمر الأمَّة الجزائرية المسلمة بصدق وأمانة وشرف.

عرفت فرنسا حكومتها وأحزابها وصحافتها أن وراء البحر أمَّة جزائرية إسلامية، تطالب فرنسا بحقوقها وتحافظ تمام المحافظة على شخصيتها ومقومات شخصيتها.

وهذان الأمران . وما حصلا قبل يوم . لهما قيمتهما في حياة الجزائر وبناء مستقبلها. والأخير منهما هو الأساس الذي يجب أن يبنى عليه كل عمل للجزائر، والنهج الذي يجب أن يسير فيه كل من يتولى قيادة ناحية من نواحي سيرها في الحياة. وكل من حاد عنه قولاً أو عملاً فإنه يعد خائناً للأمَّة ويجب أن يعامل بما يستحقه الخائنون.

وقد رأينا اقتناعاً به ممن لم يكن منه من قبل على يقين، وسمعنا اعترافاً به ممن كان قيل فيه من المتشككين. وإذا كنا نسمع أحياناً نعقات بما يخالفه فهي من شذاذ لا تخلو منهم أمَّة، ولا يزيدهم ذلك إلا بعداً عن الأمَّة وإسراعاً في دركات السقوط إلى هاوية المقت وقرارة النسيان[1].

**. العودة إلى الوطن:**

رجعنا وأكثر الرفاق يظن أن المطالب المستعجلة إذا لم تكن صاحبتنا فإنها لا تتأخر عنا بأكثر من أسبوع، وإذا تقاعست وتباطأت فلا أكثر من شهر. أما أنا فلم أكن مع الأسف على هذا القدر من الرجاء. فالجبهة الشعبية تعتمد في بقائها على الراديكاليين، وهؤلاء ما يزال فيهم من عرفنا سياستهم الاستعمارية في العهد القديم وهم ما يزالون عليها في العهد الجديد. وقد سمعت منهم حديث لجنة البحث فحق لدي ما ظننته فيهم وتوقعته منهم، فكنت أعتقد أن المطالب ستتأخر وأن هذا الصيف لا يكون فيه شيء، ولكن لا بد من التمسك بحبل الرجاء إلى حين. وقد صدق ظننا وها أن الصيف قد مضى، وها أن لجنة البحث قد تعينت وها نحن من المنتظرين.

(1) المصدر نفسه (3 / 340).

واليوم...

إذا أنت لم تنصف أخـــاك وجـــــدته	على طرف الهجـــران إن كـــان يعقل

ويركب حد السيــف من أن تضـــيمه	إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل[1]

ومما حدث في تلك الزيارة: اشتد النقاش مرة بين رجال الوفد وبين رئيس الحكومة إلى درجة أنه احتد وجابه الوفد بقوله:

لا تنسوا أيها السادة أن فرنسا معها المدافع. فوجم القوم، إلا ابن باديس الذي ما كاد يسمع ذلك القول بواسطة الترجمان ؛ حتى جابه رئيس الحكومة بمثل حدته:

وأنت لا تنس أيها السيد الرئيس أن الجزائر معها الله.

وانتقل الوجوم من الوفد إلى الرئيس[2]. وكأن القدر قد تكلم ساعتئذ بلسان فصيح وكان المصير قد تقرر تلك الساعة، فرنسا معها المدفع والجزائر معها الله، واستمر اغترار فرنسا بالمدافع واستمرَّ الجزائريون بعون الله، وتغيرت الأحوال وتقلَّبت السياسة إلى أن نفخ نوفمبر المجيد، واقتحموا الميادين باسم الله وقابلتهم فرنسا الاستعمارية بالمدافع فما أغنى عنها ذلك شيئاً[3].

ومما قاله الشاعر محمد العيد ال خليفة في المؤتمر الإسلامي:

شَهِدتُ اليوم مؤتمراً عظيماً	أغرَّ لمثله يجب الشهـــود

به تُبنى الجزائر من جـــديد	وتُستحيا المآثُر والجـــــدود

وتقتحم السُّدودَ إلى حقوق	حرمناها وإن علت السُّدود

بلغنا رُشْدَنا يا كون فاشهد	وأدْركا فاذعن يا وجـــود[4]

(1) المصدر نفسه (3 / 341).

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 159.

(3) المصدر نفسه ص 159.

(4) البنى الأسلوبية في شعر محمد العيد ال خليفة، د. نصر الدين زروق ص 26.

## 16. دعوة وبيان إلى عموم الشعب المسلم الجزائري الكريم من ابن باديس:

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعلم ما تجتازه الأمة اليوم في طريق نهضتها من وقت حرج، ومصاعب جمة، وما يحف بها من أخطار، وما ينصب لها من عراقيل، وما يتجاذبها من عوامل التفريق من الخارج ومن الداخل، وأن الجمعية التي بثت روح النهضة في الأمة بما دعت إليه من الرجوع إلى الكتاب والسنة والمحافظة على الجنس واللغة، والاعتزاز بالإسلام والعروبة حتى عرفت الأمة نفسها، ووجهت للحياة السعيدة رغبتها، ووجد السبيل إلى مخاطبتها وتفهيمها من أراد . بحق أو بباطل . قيادتها أن الجمعية التي بثت هذه النهضة هي حارستها في جميع أطوارها والمدافعة عنها بكل ما لديها، والصابرة على البلاء من القريب والبعيد في سبيلها.

إن أعداء الأمة الذين تمثلهم الجرائد الاستعمارية الكبرى هنا وهنالك ويصدع بأمرهم كراسي متنوعة، ما فتئوا يوالون ضرباتهم، ويعيدون هجماتهم على الجمعية، لأنهم يرون فيها حياة الأمة ويشاهدون فيها السد الحصين دون ما يرغبون من ذوبان الأمة وانحلالها، لإفنائها وابتلائها وتنقصها من أطرافها. فكل ما تجتازه الأمة اليوم وما تعانيه وما تلاقيه ؛ هو ما تجتازه الجمعية وما تعانيه وما تلاقيه على أبلغه وأشده، لأن الجمعية هي الأمة، والأمة هي الجمعية.

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .كالمسلمين الجزائريين . جبلت على النضال والمقاومة والصبر والمصابرة وقد صبرت لغشم الحكومة وأذنابها وكيد الاستعمار وجرائده، ولن تزال ثم لن تزال.

ولقد ولدت الأيام الجارية والظروف الحاضرة مقاومين جدداً ينطحون صخرتها برؤوسهم الحاسرة، وينحتون أثلتها بأظافرهم المتاكلة، ويضربون على نغمات من تقدمهم من أعداء الأمة والجمعية، ويخدمون عن علم أو غير علم، مقاصد من يحاربون في الجمعية روح الإسلام والعروبة،فهنالك في عمالة قسنطينة وهنا بعمالة

الجزائر من يعملون لرفع أنفسهم بالحط من الجمعية، ويمِّوهون على الأمة بما يقولونه عليها وعلى رجالها، فمرة يربطون الجمعية بحزب من الأحزاب الأجنبية، والجمعية لا تنتمي لحزب ولا تعادي حزباً إلا من حارب الإسلام والعروبة، فإنها تكون عليه ـ كائناً من كان ـ بلاء وحرباً، ومرة يصمونها بالتدخل في السياسة، والجمعية ما تدخلت في سياسة الكراسي والنيابات والمكاتب والممرات.. وإنما وقفت الجمعية في مؤتمر الأمة تضع مطالب الدين واللغة وشروط المحافظة على الجنسية والشخصية. ومثلت ذلك كله بلسانها وهيئتها أصدق تمثيل.

يا هؤلاء... إن الجمعية ليست عاجزة عن مقاومتكم وإظهار خطئكم وكشف باطلكم. ولكنها تعلم ما تحتاج إليه الأمة اليوم من اجتماع الكلمة وعدم الفرقة وتوحيد الصفوف، فلهذا تركتكم وتترككم راجية لكم أن تدركوا حقيقة الموقف فتعملوا بما يقتضيه.

**أيها الشعب الجزائري الكريم:**

قد بينت لك جمعيتك حقيقة الموقف وحرجه، وكشفت لك شيئاً مما تعانيه أنت وتعانيه هي من الأقرباء والبعداء وهي تدعوك إلى التبصر والتثبت والاتحاد والتجمع والتنبه والتيقظ، وتحثك على الاعتماد على الله وحده، ثم على نفسك والصادقين من أبنائك، وما الصادقون إلا الذين يحافظون بأقوالهم وأعمالهم ومواقفهم على إسلامك وعروبتك وجميع مقوماتك، يناضلون بالنفس والنفيس عن جميع حقوقك، وهم فيك اليوم إن شاء الله كثيرون وسيكونون أكثر والله أكبر.

الجزائر 5 جمادي الثانية 1356هـ

عن الجمعية الرئيس

عبد الحميد بن باديس[1]

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 361).

## 17 . نداء إلى رئيس المؤتمر الإسلامي الجزائري وإلى اللجنة التنفيذية:

لقد علمت أن الحكومة الفرنسية لم تجب أي مطلب من مطالب المؤتمر ؛ رغم وعد رئيس الوزارة يوم زاره الوفد بتنجيز بعضها المستعجل على رجاء أن تكون مطالب المؤتمر من أول ما ينظر فيه.

غير أنه قد حدث اليوم ما دل على أن مطالب المؤتمر غير ملتفت إليها ولا منظور فيها، وذلك بما قررته الحكومة من تكليف اللجنة البرلمانية التي يرأسها فرنيت ببحث جديد لا ينتهي إلا بعد ثمانية عشر شهراً، وبعد ذلك تأتي الوفود للبحث والسؤال المدقق.

فزيادة على ما في هذا من التسويف والمماطلة، فإنه دليل قطعي على أن مطالب المؤتمر لا عبرة بها، وهذا يوجب على اللجنة التنفيذية أن تجتمع لتقرر قرارها الصريح الحازم، وتقف موقفاً جدياً إزاء هذا الحادث الجديد، ثم يكون من واجبها أن تدعو إلى عقد مؤتمر عام فوق العادة ليقرر قراراً إجماعياً من طلبات لا يخالف فيها أحد، ويقرر قراراً إجماعياً في الموقف الذي تقفه الأمة الجزائرية إذا لم تُجَب إلى تلك المطالب في أجل محدود.

وعليه فإني «كمسلم جزائري» أطلب من سيادة الرئيس أن يأمر اللجنة التنفيذية للمؤتمر بأن تجتمع في الخامس عشر من أوت الجاري.

هذا وأنا الان قد أديت أول واجب من واجباتي في الوقت الحاضر بهذا النداء. والله المستعان على إتمام الواجبات الأخرى[1].

عبد الحميد بن باديس

## 18 . هل آن أوان اليأس من فرنسا؟

إن الذين كانوا معنا يوم قابلنا رئيس الوزارة م بلوم باسم المؤتمر في جوليت من السنة الماضية، يعلمون تصريحه بأننا لا نرجع بأيدينا فارغة وأنه سيشرع في الحين القريب في تحضير مطالبنا المستعجلة، ويعلمون قول م

(1) المصدر نفسه (3 / 363).

فيوليط وهو بجنبه: ستحضر قبل يوم الأحد، ورجال ذلك الوفد يعلمون أنهم رجعوا بأيديهم فارغة. ولم يصدق لا الرئيس ولا الوزير. وقراء «الشهاب» لا ينسون ما كتبه «الشهاب» عن هذا الإخلاف وعن الوفد في عدد رجب وأكتوبر من السنة الماضية، والذين حضروا المؤتمر الثاني هذه السنة يعلمون ما نبهتهم عليه من أن فرنسا لم تجب أي مطلب من مطالب المؤتمر، والناس كلهم اليوم يعلمون ما نشرته الصحافة الفرنسية ـ رسمياً ـ عن لجنة الثمانية عشر شهراً التي يرأسها م قرنوت وم ستيق وأنها بعد الثمانية عشر شهراً توفد وفوداً تسأل أسئلة مدققة؟ فماذا فهم الناس من هذا كله؟

أما الذين ينظرون إلينا من الخارج نظر الحاكم على الأمم بما يبدو من أعمالها وسيرها فإنهم يقولون: إن فرنسا تَعِد وتُخْلِف لأنها رأت مصلحتها في الإخلاف، ولا يرجى منها إقلاع عنه مادامت تعتقد مصلحتها فيه، والجزائر تنخدع وتطمع ويمكن أن يطول انخداعها ويستمر طمعها، ويمكن أن ينجلي لها سراب الغرور فتقلع عن الانخداع وتقطع حبل الطمع، وتتصل باليأس وما يثمره اليأس ويقتضيه.

وأما نحن ـ الجزائريين ـ فإننا نعلم من أنفسنا أننا أدركنا هذا الإخلاف العرقوبي، وأدركنا مغزاه، وأخذ اليأس بتلابيب كثير منا وهو يكاد يعم، ولا تردد في أنه قد ان أوانه ودقت ساعته.

ماذا تريد فرنسا من مماطلتنا؟

لقد أعلن شاعرنا القومي جواب هذا السؤال في قصيدته التي نشرناها في الجزء الماضي حيث قال

ولعلّ من نظم السياسةأن نغــشّ وأن نغـرّ

ولعلّ منهـــا أن يُدَسّ لنـــا ونجذب للحفـر

ولعلّ منهـــا أن يُبَسّ لنـــا لنحلب كالبقـــر

ولعلّ منهـــا أن نماطل كي يســـاورنا الضجر

كذب رأي السياسة وساء فألها، كلا والله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر الذي يقعدنا عن العمل، وإنما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة.

أيها الشعب الجزائري! أيها الشعب المسلم! أيها الشعب العربي الأبي! حذار من الذين يمنونك ويخدعونك، حذار من الذين ينومونك ويخدرونك، حذار من الذين يأتونك بوحي من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك وقوميتك، ومن غير دينك وملتك وأبطال دينك وملتك.

استوح الإسلام ثم استوح تاريخك ثم استوح قلبك.

اعتمد على الله ثم على نفسك، وسلام الله عليك[1].

عبد الحميد بن باديس

## 19. نداء إلى الأمة الجزائرية ونوابها:

أيتها الأمة الكريمة. أيها النواب الكرام.

اليوم وقد أيسنا من غيرنا، يجب أن نثق بأنفسنا.

اليوم وقد تجوهلت قيمتنا، يجب أن نعرف نحن قيمتنا.

اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا، يجب أن نقول نحن كلمتنا.

اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا، يجب أن تتحد صفوفنا.

أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام!

بمحضر الوفد كله في وزارة الحربية من السنة الماضية. قال لنا دالادية وزير الحربية، رئيس الحزب الجمهوري الراديكالي والراديكالي سوسياليست:أقول لكم بكل صراحة «إني أعارض كل المعارضة في إعطائكم النيابة البرلمانية ما دمتم على حالتكم الشخصية الإسلامية». من ذلك الحين تحققتُ أن هذه النيابة البرلمانية ميؤوس منها، وقد أشرت إلى هذا فيما كتبته عن الوفد بعد رجوعنا في مجلة «الشهاب». وها هي الأيام جاءت محققة ذلك اليأس. وها هي الجزائر اليوم تنشد بلسان حالها قول الشاعر العربي:

أَزْمَعْتُ يَأساً مُبِيناً مِنْ نَوَالِكُمُ وَلَنْ تَرَى طَارِداً لِلْحُرِّ كَالْيَاْسِ

(1) المصدر نفسه (3 / 365).

**أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام!**

حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى أو ترى أكثريتها ذلك كثيراً عليها.. ويُسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا. لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها، ولنتمسكْ ـ عن إيمان وأمل ـ بشخصيتنا، ولنطالبْ بالمساواة التامة في جميع الحقوق في وطننا، وأولها المساواة في المجالس النيابية.

**أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام!**

قرِّروا يوم 29 أوت وبعد قرار المؤتمر وجمعيات النواب عدم التعاون في النيابة بجميع أنواعها. قرِّروا أن لا تعودوا بدون مساواة إليها. قرِّروا أنه يجب أن يكون كل مسلم جزائري بلغ سن الانتخاب منتخباً وأن يكون عدد نواب المسلمين الجزائريين في كل مجلس مثل عدد الفرنسيين. كونوا جبهة متحدة لا تكون المفاهمة إلا معها على هذا الأصل.

**أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام!**

تناسوا الحزازات، امحقوا الشخصيات، برهنوا للعالم أنكم أمة تستحق الحياة، برهنوا لفرنسا أنكم وقفتم معها في الحرب صفاً واحداً تدافعون عنها، تقفون في السلم صفاً واحداً تدافعون الأنانيين منها الذين هم مثل أعدائها.

هذا وأنا كمسلم جزائري قد أديت الواجب الثاني من واجباتي في الوقت الحاضر والله المستعان على القيام ببقيتها. وعليكم السلام ورحمة الله من أخيكم[1].

عبد الحميد بن باديس

## 20 ـ صدى منشور ابن باديس على الأمة والنواب في صحف الاستعمار:

دُعي إلى تسليم النواب ووقع بالفعل في كثير منهم في عمالة قسنطينة، ولم تهتز لذلك صحف الاستعمار

(1) المصدر نفسه (3 / 372).

ودوائره. فلما نشر صاحب هذه المجلة منشوره على الأمة ونوابها في الدعوة إلى التعليم والاتحاد والوقوف الموقف الهائل المشرف، قامت القيامة في الدوائر، وظهر ذلك في جريدة «لابريس» التي تصدر بالعاصمة، وجريدة «الريبوبليكان» التي تصدر بقسنطينة.

ولما كانت الثانية أصرح بالعداء من الأولى خصصنا بالكتاب التالي:

قسنطينة في 8 رجب 1356هـ / 14 سبتمبر 1937م

جناب السيد محرر جريدة «الريبوبلكان» المحترم.

قرأت في عدد 2 سبتمبر الجاري من جريدتكم منشوري على الأمة ونوابها، فشكرت لكم نقله في جريدتكم ليطلع عليه قسم كبير من الرأي العام الفرنسي خصوصاً القسم الذي تمثله جريدتكم.

ولم يسؤني ما علقتم به عليه من عبارات الحقد والتحريش، لأن ذلك دليل حصول ما قصدته من تأثير الحق والصدق ممن لم يتعودوا سماعه من المسلمين الجزائريين أمثالكم.

ولا ألومكم على ذلك ما دمتم ترونه إخلاصاً لأمتكم ووطنكم كما كنت أنا مخلصاً في منشوري لأمتي ووطني.

وإنما أريد أن أحقق لكم أن تحريشكم لا يخيف صغاراً من تلامذتنا، فمن باب أحرى وأولى أن لا يكون له أدنى تأثير على كبارنا في السير على خطتنا إلى غايتنا.

ومما يؤسف له من أمثالكم ؛ أنكم لا تدركون تطورات الأمم وتقلبات الأيام، وتفكرون فينا ـ في القرن العشرين ـ بأفكار القرون الوسطى.

إن الزمان ـ يا زميلي ـ يسير ولا يقف، وسنن الكون نافذة لا تتخلف والويل لمن قعد أو تعامى.

تقبلوا ـ سيدي ـ احترام زميلكم صاحب مجلة الشهاب(1).

عبد الحميد بن باديس

(1) المصدر نفسه (3 / 374).

## 21. نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين «المقاطعة»:

**إخواني القسنطينيين:**

في مثل هذه الأيام منذ قرن مات أجدادكم المجاهدون المدافعون والفرنسيون المهاجرون في ميدان البطولة والشرف، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة والتضحية للغالب والمغلوب.

ومضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة، وضمد تلك الجروح، وتقريب السكان المتجاورين بعضهم من بعض.

لكن قوماً من الأنانيين الذين يأبون إلا أن يكونوا سادة متفوقين، وإلا أن يُشعروا المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين، هؤلاء القوم ـ وليسوا كل الفرنسيين ـ أرادوا في هذه الأيام أن يقيموا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة، تثير العواطف، وتمس كرامة الأحياء منا والأموات وتنافي مبادئ الأخوة والرحمة التي ندعو إليها.

يحتفلون احتفالاتهم ومطالب الشعب الجزائري بعرقلتهم معطلة، وحقوقه بسعيهم مهملة، وسوط القوانين الاستثنائية نازل بيدهم على ظهره في كل يوم.

لهذا فقد اجتمعت 14 جمعية إسلامية من جمعيات قسنطينة يوم السبت 18 سبتمبر الماضي في نادي الاتحاد، وكانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها، فقررت ـ بالإجماع ـ ما يلي:

نحن ـ الممثلين لجمعيتنا ـ نرى احتراماً لأنفسنا واحتراماً لأجدادنا واحتراماً للإنسانية:

**أولاً**: أن لا نشارك في هذه الاحتفالات ولا نحضرها.

**ثانياً**: أن نكون في هدوء تام عام.

**إخواني القسنطينيين!**

قد فعل المؤتمر الإسلامي الجزائري واجبه، فاحتج على هذه الاحتفالات في اجتماعه العام الأخير، وقدم مكتبه ذلك الاحتجاج إلى الوالي العام وقدمه مكتب لجنة القسنطينية إلى مير قسنطينة، وفعلت الجمعيات

الإسلامية القسنطينية واجبها بما قررته في قرارها المتقدم. وأخوكم هذا ـ كقسنطيني ـ فعل واجبه بنشر هذا المنشور عليكم، فما بقي إلا أن تقوموا أنتم بواجبكم.

فقاطعوا هذه الاحتفالات ولا تشاركوا فيها.

كونوا في هدوء وسلام

والسلام عليكم من أخيكم[1].

عبد الحميد بن باديس

**الحادي عشر: الفكر التحرري عند ابن باديس:**

اهتم ابن باديس بمسألة الحرية، واعتبرها طبيعة في الوجود، وحقاً شرعياً لكل إنسان، والإنسان هو إنسان مادام يتمتع بالحرية[2].

واحتفل ابن باديس بعيد الحرية للتعبير عن شوقه إليها وتسجيل وقفة تأمل ورسم معالم جديدة لتحقيق مكاسب في طريق التحرر، فقال: إننا هنا نحتفل بالحرية ونفرح مع الأحرار، وإن لم نكن نلنا من تلك الحرية المحبوبة حظنا ؛ لأن الحرية والإنسانية محبوبتان ومقدستان لذاتهما، والمسجون الشريف يفرح بحرية الناس وإن كان سجيناً[3].

وقال عن الحرية التي هي من أقدس القيم وأغلى الأشياء التي يملكها الإنسان وما يتعلق بها وبمجدها، تحتفل بأعيادك الأمم وتنصب لتمجيدك التماثيل، وتتشادق بأمجادك الخطباء وتتغنى بمفاتنك الشعراء ويتفنن في مجاليك الكتّاب[4].

ويضحى كذلك من أجلها، ويتهالك من أجلك الأبطال، وتسفك في سبيلك الدماء، وتدك لسراحك

(1) المصدر نفسه (3 / 388).
(2) ابن باديس عيد الحرية الشهاب ج 10 1935 ص 547.
(3) البصائر في عيد الحرية العدد 123، 22 جويلية 1938م.
(4) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 119.

القلاع والمعاقل[1]، والحرية لا لون لها ولا جنس لها، إما أن تكون حرية للجميع أو لا تكون، فنحن ضد أضداد الحرية وأعداء الحرية، ونقاوم من يقاوم الحرية سواء كان من أهل البرانس أو من أهل البرانيط[2].

وقارن ابن باديس الحرية بالمساواة، فحين تطبق هذه القيمة على الجميع تسود الحرية لأنه حينئذ يتمتع كل فرد بحريته دون أن يضره غيره، لكن إذا غابت المساواة أو سادت المساواة العرجاء وقع الخلل، لأنها تعطي الحرية لمجموعة أخرى[3].

لهذا طالب ابن باديس السلطة الفرنسية لتصحح هذا الوضع، فقال: لو كنتم حقيقة تريدون المساواة فلماذا لم تسووا بيننا وبين اليهود تتركون لهم حرية دينهم؟ ولماذا لا تسووا بيننا وبين دعاة النصرانية الذين تؤيدونهم؟ بل لماذا لم تسووا بيننا وبين أعدائكم الطليان يتركون يؤسسون المؤسسات الضخمة لتعليم لغتهم مثل ما فعلوا في بجاية وسطيف، وتغلقون دار الحديث بتلمسان ومدرسة قلعة بني عباس[4].

وبعد شعوره بتعنت السلطة الفرنسية وفشل مهمته إلى فرنسا ؛ في وفد المؤتمر طرح ابن باديس معنى آخر للحرية ويتمثل في التخلص من القيود السياسية وتجاوزها لأنها ظالمة ومستبدة لا يجب الخضوع لها، والسكوت عنها، ويعتبر الالتزام بها عنوان مذلة وهوان، وفي هذه الحالة تتحول الحرية من وضعية أو حالة إلى فعل وعملية قد تكون كلمة تحرر أصدق تعبير عنها[5].

(1) البصائر العدد 175، جويلية 1939م ص 1.

(2) البصائر العدد 123، 22 جويلية 1938م ص 2.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 119.

(4) البصائر: المساواة العرجاء، ابن باديس عدد 177 ص 2.

(5) مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم ص 237.

وهذا ما تضمنته عدة مقالات له التي عبر من خلالها عن يأسه الكامل من فرنسا. وقال: لقد حان الوقت لنعتمد على الله وأنفسنا[1].

كما ثبت أنه جمع صفوة تلامذته وأصدقائه في عام 1939م ليتدبر معهم مسألة الخروج عن السلطة الاستعمارية الفرنسية وتحضير ثورة من أجل تحرير الشعب الجزائري، وعبّر عن هذه المعاني أيضاً نشيده الخالد:

| | |
|---|---|
| يا نشء أنت رجاؤنا | وبك الصباح قد اقترب |
| خذ للحياة سلاحها | وخض الخطوب ولا تهب |
| وارفـــع منـــار العـدل | والإحسان واصدم من غصب |
| وأذق نفوس الظالمين | السم يمزج بالرهب |
| واقلع جذور الخائنين | فمنهم كل العطب |
| واهزز نفوس الجامدين | فربما حيي الخشب[2] |

وهكذا تجد كلمات كالتضحية والثبات المغامرة وغيرها من الكلمات القوية التي تنطلق كالرصاص تتردد على لسانه وتتكرر على قلمه[3].

قال ابن باديس في هذا الشأن: وما أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام وما أنزل عليهم الكتب، وما شرع لهم الشرع ؛ إلا ليعرف بنو ادم كيف يحيون ينظمون تلك الحياة حتى لا يعتدي بعضهم على بعض، وحتى يستثمروا تلك الحياة إلى أقصى حدود الاستثمار النافع المحمود المفضي بهم إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة[4].

### 1 . التاريخ الإسلامي:

ويستلهم ابن باديس العبر والحلول من السيرة النبوية المطهرة، التي هي سجل الحرية، وكتاب مفتوح في الكفاح ضد الظلم والاستعباد. وسأذكر هنا نموذجاً من قراءته للسيرة النبوية من خلال درس له في جمعية التربية

---

(1) الشهاب مج 13 ج 6 أوت 1937م ص 272 . 273.

(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 121.

(3) المصدر نفسه ص 121.

(4) المصدر نفسه ص 122.

والتعليم بقسنطينة بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فقد ولد النبي (ص) في بلاد ضعيفة مظلومة، لتعلم الأمم أن الله يقدر أن يوجد من الضعيف قوة ومن المظلوم سيادة حتى يتبين أنه قادر جبار، وحتى لا ييأس الضعفاء المستعبدون ويَدَعوا الكفاح، ولئلا يغتر الأقوياء بقوتهم فيهلكوا[1].

وبيّن ابن باديس كيف تجسدت هذه المعاني في صدر الإسلام الأول بقيادة الرسول (ص) والخلفاء الراشدين والسلاطين المسلمين من بعدهم، ثم توجه إلى الشباب والطلبة الذين ينصتون إلى خطابه ليقول لهم: نخاطبكم أيها الشباب لنوجد من ضعفكم المادي قوة، ومن إيمانكم القوي نفوساً أبية لا تركن إلا إلى الحق، ولا تعبأ إلا بمن يعبأ بها، ولا تنصر إلا العاملين المخلصين، ولا تخذل إلا من خذلها ولو كان من أعز أبنائها[2].

واستنتج ابن باديس من قصة استجابة النبي (ص) لرأي الصحابي الحباب بن المنذر في غزوة بدر، في تغيير مكان نزول الجيش الإسلامي، وردم مجموعة الابار بالتراب حتى لا يستفيد من مائها جيش قريش، ليصف سيدنا محمداً (ص) أنه أعظم قائد يُلزم نفسه بالسماع إلى الاخر والاستفادة من رأيه المختلف، ودعوة الجميع لتجسيده على أرض الواقع، هذه هي الحرية في أبهى صورها تطبيقاً لما جاء به الإسلام من احترام حرية التفكير والتعبير[3].

واستنبط ابن باديس أيضاً من قصة زيد بن حارثة الذي رفض العودة إلى أسرته رغم إلحاحها ؛ إلى شعور زيد بكامل حقوقه وكرامته وهو يخدم النبي (ص)، الذي لم يعتبره يوماً عبداً بل فرداً من عائلته ومن أقرب الناس إليه حتى حسبوه ابنه، ونزلت في هذا الشأن آيات قرآنية من سورة الأحزاب[4].

وهكذا كان النبي (ص) حاملاً لقيم إنسانية، يخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، فهو قدوة في احترام

---

(1) الصائر، العدد 70، 4 جوان 1937م ص 5.

(2) المصدر نفسه.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 123.

(4) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 124.

الغير والتسامح مع الغير، ومثال في الوفاء للمبادئ التي لن تُسعَدَ الإنسانيةُ إلا بالتمسك بها[1].

## 2. بين حضارتين:

تحدث ابن باديس عن الحضارة الإسلامية مؤكداً على أن التاريخ لم يعرف فاتحاً أرحم ولا أعدل من المسلمين، فهم حرصوا على كرامة الإنسان، فتركوا له حرية اختيار الإسلام أو البقاء على دينه، وحرية الحفاظ على اللغة العربية أو لغته الأصلية، فلم تتعرض الشعوب التي وصل إليها الإسلام للإجبار، بينما تعرض المسلمون دائماً للاضطهاد بكل أنواعه. ويكفي هنا مثال محنة المسلمين في إسبانيا بعد سقوط الأندلس:

وفي السياق نفسه، دخل ابن باديس في سجال طويل مع مثقف فرنسي بيّن له ابن باديس أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة التي كرست حرية الإيمان والتدين، ولم تجبر من كان تحت حكمها بالتخلي عن ثقافته ولغته[2].

واستعان كذلك بأدبيات رواد النهضة في العالم الإسلامي، وكذلك إنتاج الأدباء والشعراء المعاصرين، فأعاد نشر مقالاتهم الصادرة في الصحف والمجلات ومقتطفات من كتبهم ومختارات من أقوالهم، كما وظف ابن باديس الفكر الغربي من أجل بناء تصوره عن الحرية، ورسم السبيل للوصول إليها، وإقناع السلطة الاستعمارية في حق الجزائريين في الحصول عليها منطلقاً من كتابات أوروبيين ومستشرقين، ومن أبرزها كتاب «الأبطال» لتوماس كارليل، و«حضارة العرب» لغوستاف لوبون.

وخلاصة القول أن التاريخ الإسلامي أو الغربي سجل نماذج رائعة في الصبر والتضحية في سبيل تحقيق الحرية أو الحفاظ عليها من كل الغاصبين، بهذه النبرة يوجه ابن باديس خطابه لكل من يعتقد ذلك، ويصر على الاضطهاد في الفكر والدين والسياسة[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 124.

(2) نشر ابن باديس 6 مقالات في مجلة الشهاب تحت عنوان الفكرة الإسلامية.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 125.

ويدعو هؤلاء إلى مراجعة التاريخ ليتيقنوا أن الأحرار هم المنتصرون دائماً مهما طال ليل الظلم وتأخرت شمس الصبح، راجعوا تاريخ الأديان وانظروا ماذا لقي أهلها من الاضطهاد، فهل قضي شيء من تلك الاضطهادات المتتابعة في الأزمنة أو في القرون المتتابعة على واحد من تلك الأديان؟

وهل كانت الاضطهادات . والتاريخ يشهد . إلا ريحاً لا تزداد بها شعلة الفكرة والعقيدة المقدسة إلا شبوباً واستنارة[1].

### 3 . التعددية:

كان ابن باديس يحترم التعددية ويقبل بحرية الاعتقاد، ولذلك قال: نحن كمسلمين لا يضيق صدرنا بأن نرى أهل كل دين يحتفلون بطقوس دينهم ويظهرون تمسكهم بعقيدتهم ويدعون إليه بكل وجه شريف نزيه، بل نريد أن يقع التفاهم بين أهل الملل على أصل التدين ليقع التعاون على نشر أصول الخير والإحسان التي تتفق عليها جميع الملل، وعلى مقاومة الشر والظلم والإلحاد المحرمة عند الجميع[2].

والإسلام لم يحرّم اللغات الأخرى، بل يحرص على تعددية اللسان، يقول ابن باديس: نؤمن بأن اللغات البشرية كلها محترمة وأنها من آيات الله من قول ربنا {وَمِنْ آياته خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ}

ومن هذا المنطلق: لم يعرف عن مملكة إسلامية مقاومة لغة من اللغات ولا معارضة أحد في طريق التعليم والتعلم.. وقد عاش أحبار الأمم ورهبانها وعلماؤها يعلّمون أممهم ما يشاؤون من ألسنتهم وعلومهم تحت ظل الممالك الإسلامية، ولا يلقون إلا التعظيم والاحترام الذي يستحقه المعلم في نظر الإسلام[3].

وكان ابن باديس يسعى إلى التقارب بين الديانات وحوار الثقافات وتعاون الأجناس امتثالاً لدينه الحنيف

(1) البصائر العدد 150، 27 جانفي 1939م ص 1.

(2) البصائر العدد 166، 19 ماي 1939م ص 1.

(3) البصائر العدد 115، 27 ماي 1938 ص 1.

فقد قال: أنا كمسلم أدين بالأخوة الإنسانية واحترامها في جميع أجناسها وأديانها، وأسعى للتقريب بين جميع عناصرها وأجاهد فيما هو السبيل الوحيد لتحصيل ذلك[1].

ومن هذا المنطلق انتقد ابن باديس الأوروبيين الذين لا يتعاملون بالمثل مع الدين الإسلامي ولا يحترمون المسلمين. وبعث رسالة إلى وزير خارجية فرنسا والمقيم العام لفرنسا ليحتج على منع مسلمي مراكش من إقامة احتفالات بمناسبة المولد النبوي الشريف، كما احتج على المؤتمر المسيحي الأفخاريستي المنعقد في تونس في عام 1930م، لأنه اعتبر تنظيمه استفزازاً وإثارة لمشاعر المسلمين، ولم يعارضه لأنه تظاهرة مسيحية هادفة، بل قال أنه كان مستعداً للترحيب به وللمشاركة فيه، فلو كان هذا المؤتمر انعقد على هذه الأصول ولهذه الغاية لكنا من أول المرحبين به، وقد نكون من المشاركين فيه[2].

وكذلك احتج على مؤتمر انعقد في جامعة السوربون حول حوار الأديان برئاسة المستشرق لويس ماسينيون، ولم يُدْعَ إليه العلماء الأحرار الذين يمثلون حقاً الإسلام، ليتحدثوا عنه بكل حرية وبدون خوف من الضغوطات التي تمارس على العلماء الرسميين أو بعض شيوخ الطرق الصوفية والزوايا[3]. ولو كان هذا المؤتمر حراً ويعمل لغاية دينية خالصة -كما يقول ابن باديس- لما كان يتقيد بهذا القيد ؛ لكنت ترى فيه من رجال الأديان الأحرار مثلما ترى غيرهم، فإن الدين دين الله ليس بدين الحكومات الاستعمارية على الأخص[4].

### 4. حرية التعليم:

ناضل ابن باديس في سبيل حرية التعليم العربي، واعتبر اللغة الفرنسية لها الحق في الوجود. وقال بكل

---

(1) الشهاب مج 13 ج 5، جويلية 1937م ص 2.

(2) البصائر العدد 166، 19 ماي 1939م ص 1.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 128.

(4) المصدر نفسه ص 128.

وضوح: لو حرمنا من حرية تعلم اللغة الفرنسية التي هي سبيلنا إلى اداب الغرب وعلومه وفنونه وفهمه من جميع جهاته، كما حرمنا من حرية تعلم لغتنا ؛ لوقفنا إزاء ذلك الحرمان ـ لو كان ـ كوقوفنا إزاء هذا الحرمان[1].

ويرى ابن باديس حرية التعليم ليست قضية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بل هي مسألة الأمة كلها، وندد بالازدواجية في تعامل الإدارة الفرنسية مع تعليم الدين الإسلامي واللغة العربية، فمعلموها يتعرضون للمعارضة والمناهضة، ويجدون مقاومة ومحاكمة ؛ بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان والمروجين للنصرانية في السهول والصحارى والجبال بين أبناء وبنات الإسلام في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال[2].

وبمناسبة زيارة رئيس الوزراء الفرنسي «دلادبي» إلى الجزائر في بداية عام 1939م ؛ وجه له ابن باديس رسالة: إن الجزائر المسلمة تنتظر منكم حرية دينها ولغتها، حرية المساجد لتعليم الكبار، وحرية المدارس لتعليم الصغار، وحرية النوادي.. وسراح مساجينها الفكريين[3].

### 5 . الحرية السياسية:

حرص ابن باديس على مساندة كل المواقف والاراء التي تطالب بحق الجزائريين في الممارسة السياسية والنضال بكل حرية، وحرص أيضاً في توجيهاته إلى أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بإبقاء جمعيتهم مستقلة عن كل الأحزاب والتيارات السياسية وقال: إن الجمعية لا توالي حزباً من الأحزاب ولا تعادي حزباً منها، وإنما تنصر الحق والعدل والخير في أي ناحية كان، وتقاوم الباطل والظلم والشر من أي جهة أتى،

---

(1) البصائر العدد 136، 21 أكتوبر 1938م ص 1.

(2) البصائر العدد 107، 1938 ص 1.

(3) البصائر العدد 147، 6 جانفي 1939م ص 1.

محتفظة في ذلك كله بشخصيتها ومبادئها، محترسة في جميع مواقفها مقدرة للظروف والأحوال بمقاديرها[1].

وكثيراً ما كان ابن باديس يخاطب النخبة الفكرية والسياسية الفرنسية بمبادئ الثورة الفرنسية: الأخوة، الحرية، المساواة، وكان يطمع في حكمة المفكرين الفرنسيين الأحرار الذين وصفهم بأصحاب الصدور الواسعة والقلوب الكبيرة[2] ؛ للضغط على اللوبي الاستعماري والدفاع عن حقوق الجزائريين: نحن مع فرنسا الحرة التي نراها في وجوه أبنائها الأحرار، وما أبناؤها إلا الذين يسيرون مع الناس كلهم بمبادئها الخالدة: الحرية، والمساواة، والأخوة، لا يفرقون في هذه المبادئ بين الأجناس والأديان، أولئك الأحرار الحقيقيون، نحن معهم وسنبقى معه[3].

ثم دعا هؤلاء الأحرار إلى الوفاء لمبادئهم وتجسيد شعاراتهم في الجزائر، وإلا فلا قيمة لاراء وأقوال بلا أعمال: أيها الإخوان الفرنسيون المحتفلون بالحرية، إن الأمة الجزائرية تحتفل معكم وتشارككم في الاحتفال بالحرية في أيام السلم، كما شاركتكم في الدفاع عن الحرية على ضفاف المارن وتحت حصون فردان، وهي تسألكم باسم الحرية أن تعملو لتنال حظها من الحرية خصوصاً وقبل كل شيء حرية تعلّمها لدينها ولغة دينها[4].

وتساءل عن هذا الخوف المفرط لدى السلطة الفرنسية القلقة من جمعية قامت من أجل الإصلاح الديني، في الوقت الذي تكاثرت الجمعيات الإصلاحية في المستعمرات البريطانية، أفتكون في الهند جمعيات للعلماء تقوم بأعمالها بغاية الحرية والهناء عشرات من السنين تحت السلطة الإنكليزية الغاشمة القاسية ؛ وتضيق صدوركم أنتم عن تكوين جمعية واحدة للعلماء المسلمين بالجزائر تحت المبادئ الجمهورية العادلة المشعة بعلومها

(1) البصائر العدد 83، 1937م ص 2، الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 130.

(2) المنتقد العدد 1، 11 ذي الحجة / 1925م.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 131.

(4) البصائر العدد 123 . 1938م ص 2.

على الأمم، فتناهضوها وهي ما تزال في المهد[1]؟

ورداً أيضاً على المقيم العام الفرنسي الذي اتهم جمعية العلماء بالاشتغال بالسياسة، فقال له: إن من حقها أن تقوم بذلك باعتبار الاهتمام بالشأن العام. وضرب أمثلة من رجال الدين الأوروبيين الذين يمارسون السياسة بكل حرية[2]، وتوقف عند الكاردينال ريشلبو الذي كان رئيساً للوزراء في فرنسا وأحد مؤسسي الدولة الفرنسية الحديثة، فالقانون يجب أن يطبق على الجميع.

وفي مجال السجال السياسي في العالم العربي، ساند ابن باديس الأمير شكيب أرسلان في فكرته القائلة بأن الوحدة السياسية العربية تكون فقط بين الدول المستقلة التي تتمتع بالحرية، واعتبر صديقه الليبي سليمان الباروني أن ذلك تهميش للمغرب العربي وتبرؤ منه[3]، قال ابن باديس: إنه ليس من المنطق أو الممكن أن تنضم دول مستضعفة ومستعمرة إلى الوحدة السياسية العربية، ولكن الوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة[4].

### 6. حرية الرأي والتعبير:

اختلف ابن باديس مع مصالي الحاج زعيم حزب نجم شمال افريقيا في مسألة مساندة مشروع فيوليت، فقال ابن باديس أنه وافق على هذا المشروع لتحقيق مكاسب سياسية بشرط عدم المساس بالشخصية الإسلامية للجزائريين. بينما رفضه مصالي جملة وتفصيلاً باعتباره يتناقض مع مطالب حزبه بالاستقلال. ورغم هذا الاختلاف، احترم ابن باديس رأي مصالي وأتباعه وقال: نحن نحترم رأي هذه الأقلية ونؤمل بقاءها على رأيها، وهي تطالب بالاستقلال وأي إنسان يا سادة لا يحب الاستقلال؟ إن البهيمة تحن إلى الاستقلال الذي هو أمر طبيعي في وضعية الأمم[5].

(1) الشريعة، العدد 1، 17 جويلية 1933م.

(2) الصراط العدد 15، 25 ديسمبر 1933م.

(3) الشهاب مج 13 ج 10، ديسمبر 1937م ص 438. 446.

(4) الشهاب، مج 13 ج 11، جانفي 1938م ص 372. 475.

(5) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 132.

كما دافع عن حق مصالي الحاج في العمل السياسي، واحتج ضد اعتقاله وحلِّ حزبه نجم شمال افريقيا ثم حزب الشعب[1]، بذريعة المساس بالأمن العام والتطرف في مطالبه، وقال ابن باديس أنها تهم ملفقة وذكر أحزاباً فرنسية متطرفة وعنيفة غير أنها لم تمس ولم تتعرض لأي عقاب أو منع نشاطها، بل ذهب ضحيتها ليون بلوم رئيس الحكومة الفرنسية الذي تعرض للضرب المبرح من أنصار حزب متطرف، ومدح الصحافة الحرة واعتبرها بمثابة قوة لا غنى عنها لأمة راقية، ولا رقي لأمة ناهضة في هذا العصر بدونها[2].

ولكن الصحافة أيضاً لها خطورة عندما لا تحترم حرية الأخرس، وتمارس التدليس والتلبيس، وتتجاهل الحقيقة وتتجاهل على الأبرياء، ولم يسلم منها الصحف الكبيرة، فتعرض ابن باديس وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأباطيل نشرتها جريدة لوطان الباريسية[3].

### 7 . الثورة في شعر ابن باديس ونثره:

استعمل عبد الحميد بن باديس في العديد من مواضيع شعره ونثره، كلمات وعبارات تحمل دلالات ثورية وتحررية، استعملها من أجل بث الحماسة في نفوس من يخاطبهم بخطبه أو يلقي عليهم ما نظمه من قصائد، فكانت بدورها دالة على الفكر الثوري التحرري في شخصيته. فقد جاء في القصيدة التي ألقاها ليلة حفلة جمعية التربية والتعليم بقسنطينة يوم الأثنين 13 ربيع الأول 1356هـ / جوان 1937م والتي بعنوان تحية المولد:

وبخلقه يحمي حماهــا     أو ببــارقة الغـــضــب

حتى يعــود لقــومـه     من عزّهم ما قد ذهب

ويرى الجزائر رجّــعت     حق الحـياة المستــلب[4]

(1) المصدر نفسه ص 132.

(2) المنتقد، العدد 4، جويلية 1925م.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 133.

(4) من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عبد الرحمن شيبان ص 73.

وفي هذه الأبيات استعمل عبارة حماسية تحث على الجهاد، كإيراده لفظ «حماها» «وعزّهم» الذي قال عنه أنه ذهب ليأمل بأن يرى الجزائر «رجّعت» بتشديد الجيم «حق الحياة المستلب». ثم واصل قائلاً:

| | |
|---|---|
| يا نشء أنت رجاؤنا | وبك الصباح قد اقترب |
| خذ للحياة سلاحها | وخُض الخطوب ولا تهب |
| من كان يبغي ودّنا | فعلى الكرامة والرحب |
| أو كـــان يبغي ذلنا | فله المهـــانة والحـــرب |
| هذا نظـــــام حياتنا | بالنور خط وباللهـــب |
| هذا لكم عهدي به | حتى أُوَسَّدَ في الترب |
| فإذا هلكت فصيحتي | تحـــيا الجزائر والعرب |

ونرى ابن باديس في هذه الأبيات استعمل كلمات ثورية مثل: «سلاحها» «الخطوب» «الحرب» «اللهب» ليذكر أن ذلك عهده إلى أن يموت، فإذا مات «تحيا الجزائر والعرب».

وفي القصيدة التي ألقيت ليلة احتفال جمعية التربية والتعليم الإسلامية بالمولد النبوي الشريف بقسنطينة بعنوان: القومية والإنسانية، دعا ابن باديس إلى تحرير الناس من رق الملوك، مما يعكس شخصيته التحررية فقال:

| | |
|---|---|
| وحرروا الناس من رق الملوك ومن هم | وحـــرروا الدين من غش ومن كذب |

وختم ابن باديس خطابه التاريخي في الجلسة الختامية للمؤتمر الثاني لجمعية العلماء سنة 1937م بقصيدة حث فيها الجزائريين على المطالبة والتضحية حتى الفناء من أجل الحصول على حقوقهم، التي ذكّرهم أنهم لن ينالوها إلا بسواعدهم ونفوسهم الأبية فقال[1]:

| | |
|---|---|
| أشعب الجـــزائر روحي الفداء | لما فيـــك من عـــزة العـــربية |
| فدوموا على العهد حتى الفنا | وحتى تنالـــوا الحقـــوق السنية |
| تنالـــــوها بســـــواعـــدكـــم | وإيمانكم والنفـــــوس الأبـــية |

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس ص 75.

فضحـــوا وهـــا أنا بينكـــم                    بذاتي وروحي عليكم ضحية[1]

وارتجل ابن باديس في حفل إقامته مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يوم 27 رمضان 1356هـ بمناسبة إحياء ليلة القدر نشيد «اشهدي يا سماء» نشر في جريدة البصائر وممّا جاء فيه:

اشهدي ياسماء          واكتبن يا وجود

إننا للحمى          سنكون الجنود

فنريح البلاد          ونفكّ القيود

إلى أن قال:

ونذيق الردى          كل عات كنود

فيرى جيلنا          ذكريات الجدود

ويرى قومنا          خافقات البنود

ويُرى نجمنا          للعلا في سعود

فتضم اسمنا          صفحات الخلود

هكذا هكذا          هكذا سنعود[2]

ونلمس في الأبيات السابقة العمق الثوري في شخصية الإمام ابن باديس وتعطشه إلى الحرية والتي نلمسها في قوله «فنريح البلاد.. ونفك القيود». كما توعد المحتل بقوله: ونذيق الردى.. كل عات كنود، ونجده أيضاً في هذه الأبيات يستعمل كلمات ذات بعد تحرري وثوري: مثل «الحمى» «جنود» «القيود». واستدل ابن باديس في أحد خطبه ببيت الأحنف بن قيس، ليبرز ما على القائد من واجبات، فقال:

إنّ على كلّ رئيس حقا                    أن يخضب الصعدّة أو تندقّا

والصعدّة هي الرمح، يريد أن يخضب بالدماء أو تنكسر وتندق في يده أثناء محاربته للأعداء، ومن خلال استدلاله بهذا البيت نلمس أيضاً ثورية ابن باديس. وقد أتبع كلامه السابق بالقول: لكن صعدتنا هي

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 158.

(2) ..................

القلم، وخضابه الحبر، ولكن لا يندق هذا القلم حتى تندق أمامه جبال من الباطل[1].

فعلا القاعة تصفيق عال وهتاف بكلمة الله أكبر.

وذكر ابن باديس في العدد الخامس من جريدة المنتقد الصادرة يوم الخميس 11 محرم 1344هـ / 30 جويلية 1925م قوله نشرنا قصيدة العالم الشاعر الحاج أحمد البوعوني مبتهجين بأن يكون المنتقد ميداناً تلتقي فيه تجربة الشيوخ بنشاط الشبان، حتى يحق له أن يقول أنه يتقدم للجهاد الحيوي، ثم ذكر بيتاً شعرياً:

بشبّان يرون القتال مجداً وشِيب في الحروب مجربين

فابن باديس اعتبر أن جريدة المنتقد تهدف إلى إعداد الشباب لما سمّاه «الجهاد الحيوي»، الذي عرّفه بأنه «القتال» و«الحروب»، والذي يشارك فيه الشباب المندفعون والشيوخ المجربون، كما كانت الخطب التي يلقيها الإمام عبد الحميد بن باديس مليئة بمعاني الجهاد وإثارة الحماسة في النفوس ورافعة للهمم والمعنويات.

وقد كان ابن باديس في كثير من خطبه يستدل بالأحداث والأمجاد التاريخية، لإثارة الحماسة في نفوس من يخاطبهم، ومن ذلك قوله لما ذكر بلدة سيدي عقبة أنها: مدفن أسلافنا الفاتحين الذين محقوا الشرك والاستبداد عن هذه البلاد، فقد أنجبت لنا المصلح الشيخ الطيب العقبي، الذي يجاهد اليوم ليسحق البدعة والفساد من هاته الأرض، ذرية بعضها من بعض[2]، كما تضمنت خطبه كلمات ذات بعد ثوري، فقد جاء في قوله بمناسبة صدور مجلة الزيتونة والابتهاج بصدورها، قوله: ويحق لي وأنا جندي من جنود الإصلاح الإسلامي العام أن أسرَّ سروراً خاصاً بتعزز معاقل الإصلاح بها[3]، كما وصف في نفس البيان جريدته المنتقد التي صودرت بـ: «الشهيدة».

(1) الشهاب ج 8، مج 12 / نوفمبر 1936م ص 359 . 361، الفكر السياسي ص 159.

(2) المنتقد العدد 6، جويلية 1925 ص 114 . 115.

(3) آثار ابن باديس (3 / 125).

يتبين لنا ممّا سبق أن ثورية الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس أبانت عنها خطبه وأشعاره والعبارات التي كانت تجري على لسانه، ممّا يؤكد لنا البعد الثوري والتحرري في شخصية ابن باديس الثائر على المحتلين والغزاة[1].

### 8. دعوة ابن باديس للثورة:

كانت نفسية ابن باديس وأشواقه الروحية تواقة إلى التضحية في سبيل تحرير شعبه وبلاده من المحتل الغازي بالنفس والروح، ويذكر الأستاذ إبراهيم الكتاني، أنه كان في خريف سنة 1937م في تلمسان بمناسبة تدشين مدرسة دار الحديث بها، وقد رافق الإمامُ ابن باديس الوفدَ إلى حيث أطلال مسجد المنصورة، حيث حرر نداء يدعو فيه الأمة الجزائرية للصيام وملازمة المساجد، بمناسبة ذكرى مرور مائة سنة على احتلال قسنطينة، ولما قرأه على الوفد جعل أحد تلامذته يثبط عزيمته ويحذره مغبة نشره، فغضب ابن باديس وقال: يا أبنائي، إنكم تعلمون أني لم أطلب أي شيء لنفسي، ولكني اليوم أطلب لنفسي شيئاً واحداً، وهو أن تسمحوا لي أن أكون أول ضحية في سبيل الجزائر عندما يحين الوقت للتضحية في سبيلها[2].

ثم التفت إلى الأستاذ إبراهيم الكتاني، قائلاً له: هنيئاً لكم أنكم تجدون في المغرب السبيل للتضحية في سبيل بلادكم، أما نحن في الجزائر فإننا نتحرق على التضحية في سبيلها، ولا نجد للتضحية سبيلاً[3].

ولم يكن يتحرج ـ أبداً ـ من الإفصاح بالهدف الاستراتيجي البعيد من وراء حركته الجهادية لتلاميذه، عندما يسألونه طالبين منه الإعلان بالثورة والمطالبة بالاستقلال، فيذكر محمد خير الدين: أنه ذات يوم من عام 1933م، التف نفر من الشباب المتحمس حول الإمام ابن باديس بنادي الترقي ، وطلبوا منه أن يرفع صوته

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 160.
(2) مذكرات محمد خير الدين (1 / 407).
(3) المصدر نفسه (1 / 407).

قوياً مدوياً عالياً، مطالباً باستقلال الجزائر وحريتها، فقال لهم: وهل رأيتم أيها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً دون أن يشيد الجدران؟

فقالوا: كلا ولا يمكن هكذا.

فقال لهم: إن من أراد أن يبني داره ؛ فعليه أن يبني الأسس ويقيم الجدران أولاً، ثم يشيد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمة ؛ فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف.

وهذا الكلام نفسه الذي أجاب به تلاميذه، قاله لمصالي الحاج الذي كان يطالب بالاستقلال بنص: وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل، أن يتركه بدون سقف، وهل غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال[1]؟

وصرّح سنة 1940م في اجتماع خاص في بيته بمبنى جمعية التربية والتعليم الإسلامية مقسماً فقال: والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على الثورة لأعلنتها[2]، وحينما حمي وطيس الحرب العالمية الثانية اجتمع به جماعة من أنصار حركته فقال: عاهدوني، فلما أعطي له العهد بالمصافحة قال: إني سأعلن الثورة في فرنسا عندما تُشهر عليها إيطاليا الحرب.

وذكر عنه أنه عندما كان يسأله تلاميذه: كيف يمكن تخليص الجزائر من قبضة الاستعمار؟ يشير إلى الجبال البعيدة قائلاً: هناك يكون الخلاص. كما يقول عنه أحد تلاميذه: كان يريد الخروج على فرنسا إلى جبال الأوراس ليعلنها ثورة على فرنسا لو وجد رجالاً يساعدونه[3].

وامتنع عن إرسال برقية المساندة لفرنسا عند دخولها الحرب، قائلاً لأعضاء المجلس الإداري للجمعية: إنني لا أوافق على إرسال هذه البرقية أبداً، ولو قطعوا رأسي، وأشار بيده إلى عنقه، لأن ذلك يعتبر قبولاً مني بتجنيد أبناء هذه الأمة في الحرب، ويشرح للحاضرين الذين وافق معظمهم على سبب امتناعه: وكيف أوافق

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 89).

(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 162.

(3) المصدر نفسه ص 163.

وألوان الاضطهاد ماتزال تنصبّ على الأمة وتنال من دينها ولغتها وقوميتها؟ وأنا لا أنتظر إلا إحدى الحسنيين: فإما حياة السعادة، وإما الفوز بالشهادة.

ولكن عضواً من المجلس رد عليه قائلاً: إذا كنت تحب الذهاب إلى السجن.. فالناس لها أولاد. فيجيب الشيخ: إذا كان عندك أولاد، فأنا أعتبر أن أولاد الأمة كلهم أولادي[1].

لقد رفض ابن باديس تأييد فرنسا في الحرب ؛ عندما ناشدت فرنسا فجأة عبد الحميد بن باديس ليؤيدها، نظراً لأن مكانته لا تنكر في شعبه ؛ فبالتأكيد سوف يساعد في المجهود الحربي في الحرب العالمية الثانية، فقال ابن باديس: لو أن الحاكم العام طلب مني أن أقول لا إله إلا الله لرفضت أن أقولها[2].

كان الاستعمار الفرنسي يدرك آنذاك أن رجال الدين المتعاونين معه، لن يكون لكلمتهم التأثير المطلوب، لذلك توجه إلى العناصر القيادية في جمعية العلماء يطلب منهم أن يدعوا الشعب إلى التجند ضد النازية، فكان هناك من أجاب متملصاً: هذه حرب سياسية، ونحن علماء دين. فإذا كنتم تطلبون فتوى في هذا الموضوع فاطلبوها ممن تعتبرونهم سياسيين مثل الدكتور ابن جلول[3]، وكان هناك من رجال جمعية العلماء من فضّل التعرض للنفي والتشريد، كالشيخ محمد البشير الإبراهيمي ؛ على أن يقول كلمة تأييد لفرنسا بمناسبة الحرب. هذا هو الظرف الزمني الذي قال فيه ابن باديس كلمته: والله لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا إله إلا الله ما قلتها[4].

وكإجراء عملي أُوقفت البصائر عن الصدور بإرادة من مجلس الجمعية حتى لا تقع في حالة الطوارئ. وحتى لا تتعرض للضغوط والمساومات[5] من قبل الإدارة الاستعمارية، لتمنحها الموافقة والتزكية في تجنيدها

(1) جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي ص 163.

(2) عبد الحميد بن باديس زعيم الإصلاح وزعيم القومية ص 198.

(3) ابن باديس وعروبة الجزائر ص 59.

(4) عروبة الجزائر ص 60.

(5) جهاد ابن باديس ص 164.

لآلاف الجزائريين ـ قهراً ـ ضمن قواتها، والذين كان ابن باديس يعلق عليهم اماله، عندما يحين الوقت لحمل السلاح في وجه المستعمر الغاصب[1].

كما كان يعلق اماله على تلاميذه الذين يدرسهم والكبار الذين يزورهم ويعظمهم، فيلح على الجميع في دروسه ومحاضراته على الاستعداد المادي والمعنوي لمواجهة هذا العدوان في يوم ما[2].

## الثاني عشر: وفاة ابن باديس وأقوال المعاصرين فيه:

### ـ وفاة ابن باديس:

عاش ابن باديس للفكرة والمبدأ واستمر يواصل الجهاد العلمي والاجتماعي والسياسي ؛ يعلّم ويرشد ويعظ ويحرر وينتقل ويتعبد ويتأمل ويحقق، لا يهدأ له بال لا بالليل ولا بالنهار، لم يشفق على نفسه ولا على جسمه، ولم يبال بصحته في سبيل مبدأ أعظم وأمة يسوؤه حالها، ويدمي نفسه احتلالها، ويدفعه للبذل والسهر مالها وآماله وآمالها، أفنى ذاته في سبيل عقيدة، وقضى من أجل رسالة[3]، حتى أنه أصيب بداء السرطان في الأمعاء[4]. وأضاف البعض سلّ العظام[5]، ومع كل هذا كانت إقامته قبل وفاته محددة من طرف الإدارة الاستعمارية في مدينة قسنطينة، ليس له أن يبرحها إلى غيرها من نواحي البلاد[6]، مما جعل وفاته غير طبيعية[7].

وفي نفس اليوم الذي مات فيه، زار والي قسنطينة الشيخ في مرضه بمنزل والده، واقترح عليه أن يصرح بندمه على توريط جمعية العلماء في السياسة ، وأنه لا يحمل حقداً لفرنسا . وهنا حاول الشيخ أن يقوم من

(1) مذكرات محمد خير الدين ص 407.
(2) جهاد ابن باديس ص 164.
(3) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 95).
(4) جهاد ابن باديس ص 103.
(5) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني (2 / 12).
(6) نوابغ العرب ص 101، أساتذة.
(7) جهاد ابن باديس ص 103.

فراشه، وقال غاضباً: أخرجوني من هنا أو أخرجوه. وخرج الوالي مذموماً مدحوراً، ولفظ ابن باديس أنفاسه في ذلك اليوم، دون أن يستسلم يوماً لفرنسا أو يستكين لها[1].

في هذه الظروف الحياتية العصيبة والثاقبة وافى الأجلُ الإمامَ عبد الحميد ابن باديس مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول 1359هـ الموافق 16 نيسان 1940م. وشيعت جنازته في موكب جنائزي ويوم مشهود. كان المشيعون له ـ خمسين ألفاً أو يزيدون[2]، تأثر لوفاته جميع الشعب الجزائري، لأن الإمام دخل ضمير الأمة كلها، يذكر لنا ـ على سبيل المثال فقط ـ الأستاذ محمد الميلي أنه لما رجع من المدرسة لأن الدراسة توقفت لما تناقل الناس خبر وفاة الإمام وأخبر أمه بوفاته، وكانت منكبة على تحضير طعام العشاء، فأجهشت بالبكاء، وعند ذلك أحسّ الابن: أن موت الشيخ ابن باديس لم يكن حدثاً عادياً[3].

ويتحدث عن الإمام ابن باديس واصفاً إياه فيقول: ولم يرسب في خاطري من تلك المشاهدة، إلا صورة رجل مهيب صارم الوجه يترك فيك انطباعاً أنك أمام جبل رغم قامته القصيرة[4]، وينقل لنا وصف حالة أبيه محمد مبارك الميلي، إثر رجوعه من قسنطينة بعد تشييع جنازة الإمام إلى مثواه الأخير فيقول: لم يكلمني أبي، أو بعبارة أدق لم يجد القدرة على الكلام.. تحركت شفتاه لكن بدون صوت.. وظل كذلك بضعة أيام.. كان خلالها يعرب عن مطالبه بالإشارة[5].

هذا وقد كُتب على قبر ابن باديس:

س1: الله أكبر

(1) المدرسة الباديسية ومناهجها الدراسية، عيسى عمراني ص 204.

(2) جهاد ابن باديس ص 104.

(3) ابن باديس وعروبة الجزائر ص 8.

(4) المصدر نفسه ص 8.

(5) المصدر نفسه ص 8.

س2: هنا يرقد العلامة الجليل الأستاذ الإمام الشيخ عبد الحميد

س3: ابن باديس باعث النهضة العربية في الجزائر وزعيمها المقدام

س4: توفي مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول، 16 أفريل سنة 1359هـ / 1940م[1]

وقال يوم موته هذه الأبيات التي اختارها لنفسه:

سينحل جثماني إلى الترب أصله ... وتلتحق الورقا بعالمها الأسمى

وذي صورتي تبقى دليلاً عليه فإن ... شئت فهم الكنه فاستنطق الرسما

وعن صدق إحساس تأمل فإن ... في ملامح المرء ما يكسب العلما

وسامح أخاك إن ظفرت بنقصه ... وسل رحمة ترحم ولا تكتسب إثما[2]

وقد رثاه الشاعر محمد العيد ال خليفة بقصيدة ارتجلها عندما وقف لأول مرة على قبره، نقشت فيما بعد على رخامة وعلقت على ضريحه، ومما جاء فيها:

يا قبر طبت وطاب فيك عبير ... هل أنت بالضيف العزيز خبير

هذا ابن باديس الإمام المرتضى ... عبد الحميد إلى حماك يصير

العالم الفذ الذي لعلومه ... صيت بأطراف البلاد كبير

بعث الجزائر بعد طول سباتها ... فالشعب فيها بالحياة بصير

وقضى بها خمسين عاماً كلها ... خير لكل المسلمين وخير

ومضى إليك تحضه بثنائها ... وإليه من بين الرجال تشير

عبد الحميد لعل ذكرك خالد ... ولعل نزلك الجنة حرير

ولعـــل غرســـك في القرائح ... مثمر ولعل وريك للعقول منير

لا ينقضي حزن عليك مجدد ... وأسن له بين الضلوع سعير

نم هادئاً فالشعب بك راشد ... يختط نهجك في الهدى ويسير

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 95).

(2) عبد الحميد بن باديس، مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية تأليف أندري ديرليك ص 199.

لا تخش ضيعة ما تركت لنا سدى    فالوارثــون لما تركت كثــير

نفحَتْك من نفحات ربك نفحة    وسقاك غيث من رضاه عزيز[1]

### 1. شهادة محمد البشير الإبراهيمي في ابن باديس:

عندما رفض الشيخ محمد البشير الإبراهيمي دعم فرنسا في الحرب العالمية الثانية ؛ تمّ نفيه من قبل السلطات الفرنسية إلى منفاه بمدينة افلو، ووصلت إليه آخر رسالة من أخيه الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكانت وجيزة الألفاظ وقوية المعاني، جاء فيها: الأخ الكريم الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي سلمه الله، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد بلغني موقفكم الشريف الجليل العادل فأقول لكم؟ الان يا عمر، فقد صنت العلوم والدين، صانك الله وحفظك في تركتك، وعظمتهما عظم الله قدرك في الدنيا والاخرة، وأعززتهما أعزك الله أمام التاريخ الصادق، وبيّضت محيّاها بيّض الله محيّاك يوم القيامة، وثبّتك على الصراط المستقيم، وجب أن تطالعني برغباتكم والله المستعان.

من أخيكم عبد الحميد بن باديس

وبعد عشرة ايام فقط من نفيه إلى افلو، وبعد أربعة أيام فقط من كتابة هذه الرسالة الخالدة توفي إلى رحمة الله الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس، فجاء نعيه بعد تلك الرسالة بهذا الموت الفجائي، ونشرت جريدة «لا دييش الحريان» الخبر مقتضباً مع صورة الإمام في الصفحة الأولى في 17 أفريل، فحزن الأستاذ حزناً بالغاً وبكى بكاء مراً، وضاق صدره لعدم تمكنه من حضور جنازته، ففوض أمره إلى الله واسترجع، وكتب إلى اخوانه بقسنطينة رسالة تعزية بث فيها أحزانه وشجونه، وقسم نفسه إلى قسمين: نفس سائلة، ونفس مجيبة. ننقل للقراء من الرسالة الأسئلة والأجوبة.

قال رحمه الله: وسألت نفس أختها بأين؟

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 95).

فأجابت المجيبة بلا أين؟

سؤال السائلة:

أين؟ . يا أخت . الحسام المنتضي　　　لصروف الدهر في اليوم العصيب

أين؟ . يا أخت . الإمام المرتضى　　　ذو البيـــان الحر والرأي المصيب

أين؟ من إن أمحل الفكر مضى　　　يرحض الإمحال بالفكر الخصيب

جواب المجيبة:

جاء المحتوم من صرف القضا　　　فقضى لم يرضَ بالدنيا نصيب

سؤال:

أين؟ . يا أخت . هلال الداجية　　　فارس الحلبة كشاف الكرب

كان نوراً في الليـــالي الساجية　　　ويل قومي إن توارى أو غرب

أين؟ . يا أخت . إمام الناجية　　　وأمين الله عن مجـد العـــرب

جواب:

حرمت منه النفوس الراجية　　　وتمثلت حظها منها الترب

سؤال:

أين؟ حامي الدين من شوب الضلال　　　ومجير الحق من إفك الهوى

أين؟ . يا أخت . حواري الجـــلال　　　صيقل الأذهان أكسير القوى

عاف خفض العيش في برد الظلال　　　وامتطى للمجد نزاع الشوى

جواب:

خبر الأظعان والحي الحلال　　　أن نجم الدين قد هوى

سؤال:

أين؟ ليث كان بالأمس هنا　　　خـــادراً قد ملأ الدنـــيا زئيـــر

أغلـــبا في لبـتدتين ارتهـــنا　　　عن عـــرين الدين يرمي ويجـــير

ما ونى عن فـرصة أو وهـــنا　　　هل رأيت المخذم العضب الطرير

جواب:

هجر الغيل وأسرى موهنا　　　والحمى أصبح نهباً للمغير

سؤال:

| | |
|---|---|
| أين؟ منا اليوم يا أخت الرئيس | كم به قد رفع القوم الرؤوس |
| ما له غاب؟ فما منه حسيس | ما له أقصر واليوم عبوس |
| من رمى الأمة بالجد التعيس | وسقاها جرع الغم كؤوس |

جواب:

| | |
|---|---|
| غاله من خاتل الموت دسيس | فهو قد أصبح رهناً في الرموس |

إلى أن قال: والسلام عليكم مجتمعين على الحق ومتفرقين في خدمة الحق.

أخوكم المعتد بوجودكم وعطفكم

محمد البشير الإبراهيمي(1)

أفلو يوم السبت 13 رجب الفرد عام 1359هـ.

وقال عنه الإبراهيمي: عبد الحميد بن باديس باني النهضة الجزائرية وإمامها، ومدرب جيوشها، عالم ديني، ولكن ليس كعلماء الدين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة، جمع الله فيه ما تفرق في غيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان الناصع، واللسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والفعل اللماح، والفهم الغواص على دقائق القران، وأسرار التشريع الإسلامي، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين، والإلمام الكافي بمعارف مع التمييز بين ضارها ونافعها، مع أنه لا يحسن لغة من لغاته غير العربية، وكان من التضلع في العلوم الدينية واستقلاله في فهمها إماماً في العلوم الاجتماعية، يكمل ذلك كله قلم بليغ شجاع يجاري لسانه في البيان والسحر، فكان من أخطب خطباء العربية، وفرسان منابرها، كما كان من أكتب كتّابها(2).

---

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بأقلام محبيه، دار الأمة ص 281.

(2) آثار محمد البشير الإبراهيمي (4 / 336).

ويقول فيه: الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان، والشهادة التي يؤديها لوجه الحق حتى رجال الاستعمار، هي أن أول صيحة ارتفعت بحرية الجزائر كانت من لهاة عبد الحميد بن باديس ولسانه، وأن أول صخرة وضعت في أساس نهضة الجزائر إنما وضعتها يداه[1]

كل ما يوجد اليوم في الجزائر من حركات فهو مدين لجمعية العلماء بوجوده، وكل ما يعلو فيها من أصوات، فهو صدى مردد للكلمات النارية التي كان يقذفها لسان مبين يترجم عن علم مكين ودين متين.

وكتب عنه فصلاً قيماً في البصائر بعنوان «الرجال أعمال» مما قال فيه:... باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها الخيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشأئ مجلة الشهاب مراة الإصلاح، وسيف المصلحين، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي والتفكير الصحيح، ومحيي دروس العلم بدروسه الحية، ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقن مبادئها، علم البيان وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم، رحمه الله ورضي عنه.

وحسب ابن باديس من المجد التاريخي هذه الأعمال التي أجملناها في ترجمته، وإن كان واحد منها لأصلٌ لفروع وفصل من كتاب، وإذا كان الرجال أعمالاً ؛ فإن رجولة أخينا عبد الحميد تقوم بهذه الأعمال. وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمة تعاقبت عليها الأحداث والغِيَر، وديناً لابسته المحدثات والبدع، ولسان أكلته الرطنات الأجنبية، وتاريخاً غطى عليه النسيان، ومجداً أضاعه ورثة السوء، وفضائل قتلتها رذائل الغرب.

وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية، وهم ألسنتها الخاطبة وأقلامها

(1) المصدر نفسه (4 / 336)، إمام الجزائر ص 288.

الكاتبة وهم حاملوا ألويتها، وأن اراءه في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي ؛ هي الدستور القائم بين العلماء والمفكرين والسياسيين، وهي المنارة التي يهتدي بها العاملون، وأن بناءه الوطنية الإسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار.

وحسبه من المجد التاريخي أن إخوانه الذين حملوا معه معظم الأمانة في حياته، اضطلعوا بحملها كاملة بعد وفاته، في أيام أشد تجهماً من أيامه، وفي هزاز ما كان يتخيلها في أحلامه، فما وهنوا ولا هانوا ولا ضعفوا ولا استكانوا، وإنهم استخلفوا على النهضة فكانوا نعم الخلف تمموا وعمموا، وأجمعوا وصمموا، وأنهم وفَّوا له ميتاً كما وفَّوا له حياً، واعتزوا باسمه بعد مماته كما كان يعتز بهم في حياته[1].

وأرسل محمد البشير الإبراهيمي رسالة تعزية في ابن باديس للأستاذ أحمد توفيق المدني.

الأخ الأستاذ أحمد توفيق المدني حفظه الله:

أخي، أعتقد أن الراحل أخي العزيز لم يكن لأحد دون أحد، بل كان كالشمس لجميع الناس، وأعتقد أن فقده لا يحزن قريباً دون بعيد، وأن أوفر الناس حظاً من الأسى لهذا الخطب هم أعرف الناس بقيمة الفقيد وبقيمة الخسارة بفقد للعلم والإسلام، لا للجزائر وحدها، فلهذا بعثتُ أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض بعد أن فاض، ببقاء اثاره في الحياض وأنهاره في الرياض، كما يعزى على مغيب الشمس بشفقها، وعن ذبول غضارة الشباب ببقاء رونقها، وإن كانت التعازي تعاليل لا تطفي الغليل، ولكنها على كل حال تحمل بعض الروح من كبد تتلظى شجناً إلى كبد تتنزى حزناً.

وظني في أخي أنه لو كان يعرف عنواني لكان أول معزّ لأول معزّى.

واحسرتاه، رحم الله الراحل العزيز جزاء ما بثّ من علم وزَرَعَ من خير، وثقف من نفوس ؛ ولله ذلك

(1) إمام الجزائر ص 289.

اللسان الجريء، وذلك الجنان المشع، وذلك الرأي الملهم، وإنا لفقدك يا عبد الحميد لمحزونون[1].

أخوكم الحزين الإبراهيمي.

## 2. الشيخ الفاضل بن عاشور:

وقال عنه الخطيب العلامة الأستاذ الفاضل بن عاشور:.. إن فضل النهضة الجزائرية على العالم الإسلامي فضل عظيم، وإن أثر الشيخ عبد الحميد بن باديس في تلك النهضة أثر إنساني رئيسي، وما تكريمنا للشيخ عبد الحميد بن باديس إلا تكريم للفكرة العبقرية، والنزعة الإصلاحية الفلسفية التي دفعت به فريداً إلى موقف إحياء التعاليم الإسلامية، في وطن أوشكت شمس الإسلام أن تتقلص في ربوعه، بعد ثمانين عاماً قضاها في أغلال الأسر، فإن وقع المصيبة واستمرارها وطول أمدها، وخيبة المصارعات الكبرى التي بذلت في سبيل الإفلات من الغل ؛ قد كونت حول الشعب الجزائري دائرة من التصورات المزعجة، إن لم تزرع فيه روح الاستسلام واليأس ؛ فقد زرعت فيه الذهول والسموم، والاستقاء في بحر جارف التيار في غفلة عن غايته، لقد كان يقول في نفسه كلما تلقى حقيقة جديدة في الجامعة الزيتونية، هذه هي نفسي وهذه حقيقتها لأبي مسلم عربي، وهذا أمر يشاركه فيه كل أحد، ولكن الذي يزيد به هو على الناس هو تساؤله عن حقيقة الأمر الواقع، هل هي كذلك أم لا؟

وهل الجزائريون يعتبرون عند أنفسهم وعند غيرهم بهذا الاعتبار؟

فيجيب الواقع مخالفاً ويندفع نحو بحث الواقع كما هو، ثم كما ينبغي أن يكون، وذلك هو عماد الفلسفة، ثم يستمد من عزيمته القعساء روح المجاهرة بالدعوة.

فإذا هو يصرح بالحقائق البسيطة في النظر المتعبة في العمل فيقول: أن نتعلم غير تعلمنا، ونعش في غير مجتمعنا، وننظر بغير أبصارنا، وندرك بغير عقولنا، فهل نحن موجودون؟

---

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي (2 / 37).

كلا، لا يكمل وجودنا إلا بعد أن يستملك عقول وأبصاراً وعيشاً وتعليماً، وأن نخرج من هذه الفوضى الحيوانية «أنت أنت أنا أنا» إلى الحقيقة الناصعة الوضاءة التي وضع قاعدتها في خلاصة فلسفية:

شعــب الجزائر مسلم    وإلى العــروبة ينتســـب

من قال حاد عن أصله    أو قال مات فقد كذب[1]

## 3. الشيخ العربي التبسي:

وأما الأستاذ الأصولي العلامة الشيخ العربي التبسي فقد كتب مقالاً قيماً بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لوفاة الإمام عبد الحميد بن باديس جاء فيه ما يلي: إن الرجال لا تسجل أنسابهم ولا صورهم ولا أموالهم في سجل الإنسانية شرائعها ورجالها، وإنما تسجل عقائد الذين غرسوا عقائدهم في نفوس الناس، وإنما تسجل أعمال الذين أخرجوا الناس من فوضى اجتماعية إلى نظام اجتماعي توارثته الإنسانية بعدهم، وإنما تسجل المبادئ التي تفيء إلى ظلها الإنسانية حين تطغى على الإنسانية الجوائح التي تجتاح الناس بسوط عذابها ولهيب نيرانها.

والذكرى إذا أقيمت لشخص له عروق هذه الصالحات نسب ؛ كانت تلك الذكرى اعترافاً لتلك الشخصية، بأن لها في عنق القائمين بهذه الذكرى نعما ومنناً، شكرها له بإقامة الذكريات والحفلات هو أقل حق له عليهم يؤدونه له.

وعبد الحميد بن باديس جدير بأن تقيم له الأمة الجزائرية الإسلامية العربية الذكرى، وجدير بأن يعدّ من أولئك الذين سجل لهم التاريخ جهوداً تؤهله للحاق بالشخصيات المعترف بها بمزاياها، قدم عبد الحميد لأمتنا في أرضنا الشيء الكثير، مما يعدّ أساساً لهذه الحركة وبذوراً لنواحيها المتعددة[2].

(1) إمام الجزائر ص 290.

(2) المصدر نفسه ص 291.

### 4 . مالك بن نبي:

من مفكري الجزائر الذين هزتهم حركة ابن باديس فكتب عنها الشيء الكثير، ولعل في مقدمة ما كتب قوله في كتابه شروط النهضة، ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري يتحرك، ويا لها من يقظة مباركة[1].

ويقول في الكتاب نفسه مقارناً بين عمل العلماء ورجال السياسة المحترفين، إن العلماء كانوا أقرب إلى الصواب من السياسيين حين دعوا إلى الإصلاح بمعنى دفع النفس إلى حظيرة الإيمان من جديد[2].

### 5 . أبو القاسم سعد الله:

من كبار المؤرخين بالجزائر يقول: إن العشرينات من هذا القرن هي الفترة التي ظهرت ونمت فيها الصحافة الإصلاحية والنوادي الحرة، وكان ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة بشخصه وقلمه ولسانه وتلاميذه[3].

وحين تحدث عن جمعية العلماء قال: وإذا تكلمنا عن جمعية العلماء خلال الثلاثينات، فالكلام في الواقع عن ابن باديس، ومن الممكن أن يزعم المرء أنه لولا ابن باديس لما تأسست جمعية العلماء، ولا يمكن عكس هذه القضية فيقال مثلاً إنه لولا جمعية العلماء لما كان ابن باديس[4]. وقال: وحسبنا هنا أن ننبه إلى أن جمعية العلماء اهتمت بالإنسان فجعلته هو الهدف في كل تحركاتها، خاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية، وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ، وأنشأت لذلك من الدعاة والخطباء والمؤرخين والصحفيين والشعراء والمعلمين، وفرت لهم مراكز تمثلت في المساجد والنوادي والصحف والكتب[5].

---

(1) شروط النهضة ص 79.

(2) المصدر نفسه ص 79.

(3) الحركة الوطنية الجزائرية (3 / 82).

(4) عبد الحميد بن باديس، مازن مطبقاني ص 158.

(5) المصدر نفسه ص 159.

ولئن كان الحديث عن الجمعية ؛ فإن ابن باديس كان هو العصب المحرك وينطبق الحديث عليه تماماً[1].

### 6 . حمزة بو كوشة «شنوف»:

من زملاء ابن باديس قال عنه: كان ابن باديس رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته، وليس عنده كِبر، ولا يشعر بأي غضاضة أن يسأل أحد تلامذته عن مسألة ويرجع إلى الحق، وتحدث عن برنامجه اليومي وعن أسرته، وعبّر بجملة واحدة عن أشياء بيناها في هذا الكتاب، فقد قال: إن التضحية التي ضحاها ابن باديس مهمة جداً، فقد كوّن جيلاً من الأجيال[2].

### 7 . محمد خير الدين:

عمل مع ابن باديس قبل تأسيس الجمعية، وأصبح بعد ذلك عضواً في مجلسها الإداري، وظل يعمل في الدعوة الإسلامية إلى ما بعد التحرير، وقد قال: كانت حياة ابن باديس كلها جهاد، ولم يعش لنفسه أبداً ولم يعش لأحد بل عاش لله. كذلك لم يترك وقتاً قصيراً ليقضيه في مسائل دنيوية أو مظاهر أو وظيفة أو طمع، إنما صرف وقته للعلم والتكوين. فالجزائر مدينة للشيخ عبد الحميد بن باديس في ميدان التربية والتعليم حيث لم يكن هناك تربية أو تعليم إلا به، والوطنية قبل أن يسمع بها الناس لم يسمعوا بها إلا منه[3].

### 8 . محمد الصالح رمضان:

من تلاميذ الشيخ ابن باديس قال: يكاد يجمع الناس كلهم الأعداء وغير الأعداء مسلمون وغير مسلمين . والمسلمون هم الطرقيون لأنهم كانوا يعدونه شراً عليهم ويتصورونه السبب في زوال نفوذهم . كلهم يجمعون على صدقه وتقواه، وحتى الفرنسيون يؤمنون بهذا ويرون أنه أقوى شخصية في الجزائر[4].

(1) المصدر نفسه ص 159.
(2) المصدر نفسه ص 171.
(3) المصدر نفسه ص 170.
(4) المصدر نفسه ص 174.

### 9. عمار أوزغان:

من معاصري الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذين لم يكونوا يرون في الشيخ عبد الحميد إلا عدواً لاختلاف في الفكر والتوجه، ومن أوائل الجزائريين انتساباً للحزب الشيوعي، بل كان ممن تسلموا قيادة هذا الحزب في الجزائر. ولكن الله منّ عليه بالهداية فترك الحزب الشيوعي، وكان من إنتاجه كتاب «الجهاد الأفضل» الذي قال فيه عن ابن باديس: كان الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ أدام الله ذكره ـ أول رئيس لجمعية العلماء، كان خطيباً ساحراً ومتواضعاً كأحد أبناء الشعب، كان مصلحنا الديني ثورياً خالصاً، وحكيماً لا يتطلب من كل مرحلة تاريخية أكثر مما تقدر أن تعطي. كان أبا المؤتمر الإسلامي حيث تحقق اتحاد جميع الاتجاهات المناهضة للاستعمار، وكان هذا المؤتمر استنفاراً عاماً للشعب الجزائري بغية الاتحاد والعمل دون استثناء ودون عصبية[1].

### 10. صالح الخرفي:

قال الدكتور صالح الخرفي في مقال بعنوان «الجزائر والأصالة الثورية» جاء فيه: وابن باديس هذا الرجل الذي فجّر أعنف معركة فكرية في أدق مرحلة استعمارية، وإذا كانت معجزة عبد القادر معجزة صلابة في معركة سافرة، فإن معجزة المصلح تبدو هي الأخرى مدعاة للإكبار وهي تبشر بالشخصية الجزائرية تحت سمع العدو وبصره في معركة مقنّعة الجبهات، متعددة الوجوه، ملتوية السبل، سلاحها نفاذ في البصيرة، وعبقرية في المناورة، ومجابهة البطش المتعامي بالإيمان المتبصر، وإدراك حساس للخطوط الدقيقة التي تفصل بين الغايات والوسائل[2].

### 11. محمود قاسم:

من المفكرين الذين عملوا بجامعات الجزائر وأتيحت له فرصة أن يتعرف على بيئة ابن باديس وعلى زملائه

---

(1) المصدر نفسه ص 176.

(2) المصدر نفسه ص 176.

واستفاد من المراجع المتوفرة هناك، وأصدر كتابه «الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» بعد استعادة الجزائر استقلالها بسنوات قليلة عام 1967م، فقد قال عن ابن باديس: وقد استطاع بصدق فطرته وإخلاصه أن يهتدي إلى السلاح الناجع الذي حطم به أسطورة الجزائر الفرنسية، تلك الأسطورة التي حاولت فرنسا أن تفرضها على الجزائريين، وقد نجحت في أن تجرّ إليها نفراً من السياسيين المحترفين، وقال: ولقد وضع ابن باديس خطته على أساس مبتكر يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم، في الوقت الذي تظن هي فيه أن تحاصر الجزائر. ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الأوان، فوجدت نفسها محاصرة بعد أن نحّى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى[1].

## 12. أنور الجندي:

كتب يصف ابن باديس فقال: فهو الخطيب الذي يهز المشاعر والأرواح، ويسيطر على الجموع، وهو الكاتب الدقيق العبارة، النقي الأسلوب، الواضح الفكرة، وهو الصحفي والمدرس والمحدث والرحالة، وهو الذي ينشأئ المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها، ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس يفتتح الدروس بعد صلاة الصبح حتى ساعة الزوال بعد الظهيرة، ومن بعد المغرب إلى صلاة العشاء، وإذا خرج من المعهد ذهب رأساً إلى إدارة جريدته «الشهاب» يكتب ويحرر، ويراسل «البصائر»، ويجيب على الرسائل فيفضي موهناً من الليل، حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول. ولم تصرفه الصحافة عن التدريس، وما من نظرية ظهرت في التربية والتعليم، أو كشوف العلم والفكر ؛ إلا استوعبها وأبدى رأيه فيها، وما من صحيفة في المشرق أو المغرب إلا نظر فيها واستخلص منها ما ينفع بني جنسه ووطنه ودعوته. وهو الذكي الفطن الفاهم لتيارات سياسة الغرب في الشرق ، وما تحمل في أطوائها من زاوية دعوته ومن زاوية أمر

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير ص 14.

العرب والمسلمين، ذلك إلى خبرة عميقة بالسياسة الاستعمارية في الجزائر، يتعقب أخطاءها عن علم وبصيرة، ويفند مزاعم المستعمرين ما اتصل منها بالإسلام أو باللغة العربية أو بتفوق العنصر الأوروبي على العنصر العربي الإسلامي[1].

### 13 . المؤرخ الأستاذ خير الدين الزركلي:

صاحب «الأعلام» والذي عاصر ابن باديس، ويعتبر شاهداً على جهاده، ينقل لنا شهادته قائلاً عنه: كان شديد الحملات على الاستعمار، وحاولت الحكومة الفرنسية في الجزائر إغراءه بتوليه رئاسة الأمور الدينية، فامتنع واضطهد وأوذي، وقاطعه إخوة له كانوا من الموظفين، وقاومه أبوه[2]، وهو مستمر في جهاده[3].

### 14 . د. عبد الحليم عويس:

أستاذ التاريخ الإسلامي الذي كتب كثيراً حول الدور الرائد الذي قامت به جمعية العلماء في تصحيح العقائد وتحرير العقول بالعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة، كتاب وسنة رسوله (ص)، يشيد هذا الأخير بدور رئيسها الشيخ ابن باديس ومنهجه في الإصلاح قائلاً: إن ابن باديس.. كان يؤمن إيماناً لا حدود له بدور القرآن الكريم في تكوين الجيل المنشود، على غرار الجيل الذي كونه القرآن في العصور الأولى للإسلام[4].

### 15 . الشاعر محمد العيد ال خليفة:

رافق شعرُه النهضةَ الإسلامية في الجزائر في جميع أطوارها، فقد ألقى قصيدة في حفل تكريم الإمام ابن باديس وعدّد فيها جهوده العلمية، وجهاده من أجل الحفاظ على شخصية الجزائر الإسلامية، نذكر منها هذه الأبيات:

(1) عبد الحميد بن باديس، د. مطبقاني ص 157.

(2) خير الدين الزركلي (4 / 60).

(3) عبد الحميد بن باديس، مصطفى حميدانو ص 85.

(4) عبد الحميد عويس، أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الفكر الإسلامي الإصلاحي في الجزائر ص 255.

بمثلك تعتز البــــلاد وتفـــخر وتزهــر بالعلـــم المنير وتزخـــر

طبعتَ على العلم النفوس نواشئاً بمخبر صدقٍ لا يدانيه مخبرُ

نهجت لها في العلم نهج بلاغة ونهج مفاداة كأنك حيدرُ

ودرسك في التفسير أشهى من الجنى وأبهى من الروض النظير وأبهر

ختمت كتاب الله ختمة دارس بصير له حلُّ العويص مُيسّر

فكم لك في القرآن فهم موّفق وكم لك في القرآن قولُ محرر[1]

## 16 . د. محمد البهمي:

إن معجزة الحياة في الجزائر بدأت بصوت الشيخ عبد الحميد وندائه الذي أيقظ المعنى وحوّل مناجاة الفرد إلى حديث الشعب[2].

## 17 . محمد الغزالي:

قد تكون مواهب الشيخ البشير الإبراهيمي البيانية أو البلاغية أعظم من مواهب ابن باديس، لكن الشيخ ابن باديس إمام وإمام جامع مواهب كثيرة تدير في فلكها الشيخ البشير الإبراهيمي وغيره من العلماء[3].

## 18 . روجي جارودي «مفكر فرنسي»:

قال: إن ابن باديس والإبراهيمي ورجال الجمعية حاربوا التعليم الاستعماري، الهادف إلى تحطيم مقومات الشخصية، وقطع الطفل الجزائري عن الثقافة العربية الإسلامية، وحاربوا كذلك العقلية الخرافية «المرابطية»، فتلك العقلية بما فيها من خرافات وإشاعات تتنافى مع روح الإسلام[4].

## 19 . إحدى الصحف الفرنسية:

ولعل من المفيد أن أنقل فقرات مما قالته فيه إحدى الصحف الفرنسية التي كانت تصدر بتونس، حين

(1) عبد الحميد بن باديس، مطبقاني ص 173.

(2) المدرسة الباديسة ومناهجها الدراسية، عيسى عمراني ص 209.

(3) عبد الحميد بن باديس، أندري ديرليك ص 208.

(4) المصدر نفسه ص 209.

سافر ابن باديس إليها من أجل حضور حفل ذكرى وفاة البشير صفر، قالت Le peti Matin : والشيخ ابن باديس يمثل حقًّا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الناري يستفز الجماهير، فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة وسلامًا. وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة التقديس، وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة، أما سُمعته فقد اخترقت البحار، وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله.

إن عملاً يقوم به ابن باديس لا يمكنه أن يتضاءل ولا أن يقف، إنه لعمل لا يسير إلا إلى الأمام، ولابد له من أن يتضخم وأن ينتشر، وأن يكتسح كالسيل العرم المدن والبادية فيحيي الموات ويتلف المعارضة، لقد حرك الشيخ بكلماته أوتار القلوب، فأبدع وأدهش وقطع الأنفاس من شدة التأثير، وابتلت المحاجر وسالت الدموع.

إن الذين يسوقون الشعوب من أمثال ابن باديس ؛ كانوا دائماً يصلون إلى أعلى الدرجات، إن لم يتموا أيامهم في المضيق المظلم، وإن لم يأت الاعتداد السياسي على تلك الحياة فيختم صفحتها.

وإن ابن باديس من هذه الناحية لقريب إلى «ميرابو» «وجوريس» «وزغلول»، لقد كان يستطيع أن يفعل ما يريد في الجموع التي كانت تستمع إلى خطابه، وهذا ما نستطيع أن نصف به هذا الرجل الخارق للعادة، وهل من اللازم أن أقول بأنه عندما سكت هذا الرجل وصفقت له الناس تصفيقاً لم أر مثله في حياتي أصبح كل كلام بعد ذلك غير مساغ[1].

هذا النص مقال كتب بالفرنسية، وتمّ ترجمته من الصحيفة المذكورة[2].

### 20 . شهادة الكاتب الفرنسي «فرنسيس جانسون»:

حيث قال الكاتب الفرنسي في صراحة واضحة: إن المعركة الباديسية أحدثت إصلاحاً شاملاً فيما وصل إليه الإسلام، بعد تخلصه من التحريف والشوائب التي علقت به نتيجة للتفسيرات المشكوك في صحتها، حيث

(1) ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير ص 59.

(2) المصدر نفسه ص 59.

تراكمت خلال قرون عدة، كما عملت على تعميم الثقافة العربية بإنشاء مدارس تتولى تدريس اللغة العربية ونشرها في الجزائر، كما نشرت الوعي القومي مما وقف عقبة في وجه السيطرة الاستعمارية، ومما أقلق سلطات الاستعمار التي كانت تستخدم فئة من رجال الدين المأجورين لتجعل الإسلام وسيلة لتخدير الشعب، كما قاومت خطة القضاء على اللغة العربية، واستخدام كل سلاح لمحاربة تعليمها ودثر ثقافتها، لتصبح نوعاً من التراث الذي لا يجد مجالاً للبقاء، في غير بضع عشرة مدرسة من المدارس العتيقة التي تقرأئ القرآن[1].

## 21. المؤرخ الكندي أندري ديرليك:

قدم المؤرخ الكندري أندري ديرليك رسالة علمية نال بها درجة الدكتوراة بعنوان عبد الحميد بن باديس مفكر الإصلاح وقائد الحركة الوطنية الجزائرية.

ولقد بذل المؤلف في رسالته هذه جهداً كبيراً ولعلها من أولى الرسائل الجامعية في العالم الغربي تتناول حياة ابن باديس بهذا الوضوح والقوة، فقد أنجزت عام 1971م أي بعد استعادة الاستقلال بسنوات قلائل[2].

لقد درس المؤلف نشاط ابن باديس بوصفه داعية، وربطه بكبار الدعاة في التاريخ الإسلامي منذ ابن تيمية إلى العصر الحاضر، ووقف على فكر ابن باديس في بعض المسائل التي حاول بعض المؤرخين المسلمين طمسها وتشويهها، مثل مسائل الاقتصاد والعمل.

وفيما يلي بعضاً من أقوال هذا المؤرخ: لقد أخذ ابن باديس على عاتقه القيام بدور لا يقصر فيه عمله ليكون المفكر الذي ينظّر لمجتمعه نظاماً فكرياً، بل ليكون الحركي الذي تحرك طاقاته الواسعة جماهير شعبه، من حالة الكسل التقليدية التي كانوا عليها[3].

ويتحدث عن نتائج أعمال ابن باديس فيقول: لقد كانت نتائج جهود ابن باديس أن احتفظت الجزائر

(1) المصدر نفسه ص 60.

(2) عبد الحميد بن باديس، د. مطبقاني ص 160.

(3) المصدر نفسه ص 160.

بشخصيتها الإسلامية العربية، في حين كانت أهداف فرنسا الصريحة بأن تحطم هذه الشخصية، ولكن الجزائريين استطاعوا تجنب ذلك وتفاديه[1].

ويأتي حديث أندري ديرليك حول اتساع نطاق عمل ابن باديس ليشمل جميع مجالات الحياة والفكر، ليرد على أولئك الذين يريدون قصر مجال العلماء المسلمين على العبادات؟ فيقول ديرليك: إن اهتمامات ابن باديس امتدت من النواحي الدينية إلى الشؤون السياسية، ولمس تفكيره الأمور الاجتماعية والثقافية، لقد عبر عن ارائه حول مسألة الحضارة للجزائريين وللبشرية أجمع، لقد أظهر اهتمامه لمبادئ الأخلاق في المجتمعات. وإن الذي دفعه لإبداء ارائه حول هذه الموضوعات المختلفة هي نظرته للعالم.

إن فكر ابن باديس منسجم مع الوضع الذي تبناه لأهمية الإسلام للإنسانية، إنه مما يهم الطالب الجزائري؛ أن يعرف المشاركة التي لا شك في أن ابن باديس قدمها لتغيير المجتمع الجزائري[2].

ويرى الباحث الكندي أن الحركة الإصلاحية ؛ هي التي وضعت قواعد الأمة للشعب الجزائري، فقد كان ابن باديس مقتنعاً بالشخصية الجزائرية المستقلة، فعمل جاهداً لإنضاج هذه الفكرة. ويرى الباحث أن نتيجة هذا العمل وإخلاص ابن باديس لهذه الفكرة ؛ أدى إلى ولادة الثورة الجزائرية سنة 1954م[3].

ومع بداية الحرب العالمية الثانية دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث، وبدأت الحركات السياسية والشعب الجزائري العظيم يستعد لملحمة الثورة الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي، وتوّجت جهود الحركة الوطنية الجزائرية بألوان طيفها المتعددة المعبرة عن إرادة شعبها ؛ بثورة عظيمة قلّ مثيلها في تاريخ الإنسانية،

(1) المصدر نفسه ص 160.

(2) المصدر نفسه ص 161.

(3) المصدر نفسه ص 163.

قضت على الوجود العسكري والسياسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري، وهذا ما سنعرف تفاصيله بإذن الله تعالى في الجزء الثالث من كتابي

**كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي**

**من الحرب العالمية الثانية حتى ثورة المليون شهيد**

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**

# الخلاصة

1 . أعلنت الحرب الكبرى سنة 1914م فجند الفرنسيون أبناء المغرب العربي وخصوصاً الجزائريين، فأخذ هؤلاء يفرون من الجندية ويلتجأئ الكثيرون منهم إلى شواهق الجبال حتى بلغ عدد اللاجئين مائة وخمسين الفاً، ونشأ عن ذلك اضطراب كبير أدى إلى مظاهرات عدائية قتل فيها عدد من الموظفين والمعمرين الفرنسيين.

2 . تمكنت فرنسا من اجتياز محنة الحرب العالمية الأولى بعد أن جندت 751،82 جزائرياً في إطار الخدمة العسكرية.

3 . أخرجت الحرب العالمية الأولى الحركة الوطنية الجزائرية من عدة وجوه، فهي أخرجتها عن العزلة، ووصل إلى الجزائر صدى ثورة 1917م البلشفية من جهة ومبادئ ولسن من جهة أخرى، وأتيح لعشرات الالاف من الجنود والعمال أن يروا طرق الحياة الجديدة، وأن يشهدوا مظاهر الحرية في فرنسا، وأضحى بوسع زعمائهم أن يطالبوا بالمكافأة على التضحيات الهائلة التي تمثلت في 56 ألف قتيل و82 ألف جريح من الجزائريين سقطوا أثناء القتال.

4 . علق الضباط الجزائريون بعد الحرب الأمل على مؤتمر فرساي، كي يلزم فرنسا بتطبيق مبادئ المساواة، ولكن الحكومة أحالت الأمير خالد على التقاعد.

5 . أُحيل الأمير خالد على التقاعد، فرجع إلى الجزائر ليكون ما أسماه كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين،

وهم أعضاء المجالس البلدية الذين استفادوا من التشريع الفرنسي الصادر سنة 1919م، والذي وسع دائرة تمثيل الجزائريين في هذه المجالس.

6 .كان الأمير خالد محل شك من السلطات العسكرية والمدن، وبدأ نجم الأمير يعلو نهاية الحرب لاعتبارات تعود إلى أنه كان من نسل الأمير عبد القادر، وأنه كان محارباً قديماً قضى زمن الحرب على الجبهة الأوروبية، كانت للأمير خالد عدة مؤهلات سهلت له تقلد الزعامة في تلك المرحلة الصعبة من تاريخ الجزائر.

7 . اشتهر الأمير خالد بالشجاعة، وكان عنيفاً في مواقفه، وعندما أهانه الهاشمي بن شنوف طالبه بالمبارزة، وعندما كان بالمغرب أنقذ عمه من سجن سلطان المغرب مولاي حفيظ متنكراً في هيئة حمّار.

8 . ظهرت وطنيته الفذة ونشاطه السياسي بعد الحرب العالمية الأولى.

9 . عمل على توحيد صفوف المناضلين الجزائريين وتشجيعهم على خلق حزب جزائري موحد قبل المشاركة في الانتخابات البلدية.

10 . بث الأمير خالد روحاً جديدة في الشعب، فانطلقت الصحافة الأهلية تركز على نقاط الظلم المسلطة على الجزائري، الذي يعاني منه الإنسان البسيط والفلاح العامل.

11 . في 1922م ألقى الأمير خالد أمام رئيس الجمهورية الفرنسية خطاباً معتدلاً بعيداً عن الثورة، ذكّر فيه بوفاء المسلمين ومساهمتهم في حرب 1914م . 1918م، وبالعلاقات التي نسجت بين الجانبين الجزائري والفرنسي خلال قرن تقريباً من حياة مشتركة، وطالب بضرورة إعطاء المسلمين ممثلين لهم في البرلمان، لكي يتمكنوا من عرض مشاكلهم والدفاع عن طموحاتهم، وكان الخطاب معتدلاً ومتوازناً، وبالرغم من ذلك اعتبر معادياً لفرنسا، وراحت الصحافة الفرنسية تتحدث عن ظاهرة القومية العربية الخطيرة، التي يقودها الأمير خالد.

12 . قدم الأمير خالد برنامجه وكان يحتوي على الأهداف الآتية:

. إلغاء كل القوانين الاستثنائية المسلطة على المسلمين، وتطبيق القانون العام عليهم.

. تمثيلهم في غرفتي البرلمان.

. التعليم الإجباري للعربية والفرنسية.

. تأسيس جامعة عربية.

. إلغاء المناطق العسكرية والأحواز المشتركة.

. ربط مباشر للولايات الجزائرية الثلاثة بفرنسا.

. دخول المسلمين صفة المواطنة الفرنسية في إطار الأحوال الشخصية.

13 . لقد تحالفت القوى الحكومية والقوى الاستعمارية والقوى التابعة للاستعمار ضد الحركة التي قادها الأمير خالد، وتمّ مضايقته ثم رحيله إلى المنفى.

14 . بعد أن طرد الأمير خالد وتراجعت جماعته عن النضال ؛ تعلق الشعب الجزائري بثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، ورأى فيها أمل الخلاص من المستعمر، فقد سارت روح الأهالي نحو الغرب حيث ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، وانتشرت رسالة الأمير الخطابي التي وجهها لشعوب المغرب العربي، يحثهم على الثورة، ولاحقت السلطة البعض واعتقلتهم بتهمة بث الدعاية عن ثورة الريف بين الأهالي ونشر رسالة الخطابي، وتأسست بالجزائر لجان تجمع له المال.

15 . وبرغم الضغوط التي تعرض لها الأمير خالد لكي يتخلى عن النضال السياسي، فقد حاول عدة مرات أن يجدد نشاطه السياسي ويدافع عن أفكاره التحررية وخاصة في فرنسا وسوريا.

16 . ولما سقطت وزارة بوانكاريه سنة 1924م، وانتصرت كتلة اليسار بزعامة بلوم وهيريو ؛ سمح للأمير خالد بالعودة لفرنسا، حيث أسس لجنة من أبناء الشمال الأفريقي ضمنت عدداً من العاملين، من بينهم السيد مصالي الحاج، وعبد العزيز المنور، والسيد علي الحمامي من مراكش، ثم عاد إلى الإسكندرية.

17 . اتهم الأمير خالد سنة 1925م بالتامر على فرنسا ودعم الأمير عبد الكريم الخطابي في ثورته ضدها، وضغط عليه في الإسكندرية، وهجم البوليس الإنجليزي على منزله وأُخرج مكبلاً بالحديد إلى سوريا، حيث بقي بها إلى أن مات سنة 1936م.

18 . استمر الأمير خالد في دعم النضال والكفاح في الجزائر والمغرب، وأرسل رسالة شهيرة للشعب المراكشي في شمال المغرب الأقصى وزعيمه عبد الكريم وأخرى للشعب المصري والتونسي، ومما جاء في الرسالة الموجهة إلى ثوار المغرب، أن العمال المغاربة لمعامل الناحية الباريسية مجتمعين بمؤتمرهم الأول في هذا اليوم التاريخي 7 ديسمبر سنة 1924م ؛ يهنئون إخوانهم المراكشيين وزعيمهم البطل عبد الكريم بانتصارهم على الاستعمار الإسباني، ويصرحون بتضامنهم معهم في كل ما من شأنه أن يحرر بلادهم، ويشاركونهم في الهتاف باستقلال الشعوب المضطهدة وسقوط الاستعمار العالمي والاستعمار الفرنسي.

19 . لم يكن الأمير خالد سحابة صيف زائلة، بل كان لبنة من لبنات الوطن الجزائري العزيز، وسجل اسمه في سجل الخالدين، وترك بصماته في مختلف الحياة النضالية بالجزائر.

20 . لما توفي عام 1936م بدمشق نعته جمعية علماء المسلمين الجزائريين واعتبرته شهيداً وصلى عليه ملايين من أبناء الشعب الجزائري صلاة الغائب يوم العيد الكبير، ورثاه الشاعر محمد العيد ال خليفة غداة وفاته بقصيدة رائعة جاء فيها:

ما أطول الموت باعا ... لم يخش حتى السباعا

سطا علينا بسوط ... من القضاء فراعا

وأودع التراب نجما ... منه اقتبسنا شعاعا

وصارماً هاشمياً ... به هشّمنا القلاعا

إلى أن قال:

| | |
|---|---|
| قـل للجـــزائر أدي | حق الزعيم المضاعا |
| هلا اصطنعت جميلاً | لدى الجميل اصطناعا |
| هلا ذكرت كفـــاحاً | مضى له وصراعا |
| كم ذاد عنك وقاسى | فيك الأذى والنزاعا |
| وكيف نــاب وثـــوقا | بصدقه واقتناعا |
| وكيــف نادى فدانت | له الرؤوس اتباعا |

21 . يعد الزعيم الحاج أحمد مصالي من الشخصيات الجزائرية التي لعبت دوراً أساسياً في الحركة الوطنية، ومنذ بداية مساره السياسي والنضالي كان يتبنى مطالب الاستقلال والتحرر.

22 . ولد الحاج أحمد مصالي عام 1898م بمدينة تلمسان التابعة انداك لعمالة وهران، وينتمي إلى عائلة عريقة أصيلة في تلمسان هي من أصل كرغلي، أي من أب تركي وأم جزائرية، وقد كان والداه فخورين بانتمائهم إلى هذا الوضع الاجتماعي المتمركز في المدن.

23 . عانت عائلته مثل بقية الشعب من سياسات الاستعمار الفرنسي وتعرضت للاطهاد الفرنسي.

24 . تأثر بالطريقة الدرقاوية، وكان في صغره يتردد على زاويتها واستمع إلى ما يقوله العم عبد القادر ممشاوي مقدم الزاوية، وما يتحدث به عن الإسلام ومبادئه ومساوأئ الاستعمار، وما يحدث بالمغرب الأقصى والدولة العثمانية ووجد الشاب مصالي النموذج والقدوة في الجانب الديني ؛ في العم عبد القادر الذي كان يكثر من الحديث العلمي والتربوي عن الله ورسوله (ص) والإسلام ومكة والشام وقصص المرابطين والزهاد والفقراء إلى الله.

25 . نتيجة لقرار التجنيد العسكري الإجباري الذي صدر عام 1908م، تمّ تجنيده في عام 1918م في الجيش الفرنسي، على غرار الشباب الجزائري انداك، وبقي في مدينة بوردو بفرنسا مدة ثلاث سنوات، وتمكن

من ملاحظة اللامساواة واللاعدل بين ما كان يعيشه الجزائري المسلم في ريف تلمسان من فقر وأمية واستغلال، وريف بوردو حيث يعيش المواطن الفرنسي في رخاء وسعادة، وبدأت نفسه تفكر بجدية في خلاص شعبه من أغلال الاستعمار.

26 . بعد الحرب العالمية الأولى رجع أحمد مصالي إلى الجزائر، وأصبحت له شبكة من العلاقات الواسعة مع أبناء الجزائر الذين تعرف بهم في فرنسا، إلا أنه لم يستطع البقاء بالجزائر بسبب المجاعة التي مرت بها الجزائر في الأعوام 1920 . 1921 . 1922 . 1923م، وقرر الهجرة إلى فرنسا في أكتوبر 1923، حيث كان سنه لا يتجاوز 25 سنة، وبدأت مرحلة جديدة في حياته النضالية.

27 . اشتغل في المصانع الفرنسية وفي التجارة، وعُرف بكثرة احتجاجاته ومطالباته لأصحاب المعامل الفرنسيين بضرورة تحسين ظروف العمال، ومنحهم الحقوق والأجور التي تناسب أعمالهم، والتي يقرّها القانون الفرنسي، واشتهر في صفوف العمال كزعيم نقابي.

28 . تأثر بالحركات العمالية والنشاطات النقابية، وحرص على تطوير تعليمه والتزود بالمعرفة والثقافة في العلوم الإنسانية واللغوية، وكان يحضر في المحاضرات التي تقام في جامعة السوربون وخاصة في مجال العلوم الإنسانية التي كان ولعه بها شديداً، والتي أسهمت في صقل أفكاره وتوجيه شخصيته إلى القيم الإنسانية العالية.

30 . استفاد من خبرات الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يملك ثقافة عالية وقدرة على المرافعة والمطالبة بالحقوق وأسلوباً فريد في إقناع الجماهير.

31 . وضعته أقدار الله عز وجل في فترة تكوين وإعداد، ليتهيأ للمرحلة القادمة التي سيباشر فيها العمل السياسي، وسيصبح واحداً من أشهر وأقوى رجال الحركة الوطنية بالجزائر، وأكثرهم نفوذاً وشعبية وشخصية فريدة أثارت الخلاف وتباينت النظرة إليها.

32 . تزوج مصالي واحدة من الفرنسيات المنضويات في الحزب الشيوعي الفرنسي، كما أنه استفاد منها

كثيراً في مجال إدارة الحزب والتسيير واليات وطرق التواصل والقيادة والتنظيم، وكانت بالفعل رحلته إلى فرنسا مناسبة هامة وخطوة مهمة في حياته، حددت له مصيره ووضعت رجليه على بداية الطريق في مجال النضال والسياسة ومقاومة الاحتلال.

33 . تضاعف الحس الوطني مع احتكاكه برموز النضال والكفاح في العالم والبيئة الفرنسية التي عاش فيها، وأصبح يرى من الواجب عليه أن ينشط ضمن حزب شمال إفريقيا، هذا الحزب الثائر الذي كان يستجيب لمطامحه وآماله وتوجهاته، والتي الت رئاسته وقيادته في الأخير إليه.

34 . وعلى الرغم من بقائه في ديار الغربة إلى غاية وفاته في فرنسا في 4 جوان 1974م ومواكبته للحضارة الغربية ؛ فإنه بقي متمسكاً بتعاليم الإسلام قولاً وعملاً، وكانت حياته حافلة وغنية بالمواقف الشجاعة والاراء الجريئة، التي ساهمت في تحقيق الاستقلال والمطالبة بالسيادة الوطنية.

35 . شارك أحمد مصالي في دعم وتطوير حزب نجم شمال إفريقيا الذي أسس في 20 جوان 1926م، وقد تأسس هذا الحزب في ظروف معينة، كنفي الأمير خالد وثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، فضلاً عن التطور الإيديولوجي العالمي كتقرير المصير، وظهور الشيوعية. وقد ساهم الحاج أحمد مصالي مع اخرين في تعزيز البعد الإسلامي في الحزب.

36 . لعب حزب نجم شمال أفريقيا دوراً كبيراً وأساسياً في توعية العمال المهاجرين الجزائريين بحقوقهم والمطالبة بالاستقلال، ويعد النجم حركة وطنية ذات اتجاه ثوري يضم العمال المهاجرين الجزائريين والمغاربة والتونسيين الذين واجهوا حياة صعبة مزدوجة، فمن جهة أخرى يعانون من التهميش والإقصاء بفرنسا، ونشأته وتطوره هو نتيجة لمسار التنشئة السياسية التي تمت في وسط التنظيمات النقابية اليسارية.

37 . لقد شارك أحمد مصالي في المؤتمر المناهض للإمبريالية في عام 1927م، وعبر خلالها صراحة عن مجموعة من المطالب كتلك المتعلقة بالاستقلال والتي أصبحت تشكل فيما بعد قاعدة النضال من أجل التحرير الوطني.

38 . ارتبط النشيد الوطني الجزائري الذي كانت تغنيه الجماهير ومناضلو حزب نجم شمال إفريقيا باسم شاعر الثورة الكبير مفدي زكريا الشاعر العظيم الذي كان من مناضلي هذا الحزب.

39 . بعد خروج الحاج أحمد مصالي من السجن تعرض للمضايقات والمحاكمات القضائية مع زملائه مما جعله يفر إلى سويسرا، حيث التقى بأمير البيان شكيب أرسلان للمرة الثانية، بعد أن التقى به في المؤتمر الأوروبي الإسلامي في 1934م، فكان اتصاله معه يومياً وشجعه على المقاومة.

40 . ساعد شكيب أرسلان الحاج أحمد مصالي الخروج نهائياً من الفلك الشيوعي العمالي إلى الفلك العربي الإسلامي، وإن كان الزعيم الحاج أحمد مصالي قد تشبع بقيم الإسلام والعروبة منذ طفولته وشبابه في الجزائر.

41 . تميز الحاج أحمد مصالي بخطاباته الثورية للشعب الجزائري، وكان يستشعر في هذه الفترة المسؤولية العظيمة التي تولاها في مجال الذود عن قضية شعبه ووطنه.

42 . في 11 مارس 1937م أسس الحاج أحمد مصالي حزب الشعب الجزائري في باريس، فأعطى للحزب صبغة شرعية، وجعل منه وسيلة لتحقيق هدف رفع الجزائر إلى مرتبة الأمم الأخرى، التي تتمتع بكل الحقوق. ثم نقل الحزب من فرنسا إلى الجزائر في نوفمبر 1938م إلا أنه حل في 26 سبتمبر 1939م بسبب مواقفه الوطنية الثابتة والمطالبة بالاستقلال.

43 . ما يميز حزب الشعب الجزائري هو طابعه الجزائري البحت، حيث ركز في مطالبه على استقلال الجزائر، وهذا بعد أن كان نجم شمال إفريقيا في برنامج 1927م يطالب باستقلال شمال إفريقيا، ويعود هذا أساساً لانتقال حزب الشعب الجزائري من باريس إلى الجزائر.

44 . مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، وإصدار فرنسا للعفو الشامل، عاد الحاج أحمد مصالي إلى فرنسا ثم

إلى الجزائر في أكتوبر 1946م، وأسس حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD للمشاركة في الانتخابات التشريعية.

45 . وقد تقرر في المؤتمر لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في 15 فيفري 1947م إنشاء المنظمة الخاصة كهيئة عسكرية تتولى الإعداد للثورة، وعين على رأسها الشهيد «محمد بلوزداد»، ثم ولأسباب صحية حل محله الحسين ايت أحمد ليخلفه أحمد بن بلة.

46 . أهم الصحف التي أنشأها الحاج أحمد مصالي جريدة الإقدام، والأمة، والشعب، والحرة، وصوت الشعب الجزائري، والصحراء، وصوت العمال الجزائريين، وأخبار الجزائر.

47 . إن مواقف الحاج أحمد مصالي من قضايا التحرر من الهيمنة الاستعمارية، أمر بدأ مبكراً أثناء البدايات الأولى لنشاطه في حزب شمال أفريقيا، فقد كان من أهم دعاة وداعمي التحرر في العالم العربي والإسلامي.

48 . حدث خلاف بين مصالي وأنصاره بسبب الاختلاف بين الشباب والشيوخ والكهول، فقد كان أول نوفمبر بداية لصفحة جديدة من تاريخ الجزائر، أشعل لهيب ثورتها وأنار طريقها شبابٌ يتدفق حيوية ونشاطاً لنيل حريته بأي ثمن، فكانت تلك المرحلة والصفحة الجديدة في تاريخ الجزائر تتطلب رجالاً جدداً، وهذه سنن الله في حركة المجتمعات ونضال الشعوب وكفاح الأمم. وتبقى الشعوب الحية تحترم نضال وكفاح وجهاد كل أبنائها شيوخاً وكهولاً وشباباً رجالاً ونساء.

49 . لقد واصل الزعيم الحاج أحمد مصالي حياته في المنفى بفرنسا، وتوفي في 3 جوان 1974م نتيجة لمرض عضال ألم به، وكان السبب في وفاته. وقد دفن بمسقط رأسه تلمسان في أجواء مهيبة تليق بإنجازات الرجل.

50 . يقول شكيب أرسلان في مصالي الحاج: ولو كانت الشبيبة الإسلامية كلها على نمطه لتحرر الإسلام من زمن طويل، إن هذه شهادة من رجل علم وجهاد يشهد له الجميع بذلك.

. وها هو عدوه اللدود الجنرال الفرنسي شارل ديغول يقول في شخص الزعيم أحمد مصالي: سخرت من تشرشل وروزفلت وستالين، وجميع عظماء العالم ولكنني أخفقت مع مصالي. فشارل ديغول الذي يعتبر أحد كبار الاستراتجيين العسكريين في التاريخ العالمي في القرن العشرين يعترف بعبقرية الرجل.

51 . يعتبر الزعيم فرحات عباس إحدى الشخصيات الوطنية البارزة التي تركت بصماتها في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، إذ كان يطالب بالمساواة في إطار الإندماج والتجنس، إلا أنه غيّر مواقفه السياسية فيما بعد.

52 . شارك فرحات عباس في المؤتمر الإسلامي لينتهي هذا المؤتمر بجملة من المطالب منها ربط الجزائر بفرنسا والحفاظ على الأحوال الشخصية للجزائريين الأهالي وتقديم مطالب اجتماعية، كالتعليم الإجباري للجنسين، ومطالب اقتصادية، كإنشاء تعاونية فلاحية ومطالب سياسية، كإصدار العفو العام الشامل، ووضع هيئة انتخابية واحدة، وإلغاء القوانين والمؤسسات الاستثنائية وتمثيل المسلمين في البرلمان، وشارك فرحات عباس ضمن الوفد الذي توجه إلى فرنسا لتقديم هذه المطالب للسلطات الفرنسية.

53 . في عام 1938م، حدثت القطيعة بين الدكتور بن جلول والزعيم فرحات عباس، وأسس هذا الأخير الاتحاد الشعبي الجزائري في جويلية 1938م، وهذا بعد فشل المؤتمر الإسلامي في تجسيد المطالب الإصلاحية، فأدرك الزعيم فرحات عباس أنه من الضروري إنشاء حزب سياسي جزائري لمواجهة المعمرين وللدفاع عن المطالب الإصلاحية وتحقيقها وهو يستند على الجماهير، وتكون قاعدته ذات صلة بالمسلمين الجزائريين، فاعتقد أن الطرح النخبوي لوحده لا يكفي، بل لابد من الاعتماد على الجماهير، وتبنّي مبدأ من الشعب ولصالح الشعب، واعتبر أن الأسواق والمقاهي والأكواخ يجب أن تكون مجالات للنشاط السياسي، وعمل على تشكيل خلايا وفروع محلية لحزبه شارحاً للسكان مطالبه، كمطلب اللغة العربية، وحرية المعتقد، وانتقاد الاندماج والأمبريالية.

54 . في 1943/2/7م أسس فرحات عباس مع قوى سياسية متعددة حركة البيان وكانت مطالبهم معتدلة، ولكنه تاريخ الجزائر، وفشل سياسة الاندماج، واستعرض ثورات البلاد والمقاومة ثم قدم المطالب التي تتلخص فيما يلي:

ـ إدانة الاستعمار وإلغاؤه، أي إلغاء استغلال شعب من شعب الذي يعتبر نوعاً من العبودية في القرون أوسطية.

ـ منح حق تقرير المصير لسائر الشعوب صغيرة وكبيرة.

ـ الحرية والمساواة لسائر السكان دون تمييز بين عرق أو دين.

ـ إلغاء الملكية الإقطاعية بواسطة إصلاح زراعي وضمان حقوق العمال الفلاحية.

ـ الاعتراف باللغة العربية، كلغة رسمية في نفس مستوى الفرنسية وغير ذلك من المطالب.

55 . في مارس 1944م أسس حركة أحباب البيان والحرية شده بمدينة سطيف، وتمثلت أهم أهدافها في استنكار الاستبداد وترويج فكرة دولة جزائرية، وتأسيس جمهورية مستقلة مترابطة بروابط اتحادية مع الجمهورية الفرنسية الجديدة المناوئة للاستعمار. وقد زاد تأثير الزعيم فرحات عباس ولو لفترة مؤقتة بسبب غياب حزب الشعب الجزائري لاعتقال قادته وقمع ما تبقى.

56 . أيد الشيخ البشير الإبراهيمي حركة أحباب البيان والحرية، ولم يعترض الحاج أحمد مصالي وهو يقول لعباس: لكن تأكد أن فرنسا لن تعطيك أي شيء، فرنسا لن تستجيب إلا للقوة، تعطي لنا ما نفتكه بالقوة.

57 . حُلّت حركة أحباب البيان والحرية في 15 ماي 1945م بعد مجزرة 8 ماي 1945م، وتمّ توقيف الزعيم فرحات عباس والدكتور سعدان في مكاتب الحكومة العامة.

58 . شكلت أحداث 8 ماي 1945م منعرجاً ودفعاً في نضال الحركة الوطنية، وأصبحت القضية الوطنية يتطرق إليها بوسيلة العنف، وقد بينت هذه الأحداث أن العنف يتولد في الأوساط الريفية، مما جعل هؤلاء الريفيين يشكلون نواة جيش التحرير الوطني، فضلاً عن طرح الاتجاه النشيط في الحركة الوطنية للعنف كوسيلة لتحقيق هدف الاستقلال، وعملوا على إنشاء المنظمة الخاصة في إطار حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

59 . في مارس عام 1946م صدر قرار العفو الشامل، وعاد فرحات إلى الحياة السياسية وأنشأ حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UMDA .

60 . في مؤتمر حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UMDA من 25 . 27 سبتمبر 1948م تبنى فرحات عباس المبادئ التالية:

. حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

. استمرار الإمبراطورية الفرنسية.

. تحرير المسجونين السياسين.

. إلغاء الانتخابات المزورة.

. التأكيد على التعليم.

61 . انضم فرحات عباس لجبهة التحرير الوطنية في 26 ماي 1955م، وتحول من رجل حوار وتعبير عن طريق القانون، إلى رجل ثوري يستعمل العنف والقوة لاسترداد حقوق شعبه المهضومة.

62 .كان أول رئيس حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958م، والتي تضمنت مختلف التيارات السياسية من الليبراليين والعلماء والعسكرين.

63 . بعد التحرير مارس العمل السياسي مع جبهة التحرير، إلا إنه اختلف مع أحمد بن بلة، وبعد ذلك اعترض على الانقلاب العسكري الذي قاده العقيد هواري بومدين 1956م، وانتقد توجهات النظام السياسي

وأصدر بياناً مشهوراً سنة 1967م مع مجموعة من السياسيين، وقد سلم هذا البيان . الذي هو نداء إلى الشعب الجزائري إلى رئيس الدولة الهواري بومدين، وقد كان الرد فوراً بوضع الزعيم فرحات عباس والاخرين تحت الإقامة الجبرية، ولم ترفع عنه الإقامة الجبرية إلا في عام 1977م وبقي ساخطاً على النظام إلى غاية وفاته في 24 ديسمبر 1985م.

64 .كان فرحات عباس نزيهاً ومخلصاً ولعب دوراً كبيراً أثناء الثورة التحريرية، ولم يعد يطالب بالاندماج بل طالب بالاستقلال، وكشف نفاق سياسة فرنسا وكافحها بمنطق الفكر الغربي وسلاحها وسدد رميته في الصميم.

65 . ينحدر الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الحديثة في الجزائر من أسرة عريقة أصيلة في العلم والجاه والسلطة، ولها باع طويل في العلوم الشرعية بمدينة قسنطينة منذ عصور، وتعود أصولها إلى الأمير المعز بن باديس الصنهاجي 406 . 452هـ، الذي ثار على الدولة الفاطمية في مصر، وقطع الصلة السياسية والمذهبية معها، وألغى المذهب الشيعي وأعاد الاعتبار إلى المذهب المالكي، مذهب أهالي شمال أفريقيا.

66 . ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس 1889م وترعرع في أحضان أسرته العريقة في الجاه والمال والعلم والنضال، وليس غريباً أن يكون سليل أجداده العلماء.

67 . وجهه والده وجهة صالحة في الحياة واختار له طريق العلم، وانتقى له معلمين يتميزون بالكفاءة والعلم والتقوى والاستقامة، ورعاه هو صغير وكفاه مؤونة الحياة وهو كبير.

68 . حفظ ابن باديس القرآن الكريم على الشيخ المداسي، وأتم حفظه مبكراً وهو في الثالثة عشرة من عمره، ومن شدة إعجاب المؤذن بذكائه وسيرته الحميدة قدمه ليصلي بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير، وتعلم العربية والمعارف الإسلامية والتربية الأخلاقية والروحية على يد الشيخ حمدان الونيسي.

69 . رحل إلى تونس في طلب العلم وظهر منه نبوغ علمي وانفتاح كبير على المدرسة الخلدونية، ودرس علوم الالة والشرعية على أيدي علماء الزيتونة وكان له إصرار عظيم على المطالعة، وكانت رحلته إلى تونس العلمية منعطفاً هاماً وحاسماً في حياته تلقى تكويناً علمياً واسعاً وعميقاً وشاملاً، ثم بعد أن أنهى دراسته عاد إلى تونس معلماً ومربياً وخطيباً ومفتياً، وكانت مدة دراسته أربع سنوات وعاد إلى قسنطينة سنة 1913م.

70 . ومع نهاية شهر رمضان عام 1331هـ / 1913م ارتحل ابن باديس إلى تونس، ومنها قصد مصر ثم الحجاز ليلحق موسم الحج ويقوم بتأدية الفريضة. وبعد أن فرغ من تأدية فريضة الحج ذهب إلى المدينة واستقر به المقام فيها.

71 . ألقى دروساً في المسجد النبوي الشريف وأعجبوا به إعجاباً شديداً مما لفت الأنظار إليه. وفي هذه الأثناء وهو في المدينة أشار عليه شيخه الونيسي بالبقاء ورغّبه فيها، ولكن الشيخ حسين أحمد الهندي لم يوافقه على ذلك، بل نصحه بضرورة العودة إلى وطنه لخدمة بلاده، ومحاولة إنقاذها مما هي فيه بما توسم فيه من حزم وعزم وصلاح قائلاً له: ارجع يا بني إلى وطنك فهو بحاجة إليك وإلى أمثالك، فالعلماء هنا كثيرون يغنون عنك، ولكنهم في وطنك وفي مستوى وطنيتك وعلمك قليلون، وخدمة الإسلام في بلادك أجدر لك وأنفع لها من بقائك هنا.

72 . وأهم ما قام به في هذه الفترة التي أقامها بالمدينة التقاؤه بأخيه في الجهاد . فيما بعد . الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وهناك وضع الشيخان خطة شاملة مستقبلية لتحرير الجزائر، حيث وضعت الأهداف وحدد مكمن الداء، والوسائل المناسبة لتحقيق الأهداف، ومراحل تنفيذ الخطة ونتائج كل مرحلة.

73 . قفل ابن باديس راجعاً إلى الجزائر من المدينة وفي طريق عودته مر بكل من سوريا ولبنان وفلسطين واجتمع برجال العلم والفكر والأدب فيها، كما مرّ بمصر وزار الأزهر الشريف وعلماءه، وأثرت هذه الزيارات

الخاطفة واللقاءات السريعة بالعلماء على تفكيره وثقافته، وشاهد الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية بالحجاز والشام ومصر، وهذا ساعده على توسيع أفقه وبصّرته رحلة المشرق بطريق الخلاص، والثورة الفكرية التي تعتمد على التربية في تكوين قادة من المجتمع، والدفع بهم نحو الصفوة المبدعة والنخبة المفكرة.

74 . تأثرت شخصيته بعدة عوامل تضافرت في صقلها، وجعلت منها شخصية فذة في تاريخ الجزائر الحديث، ومن أهم هذه العوامل، تربية والده له وشيوخه وأساتذته ومن أشهرهم:

. محمد حمدان الونيسي.

. محمد النخلي القيرواني.

. محمد الطاهر بن عاشور.

. محمد البشير صفر.

وممن تأثر بهم عن طريق كتبهم وأفكارهم أو لقاء سريع:

. محمد رشيد رضا.

. محمد بخيت المطبعي.

. حسين أحمد الفيض ابادي الهندي.

. القاضي عياض.

. أبو بكر العربي المالكي وغيرهم.

ومن العوامل التي أثرت في شخصية ابن باديس كذلك البيئة الثقافية ومؤازرة زملائه في جمعية العلماء له، كالشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، والعربي بلقاسم التبسي، ومبارك الميلي.

75 . ومن العوامل التي أثرت في شخصيته الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من خصال الكرم والنجدة والشهامة وأصول الكمال الإنساني والاستعداد الكامل للبذل والعطاء والتضحية بكل غالٍ ونفيس من أجل المصلحة العامة.

76 . والعامل السادس والأخير من عوامل تكوين شخصية ابن باديس هو «القران الكريم»، وهذا العامل يفوق غيره من العوامل السابقة، وقد وهب له الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزء الأكبر من حياته الخصبة، بتعلمه وتدبره ثم تفسيره للناس في الجامع الأخضر من أجل هدايتهم به حتى أتمه تفسيراً ودراسة في خمسة وعشرين عاماً.

77 . اتصف ابن باديس في سيرته العطرة بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق والإخلاص والدعوة إلى الله على بصيرة والصبر والرحمة والعفو والعزيمة والهمة العالية والنظام والدقة والزهد والورع والاستقامة.. الخ

ومن أهم الصفات التي تميز بها: حيوية عالية، ثباته على المبدأ، وشجاعته وصرامته في الحق، والحلم والتسامح، والتواضع والزهد، والجدية وحسن استغلال الوقت، والتطوير والتجديد، وروح الفريق، ومؤثر.

78 . في ظروف تاريخية واجتماعية وثقافية وسياسية عصيبة ومأساوية، كان الشعب يعيشها انذاك، بدأ ابن باديس في نهضته العلمية والتربوية واستطاع أن يكوّن جيلاً من العلماء والخطباء والشعراء والأدباء.

79 . شرع ابن باديس في التعليم بالجامع الأخضر، ورابط فيه مدرساً وفي كل من مساجد سيدي قموش وسيدي عبد المؤمن وسيدي بومعزة، وسيدي فتح الله، ينتقل بينها ليلاً ونهاراً، حتى أنه لم يكن يعرف الراحة في ممارسة عمله الإصلاحي الجهادي.

80 . أسس مدرسة للتربية والتعليم الإسلامي، واهتم بالأيتام والمحاضرات في النوادي، وأسس مصنع للصنائع مع أهل الخير، وكانت اللقاءات مستمرة بين الإبراهيمي وابن باديس، توسع التعليم المسجدي وكثر الطلاب وساهم الشعب في دعم التلاميذ، وبدأت الأفواج من الطلبة تتخرج على يدي ابن باديس مع مرور الزمن، وتفتح المدارس والمعاهد والجمعيات في المدن والقرى.

81 . وامتدت المرحلة الأولى من جهاده الإصلاحي ثماني عشرة سنة من العمل والجهد المتواصل، تمثلت أولاً في مرابطته مردساً ومعلماً بالجامع الكبير، ثم بالجامع الأخضر من بعده، وفي سيدي قموش وغيرها من المساجد.

82 . استطاع ابن باديس بعمله التعليمي والتربوي المكثف والمنظم والمتواصل أن يخرج جيلاً من الشباب المتشبع بقيم الإسلام ولغته واداها ويعتبر هو نفسه أن هذه المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف، هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر التي تخرجت على يديه، وأصبح أفرادها ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة وتركيب عربي حر، ويُحبرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم من إخوانهم في المشرق العربي، ويعتلون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية.

83 . يمكن القول أن ابن باديس قاد ثورة فكرية وحركة ثقافية وتحولاً معرفياً ساهم في نهضة الجزائر، وإعداد جيل المقاومة والجهاد والذي أعلن الثورة على الاستعمار.

84 . انتقل ابن باديس بالعمل الإصلاحي الجهادي من مجال العمل المسجدي والمدرسي إلى مجال العمل الصحفي، فإدراكاً لأهمية وسائل الإعلام والاتصال ودورها في الاتصال بالقاعدة الشعبية العريضة بمختلف شرائحها بحكم أنها مدارس متنقلة تساهم بشكل فعّال في نشر الأفكار والمبادئ، وقد أسس مجموعة من الصحف من أشهرها المنتقد والشهاب وتعرضت للمضايقات والمصادرة وسحب الترخيص إلا أنه استمر بعزيمة فولاذية في هذا المجال مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه.

85 . تضافرت ظروف عديدة وعوامل كثيرة، ساهمت جميعها في إظهار «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ومن أهمها، حاجة الشعب لهذه الجمعية، الثورة التعليمية، التغيير الفكري، والظروف التي نشأت فيها الجمعية.

86 . وبعد اللقاءات المتعددة التي تتم بين ابن باديس والبشير الإبراهيمي بعد رجوعهم إلى الجزائر والتواصل مع العلماء وإعداد جيل مستقبلي نجحوا في إعداده، تمّ الإعلان عن الجمعية في عام 1931م.

87 . تأسست جمعية علماء المسلمين الجزائريين يوم الخامس من ماي 1931م في نادي الترقي بالعاصمة إثر دعوة وجهت إلى كل عالم من علماء الإسلام في الجزائر من طرف هيئة مؤسسة من أشخاص حياديين ينتمون إلى نادي الترقي.

88 . تمّ إختيار ابن باديس رئيساً لجمعية علماء المسلمين في غيابه، وبدأت الحركة الإصلاحية في طورها الجماعي المنظم، واستقبلها الشعب بترحاب عظيم، وبدأت حركة التجديد في الخطاب الديني على مستوى القطر كله، وأعلنت الجمعية قانونها الأساسي، ووضحت فيه غايتها من محاربة الافات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل والافات الدينية، وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل، وبينت موقفها من التعليم والبدع والمنكرات العامة والإلحاد والتبشير.

89 . بنت جمعية علماء المسلمين أصولها الفكرية على مقاصد الشريعة وأصولها، وجعلت من القرآن الكريم والسنة النبوية مرجعية عليا لها في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات..الخ

90 . عمل الاستعمار الفرنسي بشتى الطرق والأساليب لتفجير الجمعية من الداخل، ولكنها في النهاية فشلت، وعملت الإدارة الفرنسية على إصدار القوانين التعسفية في حق رجال جمعية علماء المسلمين ونشاطها، ولكنها قوبلت بالصبر والثبات والعزيمة.

91 .كانت حركة ابن باديس الإصلاحية روحاً جديدة، ودفعاً إيمانياً متواصلاً جعلتها تستمر في أداء رسالتها ومواصلة عطائها ويصف لنا الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله تلك اليقظة فيقول: لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس فكانت ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدّر يتحرك ويا لها من يقظة.

92 . اعتمد ابن باديس على القرآن الكريم كمنهج رباني في دعوته الإصلاحية، فاستمد منه العقائد والعبادات والأخلاق والهدايات والمقاصد في تعليمه وتربيته وارشاداته

93 .كان يحث الناس على حفظ القرآن وتلاوته وفهمه والعمل به والاعتصام به، واهتم بالتفسير ونقد طرق التفسير ومناهجه العتيقة، وسار على نهج العلماء الراسخين في فهم القرآن الكريم، واستنبط الاحكام منه، واهتم بتفسير القرآن بالقران، وتفسير القرآن بالسنة.

94 . من خصائص تفسير ابن باديس أنه سلفي النزعة وعلمي المنهج.

95 .كان ابن باديس شديد الاحتفاء بالسنة النبوية الشريفة واهتم بها وقام بدعمها وتوطيد بنيانها، ووصل ليله بنهاره من أجل التمكين لها والذود عنها تقرباً إلى الله وخدمة للأمة، واعتبرها بعد القرآن الكريم من أهم مصادر التشريع والدعوة، ومن خلالها علاج كثير من أخطاء المجتمع، كحق النساء في التعليم، وتصحيح النوايا في الأعمال، واستنبط منها الكثير من الأحكام والفوائد والعبر والدروس.

96 . وضع ابن باديس مجموعة من الضوابط لفهم سليم للحديث النبوي الشريف كفهم السنة النبوية لفهم القران، والتناول الموضوعي للأحاديث والابتعاد عن القراءة الجزئية للنص، ومراعاة الملابسات الزمانية والمكانية.

97 . اهتم ابن باديس بالعقيدة وكان يرى أن أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي (ص)، وعمل ابن باديس على تخليص دروس العقائد من المصطلحات المعقدة والقياسات المنطقية، وعاد إلى طريقة القرآن في العرض والمحاجة.

98 . اعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في تعاليم العقائد للأمة، وحذر من علم الكلام، وأرشد إلى الاستفادة من تجارب العلماء الكبار في هذا المضمار كإمام الحرمين الجويني والفخر الرازي.

99 . أقام ابن باديس مشروعه التجديدي الإصلاحي الدعوي التربوي على تطهير الإسلام من كل البدع والخرافات والشوائب والأضاليل التي ألصقت به كذباً وزوراً، وعمل على بناء الإنسان القرآني من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح وبذل جهوداً عظيمة على محاربة أنواع الشرك وتحذير الناس منها بالحكمة والموعظة الحسنة.

100 . اهتم العلاّمة ابن باديس بالسنن واعتبرها من أهم الهداية القرآنية للإنسان المسلم، فتحدث عن سنة الله في تغيير النفوس، واعتمدها في مسيرته التعليمية والتربوية، ووضح سنة الأخذ بالأسباب المعنوية والمادية، وعمل بها في حياته، من تعليم الناشئة والتدريس في المساجد للصغار والكبار وبناء المدارس والمعاهد، والانفتاح على النوادي وتأسيس الجمعيات الخيرية وعقد المؤتمرات العامة والدعوة إليها، ومخاطبات الجماهير والاتصال بهم واستخدام وسائل الإعلام المتاحة كالصحافة، وغير ذلك من الأسباب واهتم بالمرحلية والتدرج، واستوعب سنة الابتلاء، وأخذ بسنن التمكين وعوامله ومراحله وأهدافه.

101 . اهتم ابن باديس بالفقه المالكي وجعل مادة الفقه مادة أساسية في دروسه العلمية، كالموطأ للإمام مالك بن أنس ومختصر خليل وشروحه ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ومتن ابن عاشور وشروحه، وكان يرى بالنسبة للطلاب والعلماء وجوب التفقه في الكتاب والسنة والرجوع للدليل، وكان من أبعد الناس عن التعصب المذهبي.

102 . رفع ابن باديس صوته عالياً بالدعوة إلى ممارسة الاجتهاد ممن استكمل تحصيل أدواته وتحققت فيه شروطه، ذلك أن الاجتهاد هو الذي يكسب الفقه الإسلامي حركية ومرونة وينفي عنه صفتي الجمود والانغلاق.

103 . اهتم بالمنهج التعليمي وقام بإصلاح التعليم وطرح أفكاراً تتعلق بمناهج التعليم وطرق التدريس،

ووضع مناهج تجديدية لإعداد المعلمين والخطباء، فقد كان مشروعه التعليمي هدفه إحداث تغيير شامل في العقول والأفكار والنفوس وفي المحيط الثقافي ؛ حتى يستجيب هذا التغيير لمتطلبات الكفاح من أجل إثبات الذات والدفاع عن الكيان ودرء الأخطاء المحدقة بشخصية المجتمع.

104 . من أهم مؤسسات التعليم المدرسي التي أشرف عليها ابن باديس مدارس جمعية العلماء، التي انتشرت في مختلف جهات الوطن بفضل الله ثم جهود المخلصين من أبناء هذا الشعب، وخضعت هذه المدارس لنظام إداري متكامل ملبي لظروف المرحلة.

105 . استطاع ابن باديس أن يربي أجيالاً من الجزائريين، كانت أساساً لنهضة الجزائر الحديثة، فقد أدرك منذ البداية أنه ما من أمة يمكن أن تنهض نهوضاً حقيقياً إلا عن طريق التربية والتعليم، وأن هذه التربية لا تكون مجدية إلا على أساس من العقائد وتقويم الأخلاق الذي يؤدي إلى تطابق الباطن مع الظاهر، فالأخلاق تنبع من أعماق الضمير المتدين لا من قهر المجتمع، فصوت الضمير أقوى من مئات القوانين والأحكام.

106 . اهتم ابن باديس بالجانب الروحي وحرص على غرس معاني الإيمان في نفوس من يحضر له في دروسه، فكان يربي الناس على الأذكار وتلاوة القرآن والصيام والصلاة والزكاة، واهتم بالأمور التي تغذي الإيمان وتهذب السلوك المستمدة من الكتاب والسنة، وكان يستخرج الفوائد التربوية من الآيات القرانية.

107 . عمل ابن باديس على إحياء الأخلاق الإسلامية في المجتمع الجزائري وكان منهجه في التربية الأخلاقية يعتمد على بساطة الأسلوب والابتعاد عن المصطلحات الفلسفية المعقدة، ويتعمق في شرح الآيات القرآنية الهادفة لتزكية النفس وتطهيرها من الأخلاق السيئة، وتميز الفكر التربوي الأخلاقي عند ابن باديس بالملامح الاتية: الاهتمام بالإنسان كهدف رئيسي عام، علماً وعملاً، وفكر وسلوكاً، وشمولية الإصلاح التربوي.

108 . حرص ابن باديس على صياغة القيم والفضائل الأخلاقية في صورة منهجية وفق قواعد عامة معروفة، ثم صورة نداءات ووصايا يمكن أن تتحول إلى قالب تعليمي وإرشادي يسهل التعريف به والدعوة إليه، وكان يردد تلك النداءات في محاضراته ومقالاته وتفسيراته وأثناء رحلاته أيضاً، فاستطاع أن يحول قيم الرحمة والعدل والمساواة والحق والصدق والحب والتسامح وغيرها إلى برنامج عملي إصلاحي، أو نظرية متكاملة في كيفية إصلاح الإنسان وبنائه وتقويمه، وقدمها كنموذج للأخلاق العملية التي تقوم على أساس ديني واجتماعي.

109 . وضع ابن باديس مجموعة من القواعد الواجبة الالتزام والتنفيذ كإطار عام لمنهجه في التربية الأخلاقية:

**القاعدة الأولى**: الالتزام بالمنهج القراني.

**القاعدة الثانية**: الجمع بين النظر والعمل.

**القاعدة الثالثة**: الصدق.

**القاعدة الرابعة**: المطابقة بين الظاهر والباطن.

**القاعدة الخامسة**: المطابقة بين العلم والدين.

110 . رأى ابن باديس أن المدخل لتحقيق الإصلاح الاجتماعي الشامل هو تحقيق الوعي القائم على العلم والفضيلة لكافة طبقات الشعب، وأن هذا الوعي هو السبيل لانتشار الأخلاق واستلهام القدوة الصالحة في كل مجال، والمثل الأعلى الأخلاقي لمواجهة نواحي النقص وعلاج المفاسد الاجتماعية ومواجهتها والقضاء عليها، وفي مقدمتها الجهل والجمود وما يتبعها من مفاسد وتخلف.

111 . أدرك ابن باديس أن المجتمع لا يستطيع أن يتقدم إلى الإمام وشطر منه يقبع في ظلمات الجهل، كما أدرك أن التعليم الفرنسي سيؤدي إلى تكوين جيل لا ينتمي إلى الجزائر وفكرها وعقيدتها. وقد كتب ابن

باديس كثيراً عن هذا المجال حيث كتب في إحدى مقالاته مؤكداً أن البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتها من رجالنا، معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهن. وقد اهتم ابن باديس اهتماماً كبيراً، بتعليم المرأة وتدريسها وتربيتها على كتاب ربها وسنة نبيها، واهتم في خطابه بالأسرة وأعطى لها اهتماماً فائقاً واهتماماً كبيراً.

112 . تدخل عناية ابن باديس بالشباب في إطار اهتمامه العام بمجموع أفراد المجتمع الجزائري، وطبيعي أن يتوجه هذا الاهتمام في نطاق النهضة إلى عنصر الشباب أكثر من غيره بما ينتظر أن يقوم به من نشاطات في هذا المشروع، بسبب ما تميزت به من قوة في الإدارة وصدق العزيمة وثقة في المستقبل، فهو عدة الأمة وحادي قافلة نهضتها وحامل مشعل تطلعاتها إلى أهدافها في التحرر والتقدم.

113 . وتمتد عناية ابن باديس بالشباب إلى الكشافة الإسلامية الجزائرية، فكانت تربطه بها صلة متينة فكان رئيساً شرفياً لأول مؤتمر كشفي ينعقد بالجزائر سنة 1930م. كما كان رئيساً مؤسساً لفوج «كشافة الرجاء سنة 1935م.

114 . وكانت تربط ابن باديس بالجمعية الرياضية «المولودية» صلة وثقى يكاد يعرفها العام والخاص، فكان يشجعها ويحرص على توجيه عناصرها دينياً وأخلاقياً.

115 . اهتم ابن باديس بالتربية العقلية وأنواعها، والتربية المعرفية، والمعرفة الفطرية والغيبية وغيرها.

116 . اهتم بمقومات الشخصية الجزائرية وصاغ على أساسها شعارها المعروف الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا.

117 .كان للشيخ عبد الحميد بن باديس أثر كبير في تحطيم الأسوار التي بنتها فرنسا حول الجزائر، فكانت أول ضربة معول في هذا السور رحلة الشيخ عبد الحميد تلميذاً إلى تونس، وهناك اتصل بعلماء الزيتونة تلميذاً وتلقى عنهم زيادة على ما في الكتب ما عرفوه من أحوال العالم الإسلامي وما يموج فيه من تيارات

فكرية وحركات إسلامية تحاول النهوض به وإقالته من عثاره

118 . ساند ابن باديس حركات التحرر في العالم الإسلامي كثورة عبد الكريم الخطابي بالمغرب، وجهاد الشعب الليبي ضد إيطاليا، وتحدث عن استشهاد عمر المختار، ودافع عن قضية فلسطين وشعبها وحمّل فرنسا مسؤولية ظلمها وتعسفها ضد الشعب السوري، واهتم بأخبار المسلمين في روسيا.

119 . اهتم ابن باديس بالأحداث الفكرية والأدبية والثقافية بالمشرق، وتابع أخبارها وكتب عن رموزها كأمير الشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وترجم لهم في حفل تأبينهم بالجزائر، وتحدث عن وفاة الشيخ محمد رشيد وعن حياته العلمية والدعوية ونصرته للإسلام والمسلمين وأفكاره التجديدية وحفظه لتراث الشيخ محمد عبده، وكذلك عن الشيخ محمد بخيت المطيعي المفتي الشهير.

120 . تحدث عن أسس قيام الدولة العربية الموحدة، وبين أنها محكومة بمجموعة من الأسس والأطر، كالإطار الخلقي والإطار الجغرافي والسكاني والاجتماعي والديني والسياسي.

121 . حدد ابن باديس خصائص الدولة العربية الموحدة وبين أنها دولة فاضلة، ودولة تعاون ومشاركة وعلم ومدنية.

122 . وحدد وظائف الدولة العربية الموحدة، من كونها تمتلك وسائل القوة لتحقيق العدل، والسعي لتحقيق الأمن والسلام الاجتماعي وحفظ الأموال باحترام الملكية والمحافظة على التراث ومكوناته والسعي لتحقيق الحرية والاستقلال.

123 . اهتم ابن باديس في تصوره للدولة الحديثة بإبراز عوامل البناء والهدم وأطوار تطور الأمم، والمراحل التي تمر بها وأسباب تقدمها وعوامل انهيارها، وقد استعرض هذه الأطوار من خلال تفسيره للايات القرآنية التي تعرضت لتطور الحياة والكون والإنسان وواقع الأمم الماضية والحاضرة.

124 . بيّن ابن باديس أصول الولاية في الإسلام من خلال شرحه لخطاب أبي بكر لما تولى الرئاسة.

125 . تحدث ابن باديس عن مسألة إلغاء الخلافة العثمانية، وبين نظرته للكماليين، وموقفه من الخلافة الإسلامية القائمة وعرض بديلاً عن الخلافة القائمة، ووضح الفرق بين الدولة السنية والدولة الطرقية.

126 . دعا مع مجموعة من الزعماء الوطنيين إلى عقد المؤتمر الإسلامي، واستطاعوا تشكيل جبهة عريضة، وتم الاتفاق في ذلك المؤتمر على مطالب وطنية، وذهبوا إلى فرنسا للمطالبة بها، ولكن فرنسا كعادتها لم تلبِّ تلك المطالب العادلة.

127 . نافح ابن باديس ودافع عن حق شعبه في الحرية واعتبرها طبيعية في الوجود وحق شرعي لكل إنسان، والإنسان هو إنسان مادام يتمتع بالحرية، وكان يحترم التعددية وحرية التعليم والحرية السياسية وحرية الرأي والتعبير.

128 . استعمل عبد الحميد بن باديس في العديد من مواضيع شعره ونثره كلمات وعبارات تحمل دلالات ثورية وتحررية، استعملها من أجل بث الحماسة في نفوس من يخاطبهم بخطبه ويلقي عليهم ما نظمه من قصائد، فكانت بدورها دالة على الفكر الثوري التحرري في شخصيته.

129 . لم يكن ابن باديس يتحرج أبداً من الإفصاح عن الهدف الاستراتيجي البعيد من وراء حركته الجهادية لتلاميذه، وهو استقلال بلاده ولكن ما يقوم به هو وضع الأساس المتين لثورة شعبية عارمة ضد الغزاة.

130 . عاش ابن باديس للفكرة والمبدأ واستمر يواصل الجهاد العلمي والاجتماعي والسياسي يعلم ويرشد ويعظ وينظم ويدرب ويتنقل بين القرى والمدن، ولم يهدأ له بال لا بالليل ولا بالنهار، ولم يشفق على نفسه ولا على جسمه، ولم يبال بصحته في سبيل مبدأ أعظم، أفنى في سبيل عقيدة وقضى من أجل رسالة حتى أنه أصيب بداء السرطان في الأمعاء وقيل سل العظام، ومع كل هذا كانت إقامته قبل وفاته محددة من طرف الإدارة الاستعمارية في مدينة قسنطينة، ليس له أن يبرحها إلى غيرها من نواحي البلاد، مما جعل وفاته غير طبيعية.

131 . رثاه الشاعر محمد العيد ال خليفة بقصيدة ارتجلها عندما وقف لأول مرة على قبره، قال فيها:

| | |
|---|---|
| يا قبر طبت وطاب فيك عبير | هل أنت بالضيف العزيز خبير |
| هذا ابن باديس الإمام المرتضى | عبد الحميد إلى حماك يصير |
| العالم الفذ الذي لعلومه | صيت بأطراف البلاد كبير |
| بعث الجزائر بعد طول سباتها | فالشعب فيها بالحياة بصير |

**«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»**

# فهرس الكتاب

**المبحث الثاني**

**الشيخ العلاّمة عبد الحميد بن باديس**

**المبحث الثالث**

**جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**

## كتب صدرت للمؤلف

1 . السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

2 . سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

3 . سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

4 . سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

5 . سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

6 . سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.

7 . الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

8 . فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.

9 . تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

10 . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

11 . عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

12 . الوسطية في القرآن الكريم.

13 . الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

14 . معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

15 . عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

16 . خلافة عبدالله بن الزبير.

17 . عصر الدولة الزنكية.

18 . عماد الدين زنكي.

19 . نور الدين زنكي.

20 . دولة السلاجقة.

21 . الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22 . الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23 . الشيخ عمر المختار.

24 . عبد الملك بن مروان وبنوه.

25 . فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26 . حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27 . وسطية القرآن في العقائد.

28 . فتنة مقتل عثمان.

29 . السلطان عبد الحميد الثاني.

30 . دولة المرابطين.

31 . دولة الموحدين.

32 . عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33 . الدولة الفاطمية.

34 . حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35 . صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36 . استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ص) دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41. الشورى في الإسلام.

42. الإيمان بالله جل جلاله.

43. الإيمان باليوم الاخر.

44. الإيمان بالقدر.

45. الإيمان بالرسل والرسالات.

46. الإيمان بالملائكة.

47. الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

48. السلطان محمد الفاتح.

49. المعجزة الخالدة.

50. الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها.

51. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52. التداول على السلطة التنفيذية.

53. الشورى فريضة إسلامية.

54. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير، وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57. العدل في التصور الإسلامي.

58. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59. الأمير عبد القادر الجزائري.

60. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس . الجزء الثاني ..

61. سنة الله في الأخذ بالأسباب.

* * *